

عصر الإمبراطورية

كيف تتربع القوى المطلقة على عرش العالم وأسباب سقوطها

إيمي شوا

نقله إلى العربية

أ.د. منذر محمود صالح محمد







رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية, ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج (ترجم)، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الإستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة, التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج (ترجم) والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة:

www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم - كما أراد لها مؤسسها - إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.



عصر الإمبراطورية

كيف تتربع القوى المطلقة على عرش العالم، وأسباب سقوطها

عصر الإمبراطورية

كيف تتربع القوى المطلقة على عرش العالم، وأسباب سقوطها

إيمي شوا

نقله إلى العربية

د. منذر محمود صالح محمد



Original Title

DAY OF EMPIRE
HOW HYPERPOWERS RISE TO GLOBAL DOMINANCE-
AND WHY THEY FALL

AMY CHUA

ISBN 978-0385-51284-8

Published by Doubleday, an imprint of the Doubleday Broadway Publishing Group, a division of Random House, Inc., New York, (U.S.A.)

العبيكان Obeikan 2009 - 1430

ISBN 978-9960-54-819-7

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف 2937574 - 2937581 فاكس: 2937588 ص. ب: 67622 الرمز: 11517

الطبعة العربية الأولى 1431 هـ 2010 م

ح مكتبة العبيكان، 1430هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شوا، ايمي

عصر الامبراطورية./ ايمي شوا؛ منذر محمد صالح.- الرياض، 1430هـ

524 ص؛ 16.5 * 24 سم.

ردمك: 7 - 819 - 54 - 9960 - 978

1. السياسة الدولية - فلسفة 2. السياسة الدولية -نظريات

أ. صالح، منذر محمد (مترجم) ب. العنوان

ديوي 327.101 1430 / 5653

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان Obeikan



امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩ ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥



الإهداء

إلى جيد، وصوفيا، ولويزا

المحتويات

مدخل

يمثل والدي صورة الأمريكي النموذجي. ينحدر هو ووالدتي من أصول صينية، لكنهما ترعرعا في الفيليبين. كانا ما يزالان 'طفلين عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وعاشا في ظل الاحتلال الياباني إلى أن قام الجنرال دوغلاس ماكارثر بتحرير الفيليبين سنة ١٩٤٥م. يتذكر والدي كيف كان يركض خلف سيارات الجيب الأمريكية وهو يلوح لها بكثير من الحماس، بينما كان أفراد القوات المسلحة الأمريكيين يرمون له بعلب من اللحم النيئ من دون مقابل.

كان والدي الابن الضال في العائلة. كان بارعاً في الرياضيات، وعاشقاً لعلم الفلك والفلسفة؛ وكان يكره ذلك العالم الصغير الذي يعج بالمؤامرات والطعن في الظهر، والذي يلف المهنة التي امتهنتها العائلة في مجال تصنيع علب الألمونيوم؛ وقد رفض كل المشروعات التي رتبتها له العائلة. كانت تستحوذ على تفكيره لهفة مفرطة للسفر إلى أمريكا حتى في مراحل صباه الأولى، ولذلك فقد اعتبر أن حلمه قد تحول إلى واقع عندما قبل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا(MIT) طلبه للدراسة فيه. وصل والداي إلى بوسطن سنة ١٩٦١م، ولم يكونا يعرفان أي شخص في تلك البلاد. ونظراً لأن المنحتين المقدمتين لهما كانتا تمثلان موردهما الوحيد، فإنه لم يكن باستطاعتهما توفير حتى نفقات التدفئة، وكانا في أول فصليْ شتاء أمضياهما في بوسطن، يلفان جسديهما بالبطانيات للحصول على شيء من الدفء.

وباعتبار أننا ترعرعنا في الغرب الأوسط، كنت أنا وأخواتي الثلاث الأصغر مني سناً نشعر دائماً بأننا نختلف عن الجميع في ذلك المكان. كنا نشعر بالكثير من الإحراج ونحن نحضر معنا طعاماً صينياً في ترامس إلى المدرسة؛ كم كنت أتمنى لو كان باستطاعتي تناول شطيرة من السجق مثل الآخرين! كان مطلوباً منا التحدث باللغة الصينية في المنزل - كانت العقوبة تتمثل في تلقي ضربة واحدة، ولكنها مؤلمة

بواسطة واحد من عيدان الطعام مقابل كل كلمة ننطقها باللغة الإنجليزية من دون قصد. كنا نتدرب على دروس الرياضيات والبيانو عصر كل يوم، ولم يكن من المسموح لنا البتة النوم في بيت أي من أصدقائنا. وعندما كان والدي يعود إلى المنزل من عمله كل مساء، كنت أخلع له نعليه وأحضر له خفيه. كان لا يجوز أن تشوب البطاقات التي تتضمن تقاريرَ حول أدائنا الدراسي أية شائبة. وفي الوقت الذي كان زملاؤنا يكافَؤون من قبل أهاليهم لو حصلوا على تقدير جيد، فقد كان من غير المسموح لنا حتى التفكير بأقل من تقدير ممتاز. عندما كنت في الصف الثاني الإعدادي، حصلت على المرتبة الثانية في مسابقة في مادة التاريخ؛ اصطحبت عائلتي إلى الحفل الذي توزع فيه الجوائز على الفائزين. كان طالب آخر قد حاز على جائزة "كيوانيس" لأفضل طالب في التحصيل العام. بعد انتهاء الحفل، قال لي والدي:«'لا تلحقي بي مثل هذا العار ثانيةً، أبداً، أبداً».

عندما يطلع أصدقائي على هذه القصص، فإنهم غالباً ما يتصورون أن طفولتي كانت تجربة مريعة؛ لكن هذا غير صحيح على الإطلاق؛ فقد منحتني عائلتي إحساساً بالقوة والثقة. فقد بدأنا حياتنا في أمريكا كغرباء معاً، واكتشفنا أمريكا معاً، وفي غضون ذلك، أصبحنا أمريكيين. أذكر أن والدي كان يعمل حتى الساعة الثالثة فجراً كل ليلة؛ وكان غارقاً في عمله لدرجة أنه لم يكن ينتبه لدخولنا إلى الغرفة. لكنني أذكر أيضاً كم كان متحمساً عندما بدأ يصطحبنا لتناول أطعمة مثل التاكو، وسلوبي جوز، وديري كوين، ومطاعم "كُلْ قدْرَ ما تستطيع" وهي عبارة عن بوفيه مفتوح؛ ناهيك عن ممارسة رياضة التزلج على الجليد، والتزلج على الثلج، وصيد السراطين، والتخييم. أذكر أن صبياً في المدرسة كان يقوم بإشارات يتندر فيها على عينيّ المائلتيْن، وكان يقهقه ساخراً وهو يقلد الطريقة التي كنت ألفظ فيها كلمة "مطعم"؛ قطعت على نفسي عهداً حينها أن أتخلص من لكنتي الصينية. لكنني أذكر كذلك بنات الكشاف، وحفلات رقص "الهولا هوب"، والمسابقات الشعرية، والمكتبات العامة، والفوز في مسابقة أفضل مقالة حول بنات الثورة الأمريكية، وذلك اليوم الأغر الذي احتفل فيه والداي بمناسبة حصولهما على الجنسية الأمريكية.

لم يكن مرحباً بالآسيويين دائماً في الولايات المتحدة شأنهم في ذلك شأن الكثير من مجموعات أخرى من المهاجرين. سنة ١٨٨٢، أصدر الكونغرس قانون استثناء الصينيين، منع بموجبه ذوي الأصول الصينية - إضافة إلى العاهرات والمجرمين والمصابين بمرض الجذام - من دخول البلاد. وحتى أثناء الحرب العالمية الثانية، أي في الوقت الذي كان والدي يلوح للقوات الأمريكية في مانيلا ملوحاً، أيدت المحكمة العليا في الولايات المتحدة سياسة الحكومة المتضمنة إجلاء الأمريكيين من أصول يابانية من منازلهم واقتيادهم إلى معسكرات اعتقال.

في أواخر ستينيات القرن العشرين، أزالت الإصلاحات القانونية الكثير من الحواجز التي نصبت في وجه المهاجرين. بالنسبة لوالدي وللكثيرين من أمثاله من القادمين الجدد الذين وصلوا خلال تلك الحقبة، فقد تمت ترجمة التصميم والجهود الكبرى التي بذلوها إلى نجاح. حصل والدي على شهادة الدكتوراه في أقل من سنتين، وتم تعيينه بوظيفة مدرس في سن الواحدة والثلاثين، كما حاز على سلسلة من الجوائز في مجال الهندسة على الصعيد الوطني. في سنة ١٩٧١م، قبل والدي عرضاً مقدماً من جامعة بيركلي في ولاية كاليفورنيا؛ ومن ثم، فقد حزمنا أمتعتنا وتوجهنا غرباً. أطال والدي شعره وبدأ يلبس سترات مطبوعة عليها إشارات تتعلق بالسلام. بدأ بعدها يبدي اهتماماً باقتناء زجاجات الخمور، وبنى لنفسه قبواً يتسع لألف زجاجة خمر. وبعد أن أصبح إنتاجه العلمي حول نظرية الفوضى معروفاً على الصعيد العالمي، بدأنا نسافر إلى أماكن شتى في العالم. قضيت سنتي الدراسية الأولى في مرحلة الدراسة الثانوية في كل من لندن وميونيخ ولوزان، كما اصطحبنا والدي معه في رحلة إلى الدائرة القطبية.

مع ذلك، كنا دائماً نعيش التناقضات: حول من نكون، ومن لا نكون، والمفترض أن نكون. حتى عندما كنا ننصهر في بوتقة الحياة الأمريكية، لدرجة أننا كنا نمثل الولايات المتحدة في الخارج، لم يكن والدانا يسمحان لنا بنسيان حقيقة أننا صينيون - ليس من الناحية التراثية وحسب، بل من ناحية الانتماء الطبيعي أيضاً.

كان من بين أول الأشياء التي تعلمتها بوصفي طفلة، الاختلاف بين الشخص الصيني، أي المنتمي إلى الغالبية العرقية في الصين "الهان" Han، وأي شخص آخر. كان دائماً ما يتم تعريف أي شخص صيني، سواء في العصر الحديث أو منذ آلاف السنين، بالمقارنة مع "الهمجي الأجنبي". زد على ذلك، كان من المسلم به داخل عائلتي أن الانتماء إلى الغالبية من عرق "الهان" هو أمر لا يمكن تعلمه أو اكتسابه من خلال عملية المثاقفة. فالإنسان الأبيض - مهما بلغت نسبة طلاقته في اللغة الصينية، وبغض النظر عن المدة التي عاشها في الصين - لا يمكن أن يصبح من عرق "الهان". غالباً ما كانت والدتي تتحدث عن عظمة التاريخ الصيني الذي يمتد نحو خمسة آلاف سنة، وعن تفوق الثقافة الصينية. كانت تتحدث أيضاً عن "نقاء" الدم الصيني، وكم هو مخزٍ أن يتسبب المرء في ذوبانه في دم آخر. أقذع إهانة يمكن أن تستخدم في لغتي الأصلية التي تسمى "هوكين Hokkien" تتمثل في التلفظ بعبارة "تزوب جينغ Tzup Jeng"- وتعني حرفياً "منحدر من عشر سلالات"؛ وربما تعتبر كلمة "الهجين، أقرب مرادف لها باللغة الإنجليزية.

في حقيقة الأمر، لم تكن فكرة وجود دم "نقي" لعرق"الهان" أسطورة عظيمة وحسب، بل هي أسطورة حديثة العهد نسبياً. فمعيار الانتماء إلى الصين على امتداد تاريخها الطويل هو أكثر تعقيداً بكثير مما يرغب البعض في الإقرار به عادة. مع ذلك كنت أعاني من فكرة وضع مفهوم "الهجين الهمجي الأجنبي" في أمريكا موضع التطبيق. فالجميع هنا على ما يبدو، ينحدرون من سلالات مختلطة؛ فأفضل صديقاتي، وهي من ولاية إنديانا منحدرة من مزيج من أصول اسكتلندية - أيرلندية - إنجليزية - هولندية - ألمانية. وماذا عن الجنود الأمريكيين الأبطال الذين قاموا بتحرير الفيليبين؟ ألم يكونوا من الهمجيين؟ وإذا كانوا كذلك، فهذا يعني أنه ليس من المعيب أن يكون المرء هجيناً.

لم يكن هناك ما يكفي من الوقت للقيام بتحليل هذه الأسئلة. وبدلاً من ذلك، أصدر والدي أحكاماً قاطعة من مثل: "لن تتزوج أي منكن من رجل غير صيني إلا على جثتي"، هذا ما هدد به عندما كنت ما أزال في الرابعة من عمري. وعندما

حان الوقت الذي كنت سأتقدم فيه بطلب انتساب إلى الجامعة، أعلن والدي أنني سألازم المنزل وأنتسب إلى جامعة بيركلي (حيث كنت قد حصلت على قبول منها)، وكان هذا هو نهاية الأمر - إذ لا زيارات إلى الحرم الجامعي، ولا خيارات أمامي سوى المؤلمة منها. ولكن كما شق عصا الطاعة لعائلته، فقد شققت عصا الطاعة له؛ إذ قمت بتزوير توقيعه وتقدمت بطلب انتساب إلى إحدى الجامعات في الساحل الشرقي والتي كنت قد سمعت الناس يثنون عليها. عندما أبلغته بما فعلت - وأن جامعة هارفارد منحتني قبولاً للدراسة فيها - أدهشتني ردة فعله. فقد تحولت ردة فعله بين ليلة وضحاها من الغضب إلى إحساس بالفخار. وتجدد هذا الإحساس بالفخار عندما تخرجت في كلية الحقوق في جامعة هارفارد، وكذلك عندما تخرجت ابنته الثانية في كلية الحقوق في جامعة يال. أكثر مرة شعر فيها بالفخار (ربما مع قليل من انفطار في القلب) كان عندما تركت ابنته الثالثة المنزل للالتحاق بجامعة هارفارد حيث نالت من هناك شهادتيْ الماجستير والدكتوراه.

قبل التحاقي بالجامعة بمدة قصيرة، قمت بزيارة الصين للمرة الأولى. قضيت مع عائلتي صيف سنة ١٩٨٠م في مدينة شينغدو، عاصمة إقليم سيشوان. كانت الصين حينها بلداً شيوعياً متخلفاً تعاني من عزلة على امتداد عقود من الزمن فرضها رهاب الخوف والنفور من الأجانب، ومن عمليات التطهير ضد المثقفين في زمن الثورة الثقافية. مدينة شينغدو التي كان يطلق عليها ذات يوم وصف المدينة المزركشة بسبب إنتاجها من الحرير الرائع، تحولت إلى مدينة من الخرسانة القبيحة بنيت على النمط الماوي. وكان مضيفنا - الذي يشغل منصب رئيس معهد التقانة والهندسة، في حقيقة الأمر- فلاحاً غير متعلم. ففي أثناء الوليمة التي أعدت للترحيب بنا، تناثرت كمية من بذور البطيخ مباشرة من فمه على أرضية المطعم الدَّبِقة. بعدها بكت والدتي. هل هذا كل ما تبقى من الحضارة الرائعة للمملكة في العصر الوسيط؟

حدث الكثير من التحولات طيلة الخمس والعشرين سنة الماضية - في العالم،

كما في الصين، وفي عائلتي. فبالرغم من معارضة والدي المبدئية الشديدة، انتهى الأمر بي إلى الزواج من يهودي أمريكي. الآن، علاقة والدي وزوجي على أفضل ما يرام، كما أن والديّ لم يعد بإمكانهما التعبير أكثر عن ولعهما بأحفادهما الأمريكان الذين تجري في عروقهم دماء مختلطة ويتحدثون الإنجليزية بلكنة صينية.

هذا الكتاب هو لفتة تقدير وعرفان لمبدأ التسامح في أمريكا الذي - وبالرغم من كل عيوبه - كان هو ما جذب والديّ إلى هذه البلاد، وجعل من الممكن لعائلتي أن تحسن أوضاعها، وأن تتغير هذه الأوضاع إلى الأفضل بشروطنا، وبقرارنا نحن، وأن نصبح أمريكيين. وهو، في نفس الوقت، دراسة حول السلطة - السلطة الهائلة - والأسباب التي تهيئ لبعض المجتمعات حيازتها والمحافظة عليها. ولكن من زاوية أخرى، يدور الكتاب حول الصراع بين "النقاء" العنصري من جهة، وبين التعددية العرقية من جهة أخرى، حيث إن لكل منهما إغراءاته وفاعليته. أخيراً، هذا الكتاب هو صرخة تحذير. النقطة التي تشكل المدخل للنقاش تتمثل في أن التسامح كان دائماً السر الحقيقي وراء نجاح أمريكا، واليوم، أكثر من أي وقت مضى، نحن نواجه خطر أن نضل طريقنا.

مقدمة

سر السيطرة على العالم

كم يتغير العالم بسرعة. كانت الولايات المتحدة في الثمانينيات من القرن العشرين مجرد قوة عظمى يقابلها منافس أوتوقراطي يسهل الإحساس بالكره تجاهه. بعد عشر سنوات، تربعت الولايات المتحدة على عرش العالم من دون منازع. أما السيطرة الأمريكية على العالم فقد بدا وكأنه لا حدود لها تقريباً. واليوم، وبعد الإخفاقات المريعة في العراق، وفي مواجهة إعصار كاترينا، فقد بدأ الناس يتحدثون عن أفول نجم أمريكا.

أول ما ارتبطت عبارة "القوة المطلقة" بالولايات المتحدة، لم يكن المعنى المقصود منها إيجابياً. وكان وزير الخارجية الفرنسي آنذاك، هوبرت فيدرين - الذي كان يُعد من أشد المنتقدين للولايات المتحدة - هو أول من صاغ تلك العبارة عندما أعلن أن فرنسا «لا يمكن لها قبول عالم وحيد القطب من الناحية السياسية، أو عالم تحت مظلة ثقافة واحدة، أو أحادية قوة مطلقة وحيدة». وبالرغم من أن فيدرين استعمل عبارة "القوة المطلقة" بشكل تقريعي، فإنه وضع يده على تطور تاريخي ذي أهمية قصوى. فالولايات المتحدة - كما وصفها فيدرين - أصبحت «مسيطرة أو مهيمنة في كل المجالات»: لقد تجلى التفوق الأمريكي ليس في المجالات الاقتصادية والعسكرية والتقانية وحسب، بل تعداها أيضاً «إلى الممارسات والمفهومات واللغة وكل مناحي الحياة» [1].

أما اليوم فلم تعد مقولة «أمريكا متفوقة في كل المجالات» صالحة أو صحيحة. ما تزال أمريكا قطب الرحى بالنسبة للعالم على الصعيدين الاقتصادي والعسكري، إلا أنها محاصرة على عدة جبهات، وبدأت ثقتها بنفسها تهتز، كما تعرضت سمعتها

لعدة كدمات، واستنزفت مئات المليارات من مواردها المالية في حرب قد لا تنتصر فيها. في عين الوقت، هناك قوى بدأت بالظهور والمنافسة كي تتبوأ موقعاً متقدماً ينافس الولايات المتحدة. فالاتحاد الأوروبي على سبيل المثال ليس أكبر سكانياً وحسب، بل يعتبر إجمالي إنتاجه المحلي معادلاً تقريباً لإنتاج الولايات المتحدة. أما الصين التي يقطنها خمس سكان العالم، فإن قوتها الاقتصادية بلغت أوجها بعد قرون من الركود. هل سيكون بإمكان الصين والاتحاد الأوروبي وبعض المنافسين الآخرين - مثل الهند على سبيل المثال - تخطي الولايات المتحدة، أو على الأقل امتلاك ما يكفي من القوة لإعادة تشكيل نظام عالمي متعدد الأقطاب؟

أن تستطيع أمريكا المحافظة على موقعها كقوة مطلقة، أو أن يفرض عليها التَّخلي عن هذا الموقع، مسألة لها انعكاساتها الهائلة على العالم، وكذلك على الولايات المتحدة نفسها. هل العالم بحاجة في القرن الحادي والعشرين إلى «إمبراطورية أمريكية»، كما يتساءل المؤرخ البريطاني نيل فيرغيسون، وذلك لمعالجة المعضلات الناجمة عن الإبادة الجماعية، والدول المارقة، «والمنظمات الإرهابية التي أخذت على عاتقها مهمة تدمير نظام العالم الحر؟»[٢] أم هل تعتبر أمريكا قوة مطلقة، تهديداً للسلام العالمي والاستقرار الكوني، كما يعتقد آخرون؟[٣] ولكن إذا ما أخذنا المسألة من منظور الولايات المتحدة، هل يعني الأفول الأمريكي مزيداً من البطالة، وانكماشاً أكثر حدة في مستوى المعيشة، وهل يعني أن الولايات المتحدة ستكون أكثر عرضة لهجمات تأتي من الخارج؟ أم هل أن دور أمريكا بصفتها قوة مطلقة سيودي بمستقبلها إلى مهاوي الإفلاس، ويثير عليها نقمة العالم، ويجعلها عرضة لهجمات إرهابية أكثر؟

يتناول هذا الكتاب موضوع القوى المطلقة - ليس موضوع القوى العظيمة، ولا حتى موضوع القوى العظمى، بل موضوع القوى المطلقة تحديداً. ألّفَ العديد من الكتاب كتباً حول الإمبراطوريات، القديمة منها والحديثة، الدكتاتورية منها والخيّرة[٤]. تعتبر الكتابة في موضوع نشوء الإمبراطوريات وسقوطها مزيجاً من المتعة المترافقة

بالإحساس بالمهابة، وذلك منذ عصر الإغريق القدامى. أشار ثوكيديدس إلى أن الديمقراطية كانت السبب في سقوط أثينا[٥]. اعتبر إدوارد غيبون أن المسيحية تحديداً كانت السبب الرئيس الذي أدى إلى أفول نجم روما [٦]. منذ عهد قريب، عزا بول كيندي سقوط القوى العظيمة إلى تمددها الإمبريالي المبالغ فيه، بينما حدد جاريد دايموند في كتابه الموسوم: "الانهيار Collapse" "تدمير البيئة" كمتهم رئيس أدى إلى هذا السقوط [٧]. كما أضحت الكتابة حول الإمبراطوريات والإمبريالية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، وغزو كل من أفغانستان والعراق، سواء من موقع التأييد أو الإدانة في واقع الأمر صناعة بحد ذاتها [٨].

لم يقم أحد حتى الآن بإجراء تحليل موضوعي للظاهرة الأكثر ندرة، والمتمثلة بالقوى المطلقة - لا يتجاوز عددها على امتداد التاريخ أصابع اليد إلا بالكاد- التي حشدت إمكانيات عسكرية واقتصادية هائلة تمكنت بواسطتها من السيطرة على العالم. تشكل هذه مجموعة خاصة لها صلة وثيقة بعالم اليوم، وما تزال دينامياتها الخبيئة تنتظر من يميط اللثام عنها. كيف يمكن لمجتمع أن يتحول ليس إلى قوة عظيمة وحسب، بل إلى قوة تسيطر على العالم بأسره؟ وعندما يتحقق لأي مجتمع مثل هذه السيطرة، ما الذي سيساعد في انهياره؟ من خلال استعراض ارتقاء القوى المطلقة وسقوطها على امتداد التاريخ، هناك الكثير من الدروس الحاسمة والعبر التي يجب استخلاصها، والتي تعكس أوجه الشبه والاختلاف بين الولايات المتحدة وأسلافها، بكل ما تحمله للقرن الحادي والعشرين من مضامين بعيدة المدى.

أطروحة هذا الكتاب هي الآتية: بالرغم من كل الاختلافات الهائلة بين القوى المطلقة على امتداد التاريخ، فإن كل واحدة من هذه القوى - وهذا يتضمن أي مجتمع يمكن وصفه بالمجتمع الذي استطاع فرض هيمنة عالمية - كانت على الأقل بمعايير زمانها، تتصف بتعددية وتسامح استثنائيين في المدة التي كانت ترتقي سلم التفوق. في كل واحدة من تلك الحالات، كان التسامح جزءاً لا يتجزأ من عملية فرض الهيمنة. من المدعاة للدهشة اكتشاف أن أفول نجم أي إمبراطورية ترافق

بشكل متكرر مع التعصب، ورهاب الأجانب، والدعوات إلى «النقاء» العنصري والديني والعرقي. هنا بيت القصيد: لقد زرع التسامح أيضاً بذور السقوط. ففي كل واحدة من تلك القضايا، كان التسامح يصل في المحصلة إلى نقطة حساسة تؤدي إلى إشعال فتيل الصراع والكراهية والعنف.

دعوني أبدأ هذه الأطروحة بتوضيح ما أعنيه بعبارة «القوة المسيطرة على العالم». إن محاولة وضع تعريف لهذه العبارة أمر يتطلب الكثير من الحذر، خصوصاً وأن العالم كان أكثر اتساعاً منذ ألفيْ سنة، أو حتى منذ خمسمئة سنة، وذلك قبل أن تقلصه السفن والطائرات والتكنولوجيا بشكل كبير. عندما كانت روما في أوج قوتها على سبيل المثال، كانت هي القوة المسيطرة على العالم - ولو لم تكن هي كذلك، فلا قوة أخرى يمكن أن تزعم ذلك - بالرغم من أن إمبراطورية عظيمة أخرى كانت حينها موجودة في الطرف الثاني من الكرة الأرضية، وأعني بها سلالة الهان في الصين والتي لم يكن لروما أي شكل من أشكال الاتصال بها. إذا كان المقصود هو أن روما كانت مسيطرة على عالمها - وهو العالم الذي عرفته واحتلته - ألا يجوز القول إن الأزتيكيين في المكسيك كانوا أصحاب السلطة والنفوذ في عالمهم، والأمر نفسه ينطبق على المصريين، وهكذا؟ ألا تعتبر تاهيتي قوة مطلقة في عالمها الصغير؟

من الواضح أن أي تعريف يتضمن في طياته اعتبار تاهيتي قوة مهيمنة على الصعيد العالمي هو تعريف فيه الكثير من التعميم. ولكن ما هو التعريف الصحيح؟ ما هو وجه الاختلاف بين روما من جهة، وبين شعب الأزتيك المكسيكي الذي وضع يده في أحد الأزمنة على أمريكا الوسطى، والذي لا يمكن اعتباره بأي حال قوة لها نفوذها على الصعيد العالمي، على سبيل المثال؟ بعض هذه العوامل واضح جداً: يتعلق أحد هذه العوامل بموضوع مساحة الإمبراطورية الرومانية (كانت مساحتها تبلغ مليوني ميل مربع، مقارنة بمساحة تقديرية للسلطة الأزتيكية التي بسطت نفوذها على مساحة تتراوح بين ١١٠٠٠ و٧٧٠٠٠ ميل مربع)؛ العامل الثاني يتعلق بعدد من كانوا تحت حكم روما (كان العدد قريباً من ٦٠ مليون شخص؛ بالمقابل، كان عدد

من بسط الأزتيكيون سلطتهم عليهم يتراوح بين مليون و٦ملايين شخص[٩]؛ أما العامل الثالث فيتعلق بحقيقة أنه لم تكن هناك قوة على الكرة الأرضية (بما في ذلك الصين في عهد حكم الهان) تتفوق اقتصادياً أو عسكرياً على روما في أوج تألقها الإمبراطوري؛ وهناك عامل رابع يتجلى في أن روما لم تنافس المجتمعات التي كانت متقدمة في المجال العلمي السائد في ذلك العصر وحسب، بل تفوقت عليها. باختصار، يمكن القول إن الاختلاف الجوهري يكمن في أن روما حققت السيطرة ليس فقط على عالمها هي، بل على العالم أيضاً.

بموجب ذلك، ومن أجل عوامل تتعلق بالهدف الذي يؤمل أن يحققه هذا الكتاب، فإنني سأصنف أي أمة أو إمبراطورية قوة مسيطرة على العالم إذا حققت الشروط الآتية مجتمعة: أولاً، إذا كانت قوتها تتفوق بشكل واضح على كل منافسيها المعاصرين المعروفين؛ ثانياً، إذا لم تكن تعاني من أي دونية في القوة الاقتصادية أو العسكرية مقارنة مع أي قوة أخرى على ظهر هذا الكوكب سواء كانت على دراية بوجودها أو لم تكن؛ ثالثاً، إذا كانت تفرض قوتها على مساحة شاسعة من الكرة الأرضية، وعلى عدد كبير من الأمم، وهو ما يجعلها تتجاوز حدود الهيمنة المحلية أو الإقليمية. بموجب هذا التعريف، فإن فرنسا لا تعد في ظل حكم لويس الرابع عشر قوة مسيطرة على العالم، والأمر نفسه ينطبق على إمبراطورية هابسبرغ Hapsburg، وكذلك على الولايات المتحدة خلال عصر الحرب الباردة؛ إذ إن كل واحدة من هذه الإمبراطوريات فشلت في تحقيق الشرط الأول: كل واحدة منها كانت تواجه بمنافسين هائلي القوة كانت لهم تقريباً السطوة نفسها.

سوف يكرس الجزء الأكبر من هذا الكتاب لمناقشة المجتمعات المؤهلة لكي تكون قوى مطلقة، ولإظهار كيف أن التسامح في كل واحدة من هذه الحالات كان حاسماً في ارتقائها باتجاه أن تسيطر على العالم. لكن دعوني أتحدث أولاً عن الأسباب التي تجعل من التسامح مسألة حيوية في هذا الصدد. قد يبدو هذا الزعم مفاجئاً للوهلة الأولى؛ لكن، في واقع الأمر، هناك تفسير بدهي وبسيط جداً لذلك.

فالمجتمع الذي ينزع نحو بسط سيطرته على العالم - وليس فقط على الصعيد

المحلي أو الإقليمي - لا بد له أن يكون في الموقع الأول في مجال التقدم التكنولوجي، والعسكري، والاقتصادي. أهم رأسمال بشري يمكن للعالم أن يقدمه، وفي أي لحظة من لحظات التاريخ - سواء على الصعيد الذكاء البشري، أو القوة المادية، أو المهارة، أو المعرفة، أو الإبداع، أو الشبكات، أو المبادرات التجارية الجديدة، أو الاختراعات التكنولوجية - لا يمكن أن يتوافر ضمن نطاق أي موقع بعينه، أو ضمن أي مجموعة عرقية أو دينية. فلكي يحلق أي مجتمع بعيداً عن أقرب منافسيه على الصعيد الكوني، عليه أن يستقطب الأفضل والأذكى في هذا العالم بغض النظر عن أعراقهم أو دياناتهم أو خلفياتهم. هذا ما كانت تقوم به أي قوة مطلقة على امتداد التاريخ بدءاً بإمبراطورية فارس الأخمينديه، مروراً بالإمبراطورية المغولية العظمى، وانتهاء بالإمبراطورية البريطانية؛ ولم تنجح هذه الإمبراطوريات في ذلك إلا من خلال تفعيلها لمبدأ التسامح.

ولكن، مهلاً - هل كان المغول متسامحين؟ لقد أبادت جحافل جنكيز خان الهائجة قرى بأكملها، واستخدمت الجثث ركاماً ردمت به الخنادق. وكان داريوس، ملك بلاد فارس يقطع آذان أعدائه ويجدع أنوفهم قبل أن يضعهم على الخوازيق. (قام الملك كامبيسيس، وهو أحد أسلاف الملك داريوس بسلخ جلد أحد المسؤولين الفاسدين وجعل منه مادة لتنجيد إحدى الكراسي.) كما قامت الإمبراطورية البريطانية، بحسب جميع الدراسات المتعلقة بمدة ما بعد الاستعمار، على اللعب على وتر عنصرية الرجال البيض وحشد طاقاتهم. هل يمكن إطلاق صفة التسامح على أي من هذه الإمبراطوريات؟

سأطرح جواباً له وقع المفاجأة، وأقول، نعم. ومرد هذا الجواب هو أنني لا أتحدث عن التسامح من خلال منطق حقوق الإنسان الحديث [١٠]. لا أعني بعبارة التسامح المساواة السياسية أو الثقافية. بدلاً من ذلك، سوف أستعمل هذه العبارة بمعنى أنها تعني ببساطة أن تترك فسحة لأنماط مختلفة من الناس أن تعيش وتعمل وتزدهر في مجتمعك - حتى لو كان ذلك لأسباب ذرائعية أو إستراتيجية. لو وضعنا تعريفاً أكثر منهجية نوعاً ما، لعبارة التسامح لقلنا إن التسامح المقصود به في هذا

الكتاب يشير إلى درجة الحرية التي تسمح لأفراد أو جماعات من خلفيات عرقية أو دينية أو عنصرية أو لغوية أو غيرها، بالتعايش والمشاركة والتقدم في المجتمع.

التسامح بهذا المعنى لا يتضمن مبدأ الاحترام. فبينما كان الرومان يجندون محاربين من جميع الملل والنحل لبناء آلتهم العسكرية الهائلة، كانوا يعتبرون أن الآلهة تفضلهم على بقية الخلق، وكانوا دائماً ما يظهرون احتقاراً "للكلتيين" «البدائيين تماماً»، و أيضاً «للكاليدونيين العراة» الذين «كانوا يعيشون لأيام طوال في أوحال المستنقعات»، بالإضافة إلى الأوروبيين الشماليين من «'القطعان المتوحشة» ذات «الأطراف الهائلة الحجم» (١١). أكثر من ذلك، يمكن أن يستخدم التسامح بطريقة انتقائية. إذ يمكن غض الطرف عن بعض الجماعات التي تُعد مفيدة، بينما يستثنى من ذلك آخرون يمكن حتى أن يتعرضوا للاضطهاد بطريقة عنيفة. بحلول نهاية القرن الثامن عشر، بدأ الإنجليز يتعلمون كيفية تقبل الإسكتلنديين البروتستانت بوصفهم بريطانيين مثلهم -خصوصاً عندما تبين لهم أن الاسكتلنديين كانوا يشكلون رصيداً كبيراً استخدموه من أجل بناء الإمبراطورية - لكن هذا التسامح البريطاني الجديد لم يمتد ليشمل الأيرلنديين الكاثوليك (١٢).

أخيراً، تجدر الإشارة إلى أن المفهوم الرئيس هو التسامح النسبي. ما يهم في السباق نحو السيطرة على العالم أكثر من أي شيء آخر، ليس ما إذا كان مجتمع ما، متسامحاً من زاوية بعض المعايير المطلقة وغير المحددة بزمن بعينه، بل ما إذا كان أكثر تسامحاً من منافسيه من المجتمعات الأخرى؛ ذلك أن التسامح هو مسألة نسبية، لأنه حتى المجتمعات التي يتم التسامح معها يمكن أن تتعرض إلى معاملة فيها الكثير من الظلم والقسوة. فاليهود الروس في القرن التاسع عشر وجدوا في أمريكا الملاذ الآمن وذلك بالمقارنة مع المذابح الجماعية التي هربوا منها، إلا أنهم واجهوا موجات من المعاداة للسامية، وأخذوا نصيبهم من معاداة اليهود التي كانت سائدة في الولايات المتحدة.

لا أناقش هنا مسألة أن التسامح شرط كافٍ للسيطرة على العالم. فمهما كانت مملكة "البوتان" متسامحة، فإنها لن ترتقي مطلقاً إلى مصاف القوة المهيمنة عالمياً. هناك دائماً جملة من العوامل الإضافية ذات التأثير المتكامل - الجغرافيا، وعدد السكان، والموارد الطبيعية، وروح القيادة، من بين عوامل أخرى عديدة - تؤدي إلى بروز استثنائي لقوة مسيطرة على العالم. يؤدي الحظ المحض دوراً في ذلك أيضاً. وسوف تعتمد قدرة أي مجتمع على تحقيق السيطرة على العالم والمحافظة عليها، على طبيعة المنافسة، حتى في أكثر الظروف ملاءمة.

ما سأقوم بطرحه على بساط النقاش هو أن التسامح شرط ضروري للسيطرة على العالم. من زاوية معاكسة، أنا أطرح مقولة أن التعصب مرتبط ارتباطاً عضوياً بسقوط القوى المطلقة. إلا أن التفريق بين السبب والنتيجة في هذا المضمار هو أكثر إشكالية. غالباً ما يصعب على المرء أن يجزم فيما إذا كان التعصب يؤدي إلى السقوط، أو فيما إذا كان التعصب نتاجاً فرعياً للسقوط. في أغلب الحالات، يمكن اعتبار المقولتين يمتلكان القدر نفسه من الصحة.

أخيراً، أود التنويه إلى أن أطروحتي لا تطرح مقولة أن المزيد من التسامح يؤدي دائماً إلى مزيد من الازدهار. فالكثير من المجتمعات المتعصبة أضحت غنية وقوية؛ وتعد ألمانيا النازية مثالاً على ذلك. ولكن، لم يسجل التاريخ أبداً أن مجتمعاً بني على أساس النقاء العنصري، أو التعصب الديني، أو التطهير العرقي أصبح يوماً قوة سيطرت على العالم. فلكيْ يتم تحقيق السيطرة على العالم، والمحافظة عليها، يجب الأخذ بعين الاعتبار أن الإكراه وسيلة فاشلة، وأن الاضطهاد مكلف جداً، وأن الانتماء الديني المتجانس، تماماً مثل الاستيلاد الداخلي، هو غير منتج البتة.

بالإمكان اعتبار الولايات المتحدة المثال النموذجي للمجتمع الذي ارتقى إلى موقع السيطرة على العالم من خلال التسامح. بطبيعة الحال، لم يشكل الجزء الأكبر من تاريخ الولايات المتحدة النموذج المثالي لحقوق الإنسان، أكثر من النموذج

الذي مثله الرومان أو المغول. فالأمريكان كانوا يمتلكون العبيد؛ كما قاموا بتشريد سكان البلاد الأصليين، وارتكبوا أحياناً مذابح بحقهم. مع ذلك، لا يمكن إنكار أن الولايات المتحدة منذ نشأتها، ومن خلال التزامها الثوري الحقيقي بالحرية الدينية، بالإضافة إلى التزامها بنظام السوق المتاح بشكل غير اعتيادي أمام أفراد من طبقات شتى، وانتماءات قومية متعددة، استطاعت أن تجذب طاقات عشرات الملايين من المهاجرين وتكافئهم وتقدم لهم كل الدعم.

أدت المواهب التي تتمتع بها القوة البشرية المهاجرة إلى الدفع بالبلاد باتجاه النمو والنجاح بدءاً من التوسع باتجاه الغرب، مروراً بالانفجار الصناعي، وانتهاء بالنصر في الحرب العالمية الثانية. كان فوز الولايات المتحدة في السباق لامتلاك القنبلة الذرية - وهو حدث له أهميته التاريخية التي لا يمكن سبر غورها - نتيجة مباشرة لقدرتها على اجتذاب العلماء المهاجرين الفارين من الاضطهاد في أوروبا. وفي العقود التي تلت الحرب، ومع بروز قضية براون ضد مجلس التعليم، ونشوء حركة الحقوق المدنية، بدأت الولايات المتحدة أخيراً وإن تم ذلك بشكل متقطع، وكانت تعتريه بعض العيوب بالتحول إلى واحد من أكثر المجتمعات انفتاحاً من الناحيتين العنصرية والعرقية في تاريخ العالم. ولم يكن من قبيل المصادفة أنه كان العصرَ الذي ارتقت فيه الولايات المتحدة إلى موقع السيطرة على العالم.

يعود سبب بروز أمريكا بوصفها قوة مطلقة في العقد الأخير من القرن العشرين جزئياً إلى انهيار الاتحاد السوفيتي. لكنه كان يعكس أيضاً سيطرة الولايات المتحدة المذهلة في المجالين التكنولوجي والاقتصادي في عصر الكومبيوتر الآخذ في الانتشار؛ وهذه السيطرة بدورها كانت نتاجاً مباشراً لقدرة أمريكا المتفوقة على اجتذاب أفراد موهوبين من ذوي العقول الاستثمارية من كافة أنحاء العالم. لقد كان وادي سيلكون الذي احتضن أعظم فورة في الثروة في تاريخ البشرية إنجازاً قام به المهاجرون بالدرجة الأولى.

ولكن بينما تعزو أمريكا سيطرتها على العالم إلى مبدأ التسامح - ككل مثيلاتها من القوى المطلقة التي سادت قبلها- فإنها أيضاً تختلف عن سابقاتها بشكل كبير. أمريكا هي الديمقراطية الناضجة والتوافقية العالمية الأولى التي تحولت إلى قوة مطلقة. إنها القوة المطلقة الأولى في العالم التي تنشأ في عالم يعترف بحق جميع الأمم بتقرير مصيرها. وأخيراً، إنها القوة المطلقة الأولى التي تواجه خطر شبكات الإرهاب الدولي التي ربما تكون قد وضعت يدها على تقانة إنتاج أسلحة الدمار الشامل.

هذه الجملة غير المسبوقة من العوامل تترك العديد من الأمريكيين اليوم في حيرة عميقة حول ماهية الدور الذي على الولايات المتحدة أن تقوم به في العالم. كيف يمكن أن تستخدم الولايات المتحدة قوتها العسكرية؟ كيف يمكن مواجهة خطر الإرهاب؟ هل على أمريكا أن تحاول البقاء قوة مطلقة، وهل العودة إلى نظام عالمي متعدد الأقطاب أفضل بالنسبة إلى العالم ككل، وحتى بالنسبة إلى الولايات المتحدة نفسها؟

لم تكن مثل هذه الحيرة قد لاحت في الأفق خلال السنوات الأولى التي تلت انهيار جدار برلين - وهي حقبة تميزت بتفاؤل جَذِل على صعيد العالم كله تقريباً. انهزمت الشيوعية، وفقدت الأنظمة الشمولية مصداقيتها. كما أعلن فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ». بدا وكأن هناك إجماعاً ليس فقط في واشنطن، بل في أنحاء شتى من أصقاع المعمورة، على أن انتشار اقتصاد السوق والديمقراطية «سوف يحول جميع الأصدقاء والأعداء إلى "حفنة من المتنافسين" وهو ما سيتيح «لأناس أكثر في كل أنحاء العالم بتحويل آمالهم إلى إنجازات» مزيلين بذلك «ليس فقط الحدود الجغرافية، ولكن الحدود الإنسانية أيضاً.» [١٣] ديمقراطية السوق الحرة هي اللعبة الوحيدة التي يمكن ممارستها في البلدة، والولايات المتحدة هي القائد الطبيعي لعالم ينحو بشكل متزايد باتجاه العولمة واقتصاد السوق والديمقراطية.

بالعودة إلى تلك الحقبة، يمكن القول: إن أهم ملامح هذا العصر كان الافتراض الذي انتشر على نطاق واسع بأن الولايات المتحدة لن تتورط في أعمال حربية، أو استخدام القوة العسكرية لفرض هيمنتها. فهذه بلاد تمتلك قوة عسكرية لا ينافسها فيها أحد، بالإضافة إلى ترسانة من الأسلحة التدميرية التي لم يعرف الإنسان مثيلاً لها يوماً. ومع ذلك، افترض العديد من الناس داخل الولايات المتحدة وخارجها في عقد التسعينيات من القرن العشرين أن القوة المطلقة الجديدة في العالم سوف لن تستخدم قوتها العسكرية بشكل عدواني لأهداف توسعية، أو لغرض بناء الإمبراطورية. بدلاً من ذلك، عندما كان الأمر يتعلق بقوة الولايات المتحدة العسكرية، فإن الأسئلة الأكثر تداولاً في النقاش كانت تتمحور حول ما إذا كان من المسموح استخدامها لدوافع إنسانية محضة (كما في البوسنة ورواندا)، وما يمكن لأمريكا أن تقدمه للوفاء «بحصتها من المسؤولية عن السلام» - التي تتمثل في المليارات من الدولارات التي سوف لن تكون بحاجة إلى إنفاقها على مقتضيات الدفاع. كانت أمريكا على ما يبدو القوة العالمية المطلقة الأولى التي لم تتحول إلى إمبراطورية، والقوة المطلقة الأولى التي ليست لها مخططات عسكرتارية إمبراطورية.

لكن الحادي عشر من أيلول، سنة ٢٠٠١م غير كل شيء. فلقد تورطت القوة المطلقة خلال شهر من ذلك التاريخ في حرب. وبعد ذلك بسنة، أعلنت الولايات المتحدة عن استراتيجية للأمن القومي تركز على «الدور الأساسي المنوط بالقوة العسكرية الأمريكية»، مؤكدة على الحق في «التحرك استباقياً»، ومعلنة عن المحافظة على التفوق العسكري الأمريكي الأحادي القطب. فجأة، بدأ الحديث عن الإمبراطورية الأمريكية يطغى على ما سواه في كل مكان. نشرت مقالات عديدة -ليس فقط في منشورات مثل Wall Street Journal و Weekly Standard، ولكن أيضاً في صحف مثل New York Times و Christian Science Monitor - تدعو صراحة إلى تبني فكرة الإمبراطورية الأمريكية. كتب ماكس بوت في مقالته الشهيرة "مبررات نشوء الإمبراطورية الأمريكية"ما يلي:"أفغانستان وبلدان أخرى يعيث فيها

الاضطـراب تسـتغيث طالبـة النجدة من أي إدارة أجنبية متنـورة تقوم بنفس ما قام بـه رجال إنجليز كانوا مليئين بالثقة بالنفس ويرتـدون السراويل والخوذات المهيبة"، وأكـد المـؤرخ بـول جونسـون أن "الجـواب عـلى الإرهاب هـو الاسـتعمار". في أوائل سـنة ٢٠٠٣، طـرح مايـكل إيغناتيـف، الباحث في شـؤون حقوق الإنسـان في جامعة هارفـارد السـؤال التـالي: "مـا هـي الكلمة التـي تصف الحـال المهيبة التـي أصبحت عليهـا أمريـكا أفضـل مـن كلمـة "إمبراطوريـة"، وأضـاف، أن وجـود الإمبراطوريـة الأمريكيـة "في مـكان مثـل العـراق تمثـل الأمـل الأخـير للديمقراطية والاسـتقرار على حـد سـواء". في الوقـت نفسـه، دعا نيـال فيرغيسـون الأمريكيين إلى رمـي مخاوفهم مـن "كلمة فيتنام" بعيـداً، وارتداء عباءة إمبراطورية بريطانيا العظمى السـابقة [١٤].

ما الذي كان يدور في خلد مقدمي هذه المقترحات حول إقامة إمبراطورية أمريكية؟ من الواضح أنه ما من أحد كان يطالب جورج دبليو بوش أن يتوج نفسه إمبراطوراً على الشرق الأوسط كما أطلق على الملكة فيكتوريا ذات مرة لقب إمبراطورة الهند. كان المقصود من ذلك بالنسبة إلى معظم مؤيدي هذه الفكرة هو أن الإمبراطورية الأمريكية تعني الاستخدام الهجومي والتدخلي للقوة العسكرية للولايات المتحدة بموافقة عالمية أو من دونها، لفرض تغيير الأنظمة القائمة، وبناء أمم جديدة - تحل محل الديكتاتوريات والدول المارقة والأنظمة الأخرى التي تشكل تهديداً، وتنصيب حكومات تتبنى نظام السوق، ومؤيدة للديمقراطية، وموالية للولايات المتحدة. وقد وصف أحد المعلقين هذا الموضوع كما يلي: «إن إمبراطورية الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين لها مزايا رائعة تتمثل بالأسواق الحرة، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، تساعد في فرضها أعظم قوة عسكرية عرفها العالم في تاريخه» [١٥].

إذا تم استيعاب الأمر من هذه الزاوية، فستصبح الدعوات إلى قيام إمبراطورية أمريكية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول أمراً منطقياً؛ ذلك أنه بعد الحرب العالمية الثانية، استغل الجيش الأمريكي الفترة التي كان يتمتع فيها بقوة لا تضاهى

لاحتلال ألمانيا واليابان وإعادة بنائهما. وطالما أنها نجحت في ذلك حينها، كيف لها ألاّ تنجح الآن، وهي تقف في وجه التهديدات اللا متناهية للإرهاب، في القيام بالشيء نفسه في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول؟ كيف لها ألاّ تمسك بعنان القوة نفسه الذي أمسكت به كل من روما وبريطانيا، وتأخذ على عاتقها مهمة حضرنة العالم وعصرنته والأخذ بيده صوب الاستقرار؟

نالت هذه الدعوة في أعقاب الحادي عشر من أيلول الدعم من شرائح عريضة من الأصوات داخل الولايات المتحدة بمن في ذلك أولئك الذين لم يتمسكوا يوماً بقيم الإمبراطورية، والذين ربما يطلقون على أنفسهم صفة المعادين للإمبريالية. ويُعد توماس فريدمان، وهو أحد كتاب أعمدة الرأي في صحيفة نيويورك تايمز والمثال الأكثر إثارة للاهتمام في هذا الصدد. فبالرغم من شكوكه التي تبين مدى صحتها لاحقاً حول مزاعم إدارة بوش المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، وشكوكه العميقة حول دور المصالح النفطية للولايات المتحدة في هذا الإطار، فقد دافع فريدمان مع ذلك، عن الحرب التي شنت على العراق «من أجل الإطاحة بصدام حسين»، وكذلك «من أجل التأسيس لشراكة مع الشعب العراقي» لبناء مجتمع ديمقراطي ينشد الاستقرار الذي هو بأمس الحاجة إليه من خلال «الحرية، ومنح مزيد من السلطة للنساء، وتحديث التعليم». ومن جانبه، كتب مايكل إيغناتيف الذي «يُعد واحداً من أشهر المؤيدين الليبراليين للغزو الأميركي للعراق» أن «الحقيقة هي أن الكثير من الشعوب مدينة في حريتها للقوة العسكرية الأمريكية» [١٦] - بالرغم من أن هذا قد يتعارض مع مواقف اليساريين الذين يرون في الإمبراطورية الأمريكية أساساً لجميع الشرور، كما يتعارض مع موقف الانعزاليين اليمينيين».

ولكن ما أغفل ذكرَه كلُّ أولئك الكتاب سواء استعملوا عبارة الإمبراطورية أو فضلوا إطلاق صفة الدمقرطة أو بناء الأمة أضحى جزءاً من التاريخ. أمريكا اليوم تواجه مشكلةً عمرُها من عمر الإمبراطورية نفسها، وهي مشكلة أساسية أدت من ضمن ما أدت إليه إلى سقوط معظم القوى التي كانت تسيطر على العالم. ونظراً لعدم وجود عبارة أفضل، سوف أطلق عليها وصف مشكلة «الغِراء».

تشكل هذه المشكلة مادة كتاب صاموئيل هتينغتون المثير للجدل بعنوان «من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية القومية لأمريكا Who Are We? The Challenges to America"s National Identity. وبروح فيها الكثير من العدوانية المتضمنة عبارات غير مناسبة سياسياً، يرى هتينغتون أن الهجرة المستمرة - خصوصاً من مناطق ناطقة باللغة الأسبانية كالمكسيك - تهدد بتدمير روحية القيم "الأنغلو- بروتستانتية الأساسية المتمثلة "بالفردية" و"أخلاقيات العمل"، و"حكم القانون". ويحذر هتينغتون أنه إذا لم تقم أمريكا بإعادة التأكيد على هويتها فإنها "ستتحول إلى كونفيدرالية هشة تتكون من مجموعات عرقية وعنصرية وثقافية وسياسية، لا يربط بينها إلا أقل القليل، وربما لن يكون بينها رابط على الإطلاق؛ اللهم إلا فيما يتعلق بتمركز هذه الجماعات على أرض ما كان يعرف بالولايات المتحدة الأمريكية"[١٧].

ينحدر خطاب هتينغتون هذا إلى مستوى القدح والذم. حقيقة الأمر أنه تمادى كثيراً في استخدامه لعبارات نارية ومهينة - فهو يشير على سبيل المثال إلى أن الأمريكيين من أصول مكسيكية يتكاثرون كالأرانب، وربما يخططون لاستعادة ولايات كاليفورنيا ويوتا وتكساس. مع ذلك، أعتقد أن هتينغتون كان محقاً في التعبير عن القلق بشأن ما إذا كان المجتمع الأمريكي لديه ما يكفي من «الغراء» كي يبقي على المجموعات السكنية الصغيرة فيه في حال من التماسك. لقد سقطت العديد من القوى المطلقة في الماضي بما في ذلك فارس الأخمينديه، والإمبراطورية المغولية العظيمة بسبب غياب الهوية السياسية القادرة على صهر مواطنيها المنتمين إلى خلفيات دينية وثقافية متنوعة في بوتقة واحدة.

لكن هتينغتون يرتكب اثنين من الأخطاء الكبرى. أولاً، وكما سأبين لاحقاً، وقعت القوى المطلقة فريسة للتشرذم والتفكك بسبب أن المجموعة الرئيسة فيها نحت باتجاه التعصب من خلال تأكيدها على هويتها «الحقيقية»، وتبنيها لسياسات شوفينية، وإحيائها للثقافة الأهلية، ومحاولتها طرد أو عزل «الغرباء» والمجموعات «العاجزة عن الانصهار في بوتقة الغالبية». من هذا المنطلق، يمكن القول إن الطريق

التي ستقود بشكل مؤكد إلى تدمير النسيج الاجتماعي لأمريكا تتمثل في الجهود المبذولة لربط الهوية الأمريكية بمجموعة عرقية أو دينية أصلية محددة. وهذا بالضبط ما يقوم به هتينغتون عندما يقوم بربط الهوية الحقيقية لأمريكا بالثقافة الأنغلو- سكسونية البروتستانتية WASP وقيمها المدنية، بالرغم من تأكيده على أن الأشخاص الذين ينتمون إلى أي عرق أو خلفية (باستثناء اللاتينوز) باستطاعتهم تبني الفضائل نفسها التي يفخر بها أتباع الثقافة الأنغلو- سكسونية البروتستانتية.

هناك خطأ آخر أكبر وقع فيه هتينغتون ذلك أنه أخفق في اكتشاف أن مشكلة أمريكا الحقيقية في مسألة "الغراء" متوضعة خارج أمريكا، وليس داخلها. ففي داخل حدودها، نجحت الولايات المتحدة بشكل استثنائي في خلق هوية سياسية محايدة عرقياً ودينياً هي من القوة والرحابة بحيث أنها استطاعت صهر جميع الأمريكيين من مختلف الأعراق والديانات والخلفيات في بوتقة واحدة. ولكن المشكلة هنا تكمن فيما يلي: لم تمارس أمريكا السلطة على الأمريكيين فقط. فمن خلال قوتها العسكرية التي لا ند أو نظير لها، (بما في ذلك القواعد العسكرية في أكثر من ستين دولة، وتُعد عبئاً على السيادة الوطنية لتلك الدول) وقوة تأثيرها الاقتصادي الهائل، والحضور القوي لشركاتها المتعددة الجنسية، وعلاماتها التجارية الاستهلاكية، وثقافتها، فإن أمريكا، بحضورها وسيطرتها، موجودة بقوة في كل زاوية من زوايا العالم. خارج حدود الولايات المتحدة لا يوجد سوى أقل القليل من الغراء، هذا إن وجد، ليشد الولايات المتحدة إلى مليارات الناس حول العالم الذي تفرض عليه سيطرتها.

يعلمنا التاريخ أن القوى المطلقة لا يمكنها الاستمرار إلا إذا ضمنت ولاء الشعوب الأجنبية التي تسيطر عليها -أو على الأقل- إذا استطاعت استمالة هذه الشعوب؛ ولم تكن القوة العسكرية الصرفة أبداً كافية لتحقيق هذه الغاية. طرحت روما الإمبراطورية نموذجاً ربما كان الأفضل بين أي نماذج أخرى، عن نجاح قوةٍ مسيطرةٍ عالمياً في الحصول على دعم قطاعات رئيسة من الشعوب المحتلة، وجذبها إلى مدارها بصورة أكثر فاعلية مما يمكن لقوة السلاح وحدها أن تفرضه. قدمت

روما عرضاً غير مسبوق مقارنة بمثيلاتها من الإمبراطوريات القديمة، على الشعوب، ذات الخلفيات المختلفة والمتشعبة، والمنضوية تحت سلطتها إذ عرضت عليها الانتماء السياسي إلى روما، بالإضافة إلى تقديم حزمة ثقافية لهذه الشعوب؛ وقد كان لذلك وقع إيجابي كبير. تقوم الولايات المتحدة بالشيء نفسه هذه الأيام؛ فهي تطرح على هذه الشعوب حزمة ثقافية - عارضات أزياء رائعات الجمال، وسلسلة مقاهي ستاربك، وعالم ديزني، وشطائر البيرغر المزدوجة، والكوكاكولا وغيرها - لها وقع إغرائي هائل على الملايين، بل المليارات من البشر حول العالم.

لكن روما كانت تتمتع بمزية إضافية: فقد جعلت من الشعوب التي فتحتها وسيطرت عليها جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. أصبحت شعوب بريطانيا وشرق أوروبا وغرب إفريقيا المهزومة من رعايا - وفي حال النخب من الذكور، من مواطني - أعظم قوة على الأرض حينها. في عصر النهضة في إيطاليا، لاحظ نيكولو مكيافيللي بشكل لافت أن روما "دمرت جيرانها"، وأنشأت على أنقاضهم إمبراطورية عالمية من خلال "إشراك الغرباء بكل حرية في امتيازاتها ومفاخرها"[١٨].

لكن الولايات المتحدة ليست روما. فالديمقراطية الناضجة الأولى التي أضحت قوة تسيطر على العالم، وأعني بها الولايات المتحدة، لا تحاول، بل لا تريد تحويل الشعوب الأجنبية إلى رعايا - وبالتأكيد لا ترغب في جعل أفراد هذه الشعوب مواطنين فيها. عندما تتحدث حكومة الولايات المتحدة عن بَسْط الديمقراطية على الشرق الأوسط، فهي لا تفكر في منح العراقيين أو السوريين حق التصويت في الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة. النتيجة المليئة بالمفارقة، والتي تطبع الدور المزدوج الذي تؤديه الولايات المتحدة بصفتها قوة مطلقة نصبت نفسها نبراساً للحرية والديمقراطية على الصعيد العالمي، تتمثل في الشعور العارم بالعداء لأمريكا. اليوم، تواجه أمريكا مليارات من البشر على امتداد العالم؛ أكثرهم من الفقراء الذين يرغبون في أن يصبحوا مثل الأمريكيين، لكنهم يرفضون أن يكونوا تحت إبهام أمريكا؛ أناس يرغبون في أن يلبسوا ويعيشوا على الطريقة الأمريكية،

إلا أن السفارات الأمريكية ترفض منحهم سمات دخول إلى أمريكا؛ أناس تقول لهم أمريكا إنها تمثل الحرية لكنهم لا يرون في أمريكا سوى القوة التي تسعى فقط لتحقيق مصالحها.

أولئك المنادون بإمبراطورية أمريكية دائماً ما يستحضرون عظمة ونجاح الإيقونة الرومانية. ولكن -وكما آمل أن أبين لاحقاً- أرى أن أمريكا الحديثة في علاقتها بالعالم الذي تسيطر عليه هي نموذج مكرر أحمق، وأقرب بكثير إلى الإمبراطورية المغولية «البربرية» منه إلى نموذج روما.

يستخدم علماء الاجتماع مصطلحاً يطلقون عليه "المحاباة في الاختيار"، وهذا المصطلح يعني «إثبات» المرء للأطروحة التي يتبناها من خلال اختيار حالات تدعمها، وتجاهل تلك التي لا تدعمها. حاولت تجنب استخدام المحاباة في الاختيار من خلال طرح أكثر الشبكات اتساعاً وشمولاً، وكذلك من خلال دراسة كل مجتمع في التاريخ كان من الممكن أن يكون مؤهلاً كي يصبح قوة مسيطرة على مستوى العالم.

نتيجة لذلك، تبين لي أن بعض الأمثلة التي سُقتُها حول قوى مسيطرة على مستوى العالم - مثل الجمهورية الهولندية على سبيل المثال - لم تكن مسيطرة عالمياً بوضوح كمثيلاتها من القوى الأخرى، أو أنها لم تكن قوى مسيطرة على مستوى العالم إطلاقاً. أكرر القول هنا إنني -ومن خلال اختياري للقوى المسيطرة على مستوى العالم- حاولت جاهدة أن أبالغ في نظرتي الشمولية وليس العكس، وقد ساعد ذلك في دعم فكرة أطروحتي القائلة إن الإمبراطوريات التي اقتربت كثيراً من السيطرة على العالم اتبعت المسار الذي أصفه: التسامح في الطريق إلى الارتقاء نحو السلطة، والتعصب في الطريق إلى الهاوية.

تم ترتيب الجزء الباقي من هذا الكتاب على الشكل الآتي: يتناول القسم الأول موضوع القوى المطلقة التي سادت في العهود الماضية. يبدأ الفصل الأول بمناقشة

فارس الأخمينديـة وينتهي بالإسكندر الكبير. يركز الفصل الثاني على روما الإمبراطورية. ويناقش الفصل الثالث إمبراطورية تانغ في الصين، التي كانت خلال حقبة أوج قوتها أعظم قوة في العالم، وكانت لها -على العكس من سلالة مينغ الأكثر شهرة- طموحات واضحة للهيمنة. أما الفصل الرابع فيستقصي الإمبراطورية المغولية.

ما بين العصور القديمة والعصر الحديث، برزت إمبراطوريتان دينيتان عظيمتان: المسيحية والإسلامية. وبعكس الديانات التوفيقية القديمة التي افترضت أن الشعوب المختلفة لها الحق في عبادة آلهة مختلفة، فإن كلاً من المسيحية والإسلام أصرا على أن هناك ديناً حقيقياً واحداً، وواحداً فقط. كانت الديانتان المسيحية والإسلامية بهذا المعنى غير متسامحتين في هذا الشأن بعكس الديانات الأقدم. وسواء كان ذلك مستنداً إلى الكتب المقدسة أم لا، فقد كانت النتيجة ألفية مليئة بالنزاعات وسفك الدماء والحروب.

أما القسم الثاني فيتناول موضوعيْ التنوير والتسامح. ففي الغرب، أفسح عصر الحروب الدينية الطريق ببطء لعصر التنوير. كان التسامح بالنسبة للمفكرين في عصر التنوير ليس فقط وسيلة، بل فضيلة أخلاقية، وواجباً أيضاً. لم يكن الاضطهاد الديني سيئاً وحسب، بل انتهاكاً لحرية الضمير أيضاً. وهكذا نشأت المُثُل الحديثة في التسامح؛ لم يعد هذا امتيازاً يقتصر على الملوك الحذرين، بل أصبح عنصراً أساسياً من عناصر «حقوق الإنسان». تحول عصر التنوير إلى ضامن لجيل جديد من الإمبراطوريات ومقللٍ من شأنها في الوقت نفسه. فمن ناحية، سهّل التسامح الجديد من إمكان بروز القوى المطلقة الأولى التي شهدتها أوروبا منذ ألف سنة؛ ومن ناحية أخرى، وبسبب مبادئه التي تناولت المساواة الكونية والحقوق الأساسية والحرية الشخصية، فقد سبّبَ عصر التنوير إشكاليات عميقة لكل الإمبراطوريات التي تلت ذلك العصر.

يلقي الفصل الخامس نظرة سريعة على أسبانيا في العصور الوسطى كنموذج

للقوة الأوروبية في مرحلة ما قبل عصر التنوير. كانت أسبانيا تتميز بالتنوع الديني الموجود فيها، حيث استوعبت سكانياً أعداداً كبيرة من المسلمين واليهود. ومع ذلك، لم تستطع أسبانيا مقاومة التعصب الذي ساد آنذاك، والمتمثل في المذابح الدينية، والطرد، ومحاكم التفتيش التي دمرت المجتمع الأسباني، وأوقفت زخم ازدهاره، وجعلت من أسبانيا مثالاً فجاً للتعصب المسيحي الذي منع القوى الأوروبية العظمى في العصور الوسطى من تحقيق طموحها في أن تصبح قوى مسيطرة عالمياً.

يدور الفصل السادس حول البروز المفاجئ للجمهورية الهولندية، وهي الدولة الأوروبية الأولى التي تعتنق مبدأ التسامح الجديد. ففي سنة ١٥٧٩م - وبينما كانت بقية أنحاء أوروبا غارقة في غياهب التعصب - تبنت الجمهورية الهولندية مبدأ الحرية الدينية في دستورها التأسيسي. تحولت خلال مدة قصيرة إلى ملاذ للاجئين الفارين من الاضطهاد الديني، ليس فقط من أسبانيا، بل من كافة أنحاء أوروبا. وكانت النتيجة المباشرة أن تحولت هذه الجمهورية إلى الدولة الأكثر ثراء على وجه الأرض، وأكثرها حيوية، وكانت تتمتع «بتفوق إنتاجي وتجاري ومالي» وأيضاً «بوضع استثنائي» من «الهيمنة» الكونية [١٩].

يتحول الفصل السابع عن الغرب كي يقوم بنظرة مقارنة إلى ثلاث من الإمبراطوريات التي لم تحقق مطلقاً السيطرة على العالم: وهي إمبراطورية مينغ في الصين، وإمبراطوريتان إسلاميتان عظيمتان وهما الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية المغولية. يعود الفصل الثامن بالقارئ إلى الغرب ليناقش بريطانيا العظمى، التي خلفت الجمهورية الهولندية نموذجًا للمجتمع الأكثر تسامحاً في أوروبا، والتي حكمت «أكبر إمبراطورية في التاريخ» [٢٠] - وهي إمبراطورية لو ضُمَّت إليها المحيطات التي كانت تحت سيطرة البحرية البريطانية لغطّتْ سبعين في المئة من مساحة الكرة الأرضية. إلا أن البريطانيين الذين كان عليهم مواجهة الأفارقة والآسيويين، وأقوام أخرى من غير البيض، قد استهلكوا كل قيم التسامح التي كانوا يتمتعون بها. فبغض النظر عن سوية «التنوير» الذي كان البريطانيون يتغنون به،

فإنهم لم يستطيعوا التغلب على نزعتهم الاستعمارية العنصرية التي أثبتت أنها قوة فتاكة طغت على إمبراطوريتهم من أقصاها إلى أقصاها.

يأخذنا القسم الثالث من مرحلة سقوط الإمبراطورية البريطانية إلى العصر الحديث. يناقش الفصل التاسع دور التسامح في تحول الولايات المتحدة من مستعمَرة حديثة النعمة إلى قوة مطلقة على الصعيد الكوني. يناقش الفصل العاشر اثنتين من القوى العظمى اللتين بنيتا على مبادئ التعصب والنقاء العرقي: وهما ألمانيا النازية واليابان. ويتعرض الفصل الحادي عشر بالتحليل إلى منافسي الولايات المتحدة الرئيسيين هذه الأيام.

أما الفصل الثاني عشر فيحاول تطبيق الدروس والعبر المستخلصة من الماضي على القرن الحادي والعشرين، ويتناول بالتحديد النقاش حول الإمبراطورية الأمريكية. فعلى مدى ألفين وخمس مئة سنة، كانت كل واحدة من القوى المطلقة تواجه واحداً أو اثنين من التحديات الهائلة: المحافظة على التسامح الذي أعطى الدفع والزخم اللازمين لارتقائها، أو التأكيد على الروابط المشتركة القادرة على تأمين ولاء الشعوب التي تحكمها، أو على الأقل، قبول من تلك الشعوب بهذا الحكم. خلال السنين القليلة الماضية، استهلك هذان التحديان جهود أمريكا الخارجية الهادفة إلى فرض وجودها كقوة مسيطرة على العالم. ومن قبيل المفارقة، يمكن القول إن بإمكان أمريكا أن تبقى قوة مطلقة، فقط لو تحاول أن لا تظهر كقوة مطلقة.

القسم الأول

التسامح عند البرابرة

الفصل الأول

المهيمن الأول

الإمبراطورية الفارسية العظمى
من سايروس إلى الإسكندر

عندما فتح سايروس بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، كان العالم حينها قديماً. والأهم من ذلك، كان العالم حينها يعرف عصوره القديمة. فقد جمع مفكرو ذلك العالم القوائم الطويلة للسلالات، وبرزت إضافة بسيطة تثبت أن الملوك الذين كانت آثارهم ما تزال مرئية، حكموا قبل أربعة آلاف سنة.

- أولمستيد، تاريخ الإمبراطورية الفارسية، ١٩٤٨

إنه لمن دواعي سروري يا أونيسيكريتوس، أن أعود إلى الحياة مجدداً ولمدة قصيرة بعد موتي لكي أكتشف كيف يقرأ الناس هذه الأحداث حينها.

- الإسكندر الكبير، كما اقتبس كلامه لوسيان في كتاب كيف يكتب التاريخ، سنة ٤٠ ميلادية.

كلمة الجنة أو Paradise هي في الأصل كلمة فارسية. استخدمت اللغة الفارسية القديمة عبارة pairidaeza، التي حورها الإغريق إلى paradeisos، التي كانت تشير إلى الحدائق الملكية الأسطورية وجنان المتعة التي أنشأها الأخمينديون - وهم ملوك بلاد فارس الأقوياء الذين حكموا تقريباً مابين ٥٥٩ و٣٣٠ قبل الميلاد. في واقع الأمر، استخدم المترجمون الإغريق القدامى الذين ترجموا العهد القديم هذه العبارة في الإشارة إلى جنة عدن، وإلى زمن ما بعد الحياة، كما لو أنهم كانوا بذلك يشيرون إلى أن جنان الأخمينديين هي أقرب نسخة مرئية عن جنة السماء على الأرض[١].

كانت شهرة الجنان الأخمينديية تطبق آفاق العالم القديم. وكانت ثروتها كما

يقال، تحتوي على كل أنواع الأشجار التي تحمل كافة أنواع الثمار المعروفة للإنسان، وعلى كل الورود والأزهار بشذاها الأخاذ التي كانت تنمو ما بين ليبيا والهند، وعلى الحيوانات التي جمعت من أقصى أقاصي هذه الإمبراطورية الشاسعة التي تغطي مساحة تتجاوز مليونين من الأميال المربعة. كانت هناك الجِمال البارثينية، والحملان الآشورية، والخيول الأرمينية، والبغال الكابادوكية، والزرافات النوبية، والأفيال الهندية، والوعول الليدية، والجواميس البابلية، وأشد أنواع الأسود فتكاً، بالإضافة إلى حيوانات متوحشة من كافة أنحاء المملكة. لم تكن تلك مجرد حدائق بالإطار الشكلي؛ كانت تلك الجِنان أيضاً مراكز للتجارب التي كان يقوم بها علماء البستنة، وكانت أيضاً حدائق للحيوانات، ومناطق للصيد. وكانت أعداد الحيوانات التي شكلت أهدافاً للصيد الملوكي في كل واحدة من تلك الجنان تزيد على أربعة آلاف رأس [٢].

بهذا المعنى، كانت الجنان الأخمينديه بمثابة استعارة حية تمثل الإمبراطورية الأخمينديه ككل. كانت الإمبراطورية الفارسية الأخمينديه التي أسسها سايروس الكبير حوالي سنة ٥٥٩ قبل الميلاد، وامتدت على مدى قرنين من الزمن تقريباً، حتى بمعايير أيامنا هذه، واحدة من أكثر الإمبراطوريات تنوعاً من الناحية الثقافية، وأكثرها انفتاحاً من الناحية الدينية على امتداد التاريخ. فقد كان الملوك الأخمينديون يقومون باستقطاب أهم الموهوبين من فنانين وحرفيين وعمال ومحاربين من كافة أنحاء الإمبراطورية. بحلول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، كانت البيرسوبوليس Persepolis موطناً للأطباء الإغريق، والخطاطين والناسخين الإيلاميين، والنجارين الليديين، وقاطعي الحجارة الأيونيين، والحدادين السردينيين. كما أن الجيش الأخمينديي استمد قوته من القادة الميديين، والبحارة الفينيقيين، وسائقي العربات القتالية الليبيين، والخيالة السيسيين، ومئات الآلاف من جنود المشاة الذين جندهم من إثيوبيا، وباكتريا، وسوغديانا، وأماكن أخرى مختلفة من الإمبراطورية [٣].

بالنسبة إلى معظم الغربيين، فإن المقصود بعبارة "العصور القديمة" يشير إلى

بلاد الإغريق القديمة وإلى روما فقط. إلا أن الإمبراطورية الأخمينديَة كانت القوة المطلقة الأولى في تاريخ العالم، وكانت تحكم مناطق أكبر من كل الإمبراطوريات القديمة مجتمعة، بما في ذلك روما نفسها. لقد قزّمت فارس الأخميندية - وهي في الحقيقة فتحت وضمت إليها - الممالك الكبرى مثل مملكة آشور، ومملكة بابل، ومصر، وكانت تحكم في أوج اتساعها وقوتها ٤٢ مليوناً من البشر، الذين كانوا يشكلون آنذاك حوالي ثلث العدد الإجمالي من سكان العالم[٤]. كيف أمكن لعدد قليل نسبياً من الفرس أن يحكموا مناطق شاسعة وأعداد هائلة من البشر كهذه؟ سوف يحاول هذا الفصل التركيز على أن التسامح كان عاملاً حاسماً في ذلك: أولاً، من خلال السماح للفرس في بناء إمبراطوريتهم التي سادت العالم آنذاك، ثم من خلال مساعدته لهم كي يحافظوا عليها.

أين تقع باكتريا،
وهل علينا أن نصدق هيرودوتس؟

في الألفية الخامسة قبل الميلاد، كان السهل المرتفع العظيم الذي يشكل اليوم إيران الحديثة مأهولاً. وكان سكانه الأوائل يمارسون طقوساً عائلية غريبة:

> كان شائعاً بين الدرباسيين، أن يتم قتل كل رجل تجاوز السبعين، وتناوله كطعام من قبل أقربائه، وكانت عجائز النساء يقتلن بواسطة الخنق، ويتم دفنهن...أما القزوينيون الذي أطلق اسمهم على البحر الذي كان يطلق عليه قبل ذلك البحر الهركياني، فقد كان يتم تجويع من تجاوز السبعين حتى يقضوا نحبهم. وكانت جثثهم ترمى في أحد الأماكن المقفرة ويتم مراقبتها من مسافة معقولة. إذا حدث وانتشلت من التابوت بواسطة النسور، فإن هذا كان يعتبر فألاً ممتازاً بالنسبة للموتى، ولكن لو حدث وأن أخذت هذه الجثث الحيوانات المتوحشة أو الكلاب، فإن الموتى كانوا سيعتبرون أقل حظاً؛ إلا أن أسوأ فأل على الموتى كان يكمن في أن جثثهم تبقى في العراء لا يمسها أحد. ...و إلى الشرق من تلك المنطقة، كانت تحدث أشياء مثيرة للاشمئزاز بنفس الدرجة وبقيت تمارس إلى أن وقع الغزو بقيادة الإسكندر الكبير. فقد كان المرضى والمسنون يرمى بهم إلى الكلاب وهم أحياء [٥].

مع بدء الألفية الثانية قبل الميلاد، خضعت هذه الأقوام الصديقة للفتح الآري. وبالرغم من أن النازيين حرفوا هذه العبارة لاحقاً، فإن عبارة «الآري» هي بالأساس توصيف لغوي يشير إلى مجموعة من الشعوب التي كانت تتكلم لغات أو لهجات هندو- أوروبية شرقية، والتي هاجرت من جنوبي روسيا وآسيا الوسطى إلى الهند وبلاد الرافدين، والسهل الإيراني واستوطنت فيها. ليس من الواضح كيف استطاع الآريون التغلب على المجتمعات التي كانت تستوطن تلك المناطق قبل هذه الهجرة؛ لكنهم وبعد عدة مئات من السنين، استطاع الآريون تأسيس ممالك في تلك المناطق وإطلاق أسمائهم عليها: على سبيل المثال، الميديون في ميديا، والباكتريون في باكتريا، والفرس في فيرسيس أو فارس [٦].

كان الفرس أنفسهم يتكونون من عدد من المجموعات القبلية والعشائر، وكانت القبيلة الأخمينديية واحدة من تلك القبائل. وبمرور الزمن، استطاع الأخمينديون توسيع رقعة الحكم الفارسي ليشمل ممالك آرية أخرى. إن اسم إيران، في الواقع، مشتق من الكلمة الفارسية "إيران شهر" وتعني «إمبراطورية الآريين». إلا أن الإمبراطورية الأخمينديية كانت أكبر من إيران الحالية بكثير. وكانت مقاطعاتها أو ولاياتها الفارسية، بأسمائها القديمة تتناسب مع أسماء بعض المناطق الشهيرة في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. فبابل التي فتحها الأخمينديون -على سبيل المثال- سنة ٥٣٩ قبل الميلاد كانت فيما يسمى اليوم بالعراق، وكانت على بعد ستين ميلاً تقريباً من بغداد. وكانت مملكة سوغديانا فيما يعرف اليوم بأوزبكستان. أما باكتريا، التي كانت تعني الكثير بالنسبة للإمبراطورية الأخمينديية، فهي ما يعرف اليوم بأفغانستان [٧].

ملاحظة تتعلق بالمصادر: لم يخلف الحكام الأخمينديون فعلياً أي سجلات تاريخية مكتوبة عن إمبراطوريتهم. وقد روى الفرس القدامى حكايات انتصارات وأفعال ملوكهم بشكل رئيس من خلال إرثهم الشفهي. الوثائق القليلة التي بحوزتنا عن الملوك الأخمينديين تتضمن بشكل رئيس نقوشاً ملكية -على سبيل المثال-

المنحوتات الأسطوانية للملك سايروس، أو المنحوتات الثلاثية الأبعاد للملك داريوس على تلال بيهستان. هذه النقوش -لسوء الحظ- لا تشكل توثيقاً سردياً للأحداث الحقيقية. وهي ليست سوى تمجيد تجريدي للسلطة الملكية وفضائلها، بالإضافة إلى الروح الدعائية التي تبثها. فالمجسم الأسطواني للملك سايروس يعلن «إنني أنا سايروس، ملك العالم، والملك العظيم، والملك القادر، ملك بابل، وملك سومر وأكاد، وملك كل أصقاع الدنيا» [٨].

نتيجة لذلك، فإن معظم ما نعرفه عن الإمبراطورية الأخمينديه مصدره عدد محدود من المصادر الإغريقية بما في ذلك كتاب زينوفون الحملة العسكرية Anabasis ، ومسرحية الفرس Persians لأسخيلوس، والأهم من هذين المصدرين، وأعني به كتاب تواريخ Histories لهيرودوتس. عاش معظم هؤلاء المؤلفين الكلاسيكيين خلال النصف الثاني من العصر الأخميندي، وبنوا أطروحاتهم جزئياً على الشهادات الشفهية، والأساطير الفارسية التي انتقلت إليهم على مر السنين؛ وهنا أيضاً، من الصعب التمييز بين الحقيقة التاريخية وبين الدعاية السياسية.

بالإضافة إلى ذلك، وبالاعتماد على تدوين ذلك العصر، يجدر بنا أن نتذكر أن الإغريق كانوا أعداء للفرس، ورعايا تحت حكمهم، وأخيراً فاتحيهم. وهكذا، فإننا لا نستطيع بالضرورة اعتبار الكتاب الإغريق أكثر من كشف عن التاريخ الفارسي حيادية - تصوروا صدام حسين مؤلفاً لكتاب افتراضي بعنوان تاريخ الولايات المتحدة بين سنتيْ ١٩٩٠ و ٢٠٠٦. نتيجة لذلك، كان الوصف الذي أطلقه الإغريق على الفرس على أنهم «برابرة آسيا»، أو تصوير الإغريق للملوك الأخمينديين على أنهم منحطون وفاسقون لا يساوي حبة ملح. يستثنى من ذلك المؤرخ هيرودوتس الذي كتب عن الفرس مستخدماً كماً قليلاً من العدوانية بالمقارنة مع ما كتبه معاصروه لدرجة أن كاتباً إغريقياً مثل بلوتارك وصفه بأنه «صديق للبرابرة» (philobarbaros).

عموماً، هناك ما يكفي من المصادر ذات القواسم المشتركة، والمنظورات المختلفة، التي تشكل دعماً للدليل الأثري، بحيث يجعلنا نطمئن إلى مصداقية أغلب

الحقائق السياسية المتعلقة بالإمبراطورية الأخمينديـة. وسأقوم بالإشارة إلى أي شكوك أو تناقضات أو تفسيرات مخالفة بين المؤرخين حيثما ترد.

التسامح وصعود
الإمبراطورية الأخميندية

تبدأ حكاية الإمبراطورية الأخميندية مع سايروس الكبير. أصول سايروس محاطة بالأساطير. استناداً إلى النسخة التي يفضلها هيرودوتس، فإن سايروس كان حفيداً لأستياجيس، الحاكم الضعيف الذي كان آخر من مثل السلالة التي حكمت مملكة ميديا القوية. عندما ولد سايروس - لابنة أستياجيس وزوجها كامبيسيس، وهو فارسي من عشيرة الأخمينديين - أمر أستياجيس بقتل حفيده، وكان هو هذا الوليد الجديد، بعد أن راوده حلم مزعج يشير إلى أن سايروس سيخلعه عن عرشه عندما يشتد عوده.

فشلت الخطة، كما تفشل مثل هذه الخطط دائماً. فقد سلّم هارباغوس، وهو الذي أعطاه أستياجيس الأمر بقتل الطفل، ذلك الوليد لأحد الرعاة الذي ربّى سايروس كابن له. اكتشف أستياجيس أخيراً أن هارباغوس خدعه، وأن سايروس ما زال على قيد الحياة، إلا أن مستشاريه المجوس أعادوا تفسير حلمه من جديد، بحيث لم يعد أستياجيس يخشى سايروس بعد ذلك. تم إرسال سايروس إلى بلاد فارس، حيث انضم من جديد إلى عائلته الأخميندية. لكن الحظ لم يبتسم لهارباغوس بنفس السوية؛ إذ دعاه أستياجيس إلى وليمة في قصره، وهناك، قدم له لحم ابنه ممزوجاً مع لحم الخراف [٩].

وتقول نسخة أخرى من أسطورة سايروس: إن الراعي رماه في أحد الأماكن المقفرة، لكن كلبة برية أنقذته وربّته. وهناك أيضاً رواية أخرى تقول إن أمه كانت راعية للماعز، وإن أباه كان لصاً فارسياً. وفي جميع الأحوال، ظهر سايروس من جديد؛ وبحلول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد أصبح سايروس الملك التابع تحت ظل أستياجيس لبلاد فارس. وبعد عدة سنوات، قاد سايروس تمرداً ضد أستياجيس. وقد انضمت

إليه في هذا التمرد عدة قبائل وعشائر فارسية، وكانت أشهرها وأقواها، قبيلة الأخمينديين، بالإضافة إلى هارباغوس الذي قدمت له وليمة العشاء تلك، غير المحمودة.

استطاع سايروس إلحاق الهزيمة بأستياجيس واستولى على مملكة ميديا، وألحق بها ممالك كل من آشور، وبلاد الرافدين، وسوريا، وأرمينيا، وكابوديشيا. وبحلول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، فتح سايروس كلاً من مملكة ليديا (التي قامت في ما يعرف بتركيا الحالية)، والمملكة البابلية الكبرى الجديدة. وأصبح الآن حاكماً على أكبر إمبراطورية في تاريخ العالم [١١].

اتبع سايروس إستراتيجية «ضرب العنق» - ولكن ليس عنق القائد بل عنق القيادة. فبعد أن يفتح أي مملكة جديدة، ويستتب له الأمر فيها، كان سايروس يقوم ببساطة، بعزل الحاكم المحلي، والإبقاء على حياته، والسماح له بالاستمتاع بحياة مترفة؛ وكان يستبدله بحاكم فارسي صوري يحكم المنطقة أو الولاية. وكان الحاكم الصوري في أغلب الأحيان من الطبقة الأرستقراطية الفارسية. ولم يكن سايروس يتدخل في تفاصيل الحياة اليومية لرعاياه في تلك المناطق بعد تعيين حاكم صوري لها إلا في حالات نادرة، وكان يتغاضى عن آلهتهم وطقوسهم التعبدية، وثقافاتهم المتفاوتة. كان مؤيداً للتعددية اللغوية حيث سمح باستعمال اللغات الآرامية، والعيلامية، والبابلية، والمصرية، والإغريقية، والليدية والليسيانية في المعاملات الرسمية الإدارية في الإمبراطورية. أمر بتنظيم القوانين المحلية وتفعيلها مبقياً على هيكلية السلطات المحلية. ولم يكن من غير المألوف أن يحتفظ كبار الموظفين في المناطق المستعمرة بمناصبهم الرسمية تحت الحكم الأخمينيدي. تشير السجلات البابلية أيضاً إلى أن العائلات نفسها التي كانت تسيطر على الأعمال التجارية قبل الفتوحات التي قام بها سايروس، بقيت تمارس الدور نفسه بعد هذه الفتوحات أيضاً[١٢].

ربما كان أكثر ما يلفت النظر،هو التسامح الديني الذي أبداه سايروس - وتجلى ذلك في ميله اللافت إلى احترام المعابد، والديانات، والآلهة المحلية للشعوب التي

قام بإخضاعها. بمعنى من المعاني، كان من الأسهل على الحكام في العالم القديم السماح بممارسة طقوس العبادة الوثنية التي تتميز بتعدد الآلهة. كانت الديانات السائدة في الشرق الأدنى القديم توفيقية بعكس الديانتين اليهودية والمسيحية. فقد افترضت تلك الديانات وجود العديد من الآلهة، وكان كل واحد من تلك الآلهة يحرس المدينة المولج بحمايتها، وكذلك شعب تلك المدينة وكل مظاهر الحياة فيها. لكن هذه الرؤية الكونية التوفيقية لم تكن تعني بالضرورة أن على الشعوب المختلفة أن تتسامح مع المعتقدات الدينية لبعضها بعضاً. على العكس من ذلك، أراد العديد من الملوك الفاتحين في العصور القديمة إبراز تفوق آلهتهم الخاصة بهم - وفرض سلطتهم الخاصة بهم - بواسطة كبت معتقدات الشعوب المهزومة وتدميرها.

قبل سقوط الإمبراطورية الآشورية على سبيل المثال، فتح الملك الآشوري آشوربانيبعل بلاد عيلام. استباح المملكة برمتها، وسوى مدنها الرئيسة بالأرض، ونهب معابدها، وسحل رموزها الدينية المقدسة. كما أعطى الأوامر لجيشه لتدمير المقابر الملكية للملوك العيلاميين لأنهم، كما وصفهم آشوربانيبعل، «لم يكونوا يعبدون "إلهيه" آشور وعشتار». وقد فعل الملوك الآشوريون الشيء نفسه في مدن مثل القدس وطيبة، وحولوا العديد من المناطق إلى أرض يباب انتفت منها كل مظاهر الحياة البشرية والحيوانية [١٣].

كان نابونيدوس، الملك الذي كان يحكم بابل عندما سقطت بيدي سايروس، مشهوراً بتعصبه الديني. فقد قام بقمع عبادة الإله مردوخ في بابل، وفرض على الشعب بدلاً من ذلك عبادة إله القمر الذي تتبع له الديانة التي يؤمن بها شخصياً. وإذا اعتقدنا بصحة العبارات المنقوشة على المجسم الأسطواني للملك سايروس، الموجود حالياً في المتحف البريطاني، فإن نابونيدوس قام «بعمل شرير» ضد رعاياه الذين مارس عليهم التعذيب من خلال إجبارهم «على إتباع ديانة ليست مناسبة لهم.» في المقابل، أجرى سايروس مقاربة معاكسة لتلك التي فرضها نابونيدوس.

بعد دخوله إلى مدينة بابل على رأس جيشه، وقف سايروس خاشعاً أمام نصب

الإله مردوخ وذلك بغية استمالة السكان المحليين. قدم نفسه كمحرر للبابليين، اختاره لتلك المهمة وساعده في تحقيقها إلههم العظيم مردوخ. وفيما يلي خطبته التي ألقاها كما هي مدونة على المجسم الأسطواني لسايروس:

> عندما خطوت داخل بابل مزهواً بانتصاري، اتخذت لنفسي مسكناً مهيباً بغبطة وسرور في القصر الملكي. وجّهَ الإله العظيم مردوخ شعب بابل النبيل بتقديم الولاء لي، وبدوري، كنت أقوم بتقديم واجب الشكر اليومي له.
>
> لم أسمح لأحد أن يمارس الإرهاب في أي مكان من بلاد سومر وأكاد. ناضلت من أجل السلام في بابل كما في كل مدنه المقدسة الأخرى. أما بالنسبة لشعب بابل... فقد ألغيت كل أشكال العمل القسري...في نينوى، وآشور، وسوسا، وأكاد، وإيشنونا، وزامبان، وميتورنو، ودير، وصولاً إلى منطقة غوتيوم، وعدت إلى تلك المدن المقدسة على الجانب الآخر من نهر دجلة التي تحولت حرماتها المقدسة إلى خراب منذ مدة طويلة [١٤].

وبالرغم من أن هذا العرض كان يقصد به -وإن كان جزئياً- الدعاية وتمجيد الذات، فإنه مع ذلك، كان يبين كيف كان سايروس يرغب في أن ينظر إليه رعاياه.

تشهد المصادر الكلاسيكية بشكل مستمر على التسامح والشهامة اللذين كان يبديهما سايروس. على سبيل المثال، يكتب زينوفون في سرديته الموسومة سايروبيديا Cyropaedia، ذات اللمسة الرومانسية:

> إذا أردنا تصديق أن ذلك الرجل [سايروس] يستحق كل هذا الإعجاب، فإن علينا تقصي من هو، وما هو أصله، والصفات التي كان يتحلى بها، ونوع التعليم الذي تلقاه، كي يكون بإمكاننا استيعاب كيف تفوق على نفسه في تلك الطريقة العظيمة من الحكم...أن تكون إمبراطورية سايروس هي الأعظم، والأكثر ازدهاراً من بين كل الممالك في آسيا - فإنها تشكل بحد ذاتها شاهداً على ذلك... وبالرغم من أنها كانت تغطي مساحة شاسعة، فقد كانت تحكمها إرادة سايروس وحده؛ وهو بدوره أظهر الاحترام لرعاياه واهتم بهم أيما اهتمام كما لو كانوا أبناءه الطبيعيين؛ وبدورهم، أظهروا الكثير من الاحترام لسايروس وكأنه كان بمثابة أب لهم [١٥].

اسمحوا لي بإبداء ملاحظة جانبية: يكتب زينوفون أيضاً بإعجاب عن مهارة

سايروس في تشذيب صورته أمام الناس. ففي أحد الاستعراضات التي جرت في بيرسيبوليس، «ظهر سايروس تحفُّ به العظمة من كل جانب، وكان من المريح جداً النظر إليه.» ويعود ذلك جزئياً إلى أنه اختار أن يرتدي الزي الوطني التقليدي الجذاب للميديين:

> كان [سايروس] يعتقد أن اللباس [الميدي] يساعد أي شخص في إخفاء أي عيب جسدي يعاني منه، وأنه يجعل الشخص الذي يرتديه أطول وأكثر جاذبية مما هو عليه في الواقع بكثير؛ ذلك أن الحذاء الدارج عندهم له شكل يساعد من يلبسه في إخفاء أي شيء في نعل الحذاء بسهولة، ومن دون أن يكتشفه أحد، وهو ما يجعله يبدو أطول مما هو عليه. شجع أيضاً على استخدام قلم الرصاص لتزيين العينين، بحيث تبدوان أكثر جاذبية وشهوانية مما هما عليه في الواقع، وشجع على استخدام أدوات الزينة لجعل البشرة تبدو أكثر جمالاً مما زودتهم به الطبيعة. كما قام بتنبيه مساعديه ألا يبصقوا أو يمسحوا أنوفهم في العلن [١٦].

الروايات المتواترة عن سايروس في الكتاب المقدس أكثر تمجيداً لشخصه مما سبق. فبعد فتح بابل، قام سايروس بتحرير اليهود من أسرهم البابلي، وسمح لهم بالعودة إلى القدس. وكمكافأة له على عمله الخيّرِ ذاك، وصفه أنبياؤهم بالمنقذ. يصف كتاب أشعيا سايروس على أنه «مختار» من قبل يهوه، وهو اسم الإله عند اليهود:

> هكذا قال يهوه لمن اختاره، لسايروس، الذي أمسك به من يده اليمنى كي يخضع الأمم التي تقف في وجهه، ويكشف عورات الملوك، ويفتح البوابات الموصدة حتى لا تغلق في وجهه من جديد: سوف أسير من أمامك؛ أمهد لك التلال والمرتفعات، وسوف أحول البوابات البرونزية إلى شذرات، وأحطم القضبان الحديدية. سوف أكشف لك عن الكنوز الخبيئة، والمؤن السرية كي تعرف أنني أنا يهوه.

استناداً إلى كتاب عيزرا، لم يحرر سايروس اليهود وحسب، بل أعاد إلى القدس «مراكب مليئة بالفضة والذهب» استولى عليها نبوخذ نصر وعاد بها إلى بابل؛ كما قام سايروس أيضاً بإعادة بناء المعبد اليهودي في القدس على نفقته الخاصة كما يبدو [١٧].

ليس هناك من شك في أن سايروس الكبير روِّجَت له صورة دعائية جيدة، بدءاً بالروايات الإغريقية، مروراً بالمجسم الأسطواني لسايروس، وانتهاء "بالعهد القديم" وتوحي تلك الصورة بأنه أول ملك أخميندي ظهر على هذا الشكل من التسامح لدرجة أن بعض المعجبين في العصر الحديث أطلقوا عليه لقب المؤسس «لحقوق الإنسان». لكن هذه الصورة فيها الكثير من التناقض والتضليل. فقد كانت الفتوحات التي قام بها سايروس أكثر دموية وقسوة مما تصفها المصادر القديمة؛ فمن غير المحتمل أن يكون الفرس قد تم الترحيب بهم بأذرع مفتوحة من ميديا إلى بابل [١٨].

الأهم من ذلك، أن أغلب المؤرخين في العصر الحديث يتفقون على أن التسامح المنسوب إلى سايروس له علاقة بالإستراتيجية واللعبة السياسية، ولم يكن مبنياً على مبدأ. من هنا، يمكن اعتبار أن التقديس الذي أبداه للآلهة المحلية - سواء كان ذلك للإله مردوخ بالنسبة للبابليين، أو يهوه بالنسبة لليهود - أضفى على سايروس صفة الشرعية. وكان احترامه للتقاليد والممارسات المحلية عاملاً مهماً في تخفيف حدة المقاومة والعصيان اللذين يمكن أن تقوم بهما الشعوب التي أخضعها بواسطة فتوحاته. أما المفهوم الحديث لحرية الأديان واعتباره شكلاً من أشكال «حقوق الإنسان» فلم يكن معروفاً لدى سايروس أو أي من خلفائه. كان التسامح بالنسبة للأخمينديين يعني بكل بساطة سياسة ناجعة [١٩].

المجنون والكرسي

ترك سايروس الإمبراطورية المترامية الأطراف التي أسسها لابنه كامبيسيس الذي حكم مايقارب ثماني سنوات (بين سنتي ٥٣٠ و٥٢٢ تقريباً). استناداً إلى المصادر الإغريقية، لم يكن كامبيسيس يتمتع بالصفات المتوازنة التي كان يتصف بها والده. وقد عبر هيرودوتس عن هذه الناحية قائلاً: «ليس لدي شك مطلقاً بأن كامبيسيس كان مخبولاً». وقد روى هيرودوتس حكاية مشوقة عن الجهود التي بذلها

كامبيسيس لفرض القانون والنظام: «أصدر القاضي سيسامينز حكماً جائراً مقابل رشوة تلقاها؛ قام على إثرها كامبيسيس بذبحه كما تذبح النعاج، وسلخ جلده، ثم قام بدباغته وحوله إلى شرائط استخدمها في تنجيد كرسي ابنه القاضي أوتانيس الذي عين في منصب والده كي يكون تذكيراً تحذيرياً بماهية ما كان يجلس عليه»[٢٠].

وإذا كان كامبيسيس مجنوناً، فقد كان لذلك الجنون فاعليته وتأثيره. فقد قام بغزو مصر بعد تبوئه العرش بمدة وجيزة؛ وبحلول سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، استطاع أن يستولي على الهيليوبوليس، حيث استمر في اتباع سياسة والده في احترام التقاليد والمعتقدات الدينية المحلية.

أعلن كامبيسيس في مصر أنه "ابن الإله رع" و "عشيق (الإلهة) واجيت". وبناء على إلحاح من مستشاره المصري أودجاهورسنيت، ذهب كامبيسيس إلى مدينة سيس، وهناك خر ساجداً أمام المذبح في معبد نيث، وهي إلهة مصرية قديمة. بدأ بممارسة الطقوس الدينية بموجب التقاليد المصرية، وقدّم نذوراً وقرابين للآلهة المحلية، وساعد في ترميم معابدها. يظهر رسم لكامبيسيس على البلاطة الشهيرة التي تم اكتشافها سنة ١٨٥١، والتي تخص الإله المصري القديم سيرابيس، وهو في الزي الملكي المصري، وحول عنقه يلتف ثعبان الكوبرا المصري المقدس، والمنتصب الرأس. وقد أباح كامبيسيس لنفسه كما وصفه المؤرخ بيير بريانت، بأن يتمصّر في مصر. فبدلاً من فرض الثقافة الفارسية على رعاياه المصريين، قدم كامبيسيس نفسه كتابع مخلص للآلهة المصرية، وكخليفة شرعي للفراعنة المصريين [٢١].

بالإضافة إلى مصر، قام كامبيسيس بإخضاع فينيقيا، والعديد من المدن اليونانية في وسط آسيا. ومع اكتمال هذه الفتوحات، فقد ابتلعت الإمبراطورية الأخميندية ليس فقط جميع الممالك الرئيسة في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى، بل أصبحت بفضل دمج الأسطولين الفينيقي والمصري أعظم قوة بحرية في العالم، إذ كانت تسيطر على جبهة بحرية مترامية الأطراف تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي. توفي كامبيسيس سنة ٥٢٢ قبل الميلاد، إما انتحاراً، وإما بسبب مرض الغرغرينا؛ إذ إن هذا الأمر يعتمد على المصدر ذي الصلة [٢٢].

داريوس الكبير

وصلت الإمبراطورية الأخمينديّة إلى أوج قوتها وازدهارها في ظل قيادة داريوس الكبير. قام داريوس بمد النفوذ الفارسي إلى الهند، وثبت أقدامه في بلاد الإغريق، كما صوّب غزواته باتجاه شرق أوروبا حيث تجاوز نهر الدانوب في محاولة فاشلة منه لإخضاع شعوب سيثيا الأوراسية (وهي شعوب تعتمر الخوذات، وتشتهر بمهارتها في امتطاء الخيول، كانت تتخذ من المنحدرات الروسية الجنوبية موطناً لها، وكانت تقوم -كجزء من طقوس الدفن عندها - بتحميص بذور الماريجوانا على حجارة محمرة من اللهب واستنشاق الدخان المنبعث منها). كان على داريوس في مستهل حكمه مواجهة موجة انتهازية من العصيان تسببت بها الطبيعة المشبوهة للطريقة التي اعتلى بها العرش. قام بقمع كل حركات العصيان تلك، بمنتهى القسوة في بعض الحالات «حيث أغرقهم في بحر من الدماء» كما قال هو حرفياً [٢٣].

كان داريوس إدارياً استثنائياً بكل المقاييس. فعندما لا يكون منهمكاً في حملات عسكرية عديدة، كان يشغل نفسه بالتأكيد على وجوب أن تتبوأ الإمبراطورية الأخمينديّة موقعها في التاريخ كواحدة من أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم، وأكثرها حضارة ورقياً. كان يشرف بنفسه على بناء عواصم إقليمية جديدة، وتحولت بيرسيبوليس إلى واحدة من العجائب المعمارية في العالم القديم. أصدر عملة رسمية جديدة، وقام بتوسيع شبكة طرق رائعة ونظام اتصالات تربط بين أجزاء الإمبراطورية، وكانت تتضمن الخدمات البريدية والمراسلين السِّراع، والإشارات النارية [٢٤].

وضع داريوس إطاراً مؤسساتياً لنظام الضرائب والجزية لتمويل هذه المشروعات الطموحة؛ وفرض في هذا الصدد على الولايات التابعة مبالغ مالية مقطوعة يتم تحصيلها عادة على شكل وحدات وزن (طالِنات) من الذهب أو الفضة. يروي هيرودوتس أن كلاً من باكتريا والهند كانت تدفع ٣٦٠ طالناً في السنة. وكان على مصر أن تدفع ٧٠٠ طالناً من الذهب أو الفضة سنوياً بالإضافة إلى «الدخل الذي

يردها من بيع السمك الذي يتم اصطياده من بحيرة مويريس.» أما بابل فكان عليها أن تمول الخزانة الإمبراطورية بما مجموعه ١٠٠٠ طالِن سنوياً بالإضافة إلى تقديم «٥٠٠ من الصبية الخصيان». بالإضافة إلى ذلك، لم يكن على بعض الشعوب دفع ضرائب، لكنها كانت تقدم إسهاماتها على شكل «هدايا». على سبيل المثال، أرسلت مملكة كولكيس (وهي مملكة في القوقاز) «هدية» وكانت عبارة عن «مئة صبي ومئة فتاة»؛ أما الإثيوبيون فقد بعثوا «باثنين من الكورتات، يعادل الواحد منهما ما حجمه ربع غالون من الذهب الخام»ومئتي جذع من خشب الأبنوس (وخمسة من الصبية الإثيوبيين) وعشرين من أنياب الفيلة.» استناداً إلى بلوتارك، كان داريوس خبيراً متمرساً في فن خفض كمية الضرائب المفروضة على بعض الولايات. فبعد أن يقوم بتحصيل الضريبة المفروضة على إحدى الولايات، كان داريوس «يستشير» بعض القادة المحليين متسائلاً عما إذا كانت المبالغ المفروضة ثقيلة جداً على سكان تلك الولاية، يعلن بعدها بكل شهامة خفض تك الضرائب بنسبة النصف [٢٥].

استمر داريوس طيلة مدة حكمه بالمحافظة على التقاليد الأخمينديه المتمثلة في التسامح الثقافي والديني؛ وهو في واقع الأمر خطا بها خطوة إضافية إلى الأمام. فقد كان داريوس يفتخر بالشمولية الاستثنائية لإمبراطوريته؛ وأطلق على نفسه اللقب الذي تمت ترجمته كما يلي: «ملك البلدان التي تضم كل الأعراق» أو «ملك الشعوب التي تنتمي إلى كافة الأصول العرقية.» كما أظهر كل الاحترام للتعدد اللغوي في إمبراطوريته: فقد ترجمت نقوشه الملكية إلى العديد من اللغات؛ كانت الأوامر الصادرة عن حكام الولايات مكتوبة باللغات الإغريقية والبابلية واللوسيانية أو الديموطية، كما كان المترجمون ينشطون على امتداد المملكة. واللافت أن داريوس نفسه كان بشكل شبه مؤكد، لا يتكلم سوى لغة واحدة، وربما لم يكن يجيد القراءة[٢٦].

كان داريوس، كما يظهر في بعض النقوش الملكية، يشير إلى الإله أهورا مازدا على أنه «الإله الأعظم»، و«إله الآريين». ما يزال المؤرخون يناقشون هذه المقطوعات حتى الآن: ماذا كانت الديانة التي دان بها الأخمينديون؟ هل كان داريوس وسايروس يعبدان الآلهة نفسها؟ هل كان الأخمينديون زرادشتيين؟ هناك إجماع بين المؤرخين

حول نقطة واحة فقط: لم يفرض داريوس -شأنه في ذلك شأن سايروس- الآلهة الفارسية على رعاياه. على العكس من ذلك، كان داريوس وحكام الولايات التابعة له يظهرون احتراماً شديداً للمعتقدات والآلهة المحلية. كما ترك داريوس الهيكليات الاجتماعية المحلية على حالها من دون أن يتعرض لها بأي سوء. «رأت الغالبية العظمى من النخب الفكرية والاقتصادية والاجتماعية في البلدان التي كانت شعوبها من رعايا الإمبراطورية، باستثناء محتمل من مصر، في الملك الفارسي ليس نموذجاً للحاكم أو الطاغية الأجنبي، بل الضامن للاستقرار السياسي، والنظام الاجتماعي، والازدهار الاقتصادي؛ ومن ثمَّ الداعم لمواقفها» [٢٧]. اشتهر داريوس بجمعه وتنظيمه للقوانين المحلية ووضعها حيز التطبيق. على سبيل المثال، كان الملك الفارسي يدعم قرارات القضاة المصريين، وكان الضامنَ لهذه القرارات. كما نقل عنه أنه اعترف بالتوراة وأمر باعتبارها قانوناً لإسرائيل [٢٨].

حصد داريوس مكاسب جمة من ممارسته لسياسة التسامح تلك. فبدلاً من إضاعة موارد الإمبراطورية بغية تدمير الشعوب التي أخضعها لحكمه، أو محاولة «فوْرَسَتهم»، قام داريوس بتطويع مهاراتهم ومواهبهم ومواردهم المختلفة لصالحه. وبهذه الطريقة، استطاع داريوس بناء أروع العواصم الإمبراطورية التي عرفها العالم.

على سبيل المثال، عندما شيّد مسكنه الملكي الكبير في سوسة، استخدم داريوس أفضل المواد، واستدعى أفضل فناني إمبراطوريته الذين انتقاهم، من ستة عشر من الشعوب التي كانت تحت حكمه على الأقل. يقول داريوس كما هو مدون في «ميثاق التأسيس» لسوسة، بثلاث لغات ما يلي:

> أنا من بنى القصر في سوسة، تم جلب مواد بنائه من أماكن بعيدة....وبنيَ من القرميد الرملي الذي صنعه البابليون أنفسهم. كما أن عوارضه الخشبية المصنوعة من خشب الأرز تم إحضارها من جبل يدعى لبنان. لقد أحضر ذلك الخشب من هناك.... العاج الذي تم تصنيعه هنا، جاء من إثيوبيا والهند وأراكوسيا. والحرفيون الذين قولبوا الأحجار، كانوا من الأيونيين والسردينيين. أما المنقبون عن الذهب والمصنّعين له فقد كانوا من مصر وسردينيا. كما أن من

قامـوا بشـواء القرميـد، فكانـوا مـن البابليـين؛ وأخـيراً فـإن مـن قامـوا بتزيـين الشرفـات فكانـوا مـن الميديـين والمصريـين.

وقد علّق المؤرخ ريتشارد فراي على هذا العرض بالقول: إن من المرجح «أن هذا أكثر طاقم من العمال له هذه الصفة العالمية حتى ذلك التاريخ» [٢٩].

كانت القدرة على استقطاب أناس من مختلف المشارب في الإمبراطورية، السمة الإستراتيجية التي مارسها ليس فقط داريوس، بل جميع الملوك الأخمينديين. فقد استقطب البلاط الإمبراطوري الأطباء المصريين، والعلماء الإغريقيين، وعلماء الفلك البابليين. واستناداً إلى المصادر الإغريقية، حاول الملوك الأخمينديون باستمرار إغراء المفكرين الإغريق بالعمل لديهم، مغدقين عليهم الوعود بمكافآت مجزية. عندما احتاج داريوس سنة ٥١٣ قبل الميلاد لبناء جسر فوق مضيق البوسفور، اختار معمارياً من جزيرة ساموس الإغريقية. وبعد ثلاثة عقود، أمر الملك الأخمينيدي زيركسيس ببناء جسرين آخرين فوق ما يعرف الآن بمضيق الدردنيل. وظّفَ زيركسيس لهذه الغاية مختصين من بلدان عدة وخاصة «الفينيقيين الذين قاموا بمد كابلات من ألياف الكتان الأبيض، والمصريين الذين جلبوا معهم كابلات من ورق البردي» [٣٠].

الأهم من هذا كله، أن الأخمينديين استطاعوا بسبب هذا التسامح تجميع أعظم آلة حرب في تاريخ البشرية. كان الجيش الفارسي تحت قيادة سايروس الكبير يتكون مبدئياً من عناصر من الفرس والميديين (كان الفرس والميديون مرتبطين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً. وغالباً ما استخدم الإغريق والمصريون عبارتيْ «الفرس» و«الميديين» بشكل تبادلي)[٣١]. في قلب هذا الجيش كان الخالدون العشرة آلاف؛ وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأن أعدادهم لم تتراجع أبداً إلى ما دون هذا العدد، ذلك أن «البدلاء كانوا دائماً جاهزين للحلول محل أي من هؤلاء إذا ألمّ به مرض، أو تعرّض للقتل». بالاستناد إلى هيرودوتس، لم يكن هؤلاء الخالدون «يرتدون أفخر الملابس الموشاة بالذهب وحسب، بل كان يسمح لهم عند توجههم

نحو ساحات المعارك، اصطحاب جواريهم وخدمهم في عربات خاصة، في الوقت الذي كان طعام خاص يجلب إليهم على ظهور الجمال، والحيوانات الأخرى التي تنقل البضائع.» كان تسعة آلاف من أولئك الخالدين من الرمّاحة مسلحين برماح مرصعة برمّانات فضية، أما الألف الباقي فكانوا يشكلون الحرس الملكي للملك، وكانوا يمتشقون أسلحة مرصعة برمانات ذهبية [٣٢].

مع كل فتح من الفتوحات الجديدة، كان الجيش الأخميندي يضيف وحدات عسكرية جديدة، بما في ذلك فرق كاملة من الخيالة، والكتائب والقوى البحرية. وبعد مجيء داريوس إلى الحكم، أصبح الجيش قوة ضخمة مدهشة متعددة الجنسيات، يقودها بشكل رئيس الفرس. كانت كل ولاية تجهز فرقتها الخاصة بها، والتي بدورها كانت تقسم إلى وحدات، كل واحدة منها تتكون من عشرة من الجنود، ومجموعات يبلغ تعداد الواحدة منها مئة، وأفواج يبلغ تعداد الواحد منها ألفاً من الجنود، وهكذا. كان الجنود يرتدون الدروع والخوذات، ويمتشقون أسلحة تدل على هوياتهم الوطنية. كانت فرق المشاة الفارسية تحمل سهاماً طويلة، وسيوفاً قصيرة، وتروساً من أغصان لدنة مجدولة. وكانوا يضعون تنكاً متعدد الألوان فوق الدروع التي يلبسونها، ويعتمرون قبعات واسعة وعمائم. مقابل ذلك، كان الألوراديون يلبسون «خوذات خشبية»؛ أما البافلاغونيون فكانوا يعتمرون «خوذات ذات ضفائر»، وكان البيسيديون يضعون «خوذات برونزية ذات ريش كعرف الديك، وقرنيْ وأذنيْ الثور.» كما كان هؤلاء يرتدون ألبسة غير مألوفة اجتماعياً تتمثل في «سراويل بنفسجية اللون» تضفي عليهم منظراً لافتاً جداً» [٣٣].

بُذِلت محاولات حثيثة لربط مهارة الشخص بالدور المنوط به. كانت البحرية الأخمينديه على سبيل المثال -وهي مصدر القوة البحرية الأخميندية الهائلة- تتكون بشكل رئيس من الفينيقيين، وهم البحارة المهرة الذين شكلت سفنهم حجر الرحى في الأسطول الفارسي. أما الفرس الذين لم يكونوا شعباً خبيراً بالشؤون البحرية، فقد تبنوا التجارة البحرية؛ ولذلك ازدهرت أعمال التجار الفينيقيين في ظل حكم

الأخمينديين. وبدورهم، استفاد الحكام الأخمينديون الذين كانت لهم حصة وافرة من الأرباح التجارية من خلال الرسوم والضرائب الجمركية [٣٤].

استفاد الفرس أيضاً من القوة البحرية للمصريين والإغريق. ففي ظل حكم داريوس، أبحر الأميرال سكايلاكس الأيوني في رحلته الشهيرة عبر نهر الإندوز وصولاً إلى المحيط الهندي، ومنه إلى مصر. ويبدو أن داريوس أرسل سفناً استكشافية أخرى أيضاً أبحرت حول إفريقيا. بالإضافة إلى ذلك، قام الفرس بتجنيد أعداد كبيرة من القراصنة الإغريق المشهورين بقدراتهم التكتيكية. استناداً إلى المؤرخين الإغريق على الأقل، أصبح هؤلاء القراصنة في نهاية المطاف صفوة الجيش الأخمينديي[٣٥].

وكما دائماً، هناك خطر يتمثل في المفارقة التاريخية الناتجة عن استخدام العبارات الحديثة في الحديث حول الإمبراطوريات القديمة. فبالرغم من أن الأخمينديين «استقطبوا» أفضل الحرفيين والمحاربين من شتى أصقاع الإمبراطورية، فإننا لا نتحدث هنا عن عملية استقطاب بالمعنى الحديث للكلمة تشبه عملية استقطاب لاعبي كرة السلة الجامعيين. فالعديد من هؤلاء الحرفيين والمحاربين تم تجنيدهم بالإكراه؛ وذلك لأن الحرية الفردية، وحرية توقيع العقد لم يكونا نتاجاً لمبادئ وثقافة بلاد فارس القديمة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه من الجدير بالملاحظة أن داريوس كان شغوفاً بإعدام أي شخص على الخازوق إذا كانت لديه الجرأة لتحديه. فعندما تم إلقاء القبض على المتمرد الساغارتي، سيكانتاكما، واستناداً إلى ما ذكره داريوس نفسه فقد «جدع أنفه وقطع أذنيه، وفقأ إحدى عينيه» وتركه «مقيداً أمام مدخل القصر» حيث «كان بإمكان الجميع رؤيته»؛ وتابع داريوس قائلاً: «بعد ذلك أمرت بوضعه على الخازوق في أربيلا». أما بالنسبة للمتمرد فرافارتيس الميدي الأصل، فقد عامله داريوس بطريقة مماثلة: «جدعت أنفه وقطعت أذنيه ولسانه وفقأت إحدى عينيه؛ وأمرت بأن يقيد في سلاسل تحت الحراسة على مدخل قصري حيث كان باستطاعة الجميع رؤيته هناك. بعد ذلك أمرت بوضعه على الخازوق في إيكباتانا».

كما أن التسامح الأخميندي لم يترافق يوماً مع مفهوم المساواة؛ بل على العكس من ذلك، فقد كانت هيكلية بلاد فارس الأخميندية هرمية، وكان الفرس يقبعون بصورة جلية، في أعلى قمة الهرم. كانت السلطة مركزة بيد الملك الكبير. وكان مركز السلطة تحت إمرته أينما ذهب، سواء كان ذلك في سوسة، أو بيرسيبوليس، أو ميمفيس (وكان ذلك يعتمد على الفصل من السنة؛ فقد كان الملوك الأخمينديون ينتقلون من عاصمة إلى أخرى ترافقهم حاشية ضخمة). ويلي الملك في هرم السلطة حكام الولايات الذين يحكمون ممالكهم الصغيرة، وجميعهم من الفرس. ويأتي بعد حكام الولايات، وهذه كانت المناصب الأعلى على امتداد الإمبراطورية. كانت تلك المناصب الرفيعة يشغلها المنتمون إلى الأرستقراطية الفارسية. كتب هيرودوتس عن الفرس ما يلي: «اعتبروا أنفسهم متفوقين على الجميع في كافة أنحاء العالم، وفي كل مناحي الحياة، وكانوا يسمحون لأمم أخرى أن تشاركهم بعض هذه المواصفات التي تتناقص قيمتها كلما بعدت المسافة عن بلاد فارس، وكانت أبعد الأمم عنهم جغرافياً هي الأسوأ بين هذه الأمم» [٣٦].

مع ذلك، استمر الملوك الأخمينديون بنجاح طيلة قرنين من الزمن في حكم إمبراطورية مترامية الأطراف بشكل لم يسبق له مثيل، وكانت سياسة التسامح التي اعتمدوها من العوامل المساعدة لهم في هذا الأمر. لقد خفف الأخمينديون بنسبة كبيرة احتمال قيام أي معارضة أو ثورة يمكن أن تقوم بها الشعوب المستعمرة بسبب احترامهم للقوانين والتقاليد المحلية، وبسبب سماحهم لتلك الشعوب في الاستمرار في استخدام لغاتها الأصلية، ودياناتها وطقوسها الدينية. كما استطاع الأخمينديون تحويل التنوع الثقافي الهائل في الإمبراطورية بين الشعوب المستعمرة إلى مصدر للتعاون والقوة من خلال تبني مواهب أفضل الفنانين والمفكرين والعمال والمحاربين بغض النظر عن انتمائهم الديني أو العرقي.

كانت عالمية الثقافة الأخميندية مدهشة بكل المقاييس. فكما كانت حدائقهم الغناء تفاخر باحتوائها على أكثر أنواع النباتات والحيوانات ندرة والتي تم إحضارها

من مختلف مناطق الإمبراطورية، فقد كانت الموائد الملكية الأخميندية مليئة بما لذ وطاب من أفخر أنواع الأطعمة التي تشتهر بها الشعوب المستعمرة: النعامة العربية، و «زيت الأقنثوس الذي أحضر من كارمانيا»، والسمك من الخليج الفارسي، والقمح «من حقول القمح في آسوس وأيوليس»، والبلح «من بابل، وتحديداً من حدائق باخوس.» استناداً إلى زينيفون، فقد «كان الملك الفارسي يكلف تجار الخمور بالبحث في كافة أنحاء البلاد من أجل الحصول على نوع من الشراب الذي يستسيغه الملك.» وكان طباخو الملك يجوبون أنحاء البلاد ويسافرون إلى أماكن بعيدة بحثاً عن طرائق جديدة لإعداد أنواع مختلفة من الطعام؛ وكانت تمنح الجوائز لكل من يأتي للملك بنوع جديد من الوجبات الغذائية الشهية [٣٧].

فيما بعد، بدأ الإغريق ينظرون بازدراء إلى التبذير والإفراط في البذخ اللذين تتميز بهما الولائم الفارسية. كتب هيرودوتس أن «الفرس الأثرياء كانوا يشوون ثوراً أو حصاناً أو جملاً أو حماراً بكامله في الفرن» (أما فقراء الفرس فكانوا يكتفون بشواء الخراف أو الماعز فقط).

أكد هيرودوتس على الأصناف المتعددة من الأطعمة في الوجبات الفارسية بالمقارنة مع الأصناف المحدودة للأطعمة الإغريقية: «إن لديهم أصنافاً عديدة من الحلوى، وكل واحد من هذه الأصناف يوضع على مائدة الطعام بشكل منفصل. هذه العادة هي ما دعتهم إلى القول: إن الإغريق يتركون مائدة الطعام وهم ما زالوا جائعين، لأنه ليس لدينا من أصناف الطعام ما يستحق الذكر بعد الانتهاء من تناول الصنف الأول: في اعتقادهم أنه لو كانت لدينا أصناف أكثر، ما كنا لنتوقف عن الأكل».

كانت للولائم الملكية فخامتها الخاصة بها. فبالاستناد إلى ما ذكره هيراكليديس، «كانت الآلاف من الحيوانات تذبح يومياً للملك». (وهذا الرقم يبدو من الغرابة بحيث أن أحد المؤرخين على الأقل يعزو ذلك إلى مخصصات الجنود.) كانت

الصحون والكؤوس مصنوعة من الذهب والفضة؛ وكانت ثلاث مئة من جواري الملك اللواتي يعزفن الموسيقى في حال تأهب دائم للعزف على القيثارة، أو الغناء طيلة مدة الوليمة [٣٨].

أما القصور الأخمينديه الفارهة - التي كانت تشكل مزيجاً من الفنون المعمارية المستوحاة من الشعوب المستعمرة - فكانت تعتبر رمزاً من رموز الإمبراطورية بشكل عام. لقد عبر الملوك الأخمينديون عن استمرارية تواصلهم مع الإمبراطوريات الأقدم، وأظهروا تفوقهم عليها من خلال دمج العناصر المعمارية الأجنبية من آشورية وبابلية ومصرية، بالإضافة إلى عناصر أجنبية أخرى إلى فنونهم المعمارية، ونصبهم الضخمة. كانت الطريقة المثلى بالنسبة للملوك الأخمينديين، لإظهار قوتهم تتمثل بشكل فعال ليس من خلال ممارسة الهيمنة و «فرسنة» الشعوب المستعمرة، بل بواسطة الإبقاء على التنوع الثقافي والعرقي في الإمبراطورية واستثماره إلى أقصى حد ممكن [٣٩].

سقوط أول قوة مهيمنة

كانت بلاد فارس الأخمينديه أول قوة مسيطرة على العالم في التاريخ. تسيّد كل من سايروس وداريوس مفاتيح أسرار التسامح الإستراتيجي، وهو ما ساعدهما في بناء إمبراطورية كانت تضم «كل العالم المعروف آنذاك، وكذلك بعض الأراضي التي لم تكن قبلهم معروفة،» والممتدة من «رمال أفريقيا الملتهبة إلى حدود الصين الجليدية»[٤٠]. ولكن إذا كان التاريخ قد مجّدَ كلاً من سايروس وداريوس، فإنه شيْطنَ ابن داريوس، زيركسيس. تعزى عادة بداية نهاية الإمبراطورية الأخمينديه في الواقع، إلى حكم زيركسيس «المستبد» (الذي امتد من سنة ٤٨٥ قبل الميلاد إلى سنة ٤٦٥ قبل الميلاد)، وتميزت مدة حكمه بعدد من الهزائم العسكرية الكبرى التي مني بها الفرس، كما تميزت بأول إشارة لبداية صعود الإغريق.

تعود معرفتنا بالملك زيركسيس بالدرجة الأولى إلى الإغريق الذين يروون لنا

كيف كان يقمع حركات العصيان في مختلف أنحاء الإمبراطورية بمنتهى الوحشية - كان يسوي المعابد وأماكن العبادة الأخرى بالأرض، ويقتل الكهنة، وحتى إنه كان في غضون ذلك، يحول بعض الرعايا إلى عبيد. وبالإضافة إلى كونه قاسياً ومتعصباً، فقد نقل عنه أنه كان منحطاً وفاسقاً. يبدو أن حريمه لم تكن تكفيه؛ وقيل إنه وقع في حب العديد من النساء بمن فيهن أخت زوجته، وزوجة ابنه، وابنة شقيقته. (لم تنجح أي من تلك العلاقات). تشير المصادر الإغريقية إلى أن زيركسيس أصر بقوة على إبراز الهوية "الفارسية" للإمبراطورية. فقد رفع من مرتبة الإله الفارسي أهورا مازدا إلى فوق مستوى جميع الآلهة الأخرى بشكل لم يقم به أي من الملوك الأخمينديين من قبل. ففي مصر وبابل، حيث سمح كل من سايروس وداريوس للسكان المحليين بممارسة قدر كبير من الحكم الذاتي، وأظهرا احتراماً كبيراً للعادات المحلية، فقد حول زيركسيس هذين البلدين إلى حالٍ من "العبودية" (٤١).

قد تكون هذه الملاحظات الإغريقية الكلاسيكية تحمل في طياتها الكثير من التحامل؛ وذلك لأن زيركسيس الذي قاد حملة عسكرية هائلة ضد بلاد الإغريق، واحتل أثينا مدة قصيرة، قام بتدمير المعابد في الأكروبوليس. ولكن بما أنه كان من الشائع قيام الحكام الأقدمين باتخاذ مثل هذه الإجراءات العقابية في حال حدوث عصيان، فإنه من الصعب معرفة ما إذا كان زيركسيس أكثر «استبداداً» من الملوك الأخمينديين الأوائل. استناداً إلى بعض المؤرخين الحدثاء، فإن ما قام به زيركسيس كان الاستمرار في ممارسة التقاليد الأخميندية في التسامح عندما كان ذلك ممكناً من الناحية الإستراتيجية، والقيام برد فعل يتميز بمنتهى القسوة عندما لم يكن الأمر كذلك - الفرق هنا يكمن في أن زيركسيس واجه تهديدات أكثر جدية وانتشاراً للحكم الفارسي (٤٢).

على أي حال، استطاع زيركسيس المحافظة على الإمبراطورية الفارسية، بالرغم من أن النصف الثاني من مدة حكم سلالة الأخمينديين تميزت بالثورات في مختلف أرجاء الإمبراطورية، خصوصاً في آسيا الوسطى، والتي كانت تتبعها عمليات قمعية

بمنتهى القسوة. فقدت الإمبراطورية الفارسية سلطتها على مصر حوالي سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، لكنها استُرِدّت بعد ذلك بست سنوات بواسطة أراتكسيركسيس الثالث، الحاكم الأخميندي ما قبل الأخير. كان أراتكسيركسيس كفاتح أقرب إلى زيركسيس منه إلى سايروس أو داريوس. استناداً إلى رواية ديودوروس، «قام "أراتكسيركسيس"بعد تدمير حصون معظم أهم المدن "المصرية"، وبعد استباحة المعابد، بجمع كمية ضخمة من الذهب والفضة، بالإضافة إلى وضع يده على السجلات المنقوشة في تلك المعابد القديمة». في نهاية المطاف، قام أحد خصيان البلاط بدس السم لأراتكسيركسيس. في كثير من النواحي، كانت السلالة الأخميندية في لحظات احتضارها صورة عن الإمبراطوريات التي سبقتها [٤٣].

اعتلى داريوس الثالث، وهو آخر الملوك الأخمينديين، العرش سنة ٣٣٦ قبل الميلاد. في تلك الأثناء، كانت هناك قوة جديدة تشق طريقها صعوداً في بلاد الإغريق. قام الملك المقدوني فيليب بتوحيد كبريات المدن الإغريقية خلفه سنة ٣٣٨ قبل الميلاد. بعد مرور ست سنوات على وفاته، فتح ابنه الإسكندر الكبير الإمبراطورية الفارسية التي كانت الإمبراطورية التي لا تقهر.

لماذا سقطت الإمبراطورية الأخميندية؟ تؤكد المصادر الإغريقية على الوحشية والاضطهاد اللذين مارسهما الملوك الأخمينديون الذين تعاقبوا على الحكم في المراحل الأخيرة من الإمبراطورية، وهو ما أدى إلى قيام انتفاضات عنيفة من قبل الشعوب المستعمرة، إلى أن وصل بها الأمر إلى تفضيل الإسكندر عليهم. بحسب المؤرخين الكلاسيكيين، احتفل المصريون بوصول الإسكندر: «لأنه وبسبب ارتكاب الفرس أعمالاً مشينة بحق معابدهم، وحكمهم بمنتهى القسوة، فقد رحب المصريون بالمقدونيين.» أما في فينيقيا، «فقد تقبله السكان بخيارهم.» وفي إفيسيوس، وبعد أن قام بزيارة إلى مزار الإلهة أرتيميس المحلي، أصدر الإسكندر إعلاناً تم تعميمه على كل المدن الإغريقية الساحلية: «أمر بإسقاط كافة الحكومات التي تحكمها الأقليات التي تستغل المواطنين، وبإبدالها بديمقراطيات تحل محلها؛ وأعاد العمل بقوانينها

المحلية. ... وعلى الفور، قامت تلك المدن بإرسال وفود أهدت الملك تيجاناً ذهبية، وأرفقت ذلك بتقديم وعود بالتعاون معه في كافة المجالات».

هذه المصادر، مثلها مثل تلك المنقوشة على المجسم الأسطواني للملك سايروس، تحتوي بشكل شبه مؤكد، على قدر كبير من الدعاية الإمبراطورية؛ لأنه من غير المحتمل أن يكون الإسكندر قد استقبل حيثما حل كمحرر. فقد كان في المحصلة، مجرد فاتح، كما أنه كان يشتهر بأنه «أكثر القادة الميدانيين براعة في التاريخ (وأكثرهم طموحاً)» [٤٤]. و مع ذلك، فإن من المؤكد أن الحقبة الأخيرة من العصر الأخميندي تميزت بتصاعد في التعصب، وازدياد في معدل القلاقل، والعنف. ويتسق هذا مع الأطروحة الأساسية لهذا الكتاب: ففي الوقت الذي ازداد معدل التعصب في الحكم الفارسي، ازدادت صعوبة المحافظة على الاستقرار السياسي على امتداد المناطق الشاسعة الخاضعة للسيطرة الأخمينديةـ، أو القدرة على الإفادة من الطاقات الهائلة للشعوب المستعمرة ووضعها في خدمة الإمبراطورية.

وهنا يكمن التحول الأخير والأكثر أهمية؛ ذلك أن التسامح الذي أبداه ومارسه كل من سايروس وداريوس لبناء إمبراطوريتهما الهائلة كانت تحمل في طياتها بذور التعصب الذي مورس فيما بعد. واجهت فارس الأخميندية التي مثلت القوة المطلقة الأولى في العالم المشكلة الأساسية نفسها التي لا بد لأي قوة تمارس السيطرة على العالم أن تواجهها - لكنها لم تستطع إيجاد حل لها.

قام الفرس ضمن نطاق العالم الذي كانوا يسيطرون عليه، بعملية دمج غير مسبوقة لأعداد كبيرة من الشعوب المتشعبة الأعراق والمشارب. استطاعوا تحقيق ذلك بسبب أن سايروس وداريوس كانت لديهما الجرأة في أن يمتنعا عن فرسنة رعاياهما، أو قمع معتقداتهم الدينية المحلية، أو لغاتهم، أو تركيبتهم الاجتماعية وطموحاتهم. من حيث المبدأ، كانت كثير من تلك الشعوب قريبة جداً من الفرس - ثقافياً، وجغرافياً، ولغوياً - لدرجة أنه كان بإمكانهم استيعاب هذه الشعوب بسهولة.

فالميديون على سبيل المثال، اندمجوا بالأساس مع فاتحيهم الفرس. ولكن مع ازدياد رقعة الإمبراطورية اتساعاً، فقد كان من الطبيعي أن تضم أقواماً جديدة مختلفة لها ثقافاتها الخاصة بها، حيث حافظت على خصوصيتها المجتمعية في ظل حكم أسيادها الفرس.

بالرغم من أن الإمبراطورية الأخميندية كانت موحدة عسكرية، إلا أنها لم تكن تتمتع بهوية سياسية ذات جاذبية، كما هي الحال في الأمم الحديثة. فلم يكن هناك قاسم مشترك ديني، أو لغوي، أو ثقافي يشد مفاصل الإمبراطورية المتنوعة إلى بعضها بعضاً. وكانت سياسات التسامح التي اتبعها سايروس الكبير، والتي تلامس حدود الأسطورة، هي بالضبط ما سهلت «على الإغريقي أن يتحسس انتماءه الإغريقي، ويتحدث بلغته الإغريقية، كما أشعرت المصري أنه مصري بالفعل ويتحدث باللغة المصرية، وهكذا».

نتيجة لذلك، وجدت مجموعات انفصالية قوية مكاناً لها في قلب الإمبراطورية. ومع ازدياد حدة الصراع، انقلبت الشعوب التي حافظت على هويتها العرقية والدينية والثقافية التي ازدادت قوة بسبب التسامح الفارسي على الإمبراطورية نفسها. وباعتبار أنه لم يكن هناك "غراء" أيديولوجي قوي يربط ما بين الشعوب المختلفة في الإمبراطورية، فقد فقدت السلطة المركزية سلطتها في نهاية الأمر. ومع بداية أفول العصر الأخميندي، بدأ المتمردون الانفصاليون بالظهور في كل مكان. لم يكن هناك ما يشد الإمبراطورية إلى بعضها بعضاً سوى القوة العسكرية. عندما فتح الإسكندر المقدوني بلاد فارس، وأوضح للنخب المحلية فيها أن مصالحها ومواقعها وحياتها لن تخضع إلى أي تغيير، شعر الأخميندييون أنه ليس عليهم القيام بشيء سوى مقايضة حاكم بحاكم آخر.

الإسكندر الكبير

يقدم لنا الكتاب الكلاسيكيون وصفاً جسدياً للإسكندر. فهو لم يكن يميل إلى

الطول عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، لكنه كان يتمتع بقوة عضلية غير عادية، وذا بنية متراصة، وكان عداء سريعاً. كان فاتح البشرة، أشقر الشعر، أشعثه، ويشبه فروة شعر الأسد. لم تكن عيناه متناسقتين، فإحداهما كانت رمادية تميل إلى الزرقة، والأخرى كانت بنية غامقة. كانت أسنانه حادة - «مثل ملاقط صغيرة». كان صوته حاداً ومرتفعاً، وكانت مشيته سريعة وانفعالية. كان يمشي مرفوع الرأس، ومائلاً قليلاً إلى اليسار، وربما كان يتصنع ذلك. وصفه المؤرخ بيتر غرين كما يلي: «كان شكله في بداية صباه يميل أكثر إلى الأنثوية، وهذا يشير إلى الهستيريا المكبوتة وراء الجاذبية الكبيرة التي كان يتمتع بها».

ترعرع الإسكندر يرافقه اعتقاد بأنه من سلالة الأبطال والآلهة مثل أخيل وهرقل، وعززت هذه الفكرة من طموحاته في الحياة. وبترتيب من والده، وكتكريم كبير له، فقد أشرف أرسطو الذي تم تحذيره سلفاً من أن الولد «صعب المراس قليلاً»، على تعليمه. وكمعظم الإغريق في ذلك الوقت، كان أرسطو معتداً جداً بانتمائه العرقي. كان يعتقد بأن جميع البرابرة - كونهم من غير الإغريق - جاؤوا إلى الحياة كي يكونوا عبيداً، وأن من العدل والإنصاف أن يتولى الإغريق حكمهم. يقال إن الإسكندر اعتمد على فقرة من الإلياذة أشار إليها معلمه «ككراس أو دليل لخوض الحرب». ويبقى احتمال ما إذا كان الإسكندر الشاب يشاطر منذ البداية معلمه هذا الشعور بالاحتقار تجاه «البرابرة» مسألة فيها نظر. على أي حال، بعد اغتيال والده مباشرة سنة ٣٣٦ قبل الميلاد، تربع الإسكندر على عرش مقدونيا، وعزز صلاته مع حلفائه، وبدأ حملته من أجل فتح بلاد فارس.

هل كان الإسكندر متسامحاً؟ يحذر المؤرخ غاي ماكلين روجرز في كتاب صدر له مؤخراً حول سيرة الإسكندر، من إسقاط معايير حديثة على شخص ينتمي إلى العصور القديمة: «ليس بالإمكان تقرير ما إذا كان "الإسكندر" كشخص، مِثلياً أو طبيعياً (كما زعم البعض)، متعصباً قومياً، أو مجرد شخص يحب انتماءه العرقي، سفاحاً جماعياً أو مخلّصاً. الحقيقة أن الإسكندر كان عبقرياً يلف شخصه الغموض

ولا تستطيع تصنيفاتنا الحديثة أن تحويه ضمن إطار محدد.» في الوقت نفسه، يصف روجرز الإسكندر (مستخدماً هو نفسه، مفهومات حديثة) «بأنه كان المؤيد الأول غير المعلن للفكر النسوي، والميال بشكل محدود إلى فكرة التعدد الثقافي، وصاحب رؤية دينية»؛ أسس إمبراطورية غير عادية كان يحكمها «الأفضل» من بين الخلائق. أما ما لا يمكن أن يثور الجدل حوله هو التالي: في الوقت الذي تعاظمت سلطته، بدأ الإسكندر، وبشكل متزايد الوضوح، يسير على خطا أسلافه من أباطرة الفرس العظام مطبقاً مبدأ التسامح على المستوى الإستراتيجي لكسب ود الشعوب التي فتح بلدانها، وضم خيرة المحاربين والقادة من كل الأعراق إلى جيشه وإدارته[٤٧].

عندما وطأت قدما الإسكندر أرض بلاد فارس، قدّم نفسه ليس كفاتح أجنبي بل كمنتقم لدم داريوس الذي اغتيل - وهو خصمه السابق - وأيضاً كخليفة شرعي للعرش الأخمينيدي. أبدى تكريماً حذقاً لسايروس، وأعاد تنصيب الحكام المحليين ملوكاً على ولاياتهم بالرغم من أنهم خاضوا الحرب ضده. كما تزوج من فتاة فارسية، مشجعاً بذلك الإغريق الآخرين على القيام بالشيء ذاته. وبالرغم من أن هذه السياسات أثارت حيرة العديد من رعاياه الإغريق ودهشتهم، فقد نجحوا في كسب دعم الطبقة الأرستقراطية الفارسية، وغالبية عامة الشعب الفارسي.

بعد فتح بابل، أمر الإسكندر بإعادة بناء المعابد التي زُعِمَ أن زيركسيس قد هدمها، بما في ذلك معبد بعل، إله العواصف الجبار. قدّم الإسكندر أضاحي للإله بعل على مرأى ومسمع من الناس، ممتثلاً في ذلك إلى نصائح قدمها له الكهنة البابليون. رحب البابليون بالإسكندر بأذرع مفتوحة، بالرغم من أنه لم يكن واضحاً أن ذلك كان نتيجة للقمع الذي مارسه عليهم الفرس أو بسبب أنهم أرادوا بذلك اتقاء شره. كما وفروا لأفراد جيشه المقدوني، وعلى مدى شهر كامل متعة لن ينسوها طيلة حياتهم. فلقد أقاموا لهم الولائم واستضافوهم في أفخم البيوت الخاصة، ووفروا لهم كميات غير محدودة من الخمور والطعام، كما وفروا لهم النساء بمن في ذلك زوجات وبنات بعض علية القوم. كما قدمت بائعات الهوى المحترفات خدماتهن

وخبراتهن، وكانت حفلات رقص التعري التي تقام بعد العشاء تشكل بالنسبة لهؤلاء أفضل أشكال التسلية. بالإضافة إلى ذلك، تم اصطحاب الجنود إلى أكثر المناظر شعبية، بما في ذلك الحدائق المعلقة الرائعة.

انخرط الإسكندر في ممارسة طقوس دينية مشابهة لإرضاء الجمهور بعد أن قام بفتح مصر. وفي معرض توثيقه لنجاح الإسكندر في تعامله مع المصريين، يضيف بيتر غرين إضاءة نفسية رائعة على المشهد:

> حصل [الإسكندر على ما فاق كل توقعاته. فما كان ينظر إليه باعتباره نوعاً من الدبلوماسية السياسية تحولَ إلى تجربة عاطفية وروحية عميقة. ... فقد كان الملوك الفرس بحكم مناصبهم فراعنة مصر، وكان هذا واقعاً فرضته الفتوحات التي أخضعت السلالات المحلية. وضع الإسكندر داريوس على الرف: الآن، يعتبره الكهنة حاكمهم الشرعي. وهكذا، ومع حلول الرابع عشر من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، توج المقدوني الشاب فرعوناً في احتفال مهيب. قاموا بوضع التاج المزدوج فوق رأسه، والخُطّاف والمِدرس في يديه. وهكذا فقد أضحى ملكاً وإلهاً في الوقت نفسه، وتجسيداً وابناً للإلهين رع وأوسيريس.... كانت هناك مؤشرات [سابقة] أن... الإسكندر [بدأ] يهمل بني جلدته من المقدونيين... الآن، وهو في وسط هذه الروائع المصرية القديمة - التي تحمل في طياتها احتراماً شبه تصوفي للعقل الإغريقي - بدأ يقتنع بأنه في واقع الأمر، إله وابن إله [٤٨].

بحلول سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، سمع الإسكندر أن خصماً فارسياً يعد العدة لانتفاضة ضده. رداً على ذلك، توجه الإسكندر إلى باكتريا، وجمع عدداً كبيراً من الحراس الشخصيين والحجاب الذين غص بهم بلاطه، وكان بين هؤلاء، أوكساثريس، شقيق داريوس. كان يضع على رأسه تاجاً قماشياً فارسياً مرصعاً بالجواهر، ويرتدي ثياباً فارسية بيضاء تقليدية ويلتف بوشاح، حتى إنه زين خيوله على الطريقة الفارسية. انتقد الكثيرون من الكتاب القدامى تبني الإسكندر للأزياء والعادات الفارسية واعتبروها انحداراً باتجاه الترف، وميلاً نحو «المشرقية». ولكنها، مرة أخرى، لم تكن سوى جزء من إستراتيجية جريئة تهدف إلى استخدام التسامح

وسيلة - وهي الإستراتيجية التي أتت أكلها وحققت الغاية المثلى من ممارستها، من خلال حفل الزواج الجماعي الذي أقامه الإسكندر في سوسة.

ففي سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، قام الإسكندر وتسعون من ضباطه المقدونيين والإغريق (بناء على أوامره) بالزواج من فتيات فارسيات وميديات، جميعهن من الطبقة الملكية وطبقة النبلاء. كانت دوافع الإسكندر محل نقاش في دوائر الباحثين والمفكرين، لكنه أراد -على ما يبدو- أن يصبح الوريث الشرعي للإمبراطورية الأخمينديه، وأن ينشئ طبقة جديدة من أصول مختلطة. على أي حال، تزوج الإسكندر من اثنتين من النساء في سوسة: بارسين، الابنة الكبرى لداريوس، وفتاة تنتمي إلى إحدى العائلات الملكية الأخرى. وبعكس الزواج الأول للإسكندر (من امرأة باكترية تدعى روكسان) الذي تم بموجب التقاليد المقدونية، فإن الزواج الجماعي كان باذخاً وعلى الطريقة الفارسية. بعد إتمام مراسم الزواج البسيطة، أقيم عرس ترافق باحتفالية ماجنة ومتهتكة مدة خمسة أيام. استناداً إلى أحد المصادر القديمة، كان الإسكندر يملك سرادقاً خاصاً يحتوي على مئة غرفة لعرائسه،

> وكان مفروشاً بكلفة وروعة تفوقان التصور، ومليئاً بالثياب الفخمة، وثياب أخرى بالألوان البنفسجية والقرمزية والذهبية... وكان يبلغ طول كل واحد من أعمدة ذلك السرادق عشرين ذراعاً، جميعها مطلية بالفضة والذهب، ومرصعة بالجواهر الثمينة، وحولها كانت تنتشر الستائر الثمينة والمطرزة برسوم للحيوانات وبالذهب، وموشاة بقصبات من الذهب والفضة [٤٩].

على خطى أسلافه الأخمينديين، جمع الإسكندر أضخم جيش على وجه البسيطة معتمداً في ذلك على قدرته ورغبته في دمج مقاتلين من كل أنحاء إمبراطوريته في جيشه. ثلاثون ألفاً من الشبان الفرس اختيروا بسبب قوتهم البدنية واعتدادهم بالنفس، تم تعليمهم اللغة الإغريقية، وتدريبهم على فنون القتال المقدونية، ودمجهم في جيش الإسكندر. وكان فرسانه يتكونون ليس من الفرس وحسب، بل من الباكتريين، والسوغدانيين، والأراكوتيين، والزرانغيين، والآريين، والبارثيين. وكانت قواته البحرية تتمتع بتنوع مشابه. كانت قواته البحرية التي تتألف من أسطول

هائل يتكون من ٢٠٠٠ سفينة تقريباً و ١٢٠٠٠٠ من جنود البحرية الذين جمعهم من الإنديز إلى الهند. وكان يعمل على متن تلك السفن بحارة فينيقيون وقبارصة ومصريون تحت قيادة ضباط إغريق وفرس بالدرجة الأولى. كانت الحملة التي شنها الإسكندر في منطقة الإنديز مريرة ووحشية. فقد جوبه بمقاومة شرسة، لكن جيشه استطاع قتل ٨٠٠٠٠ من الجنود الهنود على الأقل، وأخذ الكثيرين منهم كعبيد.

وجّهَ العديد من الإغريق، بمن فيهم عدد لا يستهان به من جنود الإسكندر، كثيراً من اللوم والانتقاد لملكهم بسبب اعتماده على الأجانب، وتبنيه المتباهي للعادات والتقاليد الأجنبية. وأدى القلق من أن يتحول الإسكندر إلى «بربري» إلى محاولة للتمرد عليه في منطقة أوبيس. استطاع الإسكندر قمع ذلك التمرد؛ واحتفل بذلك الانتصار من خلال إقامة أعياد دعا إليها تسعة آلاف من الضيوف. ولكي يرضي أبناء جلدته من الإغريق، قام بفصل أولئك الضيوف بحسب انتمائهم العرقي والطبقي. جلس الإسكندر مع ضيوفه الإغريقيين الذين كانوا يجلسون إلى جانب الفرس، وهؤلاء كانوا يجلسون إلى جانب الجنود المنتمين إلى أعراق أخرى، من دون أن يكون هناك اختلاط بين أي من تلك المجموعات العرقية.

وهكذا، فإذا كان الإسكندر يتطلع إلى «وحدة بين بني البشر» في نهاية المطاف، كما أشار البعض، فإنه لم يدع هذه الآمال تقف في وجه طموحاته العارمة. وكما ذكر بيتر غرين، كان «الهوس الذي أخذ بمجامع عقل الإسكندر يتمحور حول الحروب والفتوحات. من نافلة القول الإدعاء... بأنه كان يحلم بشكل يكتنفه الكثير من الغموض، بالخوض في نهر من الدماء والعنف كي يحقق الأخوة الإنسانية من خلال اغتصاب قارة بأكملها. أمضى جل حياته في تحقيق نجاحات باهرة، والسعي باتجاه تحقيق مجد شخصي.» وتبقى حقيقة أن التسامح لعب دوراً حاسماً في سعيه نحو المجد الشخصي.

مع حلول سنة ٣٢٤، قبل الميلاد، انتقلت الهيمنة على العالم من بلاد فارس إلى بلاد الإغريق. كان الإسكندر، وسيبقى حاكماً على أكبر إمبراطورية في التاريخ الإغريقي أو المقدوني. كان في واقع الأمر «أكثر رجال العالم ثراء وقوة في تاريخ العالم منذ أقدم العصور وحتى ظهور عهده.» كان يقيم في بلاطٍ العرشُ فيه من الذهب الخالص، وكانت حاشيته تضم خمس مئة حارس فارسي الأصل من «حملة التفاح»، وكان الزي الذي يلبسونه يتكون من اللونين البنفسجي والأصفر؛ وألفاً من رماة السهام الذين يرتدون أوشحة باللونين القرمزي والأزرق الغامق، بالإضافة إلى خمس مئة من جنود النخبة من جنود المشاة الإغريق بدروعهم الفضية [٥٠].

وبالتزامن مع فتوحات الإسكندر، انتشرت لغة الإغريق وأدبهم وفنونهم وفنهم المعماري وفلسفتهم عبر القارات - وفي النهاية، عبر القرون. في الوقت نفسه، وفي مختلف المدن الرئيسة التي أقامها الإسكندر من مصر إلى الهند، كانت الأفكار «البربرية» تترجم إلى اللغة الإغريقية، ويتم استيعابها في الإمبراطورية؛ وهو ما أدى إلى نشوء ثقافة هجينة هي الثقافة الهيلنستية التي كان لها تأثير عارم على المسيحية، وعلى العالم الغربي. ومع كل الأعمال البطولية التي حققها الإسكندر، يبقى القول إن إرثه الأعظم تمثل في الوحدة الثقافية العابرة للقارات التي لم يستطع ملوك الفرس تحقيقها أبداً.

لكن الوحدة السياسية للمنطقة انتهت مع موت الإسكندر؛ ذلك أنه قبل أن يحقق هدفه الآتي المتمثل في فتح المنطقة العربية، وغرب البحر البيض المتوسط، وأوروبا، - وقع الإسكندر في عمر ٣٢ سنة، فريسة لحمى غامضة قاتلة. تهاوت إمبراطورية الإسكندر مباشرة بعد وفاته وتفتتت إلى مجموعة من الممالك التي مزقتها حركات تمرد داخلية. وكان من المفهوم أن يقوم جميع زملاء الإسكندر من العرسان باستثناء واحد فقط من سوسة، بتطليق زوجاتهم الفارسيات [٥١].

وكان على عملية إعادة توحيد تلك البقعة أن تنتظر إلى حين قدوم روما.

الفصل الثاني

التسامح في ذروة قوة إمبراطورية روما

المجالدون، والأردية الرومانية الفضفاضة، و«الغراء» الإمبراطوري

ضمت [روما] الشعوب التي استعمرتها إلى صدرها ومنحت الجنس البشري اسماً مشتركاً، كانت على شكل «أم»، لا على شكل إمبراطورة، وأطلقت اسم «المواطنين» على الشعوب التي أخضعتها، وشدتها إليها في عناق طويل ومهيب. نحن مدينون في كافة مناحي حياتنا لعاداتها المسالمة: ...التي قادتنا كي نكون أمة واحدة.

- كلوديان، شاعر من القرن الرابع

«لا بأس بهم، فهم لم يعودوا يرتدون السراويل.»

- الإمبراطور كلوديوس، سنة ٤٨ بعد الميلاد في إشارة منه إلى الغاليين الذين أخضعهم بقوة السلاح.

إذا كانت هناك إمبراطورية إيقونية في الغرب، فإنها روما. كانت من حيث المساحة، أصغر بقليل من مساحة الإمبراطورية الأخمينديةِ؛ إلا أن روما كسلطة مطلقة فاقت سابقتها في كل مجال من مجالات الحياة. فحيث كانت فارس الأخميندية بالأساس آلة حربية، كانت روما بالإضافة إلى ذلك فكرة [١]. كان سكان

أقصى مناطق الإمبراطورية يرغبون في أن يكونوا «رومانيين» - وقد أصبحوا كذلك بالفعل. وبالإضافة إلى شبكة المواصلات المثيرة للإعجاب، والتي يبلغ طولها ٥٣٠٠٠ ميلاً من الطرقات المرصوفة والجسور التي كانت تربط بين البريطانيين والبربر، كان المرء يصادف في طريقه آلافاً من الحمامات الرومانية والمدرجات والمعابد المبنية بنفس المواصفات المعمارية تقريباً، وكانت مليئة بالمواطنين الرومان الذين يرتدون الأردية البيضاء الرومانية الفضفاضة التقليدية. وكانت اللغتان الإغريقية والرومانية تكفيان لتسهيل التواصل بين مئات الآلاف من التجار الذين كانوا يجوبون أنحاء الإمبراطورية، أو «كافة أنحاء العالم»، كما كان يطلق عليها سكانها.

بلغ عدد سكان الإمبراطورية في ذروة مجدها ما يقارب الستين مليوناً من المواطنين داخل نطاق حدودها. كانت الإمبراطورية من الاتساع بحيث أن الرومان كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن روما امتدت لتشمل كل حدود العالم المأهول. وقد ساد اعتقاد بأن تيرمينوس، إله الحدود كان غائباً عند ولادة روما [٢].

استناداً إلى المؤرخ أنتوني باغدين، فإن الرومان كان تحدوهم الرغبة في «السيطرة على العالم». قامت الجمهورية منذ سنة ٧٤ قبل الميلاد بصك نقود معدنية منقوش عليها رسم لصولجان، والعالم، وإكليل ودفّة» - وهي رموز لهيمنة روما على العالم. كانت صورة الامتداد العالمي للإمبراطورية واضحة حتى بالنسبة إلى المواطن العادي الذي كان يشاهد أسوداً من سورية، وثيراناً من بلاد الإغريق، وفهوداً من تونس، ودببة من إنجلترا تتصارع جميعها مع مجالدين من طبقة العبيد من المدرجات الهائلة الحجم في الإمبراطورية مثل صرح الكولوسيوم في روما، الذي كان يتسع لحوالي خمسين ألف متفرج في المناسبات الدورية. وبحسب ما قاله سينيكا -وهو كاتب مسرحي وفيلسوف روماني عاش في القرن الأول الميلادي- فإن «الرومان كانوا يقيسون حدود أمتنا من خلال الشمس.» وفي منتصف القرن الثاني، اتخذ الإمبراطور أنطونيوس بيوس لنفسه لقب «ملك العالم بأسره» [٣].

لم تكن روما مجرد قوة عسكرية عظمى، بل كانت تمثل ذروة جديدة من ذرى الحضارة الغربية، وقد ارتقت إلى القمة في مجالات العلوم والآداب والفنون التي لم يتم مجاراتها فيها إلا بعد ألف سنة. فبالإضافة إلى شعراء كلاسيكيين وفلاسفة أمثال فيرجيل وسينيكا، أنتجت روما شخصاً يدعى غالين، وهو طبيب المجالدين، الذي بقيت كتبه الطبية تدرس على نطاق واسع في أوروبا حتى القرن الخامس عشر، وكذلك عالم الفلك، توليمي. أصدر بلايني الأكبر - الذي توفي نتيجة لانفجار بركان جبل فيسفيوس سنة ٧٩ ميلادية - كتابه الشهير التاريخ الطبيعي Natural History ، والذي يعتبر واحداً من أقدم الأعمال الموسوعية في العالم، بالإضافة إلى الكتب العشرة التي ألفها المهندس المعماري الروماني فيتروفيوس، والتي كانت ملهمة للبنائين في عصر النهضة في إيطاليا، وذلك بعد ألف سنة على وفاة مؤلفها؛ كما أرست روما معايير عالمية جديدة للحكومة التمثيلية. منح الإمبراطور كركلا سنة ٢١٢ ميلادية الجنسية لكل مواطن حر ذكر ولد في الإمبراطورية الرومانية. وكان منح حق الاقتراع لكافة المواطنين قد أخذ روما إلى موقع متقدم وبعيد جداً عن بلاد الإغريق، أو أي حضارة قديمة أخرى من خلال مشاركة الأفراد في العملية السياسية.

استمرت «عظمة روما» على امتداد ألفيتين من الزمن بدءاً من تاريخ بنائها من قبل بانيها رومولوس سنة ٧٥٣ قبل الميلاد إلى حين سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ميلادية. وكان حكام روما من بين الأشهر في التاريخ، إما بسبب فتوحاتهم أو بسبب بطشهم. وقد منحنا يوليوس قيصر وأغسطس قيصر اسمي شهرين من شهور السنة؛ أما اسم كاليغولا، فقد ارتبط فعلياً بالاستبداد والفقر. إلا أن معظم المؤرخين يجمعون على أن روما في ذروة قوتها بين سنتيْ ٧٠ و١٩٢ ميلادية كانت تمثل نقطة الأوج في الحضارة الرومانية.

كانت الإمبراطورية في ذروة قوتها تتمثل في أربعة من الأباطرة المتعاقبين على الحكم وهم: تراجان، وهادريان، وأنطونيوس بيوس، وماركوس أريليوس؛ وكان كل

منهم يتصرف بموجب الممارسات الرومانية المعهودة المتمثلة في تبني ابن من أجل تهيئته كي يكون الإمبراطور التالي. خلال تلك الحقبة، ساد السلام الروماني، وتبادلت الأقاليم الرومانية من اسكتلندا الجنوبية إلى المدن الزراعية في غرب إفريقيا المصالح التجارية فيما بينها. وضع المؤرخ الألماني تيودور مومسن من القرن التاسع عشر يده على جوهر ذلك العصر عندما ذكر أن»من النادر أن تدار حكومة العالم على امتداد تلك المدة الطويلة من الزمن بهذا الشكل من التعاقب المنظم.» (٤)

هذا الفصل غير معني البتة بعرضٍ لتاريخ الإمبراطورية الرومانية؛ لكنني سأقوم بدلاً من ذلك، بالبحث في الطريقة التي ساعد فيها التسامح روما على الابتعاد كثيراً عن أقرب منافسيها على المستوى الكوني، والتحول إلى قوة مطلقة في الزمن الذي وجدت فيه. سوف أركز أيضاً على العوامل التي ساعدت إمبراطورية روما في البقاء في هذا الموقع الاستثنائي طيلة تلك الفترة - وهو موضوع يهم بشكل خاص، الولايات المتحدة التي تتبوأ موقع القوة المهيمنة على العالم منذ أقل من عقدين.

روما العالمية: الموطن الأصلي الوحيد لكل شعوب العالم

قامت روما الإمبراطورية بعملية دمج للأمم التي فتحتها من خلال تحويلها إلى «أقاليم» تابعة للإمبراطورية الرومانية، تماماً كما فعلت بلاد فارس الأخمينديه. وكان هناك أربعون من تلك الأقاليم تقريباً في أوج قوة الإمبراطورية. وعلى خطا أسلافهم الأخمينديين، جيّر الرومان خدمات النخب المحلية للمساعدة في حكم تلك الإمبراطورية الشاسعة. أبقوا على تماسك تلك الحكومات المحلية بنسبة كبيرة، وهم بذلك، سمحوا لها بالاستمرار في تسيير أمور الحكم اليومية لرعاياها.

لكن بعكس بلاد فارس الأخمينديه، أو أي إمبراطورية قديمة أخرى، لم يكن هناك سقف أو حدود للسلطة التي تمارسها تلك النخب في الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية. وحيث كان جميع ملوك الأخمينديين الفرس، وكل حكام الأقاليم فعلياً من

الفرس، فإن الحال في روما لم تكن كذلك؛ فالذين يمسكون بمفاتيح أعلى السلطات في روما - وصولاً إلى الإمبراطور نفسه - كانوا من أصول تنتمي إلى كافة أصقاع الإمبراطورية. كتب في هذا الصدد، المؤرخ كورنيليوس تاسيتوس أن «الأباطرة كان يمكن أن يؤتى بهم من أي مكان إلا من روما.» فالإمبراطور تراجان الذي حكم من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧ ميلادية، ولد في إسبانيا. وكان من بين كبار مستشاريه إغريقي ومغربي؛ أما الإمبراطور غايوس يوليوس أليكساندر بيرينيكيانوس فهو ينحدر من سلالة الملك هيرود الكبير.

كان تراجان الذي ولد لأم إسبانية الإمبراطور الروماني الأول الذي أتى من الأقاليم، وكان تبوؤه لهذا المنصب بمثابة مؤشر على أن أعلى المناصب في الإمبراطورية الآن «متاحة لكل المتعلمين بغض النظر عن العرق أو الجنسية.» وكان هادريان، خليفة تراجان ينتمي أيضاً إلى أصول إسبانية، أما خليفة هادريان، أنطونيوس بيوس، فكان ينحدر من عائلة من بلاد الغال. وكان والد الإمبراطور الذي تلاه وهو ماركوس إيرليوس من الأندلس، أما سيبتيميوس سيفيريوس الذي حكم من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢١١ ميلادية، فقد كان إفريقياً متزوجاً من امرأة سورية. لقد تعايش الناس من مختلف الألوان والخلفيات والتقاليد الثقافية في روما، «المدينة الخالدة».

خرجت من الأقاليم نخبٌ رومانية في كل مناحي الحياة. فالشاعر والكاتب المسرحي سينيكا كان أسبانياً. وكان تاسيتوس في الغالب من بلاد الغال. أما الخطيب المفوه فرونتو، ومعلم ماركوس إيرليوس فكان إفريقياً. في أوج ازدهار روما الإمبراطورية، كانت «الرومانية» تعني هوية ثقافية مهدت الطريق أمام المواطنين - حتى أولئك الذين وصفهم سيسيرو «بالأمم البدائية والبربرية» - للانخراط في العملية السياسية، والمشاركة في السلطة والامتيازات التي تتمتع بها الإمبراطورية[٥].

تعلمت روما، من خلال تبني هذه الرؤية المتسامحة من تاريخ بلاد الإغريق القديم، حيث تسببت سياسة التعصب الأعمى والانقسام العرقي إلى قلاقل أدت

إلى إشعال الحروب. ولقد شرح الإمبراطور كلوديوس بطريقة رائعة منطق التسامح الروماني، وذلك في خطاب ألقاه أمام أعضاء مجلس الشيوخ سنة ٤٨ ميلادية، وأكد فيه على ضرورة السماح للقبائل الغاليّة التي انتصروا عليها مؤخراً بالمشاركة في الحكم. في معرضه حديثه على مجلس الشيوخ، قال كلوديوس:

> ما الذي أدى إلى سقوط كل من إسبارطة وأثينا سوى احتقارهما للشعوب التي فتحا بلدانها ومعاملتهما لها كأجانب؟ لكن حكمة مؤسس إمبراطوريتنا رومولوس جعلته في العديد من المناسبات يحارب الشعوب، ويمنحها الجنسية الرومانية في اليوم نفسه! كان من بين ملوكنا غرباء؛ وهكذا فإن تعيين أبناء الحرية في مناصب عليا ليس أمراً استثنائياً، كما يشاع بصورة خاطئة، بل هو أمر متعارف عليه في الإمبراطورية الرومانية القديمة. ...ومع ذلك، فلو أمعنا النظر في كل الحروب التي خضناها، لوجدنا أن هذه الحرب الأخيرة التي خضناها ضد الغاليّين كانت أقصرها على الإطلاق؛ ومنذ ذلك الوقت حل السلام الدائم والموالي لنا هناك. والآن، وقد تم الدمج بيننا وبينهم من خلال روابط العادات والثقافة والتزاوج، اسمحوا لهم بأن يشاركونا ذهبهم وثرواتهم بدلاً من القيام بعزلهم.

وافق مجلس الشيوخ على ذلك؛ وبعدها، كما يقول إدوارد غيبون، «أصبح أحفاد الغاليّين الذين حاصروا يوليوس قيصر في أليسيا، قادة فرق، وحكاماً لأقاليم، كما تم تعيينهم في مجلس الشيوخ. وتوجه طموحهم بشكل حميم نحو سلامة الدولة وتكريس عظمتها بدلاً من إثارة القلاقل فيها.»

أرست الإمبراطورية الرومانية معايير جديدة للتسامح. وكما لاحظ جيمس ويلسون، سنة ١٧٩٠، وكان واحداً من القضاة في المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وأحد المشاركين في وضع مسودة الدستور الأمريكي «أن من الممكن القول إن الرومان ليسوا هم من توسعوا في كافة أنحاء المعمورة، بل إن سكان المعمورة هم الذين تدفقوا على الرومان.» كان من الواضح بالنسبة لويلسون أن «التسامح الذي مارسته روما أكثر الوسائل نجاعة لتوسيع رقعة الإمبراطورية» [٦].

كانت هناك - بطبيعة الحال - حدودٌ لإطار التسامح والاحتواء في روما. كانت

النساء مستثنيات بشكل شبه كامل من الحياة العامة؛ فلم يكن يسمح لهن بممارسة حق الاقتراع، أو تبوء أي منصب حكومي، أو ارتداء رداء التوغا الفضفاض. والأدهى من ذلك، حتى عندما كان لجميع المواليد الأحرار من الذكور في الإمبراطورية الحق في الحصول على الجنسية الرومانية، فلم يكن يتمتع بهذه المكرمة إلا نسبة محدودة جداً منهم؛ ذلك أن عدد المواليد من العبيد فاق بكثير عدد المواليد من الأحرار، وكان أولئك العبيد يرغمون على العمل في الحقول لإطعام سكان المدن الرومانية الكبرى.

كانت وسائل الاستعباد عديدة ومتنوعة. وكان من بين من وجدوا أنفسهم معروضين للبيع في سوق النخاسة أسرى الحروب، وزوجاتهم وأبناؤهم، وضحايا القراصنة والخاطفين، وأبناء العبيد، والأطفال الذين باعهم آباؤهم إلى النخاسين، ورجال تم القبض عليهم لعجزهم عن سداد الديون المستحقة عليهم لجباة الضرائب، والبالغون الأحرار الذين يعرضون أنفسهم للبيع. كما كان العبيد يعانون بأشكال متفاوتة. فبعضهم كان يتم شراؤه من أجل رعي الماشية؛ وآخرون كانوا يقدمون خدمات جنسية؛ والبعض الآخر كان يخدم في مجال الأعمال المنزلية حيث كان يتم تدريبهم بشكل جيد، كما كان يتم تعليمهم اللغة اللاتينية. كان أسوأ هؤلاء حظاً من كان يتم إرسالهم إلى حلبات المصارعة التي ينفذها المجالدون - ولكن ليس كمتفرجين. كانت الوحوش الضارية تمزق الآلاف منهم إرباً، إرباً مع المجرمين في الوقت الذي كانت الجماهير الهادرة تشهد ما يجري بكثير من الإثارة. «كان الكثير من الضحايا يوضعون على خوازيق، ثم تبقر بطونهم كي يكون بإمكان الأطباء الذين كانوا يشاهدون هذه الألعاب دراسة بنيتهم التشريحية.» كان الرجال والنساء على حد سواء، يُضرَبون، ويُشوهون، ويجلدون وتبقر بطونهم. وكان الأطفال يعلقون من أقدامهم في الوقت الذي تُفلت الضباع من عقالها وتبدأ في تمزيق أجسادهم.

ومع ذلك، من الخطأ الافتراض بأن مزايا الإمبراطورية الرومانية لم تتجاوز أبداً حدود قاعدة المواطنين الرومان. فطالما كان الرعايا يدفعون ما كان يجب عليهم دفعه من الضرائب التي كانت خفيفة في الأحوال العادية، كانت روما تترك

المجموعات المحلية، بعاداتها وتقاليدها المحلية، وشأنها. وكان رعايا الإمبراطورية من بريطانيا وبلاد الرافدين يستفيدون من الإيقونة الرومانية والقانون الروماني الذي وفر النظام والاستقرار بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل [٧].

كيف تبني إمبراطورية؟

استناداً إلى ما ذكر في الأسطورة الرومانية، قام الأخوان التوأم، رومولوس وريموس بتشييد روما سنة ٧٥٣ قبل الميلاد على موقع قرب نهر "تايبر"، وذلك في المكان نفسه الذي عثرت عليهما فيه وأرضعتهما ذئبة حيث كانا موضوعين هناك في سلة. كان رومولوس في موقف دفاعي على ما يبدو؛ ذلك أن شائعة سرت بأنه قام بقتل أخيه ريموس لأن هذا الأخير مازحه قائلاً إن جدران المدينة التي بناها رومولوس كانت خفيضة جداً. بالرغم من ذلك، أصبحت روما معروفة بكرمها، خصوصاً تجاه المهاجرين القادمين إليها من مختلف أنحاء إيطاليا. استناداً إلى الحكاية التاريخية، وافق الرومان الأوائل على ضم السابينيين المجاورين إلى المدينة كي يتجنبوا الصراع الناجم عن قيام الرومان بخطف النساء السابينيات. وقد كتب الخطيب المفوه سيسيرو سنة ٥٦ قبل الميلاد أن «من بين أهم الأسباب التي أدت إلى بناء الإمبراطورية الرومانية، وذياع صيت الشعب الروماني أن رومولوس، مؤسس المدينة وبانيها وجهنا من خلال المعاهدة التي أبرمها مع السابينيين أن المدينة يجب أن تتوسع حتى لو كان من خلال قبول الأعداء في خانة المواطَنة الرومانية. ولذلك فإن أسلافنا، واقتداء بسلطته والمثل الذي ضربه، لم يتوقفوا أبداً عن منح الجنسية الرومانية لأولئك».

في القرون التي تلت، تبنى الرومان تكتيكات مشابهة من أجل ضم قبائل إيطالية أخرى مثل الإيتروسكانيين والأمبريانيين ووضعها تحت مظلة روما. فبدلاً من عمليات السلب والنهب التي تلي عادة هزيمة الأعداء، كانت روما تعرض على أعدائها معاهدات سلام كانوا نادراً ما يرفضونها. وكانت الشروط الواردة في هذه

المعاهدات بسيطة في غالب الأحيان. فالمدن المفتوحة يمكن لها أن تُحكم من قبل الحكام أنفسهم الذين كانوا يحكمونها بالفعل قبل الغزو استناداً إلى قوانينهم المحلية بشرطين. الأول هو أن هذه المدن يمكن لها أن تمارس المبادلات التجارية مع روما وليس بين تلك المدن نفسها، وبهذه الطريقة أصبحت الممالك الصغيرة تعتمد اقتصادياً على روما بصورة مطردة. أما الشرط الثاني فيتعلق بضرورة تزويد روما بقوات مسلحة [٨]. ساعدت هذه التحالفات روما في تعزيز قوتها الاقتصادية والعسكرية بشكل دراماتيكي. ومع حلول سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، أصبحت روما أكبر دولة في أوروبا، وكانت تغطي مساحة قدرها ٥٠٠٠٠ ميلاً مربعاً من منطقة روبيكون في شمال إيطاليا وصولاً إلى مضائق ميسينا قبالة السواحل الشرقية لإيطاليا. بعد مرور عقد على ذلك، بدأت روما بتعزيز سيطرتها على كل مناطق غرب البحر الأبيض المتوسط. أسفرت حروب البونيك التي استمرت أكثر من مئة سنة عن فتح روما لجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا. لكن هذه الحروب انتهت بهزيمة روما على يد جيش هانيبعل الهائل، الذي يضم كتيبة من الفيلة في زاما، أي ما يعرف بتونس الحديثة سنة ٢٠٢ قبل الميلاد.

أبرزت حروب البونيك النجاح الذي أحرزته سياسة التسامح التي اتبعتها روما. كانت إستراتيجية هانيبعل تستند إلى القناعة بأنه، بعد الانتصارات المتلاحقة التي حققتها قرطاجة، فإن حلفاء روما من الإيطاليين سوف ينتهي بهم الأمر إلى هزيمة سريعة. ولكن، ولدهشة هانيبعل، وعلى الرغم من العديد من المعارك الشرسة التي تم خوضها، قاوم حلفاء روما بثبات، وهو ما أدى إلى انتصار روما في نهاية المطاف.

كانت روما جاهزة أيضاً بطبيعة الحال، للتعامل بوحشية مع المدن المعادية التي ترفض الإذعان لها. بالنسبة إلى قرطاجة نفسها -على سبيل المثال- فقد أطلق كاتو تصريحه الشهير أنه «يجب تدمير قرطاجة». وبعد ثلاث سنوات على بدء الحرب البونيكية الثالثة سنة ١٤٩ قبل الميلاد، سويت قرطاجة بالأرض، وتم ذبح معظم سكانها، وتم ضم أراضيها واعتبارها إقليماً رومانياً جديداً [٩].

شكل فتح روما لقرطاجة تحولاً مهماً في السياسة الرومانية أدى إلى خط جديد لا رجعة عنه في توجه الإمبراطورية. فقد امتنعت روما في مراحل توسعها الأولى عن القيام بعمليات الضم المباشر للأراضي التي تحتلها. وكان الأباطرة الرومان الأوائل يقومون بدلاً من ذلك بتوسيع رقعة الإمبراطورية وذلك من خلال إنشاء دول وفضاءات تابعة لسلطتها، وكذلك من خلال استعمال الجيوش الهجومية لإلقاء الرعب في قلوب أي أعداء محتملين. وهكذا، وفي أثناء الحروب البونيكية، كان من الصعب تحديد الحدود الحقيقية للإمبراطورية الرومانية بدقة.

إلا أن الإستراتيجية الرومانية تغيرت مع حلول القرن الأول الميلادي. فقد قاد أباطرة رومانيون حملات عسكرية من أجل ضم أراضٍ كانت قد فتحت بالفعل من قبل - من ويلز إلى أرمينيا، ومن سويسرا إلى الأردن - واضعة هذه المناطق بالتدريج تحت سلطة روما المباشرة. وبدأت حدود روما تتحدد بصورة أكثر وضوحاً، وكانت تشكل مجاري الأنهار خطوط هذه الحدود. بعد الانتهاء من رسم حدود الإمبراطورية، صب أباطرة الرومان موارد هائلة من أجل بناء تحصينات حدودية مثل جدار هادريان شمال إنجلترا. في الوقت نفسه، قاموا بتوسيع هائل في شبكة الطرق الرومانية المرصوفة، وهو ما وفر للفرق الرومانية الإمبراطورية سهولة وسرعة الحركة لقمع الثورات حين نشوبها، أو صد هجمات الغزاة البرابرة.

لم يتدخل الأباطرة الرومان إلا في الحدود الدنيا في حياة رعاياهم، ولم يقوموا بفرض أي إصلاحات اقتصادية أو اجتماعية تذكر حتى عندما كانوا تحت السيطرة المباشرة لأولئك الأباطرة. يصف أحد المصادر الإمبراطورية الرومانية بأنها في الواقع، «حكومة من دون بيروقراطية». في الحقيقة، كانت مركزيتها أخف بكثير بالمقارنة مع إمبراطورية "الهان" الصينية المعاصرة لها، والتي استخدمت بيروقراطيين في الأعمال الحكومية أكثر من الإمبراطورية الرومانية بما يقرب من عشرين مرة.

توسعت روما بين سنتي ١٥٠ و ٧٠ قبل الميلاد بسرعة مدهشة حيث شمل ذلك معظم أوروبا القارية، وآسيا الوسطى، (تركيا الآن) وأغلب مناطق الشرق الأوسط بما في ذلك فلسطين وسوريا ومصر. في أثناء تلك الحملات العسكرية، منحت روما حقوق المواطنة للنخب المهزومة في الوقت الذي أنزلت أشد أنواع العقاب بالبلدان التي قاومت الحكم الروماني. وبعد ستة قرون على إنشائها، استطاعت روما أن تتحول من مملكة صغيرة إلى إمبراطورية عالمية أحاطت بالبحر الأبيض المتوسط من كل جنباته، محولة ذلك البحر الشهير إلى بحيرة رومانية [١٠].

عصر روما الذهبي

يختلف المؤرخون حول توقيت عصر روما الذهبي، أو الحقبة التي شهدت أوج قوتها، إلا أن هناك إجماعًا على أن ذلك العصر امتد طيلة مدة حكم أربعة أباطرة بدءاً بتراجان الذي حكم من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧ ميلادية، وكانت الأجيال الرومانية التالية تطلق عليه وصف «أفضل حاكم» [١١]. كان يتمتع بشعبية وحيوية، وكان من السهل على الآخرين الوصول إليه ومقابلته، وكان تراجان يشتهر أيضاً بفتوحاته العسكرية العظيمة وتميزه في ممارسة الحكم. توسعت حدود الإمبراطورية الرومانية تحت حكم تراجان إلى أن وصلت إلى مياه الخليج الفارسي؛ وهو إنجاز لم يصل إليه أي قائد روماني أبداً. من الواضح أنه عاد من فتوحاته في داسيا التي تعرف الآن برومانيا بملايين من أرطال الذهب والفضة - وهي آخر مرة تحصد فيها روما مثل هذا الكم الهائل من الأرباح كغنيمة من أي حرب خاضتها.

طبّقَ تراجان في الوقت نفسه، واحداً من الأمثلة القليلة عن التشريع الاجتماعي في العالم القديم، من خلال طرحه لبرنامجه الشهير القاضي بإقراض المال للمزارعين بفوائد يعود ريعها لدعم الأطفال من ذوي الحاجة. شكل إرث تراجان بوصفه حاكمًا عادلاً ومنصفًا الأساس لدعاء كان يردد في مجلس الشيوخ في القرن الرابع كي يكون الحاكم الجديد «أفضل من تراجان». تَصَوّره دانتي في القرون

الوسطى كأحد الملحدين الذين سوف يطلق سراحه من النار نتيجة لصلوات البابا غريغوري.

كان هادريان، خليفة تراجان في الحكم، وهو الذي حكم بين سنتيْ ١١٧ و ١٣٨ ميلادية، عالمي النزعة، وتمثل ذلك في شغفه بالثقافة الإغريقية، كما كان واحداً من أعظم الإداريين في التاريخ الروماني. أوقف هادريان حروب روما التوسعية، وركز اهتمامه بدلاً من ذلك على تعزيز قدرات الإمبراطورية الدفاعية، وعلى تطوير الإمبراطورية. وهكذا، فبالإضافة إلى بناء جدار هادريان الذي بلغ طوله ثمانين ميلاً، قام بالإشراف على بناء مدن جديدة، ومعابد، وحمامات، وموانئ، ومسابح رياضية وقناطر ومدرجات للمسارح على امتداد الإمبراطورية. كان قائداً دائم الاستعداد، وشغوفاً بالسياحة؛ فقد قضى هادريان أكثر من نصف مدة حكمه البالغة إحدى وعشرين سنة خارج إيطاليا وهو يجوب الأقاليم الرومانية، متفقداً مدى استعداد جنوده، وأحياناً، الإقامة بينهم والتدرب معهم.

بالرغم من أن هادريان كان ذائع الصيت كحاكم متسامح، فقد عرفت عنه أيضاً فِعلةٌ اعتبرها الكثيرون متعصبة بشكل جوهري. قام هادريان بمنع الختان، وهو الإجراء الطقسي المطلوب القيام به بالنسبة للمواليد الذكور بحسب القانون اليهودي، نظراً إلى تأثره الشديد برؤية الإغريق المثالية للجسد البشري. (ربما اعتبر هادريان المعجب بالثقافة الهيلنستية أن الختان يشكل اعتداء على الجسد البشري؛ كما قام أيضاً بتجريم عمليات الإخصاء). أدى هذا المنع، بالإضافة إلى قراره القاضي بإقامة مستعمرة رومانية في القدس، إلى اندلاع حركة عصيان يهودية بين سنتيْ ١٣١ و ١٣٥ ميلادية قادها سايمون كوشبا. وبعد انتهاء العصيان،قام هادريان كما ذكرت ذلك عدة مصادر قديمة، بطرد اليهود من القدس، وبنى معبداً لجوبيتر على أنقاض معبد يهودي قديم، وأمر بإقامة تمثال له داخل المعبد. ولكي يزيد الطين بلة، وضع تمثالاً لخنزير من المرمر في ساحة المعبد. (كان الخنزير يرمز بوضوح إلى الفرقة الرومانية التي قاتلت اليهود) [١٢].

كان هذا العمل المتعصب استثناء وليس قاعدة في عصر روما الذهبي. سمح لليهود مجدداً بعد وفاة هادريان، بممارسة شعائرهم الدينية، كما تم إعفاؤهم من القوانين الرومانية التي تتناقض وعقائدهم الدينية. وصل الأمن والازدهار في الإيقونة الرومانية إلى أوجهما خلال مدة حكم أنطونيوس بيوس، خليفة هادريان (١٣٨- ١٦١). لم يغادر أنطونيوس بيوس إيطاليا مطلقاً بعد أن أصبح إمبراطوراً، وذلك بعكس كل من تراجان وهادريان اللذين عرف عنهما نزوعهما الدائم نحو التجوال في كافة أنحاء الإمبراطورية. وبالرغم من قيامه بشن بعض الحروب الصغيرة في اسكتلندا وشمال إفريقيا لحماية حدود الإمبراطورية، فقد فضل استخدام الدبلوماسية والتهديد باستخدام القوة لردع أعدائه المحتملين. وصف ماركوس إيريليوس، خليفة أنطونيوس بيوس هذا الأخير كما يلي: «كان موقفه من الآلهة غير مبني على الخرافات، كما أنه لم يكن ينشد أي معروف من البشر - لم يحاول إغراق الناس بالهدايا، أو المجاملات، بل كان معتدلاً في كل مناحي الحياة، من دون أن يقوم بممارسة أي فعل خسيس، أو يظهر أي حب للتجديد من أجل التجديد فقط.»

كان ماركوس إيريليوس الذي حكم من سنة ١٦١ إلى سنة ١٨٠ ميلادية يمثل تجسيداً لمقولة الملك الفيلسوف وذلك أكثر من أي إمبراطور آخر. انحدر من عائلة قوية لها جذور في مجلس الشيوخ، وهو ما استرعى انتباه هادريان الذي أغدق عليه لقب «فارس» وهو ما يزال صبياً في سن الخامسة، وأكد على ضرورة أن ينال أفضل قسط ممكن من التعليم المتوافر حينذاك. عندما أصبح في سن الثانية عشرة اختار ماركوس إيريليوس حياة الفيلسوف الزاهد. ارتدى عباءة خشنة، وبدأ يفترش الأرض إلى أن أقنعته والدته «بأن ينام على سرير صغير مغلف بالجلود.» أبحر ماركوس إيريليوس بإمبراطوريته بنجاح عبر خضم متلاطم من التحديات، بما في ذلك الوباء الرهيب الذي ضرب سنة ١٦٩ ميلادية، والغزوات الألمانية التي وقعت في مرحلة لاحقة من فترة حكمه. كانت الإمبراطورية الرومانية ما تزال في أوج مجدها وأكثر قوة من أي إمبراطورية في تاريخ أوروبا عندما توفي سنة ١٨٠ ميلادية [١٣].

وماذا عن الاقتصاد الروماني؟ يعطينا عالم البلاغة الإغريقي إيليوس أرسيديتس لمحة عن ذلك عندما دون في منتصف القرن الثاني الميلادي ما يلي:

> تصل العديد من السفن التجارية إلى هذا المكان، وعلى متنها كل أنواع البضائع من كل الأصقاع في كل ساعة من كل يوم لدرجة أن المدينة تحولت إلى مصنع يشترك فيه كل العالم. ... تحدث هيسيود عن حدود المحيط واصفاً إياه بأنه المكان الذي يتم فيه توجيه كل شيء نحو البداية والنهاية. وهكذا، كل شيء يتجمع هنا دفعة واحدة - التجارة، والسفر عن طريق البحر، والزراعة، ونفايات المناجم، وجميع الحرف السائدة، وأيضاً المنقرضة، وكل ما تم إنتاجه أو زراعته. هنا، يرى المرء كل ما قد يخطر بباله مما هو موجود، أو وجد يوماً ما، على الأرض.

كانت روما في أوج قوتها نموذجاً ما قبل حداثوي للعولمة الاقتصادية: تجارة حرة، وأسواقًا مفتوحة تجعل الخبير الاقتصادي في شيكاغو يشعر بالفخر. توقفت الضرائب المفروضة على الاستيراد ما بين الممالك الرومانية في الوقت الذي كانت روما تعزز من سلطتها. وبينما كان يتم تعزيز تحصين حدود الإمبراطورية، تحولت روما إلى منطقة تجارة حرة هائلة حيث تدفق زيت الزيتون الإفريقي وزيت السمك الإسباني الفاخر على الأسواق من اسكتلندا إلى قبرص. ازدهرت التجارة بشكل لم يسبق له مثيل مدعومة بالإيقونة الرومانية، وبشبكة استثنائية من المواصلات من بينها الأنهار الأوروبية، والطرق البحرية في البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى الطرقات الرومانية الشهيرة.

توسع «الاقتصاد العالمي» لروما إلى أن وصل إلى الشرق الأقصى. أبحر التجار الرومان عبر المحيط الهندي، وسافروا على طريق الحرير، وحملوا معهم في طريق العودة التوابل الفاخرة، والعطور وكل أنواع الحرير والأقمشة الفاخرة إلى أسواق الإسكندرية وروما، ولندن. في المقابل، كانت روما تتاجر بالمواد الزجاجية، والنقود الذهبية، وبضائع أخرى تم اكتشافها في أماكن قصية مثل فيتنام وماليزيا. كما قام الرومان منذ سنة ٢٨٩ قبل الميلاد بإنتاج قطع نقدية برونزية لتأمين حاجات الإمبراطورية التجارية، طارحين في السوق عملة موحدة، وهو إنجاز يضاف إلى جملة من العوامل التي جعلت من روما قوة مطلقة على الصعيد الاقتصادي [١٤].

ولكن لم تكن البضائع وحدها هي ما تنتقل بسهولة وحسب؛ إذ إن روما استطاعت اجتذاب أشخاص مهرة وموهوبين من كل أصقاع الإمبراطورية. فقد كان من الطبيعي جداً أن يكون ضمن الجيش الروماني «رماة سهام من كريت، وقاذفو حجارة باليريون»، وسيّافون أسبان، وبحارة من جزيرة رودس الإغريقية. وكان التجار السوريون واليهود والأرمن يتدفقون إلى روما ومنها حاملين معهم الذهب والعاج والأخشاب الثمينة» من إفريقيا، والتوابل من شبه الجزيرة العربية، «واللآلئ والأحجار الكريمة» من الهند، والحرير من الصين، «والفراء من آسيا الوسطى وروسيا»، و«العنبر من ألمانيا واسكندنافيا». وكان رعايا الإمبراطورية من كافة أجزائها، باستثناء العبيد والخدم المرتبطين بخدمة أسيادهم في البيوت والحقول، يتمتعون بحرية التنقل في أرجائها بحرية غير مسبوقة.

في الوقت نفسه، وفرت روما فرصاً عظيمة لرعاياها للارتقاء على سلم الشهرة، حتى في المناطق النائية. تروى حول هذا الموضوع قصة مثيرة للإعجاب من خلال نقش وُجد في مدينة صغيرة في شمال إفريقيا في تاديس، أو ما يعرف اليوم بالجزائر؛ تعرض هذه القصة لحياة الابن الثاني أو الثالث لأحد الإقطاعيين المحليين من البربر. غادر هذا الصبي الذي عرف فيما بعد، باسم كوينتوس لولليوس أوربيكوس، شمال إفريقيا باتجاه آسيا وفلسطين ومنطقتيْ الدانوب والراين السفلى، وارتقى بتؤدة وثبات درجات السلم الإمبراطوري إلى أن أصبح في نهاية المطاف حاكماً لبريطانيا حيث قاد الجيش الإمبراطوري باتجاه اسكتلندا بهدف توسيع حدود الإمبراطورية. وحصل كوينتوس في نهاية أيامه على لقب المواطن المثالي في روما [١٥].

«إله الناس»

لم تكن العنصرية بمعناها الحديث موجودة في روما. الدلائل التي تؤكد على أن الرومان اعتبروا أن أصحاب البشرة الفاتحة أرقى عرقاً من أصحاب البشرة الداكنة، أو العكس هي دلائل ضعيفة. ولكن هناك نقطة لا بد من توضيحها لتجنب أي شكل من أشكال سوء التفاهم: كان الرومان متعالين؛ ولم يكونوا ينظرون إلى

الأقوام الأخرى على أنها مساوية لهم. على العكس من ذلك، اعتبر الرومان أنفسهم مختارين من الآلهة، «كي يقوموا بتمثيلها بين بني البشر». وكانت في أذهانهم أعداد كبيرة من الصور النمطية غير المحببة حول الشعوب التي استعمروها.

وهكذا فإن سكان أيرلندا «همجيون بالكامل، وحياتهم مليئة بالبؤس بسبب الطقس البارد.» أما جيرانهم الاسكتلنديون فهم من «الكاليدونيين والميتانيين العراة» فقد «استوطنوا في المستنقعات طيلة حياتهم، ولم يكن يظهر منهم سوى رؤوسهم التي تبرز مثل نتوءات فوق سطح الماء، وكانوا يقتاتون على طحالب المستنقعات التي أبقتهم على قيد الحياة.» أما على الجانب الآخر من الإمبراطورية، أي في إفريقيا ذات الحرارة الملتهبة، فإن الإثيوبيين، والنوميديين، والموريتانيين ضئيلو الحجم «وشعرهم مثل نتف الصوف»، «أصواتهم حادة»، وسيقانهم قوية»، و«تفحمت أجسادهم التي لفحها لهيب حرارة الشمس». ضخّت الشمس الدم إلى رؤوسهم فأصبحوا «سريعي البديهة»، لكن نقص الدم الناجم عن ذلك في أماكن أخرى من أجسادهم، جعلهم يصابون بالرعب بسبب احتمال تعرضهم للإصابة، ولهذا السبب فقد كانوا محاربين تعوزهم الشجاعة.

يقال عن الأفارقة أيضاً إنهم «متقلبون» و «مهووسون بالجنس»؛ أما نساؤهم فيتمتعن بمعدل عالٍ من الخصوبة، وهن لذلك غالباً ما يلدن توائم. أما النساء المصريات فيلدن ثلاثة من التوائم - بسبب شربهن من مياه النيل.

كانت الخصوصيات التشريحية المفترضة للشعوب الأجنبية تشكل مادة دسمة للتندر في المخيلة الرومانية. ففي الهند على سبيل المثال، قيل إن هناك «أشخاصاً ينامون في آذانهم». وكان الرومان في الوقت نفسه يبدون احتراماً واضحاً لأعلى طبقة اجتماعية في الهند وهي طبقة البراهمانيين الذين قيل إنهم «نباتيون، ولا يرتدون أي ملابس صوفية أو جلدية، وفي الواقع فإنهم نادراً ما كانوا يلبسون أي ثياب على الإطلاق، وكانوا قادرين على كبح جماح شهواتهم الجسدية محافظين على عذريتهم حتى سن السابعة والثلاثين (يتزوجون بعدها ما طاب لهم من النساء).

كان الرومان يعتبرون المشرقيين عموماً، والسوريين وخصوصا شعوب آسيا الوسطى، جبناء في القتال، يرتدون معاطف نسائية، ويحاربون بأقواس ونبال «لا تليق بالرجال». أفسدت حياة البذخ والجواهر الثمينة والأطعمة الفخمة أولئك المشرقيين فأصبحوا ليني العريكة ومنحطين ومتملقين أذلاء، يبالغون في إظهار خضوعهم لملوكهم. وبالمقابل، كان انطباع الرومان عن الشعوب التي تقيم إلى الغرب من روما، يتلخص في أن هؤلاء يتسمون بالفظاظة، وغير متعلمين لا يهتمون إلا بالحروب، أما شعب سردينيا فهم مجموعة منفرة من قطاع الطرق الأشرار والكاذبون بالفطرة».

أما الأسبان، فكان الرومان معجبين ببراعتهم الاستثنائية في فنون القتال. وكان الأسبان - من وجهة نظر الرومان - حضاريين نسبياً إذا ما قورنوا على سبيل المثال بأقوام أخرى كالأرمينيين أو البارثيين. ولو وضعنا جانباً مسألة أن بلادهم مليئة بالأرانب، فإن لهم سمة خاصة يشتركون جميعاً فيها، وهي «أنهم ينظفون أسنانهم بالبول، وحتى أنهم يستحمون فيه».

من اللافت أن الرومان كانوا ينفرون من الشعوب التي يكون أفرادها عادة من ذوي الأوزان الثقيلة، أو الطول الفارع. فالشماليون عموماً كانوا « من ذوي الأجسام الضخمة والأقرب إلى الحيوانية»، و«أطرافهم هائلة الحجم» بشكل منفر. وكان البريطانيون والكاليدونيون من ذوي «الأحجام المخيفة»؛ أما الألمان فكانوا مثل السلتيين وشعوب بلاد الغال «عرقاً من العمالقة»؛ إلا أن أطوالهم «غير الطبيعية» كانت مترافقة مع دونية في معدل الذكاء لديهم، ولم يكن هناك ما يميزهم سوى أنهم أوقفوا زحف أولئك البرابرة في الحرب.

كان الرجل القادم من الشمال، الضخم الجثة «لا يعرف كيف يستثمر قوته» حتى على أرضه. وكان يتصرف بطريقة أشد سوءاً في الأجواء الحارة حيث «كان يأكل بشراهة، وبسبب إحساسه بالعطش الشديد نتيجة لذلك، كان يشرب كثيراً، خصوصاً الخمرة التي لم يكن من السهل عليه تناولها في موطنه الأصلي؛ ولهذا السبب فقد

كان وزنه يزداد بسرعة. لم يكن باستطاعته تحمل الحرارة أو الغبار، وكان يهرب إلى أي ظل يتقي تحته وهج الحرارة.» أما شعوب بلاد الغال التي تستوطن جبال الألب على وجه الخصوص، فكانت «أحجام أفرادها تفوق حجم الإنسان الطبيعي، وكانوا يحاربون كالوحوش الضارية.» وقد وصف أحد الرومان هؤلاء بالقول: «عند بَدْئهم بالهجوم، يقاتلون كرجال خارقين، ولكن بعد ذلك، يقاتلون كالنساء. إنهم يشبهون إلى حد ما، الثلوج على جبال الألب التي يقطنونها. فعندما يتحول الهجوم الأول إلى معركة حامية الوطيس، يبدأ العرق بالتصبب منهم، وبعد قليل من القتال، يذوبون كالثلج بفعل حرارة الشمس.»

باختصار، كان الرومان يعتبرون أن أحجامهم الجسدية ممتازة؛ وكانوا يرون أن طول جنودهم الذي يقل بمقدار ثلاث، إلى ست بوصات عن طول الجندي القادم من بلاد الغال أو الجندي الألماني هو منة إلهية خصهم بها دون سواهم من الأقوام الأخرى؛ «كان الرومان يتفوقون على الشماليين في معدل الذكاء وعلى الجنوبيين بالقوة الجسدية [١٦].

مع ذلك، وبالرغم من كل هذا التحامل، فقد كان بإمكان الرومان استقطاب كل أولئك «البرابرة» القادمين من كل حدب وصوب لينضووا تحت لواء الإمبراطورية، والإفادة من مواهبهم، كما مهدوا لهم السبل للارتقاء في مواقع الدولة، وتعايشوا على وجه العموم معهم بشكل سلمي. استناداً إلى غيبون، كانت روما في القرن الثاني الميلادي تجسد ذلك «العصر من تاريخ العالم الذي كان فيه الإنسان يعيش أوج سعادته وازدهاره» [١٧] لكن كيف استطاعت روما أن تربط ما بين تلك الشعوب المختلفة، وتحثها جميعاً على العمل في سبيل إعلاء شان الإمبراطورية؟

جاذبية الثقافة والمواطنة الرومانية

ربما كان أكثر ما يثير الاهتمام في الإمبراطورية الرومانية هو الجاذبية التي كانت تشد الناس إليها. فقد كان رعايا هذه الإمبراطورية من بريطانيا إلى المنطقة

العربية يرغبون في أن يكونوا جزءاً منها - أي أن يصبحوا «رومانيين». وقد لاحظ غيبون أن حكام الولايات الرومانيين نادراً ما كانوا»يطلبون الدعم العسكري» وذلك بسبب أن «الأمم المغلوبة التي انصهرت في بوتقة أمة واحدة لم يعد يحدوهم الأمل، أو حتى الرغبة، في أن يعودوا مستقلين من جديد، ونادراً ما كانوا يعتبرون وجودهم منفصلاً عن وجود روما.» ولكن ما هي طبيعة الجاذبية التي كانت روما تتمتع بها؟

كانت روما تمثل أكثر من أي إمبراطورية قديمة أخرى الوطن الأب المشترك لجميع رعاياها المنحدرين من أصول متشعبة. صحيح أن الحضارة الرومانية كانت تعتبر أكثر رقياً من حضارات الأقوام الأخرى (أقله بالنسبة إلى الرومان أنفسهم)، ولكن هذا لم يؤدِ يوماً بالنخب التي كانت تنتمي إلى الأقوام الأخرى التي استعمرتها روما إلى الإحساس بأنها مستعبدة أو ذليلة، بل تم تشجيعها على الإحساس بالتماهي مع الثقافة الرومانية كوسيلة للسلطة والتميز. وكانت الشعوب المستعمرة، غالباً خلال مدة جيلين، تنتقل إلى مرحلة تبدأ فيها ببناء المدن والمدرجات الرومانية، وتبنّي القيم الرومانية وأسلوب الحياة فيها. وكانت النخب المحلية ترسل أبناءها لتحصيل العلم في روما، وهؤلاء كانوا يكبرون ويتحولون شيئاً فشيئاً إلى مواطنين رومان يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية [١٨].

وكان من أكثر ما يثير الدهشة، هو ميل الرومان نحو استيعاب تقاليد ومعارف وممارسات الشعوب الأخرى لو وجدوا فيها ما يفيدهم. «السبب الرئيس الذي جعل الرومان يتسيدون العالم كان يتمثل في أنهم، وبعد أن خاضوا حروباً ضد كل الشعوب، كانوا مستعدين دائماً أن يتخلوا عن ممارساتهم حالما يكتشفون وجود ممارسات أخرى أفضل.» كان هذا الأسلوب واضحاً بشكل خاص في علاقتهم بالإغريق الذين اعترفت لهم النخب الرومانية بتفوقهم عليها. بعد فتحهم لجميع مناطق البحر الأبيض المتوسط، أعلن الرومان أنهم الورثة الثقافيون لبلاد الإغريق القديمة. وهكذا، فبدلاً من إيقاظ الروح الوطنية الرومانية، أو بعث الأفكار المتعلقة بالتميز الروماني، كان أباطرة رومان مثل هادريان يتحدثون عن انتماء لحضارة رومانية - إغريقية.

تركزت الإمبراطورية الرومانية حول مفهوم المدينة أو الدولة تماماً كما كان الأمر في الحضارة الإغريقية التي استنسختها روما. فحيثما توسعت الإمبراطورية، كان الرومان يبنون مدناً جديدة، وكانت العديد من تلك المدن تحمل أسماء رومانية، وذات طابع معماري روماني. ومع أن الثقافة الرومانية استقت جل أفكارها من الأدب، والرسم، وفن النحت، والفن المعماري الإغريقي، فقد كونت بعض الملامح الخاصة بها مثل عروض المجالدين وصيد الحيوانات البرية. كانت الحضارة الرومانية تشكل مزيجاً ثقافياً - حيث كانت تمزج ليس فقط بين ما هو روماني وما هو إغريقي، بل بين عناصرها وبين العناصر المحلية والإقليمية أيضاً - أثبت جاذبيته الشديدة بالنسبة للنخب الموجودة على امتداد مساحة الإمبراطورية.

كان جميع الرومان المتعلمين يجيدون الإغريقية واللاتينية، وكانوا في مرحلة بلوغهم يقرؤون كتابات الفلاسفة الإغريق والرومان، الأبيقوريين الحسيين منهم والزّهّاد. وكان من نتائج هذه الثقافة المشتركة، خصوصاً مع حلول القرن الثاني الميلادي، أن الطبقات الاجتماعية العليا في إفريقيا وإيطاليا وأسبانيا اكتشفت أن بينها قواسم مشتركة أكثر بكثير مما يجمعها مع طبقتي العبيد والفلاحين من بني جلدتها، والذين كانوا ينتجون لها الغذاء ويرعون مواشيها. مع مرور الوقت، لم تعد الإمبراطورية تصنف على أسس عنصرية؛ إذ تم إبدال الفوارق العنصرية والثقافية بفوارق اجتماعية واقتصادية [١٩].

ما يثير الانتباه أنه بينما كانت روما تقوم بنشر الثقافة الإغريقية - الرومانية، فإنها لم تحاول البتة إلغاء اللغات والتقاليد المحلية. على العكس من ذلك تماماً، كانت الوقائع على الأرض تبرز تنوعاً لغوياً وثقافياً هائلاً. وبالرغم من أن اللاتينية كانت اللغة الرسمية في جميع أنحاء الإمبراطورية، فقد بقيت اللغات الإغريقية والقبطية والآرامية والسلتية والبربرية تستخدم في مناطقها المحلية. وفي إفريقيا، استمر تداول اللغة البونية إلى عهد سان أوغستين. كما كانت مدن الإمبراطورية الكبرى مثل روما والإسكندرية تعددية الأعراق واللغات مثل نيويورك أو لندن هذه الأيام [٢٠].

كانت الجاذبية التي تمثلها الجنسية الرومانية جزءاً مهمًا من التركيبة الثقافية لروما الإمبراطورية. بادرت روما إلى تقديم غصن الزيتون المتمثل بالجنسية الرومانية كيْ تخفف من مرارة أعدائها الذين هزمتهم، وقد ساعدت هذه الإستراتيجية في الإبقاء على وحدة الإمبراطورية لقرون طويلة، وتوسعها إلى حافة العالم المعروف آنذاك.

كانت الجنسية في جوهرها ترمز إلى أن الشخص المعني بذلك قد أصبح جزءاً من النخبة، وهو ما ضمن له مستوى معيناً من الحماية ضد تعسف المسؤولين الإمبراطوريين في أعلى الهرم، وكذلك ضد الجماهير في أسفله. تغيرت الحقوق الممنوحة للمواطنين بمرور الوقت؛ إلا أن الجنسية الرومانية عموماً كانت تعني ممارسة حق الانتخاب، وحرية التملك، وإبرام العقود، وكانت تشكل حماية ضد التعذيب، كما كانت تشكل حماية خاصة من أحكام الإعدام، والمساواة في التعامل أمام القانون الروماني. لاحظ الخطيب الإغريقي إيليوس أريستيديس «أنك قسمت رجال إمبراطوريتك إلى قسمين، وجعلت كل الأشخاص من طبقة النبلاء ومن ذوي النفوذ، ومن الذين كانت لهم إنجازات لافتة، مواطنين (رومان) ... أما الباقون، فقد حولتَهم إلى رعايا ومحكومين.»

وردت إحدى القصص المعبرة عن الجنسية الرومانية في العهد الجديد. أمر حكام الولايات بجلد القديس بولص في مقدونيا، كما ورد في كتاب القوانين. وبعد أن كشف بولص أنه مواطن روماني، شعر هؤلاء الحكام «بالخوف» وقاموا بإطلاق سراحه، مع تقديم اعتذار رسمي له. بعد ذلك، وفي القدس حينما ألقي القبض عليه مرة أخرى، قال لهم بولص: «هل تستطيعون بحكم القانون جلد رجل يتمتع بحقوق المواطنة الرومانية، وأزيد على ذلك بالقول، وخصوصاً إذا كان بريئاً؟» وبالرغم من أن بولص تم إعدامه في نهاية الأمر من قبل مسؤولين رومان، إلا أن جنسيته الرومانية شفعت له ومنحته «الحق» في أن يعدم بواسطة قطع الرأس (بدلاً من أن يتم تعذيبه وصلبه) [٢١].

كانت عملية تحويل المجتمعات المحلية إلى المواطنة الرومانية قد بدأت بطبقة الأرستقراطيين. كان أصحاب المناصب الحكومية يمنحون في العادة الجنسية الرومانية كتحصيل حاصل بغض النظر عن أصولهم وأعراقهم. نتج عن هذه المنحة التي تمثلت بإعطاء الجنسية "رَوْمَنَة" تدريجية للنخب المحلية التي بدأت بالتأقلم مع الحكم الروماني، وترى أن مصالحها مرتبطة بالحفاظ على الإمبراطورية. كتب أريستيديس: «لا توجد حاجة لإرسال حامية عسكرية كي تحمي قلاعهم، وذلك لأن الرجال العظام، أصحاب السطوة والنفوذ في كل من تلك المدن سوف يحرسون أرض آبائهم نيابة عنكم.»

لم تكن الجنسية الرومانية محصورة في الطبقات العليا؛ ذلك أن العديد من أفراد الطبقة الدنيا تم دمجهم في خانة المواطنين من خلال خدمتهم بالجيش. كانت التقاليد والديانة الرومانية تقتضي بأن تكون فيالق الجيش الروماني - أي قوة النخبة فيه - من المواطنين الرومان. وعندما كانت أعداد الجنود في تلك الفيالق منخفضة، كان القادة يقبلون تطوع الأجانب في الجيش ومن ثم، يمنحونهم الجنسية الرومانية. ولكن هذا في مجمله كان يحدث في ظروف استثنائية، مثلما كانت الحال عندما أنشأ القيصر فيلقه الشهير المكون من سكان بلاد الغال؛ وحتى في الأوقات العادية أيضاً، خصوصاً في الشرق عندما كانت الأعداد منخفضة، ولم يكن المواطنون متحمسين للانضمام إلى الجيش.

في حالات أخرى، كانت المجموعة السكانية برمتها تمنح امتياز لقب «المستعمرة الرومانية» - وهو لقب له فوائده المادية العديدة. عندما كان يحدث مثل هذا، فإن جميع الذكور الأحرار في هذه المجموعة السكانية يصبحون مواطنين رومان. وازدادت بثبات مع مرور الوقت، أعداد المواطنين الرومان على امتداد الإمبراطورية؛ ووصلت هذه الأعداد إلى حدودها القصوى مع قيام الإمبراطور كركلا بمنح حق الاقتراع لأعداد كبيرة سنة ٢١٢ ميلادية، مانحاً بذلك الجنسية لكل ذكر حر في الإمبراطورية.

كانت المقاربة التي اتبعتها روما، وتجاوزت فيها مسألتي العرق، والطبقة الاجتماعية عاملاً مساعداً في نشر الثقافة والقيم الرومانية. كان المواطنون الرومان في طول البلاد وعرضها يتوقون إلى الظهور في المناسبات العامة بأرديتهم الرومانية البيضاء الفضفاضة، وإتباع العرف الروماني بإطلاق الاسم المكون من ثلاثة أجزاء على أنفسهم إشارة منهم إلى الوضع النخبوي الذي يتمتعون به [٢٢].

"أن ترى كافة سكان العالم يرتدون التوغا..."

لم يكن هدف روما المثالي الذي تسعى إليه من خلال عملية الدمج بين الشعوب المختلفة إبراز شمولية التعدد الثقافي بمقدار ما كان عملية استيعاب لتلك الشعوب. كانت روما متسامحة بمعنى أن أي مجموعة ترغب في تبني العادات والتقاليد الرومانية، كان من الممكن ضمها إلى الإمبراطورية بغض النظر عن أصولها العرقية. لكن لم يبد الرومان أي رغبة في المحافظة على ممارسات اعتبروها «بربرية»، أو إبداء أي احترام أو تقدير لهذه الممارسات.

كانوا على سبيل المثال يشعرون بالاشمئزاز من منظر السلتيين الأيرلنديين بشعرهم الأشعث الطويل وسراويلهم الضيقة بدلاً من أردية التوغا. كما كانوا ينتقدون البريطانيين الذين كانت تتوافر لديهم كميات كبيرة من الحليب؛ إلا أنهم لم يستغلوه - لسوء الحظ - لتصنيع مادة الجبن. وكانوا يعبرون عن ازدرائهم للوسيتانيين فيما يعرف اليوم بالبرتغال بدعوى أنهم كانوا يفترشون الأرض، ويصنعون الخبز من دقيق الذرة، ولأنهم كانوا يفضلون شرب الماء على شرب الخمر، ويطبخون بالسمن بدلاً من زيت الزيتون.

إلا أن تلك العادات الفظة كان بالإمكان معالجتها والتخلص منها. كان احتقار الرومان للرعايا البربريين يتلاشى حالما تبنى هؤلاء نمط روما في الحياة. لم يكن يُعتقد أن البرابرة سوف يبقون أبد الدهر خارج نطاق الحضارة؛ كل ما كان عليهم القيام به هو اتباع نمط الحياة الرومانية كي يتم اعتبارهم جزءاً من الإمبراطورية.

وهكذا، وفي سنة ٤٨ ميلادية، فإن الإمبراطور كلوديوس أجاب في معرض رده على معارضيه الذين جادلوا أن الغاليّين البرابرة هم من البدائية بحيث لا يمكن السماح لأي منهم بنيل شرف عضوية مجلس الشيوخ، ذلك الجواب الشهير الذي قال فيه: «لا بأس بهم، فهم لم يعودوا يرتدون السراويل» [٢٣].

كان رأي كلوديوس واضحاً: يمكن وضع حد للبربرية؛ وكلما وضع حد لها بصورة أسرع، كان ذلك أفضل. وقد آمن الرومان بشدة بحضارية مهمتهم، تماماً كالبريطانيين الذين أتوا بعدهم بحوالي ألفي سنة. كان الهدف، كما وصفه بلايني الأكبر، هو «جعل سلوك الناس أكثر رقياً، أي تجميع هذا الخضم المتلاطم والهائل من أقوام لا حصر ولا عد للاختلافات فيما بينها، للتحدث بلسان واحد ولغة واحدة، ولتزويد الإنسانية والناس بالحضارة بحيث تنتمي جميع الأعراق إلى أب واحد.» وهكذا فقد كان كلوديوس يأمل في «أن يرى كافة سكان العالم يرتدون التوغا - من إغريق وغاليين وأسبان وبريطانيين، إلى ما هنالك.»

يصف المؤرخ تاسيتوس بطريقة مشابهة كيف حاول أغريكولا، والد زوجته وحاكم بريطانيا أن يقنع البريطانيين بارتداء التوغا، وذلك من خلال تشجيع رعاياه البريطانيين على تشييد منازل ومعابد على الطراز الروماني، وكذلك من خلال تعليم أبناء القياديين من البريطانيين الفنون الجميلة. وبحسب رواية تاسيتوس، فإن البريطانيين الذين كانوا يستوطنون بدايةً في «مستعمرات بدائية» والذين كانت لديهم نزعة « نحو شن الحروب» بدؤوا «يعتادون في نهاية المطاف على حياة السلام والاستقرار بعد صدور سلسلة قرارات العفو الإمبراطورية.» وقال أيضاً: «حتى أزياءنا أضحت المفضلة بينهم وكان لباس التوغا يظهر في كل مكان.» وبمرور الوقت، تم إغواء البريطانيين «بواسطة إغراءات الطرق الشريرة، وصفوف الأعمدة، والحمامات الدافئة، والولائم الباذخة. ووصف البريطانيون الذين لم تكن لديهم خبرة في أي مما تقدم ذكره، هذه الأشياء "بالحضارة" والإنسانية، بالرغم من أنها كانت جزءاً من عملية استعبادهم» [٢٤].

بعبارة أخرى، لم يكن الرومان نسبيين ثقافياً. فقد شجع المسؤولون الرومان النخب المستعمَرة لقبول الصيغة الثقافية الرومانية من خلال إيجاد نظام سياسي واقتصادي كان بمثابة مكافأة لمن ينخرط في سياسة الاستيعاب تلك. ما كان لافتاً هو أن الجنسية أو العرق لم يكن لهما أي تأثير يذكر على قدرة أي شخص في أن يصبح رومانياً. وكان السر في عظمة روما يكمن في رغبتها وقدرتها على دمج واستيعاب كمّ لا حصر له ولا عدّ من الشعوب الجديدة في إمبراطوريتها.

التسامح الديني في أوج قوة الإمبراطورية

أحد أهم الملامح اللافتة للنظر في العصر الذي كانت روما في أوج قوتها تتسم به كان مقاربتها العالمية للدين. وبحسب الملاحظة اللاذعة التي أبداها غيبون، «فإن كافة الأنماط المختلفة للعبادة التي انتشرت في كافة أنحاء العالم الروماني، كانت جميعها بالنسبة للناس صحيحة بشكل متساوٍ؛ أما بالنسبة للفيلسوف، فقد كانت كلها على السوية نفسها من الزيف، واعتبرها الحاكم مفيدة الدرجة نفسها. وهكذا فقد وفر التسامح الديني ليس فقط تساهلاً متبادلاً بين أتباع الديانات المختلفة، بل أيضاً انسجامًا دينيًا.» [٢٥] المطلب الوحيد الذي فرضته روما على الديانات المحلية كان يتمثل في إظهار قدر كاف من الاحترام للسلطة الرومانية والطقوس الرسمية.

لم يكن التسامح الديني الذي أظهرته روما مدعاة للاستغراب إذا تم النظر إليه من زاوية معينة، كان الرومان يؤمنون بديانة تعددية الآلهة، وكانوا يرون أن من الطبيعي أن تعبد الشعوب المختلفة آلهة مختلفة. وفوق هذا وذاك، كان النظام الروماني الذي يقول بوجود آلهة متعددة، يستند كلياً وجزئياً إلى الأسطورة الإغريقية - التي تتمحور حول الآلهة زيوس وأثينا وأفروديتي، والتي أعيدت تسميتها بجوبيتر ومينريفا وفينوس. كانت الرؤية الإغريقية - الرومانية تؤمن بوجود آلهة لكل شيء. وإذاً، فما الضير في أن تؤمن الشعوب الأخرى بآلهة جديدة؟

مع حلول القرن الثاني الميلادي، كان من المستحيل من الناحية الفعلية أن تفرد

ديناً رومانياً «نقياً». وفي الوقت الذي كانت الفيالق الرومانية تعبر أوروبا وشمال إفريقيا، فإنها كانت «تستولي» على آلهة جديدة، تقريباً كما كانت تستولي على مدن وثقافات جديدة. بعد انتهاء المعارك، كان الجنرالات الرومان في غالب الأحيان، يتبنون آلهة أعدائهم المهزومين، وكانوا بذلك يبسطون سيطرتهم على مصادر القوة عند أعدائهم. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك؛ إذ كان قادة تلك الفيالق يقومون، وبحركة أبعد ما تكون عن إظهار أي احتقار لتلك الآلهة المحلية، بنقلها إلى روما في طريق عودتهم، وغالباً ما كانوا يجدون لها مكاناً في معابدهم المحلية.

كانت روما، بالإضافة إلى قيامها «بالاستيلاء» على الآلهة الأجنبية، تقوم «باستدعاء» أحد الآلهة الأجنبية المحترمة للمجيء إلى روما لمساعدة المدينة في مواجهة حال طارئة أو محنة طبيعية مثل انتشار وباء ما، أو مواجهة غزو. ولو حدث وعم الجفاف، فإن ذلك يعني أن الآلهة الرومانية كانت إما غاضبة أو مشغولة بقضايا أخرى. وكان الرد على ذلك يتمثل في البحث عن آلهة جديدة لحل المشكلة.

كانت الديانة الرومانية تتعايش في أغلب الأحيان مع المعتقدات المحلية للسكان الأصليين في المناطق الجديدة المنضوية تحت لواء الإمبراطورية. كان ذلك يتخذ شكل الاعتراف الديني المبطن. ففي موريتانيا على سبيل المثال، كان يشاع أن إحدى الأسواق كانت تتمتع بحماية كل من الإله جوبيتر (وهو إله في الهيكل الروماني)، وجوبا (وهو ملك محلي مؤله) والموهوبة فينيسنيسي (وهي روح محلية حامية). في أماكن أخرى، كان يتم دمج الآلهة؛ فقد كان كل من الإلهين زحل وجوبيتر يعاملان بالمساواة نفسها تقريباً في شمال إفريقيا، وكان الإله السلتي لوغ موازياً للإله ميركوري، أما الإلهة مينريفا فقد ارتبط اسمها بآلهات محليات مثل سوليس إلهة مدينة باث [٢٦].

لكن التعامل الاستيعابي الذي مارسته روما تجاه الأديان، كانت له حدوده أيضاً. فالمعتقدات والعادات التي اعتُبِرت «غير رومانية»، أو منفرة أخلاقياً، كانت ممنوعة. وهكذا فقد فرض مجلس الشيوخ الروماني حظراً على الطقوس الدينية "الدرودية"

المتمثلة بتقديم أضاحي بشرية، كما فرض حظراً على الطقس الديني المتمثل في ممارسة الإخصاء الذاتي والذي كان يقوم به بعض أتباع الآلهة الفريجية سيبيل. وقد وقعت بعض الآلهة ضحايا للسياسة. فالإلهة آيسيس والإله سيرابيس - اللذان كانا يرمزان في الوعي الشعبي وعلى نطاق واسع، إلى كل من أنطونيو وكليوباترا- تم وضع الحظر على التعبد بهما من قبل الإمبراطور أغسطس بعد انتصاره في مصر. ولم يتم السماح بضم الإلهين آيسيس و سيرابيس إلى الهيكل الروماني إلا بعد مرور قرنين من الزمن، حين أمر الإمبراطور كركلا بإعادة الاعتبار إليهما[٢٧].

عموماً، نجح الرومان بشكل باهر في دمج الآلهة المحلية بالنظام الديني للإمبراطورية. إلا أن الديانتين التوحيديتين، وهما اليهودية والمسيحية - اللتان كانتا ترفضان الانخراط في الطقوس الرومانية الإلحادية - شكلتا تحديات أكثر جدية للإمبراطورية.

عاش اليهود القدامى في أرض فلسطين، وفي المدن الساحلية في مصر وشرقي البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الإسكندرية التي كانت موئلاً لأكبر تجمع لليهود الناطقين باللغة الإغريقية. شكل اليهود معضلة حقيقية بالنسبة للرومان. ففي «البوتقة الرومانية السعيدة التي تنصهر فيها الأعراق والأجناس»، الموجودة في كبريات المدن، كان اليهود يبنون تجمعاتهم السكنية المنفصلة والخاصة بهم وكانت هذه التجمعات تتركز حول كنسهم ومحاكمهم التي قاومت كل الإغراءات بشأن إبدال العبرية بالإغريقية أو اللاتينية. وبالرغم من وجود أعداد كبيرة من اليهود «الهلنستيين» الذين يتحدثون اللغة الإغريقية، إلا أنهم كانوا ميالين إلى العيش بشكل منفصل وهو ما أدى بالرومان لأن يطلقوا عليهم وصف «برابرة الداخل».

انتعش اليهود الأوائل اقتصادياً في الإمبراطورية، وكانوا يتمتعون بكل ما تقتضيه سياسة التسامح الديني التي انتهجتها روما مع كل الأقوام التي استعمرتها. لجأ اليهود إلى الرومان حوالي سنة ١٦١ قبل الميلاد على إثر الهجوم الكاسح الذي

شنه عليهم الملك السوري أنتيوخوس الرابع. عقدت روما معاهدة صداقة مع اليهود لرغبتها الشديدة في إضعاف سورية، وتوطدت هذه الصداقة مع مرور الأيام. منح يوليوس قيصر اليهود حق حرية العبادة، وشكلاً من أشكال الاستقلال الذاتي في كافة أنحاء الإمبراطورية. وفي المقابل، قدم اليهود لقيصر الدعم العسكري؛ وبعد اغتيال القيصر، زحف اليهود الرومان زرافات ووحداناً الليلة تلو الليلة بثياب الحداد يندبون موته.

عامل أغسطس، خليفة القيصر اليهود بشكل إيجابي حتى أنه أمر بإجراء استثنائي يتعلق بالتأكد من أن موسم حصاد القمح الذي تشرف عليه الحكومة الرومانية لم يخلّ بقدسية السبت اليهودي. وكتب الفيلسوف اليهودي فيلو الذي كان يقيم في الإسكندرية، بكثير من الإعجاب عن تسامح أغسطس ما يلي:

> كان أغسطس يعرف أن غالبية مساحة مدينة روما في الجانب الآخر من نهر تايبر يسكنها اليهود. العديد منهم كانوا محررين وأصبحوا الآن مواطنين رومان. ... لم يطردهم من روما أو يجردهم من جنسيتهم وذلك لأنهم عانوا كثيراً من أجل المحافظة على هويتهم كيهود. لم يفرض عليهم إهمال أو ترك أماكن العبادة العائدة لهم، أو يمنعهم من التجمع، أو تلقي دروس حول القوانين اليهودية.... احترم مصالحنا بكثير من الورع والتقوى، لدرجة أنه، وبدعم من عائلته، قام بزخرفة معبدنا بدافع من روعة تفانيه وإخلاصه، كما أمر بتقديم نذور وقرابين يومياً وعلى حسابه الخاص تقرباً من الإله الأعظم.

لكن أباطرة آخرين كانوا أقل اهتمامًا باليهود من أغسطس. فقد منع هادريان عمليات الختان، وتدريس القوانين اليهودية. أما الإمبراطور كاليجولا فقد أرغم يهود الإسكندرية على تناول لحم الخنزير. أسهمت هذه الاستفزازات، بالإضافة إلى الصراع الدائر والمستمر حول السيطرة على القدس، في انفجار ثورات ثلاث كبرى، اندلعت الأولى منها بين سنتي ٦٦ و٧٣ ميلادية بعد أن قام الإمبراطور تايتوس بتدمير المعبد اليهودي في القدس. أما الثورتان الثانية والثالثة فقد اندلعتا سنتي ١١٥ و١٣١ على التوالي عندما ثار اليهود على القوانين القمعية، وعندما تدفقت

أعداد كبيرة من الإغريق والمستوطنين الآخرين إلى المناطق اليهودية. أدت هذه الثورات إلى سفك الكثير من الدماء في الجانبين اليهودي والروماني.

قال بعض المؤرخين إن الصراع بين الرومان واليهود كان ذا طبيعة سياسية بالدرجة الأولى. لكن آخرين ركزوا على العوامل الدينية والثقافية لهذا الصراع. على أي حال، خضعت أوضاع اليهود إلى الكثير من التغيرات مع مرور الوقت، وكان هذا التغير يخضع غالباً إلى طبيعة الإمبراطور في موقع السلطة [٢٨].

أما المسيحية فقد مثّلت مجموعة مختلفة من التحديات للتسامح الروماني. فقد رفض المسيحيون الآلهة الرومانية، كما رفضوا قسم يمين الولاء للإمبراطور. كان اليهود معفيين من هذه المتطلبات بسبب أن صفة «المعتقد القديم» سبق وأن أطلقت عليهم عندما غزتهم الفيالق الرومانية واستعمرتهم. لم تتمتع المسيحية بهذا الامتياز كونها «معتقداً جديداً» يتزايد عدد معتنقيه باطراد في كافة أنحاء الإمبراطورية، ومن ثم لم يكن لها الحق بخرق شروط الصفقة الضمنية التي تقضي بأن يتسامح الرومان مع أديان أخرى، إلا إذا أبدى هؤلاء علناً، قلة احترام للسلطة الرومانية.

نتيجة لذلك، وقعت اصطدامات متفرقة بين المسيحيين الأوائل والمسؤولين الرومان. واجه المسيحيون كذلك أعمالاً عدائية من قبل اليهود الذين اعتبروهم هراطقة انحرفوا عن خطهم الديني. مع ذلك، تُرِك المسيحيون وشأنهم إلى حد كبير عملياً طيلة العهد الذهبي للإمبراطورية. كتب غيبون في هذا الصدد ما يلي: «سمحت اللا مبالاة التي أظهرها بعض الأمراء، والاهتمام الذي أبداه البعض الآخر، للمسيحيين بالتمتع بمزايا التسامح بشأن ممارسة شعائرهم الدينية، والذي وإن لم يكن قانونياً، فإنه كان فعلياً وعلنياً» [٢٩].

التعصب، والمسيحية، وسقوط روما

متى بدأت الإمبراطورية الرومانية بالانحدار؟ يختلف المؤرخون بشدة حول

هذا الموضوع، ويعتمد ذلك على نوع النظرية المعتمدة التي يتبنونها لتفسير أسباب هذا السقوط - هناك نظريات كثيرة حول هذا الموضوع. تمت الإشارة إلى جملة من العوامل التي -أدت جميعها من دون شك - دوراً في سقوط الإمبراطورية؛ ومن بين هذه العوامل التمدد الإمبراطوري الزائد عن الحد، والأزمة الاقتصادية، والغزوات البربرية، وضعف قوة روما العسكرية. تضاف إلى ذلك مجموعة من التفسيرات ذات الخاصية المحددة، من بينها التسمم بالرصاص، والفساد الأخلاقي، وإنهاك التربة، وفساد النساك والرهبان والراهبات و»منشقين آخرين»، وذوبان الأصالة الرومانية «النقية» [٣٠]. لكن، وبالرغم من أن تقويم الأسباب الكلية لسقوط روما لا يدخل ضمن مجال هذا الفصل؛ إلا أن هناك نقطتين واضحتين تمثلان أطروحة هذا الكتاب.

تتمثل النقطة الأولى في أنه، بينما يعتبر التسامح عاملاً أساسياً في صعود نجم الإمبراطورية الرومانية بوصفها قوة عالمية، ومحافظتها على الإيقونة الرومانية، فقد كان يحمل في طياته أيضاً بذور الانهيار النهائي لروما. كانت الإمبراطورية الرومانية كما رأينا سابقاً، أكثر نجاحاً من بلاد فارس الأخمينديه في عملية الدمج بين الشعوب المستعمرة ذات الخلفيات المتشعبة، واستمالتها من خلال إعطائها الجنسية، بالإضافة إلى الجاذبية الخاصة التي تتمتع بها الثقافة الرومانية. وفي حين أن أغلب الشعوب التي كانت تحت الحكم الأخميندي لم تتم «فوْرستها»، كانت هناك أعداد مدهشة من رعايا الإمبراطورية الرومانية قد تمت «روْمنتها».

ولكن لم تتم "روْمنة" جميع الرعايا. سعت الإمبراطورية الرومانية إلى استيعاب شعوب كانت تقاليدها وثقافاتها المختلفة، لسبب أو لآخر، متناقضة مع تقاليد روما وثقافتها، وكانت من ثم، أكثر مقاومة لهذه العملية؛ خصوصاً في الشرق الهيلنيستي، والشمال «البربري». كان الأباطرة العظام الأوائل متسامحين مع هذه التباينات بين الشعوب، ولم يكن هناك أدنى شك في أن الإمبراطورية الرومانية أفادت كثيراً من هذا التسامح خلال أوج سلطة روما. إلا أن شعوب الشرق والشمال، وبفعل هذا

التسامح، بقيت متماسكة اجتماعياً، ومستقلة ذاتياً نسبياً، وغير رومانية إلى حد ما؛ ومع مرور الزمن، تمردت تلك الشعوب على الحكم الإمبراطوري وبدأت بإثارة القلاقل سعياً نحو الاستقلال.

يشرح المؤرخ أنطوني باغدين الوضع كما يلي: «في الوقت الذي توسعت الإمبراطورية، وازدادت أعداد الشعوب المنضوية تحت سيطرتها، أضحى من الصعوبة بمكان،الإمساك بزمام هذه التباينات بين الشعوب». تعمق الانقسام في القرن الرابع الميلادي بين الغرب اللاتيني والشرق الإغريقي؛ ومع حلول سنة ٣٩٥، انشطرت الإمبراطورية الرومانية بشكل نهائي إلى شطرين. في الوقت نفسه، «بدأت الإمبراطورية بالتجوف من الداخل بشكل لا براء منه، في حين بدأت الشعوب التي كانت منصهرة منذ مدة طويلة في الجسم الإمبراطوري بثورة ضد الإمبراطورية، واستغلت الشعوب التي كانت موالية يوماً ما، لروما الفرصة لإنشاء دولها المستقلة الخاصة بها» [٣١].

لكن «التنوع العرقي الزائد عن الحد» لم يكن سوى مظهر واحد من مظاهر المشكلة. أما المشكلة القاتلة التي عانت منها روما بعد أفول عصرها الذهبي، فتمثلت في انحدارها نحو عصر تميز بممارسة الاضطهاد الديني والكراهية العرقية. وهنا تكمن نقطتي الثانية: فبالرغم من أن التعصب لم يكن العامل الوحيد في انحطاط الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه ساعد في تفتيت تلك الإمبراطورية.

كانت الديانة المسيحية متورطة بعمق في هذا الجو المتعصب؛ حيث كانت في البداية تمثل هدفاً لهذا التعصب، وبعد ذلك، أصبحت مصدره الرئيس. انتشرت المسيحية مع حلول القرن الثالث الميلادي في كافة أنحاء الإمبراطورية، وكانت تمثل بحلول سنة ٣٠٠ ميلادية عشر العدد الإجمالي من سكان الإمبراطورية تقريباً. لم يكن لأتباع الديانة المسيحية الأوائل شعبية كبيرة بين رعايا الإمبراطورية؛ إذ لم يكتفوا بإنكار وجود الآلهة الرومانية، بل اتهموا بممارسة سفاح القربى وبأكل لحوم البشر. كان القربان المقدس ينظر إليه باعتباره استهلاكاً للأجساد البشرية والدم.

غالباً ما كان يتم تحميل أتباع الديانة المسيحية مسؤولية الهزائم العسكرية والكوارث الطبيعية كالأوبئة والزلازل والمجاعات بسبب رفضهم المشاركة في الطقوس الرسمية المتمثلة في تقديم أضاحي للآلهة [٣٢].

شن الإمبراطور ديوكليتيان سنة ٣٠٣ حملة أطلق عليها وصف "الحملة العظيمة ضد المسيحية". كانت الأيقونة الرومانية حينها تتهاوى بسبب الغزوات التي شنتها القبائل الألمانية من الشمال، في حين كان الفرس يهاجمون الإمبراطورية من الشرق. قرر ديوكليتيان في معرض سعيه لاستعادة وهج العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية - وكان من المفارقة أن أسلوبه للقيام بذلك كان مناقضاً للقيم التي سادت في عصر روما الذهبي - محو المسيحيين «المعادين للرومان» من الوجود. تعرض المسيحيون خلال تلك المدة، وعلى امتداد عشر سنوات تقريباً إلى حملات من التنكيل المنظم. طرد المسؤولون الرومان المسيحيين من المناصب الحكومية، وقاموا بتطهير الجيش منهم. في سنة ٣٠٤، صدر مرسوم إمبراطوري يقضي باعتقال أي مسيحي لا يقدم أضاحي لآلهة روما. دمرت الكنائس، وأحرقت المخطوطات، وقتل الآلاف من المسيحيين.

كان من المدهش ملاحظة أن المعركة التي جرت بين روما العظيمة والكنيسة المسيحية العزلاء، حسمت لصالح تلك الأخيرة. فبعد انتهاء معركة الخلافة القصيرة والدموية في آن، حسم الأمر لصالح قسطنطين الأكبر الذي تم تعيينه إمبراطوراً، ولأسباب ما تزال غامضة حتى يومنا هذا، أعلن اعتناقه للديانة المسيحية سنة ٣١٢ ميلادية. توقفت أعمال الملاحقة والاضطهاد لملايين من أتباع الديانة المسيحية فجأة بعد اعتناقه المسيحية، أما بالنسبة لبقية سكان الإمبراطورية، فقد بدأ عصر جديد من الاضطهاد.

كان الدور الذي قامت به المسيحية في انهيار الإمبراطورية الرومانية مثار جدل على مدى قرون عديدة. اعتقد غيبون أن المسيحية كانت أحد العوامل الرئيسة في انهيار الإمبراطورية - وربما كانت العامل الرئيس [٣٣]. بالرغم من أن الإمبراطورية

تأثرت بجملة من العوامل، إلا أن تأكيد المسيحية على «وجود حياة أخرى»، وعلى مبدأ «الطاعة العمياء»، و «الخنوع المستند إلى الجبن» أدى إلى إفساد قاتل للفضائل الرومانية الدنيوية ذات الصفات الرجولية والمادية التقليدية، بحسب رأي غيبون. لكن النقطة التي أود التركيز عليها، مختلفة. لقد أدى اعتناق روما للمسيحية بشكل رسمي إلى ظهور جملة من مظاهر التعصب الخبيثة في سياسة الإمبراطورية، وهي مظاهر أسهمت بشكل كبير في التقليل من شأن سياسات الانصهار والدمج الناجحة، التي انضوت تحت لوائها شعوب الإمبراطورية بكل تشعباتها العرقية.

كانت الوثنية في بداية الأمر منتشرة إلى درجة يصعب معها وضع حد لها بمنتهى البساطة. ما قام به قسطنطين في واقع الأمر، كان تجريد المعابد الرومانية من كنوزها، وفي الوقت نفسه، تشييد كاتدرائيات فاخرة على الطراز المعماري الروماني مستطيلة الشكل ونصف دائرية في أحد طرفيها. ولكن في الوقت الذي تحولت الإمبراطورية شيئاً فشيئاً باتجاه المسيحية، ازدادت مظاهر التعصب حدة. تعرض أتباع بعض المعتقدات الدينية مثل الرواقية والمانوية (وهي ديانة قديمة ذات منشأ فارسي)، بالإضافة إلى اليهودية إلى اضطهاد وحشي. ومع حلول القرن الرابع، شنت روما حملة منظمة بقصد استئصال الوثنية من الإمبراطورية - وكذلك جميع المتمردين بمن فيهم «الهراطقة» من المسيحيين الذين انحرفوا عن الخط العام للمسيحية. أصبح لأوروبا، وللمرة الأولى، كنيسة موحدة: «لقد ظهر إلى حيز الوجود المجتمع المسيحي المنغلق في العصور الوسطى.»

ما من شك في أن قسطنطين وخلفاءه كانوا يؤمنون بأن الوحدة الدينية سوف تعيد بناء الإمبراطورية وتشد من عضدها في مواجهة الهجمات البربرية. إلا أن ما حدث كان العكس من ذلك تماماً؛ فلقد أثبت الهجوم الذي شنه الرومان على الوثنيين والهراطقة أنه كان تدميراً للذات بشكل كبير، لا بل إنه سهل على البرابرة القيام بهجماتهم على الإمبراطورية. ففي شمال إفريقيا على سبيل المثال، أسفر إغلاق المعابد الوثنية عن استفزاز مشاعر أتباعها، وحفزهم على القيام بمظاهرات

مريرة؛ كما أدى الاضطهاد الذي تعرض له من وصفوا بالهراطقة إلى تجييش الدعم الشعبي للملك الواندالي جينسيريك - الذي كان هو نفسه من هؤلاء المسيحيين الهراطقة - ومساعدته على تبوء السلطة بصفته محررًا لهؤلاء القوم. إضافة إلى ما تقدم، أدت المذابح التي عمت مناطق أخرى إلى هجرة جماعية لليهود الذين أعادوا تموضعهم في أجزاء من أراضي بلاد فارس، وأسهموا في تخريب التجارة الإمبراطورية، وتحالفوا مع أعداء روما. أشار مونتيسكيو فيما بعد إلى أنه «وبينما كان الرومان القدامى يعززون تحصين إمبراطوريتهم من خلال التسامح مع كل أصحاب المعتقدات الدينية، فإن خلفاءهم وأسهموا في تلاشي هذه الإمبراطورية وذلك من خلال قيامهم بالقضاء على كل المعتقدات الدينية، الواحد بعد الآخر، ما عدا المعتقد الديني الرسمي السائد» (٣٤).

الأسوأ من ذلك، فقد اكتسح روما وباءُ الصراع العرقي المتعاظم الذي بدأ مع نهاية القرن الرابع الميلادي. كان مئات الآلاف من «البرابرة»، ومعظمهم من الألمان، قد هاجروا في تلك الحقبة إلى الأراضي الرومانية. وكان من بين هؤلاء الألمان - الذين كان أغلبهم من اللاجئين الذين فروا من بطش الهونيين المغول - قوطيون وواندائيون، وبورونديون، ولومبارديون هاجروا من الشمال الشرقي، وفرانكيون وألامانيون، وسكسونيون، وفريزيون هاجروا من الشمال الغربي.

احتل الألمان موقعاً غير مستقر في جسم الإمبراطورية الرومانية. فمن ناحية، كانوا بمثابة أعداء محتملين مخيفين - كانوا غزاة شقوا طريقهم عبر نهر الدانوب محطمين في طريقهم الدفاعات الأمامية الرومانية المتداعية. ومن ناحية أخرى، كانوا يمثلون حلفاء ضمنيين يقدمون دعماً بشرياً للجيش الروماني الذي كانت أعداد أفراده تتناقص بشكل مخيف، ومن ثم، فقد أضحى بأمس الحاجة إلى مثل هذا الدعم.

لاقت سياسة التسامح وسياسة الاندماج الاختيارية اللتان اعتمدتهما روما في

البداية، نجاحاً في أوساط القبائل الألمانية المختلفة. فقد سُمح لهؤلاء أن يعيشوا في ظل حكامهم، وأن يمارسوا عاداتهم ويتبعوا قوانينهم الخاصة بهم. وكان رجالهم منخرطين في مختلف مراتب جيش الإمبراطورية الرومانية. كما كان أبناء جنرالاتهم يتلقون التعليم الكلاسيكي، وتوفر لهم فرص ارتقاء السلم الوظيفي، وفي بعض الحالات، الوصول إلى أعلى المراتب القيادية في الجيش الروماني. تم تقديم أراضٍ مناسبة لهم، واعتنقوا الديانة المسيحية بأعداد كبيرة. وكان القادة الألمان الذين لم تكن لديهم أي نية في نهب روما أو تدميرها (كما فعلوا ذلك في نهاية المطاف)، يؤمنون بوجوب الإسهام في عظمة روما، كما كانوا يؤمنون بأنهم جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الرومانية. تحدث القائد الفيسكوثي أتولف في هذا الصدد عن ضرورة «استعادة سمعة روما بجميع مظاهر كرامتها، وتعزيزها بمساعدة من القوة القوطية» [٣٥].

لكن اندماج المهاجرين الجرمانيين في جسم الإمبراطورية الرومانية لم يقيض له أن يكتمل أبداً. فقد عانى الألمان منذ البداية من بعض مظاهر الاحتقار، وتعرضوا بين الحين والآخر إلى المهانة التي كان يكيلها لهم الرومان. كان أبناؤهم يؤخذون أحياناً كرهائن كي يضمن الرومان ولاءهم. وكانت زوجاتهم وبناتهم يتعرضن للسبي، ويتم استعبادهن. في الوقت نفسه، كان الألمان الذين عانوا من المجاعات - فبالرغم من أن روما قدمت لهم الأراضي، إلا أنهم كانوا بالأساس لا يفقهون شيئاً عن الزراعة - يقومون بأعمال السلب والنهب ضد جيرانهم الرومان الذين كانوا يتمتعون بحياة مزدهرة نسبياً. اندلعت الثورات بينما كانت بعض القبائل الجرمانية تحاول الحصول على قدر أكبر من الحكم الذاتي. وهكذا، فقد انعدمت الثقة بين الجانبين وازدادت بينهما الأعمال العدائية.

وصلت تقاليد التسامح الروماني الشهيرة إلى مداها الأقصى الذي لم يكن بإمكانها تجاوزه. أثار الألمان قرف الرومان الأصليين الذين اشتكوا من أن الألمان «تنبعث منهم روائح تثير الغثيان»، وأنهم - أي الألمان - يطلون شعر رؤوسهم الذهبي

اللون بالسمن ذو الرائحة الزنخة المثيرة للقرف. حتى المثقفون الرومان الذي نادوا بضرورة التعايش مع «البرابرة النبلاء» وصفوا «الألمانيين بالسكيرين، ووصفوا السكسونيين والفرانكيين والهيروليين بأنهم متوحشون، كما وصفوا الآلانيين بأنهم فاسقون وجشعون.»

تبنت روما في نهاية القرن الرابع الميلادي، وللمرة الأولى في تاريخها، نظام الفصل العنصري الذي طبقته على أحد الشعوب الواقعة تحت سيطرتها، حيث منعت الرومان من التزاوج مع أفراد من الشعوب الأخرى، كما منعت الرومان من ارتداء السراويل، وجميع الألبسة الأخرى التي كان البرابرة الوثنيون يرتدونها (والمخالفة لزي التوغا أو التنك، وهي السترة القصيرة التي يرتديها الجنود الرومان)؛ اعتبر الرومان المسيحية التي كان البرابرة يعتنقونها شكلاً من أشكال الهرطقة. ووجهت اتهامات إلى الضباط من ذوي الأصول الألمانية بعدم الولاء للإمبراطورية، ومنعت عنهم المناصب المهمة، كما تعرضوا لشتى أنواع الاضطهاد. وأصبحت الإعدامات في صفوف الجنود من الأصول القوطية شائعة. وفي الحالات الأكثر سوءاً، كانت المذابح المنظمة والمذابح الجماعية تصب الزيت على نار الأحقاد المتقدة التي أدت في النهاية إلى نهب روما وتدميرها.

كان ستيليكو أحد أشهر ضحايا ذلك النزاع، وكان من ذوي الدماء المختلطة؛ فقد كان والده «بربرياً» - كان في الواقع ضابطاً في الخيالة الرومانية من أصول واندالية - وكانت والدته رومانية الأصل. كان ستيليكو نموذجاً مثالياً لمقدرة رجال من أصول غير رومانية على ارتقاء المناصب العليا في الإمبراطورية. بحلول سنة ٤٠٠ ميلادية، كان ستيليكو أحد أقوى الرجال في الإمبراطورية: فقد كان جنرالاً في الجيش الروماني ووالد زوجة الإمبراطور هونوريوس، إمبراطور روما الغربية. لكن ستيليكو، الذي كان بأمس الحاجة إلى متطوعين في الجيش الروماني، قام بتجنيد آلاف من المتطوعين البرابرة وضمهم إلى الجيش الروماني، سرت بعدها إشاعة مفادها أنه كان يخطط للإطاحة بالإمبراطور الشرقي وتعيين ابنه البربري

مكانه. وبالرغم من أن كل الدلائل التاريخية تؤكد على ولاء ستيليكو للإمبراطورية الرومانية إلى النهاية، فقد تم تصديق تلك الإشاعة. قام هونوريوس بتطليق زوجته، ابنة ستيليكو، وأعقب ذلك تمرد قام به الجنود الرومان الذين بدؤوا بقتل أتباع ستيليكو، وارتكبوا سلسلة من المذابح المنظمة ضد الجنود المنتمين إلى أصول بربرية، كما قاموا بذبح عائلاتهم بدم بارد، وتمت مصادرة ممتلكاتهم؛ كما قطعت رأس ستيليكو نفسه في شهر آب، أغسطس، سنة ٤٠٨.

أدت العداوة التي تفاقمت بين مختلف الأطراف إلى تهاوي روما بسرعة مدهشة. فالألمان الذين «تعرضوا لكافة أشكال البغضاء والاحتقار، تكونت لديهم مشاعر الكراهية نفسها لشعب أمِلوا يوماً بالمشاركة في أمجاده.» فقد انقلب الألمان الذين كانوا موالين يوماً للإمبراطورية ضد الرومان، وانضموا بذلك إلى المنتفضين ضد سلطة روما. انضم جنود ستيليكو من البرابرة إلى الملك القوطي ألاريك الذي ضرب حصاراً حول روما نفسها في خريف سنة ٤٠٨، وقام بنهبها سنة ٤١٠ ميلادية. أما فيسيغوس، فقد استولى على بلاد الغال سنة ٤١٩. كما استولى الوانداليون على قرطاجة، ومعظم المناطق الخاضعة لسيطرة روما في منطقة شمال إفريقيا، وقاموا سنة ٤٥٥ ميلادية بنهب روما مرة أخرى.

مع حلول سنة ٤٧٦ ميلادية انتهى أمر الإمبراطورية الرومانية الغربية التي لم يعد لها وجود، وحلت محلها تشكيلة من ممالك «بربرية» قوامها من المحاربين الذين يعدون أسلاف الأمم الأوروبية الحديثة. أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت القسطنطينية عاصمة لها، فقد استمرت لألف سنة لاحقة. لكن هذه الإمبراطورية البيزنطية - التي كانت شديدة التعصب من الناحية الدينية، والتي لم تكن تتساهل مطلقاً مع أي شكل من أشكال التمرد الديني، وكانت تمزقها الصراعات الدينية، والمحاصرة بشكل مستمر من قبل الفرس والسلافيين، وبعد ذلك من قبل المسلمين - لم تستطع مقاربة عظمة روما القديمة [٣٦].

عندما كانت النظريات العنصرية أكثر رواجاً منذ حوالي قرن مضى، جادل بعض المؤرخين أن سبب سقوط روما يعود إلى أن العنصر الروماني «النقي» تلوث وذاب في دماء الشعوب التي فتحتها روما. إذا كان ما أزعمه صحيحاً، فإنني أقول إن العكس هو الصحيح.

بقيت روما مزدهرة طالما أنها كانت قادرة على أن تستقطب شعوباً ذات خلفيات عرقية ودينية متعددة، وتستوعبها وتكافئها وتختلط بها. كان الأفارقة والأسبان والبريطانيون والغاليّون يصلون إلى أعلى المناصب في الإمبراطورية عندما كانت روما في أوج قوتها - كان بإمكانهم في الواقع أن يصبحوا أباطرة - طالما كانوا مستعدين للتماهي مع الإمبراطورية. لكن تلك الإمبراطورية انتهت عندما استعمرت شعوباً فشلت في دمجها في كيانها، إما بسبب أن تلك الشعوب لا تقبل بمبدأ الاندماج، أو بسبب أن ثقافتها وعاداتها كانت تتجاوز قدرة روما على التسامح. تسببت روما في كثير من الحروب وحركات العصيان الداخلي التي لم يكن بإمكانها الانتصار فيها بسبب مزيج من التعصب العرقي والديني. عندما أرادت الإمبراطورية المحافظة على «نقاء» الدم الروماني والثقافة الرومانية والديانة الرومانية - مكررة بذلك الخطيئة نفسها التي وقعت فيها كل من أثينا القديمة وإسبارطة، والتي تحدث عنها كلوديوس وغيبون - لم يكن أمامها من خيار سوى الانهيار والتلاشي في غياهب التاريخ.

الفصل الثالث

عصر الصين الذهبي

سلالة «تانغ» ذات الدم المختلط

أخبرني والدي عندما كنت فتاة صغيرة أعيش مع أسرتي في مدينة لافايت الغربية بولاية إنديانا أنني أنحدر من صلب شبه إله. كان من الصعب أن أؤمن بمثل هذا الكلام، لكنني اكتشفت أن جدي الأكبر كان رجل دولة محباً للخير ويحظى بكثير من المهابة، وكان يعيش في إقليم فوجيان في الصين. بعد وفاته، وبعد أن رأى القرويون نفراً من الجن الضئيلي الحجم- أو كما وصفهم والدي بالجن الصينيين الخبثاء - يرقصون على قبره، أطلق هؤلاء القرويون عليه لقب الإله، أو (لو- بان).

بعد ثلاثين سنة مرت على سماعي لهذه الحكاية، أعدت سردها على بناتي، وفي سنة ١٩٩٩، أخذتهن أنا وزوجي إلى الصين لزيارة منطقة تانغدونغ حيث كان يعيش جدي الأكبر. كنت أتوقع رؤية قصر متهالك هناك، ولكنه محاط بالمهابة وذلك استناداً إلى الطريقة التي وصف فيها والدي المكان على شاطئ بحر الصين الجنوبي،الذي يشرف على مساحات واسعة من الرمال حيث من المفترض أن يكون بإمكان المرء رؤية مشارف جزيرة تايوان في أيام الصحو.

وبعد رحلة شاقة بسيارة أجرة من مدينة زيامين مدة ساعتين تصببنا فيها

عرقاً، وصلنا إلى تانغدونغ. كانت في واقع الأمر قرية ساحلية، وكانت هناك رمال بيضاء - إلا أنه لم يكن هناك أي قصر. كانت هناك بدلاً من ذلك، أكوام هائلة من قواقع المحار النتنة مبعثرة على الشاطئ بارتفاع يصل إلى حوالي ثلاثين أو أربعين قدماً في الجو. كانت القرية تبدو مهجورة تماماً لولا أن بضع دجاجات هزيلة كانت تجوب في أنحائها. كانت قرية تانغدونغ سنة ١٩٩٩، وبغض النظر عن ماضيها التليد، على الأقل بالنسبة للرائي الذي كان ينظر إليها بعيون ملؤها الخيبة، مجرد بلدة فقيرة أشبه بمدينة أشباح.

استطعت في نهاية المطاف رؤية أحد القرويين المحليين. كان يجلس أمام شرفة في شارع البلدة الرئيس الطويل والذي يعج بالغبار. كان يحدق بنا وهو فاغر فاه. كانت أسنانه الأمامية الأربع غير موجودة. أخبرته بلغة المنطقة المحلية باسم عائلتي، وسألته فيما إذا كان يعرف أين كانت تقيم عائلة شوا. طرفت عينا الرجل العجوز عدة مرات قبل أن يلتفت إلي ويقول ملوحاً بذراعه: «كل من يقطن في هذا الجانب من الشارع ينتمي إلى عائلة شوا»؛ ثم نخر قليلاً وأضاف: «أما قاطنو الجانب الآخر من الشارع فهم من عائلة لاو.»

كان اكتشاف نحو مئتين من الأقارب الطبيعيين، وهو اكتشاف لم يكن بالحسبان، قد عقّدَ المسألة نوعاً ما، وتبين أن البحث عن منزل عائلتي كان من دون جدوى. ولكن لم نخرج خاليي الوفاض؛ فقد تمكنا من العثور على قبر جدي الأكبر الذي انتابتنا الدهشة عندما تبين لنا أنه ما يزال إلى يومنا هذا، وربما لأسباب بقيت منسية، يتمتع بقداسة خاصة عند سكان البلدة المحليين - بالرغم من أن موقع القبر ملاصق لبعض مجاري المياه الصحية التابعة للبلدية.

بالإضافة إلى محاولتي العثور على معلومات حول جدي الأكبر، فقد حاولت تقصي تاريخ كل فرد متميز من بين أجدادي البعيدين الذين عاشوا في الصين. كان أحد أبناء عمومتي منذ خمسة أجيال خلت، يعمل في جمع الأعمال المتميزة المكتوبة

بخط اليد من القرن التاسع عشر، وتوجد مجموعته هذه في متحف شنغهاي. أما عمي الأكبر، شوا جي كون الذي ربما لم يكن من أقاربي الذين تربطني بهم صلة دم مباشرة، فقد كان مؤلف سيمفونيات بارع، ومؤسس كلية فوزو للموسيقى. أخيراً، اكتشفت هناك إرثَ عائلتي الأكبر - وربما كان ذلك إرثنا الوحيد - وهو عبارة عن مخطوط يتكون من رسالة تتألف من ألفي صفحة خطها بيده أحد أجدادي المباشرين واسمه شوا وو نينغ الذي كان العالم الفلكي التابع للإمبراطور شين زونغ الذي يتبع لسلالة مينغ. وقد تم تعيين وو نينغ الذي كان فيلسوفاً وشاعراً من قبل الإمبراطور رئيساً لهيئة أركان الجيش سنة ١٦٤٤، عندما تصدت الصين لغزو المانشويين. وهناك نسخة مجلّدة بغلاف جلدي من رسالة وو نينغ هذه موضوعة بشكل لافت على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس بمنزلي.

أتمسك بهويتي ذات الجذور الضاربة في عمق التاريخ، وذات الثقافة الراقية، مثلي في ذلك مثل العديد من الناس الذين يعودون بجذورهم إلى إمبراطوريات عظيمة سابقة - سواء كانت تلك الإمبراطوريات في الصين، أو بلاد الإغريق، أو بلاد فارس أو تركيا أو روما.

كانت التقاليد الصينية الموغلة في القدم، والمتمثلة في خط اليد، والعلوم، والشعر، والأوبرا، والفلسفة، وعلوم الطبيعة، والفلسفة الكونفوشيوسية تثير في نفسي إحساساً بالروعة، ربما بسبب أن تلك المجالات كانت تتعارض بشكل جلي مع واقع الصين التي تنتمي إلى العالم الثالث الكئيب الذي كان علي مواجهته في مراحل طفولتي الأولى.

ربما كانت أكثر السلالات الصينية شهرة بالنسبة إلى الغربيين هي سلالة مينغ التي اشتهرت بصناعة البورسلين الأزرق والأبيض، والتي شكلت مادة كتاب أصدره كيفن مينزيز بعنوان: ١٤٢١، السنة التي اكتشفت الصين فيها أمريكا، ١٤٢١, The Year China discovered America. أما بالنسبة للمنحدرين من أصول

صينية، والمنتشرين في كافة أنحاء العالم، فإن سلالة تانغ هي التي تمثل العصر الذهبي للصين - وهو لم يكن عصراً من الازدهار الاقتصادي والقوة السياسية غير المسبوقيْن وحسب، بل كان يمثل قمة الإنجازات الفنية والأدبية في الصين، حيث أسس لمعايير طمحت إلى تحقيقها جميع السلالات التي تلتها [١]. أما بالنسبة لعدد السكان الذين كانوا تحت سيطرتها، فقد تخطت سلالة تانغ بكثير جميع الإمبراطوريات المعاصرة لها بما في ذلك الخلافة العربية القوية النفوذ. ولم يكن من قبيل المصادفة أن سلالة تانغ كانت أكثر انفتاحاً، وأكثر عالمية وانفتاحاً من الناحيتين العرقية والدينية من أي إمبراطورية معاصرة لها، وربما كانت الأكثر انفتاحاً وتسامحاً في التاريخ الصيني.

التعصب و«البرابرة» في التاريخ الصيني

كانت سهول النهر الأصفر الذي يجري وسط الصين مليئة بالممالك والقبائل والدويلات المتنافسة، التي خاضت حروباً لا تنتهي ضد بعضها بعضاً طيلة عدة قرون سبقت سنة ٢٢١ قبل الميلاد. كان هذا العصر الذي شابته الانقسامات والنزاعات المستمرة، والذي أطلق عليه وصف حُقَبُ «الربيع والخريف»، و»الدويلات المتحاربة» يتسم أيضاً بنهضة فكرية هائلة. كانت جميع المدارس الفلسفية الكبرى في الصين - بما في ذلك الكونفوشيوسية، والتاوية، والليغالية - قد ظهرت في تلك الحقبة. وكما أشار المؤرخون الصينيون فيما بعد، فإنها كانت الحقبة التي تنافست فيها «مئة من المدارس الفكرية» فيما بينها [٢].

انتهت حقبة «الدويلات المتحاربة» بفضل إمبراطور الكنيين (كِن شي هوانغدي) الذي وحّد الصين سياسياً للمرة الأولى سنة ٢٢١ قبل الميلاد. (كلمة «كِن» التي تلفظ «تشين» هي المصدر الذي اشتقت منه لفظة «الصين» أو China). وكأي مؤسس من مؤسسي الأمم العظيمة، فرض وحدة نقد معيارية موحدة، ولغة مكتوبة موحدة، آخذاً على عاتقه مشروعات بناء على مستوى لم يسبق له مثيل بما في ذلك سور

الصين العظيم الذي يبلغ طوله ١٥٠٠ ميلاً، والذي قيل إن مليوناً من العمال قتلوا في مختلف مراحل تشييده، بالإضافة إلى مقبرة الإمبراطور الملكية الخاصة التي تضم في جنباتها رفات سبعة آلاف من الجنود في مقابر طينية. وكان الإمبراطور الأول معروفاً بشدة تعصبه وقسوته حتى بين معجبيه. فقد منع قيام المناظرات الفلسفية، وقام بحرق آلاف من الكتب "الهدامة"، كما منع أي مديح للماضي، وأي نقد للحاضر. قيل إن الإمبراطور قام سنة ٢١٢ قبل الميلاد بإعدام ٦٤٠ مفكراً وباحثاً، ودفنهم جميعاً في قبر جماعي واحد. أما المفكرون الذين أعلنوا تحديهم للإمبراطور، فقد كانوا يدفنون أحياء، أو تُسلقُ أجسادهم بالماء المغلي حتى الموت، أو تمزق أجسادهم إرباً، إرباً بواسطة عربات تربط أطرافهم إليها [٣].

أدت سياسات الإمبراطور الأول القمعية إلى قيام حركات تمرد واسعة الانتشار، وجرت ثلاث محاولات على الأقل، لاغتياله. وبالرغم من أن الإمبراطور نجا من جميع هذه المحاولات لاغتياله، فقد انتابه نوع من الهوس المتمثل في البحث عن إكسير للحياة يساعده في التمتع بحياة أبدية؛ ومن المفارقة أنه مات في إحدى سفراته بحثاً عن هذا الإكسير. كان ابنه الذي خلفه في الحكم ضعيفاً. وبعد مرور خمس عشرة سنة على قيام هذا الحكم، تمت إزاحة عائلة كِن عن السلطة، وخلفتها سلالة الهان، التي تولت زمام الحكم، واستمرت فيه مدة أربعمئة سنة.

بالرغم من قِصَرِ مدة حكمه، أسس الإمبراطور الأول لمبدأ راسخ تكرر ظهوره على امتداد التاريخ الصيني- ولم تخرقه سوى استثناءات لافتة قليلة، بما في ذلك سلالة تانغ، مفاده أن القمع الذي لا هوادة فيه لظاهرة التنوع ضروريٌ للمحافظة على وحدة الصين. وكان التنوع الفكري الضحية الرئيسة للقمع إبان حقبة حكم سلالة كِنْ. وقد ظهر التعصب الصيني في الألفيتين التاليتين على هيئة الاضطهاد العرقي والديني، و«التطهير الثقافي»، ورفض الأجانب والأفكار الأجنبية، كما تجلى في أكثر صوره وضوحاً في المركزية العرقية الصينية، والتأكيد على التفوق الثقافي الصيني.

ربما قامت كافة المجتمعات بممارسة أشكال متفاوتة من المركزية العرقية، إلا أن ظروف الصين الخاصة شجعت على ممارسة هذه الأساليب بدرجة غير عادية. ونظراً لكونها متقوقعة ضمن حواجز جغرافية طبيعية، لم تقم الصين، وعلى امتداد عدة قرون، سوى بالحد الأدنى من التواصل مع الحضارات الراقية في أوروبا والهند والشرق الأوسط. كان جيران الصين الرئيسيون عبارة عن مجموعات متناثرة من بدو وقبائليين. ولذلك فقد كان الصينيون على امتداد قرون من الزمن، يشكلون أكبر التجمعات السكانية الموحدة في المنطقة، وأكثرها مدنية، وتعلماً، ومن ثم، أكثرها تقدماً من الناحيتين التقانية والثقافية.

في الوقت نفسه، كانت لدى الصينيين أسبابهم الوجيهة للتوجس من جيرانهم. فقد كانوا متفوقين على جيرانهم بصورة كبيرة عددياً وتقانياً، لكن البدو كانوا يتمتعون بميزة لم تكن موجودة لدى الصينيين، ألا وهي الخيل. كانت تحت سيطرة البدو لوحدهم مساحات شاسعة من الأراضي العشبية الضرورية التي استخدموها مراعي لتربية أنواع خاصة من الخيول على امتداد قرون من الزمن، وهو ما وفر لهم تفوقاً عسكرياً حاسماً. كانت هذه الخيول، بالإضافة إلى المهارات الرائعة التي أظهرها الخيالة ورماة النبال، التي اكتسبوها من ممارستهم للصيد، تساعد هؤلاء البرابرة الرحل في القيام بغارات على المناطق المأهولة إلى الجنوب منهم، بغية الاستيلاء على مواد الغذاء الصينية، بالإضافة إلى مواد أخرى كانوا يحتاجونها للبقاء على قيد الحياة، ثم ينسحبون بعد ذلك باتجاه السهوب الشاسعة. أدى هذا النوع من التهديد والنهب المستمرين من قبل الخيالة المغيرين، والذي شكل معضلة استعصت على الحل، إلى غرس فكرة البربرية في أذهان الصينيين. لم تقتصر تهمة البربرية على شعوب السهوب وحسب، بل تعدتها لتشمل بعض الأجانب الذين كانوا أكثر خطورةً من أجانب آخرين، وبعضهم كان أكثر تحضراً من البعض الآخر، إلا أن الجميع من غير الصينيين، كانوا بشكل أو بآخر، من البرابرة [٤].

حتى في الصين «المنفتحة» هذه الأيام، يُعد الاختلاط بالأجانب مسلكاً غير

طبيعي، وإلى حد ما، من المحرمات بالنسبة إلى العديد من الصينيين. أما الأشخاص الذين ينتمون إلى أصول ثقافية مختلطة، فإنهم في نظر الصينيين نماذج غريبة جداً. ابنتاي على سبيل المثال، نصف صينيتين. كلتاهما لهما شعر بني وعيون بنية، وملامح آسيوية غامضة، وكلتاهما تتكلمان اللغة الماندارينية بطلاقة. ولكن أينما اتجهتا في أثناء الرحلة التي قمنا بها إلى الصين سنة ٢٠٠٤م - حتى في بيئة متطورة مثل بيئة شنغهاي - كانتا تسترعيان انتباه جموع من الجماهير الفضولية الذين كانوا يحدقون في «الفتاتين الأجنبيتين الصغيرتين اللتين تتحدثان الصينية» ويشيرون إليهما متضاحكين كما لو أن هاتين الفتاتين قدمتا من الفضاء الخارجي. وعندما كنا نلتقط صوراً لدببة الباندا في مركز تربيتها في مدينة شينغدو، - تلك المخلوقات النادرة الوردية اللون التي تتلوى مثل اليرقات - كان السياح الصينيون يلتقطون صوراً لنا.

قدم الإمبراطور الأول أكثر من إرث للأمة ارتبط باسمه. فسور الصين العظيم الذي بناه، ما يزال أعظم صرح تاريخي في الصين. وأصبح رمزاً للصين نفسها منذ زمن طويل - إذ إنه يرمز إلى وحدة البلاد، وسلامة أراضيها، ونقائها، وحاجتها الماسة والدائمة لتحصين وحماية حضارتها الأكثر رقياً من هجمات «البرابرة»، سواء كانوا من البدو الشرسين القادمين من وسط السهوب الآسيوية، أو «الإمبرياليين» القادمين من أوروبا، أو اليابان، ومؤخراً، من الولايات المتحدة.

وهكذا، فإن من المفارقة ملاحظة أن عصر الصين الذهبي أسس له رجل ذو دم مختلط، كان أجداده من البرابرة، وأن العالمية كانت أهم سمات عصر التانغ أكثر من أي شيء آخر، وأن ذلك العصر حافظ على التنوع الثقافي، وكان يبدي انفتاحاً على الأجانب، لم ير التاريخ الصيني له مثيلاً.

صعود نجم سلالة التانغ (٦١٨- ٩٠٨ ميلادية)

بعد انهيار سلالة الهان الحاكمة سنة ٢٢٠ ميلادية، عانت الصين من ثلاثة

قرون من التمزق والتشرذم. وفي نهاية القرن السادس، استولت على شمال الصين مجموعة من أمراء الحرب، والعشائر الأرستقراطية، كانت تنتمي في الغالب إلى أصول صينية وتركية مختلطة، بينما كانت تسيطر على جنوب الصين عشائر صينية أكثر «نقاء».

نجحت عشيرة "سوي" سنة ٥٨١ في إعادة توحيد الصين، لكن حكمها لم يدم طويلاً. انهارت سلالة سوي الحاكمة بعد مرور ثلاثين سنة فقط على استلامها الحكم بفعل هجمات التركيين المتلاحقة القادمة من السهوب، وحركات العصيان الداخلية، وتوسعها العسكري المبالغ فيه. أعلن الجنرال "لي يو وان" الذي كان ينتمي إلى أصول أرستقراطية تركية انشقاقه سنة ٦١٨ عن سلالة سوي الحاكمة، واتجه نحو العاصمة شانغان (هي اليوم مدينة زيان)، ونصب نفسه إمبراطوراً على الصين، مغدقاً على نفسه لقب "غاوزو" ويعني بالصينية (الجد الأكبر). وهكذا تأسست سلالة تانغ الحاكمة التي حكمت الصين على مدى القرون الثلاثة اللاحقة.

كانت الطريقة التي انتصر فيها غاوزو على سلالة سوي ذات دلالة شديدة الأهمية: فقد دخل في حلف عسكري مع البرابرة الترك الشرقيين. والأنكى من ذلك، أن غاوزو استعمل في رسالته الموجهة إلى الحاكم التركي لفظة كي qi - التي تستعمل عندما يخاطب شخص دوني سيده. أن يقوم شخص في طريقه إلى تبوء منصب الإمبراطور بمخاطبة بربري كندّ له، أو - وهذا أشد وأدهى - كسيّد له، فإن ذلك شكلاً من أشكال الدخول إلى عالم المحرمات. وقد برر غاوزو ذلك لمستشاريه الكونفوشيوسيين المذعورين الذين اعترضوا على لغة الخطاب تلك بالقول: "كان الأسلاف يقولون: انحن أمام شخص واحد، وكن قائداً لعشرة آلاف." ما الذي يمثله جميع أولئك البرابرة خارج نطاق الحدود استناداً إلى هذه المقاربة؟ إنهم لا يعنون جميعاً سوى رجل عادي واحد. زد على ذلك، لا تساوي لفظة كي ألف رطل من الذهب. أنا مستعد للتخلي عن كل هذا المبلغ. لماذا على المرء أن يساوره القلق من أجل كلمة واحدة؟»

كانت دبلوماسية غاوزو تعكس الحقائق الجديدة في الصين، في القرن السابع. كانت الصين في ذلك الوقت مهددة من كل جانب، من قبل مجموعات قوية غير صينية بمن فيها التركيين الشرقيين والغربيين، والإيغوريين، والكيتانيين، والزينيين، وكانت جميع تلك القوى تستوطن أراضي السهوب الواقعة في شمال الصين، بالإضافة إلى التيبيتيين، والنانزهويين، والكورغويين من شبه الجزيرة الكورية. كانت المحافظة على صين موحدة في وجه كل هذه التهديدات تتطلب ليس فقط سوراً عظيماً، بل جملة من العلاقات المعقدة والتحالفات مع مختلف المجموعات البربرية [٥].

زد على ذلك، أن المشهد الديني في الصين تغير بشكل جذري منذ سقوط سلالة الهان الحاكمة. مع حلول الوقت الذي استلم فيه أباطرة التانغ زمام الحكم سنة ٦١٨، أصبحت البوذية - التي تأسست في الهند ونشرها في الصين تجار ومبشرون - الديانة الأكثر انتشاراً في الصين، وكان أتباعها يفوقون عددياً أتباع الديانة التاوية المحلية. استطاعت الديانة البوذية التأقلم مع الواقع الصيني من خلال استيعاب بعض العناصر المحلية والتكيف معها. لم يكن معظم أتباع الديانتين البوذية والتاوية يجدون غضاضة في التعبد للآلهة البوذية، والتاوية، والمحلية على حد سواء في الوقت الذي كانت الخلافات المريرة بين الكهنة البوذيين والتاويين على أشدها. كان وعد البوذية بالجنة بالنسبة للشخص العادي أكثر جاذبية من مفهوم الديانة التاوية للحياة بعد الموت الذي يقضي بتمتع قلة قليلة فقط بالديمومة، في حين أن الغالبية الساحقة من البشر سوف تعاني من ديمومة من نوع آخر في سجن العالم السفلي [٦].

أخيراً، بدأ الخط الفاصل بين الصينيين والبرابرة، على الأقل في شمال الصين، بالتلاشي. فبعد انقضاء قرون من الفوضى، استطاع عدد من الحكام «البرابرة» فتح أجزاء من شمال الصين، وتأسيس ممالك لهم هناك. تبنى بعض أولئك الحكام العادات الصينية، وتزاوجوا مع بعض العائلات الصينية ذات النفوذ الاجتماعي القوي، ممهدين بذلك الطريق أمام نشوء جيل جديد من الأرستقراطيين من ذوي الدماء المختلطة الذين أتقنوا مهارة ركوب الخيل، وأيدوا الديانة البوذية،

وتحدثوا اللغتين الصينية والتركية. (نظراً لأن معظم البرابرة لم تكن لديهم لغة مكتوبة، فقد كان إتقان اللغة الصينية ضرورياً جداً من أجل تبوء أي منصب رسمي.) أدت السيطرة على الشمال من قبل البدو السابقين المتصينين (أي أولئك الذين تحولوا إلى صينيين)، والذين كانوا في الغالب من ذوي الثقافة العالية، وشيوع الزواج المختلط إلى طرح تساؤلات زادت من تعقيد القناعات التقليدية التي تفيد بأن الصينيين متحضرون بينما البرابرة كانوا غير ذلك. وفي حين أن نفس أباطرة التانغ الذين كانوا يدعون بأنهم من نسل الجنرال الهاني الشهير "لي غوانغلي"، والفيلسوف التاوي "لاو تزو"، فإنهم كانوا أيضاً ينحدرون من نسل الأرستقراطيين الذين استوطنوا شمال الصين، ولم يكونوا في أغلب الظن أكثر من نصف صينيين.

اجتمعت هذه العناصر مع عناصر أخرى لتنتج عنها سلالة حاكمة أكثر تسامحاً مع الثقافات الأجنبية، والديانات، والتأثيرات القادمة من الخارج من أي سلالة حاكمة في التاريخ الصيني. تمثل هذا التسامح في شخص تايزونغ، وهو الإمبراطور التانغي الثاني الذي كان في نظر البعض أكثر حكام الصين حكمة وبطولة. غالباً ما يصف المؤرخون الإمبراطور تايزونغ بأنه «المؤسس الحقيقي» لسلالة التانغ الحاكمة بالرغم من أن قصة حزينة مفاجئة كانت وراء اعتلائه العرش.

باني الإمبراطورية

كان اسم تايزونغ عند ولادته "لي شيمين"، وكان واحداً من عدة أبناء للإمبراطور غاوزو. وكان لي شيمين هو من شجع والده وهو في سن السابعة عشرة على الثورة على حكام سوي سنة ٦١٧. بعد استيلاء والده على شانغان، كان على نظام حكم تانغ الفتي مواجهة المئات من حركات التمرد إضافة إلى تحديات مصدرها العشائر القوية المنافِسة. على امتداد السنوات السبع اللاحقة، كان لي شيمين يقود الجيش من نصر حاسم إلى آخر، وكان يطيح بمهارته العسكرية الفذة بجيوش أكبر من جيشه بكثير في الوقت الذي استطاع تحييد التركين على الحدود الشمالية. عززت

عائلة "لي" سلطتها في كل من شمال الصين وجنوبها بحلول سنة ٦٢٤. وكان العامل الحاسم في انتصارات التانغيين يتمثل في اعتمادهم على الأجانب. بنت عائلة لي قواتها العسكرية الغازية من مجموعات متنوعة من الجيوش الأجنبية التي كان يسمح لقادتها بالاستمرار في قيادة جيوشهم، وممارسة الحكم في المناطق التي يقطنونها، والتي ضمت إلى الإمبراطورية [٨].

بدأ لي شيمين وإخوته يتصارعون على السلطة منذ اللحظة التي تسلمت فيها سلالة التانغ مقاليد الحكم. قام لي شيمين سنة ٦٢٦ بقتل أخيه الأكبر، ولي عهده؛ وفي مناسبة أخرى، تنحى جانباً وهو يراقب أحد ضباطه ينفذ حكم الإعدام بأحد إخوته الباقين. بعد ذلك، قام بخلع والده عن عرش السلطة، وبدأ يحكم تحت اسم الإمبراطور تايزونغ لأكثر من عقدين (٦٢٦- ٦٤٩). بالرغم من معاملته الوحشية لأفراد أسرته، يحتل الإمبراطور تايزونغ موقعاً محترماً في التاريخ الصيني - وهو يذكر دائما (وهذا يشكل مدعاة للدهشة) على أنه الملك الخيّر.

كان هدف تايزونغ إنشاء إمبراطورية كونية يكون فيها الصينيون والبرابرة متساوين في الحقوق والواجبات، وحيث يكون هو حاكماً للجميع، بصفتيْ الإمبراطور والخان التركي. وصف تايزونغ هذا الهدف بقوله: «كان أباطرة الصين القدماء جميعاً يكنون الاحترام للصينيين، ويحتقرون البرابرة. أنا الوحيد من بينهم جميعاً، الذي يؤمن بأنهم مساوون لنا. ولهذا السبب فهم يعتبرونني بمثابة الأب لهم.» وقد سار على خطا والده في دمج الشعوب المستعمَرة في جسم الإمبراطورية مستفيداً من التركيين والقادة الأجانب الآخرين كجنرالات في الجيش الإمبراطوري مغدقاً عليهم الألقاب الصينية ومقيماً تحالفات معهم عن طريق المصاهرة، ومانحاً إياهم الكنية الملكية "لي". لم يأتِ زعمه بأن التركيين يعتبرونه بمثابة أب لهم من فراغ. فقد عزز صداقاته وكان ما يزال في صباه الأول، مع أمير تركي غربي وخان تركي شرقي. وساعدت هذه العلاقات الأولى فيما بعد في جعله حاكماً مقبولاً بالنسبة للبدو الرحل.

كان تايزونغ مخططاً إستراتيجياً بارعاً، وهكذا فقد انضوت العديد من المناطق تحت مظلة حكم المملكة الوسطى إبان عهده. وبينما كان أباطرة الهان راضين بإبقاء السهوب الشمالية وراء حدود السور العظيم للبدو الرحل الذين يحكمهم «الخان» الخاص بهم، كان طموح تايزونغ يتجاوز ذلك بكثير. أغدق عليه زعماء المغول الأتراك لقب الخان الإلهي سنة ٦٣٠ بسبب مزيج من «الكاريزما الشخصية»، والخداع، والاحتفالية البدوية، والتكتيكات العسكرية في المعارك»، التي أثارت مشاعر الأتراك المغول. قبل تايزونغ هذا اللقب، وبموجبه، أصبح الحاكم الصيني الأول الذي يبسط نفوذه على السهوب [٩].

كان نيل تايزونغ للقبيْ ابن الآلهة، والخان الإلهي في وقت واحد بمثابة سابقة. فقد شَرْعَنَ لقب الخان الإلهي التركي المنشأ، بجذوره الضاربة في التقاليد البدوية سلطة تايزونغ خارج نطاق السور العظيم. وكان مما يثير الدهشة أيضاً سياسة التسامح ببلاغتها اللافتة، والتي مارسها تايزونغ، بالمعنى الحديث للعبارة. قال: «يُعد شعبا "يي" و "دي" (وهما شعبان يعيشان في السهوب) من البشر أيضاً وتعتبر طبيعتهم شبيهة بطبيعة الصينيين. يجب أن يتأكد الحاكم من أن الخير الناجم عن الفضائل التي يتمتع بها لا بد وأن يشمل أفراد هذه الشعوب جميعاً، كما يجب أن لا تساوره المخاوف من احتمال عدم ولائهم بسبب انتمائهم لأعراق مختلفة» [١٠].

بطبيعة الحال، لا يجب أن ينظر إلى بلاغة خطب تايزونغ التي تمحورت حول مسألة المساواة من حيث الشكل فقط. فقد كانت حملة دعائية أكثر منها وصفاً حقيقياً للسياسة المتبعة، وكانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الأتراك أكثر منها إلى الصينيين. مع ذلك، من المهم أن يتذكر المرء أن تصريحات تايزونغ كانت تتجه عكس التيار الإمبراطوري السائد، وعكس الرؤية الصينية للعالم آنذاك (ويمكن القول أيضاً، عكس الرؤية الصينية لعالم اليوم).

وسّعَ تايزونغ من سيطرة إمبراطورية التانغ على مناطق آسيا الوسطى، وعبر جبال البامير وصولاً إلى أفغانستان الحديثة من خلال توحيد الجيشين التركي

والصيني. تحولت كل من سمرقند، وبخارى، وطشقند إلى ولايات تابعة للإدارة الإمبراطورية الصينية. كما خضعت التيبيت والقبائل التركية في أقصى الغرب وصولاً إلى بحر قزوين للسيادة الصينية. لم تكن تلك الفتوحات ممكنة لولا اصطفاف هذه الجيوش البدوية خلفه. وسّع خلفاء تايزونغ حكم التانغ للمناطق التي خضعت للإمبراطورية بحيث أصبحت تشمل منشوريا، والجزء الأكبر من شبه الجزيرة الكورية، ووسط فيتنام، وأجزاء مما يعرف اليوم بإيران. لم تصل أي إمبراطورية في العالم إلى حجم المساحة التي وضعت إمبراطورية التانغ يدها عليها، أو إلى عدد السكان أنفسهم الذين استعمرتهم، أو إلى القوة العسكرية نفسها.

أقر تايزونغ منذ بداية استلامه مقاليد الحكم بمزايا التجارة وفوائدها. أفرغ تايزونغ صناديق أموال الإمبراطورية منذ بداية عهده وأنفقها في سبيل تجديد طريق الحرير وإصلاحه. كما عمل في الوقت نفسه على تشديد قبضة سيطرته على أقاليم وولايات الواحات التي تقطنها غالبية من الأتراك الغربيين مختتماً بذلك فتوحات الإمبراطورية سنة ٦٥٨. وبعد أن أضحى طريق الحرير أكثر أماناً من خلال سيطرة إمبراطورية التانغ عليه، وحمايتها له، بدأ تدفق الأجانب مع البضائع التي يصطحبونها إلى شانغان وإلى الحدود الشرقية لطريق الحرير من جنوب آسيا وشرقها. كما تدفقت البضائع والأزياء الأجنبية إلى بقية أنحاء الصين من تلك المناطق. وكذلك الوفود من أماكن بعيدة مثل الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية الساسانية.

أقامت الصين التانغية في نهاية المطاف علاقات وروابط مع أكثر من ثلاثمئة من البلدان والمناطق. امتزجت التجارة بالدبلوماسية، وكان من الصعب التفريق بينهما في أغلب الأحيان: سهل نظام الضرائب التبادل التجاري الكبير للبضائع، كما كان المبشرون والتجار يسافرون في قوافل مشتركة؛ كما أنشئ نظام بيروقراطي معقد أسهم في إدارة كافة مظاهر العلاقات الخارجية: مثل اللقاء مع الموفدين الأجانب، وترتيب التنقلات والإقامة في داخل الصين نفسها، ومنح ألقاب صينية

لملوك أجانب تكريماً لهم، بالإضافة إلى فتح سجلات للهدايا والبضائع المقدمة للإمبراطور، وتعيين مترجمين، وإعداد معلومات عن العادات الأجنبية، وجغرافية مختلف المناطق الأجنبية ومنتجاتها. وكان على جميع الموظفين الصينيين العاملين في الخارج، والبيروقراطيين، وحتى الأميرات الصينيات المتزوجات من أجانب الإدلاء بتقارير تتضمن معلومات عن البلدان الأجنبية.

ترافق التصاعد الهائل في عمليات التواصل مع الأجانب إلى افتتان عريض بالبضائع الأجنبية: «تغلغل تذوق الصينيين للفخامة داخل كل طبقة اجتماعية، وفي جميع مناحي الحياة اليومية.» أصبح الصينيون في كل من شانغان وليو وانغ يرتدون الثياب التركية والفارسية؛ وكان الرجال والنساء على حد سواء يفضلون ارتداء القبعات التي يرتديها عادة البرابرة، خصوصاً عندما كانوا يمتطون الجياد. أدى انتشار موضة البضائع التركية إلى نزوع الصينيين في زحمة الحياة في العاصمة، نحو الإقامة في الخيام. قطعت الغابات في جنوب شرق آسيا من أجل الحصول على أنواع ثمينة من الأخشاب وذلك بغية استخدامها كأرضية في صالات الألعاب الصينية، ومن أجل تحويلها إلى أثاث، وفي أعمال الحفر بغية تزيين أماكن العبادة والقصور والمعابد والمباني الفخمة والأديرة.كما كان الصينيون مفتونين بالأدوية والأطعمة والتوابل الأجنبية لغايات طبية وأعمال السحر. كانت العطور الهندية مرغوبة جداً؛ وكانت سيدات البلاط تفوح منهن روائح العطر النفاذة لدرجة أنه أشيع أنه كان من الممكن شم روائحهن على بعد أميال.

كانت الحيوانات الأجنبية تضفي نوعاً من المتعة على أجواء الطبقات الحاكمة وأفراد الشعب العاديين كذلك. فقد كان الموفدون الأجانب يقدمون الأسود، وحيوانات وحيد القرن، والفيلة على شكل هدايا للأباطرة التانغيين. وكان الأجانب أنفسهم من البضائع المرغوبة في الصين؛ فقد كانت العائلات الصينية الثرية تشتري عبيداً أجانب كي يقوموا بأعمال الخدمة المنزلية، كما كانت الراقصات الأجنبيات والموسيقيون والأقزام الأجانب يرسلون إلى البلاط التانغي على شكل هدايا من

ملوك وحكام أجانب. وبالرغم من قيام البعض منهم بمحاولة النأي بأنفسهم عن مظاهر الثراء الأجنبي الفاحش والمفسد في آن، فإن الصينيين بشكل عام لم يكن بوسعهم الحصول على كل ما يشتهونه من البضائع الأجنبية [١١]. يجب أن لا يتم الخلط بين محبة الصينيين للبضائع الأجنبية وبين محبة الأجانب. فقد انتشر بين معظم الصينيين شعور مزدوج حيال ما هو أجنبي: إذ ترافق الشعور بالارتياب والكراهية تجاه الأجانب المنتشر بين الصينيين مع محبة لما ينتجونه من بضائع. كانت تحالفات تايزونغ مع قبائل البرابرة في واقع الأمر تقابل بمعارضة شديدة من قبل حاشيته التي ينتمي معظم أفرادها إلى العقيدة الكونفوشيوسية، والتي أصرت على موقفها الثابت حيال فكرة التفوق الصيني المتوارَث.

تجلت رؤية المركزية العرقية هذه، في مجموعة القوانين التانغية ذات التأثير العريض، والتي نشرها على نطاق واسع مستشارو تايزونغ القانونيون، وتم تبنيها بكليتها لاحقاً من قبل السلالات الحاكمة المتعاقبة، بالإضافة إلى ملوك اليابان وكوريا وفيتنام. كانت مجموعة القوانين التانغية تدعو نظرياً على الأقل، إلى نوع من الفصل العنصري بين الصينيين، وبين غير الصينيين. كانت المستوطنات الأجنبية في ظل هذه القوانين مقصورة على مراكز التجارة في شانغان، وليو وانغ، وكانتون، ويانغزون ، وعلى ممرات طرق التجارة البرية. بالإضافة إلى ما تقدم، لم يكن من المفترض أن يتواصل الأجنبي مع أي صيني إلا بقصد التجارة، أما الصينيون الذين يتزوجون من أجنبيات، فقد كانوا يُنفون إلى أماكن تبعد حوالي ٤٠٠ ميل.

ولكن لم يكن يتم تطبيق هذه التعليمات بشكل صارم. في الواقع، لم يكن أي من قوانين الفصل العنصري التانغي يتسق مع حقائق حياة أسرة التانغ الإمبراطورية. فقد كان الإمبراطور تايزونغ نفسه سليل تزاوج مختلط بين صيني وبربرية، كما كانت الزواجات ذات الطابع الإستراتيجي التي تتم بين الأسرة الإمبراطورية التانغية والأسر الحاكمة في السهوب تمثل أسلوباً تانغياً شائعاً هدفه تعزيز روابط التحالفات الإستراتيجية المهمة مع تلك الأسر الحاكمة. بالإضافة إلى ذلك، قام تايزونغ

بإعادة تموضع حوالي ٧٠٠٠٠ نسمة من كوريا في الصين. وكان الأرستقراطيون والمسؤولون الكوريون الذين استقروا في الصين قد منحوا ألقاباً صينية فخرية. في موضع آخر، قام الإمبراطور تايزونغ بجلب مئة عائلة تركية إلى شانغان للتأكد فيما إذا كان باستطاعة أفرادها التماهي مع الثقافة الصينية غير آبه بالاعتراضات الشديدة التي أبداها بعض مستشاريه. كما عمل على أن يكون الجنود الصينيون، وغير الصينيين مندمجين في الوحدات العسكرية نفسها.

زد على ذلك، كان تايزونغ منفتحاً بشكل جلي على الديانات الأجنبية. فقد عاد أكثر الرهبان البوذيين شهرة، وهو زوان زانغ إلى شانغان حوالي سنة ٦٤٥ بعد رحلة حج استمرت ست عشرة سنة جاس خلالها آسيا الوسطى والهند، وأحضر معه أكثر من ٦٥٠ من النصوص الهندية، ومئة وخمسين من الآثار «الأصلية» لبوذا. استقبل تايزونغ الراهب البوذي العائد بكل ما يليق به من التقدير والاحترام، مغدقاً عليه الهدايا، بالإضافة إلى منحه لقباً فخرياً. وقد قام زوان زانغ بناء على طلب الإمبراطور بتدوين تجربته في سفرته الطويلة تلك، بأسلوب أخاذ، واصفاً المغامرات التي مر بها في باكتريا، وبلاد فارس، وأفغانستان وكشمير، وأخيراً في الهند، حيث استقبله ملك الهندوس العظيم سيلاديتيا بحرارة [١٢].

كرس الراهب زوان زانغ بقية حياته لترجمة النصوص السنسكريتية التي أحضرها معه بدعم من الإمبراطور تايزونغ. كان لهذا الراهب البوذي تأثير كبير على الإمبراطور تايزونغ. وأعلن الإمبراطور تايزونغ في السنة التي سبقت وفاته عندما قاده اعتلال صحته إلى البحث عن دواء بوذي يطيل العمر، أن البوذية أكثر سمواً من الديانات الصينية. (يعتقد بعض المؤرخين في عصرنا الحاضر أن الأدوية البوذية التي قام بتركيبها طبيب هندي زعم أن عمره مئتا سنة، قد تكون لسوء الحظ هي السبب في تسميم الإمبراطور)[١٣].

تُعد مدة حكم الإمبراطور تايزونغ واحدة من أكثر المدد تعددية من الناحية

الدينية في التاريخ الصيني. لم يرحب تايزونغ بالبوذية وحسب، بل بديانات جديدة غير مألوفة أتى بها أجانب جاؤوا من أقاصي الغرب الإمبراطوري إلى الصين التانغية. دخلت في عهده إلى الصين ديانات الزرادشتية والمانوية واليهودية والإسلام والمسيحية - بواسطة مسافرين سلكوا طريق الحرير - وكانت هذه الديانات تمارس بحرية في الصين من قبل أتباعها الأجانب. كان التجار الفرس المقيمون في منطقة السوق الغربي بمدينة شانغان حيث يتجمع فيها سكان من أصول أجنبية، يقومون بذبح حيوانات حية كأضاحي على مذابح النار الزرادشتية، بينما كان المؤذنون يعتلون المآذن صباحاً ومساء داعين المسلمين إلى أداء الصلاة. في وقتنا الحاضر، يوجد في شانغان مبنى ضخم يضم مسجداً كبيراً تعلوه كتابات باللغتين العربية والصينية[١٤].

وصلت المسيحية النيسطورية وهي مزيج من المسيحية وديانات أخرى من الشرق الأدنى إلى الصين أيضاً في عهد تايزونغ. في سنة ٦٣٥، دخل راهب نيسطوري كان يعرف لدى الصينيين باسم "أو لو بين" (ربما كان هذا الاسم ترجمة لاسم «روبين») إلى البلاط الإمبراطوري. التقى به الإمبراطور تايزونغ عدة مرات، وفي كل مرة كان يوجه إليه جملة من الأسئلة حول معتقداته، حتى أنه طلب إليه في أحد اللقاءات القيام بترجمة كتبه المقدسة. ونظراً لتأثره البالغ بنتيجة تلك اللقاءات لم يكتفِ الإمبراطور بإصدار أمر ببناء معبد نيسطوري في شانغان، بل أصدر المرسوم التالي:

> الطريق لها أكثر من اسم واحد. هناك أكثر من حكيم واحد. تختلف المبادئ من مكان إلى آخر، لكن خيرها يعم العالم أجمع. أحضر أو لو بين - وهو رجل يمتلك فضائل عظيمة من الإمبراطورية الرومانية - معه صوراً ونصوصاً من الماضي البعيد حتى وقتنا الراهن كي يعرضها في عاصمتنا. بعد تمحيص مبادئه، وجدنا أنها عميقة ومسالمة. وبعد دراستها دراسة متأنية، وجدنا أنها تركز على ما هو خير ومهم في النفس البشرية. لا يتصف تعليمه بالإسهاب، كما أن منطقه مقنع. هذا الدين يؤدي خدمة للبشر جميعاً. فلندعْ هذا الدين يمارَس بحرية في إمبراطوريتنا [١٥].

كانت لحقبة حكم تايزونغ عواقب متقلبة على الهرمية الاجتماعية التقليدية للصين. ففي سنة ٦٣٢، أمر تايزونغ بإعداد لائحة بأهم العائلات في الإمبراطورية. أثار هذا الأمر شعوراً بالإذلال. فبينما كان الزواج المختلط بين الصينيين وغير الصينيين مألوفاً في عهد التانغيين، بقيت العشائر الصينية الأكثر أرستقراطية صينية محضة، أي «نقية الدم» من الناحية العرقية، وكانت تنظر بكثير من الفوقية إلى العشائر من»أشباه البرابرة» المقيمين في منطقة الشمال الغربي بغض النظر عن مدى "تَصيّنهم". وكان ما أثار حنق الإمبراطور هو أن التقرير صنف عائلته في المرتبة الثالثة. رفض تايزونغ مسودة التقرير، وأعطى أوامر بوجوب إعادة النظر فيه. لا حاجة إلى التأكيد على أن النسخة الثانية المعدلة من التقرير وضعت العائلة الإمبراطورية الحاكمة في المرتبة الأولى.

كانت لهذه اللائحة السلالية نتائج أخرى لا تقل أهمية. فقد رفعت مرتبة العائلات التي ينتمي إليها أهم الوزراء - الذين اختارهم تايزونغ لمساعدته في الحكم على أساس الكفاءة والثقافة الكونفوشيوسية - إلى مستوى يفوق أكثر العشائر قوة من الناحية التاريخية. أولاً، قامت برفع مستوى المفكر الباحث إلى مرتبة تفوق مرتبة الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية. ثانياً، مهدت السبيل أمام الكفاءة كي ترتقي في السلم الوظيفي الحكومي الصيني بموجب الخضوع إلى نظام امتحان لسبر غور هذه الكفاءة. هذه المؤسسة التي كانت ستغير ليس فقط المجتمع الصيني، بل كثيراً من المجتمعات الشرق آسيوية، لم يؤسسها تايزونغ نفسه. أما الشخص المسؤول عن تطوير هذه المؤسسة فكانت الإمبراطورة "وو"، المحظية السابقة التي أصبحت المرأة الأولى والوحيدة التي حكمت الصين بشكل رسمي[١٦].

الإمبراطورة وعقاقير الشهوة الجنسية

الابن الذي اختاره تايزونغ لخلافته كان شخصية غير اعتيادية، ربما كان ذلك الابن مختلاً عقلياً. كان يرفض التحدث باللغة الصينية، وكان يصر على استخدام اللغة التركية بدلاً منها، متبعاً العادات التركية، ومرتدياً الزي التركي. وكانت

علاقتـه الجنسـية الشـاذة بأحـد مهرجـي البـلاط أثـارت حنـق والـده الـذي أمـر بقتـل العشـيق. انتهـى الأمر بالأمير الوريـث إلى القتل هو الآخـر، فاعتلى العرش أحـد أبنـاء تايزونـغ الآخريـن وأطلـق عليـه اسـم الإمبراطـور غاوزونـغ. إلا أن غاوزونـغ كان ضعيفـاً ومتراخيـاً، وقـد كان معظـم مـدة حكمـه الطويلـة (٦٤٩-٦٨٣) مجـرد دميـة بـين يـديْ زوجتـه، الإمبراطـورة "وو".

كانت وو زاو امرأة نادرة الجمال والذكاء؛ وكانت تتميز أيضاً بانتهازية سياسية لا تعرف الرأفة. أصبحت في سن الثانية عشرة محظية في بلاط الملك تايزونغ العجوز. كانت العادات تقضي، بأنه بعد وفاة الإمبراطور تايزونغ سنة ٦٤٩، أن تحلق وو زاو شعر رأسها وتصبح راهبة بوذية كبقية المحظيات اللواتي لم يكن لهن أولاد. من غير المؤكد أن وو زاو قامت بذلك، وهذا الأمر ما يزال موضع نقاش؛ ولكن على أي حال، خلبت وو زاو لب الإمبراطور الجديد غاوزونغ، حيث أصبحت خليلته المفضلة، وأنجبت له ولداً سنة ٦٥٢. تمت ترقيتها سنة ٦٥٥ إلى مرتبة إمبراطورة. بعد ذلك بمدة وجيزة، ولكي تزيح من أمامها أي تهديد لسلطتها، قيل إنها قامت بإزاحة زوجة غاوزونغ الأولى، ومحظية أخرى منافسة لها من طريقها بأن أعطت الأوامر بقطع أيديهما وأرجلهما، ثم رمي المرأتين بوعاء ضخم لصناعة الخمر. عندما تعرض زوجها لجلطة دماغية تسببت في إصابته بالشلل سنة ٦٦٠، أصبحت هي حاكمة للصين بحكم الأمر الواقع. في سنة ٦٩٠، أي بعد سبع سنوات على وفاة غاوزونغ، اعتلت وو زاو العرش بصفة رسمية. منحت نفسها لقب الإمبراطور، وأعلنت عن قيام سلالة حاكمة جديدة أطلقت عليها اسم زاو. وكانت تلك المرة الأولى والوحيدة في التاريخ الصيني تتسلم فيها امرأة مقاليد الانتداب الإلهي [١٧].

كان اعتلاؤها عرش الإمبراطورية، وقيامها بحكم الصين مباشرة، وبهذا الشكل العلني كإمبراطورة، يشكلان خرقاً للنظام الكونفوشيوسي الذي يقضي أن تكون المرأة في طاعة الرجل. (لم يكن مفاجئاً أن نظرة المؤرخين التقليديين الذين كان معظمهم من أتباع الكونفوشيوسية للإمبراطورة وو كانت سلبية.) إلا أن الإمبراطورة وو استخدمت البوذية بطريقة شرسة لإضفاء صفة الشرعية على

نظام حكمها. أعلنت الإمبراطورة وو سنة ٦٩٤، وبمساعدة من أحد عشاقها - وكان بائع عقاقير تثير الشهوة الجنسية، وتحول فيما بعد إلى راهب - بأنها تقمصت روح المعلم بوذا، وهو المخلّص الذي سوف يقوم في المستقبل بحكم الجنة المقبلة. مولت وو أيضاً إنشاء تماثيل ضخمة مثل تمثال بوذا العملاق الذي تم نحته من الصخر الصلد، ويبلغ ارتفاعه خمسين قدماً. تعاظم شأن البوذية التي كانت تمثل قوة اقتصادية وسياسية في الصين في ظل حكم الإمبراطورة لدرجة أن هذه الديانة "تصيّنت"، وبعدها تفرعت إلى مذاهب صينية مختلفة ومدارس جديدة عظيمة النفوذ. أصبحت الصين في القرن الثامن مصدراً رئيساً لنشر الديانة البوذية بين الحجاج الأجانب، وحتى بين الرهبان الهنود الذين يسافرون إلى الصين من أجل تقديم واجب الاحترام للأرواح الصينية المقدسة السرمدية [١٨].

أجرت الإمبراطورة وو تغييراً آخر في بنية الصين الاجتماعية التقليدية. فقد أزاحت المنحدرين من أصول أرستقراطية من مناطق الشمال الغربي، والذين احتكروا السلطة في الصين على مدى قرون عديدة، عن المناصب الحكومية. ومن بين الإجراءات التي اتخذتها ضد هؤلاء الأرستقراطيين، إصدارها أوامر بإعدام المئات منهم. كما قامت الإمبراطورة بإعادة هيكلة نظام الامتحان المؤهل للتعيين في الخدمة المدنية وتوسيعها، وهو ما أدى إلى ظهور طبقة جديدة من المسؤولين الحكوميين الذين تم اختيارهم على أساس الكفاءة وليس على أساس روابط الدم. لكن النتيجة لم تكن مبنية كلياً على أساس الكفاءة: كان فقط أبناء الأسر المرموقة اجتماعياً هم الذين يسمح لهم بتلقي التعليم الكونفوشيوسي اللازم استعداداً للتقدم إلى هذا الامتحان. مع ذلك، كانت الإضافات الجديدة التي فرضتها الإمبراطورة نقطة تحول في التاريخ الصيني. فنظام الامتحانات الحكومي الذي تأسس حديثاً كان تجسيداً للمبدأ الراديكالي الجديد القاضي بأن موظفي الحكومة يمكن تعيينهم فقط على أساس تحصيلهم العلمي ومواهبهم الأدبية، بعكس الامتيازات التي كان تستند فقط إلى معايير الوراثة[١٩].

لكن الإمبراطورة لم تلتزم دائماً بهذا المبدأ. فبالرغم من أن إدارتها كانت تضم العديد من المسؤولين المفكرين، فقد قامت بتعيين مجموعة من المقربين إليها والذين لم يكونوا يتمتعون بأي من تلك المواهب في البلاط. كانت لها شرطتها السرية الخاصة بها، وكان العديد منهم من أقاربها الذين قاموا بإبادة أعدائها بطرق همجية. كما دارت حول حياتها الشخصية الكثير من الإشاعات التي تثير الدهشة، بما في ذلك حكايات حول مغامراتها الجنسية الماجنة مع اثنين من إخوتها غير الأشقاء عندما شارفت على بلوغ الثمانين من عمرها. يقال إن الإمبراطورة كانت تتناول الكثير من المنشطات، لدرجة أن «أسناناً وحواجب جديدة قد نبتت لها»[٢٠].

تمت الإطاحة بالإمبراطورة أخيراً سنة ٧٠٥. بعد سبع سنوات من الصراع المميت على السلطة، استعادت أسرة "لي" العرش، وفي سنة ٧١٢، عادت سلالة تانغ الحاكمة إلى الواجهة. تولى الإمبراطور الجديد الذي كان يدعى مينغ هوانغ، أو العاهل الرائع، الحكم في أكثر عهد عرفته الصين في تاريخها ازدهاراً وروعة من الناحية الثقافية.

السلطة التانغية في أوْجها

يُعد مينغ هوانغ، إلى جانب تايزونغ، واحداً من أعظم أباطرة سلالة التانغ الحاكمة. قام بعد اعتلائه العرش، بتطهير البلاط الإمبراطوري من أسوأ مظاهر التبذير والمجون اللذين سادا عهد الإمبراطورة وو، كما قام بإلغاء عقوبة الإعدام، والتزم بإجراء إصلاحات في كل أنحاء الإمبراطورية. وكانت مدة حكمه الأطول في تاريخ سلالة التانغ الحاكمة؛ إذ امتدت لنصف قرن من الزمن تقريباً (٧١٢- ٧٥٦). سار على خطى تايزونغ وذلك من خلال دمجه للنشاط العسكري مع النشاط الدبلوماسي في مجال السياسة الخارجية. وصل نفوذ الصين في مجال السياسة الخارجية إلى أوجه في عهده، حيث أقرت الشعوب غير الصينية من كشمير إلى كوريا، ومن إيران إلى فيتنام بنفوذ سلالة التانغ الحاكمة.

كانت العاصمة الإمبراطورية شانغان في قلب إمبراطورية التانغ المترامية الأطراف، وكانت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان في تلك الفترة. كان حوالي ثلث عدد سكانها من الأجانب الذين يضمون مندوبين من المنطقة العربية، وتجاراً من الهند وبلاد فارس وسوريا، ورهباناً وطلبة من كوريا واليابان، وقادة قبائليين من نيبال والتيبيت وسيبريا، وفنانين وممثلين من بخارى وسمرقند وطشقند.

كان في متناول أيدي سكان شانغان الصينيين الموسيقى والأزياء والنكهات الأجنبية المتنوعة التي أقبلوا عليها بشغف. أصبحت رياضة البولو - التي أتت بشكل مؤكد تقريباً من بلاد فارس - الرياضة المفضلة لأبناء المجتمع الأرستقراطي. وفي بعض المناسبات الخاصة، كانت عازفات الناي من وسط آسيا يجلسن على منصات تحملها الجِمال ويعزفن موسيقى جديدة غير مألوفة على آلات القرب الموسيقية التي تشبه الناي، والتي كان المسؤولون الإمبراطوريون يستمتعون بها جداً. وكانت النساء الصينيات الأرستقراطيات يلبسن ثياباً ضيقة وأوشحة على الطراز الدارج في آسيا الوسطى. وفي مناسبات أخرى، كن يلبسن سراويل فضفاضة، ويمتطين ظهور الجياد، في تناقض واضح مع نساء الطبقات العليا في عصور تالية من التاريخ الصيني، واللواتي لم يكن باستطاعتهن المشي إلا بالكاد بسبب تكور أقدامهن في الأحذية الضيقة جداً التي كن يلبسنها [٢١].

لم تكن شانغان مجرد مدينة اصطفائية أو معنية بالأناقة. كانت أيضاً مركزاً للتعليم والفن الراقي. في عهد الإمبراطور مينغ هوانغ، ازدهرت الآداب وفنون الرسم والنظريات الجمالية والتاريخية، وازدهر الشعر كما لم يزدهر من قبل. عاش أهم الشعراء في تاريخ الصين مثل لي بو، وتو فو، ووانغ وي، في ذلك العصر. وقد وصفها أحد المؤرخين بالقول: «كانت شانغان أكثر من مجرد عاصمة دائمة الحركة لإمبراطورية عظيمة: لقد كانت مدينة عالمية، كانت أعظم مدينة في الكون؛ كانت مركز الإشعاع الحضاري لجميع أرجاء شرق آسيا» [٢٢].

اشتهر مينغ هوانغ، مثل تايزونغ، بانفتاحه على الأجانب، وتسامحه مع

الاختلافات في الثقافات والعقائد الدينية. استقبل الإمبراطور مينغ هوانغ سنة ٧١٣ وفداً عربياً قوامه سفراء أرسلهم الخليفة الأموي الوليد لبحث التعاون فيما بينهما في الشؤون العسكرية. رفض العرب، في مخالفة للبروتوكول الإمبراطوري، السجود - بحيث تلامس جباههم الأرض - أمام الإمبراطور. أكد هؤلاء الغرباء أن المسلمين لا يسجدون إلا لله وحده، وما يمكنهم القيام به هو القيام فقط بانحناءة خفيفة أمام ملك دنيوي. لوح مينغ هوانغ بيده مشيراً إلى تنحية هذا الفرض البروتوكولي جانباً؛ وقال، وهو يكظم غيظه الممزوج بالدهشة: «بروتوكول البلاط ليس موحداً في جميع البلدان.» (بعد مرور ألف سنة على هذا الحدث، اتخذ حكام المانشو قراراً معاكساً. فعندما رفض السفير الإنجليزي اللورد أمهيرست السجود أمام الإمبراطور، تم طرده خارجاً، وقطعت على إثر هذه الحادثة العلاقات الدبلوماسية.) كان التجار الأجانب والبعثات التبشيرية في العصر الذهبي لإمبراطورية التانغ من مسلمين وبوذيين ويهود ومسيحيين وزرادشتيين أو مانويين، يتعبدون بحرية في أماكن عبادتهم من دون خوف من الاضطهاد، وكانوا يقومون بهذه الطقوس الدينية أحياناً تحت حماية الجيش الإمبراطوري [٢٣].

كان التسامح الذي مارسته إمبراطورية التانغ مذهلاً مقارنة مع سلوك اثنتين من الإمبراطوريات الكبرى المعاصرة لها: وهما الخلافة الأموية، والإمبراطورية البيزنطية اللتان كانتا متعصبتيْن من الناحية الدينية.

بنيت الإمبراطورية الأموية (٦٦١- ٧٥٠) على أساس العقيدة الإسلامية التي رفضت كل الديانات الأخرى باعتبارها تشكل نوعاً من أنواع الهرطقة. وبالرغم من أن الاضطهاد الذي مورس على غير المسلمين في بداية عهد الأمويين كان خفيفاً، فقد قام الخليفة الوليد نفسه الذي تمت الإشارة إليه آنفاً، بمحاصرة النبلاء المسيحيين في أرمينيا بين سنتي ٧٠٤ و ٧٠٥، وحرقهم حتى الموت في كنائسهم. وتم صلب البعض، وقطع رؤوس البعض الآخر. بعد بضع سنوات، أصدر الخليفة عمر الثاني التصريح التالي: «أيها المؤمنون، إن كل من ليس على دين الإسلام، فهو قذارة. هؤلاء خلقهم الله كي يكونوا من أتباع الشيطان، أغلبهم ليست لهم ذمة، ولا خير

يرجى منهم في هذه الحياة الدنيا بالرغم من أنهم يحسبون أنفسهم من الخيّرين؛ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.» لم يكن يسمح لغير المسلمين استلام مناصب حكومية. (على سبيل المقارنة، عندما هرب أمير الساسانيين الفرس بعد أن هزمه العرب، إلى الصين سنة ٦٧٤، تم استقباله والترحيب به في شانغان وعين قائداً للحرس الإمبراطوري) [٢٤].

كانت الإمبراطورية البيزنطية أكثر تطرفاً في اضطهاد من كانت تعدهم من الهراطقة. كانت الوثنية قد استؤصلت بالفعل مع حلول القرن السابع الميلادي من خلال إرغام أتباعها على اعتناق المسيحية، وتعذيبهم، وتجويعهم، والإجهاز عليهم في مذابح جماعية. كما انتشرت معاداة السامية في كافة أرجاء الإمبراطورية؛ أصدر الحكام البيزنطيون من هرقل إلى ليو الثالث الأوامر بفرض طقوس المعمودية على اليهود. في عهد جوستانيان الثاني (٦٥٨ - ٦٩٥، ٧٠٥ - ٧١١)، استمرت موجات القمع العنيف، حيث حكم بالموت على أتباع الكنيسة الأرمينية الأرثوذكسية المنافسة بالموت حرقاً. كانت تجاوزات جوستانيان بمنتهى الفظاعة - زعم غيبون أنه أمر بجلد والدته بواسطة أحد كبار مستشاريه - لدرجة أنه قد تم جدع أنفه بعد أن أقصي عن الحكم، ولقب بعد ذلك بجوستانيان وحيد القرن، أي «ذي الأنف المجدوع». مع حلول منتصف القرن الثامن، أصبحت بيزنطة ظلاً باهتاً لذلتها السابقة حيث استولى العرب على معظم أراضيها.

سوف تتم مناقشة صعود الإمبراطوريتين العظيمتين المسيحية والإسلامية -بما في ذلك الكلفة التي تسبب بها التعصب التوحيدي في هاتين الديانتين- في القسم الثاني من هذا الكتاب. أما الآن، فأكتفي بالقول إن أكبر قوتين في الشرق الأوسط بين سنتي ٦٠٠ و٨٠٠ قامتا على أسس تتعلق بعقيدتيهما. «كانت كل واحدة من هاتين الإمبراطوريتين تؤمن تماماً بأن غير المؤمنين لا يمكن لهم أن يقدموا شيئاً له قيمة تذكر لأتباع الدين الحقيقي.» كان التعصب في تلك المجتمعات يشكل تناقضاً صارخاً مع سلالة التانغ الحاكمة «الأكثر تراخياً» والأقل تعصباً، والتي «كانت الصين في عهدها تتمتع بأكثر الحقب تنوعاً وازدهاراً من الناحية الثقافية في تاريخها» [٢٥].

اهتم الحكام التانغيون أكثر من أي سلالة حاكمة صينية أخرى بالإمبراطوريات

المعاصرة لهم، وسعوا إلى التعرف على أنماط الحياة اليومية في المدن الأجنبية. تحتوي الوثائق الإمبراطورية لسلالة التانغ الحاكمة على وصف تفصيلي مدهش لبيزنطة التي سماها الصينيون "فو لين":

فو لين هي [الإمبراطورية الرومانية]. تقع على شواطئ البحر الغربي؛ تحدها من الجنوب الشرقي بلاد فارس، كما تجاور الأتراك الغربيين من جهة الشمال الغربي. تعج أراضي هذه الإمبراطورية بالسكان، وفيها العديد من المدن والبلدات، كما أن أسوار العاصمة مبنية بالحجر، وتعيش فيها أكثر من مئة ألف عائلة. وهناك بوابة ضخمها ارتفاعها مئتا قدم مصنوعة كلياً من البرونز [البوابة الذهبية]. يوجد تمثال بشري من الذهب الخالص في القصر الإمبراطوري مزخرف بالزجاج والكريستال، والذهب والعاج والأخشاب النادرة. أسطح مبانيها إسمنتية ومسطحة. هناك آلات تعمل بقوة الدفع المائي في عز حرارة الصيف لحمل الماء إلى السطح وهذا الماء يساعد في جعل الهواء أكثر إنعاشاً وهو يتساقط على شكل زخات من أمام النوافذ.

يساعد الملك في تسيير أمور الحكومة اثنا عشر وزيراً. عندما يغادر الملك قصره يرافقه شخص يحمل حقيبة لتلقي الطلبات والشكاوى، يستطيع أن يلقي فيها أي شخص الطلب الذي يريده. الرجال شعرهم قصير، ويلبسون أثواباً مطرزة، يظهر فيها الذراع الأيمن عارياً. أما النساء فتسريحاتهن تشبه التاج. يقدر سكان فو لين الثروة والغنى، ويحبون تعاطي الخمر وتناول الحلوى. وفي اليوم السابع من كل أسبوع [الأحد المسيحي] لا يقوم أحد بأي عمل.

من هذه البلاد يأتي الحرير الصخري والمرجان والحرير الناعم، وكثير من المنتجات الأخرى الغريبة. لديهم العديد من السحرة المهرة الذين بإمكانهم بصق النار من أفواههم، ويسكبون الماء من بين أيديهم، ويسقطون اللآلئ من بين أقدامهم. كما أن لديهم العديد من الأطباء المهرة الذين بإمكانهم شفاء الكثير من الأمراض من خلال استخراج الديدان من رؤوس المرضى.

أما الوصف الموجود في وثائق سلالة التانغ الحاكمة للمنطقة العربية وأصول الإسلام فهو شبيه بالوصف الذي تقدم ذكره:

كانت المنطقة العربية في الماضي جزءاً من بلاد فارس. رجال هذه المنطقة

> أنوفهم كبيرة ولحاهم سوداء. يتمنطقون سيوفاً فضية اللون تربط إلى حزام فضي. لا يشربون الخمر ولا يعرفون الموسيقى. بشرة نسائهم بيضاء، ويضعن فوق وجوههن نقاباً عندما يخرجن خارج منازلهن. هناك قاعات ضخمة مخصصة للعبادة يمكن أن تستوعب مئات من الناس. يصلون خمس مرات في اليوم تعبداً لإله الكون. في اليوم السابع عندهم [يوم الجمعة] يعتلي ملكهم [الخليفة] المنبر ويتجه إلى رعاياه قائلا: « من يقتل في المعركة سوف يحيا من جديد في الجنة. ومن يقاتل بشجاعة سوف ينال الرضا والسعادة.» لهذا السبب، كان رجالهم مقاتلين بواسل. أراضيهم فقيرة ولا تنبت الحبوب، ولذلك فهم يقتاتون على لحوم الحيوانات التي يصيدونها، ويجمعون العسل من بين الصخور. بيوتهم أشبه بقلنسوة العربة [الخيام]. يزرعون أنواعاً من العنب حباته بحجم بيض الدجاج.
>
> في عصر سوي...كان هناك رجل [محمد] من الشعوب الغربية (هُوُ) التي تتبع بلاد فارس يرعى القطيع في جبال قرب المدينة [المنورة]. قال له رجل على هيئة الأسد [الملاك جبريل]: «إلى الغرب من هذا الجبل، يوجد في إحدى المغارات سيف وحجر أسود اللون [الحجر الأسود في أحد جدران الكعبة] منقوشة عليه حروف باللون الأبيض. من يضع يده على هذين الشيئين سوف يحكم العالم.» قصد الرجل ذلك المكان ووجد هناك كل شيء كما قيل له. ... بعد ذلك، أصبح [العرب] أقوياء جداً. استطاعوا قهر بلاد فارس، وهزموا ملك فو لين [بيزنطة]، وغزوا شمال الهند، وهاجموا سمرقند وطشقند. أما من ناحية البحر الجنوبي الغربي، فقد امتدت إمبراطوريتهم إلى حدود بلادنا.

مهما بلغت درجة التضخيم وعدم الدقة لهذا الوصف لكل من بيزنطة والإسلام، فإنه يدل على النزعة نحو الفضول المتسم بالثقة بالنفس، كما يدل على الجهد المبذول للوصول إلى فهم أفضل للثقافات الأجنبية ، وهذه سمة من سمات التانغيين. وبينما يمكن أن يعتبر القارئ الحديث أن مثل هذه العروض غير مقبولة بالنسبة إلى ذوي الثقافة الرفيعة، فإنها توحي بمعرفة بالعالم الخارجي أكبر بكثير من المدونات التي كانت بحوزة أباطرة المانشو كينغ، على سبيل المثال، الذين حكموا الصين بعد ألف سنة على ذلك (١٦٤٤- ١٩١٢). فبالرغم من أن العالم تقدم بشكل مدهش في مجال الاتصالات والتكنولوجيا، كان أباطرة كينغ يجهلون بشكل يثير الدهشة -

وربما لم تكن لديهم الرغبة في معرفة - أي شيء عن القوى الأوروبية الصاعدة التي أحبوا أن يضعوها في سلة واحدة من خلال وصفهم لها «بالبرابرة الذين يدفعون الجزية». وفي أحد النصوص الإمبراطورية يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثامن عشر، يمكن للمرء قراءة المغالطات التالية:

دفعت إيطاليا الجزية للصين سنة ١٦٦٧ (والحقيقة أن هولندا هي من دفعتها وليست إيطاليا، وتبعها البابا الذي قام بدفع الجزية سنة ١٧٢٥ (لم يقم البابا بذلك أبداً).

فرنسا هي نفسها البرتغال!

السويد تابعة لهولندا.

الأسبان في الفلبين هم البرتغاليون الذين استولوا على مالاكا ومكاو.

السويد وإنجلترا هما الاسمان المختصران لهولندا.

في سنة ١٨١٨، تم تصنيف إمبراطوريات فرنسا وروسيا وبريطانيا - التي كانت على وشك احتلال الصين نفسها - في السجلات الإمبراطورية لمملكة كينغ على أنها "بلدان تابعة" للصين، شأنها في ذلك شأن مملكتي ترينغانو وكيلانتان، وممالك أخرى صغيرة في شبه جزيرة المالاوي. يؤكد بعض المؤرخين على أن جهل ملوك الكينغ العميق بالغرب كان عاملاً حاسماً زاد من عجز الصين عن مقاومة السيطرة الأوروبية [٢٧].

هل كانت الصين في العصر الذهبي لسلالة التانغ الحاكمة قوة مسيطرة عالمياً -أي قوة مطلقة شأنها في ذلك شأن بلاد فارس الأخمينديه أو روما القديمة؟ ما يزيد في صعوبة هذا السؤال حقيقة أن الصين في القرنين السابع والثامن كانت محاطة بممالك وتحالفات قبائلية أصغر من حجمها هي بكثير، إلا أنها كانت من القوة بحيث كانت تشكل تهديداً عسكرياً جدياً للقوات العسكرية التانغية - في

الواقع، كانت من القوة بحيث إنها استطاعت حتى هزيمة الجيش التانغي عندما تم نشره بأقل من قوته الحقيقية، كما كانت الحال دائماً في إمبراطورية شاسعة كهذه الإمبراطورية. في سنة ٦٧٨، تعرض الجيش التانغي الذي كان قوامه ١٨٠٠٠٠ جندي إلى هزيمة منكرة على أيدي التيبيتيين بالقرب من بحيرة كوكو نور في الصراع من أجل السيطرة على أراضي المنطقة الغربية. وفي سنة ٧٥١، تعرض أحد الجيوش التانغية الأقل حجماً إلى هزيمة على يد جيش الخليفة العباسي في معركة طالاس بالقرب مما يعرف اليوم بسمرقند - بالرغم من أن المعركة لم تكن في حقيقة الأمر سوى مناوشات حدودية، وقد فاقت القوات العربية بعديدها عدد أفراد الحامية التانغية.

ومما زاد في تعقيد الأمور، المحاولات المتكررة التي كانت الإستراتيجية التانغية تسعى إلى تطبيقها من خلال تطويع الممالك المنافسة عن طريق ممارسة دبلوماسية القسوة مدعومة بالتلويح باستخدام القوة بدلاً من القيام بفتوحات تسفك فيها الدماء. كانت هذه الإستراتيجية ناجحة جداً لكنها عرضت التانغيين للمخاطر، وجعلت سيطرتهم تعتمد على ولاء الملوك الأجانب ورعاياهم الذين كانوا يعاملون باحتقار في معظم الأحيان من قبل الصينيين، والذين ردوا على هذه المشاعر بعداء مكشوف للصين.

بالرغم من نقطة الضعف هذه، فإن السيطرة العالمية التي كانت تتمتع بها الصين في عهد سلالة التانغ لم تكن موضع شك أبداً. كان المدى الذي ذهب إليه التانغيون في التربع على عرش العالم الذي كانوا فيه، يقطع الأنفاس. تأملوا «القوى العظمى» في أوروبا في مرحلة ما بعد روما. ربما كانت الإمبراطورية الفرانكية هي القوة الغربية الأعظم في القرنين الثامن والتاسع، وكانت تحكم مابين خمسة إلى عشرة ملايين من الرعايا في عهد الملك الذائع الصيت آنذاك، شارلمان. في تلك الفترة، كان يعيش في ظل حكم الإمبراطور مينغ هوانغ ستين مليوناً. في ذلك الوقت نفسه تقريباً، لم تكن الإمبراطورية البيزنطية تحكم أكثر من عشرة إلى ثلاثة عشر

مليوناً. حتى الخلافة الأموية في الشرق الأوسط - التي كانت تشكل إمبراطورية أكثر قوة، وكان تعداد رعاياها أكبر من ذلك بكثير، واحتلت المرتبة الثانية بعد الصين التانغية - كان عدد رعاياها لا يتجاوز ستة وثلاثين مليوناً. كان الجيش الأموي أقل بكثير من حيث العدد، من الجيش الصيني الذي كان يبلغ تعداد جنوده العاملين ما بين ٥٠٠٠٠٠ و٧٥٠٠٠٠ جندي. باختصار، تجاوزت الصين التانغية في أوج عصرها الذهبي كل القوى الأخرى في العالم من حيث عدد سكانها وثروتها وقوتها العسكرية الإجمالية [٢٨].

أفول نجم التانغيين وبروز التعصب

كما كانت الحال في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، فإن التسامح الذي اعتبر جزءاً لا يتجزأ من السطوة والتأثير اللذين طبعا الإمبراطورية التانغية، كان يحمل في طياته بذور انهيار تلك الإمبراطورية. من المفارقة ملاحظة أن سقوط إمبراطورية التانغ يعود إلى هجوم قام به أحد الأجانب الذين تسلموا سلطات كبيرة في الإمبراطورية. حل التعصب مكان التسامح في اللحظة التي بدأت فيها الإمبراطورية في التداعي.

كانت سياسة التانغيين التي تقضي بممارسة التسامح كخيار إستراتيجي تعني أن الإمبراطورية لن تحاول أبداً فرض الهوية الصينية "الهانية" على رعاياها من غير الصينيين. تسببت هذه السياسة في غياب أي «غراء» مشترك من النواحي السياسية، أو اللغوية، أو الثقافية يربط ما بين «البرابرة» والصينيين في الإمبراطورية التانغية الصاعدة. على العكس من ذلك، وجد الإمبراطور مينغ هوانغ نفسه في بداية القرن الثامن حاكماً على أعداد كبيرة من المجموعات البشرية المتمايزة التي تتمتع بروح استقلالية شديدة، والتي لا تشعر بأي نوع من الولاء، أو حتى أي شكل من أشكال النوايا الطيبة تجاه أسيادها الصينيين.

كان على مينغ هوانغ أن يعتمد في حفظ القانون والنظام في الإمبراطورية ككل،

على قوات قوام أغلبها من الأجانب، وخصوصاً من الشعوب التركية مثل قبيلتيْ "زي" و "كيتان". كان زعماء هذه القبائل يعينون حكاماً عسكريين يقودون جيوشاً احترافية كبيرة تهدف إلى حماية الحدود، وكانت هذه الجيوش فعلياً تمارس سلطات مدنية واقتصادية وعسكرية من دون أن تكون خاضعة لأي مساءلة. أنشأ التانغيون بين سنتيْ ٧١٢ و ٧٣٣ تسعاً من تلك الحاكميات. كان هؤلاء الحكام العسكريون غالباً ما يتصرفون بمبادرات شخصية منهم لتوسيع رقعة الإمبراطورية التانغية. ونظراً للمردود الإيجابي لتلك الاعتداءات الناجحة، فقد ازدادت وتيرة الأعمال العسكرية المستقلة عن الأوامر الإمبراطورية المركزية. ونتيجة لذلك، بدأت السلطة المركزية تفقد سيطرتها بشكل تدريجي، وازدادت معها سيطرة الأجانب على مقاليد الحكم في عهد مينغ هوانغ.

كان الاستقلال الذاتي والسلطات الممنوحة للقادة العسكريين من غير الصينيين تعكس بمعنى من المعاني النجاح الباهر الذي حققه المسعى التانغي لتجاوز خطوط التماس التي تفصل بين الصينيين والشعوب «البربرية» التي تعيش في السهوب. لكن الجيوش الأجنبية الجرارة التي ضمتها الإمبراطورية التانغية بقيت كما هي - جيوشاً أجنبية. عندما بدأت الجيوش التركية، أو التيبيتية، أو المنغولية التي يقودها جنرالات طامحون، تشعر بأن الصينيين يستغلونها ويسيطرون عليها، انقلبت على التانغيين. بدأ الأجانب الذين لم يشعروا يوماً بأنهم جزء حقيقي من المملكة الوسطى، يتعاملون مع الإمبراطورية التانغية في نهاية المطاف باستخفاف.

كانت الضربة القاضية التي تلقتها الإمبراطورية التانغية تتمثل في العصيان الذي قام به آن لو شان سنة ٧٥٥. في أربعينيات القرن الثامن، وقع الإمبراطور مينغ هوانغ، وكان يبلغ من العمر حينها حوالي ستين سنة، في غرام إحدى خليلات ابنه، وتدعى يانغ غوي في. استطاعت يانغ غوي في، خلال مدة قصيرة، السيطرة بشكل كامل على الإمبراطور الولهان، وامتلأ خلالها البلاط بأقربائها وأتباعها الفاسدين. ومن خلال نفوذ يانغ غوي في، استطاع آن لو شان، وكان رجلاً عسكرياً بديناً، الحصول على السلطة اللازمة لتنظيم ثورة غيرت وجه الصين إلى الأبد.

يختلف المؤرخون حول الانتماء العرقي الدقيق لآن لو شان. استناداً إلى أحد المصادر التاريخية، كان آن لو شان ينتمي إلى قبيلة تركية، أما بعض المصادر الأخرى فقد ذكرت أن أصوله تعود إلى الأتراك السوغدينيين. إلا أن هناك إجماعاً بأن أصوله غير صينية؛ فقد كان بديناً وغير متعلم، وكان مستوى ذكائه بدائياً. من الواضح أيضاً أن آن لو شان كان يملك سعة من الدهاء، ويعرف كيف يرضي قادته. رقي إلى رتبة جنرال سنة ٧٥٠، وأصبح من رواد البلاط المفضلين. ألهب خلال تلك الفترة مشاعر يانغ غوي في، وكان يسلي الإمبراطور بحركاته البهلوانية التهريجية[٢٩].

بالرغم من أن بعض أفراد العائلة الإمبراطورية شككوا في دوافع آن لو شان، فإن يانغ غوي في أخذته على عاتقها وكان في ظل حمايتها، لدرجة أنها تبنته كابن لها. نتيجة لذلك، حاز آن لو شان على امتياز غير مسبوق تمثل في زيارة مخدعها في القصر، وهو ما يشير إلى أن الاثنين كانت تربطهما علاقة عاطفية، كما أشار كثير من المؤرخين. على أي حال، فبالرغم من مولده المتواضع، وإرثه الأجنبي، استطاع آن لو شان أن يجمع بين يديه سلطات استثنائية. عين آن لو شان سنة ٧٥٤ مفوضاً للإسطبلات الإمبراطورية، وهو منصب مهم جداً من الناحية الإستراتيجية؛ وقد أثار هذا التعيين الرعب بين أفراد العائلة الإمبراطورية. عشية إعلانه العصيان، كانت لآن لو شان القيادة المطلقة لثلاث من المناطق الشمالية المهمة بما فيها العاصمة الحالية بيجين، وشانكسي، وشانغ دونغ؛ وكانت تحت إمرته قوة قوامها ٢٠٠٠٠٠ جندي و٣٠٠٠٠٠ حصان.

في تلك الأثناء، بقي آن لو شان يؤدي دور المهرج في البلاط. وصلت إلى مسامع الإمبراطور في إحدى المرات إشاعة تفيد بأن آن لو شان يخطط للانقلاب على الإمبراطور. عندما استدعي إلى حضرة الإمبراطور، خر آن لو شان ساجداً على قدمي الإمبراطور وهو يبكي، ويقسم بأغلظ الأيمان أنه موالٍ للإمبراطور، وبأن هذه الإشاعة هي من صنع أعدائه بقصد تشويه سمعته. اقتنع الإمبراطور تماماً بحججه، وأغدق عليه ألقاباً جديدة [٣٠].

بعدها بمدة وجيزة، أعلن آن لو شان تمرده سنة ٧٥٥. وقعت كل من شانغان والعاصمة الشرقية لي يو يانغ في قبضة قوات آن لو شان فوراً. فر الإمبراطور ويانغ غوي في مع بعض الوحدات العسكرية يجرون أذيال الخزي والعار إلى مدينة سي شوان. تمردت الوحدات العسكرية المرافقة للإمبراطور وطالبته بإعدام خليلته التي ألقوا عليها اللوم، باعتبارها سبب المصيبة التي ألمت بهم. وبحكم أنه لم يكن أمامه خيار آخر، لم يملك الإمبراطور الكسير الفؤاد إلا أن يأمر كبير خصيانه بخنق خليلته المحبوبة. تم إلقاء جثتها في إحدى الحفر؛ بعدها، تنازل الإمبراطور المكسور الخاطر عن العرش لصالح ابنه. وكان لا بد من الانتظار مدة ثماني سنوات قبل أن يتم سحق تمرد آن لو شان، واستعادة سلالة تانغ الحاكمة للسلطة.

كانت حركة التمرد التي قام بها آن لو شان نقطة تحول في التاريخ الصيني، لأنها مثلت بداية الطريق الطويل لانحلال الإمبراطورية التانغية. حاول الأباطرة التانغيون قبل قيام حركة التمرد تلك، بمحاولة التعمية على الانقسامات الحادة بين الصينيين من جهة، وغير الصينيين من جهة أخرى، وذلك من خلال تعمد اتباع سياسات تفضي إلى المزج بين هاتين الجهتين عرقياً وثقافياً. نجحت هذه السياسة أيما نجاح على امتداد سنين عديدة. حتى عندما كانت الإمبراطورية تتوسع جغرافياً من خلال استيلائها على مزيد من الأراضي، كانت تستمد الصين التانغية حيويتها وقوتها - على الأصعدة العسكرية والاقتصادية والثقافية - من انخراط الأجانب في كل مناحي الحياة الصينية. ولكن ذلك كله كان مقدراً له أن يتغير. فمع حلول نهاية القرن الثامن، تحول انفتاح التانغيين على الشعوب الأجنبية والأفكار الأجنبية إلى مصدر ليس للقوة، بل للانقسام، وغياب الأمن، والعنف[٣١].

حتى قبل حركة التمرد التي قادها آن لو شان، كانت تحدث بعض المناوشات والهجمات التي قامت بها مجموعات غير صينية مثل التيبيتيين والأتراك الغربيين، والنانشويين على طول المناطق الحدودية التابعة للأراضي التانغية. أعقبت حركة التمرد التي قام بها آن لو شان سلسلة من الهزائم العسكرية التي ازداد وقعها مع

مرور الوقت، وبدأت معها حدود الإمبراطورية التانغية بالتداعي. امتدت سلطة التيبيتيين إلى مناطق الصين الغربية، وفقد الحكام التانغيون السيطرة على طريق الحرير. في الوقت نفسه، كان القادة العسكريون الإقليميون في طول الصين وعرضها - وكانت غالبيتهم الساحقة من الأجانب - قد بدؤوا يظهرون مزيداً من التحدي لسلطة الحكومة التانغية المركزية. انتشر الإسلام بسرعة في المناطق التي كان التانغيون يسيطرون عليها في وسط آسيا، وفي نهاية المطاف حل الإسلام محل البوذية كأكبر ديانة في المنطقة. وبينما كان الحكام التانغيون قد تقبلوا المسلمين ومساجدهم في الماضي كجزء من عالمية مجتمعهم، أصبح الإسلام الآن قوة منافسة وشكل تهديداً للسلطة التانغية[٣٢].

في نهاية القرن الثامن، أمسك التعصب بتلابيب الصين التانغية، وانتشر كالسرطان. وبدأ الصينيون بمختلف طبقاتهم وفئاتهم يلقون باللوم على الأجانب باتهامهم لهم بأنهم وراء كل المشكلات التي كانت الصين تعاني منها. فوق هذا وذاك، كاد تركي جاهل أن يطيح بإمبراطورية التانغ. بالإضافة إلى ما تقدم، فقد كان من المعيب أن تسمح حكومة مينغ هوانغ للبرابرة أن يسيطروا على القيادة العسكرية الصينية.

ربما كانت أكثر الشعوب «البربرية» إثارة للاشمئزاز، هي قبائل الويغرز. فمقابل الدعم الذي تلقاه الحكام التانغيون - المتهافتون للحصول على دعم من أي كان، إبان حقبة التمرد الذي قاده آن لو شان - من قبائل الويغرز، فقد أغدقوا عليهم الهدايا، والألقاب الصينية الملكية، كما زوجوا الأميرات الصينيات لرجالهم. وكان آخر بند في هذا الاتفاق ينفذ كما يلي: كان الويغريون يجلبون إلى الصين كل سنة عشرة آلاف من الخيول التي كان العديد منها ضعيف البنية أو مريضاً. كانوا يحصلون على أربعين قطعة من الحرير مقابل كل حصان. وكانت قيمة التبادل تلك مجحفة جداً بحق الصينيين؛ ولم يمض وقت طويل قبل أن تفرغ الصناديق الصينية من الأموال. ولكن أياً من هذا لم يكن ليثني الويغريين عن إهانة المسؤولين التانغيين،

من خلال اقتحامهم للبلاط الإمبراطوري التانغي، وخطفهم للأطفال الصينيين، وقتلهم لمواطنين صينيين.

في النهاية، أثبتت تجربة تايزونغ التي حاولت خلق «إمبراطورية عالمية» فشلها. لم يكن بإمكان الصين التانغية في نهاية المطاف، التغلب على الاحتقار الذي يكنه الصينيون للبرابرة، وخوفهم منهم؛ وهي مشاعر كانت جذورها تضرب في عمق التاريخ وتعود إلى مئات السنين. بعكس روما، لم تستطع الصين تطوير مفهوم المواطَنة السياسية التي يمكن تطبيقها بشكل متساوٍ على الصينيين وغير الصينيين على حد سواء، وتكون مرضية للجميع من دون استثناء. وهكذا، فبدلاً من تقديم مشروع هوية سياسية واجتماعية توحد الصين بكل مكوناتها، بقيت هذه الهوية صينية محضة - بينما كان البرابرة يقبعون على الطرف المقابل من الخط. وعندما بدأ التصدع يظهر في الجسد الإمبراطوري، وتحولت المجموعات غير الصينية من الويغريين والتيبيتيين إلى خطر عدواني متعاظم، أفلت التعصب الصيني المحض من عقاله.

ذبح الآلاف من التجار العرب والفرس سنة ٧٦٠ على أيدي قطاع طرق صينيين في منطقة يانغ شو. وفي سنة ٧٧٩، قام الإمبراطور دي زونغ بطرد المبعوثين الأجانب، وأصدر مرسوماً يقضي بمنع غير الصينيين من ارتداء الملابس الصينية. كما تغيرت السياسة الإمبراطورية تجاه سكان السهوب. لم يكن هناك ما يوجب حتى التظاهر بأن البدو الرحل الشماليين هم «شركاء متساوون» مع الصينيين. في أفضل الأحوال، كان البرابرة يُعدون «مخالب وأنياب» الإمبراطورية، ومن ثم فإن واجبهم المحدد يقضي بالدفاع عن الجبهات الأمامية للصين التانغية لصالح الصينيين.

في الوقت الذي تعاظم الخوف من الأجانب، تراجعت عالمية التانغيين بحدة. نشر المسؤولون المثقفون الذين انحدروا من مناطق الجنوب الشرقي، والذين تبوؤوا السلطة بعد اجتيازهم نظام الامتحان فكرة أن المعايير الأخلاقية الصينية وثقافتها

الأرقى قد تلوثت بالأرستقراطيين من البرابرة المنحطين الذين قدموا من الشمال. كما انتشرت بين المثقفين حركة تؤكد على القيم الصينية التقليدية، والأساليب الأدبية الصينية القديمة. بدأ ينظر إلى التأثيرات والأفكار الأجنبية على أنها فاسدة ومفسدة، وتم بالفعل إغلاق كافة الطرق المؤدية إلى آسيا الوسطى. وفي حركة استحضرت نموذجاً تاريخياً برز إلى حيز الوجود مرات عديدة، انكفأت الصين على ذاتها بشكل مروع، حيث عزلت نفسها عن العالم الخارجي محاولة منها لاسترجاع «النقاء» من خلال تخليص نفسها من المؤثرات الخارجية [٣٣].

تعاظم مد التعصب التانغي في القرن التاسع. صدر أمر إمبراطوري سنة ٨٣٦ يقضي بمنع الصينيين من الاختلاط «بالشعوب الملونة»، وهو بذلك يقصد الأجانب من جنوب شرق آسيا، أو المقيمين خلف جبال البامير بمن فيهم العرب والفرس والهنود والمالاويون والسومطريون، ومجموعات أخرى. وكان أكثر مدعاة للدهشة، اندلاع موجات من الاضطهاد الديني في عهد الإمبراطور وو زونغ، وكان من أتباع الديانة التاوية المتشددين. أول ديانة تم استهدافها كانت المانوية التي يدين بها معظم الويغريين. أمر الإمبراطور وو زونغ سنة ٨٤٠ بإعدام سبعين راهبة مانوية، وتهديم المعابد المانوية ومصادرة أملاك المانويين. بعد خمس سنوات، عندما تم الإعلان عن التحريم الكامل سنة ٨٤٥، وجه الإمبراطور ضربته إلى كل الأديان الأجنبية. تعرضت المعابد المسيحية والزرادشتية إلى الإغلاق، ومنع كهنة تلك المعابد من ممارسة شعائرهم «كي لا يستمروا في إفساد البساطة الصينية ونقائها الأخلاقي».

فوق هذا وذاك، عانت الديانة البوذية من هجوم حاد عليها بالرغم من أنها تصيّنت وانتشرت بين الصينيين. اتهم المعبد البوذي بأنه تحول شيئاً فشيئاً إلى وكر للانحطاط، وذلك في الحقبة الأخيرة من العهد التانغي؛ ذلك أنه وبينما كانت الحكومة الإمبراطورية تعاني من شح في مواردها المالية، كانت الأديرة البوذية غنية بشكل فضائحي. وكان قسم من هذه الثروة يصرف على الرهبان الفاسدين الذين

حنثوا بقسمهم البوذي القاضي بأن يحيوا حياة تقشف، ويبتعدوا عن المتع الدنيوية الفاضحة. كانت أغلب مظاهر ثروة هذه الأديرة تتجلى في أراضي وقف تابعة لها، ومعادن ثمينة تزين التماثيل والأجراس ورموزاً دينية أخرى. وقد وجه أمر التحريم الصادر عن الإمبراطور وو زونغ اتهاماً محدداً ومباشراً للديانة البوذية بأنها «ديانة أجنبية» تسببت في انهيار الصين أخلاقياً واقتصادياً [٣٤].

قام وو زونغ بنزع الصفة الدينية بالقوة عن ٢٦٠٠٠٠ راهب وراهبة، وأعادهم إلى طوابير دافعي الضرائب، ويعود ذلك جزئياً إلى أنه كان يريد زيادة الموارد المالية للخزانة التي كانت تنضب شيئاً فشيئاً. كما أمر بإغلاق ٤٠٠٠ من الأديرة البوذية، و٤٠٠٠٠ من المعابد الأقل شأناً، أو تحويلها إلى مواقع عامة. تمت مصادرة الكثير من الممتلكات العائدة للكنيسة، كما تم تذويب التماثيل البرونزية بهدف تحويلها إلى نقود معدنية. إلا أن محاولة وو زونغ القضاء على البوذية باءت بالفشل؛ فقد كان العديد من المسؤولين في مختلف أرجاء الإمبراطورية متعاطفين مع البوذية، ومن ثم، فقد قاوموا بصمت أوامر الإمبراطور. زد على ذلك، أنه بعد مرور سنتين على صدور قانون التحريم الذي سنه وو زونغ، اعتلى إمبراطور جديد العرش، وأصدر قوانين معاكسة للقوانين المناهضة للبوذية، والتي أصدرها سلفه حيث أعاد ترميم الأديرة المهدمة؛ ولم يكتفِ بذلك، بل أمر ببناء أديرة جديدة. وبالرغم من أن العصر الذهبي للديانة البوذية في الصين كان قد ولى إلى غير رجعة، فقد استمرت هذه الديانة في الصين لقرون أخرى قادمة. وفي المقابل، اختفت كل من المانوية، والنسطورية، والمسيحية، والزرادشتية في نهاية المطاف من الصين [٣٥].

شهد القرن التاسع تداعي سلطة الحكام التانغيين ونفوذهم. برز بدلاً من ذلك، أمراء الحروب الإقليميون الذين استولوا على الحكم في ممالكهم؛ كما فقدت الحكومة المركزية السيطرة على الموارد المالية. بين سنتيْ ٨٧٥ و٨٨٤ ميلادية، مزقت الإمبراطورية سلسلة أخرى من الانتفاضات. أما الانهيار الكامل للإمبراطورية التانغية فقد كان مطولاً ودموياً. تعرضت شانغان لأعمال السلب

والنهب، وقام المتمردون في كانون بذبح مئة وعشرين ألفاً من التجار الأجانب وكان من بينهم المسلمون والمسيحيون واليهود والزرادشتيون. وفي سنة ٩٠٤، ألقى أحد القادة الإقليميين ويدعى زو وين القبض على الإمبراطور، ونفذ فيه حكم الإعدام مع كل أفراد حاشيته الإمبراطورية، بمن فيهم الخدم. أما بقايا القصور المنهوبة في شانغان، فقد ألقيت في مياه نهر "وي" حتى منطقة لو يانغ، حيث أقام زو وين عاصمته. انتهت الإمبراطورية التانغية سنة ٩٠٧، عندما قام زو وين بذبح آخر إمبراطور من سلالة التانغ الحاكمة وكان في بداية صباه. [٣٦].

بعد سقوط الإمبراطورية التانغية، فرضت الصين على نفسها عزلة كاملة، وترافق ذلك مع الإحساس بالرهاب من الأجانب. هاجر الصينيون بأعداد مهولة من الشمال، حيث كان الخطر البربري على أشده، متجهين إلى الجنوب الذي أصبح موطناً لمعظم الصينيين الذين شكلوا تجمعاً بشرياً هائلاً. وكان من قبيل المفارقة أن يكون البرابرة هم المتسامحون مع الصينيين على امتداد قرون كثيرة، وأن يكونوا هم بناة القوة العظمى اللاحقة التي سيطرت على العالم.

الفصل الرابع

إمبراطورية المغول العظمى

البرابرة العالميون

مثلما وضع الله أصابع مختلفة الحجم في اليد، فقد مهّد طرقاً مختلفة لبني البشر.

- مونجك خان، سيركا، ١٢٥٠

قبضات جنكيز خان والمنحدرون من صلبه هزت العالم: السلاطين أطيح بهم، والخلفاء سقطوا، وارتعش القياصرة من على عروشهم.

- إدوارد غيبون، ١٧٧٦

منذ ما يقرب من سبعة قرون ونصف، كانت مدينة الخيام الملكية التي تدعى "كاراكورم" منصوبة على أحد السهول المرتفعة في السهوب المنغولية، حيث لا توجد اليوم سوى الأعشاب البرية، وبعض رعاة الماشية، وقافلة من عمال المناجم الكنديين تمر عبرها بين الحين والآخر. من بين تلك اليارتات المقززة - وهي عبارة عن خيام بيضاء دائرية الشكل كان المغول يطلقون عليها اسم الجير - خرج الخانات المغوليون الأميون ليحكموا إمبراطورية أكبر مساحة بكثير من أي أراضٍ فتحها الرومان طيلة تاريخهم. لم يكن في متناول أيدي أولئك المغول الرحل أي نوع من أنواع العلوم، أو الهندسة، أو أي لغة مكتوبة خاصة بهم. كما لم تكن لديهم أي زراعة، حتى إنهم لم

يكونوا يعرفون تحضير الخبز. مع ذلك، حكموا نصف العالم المعروف آنذاك، بما في ذلك أكثر المدن روعة في ذلك الزمان: مثل بغداد وبلغراد وبخارى وكييف وموسكو ودمشق وسمرقند[١].

في سنة ١١٦٢، وقبل أن تبنى مدينة كاراكورم بسبعين سنة، وُلِدَ صبي اسمه تيموجين في منطقة جبلية يسودها البؤس، وتقع في بقعة جرداء من السهوب. كان المغول في ذلك الحين مجموعات متناثرة من القبائل والعشائر تربط بينها أواصر القربى، إلا أن رجال تلك القبائل كانوا غارقين في دوامة من الصراع المرير المتمثل في غارات كانوا يشنونها على بعضهم بعضاً، وما كان يتلو ذلك من عمليات انتقامية، حيث كان الرجال يقتلون، والنساء يخطفن، والحيوانات تسرق. وكانت والدة تيموجين نفسها، واسمها هويلون، «سبيّاً»: فقد قام والد تيموجين باختطافها بعد وقت قصير من زواجها من أحد رجال قبيلة منافسة. عندما بلغ تيموجين سن التاسعة، قُتِلَ والده، ولكن ليس قبل أن يتم تزويج تيموجين من فتاة تدعى بورتي. بعد ذلك بمدة وجيزة، تخلت العشيرة عن هويلون وأطفالها الجياع الخمسة. ومع حلول الشتاء القارص، استطاعت تلك العائلة البقاء على قيد الحياة لأنها كانت تقتات على التوت البري وجذور النباتات، وترتدي «جلود الكلاب والفئران». عند بلوغه سن السادسة عشرة، قام تيموجين بقتل أخيه غير الشقيق، وكان ذلك الفعل يُعد من المحرمات في أعراف المغول، ولذا فقد أصبح تيموجين فاراً من وجه العدالة [٢].

كيف تمكن هذا المنبوذ الذي أصبح اسمه جنكيز خان، من توحيد القبائل المتصارعة في تلك السهوب، واحتلال أراضٍ وإخضاع شعوبٍ أكثر من أي رجل آخر في التاريخ؟ وكيف تمكن المغول الذين لم تكن لديهم أي تكنولوجيا راقية خاصة بهم، من تصميم آلات حصار هائلة - راجمات ومنجنيقات ومتفجرات وأبراج متنقلة - ساعدتهم في القرون الوسطى على اقتحام مدن ، ذات أسوار عظيمة في الصين وبلاد فارس وأوروبا الشرقية؟ وكيف استطاعت مجموعة قليلة العدد نسبياً من البدو الرحل الاستمرار في حكم إمبراطورية امتدت من بوابات فيينا إلى بحر اليابان مدة مئة وخمسين سنة؟

كان جنكيز خان من دون أدنى شك، مخططاً عسكرياً موهوباً. كما كان المغول عُدَماء الرحمة في المعارك. كانوا يصبون الفضة المذابة في أعين وآذان أعدائهم. وكانوا يقتلون النساء الخائنات بواسطة خياطة فروجهن. وقد نسب إلى جنكيز خان أنه قال إن السعادة تكمن في «سحق أعدائك، ورؤيتهم وهم يرتمون على قدميك - وأن تستولي على خيولهم وممتلكاتهم، وتسمع عويل نسائهم. تلك هي المتعة» [٣].

في الوقت نفسه، اتبع جنكيز خان سياسات تتميز بالتسامح حتى من وجهة المعايير الحديثة؛ وبالتأكيد، مقارنة مع الحكام المعاصرين. ففي الوقت الذي كانت أوروبا تحرق الهراطقة على الخوازيق، أصدر جنكيز خان أمراً ضمن فيه الحرية الدينية للجميع. آمن بفكرة التنوع العرقي، وحطم الحواجز التي تفصل بين القبائل، والتي كانت فيما مضى سبباً في الانقسامات بين شعوب السهوب، كما اجتذب إلى خدمته أكثر الأفراد من الشعوب التي استعمرها موهبة ونفعاً. اتبع أحفاده مونجك وهولاكو وكوبيلاي بعد جيليْن، وعلى مدى أوسع، الإستراتيجية نفسها؛ واستطاعوا بذلك بناء أكبر إمبراطورية برية مستمرة على وجه الأرض لم يشهد التاريخ لها مثيلاً. فبعيداً عن تعطشهم للدماء، مهّدَ التسامح الديني والعرقي للمغول الطريق لتحقيق السيطرة على العالم والمحافظة عليها.

فتح السهوب

ربما كان الراهب جيوفاني دي بلانو كابريني أول أوروبي تطأ قدماه السهول المغولية. ففي سنة ١٢٤٦، وبعد قضاء سنة لعبور أوروبا على ظهر حصانه، حطت رحال الراهب العجوز في مدينة كاراكورم، عاصمة المغول الإمبراطورية. كان كابريني في واقع الأمر يعمل جاسوساً لحساب البابا إينوسينت الرابع الذي قام بتكليف الراهب بجمع أكبر كم من المعلومات حول المغول الذين أرهبوا أوروبا وفتحوا معظم بلدانها. وصف الراهب غير المكترث بما كان يجري في سهوب منطقة غوبي على الشكل التالي:

> لا توجد هنا بلدات أو مدن، بل أراض رملية قاحلة أينما أجلت بصرك؛ لا تشكل المناطق الخصبة سوى واحد في المئة من مساحة تلك الأراضي، والتي تروى بمياه الأنهار التي تعتبر نادرة الوجود ... تكاد هذه الأراضي تكون خالية من الأشجار بالرغم من أنها صالحة لرعي قطعان الماشية. حتى الإمبراطور والأمراء وجميع من حولهم يتدفؤون ويطبخون طعامهم على نار وقودها روث الخيل والأبقار. ... المناخ هنا غير مستقر البتة، إذ تهب عواصف شديدة في منتصف الصيف، كما ترعد السماء وتبرق مسببة مقتل أعداد كثيرة من الناس، حتى أن الثلج يهطل هنا بغزارة في الصيف، وتهب عواصف شديدة البرودة والقوة بحيث يجد الناس صعوبة كبيرة في امتطاء خيولهم. كان علينا أن نلقي بأنفسنا إلى الأرض عندما هبت واحدة من تلك العواصف التي حجب غبارها الكثيف عنا الرؤية. غالباً ما تتعرض هذه المنطقة إلى زخات شديدة من البَرَد، وإلى موجات مفاجئة من الحرارة التي لا تطاق، تعقبها موجات أخرى من البرودة الشديدة [٤].

كانت هذه الأحوال الجغرافية هي نفسها التي كان على الفتى تيموجين الذي كان يبلغ السادسة عشرة من عمره سنة ١١٧٨ مواجهتها. أما الأحوال الاجتماعية فقد كانت مختلفة كلياً وجزئياً. إذ لم تكن هناك حينئذ إمبراطورية مغولية أو مدينة أو أمة مغولية سنة ١١٧٨. كانت السهوب مأهولة بعشرات من القبائل والعشائر التي تصل بينها روابط قربى غامضة، منغمسة بحروب لا تنتهي فيما بينها. كانت أكثر القبائل قرباً من المغول التتار والخيطانيين والمنخوسيين من جهة الشرق، والقبائل التركية في آسيا الوسطى من جهة الغرب. إلا أنه بينما استطاع التتار وقبائل آسيا الوسطى تعزيز مواقعهم في كونفدراليات قوية، فقد انقسم المغول على أنفسهم وتحولوا إلى عصابات متنافسة مبعثرة يقود كل واحدة منها زعماء محليون أو خانات [٥].

كان المغول يحتلون أسفل الهرم بين شعوب تلك السهوب، وكان يُنظر إليهم كمجموعات من «جامعي القمامة يتنافسون مع الذئاب من أجل اصطياد الحيوانات الصغيرة». مع ذلك، ظهرت بعض العشائر من بين قبائل المغول كعشيرة التيخويديين على سبيل المثال، تزعم أن نسبها «أعلى مستوى» من العشائر الأخرى، وفرضت من

ثم سطوتها على العشائر الأخرى بالقوة. وضع تيموجين في مرحلة لاحقة من حياته حداً لهذا التسلسل الهرمي المبني على أساس رابط الدم بين سكان السهوب، حيث أبدل النظام المبني على أواصر القربى بنظام اجتماعي جديد مبني على رصيد المصداقية التي يتمتع بها الفرد، وعلى الولاء الشخصي. لكن تيموجين في سن السادسة عشرة كان نكرة، ولم تكن له أي قيمة؛ إضافة إلى ذلك، أراد التيخويديون معاقبته لقيامه بقتل أخيه غير الشقيق في منطقتهم[٦].

عند هذه النقطة بالتحديد تصبح السجلات التاريخية ضبابية. يبدو أن التيخويديين استطاعوا إلقاء القبض على تيموجين الذي عومل كعبد مدة من الزمن قبل أن ينجح في الهروب. عاد تيموجين بعد ذلك بمدة وجيزة إلى العشيرة التي تزوج منها حيث زفت إليه عروسه بورتي. وبالرغم من أن والد بورتي كان على علم بالمشكلات التي يواجهها تيموجين مع التيخويديين، إلا أنه احترم الوعد الذي قطعه على نفسه قبل سبع سنوات. تصور أحد كتاب السير الذاتية أن تيموجين كانت له في سن السادسة عشرة «جاذبية أو سحراً من نوع خاص» استطاع بواسطته التأثير فيمن حوله. على أي حال، قام والد بورتي بتقديم هدية زفاف لتيموجين، وكانت تلك الهدية معطفاً أسود من فراء حيوان السمور، وكان هذا النوع من أفخر أنواع الفراء في أنحاء السهوب كلها. وكانت تلك الهدية بمثابة الخطوة الأولى التي قادت تيموجين نحو السلطة والنفوذ.

بدلاً من أن يحتفظ بالمعطف لنفسه، قام تيموجين بتقديمه هدية لأحد كبار السن من ذوي النفوذ، يدعى تورغيل، ويعرف أيضاً باسم أونغ خان الذي كان زعيماً لكونفدرالية قبائلية قوية بقيادة قبيلة الكيريد. ونظراً إلى أن الكيريديين الذين ينتمون إلى أصول تركية، كانت لهم روابط تجارية مع آسيا الوسطى، فقد كانت ثقافتهم أرقى بكثير من الثقافة المغولية. كان الكيريديون أيضاً يعتنقون فرعاً من الديانة المسيحية النيسطورية التي كانت سائدة في منطقة السهوب، وكانوا في خيامهم يعبدون المسيح الشاماني الذي كان يشفي المرضى، والذي انتصر على

الموت. الأهم من ذلك كله بالنسبة إلى تيموجين، أن الكيريديين كانوا متحدين، وكثيري العدد، وكانوا يسيطرون على مساحات شاسعة من سهوب منطقة غوبي. كان تقديم تيموجين هدية زفافه إلى أونغ خان إشارة رمزية منه اعتبر فيها هذا الأخير بمثابة أب له، وكانت هذه اللفتة عبارة عن عقد تحالفٍ كان هو الأول في سلسلة من التحالفات الكثيرة والقوية التي أقامها لاحقاً [٧].

أثبت هذا التحالف نجاعته على امتداد الخمس والعشرين سنة اللاحقة حيث ارتقى تيموجين سلم السلطة والنفوذ في منطقة السهوب بأسرها. قبل ذلك، ساعد الكيريديون تيموجين في إنقاذ زوجته الجديدة التي اختطفها مغيرون من قبيلة الميركيد بعد فترة وجيزة من زواجهما. في غضون ذلك، استطاع تيموجين أن يؤسس لنفسه مجموعة أتباع قليلة العديد لكنها قوية النفوذ. بدأ تيموجين بمساعدة من رجال أونغ خان بالسيطرة على قبائل صغيرة مختلفة في منطقة السهوب بما في ذلك التيخويديين، وهي العشيرة التي نبذت تيموجين وعائلته التي كانت تتضور جوعاً عندما كان صبياً يافعاً. كان تيموجين يمارس نفس السياسة بعد كل انتصار يحرزه. فقد كان يقوم بقتل زعماء القبيلة المهزومة بمن فيهم معظم ذكورها من الأرستقراطيين، ثم يقوم بضم ما تبقى من القبيلة إلى أتباعه - ليس كعبيد بل كأعضاء متساوين.

استطاع تيموجين وأونغ خان أيضاً من خلال تحالفهما هزيمة التتار الذين كانوا يشكلون كونفيدرالية قبائلية أكثر ثراء بكثير من قبيلة الكيريديين. قيل إن تيموجين اعترته الدهشة جراء ما اكتشفه من ثراء التتار الفاحش - أسرّة من الفضة، وأغطية مرصعة باللآلئ، وثياب من الساتان الموشى بالذهب للبالغين والأطفال على حد سواء - الذي لم يرَ المغول له مثيلاً في حياتهم. قام تيموجين في معرض تحطيمه للحواجز بين قبائل السهوب بتشجيع الزواج بين أفراد تلك القبائل، حيث قام شخصياً بالزواج من شقيقتين من التتار. كما طلب إلى والدته أن تتبنى بشكل رمزي أطفالاً يتامى من القبائل المهزومة. وهكذا، فقد كان من بين إخوة تيموجين ميركيديون وتيخويديون وجوركينيون وتتار، إلخ [٨].

أصبح تيموجين الآن قائداً لجيش خليط عرقياً وقبائلياً لا يستهان به يتجاوز عدد أفراده ثمانين ألفاً من الجنود بالرغم من أنه كان ما يزال تحت إمرة أونغ خان. أمر تيموجين سنة ١٢٠٣ بإجراء إصلاحات كان لها أن تؤدي إلى حدوث تغيير جذري لمنطقة سهوب آسيا الوسطى. كانت شعوب تلك السهوب على امتداد أجيال تشدها أواصر قربى ذكورية. فكلما كان اثنان من الذكور تربط بينهما علاقة قرابة مباشرة، كان من المفترض أن يبديا ولاء أكبر لبعضهما بعضاً. أعاد تيموجين تنظيم الجيش المغولي في معرض محاولته إلغاء الانقسامات التقليدية ذات الأساس العشائري والعائلي، والتي أدت فيما مضى إلى تجزئة منطقة السهوب. قام بتقسيم محاربيه إلى فرق كل واحدة منها تتكون من عشرة محاربين ينتمون إلى أعراق مختلفة، وقد صدرت إليهم الأوامر بأن يعيشوا مع بعضهم بعضاً ويدافع الواحد منهم عن الآخر كما لو كان أخاً له بغض النظر عن أصولهم القبائلية. كان الأكبر من بينهم سناً يعين قائداً للفرقة، إلا إذا اتخذت المجموعة قراراً مخالفاً. كانت كل عشر فرق تشكل سرية، وكل عشر سرايا تشكل كتيبة، وكل عشر كتائب تشكل ما يسمى «التيومين» وهو عبارة عن جيش قوامه عشرة آلاف جندي يختار قائدَه تيموجين شخصياً. هذا النظام العشري المتعدد قبائلياً وعرقياً لم يشمل الجيش وحسب، بل المجتمع المغولي بأسره [٩].

وبينما اعتاد زعماء السهوب التقليديين إحاطة أنفسهم بأقاربهم المباشرين، اختار تيموجين مساعديه ومستشاريه على أساس الكفاءة والموهبة والموالاة التي كان عليهم إثباتها. فقد كان أقرب الموثوقين وأعلى الجنرالات رتبة - مثل بوركو الذي كان قائداً لأحد الجيوش في ألطاي، وسوبودي الذي فتح في نهاية المطاف كلاً من بولندا وهنغاريا - لا يمتون بصلة قرابة مطلقاً لتيموجين. على العكس من ذلك، لم تكن لدى تيموجين أي مشكلة في إبعاد من يمتون إليه برباط «الدم» عن دائرته الضيقة إذا لم تكن له ثقة بهم. في الواقع، لم يعين تيموجين أياً من أعمامه أو أخواله أو إخوته أو أبناء إخوته في أي منصب عسكري قيادي، ضارباً عرض الحائط بالتقاليد

المغولية. ونظراً لأن تيموجين شدد على أهمية الكفاءة بدلاً من القرابة، فقد أضحى بعض رعاة الجمال ورعاة البقر جنرالات في جيوشه. وهكذا فقد ارتقى العديد من التتار سلم الشهرة في الإمبراطورية المغولية لدرجة أن عبارتيْ «التتار» و«المغول» أضحتا متلازمتين في أغلب الأحيان.

كانت المعايير التي اتبعها تيموجين في اختيار جنرالاته تعكس سداداً في الرأي وذكاء شديديْن. فهو لم يثمّن عالياً الشجاعة وحسب، بل الدهاء والجَلَدَ أيضاً. فلم يكن يسمح للشجعان الذين تعوزهم الحكمة بقيادة الآخرين، بل كان يطلب إليهم بدلاً من ذلك مهمة حماية المعدات العسكرية، وهي مهمة لا يستهان بها. قيل إن تيموجين رفض ترقية أحد المحاربين معللاً ذلك بالحجة التالية:

> ليس هناك من هو أشجع من يسوتاي؛ أو أكثر موهبة منه. ولكن، نظراً إلى أن مسير المسافات الطويلة لا ينهكه، كونه لا يشعر بالجوع أو بالظمأ، فإنه يعتقد أن ضباطه وجنوده لا يعانون من ذلك. وبالتالي، فهو لا يصلح أن يكون في مراكز القيادة العليا. يجب على الجنرال القائد أن يفكر بالجوع والظمأ كي يكون بإمكانه تفهم معاناة أولئك الذين يعملون بإمرته، ويجب عليه أن يحافظ على قوة رجاله وخيولهم [١٠].

سنة ١٢٠٣، قام تيموجين بخطوة فيها الكثير من الجرأة ذلك أنه طلب يد ابنة أونغ خان للزواج من ابنه البكر جوشي. كان أونغ خان وتيموجين حليفين منذ أكثر من عقدين من الزمن. قام تيموجين تحت إمرة أونغ خان باستعمار معظم أراضي السهوب باستثناء كونفيدرالية النيمانيين القوية في الغرب. مع ذلك، وبالرغم من الشهرة التي كان تيموجين يتمتع بها كأعظم قائد عسكري في منطقة السهوب كلها، كان أونغ خان يرى أن تيموجين وعائلته ليست بالمستوى الاجتماعي الذي يؤهلها كي تصاهر عائلة كيريدية أرستقراطية. بالإضافة إلى ذلك، كان أونغ خان واقعاً تحت سيطرة خصوم تيموجين ومنافسيه الذين كانوا يغارون من تأثير هذا الأخير على الحاكم الكيريدي العجوز. على أي حال، كانت ردة فعل أونغ خان على هذا الطلب، كما أوردها ماركو باولو بعد مرور قرن على الحادثة على الشكل الآتي: «ألا يخجل من

نفسه وهو يطلب يد ابنتي للزواج؟ ألا يعلم أنه في نهاية المطاف خادمي وعبدي؟ عد إليه وأبلغه أنني أفضل أن ألقي بابنتي إلى النار على أن أوافق على تزويجها لابنه.»

لكنه أرسل إلى تيموجين رسالة أخرى بعد فترة وجيزة يبلغه فيها أنه غير رأيه، وأنه وافق على طلب الزواج ذاك، في المحصلة. علم تيموجين وهو في الطريق إلى حيث سيقام حفل الزفاف أن ذلك الحفل ما هو إلا فخ نصب له، وأن أونغ خان أمر جيشه بالإغارة على معسكر تيموجين وذبحه في خيمته. ونظراً لأن جيش أونغ خان كان يفوق بشكل كبير عدد المرافقين لتيموجين، أمر هذا الأخير محاربيه بالتفرق بينما هرب هو وأقرب مساعديه طلباً للنجاة حيث وصلوا في نهاية المطاف إلى سواحل بحيرة بالجونا. ما حدث بعد ذلك تحول إلى ما يشبه الأسطورة في التاريخ المغولي.

ظهر في المكان حصان بري من غامض علم الله. رأى الرجال الذين كان الجوع قد أخذ منهم كل مأخذ، في ذلك علامة من علامات العناية الإلهية. قاموا بذبح الحيوان وسلخ جلده. ودرجاً على الأساليب القديمة في الطهي،

> قاموا بتقطيع اللحم وصنعوا من جلد الحصان كيساً كبيراً وضعوا فيه اللحم وبعض الماء. جمعوا بعد ذلك كمية من الروث الجاف وأوقدوا منه ناراً؛ إلا أنه لم يكن بمقدورهم وضع الكيس مباشرة على النار. بدلاً من ذلك، قاموا بتسخين بعض الحجارة الكبيرة في النار إلى أن بدأت تتوهج بفعل الحرارة، ثم ألقوا تلك الحجارة المتوهجة في خليط اللحم والماء... بعد بضع ساعات، بدأ هؤلاء الرجال الجياع بالتهام لحم الحصان المسلوق.

أقسم هؤلاء الرفاق بعد ذلك يمين الولاء الأبدي لبعضهم بعضاً، كما أقسموا على مبايعة تيموجين زعيماً لهم. ما يثير الدهشة أن هؤلاء الرجال الذين كان لا يتجاوز تعدادهم العشرين كانوا ينحدرون من تسع من القبائل المختلفة، وكان من بينهم بوذيون ومسيحيون ومسلمون بالإضافة إلى بعض أتباع معتقد حيوية المادة مثل تيموجين نفسه الذي كان يعبد السماء الزرقاء الأبدية والإله الجبل المسمى

"برخان خلدون". أصبح هذا القسم الأخوي الذي أقسمه رجال متعددو الأعراق والمعتقدات رمزاً لشكل المجتمع الجديد الذي سيقيمه في وقت قريب تيموجين الذي سيصبح اسمه جنكيز خان [١١].

ولكن كان على تيموجين أولاً أن يهزم أونغ خان. بث تيموجين رسالة من موقعه بالقرب من بحيرة بالجونا إلى جميع مناطق السهوب تتضمن خطته في شن هجوم معاكس. خلال أيام قليلة، أعاد جيشه تنظيم نفسه في وحدات من عشر جنود وأخرى من مئات منهم في جميع أنحاء السهوب. امتطت مجموعة من المحاربين جيادها وبدأت بتحضير مجموعات من الخيول المليئة بالحيوية في مناطق تجمع حساسة. بعدها، قام تيموجين وجيشه الذي أعيد تنظيمه بالتوجه نحو المناطق التي يسيطر عليها أونغ خان.

في النهاية، كان تيموجين هو من نصب كميناً للقادة الكيريديين. أغار تيموجين ورجاله على الكيريديين الذين كانوا يحتفلون - وقد أمسك الثمل بتلابيب عقولهم - بانتصارهم عليه. بعد ثلاثة أيام من المعارك الطاحنة، تحقق لتيموجين النصر. هرب أونغ خان وحاشيته في الوقت الذي انضمت غالبية قوات أونغ خان إلى جيش تيموجين. قبل تيموجين تماشياً مع سياسته المعهودة، انضمام أتباع أونغ خان إلى معسكره من جديد طالما أنهم لم يقوموا بأي أعمال خيانة ضد قائدهم السابق. بعد قيامه بضم القوات الكيريدية إلى جيشه، تابع تيموجين فتوحاته حيث قام بإخضاع النيمانيين الذين كانوا يشكلون آخر كونفيدرالية عظيمة في السهوب لم تكن قد خضعت لسيطرته بعد. بحلول سنة ١٢٠٤، استطاع تيموجين هزيمة جميع القبائل التي تقطن في تلك السهوب؛ وأصبحت منطقة نفوذه تمتد من صحراء غوبي إلى منشوريا، إلى سهول المنطقة القطبية الجرداء. لم تكن أغلب مساحات تلك المنطقة مأهولة بشكل كثيف سكانياً؛ إذ كان يوجد فيها حوالي عشرين مليون رأس من الماشية تقريباً، بينما لم يكن يقطن فيها أكثر من مليون نسمة.

قام تيموجين سنة ١٢٠٦، في محاولة منه لإضفاء صفة الشرعية على حكمه

بالدعوة إلى عقد اجتماع ضخم لممثلين من كافة أنحاء السهوب. أثناء احتفال في الهواء الطلق استمر عدة أيام تناوبت فيها المهابة الدينية مع الاحتفالات الصاخبة والمباريات الرياضية وعزف الموسيقى، شاهد مئات الآلاف من الحاضرين تيموجين يُسبغُ عليه لقب جنكيز خان، حاكم جميع القبائل - كانت التسمية في الأصل شينكيز خان، والكلمة مشتقة من كلمة "شين" التي تعني باللغة المغولية «القوي، والثابت، والراسخ، وغير الهياب». كانت التسمية التي اختارها لإمبراطوريته الجديدة هي "الأمة المغولية العظمى"؛ إلا أنه سجل موقفاً لافتاً عندما أطلق على أتباعه تسمية "شعب الجدران المصنوعة من اللباد" وكان بذلك يشير إلى المادة التي كان جميع البدو الرحل يصنعون منها خيامهم. لقد استطاع جنكيز خان أن يصنع من القبائل والعشائر العديدة المتناحرة في تلك السهوب "أمة" [١٢].

بعد أن استتبت له مقاليد الحكم، قام جنكيز خان باتخاذ عدد من الخطوات الراديكالية للمحافظة على وحدة إمبراطوريته الجديدة. أصدر أمراً منع بموجبه سرقة الحيوانات، واختطاف النساء، وكان هذان الأمران مصدرين موغلين في القدم للنزاعات في منطقة السهوب. وكانت عقوبات مخالفة هذا الأمر شديدة: أي شخص يقوم بسرقة حصان أو عجل على سبيل المثال، كان يعاقب «بشطره إلى نصفين». كما كان يحكم بالموت على الزانيات والجواسيس والسحرة «والأشخاص الذين يرتكبون أفعالاً شنيعة». الأهم من كل ما تقدم أن جنكيز خان أصدر أمراً منح بموجبه حرية التعبد المطلقة للجميع من بوذيين ومسيحيين ومسلمين وشامانيين. كما أعفي من الضرائب والخدمة العامة جميع القادة الدينيين من الرهبان و»مؤذني الجوامع» وكل «الأشخاص الذين كرسوا أنفسهم للممارسات الدينية». استمر هو نفسه على نفس المعتقد الذي كان يؤمن به، ألا وهو الاعتقاد بحيوية المادة، حيث كان يتعبد القوى الروحية في الطبيعة [١٣].

استمر جنكيز خان في الوقت نفسه في ضم مختلف القبائل والأعراق إلى الأمة المغولية العظمى مثل الكوريين وقبائل الغابات في سيبيريا. لقد استطاع استيعاب

محاربي هؤلاء الأقوام والقبائل ضمن جيشه في معرض محاولته السيطرة على الانقسامات العرقية وذلك من خلال ترتيب زواجات بين أبنائه وأبناء زعماء القبائل التي قام بإخضاعها لحكمه. كما قام بتجنيد أكثر رجال تلك القبائل قوة، مضيفاً بذلك إلى المغول مواهب ومهارات لم يعرفها هؤلاء من قبل قط. هكذا بدأ المغول اكتساب مهارة الكتابة.

يروى أنه بعد أن أخضع جنكيز خان النياميين إلى حكمه سنة ١٢٠٤، أصيب بالدهشة عندما اكتشف أن خان النياميين كان لديه ناسخاً من أصل إيغوري استعمله لتوثيق جميع قراراته الرسمية. كان الشعب الإيغوري الذي يمت بصلة قربى مباشرة مع المغول قد تعلم التوثيق من خلال كتابة المخطوطات عن طريق البعثات التبشيرية المسيحية. وكان المخطوط مكتوباً بالأبجدية السريانية، مستخدماً الخط الأفقي وذلك من اليمين إلى الشمال في البداية. قام جنكيز خان بضم الناسخ الإيغوري الذي كان يعمل لدى الخان النياميني إلى حاشيته. الأهم من ذلك، أصدر إليه أمراً بإنشاء نظام كتابي جديد يوائم المخطوط الإيغوري مع اللغة المغولية. كان المخطوط الإيغوري-المغولي نسخة تكاد تكون مطابقة للمخطوط الإيغوري القديم، باستثناء أنه كتب بشكل عمودي من الأعلى باتجاه الأسفل على نمط الكتابة الصينية. استمر جنكيز خان على مدى السنين اللاحقة باستخدام ناسخين إيغوريين والاعتماد عليهم في عملية تسهيل التواصل بين مختلف أجزاء الإمبراطورية [١٤].

بحلول سنة ١٢٠٦، كان الشخص الذي بدأ حياته باسم تيموجين - الفار من وجه العدالة، والذي قيل إنه كان يخشى الكلاب ويبكي بسهولة عندما كان صبياً - قد تحول في سن الرابعة والأربعين إلى حاكم على كل منطقة السهوب. إلا أن جنكيز خان كان ما يزال إمبراطوراً على البدو الرحل. وكانت ما تزال أمامه مهمة الاستيلاء على العالم المتحضر.

الفتوحات باتجاه الشرق

كانت الصين في بداية القرن الثالث عشر منقسمة على نفسها، وكانت على شفير الهاوية «مثل امرأة عجوز، غارقة في التأمل وغير مبالية، ترتدي الكثير من الألبسة الأنيقة، ويحيط بها العديد من الأطفال». لكن الصين مع ذلك، كانت بالمقارنة مع السهوب، ما تزال تبدو في غاية الروعة، وغنية بالمعابد وبحيرات المتعة والتنينات الفضية والعيون الفيروزية وتماثيل الفتيات المغناجة، وقطع الشطرنج العاجية ومزهريات ذات آذان تشبه طائر الفينيق. وبينما كان رعايا جنكيز خان من الصيادين والرعاة، كان من بين المواطنين الصينيين موظفون كبار ومفكرون وشعراء وخطاطون وبناة جسور ومتسولون وصناع البرونز وأرستقراطيون وأمراء وبالطبع، الإمبراطور [١٥].

في تلك الأثناء، كان في الصين أكثر من إمبراطور واحد. كانت مملكة الجورشيين الذين ينتمون إلى أصول بربرية، والذين كانوا في الأصل من رجال الغابات في منشوريا، تسيطر على الصين الشمالية. كان الملك الجورشي يحكم من مقره في العاصمة زونغدو التي اسمها الآن بيجين، أكثر من خمسين مليون نسمة. أما الصين الجنوبية، فقد كانت تسيطر عليها سلالة سونغ الحاكمة والتي كانت أكبر، وأكثر قوة ونفوذاً. اتخذت هذه السلالة من مدينة هانغزو مقراً لها حيث خضع أكثر من ستين مليون نسمة لحكم ابن السماء الصيني. وكان تحت تصرف كلّ من الإمبراطورين السونغي والجورشي جيوش تفوق بكثير أعداد جيش جنكيز خان، ناهيك عن الخنادق المائية والأسوار التي تحمي المدن الكبرى بالإضافة إلى التحصينات الهائلة الأخرى والأسلحة المتطورة. لم يعرْ أي من هذين الحاكمين كبير اهتمام للبدو الرحل المغوليين - فقد كانا مشغولين جداً بمحاربة بعضهما بعضاً.

بحلول سنة ١٢١٠، أرسل الإمبراطور الجورشي الذي لم يكن قد مضى على اعتلائه العرش سوى مدة قصيرة وفداً إلى منطقة السهوب المغولية. طالب أعضاء

الوفد جنكيز خان بدفع الجزية وإعلان الولاء للإمبراطور؛ نظراً إلى أن جنكيز خان كان ما يزال بحسب القائمة الرسمية «القائد الذي يحارب المتمردين»، وأحد رعايا الإمبراطور الجورشي. ولكن بدلاً من أن يسجد جنكيز خان أمام زعيم الوفد، قيل إنه بصق على الأرض ونعت الحاكم الجورشي «بالأبله»، امتطى بعدها فرسه وقاده إلى جهة غير معلومة. وكان هذا التحدي الذي أظهره القائد المغولي بمثابة إعلان حرب.

يشكك المؤرخون في مسألة رغبة جنكيز خان في القيام بغزو المملكة الجورشية وذلك بهدف السيطرة على مصادر التموين والبضائع التجارية التي كانت تمر عبر مناطقهم. ما من شك في أن جنكيز خان ازداد ثقة بنفسه بعد قيامه بإخضاع التنغوتيين الذين وإن كانوا أقل عدداً وعدة من جيرانهم الجورشيين، فقد كانت لديهم تحصيناتهم القوية من الأسوار. كان جنكيز خان قد أخضع التنغوتيين بالرغم من الكارثة التي تسبب فيها لنفسه. ففي أثناء محاولتهم إغراق عاصمة التنغوتيين، قام المغول بتحويل قسم من النهر الأصفر؛ ولكن نظراً إلى أنهم لم يكونوا يتمتعون بأي مهارات هندسية، قاموا بإغراق معسكرهم نفسه. مع ذلك، استطاع جنكيز خان أن يعقد تحالفاً مع الملك التنغوتي الذي قام بتزويده بالجمال التنغوتية الشهيرة (كاحتياط للخيالة المغول)، كما زوجه من ابنته [١٦].

في غضون ذلك، وبالرغم من أن الإمبراطور الجورشي قد تملكه الغضب من وقاحة جنكيز خان، فلم يلق على ما يبدو بالاً لفكرة قيام المغول بتشكيل أي تهديد حقيقي لإمبراطوريته. نسب إليه تباهيه بالقول «إن إمبراطوريتنا كالبحر، أما إمبراطوريتك فليست سوى حفنة من الرمال. كيف لنا أن نهابكم؟» كانت ثقته بقدراته مفهومة؛ فالأسوار الهائلة التي تحيط بمدن الجورشيين عصية على الاقتحام من قبل أي جهة غازية، خصوصاً وأن المغول لم تكن لديهم سوى أسلحة بدائية. بالإضافة إلى ما تقدم، كان الجورشيون يفوقون المغول عددياً بنسبة تفوق اثنين إلى واحد.

لكن جنكيز خان كان قائداً فذاً بكل المعايير. فقد كان الجيش المغولي يختلف بشكل صارخ عن الجيوش التقليدية؛ ذلك أن جميع أفراده كانوا من الخيالة. وكان عدم وجود الجنود المشاة بين أفراد الجيش المغولي قد وفر له ليس فقط حرية وسرعة حركة أكبر، بل قدرة على توجيه ضربات مفاجئة وحاسمة. كان أفراد جيش جنكيز خان غلاظاً شداداً وفي غاية الانضباط، كما كانوا يتمتعون بروح المبادرة. زعم ماركو باولو أن أولئك الجنود كان بإمكانهم الركوب مدة عشرة أيام من دون توقف كي يوقدوا ناراً، يقتاتون في أثنائها على اللحم المقدد والحليب المجفف الممزوج ببعض الماء. وعندما لم يكن الماء متوافراً كي يرووا ظمأهم، «كانوا يفتحون وريداً من جسم الحصان ويلعقون كمية قليلة من دمه يقومون بعدها بإغلاق ذلك الوريد.» كان المحاربون يحصلون أحياناً على اللحم الطازج إما من خلال ذبحهم لبعض الماشية الاحتياطية التي تكون برفقتهم في العادة، أو من خلال الصيد أو السرقة [١٧].

استطاع جنكيز خان في نهاية المطاف هزيمة الجورشيين مستخدماً الحيلة والحرب النفسية، وربما أهم من ذلك، باستغلاله السكان الجورشيين أنفسهم وتقاناتهم ضد الجيش الجورشي. كان المغول في العادة، وقبل استيلائهم على المدن الكبيرة، يقومون بحرق القرى المحيطة بتلك المدن أولاً. كان القرويون المذعورون يفرون باتجاه تلك المدن طلباً للحماية، وكانوا بذلك يسدون الطرقات ويقطعون قوافل الإمدادات. وكان تدفق ما يربو على مليون من هؤلاء اللاجئين باتجاه تلك المدن يؤدي إلى اكتظاظ لا يطاق، وكان ذلك يتسبب في نشر الفوضى والأوبئة؛ وكانت مؤن الطعام تنفد بسرعة. وعندما كانت الحال تصل إلى حد المجاعة، تبدأ عمليات النهب والسلب والعصيان والاقتيات على اللحم البشري. في إحدى المرات، قام الجنود الجورشيون بذبح ثلاثين ألفاً من القرويين من بني جلدتهم. في غضون ذلك، كان المغول خارج أسوار المدن تلك، يرغمون آلافاً من القرويين للعمل في خدمتهم بإشراف الجنود المغول، وكانوا يحملون لهم الماء ويحفرون الخنادق ويجرون المنجنيقات الخشبية الهائلة الحجم وراجمات الحجارة. كان المغول يظهرون عدم

اكتراث مطلق لحياة أسراهم الذين كانوا يستخدمونهم كدروع بشرية. وعندما كانت هذه الدروع البشرية تموت، كان المغول يستخدمون تلك الجثث لردم خنادق العدو.

كان جنكيز خان -في الوقت نفسه- شغوفاً بتجنيد أشخاص مهرة، ومن ذوي الخبرات التكنولوجية التي كانت تعوز المغول أنفسهم. كان المغول بعد كل معركة، يتفحصون أسراهم بدقة وعناية، ويفيدون من أي مهندس يكتشفونه بين الأسرى. وكانوا أيضاً يقدمون مكافآت مجزية لأي مهندس يترك جماعته وينضم إليهم باختياره. استطاع جنكيز خان من خلال هذه الوسائل استقطاب أعداد كبيرة من المهندسين الصينيين الذين كانت لديهم المعرفة والخبرة الضروريتان لتصميم وبناء آلات قوية تستخدم في محاصرة تحصينات العدو - من أبراج متحركة، وراجمات النبال، ومنجنيقات قاذفة للهب، وسهام نارية، وراجمات الصخور ومتفجرات - واقتحام أسوار مدن كان يعتقد أنها عصية على الأعداء. أصبحت هذه الأسلحة جزءاً من ترسانة الجيش المغولي، وقد تم ضم المهندسين الصينيين الذين قاموا بتصميمها إلى صفوف الجيش المغولي. مع كل نصر جديد، كانت آلة الحرب المغولية تصبح أكثر تطوراً وأكثر قدرة على الإبادة (١٨).

مع ذلك، لم يكن فتح مملكة الجورشيين المحصنة تحصيناً شديداً بالمهمة السهلة. ومما زاد الأمر سوءاً، أن أيام الصيف الحارة والرطبة في الصين الشمالية كانت لا تطاق بالنسبة للمغول الذين غالباً ما كانوا يقعون فريسة للمرض في المناطق المدنية المكتظة سكانياً. واحتاج رجال جنكيز خان إلى ثلاث سنين شنوا خلالها العديد من الحملات قبل أن يتمكنوا في النهاية من تطويق مدينة زونغدو، العاصمة الإمبراطورية سنة ١٢١٤. ولكن بدلاً من قتال المغول، اختار الإمبراطور الجورشي المحاصر الموافقة على ترتيب اقترحه جنكيز خان. فمقابل انسحاب الجيش المغولي، قام الجورشيون بالاعتراف بسلطة جنكيز خان والتسليم له بالحكم. قدم الإمبراطور الجورشي «هدايا» لجنكيز خان بهدف تهدئة الخواطر؛ وكانت هذه الهدايا عبارة عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والحرير، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف رأس من

الخيل، وخمسمئة من الصبيان وخمسمئة من الفتيات على شكل عبيد، كما زوجوه من أميرة جورشية [١٩].

احترم جنكيز خان بنود هذه الصفقة، وقفل عائداً مع رجاله إلى السهوب المغولية. وكما كان الأمر بالنسبة إلى ممالك الإيغوريين والتنغوتيين والخيطانيين، فقد سمح جنكيز خان للجورشيين بممارسة قدر كبير من الحكم الذاتي طالما أنهم استمروا في الاعتراف بتبعيتهم له، ودفع الجزية. لم يكن لدى المغول في حقيقة الأمر الرغبة أو الإمكانية في الحكم المباشر لهذه الحضارات الموغلة في القدم، والتي قاموا بفتحها. ولكن بعد انقضاء وقت قصير على انسحاب الجيش المغولي، قام الإمبراطور الجورشي بالفرار جنوباً وأسس لنفسه بلاطاً جديداً في مدينة كيفينغ. اعتبر جنكيز خان هذا العمل نقضاً للاتفاق المبرم بينهما وشكلاً من أشكال الخيانة؛ فعاد أدراجه فوراً إلى الصين. وفي هذه المرة، أعمل بمدينة زونغدو فتكاً وتخريباً، ثم سواها بالأرض بعد أن حرقها ونهبها من دون رحمة. وبحسب أحد شهود العيان على ما جرى، «كانت عظام القتلى مكدسة فوق بعضها بعضاً لدرجة أنها شكلت جبلاً من العظام البشرية، وكانت الأرض مثخنة بأكداس من الشحوم البشرية، وأدت الجثث المتحللة إلى انتشار الأوبئة.» وبحسب شاهد عيان آخر، فقد «قامت ستون ألفاً من النساء الصينيات برمي أنفسهن من على أسوار المدينة ... كي لا يقعن فرائس في أيدي الجنود المغول» [٢٠].

اكتملت عملية فتح الصين الشمالية سنة ١٢١٥، والتي ثبت أنها مكسب كبير للمغول. عاد رجال جنكيز خان إلى السهوب وقد ملؤوا عرباتهم البدائية ببعض أعظم القطع الفنية الموجودة في ذلك العصر: ثياب من الحرير موشاة بعيدان الصليب الذهبية، وأحجار كريمة على هيئة ثيران، وتماثيل لبوذا، ومزهريات فخارية خضراء صينية تقليدية، وأثاث مطلي بالورنيش، وسجاد، ورقع للألعاب، ودمى متحركة مطلية يدوياً، وأغطية للرأس مطرزة بالمرجان والزمرد، واللآلئ واللازورد. أمر جنكيز خان ببناء عدد من الأبنية في السهوب المغولية وذلك لأول

مرة في تاريخ المغول من أجل تخزين هذه البضائع الثمينة. وبالرغم من أن ذلك المجمع أطلقت عليه تسمية القصر الأصفر، إلا أنه استخدم في واقع الأمر كمستودع؛ وذلك لأن جنكيز خان وأتباعه استمروا في العيش داخل خيامهم المتنقلة، والمصنوعة من اللباد.

لكن الجائزة الحقيقية التي حصل عليها جنكيز خان كانت تكمن في رأس المال البشري الذي أضحى الآن في حوزته. فبالإضافة إلى المهندسين، اصطحب جنكيز خان معه من الصين الشمالية فيالق كاملة من الجنود والضباط، كان العديد منهم قد فروا من الخدمة والتحقوا بجيش جنكيز خان؛ وكان من بين من اصطحبهم أيضاً لاعبو الخفة ولاعبو الجمباز، وبهلوانيون، وموسيقيون، وراقصون، بالإضافة إلى حرفيين مهرة بمن فيهم الخياطون، والصيادلة، والمترجمون، وصانعو الأدوات الفخارية، والصاغة، وعلماء الفلك، والرسامون، والحدادون، والأطباء. بالرغم من أميته، وربما بسببها، قام جنكيز خان باستقطاب علماء من كل الأعراق مثل العلاّمة يلو تشوسي الذي ينتمي إلى العائلة المالكة الخيطانية، والضليع في العديد من اللغات، والذي كان يقدم باستمرار المشورة لجنكيز خان، وبقي موالياً له طيلة حياته.

بقي التسامح الديني علامة فارقة في حكم جنكيز خان. اتضحت فيما بعد نجاعة هذا الأسلوب الذي كان أداة قوية أسهمت في عملية بناء الإمبراطورية. فبعد انقضاء مدة قصيرة على عودة جنكيز خان إلى السهوب المغولية من الصين على سبيل المثال، وصل مبعوثون مسلمون من مدينة بلسغون في وسط آسيا، فيما يعرف اليوم بقيرغزستان. شرح الوفد لجنكيز خان معاناة المسلمين من الاضطهاد الديني الذي يلاقونه على يدي حاكمهم المسيحي غوشلوغ خان الذي منع المسلمين من رفع الأذان للصلاة، والتعبد على الطريقة الإسلامية. طلب الوفد الحماية من الخان المغولي العظيم، وكان من دواعي سروره تلبية طلبهم ذاك. قام إثر ذلك الجيش المغولي بغزو بلسغون، وتم قطع رأس غوشلوغ خان وضم أراضيه إلى الإمبراطورية المغولية. بعد ذلك بمدة وجيزة، قام جنكيز خان بالإعلان عن حرية ممارسة التعبد

في كافة أنحاء أراضي غوشلوغ. وهكذا، فقد أصبح الرجل الذي أطلقت عليه أوروبا فيما بعد وصف "سوط الله"، يعرف في الشرق من منطقة التيبيت إلى بحر الأورال باسم المدافع عن الأديان - حتى إن المؤرخ الفارسي جيوفيني من العصور الوسطى وصفه بأنه « تجسيد لرحمة الله بعباده، ونعمة أسبغها المولى على البشرية»[٢١].

الفتوحات باتجاه الغرب

ربما أتخمت الحرب جنكيز خان الذي بات يسيطر الآن بشكل كامل على طريق الحرير بين المنطقة العربية والصين. ربما استطاع جمع ما يكفي من الغلال عن طريق الحرب كما يشير معظم المؤرخين، وأراد بعد ذلك أن يقضي ما تبقى له من العمر بهدوء في تلك السهوب. بغض النظر عن الأسباب التي حدت به للقيام بذلك، فقد اقترح جنكيز خان سنة ١٢١٩ على السلطان المسلم محمد الثاني، سلطان خوارزم، إقامة علاقات تجارية سلمية بينهما.

كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه في القرن الثالث عشر. فقد كان السلاجقة الأتراك يسيطرون على آسيا الوسطى، وكان هناك خليفة عربي في بغداد. لكن سلطان خوارزم الذي كان من أصول تركية أيضاً، كان يبسط حكمه على مناطق شاسعة شكلت إمبراطورية عظمى كانت تمتد من الهند إلى نهر الفولغا، وتضم في جنباتها مدناً رائعة مثل نيسابور وبخارى وسمرقند. كانت أراضي المسلمين أكثر بقاع الأرض غنى، وكانت حضارتهم في كثير من جوانبها، الأكثر تقدماً ورقياً. لم يكن يوجد مجتمع على وجه الأرض يتمتع بتلك الدرجة العالية من التعلم بين أفراد الشعب، أو يفوق ذلك المجتمع في مجالات مثل الرياضيات واللغويات والهندسة الزراعية وعلم الفلك والأدب والتقاليد القانونية. وهكذا فلم يكن من المفاجئ معرفة أنه بالرغم من أن سلطان خوارزم قبل ظاهرياً العرض السلمي المقدم من جنكيز خان، فقد تم بعد سنة على هذا الاتفاق ذبح ٤٥٠ رجلاً كانوا يشكلون وفداً تجارياً مغولياً في الأراضي الخوارزمية. عندما وصلت أنباء تلك المذبحة إلى جنكيز خان،

قام بإرسال وفد إلى السلطان يطلب فيه معاقبة المسؤولين عن تلك المذبحة. رد السلطان على هذا الطلب بقتل رئيس الوفد، وإعادة الآخرين إلى جنكيز خان مشوهي الوجوه. وكان ذلك خطأ مميتاً لم يكلف السلطان إمبراطوريته وحياته وحسب، بل «أدى إلى خراب العالم»[٢٢].

لم يخطر ببال سلطان خوارزم، شأنه في ذلك شأن الإمبراطور الجورشي، أن القوات المغولية يمكن أن تشكل تهديداً حقيقياً له. فقد كانت المدن الخوارزمية الكبرى محصنة تحصيناً قوياً؛ وكانت السهوب المغولية تبعد عن حدود خوارزم مسافة ألفي ميل جلها من الجبال الوعرة والأراضي الصحراوية لا يمكن لأي جيش أن يعبرها. انتظر جنكيز خان، خلافاً للمنطق، حلول فصل الشتاء كي يقوم بعملية عبور تلك المنطقة. كان يعرف أنه سيواجه رياحاً شديدة البرودة تنخر العظام، وأن جبالاً من الثلج وكتلاً من الجليد سوف تعيق من تقدمه. لكن المغول كانوا يفضلون البرد؛ ذلك لأن عبور الصحراء القاحلة في الصيف سوف يكون أكثر خطورة بكثير على الجيش المغولي. ويبقى عبور جنكيز خان إلى آسيا الوسطى الذي تسبب في إزهاق أرواح عشرات الآلاف من المحاربين إلى يومنا هذا، واحداً من أعظم الأعمال العسكرية في التاريخ.

ولكن بالرغم من كل الشجاعة والجَلَد اللذين تميز بهما رجال جنكيز خان، فإنه لم يكن باستطاعتهم اقتحام القلاع الصخرية الخوارزمية لولا آلات الحصار الضخمة التي صممها المهندسون الصينيون وبنوها عملياً في ميدان المعركة. على العكس من الجيوش التقليدية، كان الفرسان المغول يسافرون من دون تجهيزات ثقيلة، كان من شأنها أن تبطئ حركتهم. بدلاً من ذلك، كانوا يصطحبون معهم مهندسين أجانب كانوا يقومون بكل بساطة، ببناء أي معدات هجومية يحتاجونها مستخدمين في ذلك كل الوسائل والمصادر المتوافرة. وهكذا، وبعد إتمام عملية عبور الصحراء بنجاح، قام رجال جنكيز خان بقطع الأشجار التي صادفوها في طريقهم، من جذوعها قام المهندسون الصينيون ببناء سلالم متحركة، وقاذفات

نبال عملاقة كانت تُجر على دواليب، ومنجنيقات تستخدم فيها الحبال (وهي عبارة عن منجنيقات ذات ذراع واحد) وتقذف الحجارة والسوائل الملتهبة، بالإضافة إلى أسلحة متطورة تستخدم في الحروب التي تبدأ باستخدام الحصار، والتي لم يكن من المتوقع أن تكون بحوزة محاربين «بدائيين»[٢٣].

كانت الدفاعات الخوارزمية الرئيسة تتركز في المدن الكبرى في الواحات مثل بخارى وسمرقند بالإضافة إلى سلسلة من المعاقل الأقل حجماً. بعيداً إلى جهة الشرق، استطاعوا إحكام قبضتهم على مدن فارسية هي نيسابور وتبريز وقزوين وهمدان وأردبيل. انهارت دفاعات هذه المدن الواحدة إثر الأخرى أمام هجمات المغول. كانت المدينة الأولى التي تم اقتحامها وتخريبها بشكل منظم، هي بخارى بمساجدها المهيبة وجامعاتها وما كان يعتقد «أنه الجدار الذي يلفها اثنتي عشرة مرة.» أما المدينة اللاحقة التي سقطت فكانت سمرقند المليئة بحدائق البهجة، والتي كان يحميها سور له «اثنتا عشرة بوابة حديدية وتتخلله مجموعة من الأبراج» بالإضافة إلى «عشرين من الفيلة المدججة بالسلاح ومئة وعشرة آلاف من المحاربين الأتراك والفرس.» وعندما ظهر المغول المدججون بآلاتهم الحربية النارية المهولة، بادر سكان سمرقند وحاميتها إلى الاستسلام؛ ذلك أن الذعر انتابهم من تقارير واردة تتحدث عن وحشية المغول اللا إنسانية المتمثلة في الاغتصاب والتعذيب وتقطيع الأوصال والمذابح الجماعية.

ليس هناك شك في أن المغول قتلوا أعداداً هائلة من الناس وتسببوا في دمار لم يعرف له التاريخ مثيلاً. فبعد مقتل صهر جنكيز خان في معركة نيسابور، قيل إن جميع سكان المدينة قد تمت إبادتهم على إثر ذلك. كما قيل إن رؤوس الرجال والنساء والأطفال المقطوعة جمعت في ثلاث أكوام طال ارتفاعها عنان السماء؛ «ولم تسلم من مذابح المغول الجماعية حتى الكلاب والقطط.» كانت هذه التقارير التي تتحدث عن وحشية المغول مبالغ فيها، إلا أن جنكيز خان كان يشجع نشر مثل هذه التقارير كشكل من أشكال الحرب النفسية زمن الحرب. ربما تعمد المغول في واقع

الأمر تضخيم أعداد الناس الذين قاموا بقتلهم من أجل إرهاب أهدافهم البشرية اللاحقة [٢٤].

بالرغم من أن الاختلاف في تفاصيل كل حصار قام به المغول، كان جنكيز خان يتبع نفس الإستراتيجية الأساسية. ففي أواسط آسيا، تماماً كما في الصين الشمالية، كان يهاجم أولاً القرى غير المحصنة في المناطق الريفية المحيطة بالمدن، ويقوم بإحراقها؛ كان بعد ذلك يأسر السكان، ثم يقتل العديد منهم. كان ذلك يؤدي إلى تدفق أعداد هائلة من المهاجرين المذعورين باتجاه تلك المدن، وهو ما جلب الكثير من الفوضى والمجاعات والحكايات المرعبة للمدن التي تدفقوا إليها. كان المدنيون المحاصرون يواجهون أحد خيارين: أولئك الذين استسلموا كانوا يعاملون برفق. أما الذين رفضوا الاستسلام، كما في نيسابور، فقد واجهوا الموت الزؤام.

إذاً، لم يكن مثار دهشةٍ، قيام العديد من السكان المدنيين - مثل بخارى وسمرقند - بالاستسلام للمغول وفتح بوابات مدنهم لهم. (ربما كان أحد العوامل المساعدة في هذا أن العديد من رعايا خوارزم كانوا من الفرس والطاجيق، ولم يكونوا موالين تماماً لسلطانهم التركي.) كان الأرستقراطيون والحكام والجنود المقاومون يتم إعدامهم. بالمقابل، كان رجال الدين يوضعون تحت حماية جنكيز خان المباشرة، كما كان يتم استقطاب المدنيين ممن يمتلكون مهارات خاصة مثل نافخي الزجاج، وصانعي الفخار، والنجارين، وصانعي الأثاث، والطباخين، والحلاقين، والتجار، والصاغة، والدباغين، وعمال الورق، والصباغين، والأطباء، وسائسي الجمال. وربما كان أهم عامل في التوسع السريع لإمبراطورية جنكيز خان قيامه باستيعاب علماء خوارزم الذين ينتمون إلى أصول وأعراق متعددة: كالحاخامات وأئمة المساجد والمدرسين والقضاة وأي شخص يجيد أي لغة أجنبية قراءة وكتابة[٢٥].

اكتملت عملية فتح جنكيز خان لخوارزم سنة ١٢٢٣. (قيل إن السلطان الذي لاذ بالفرار مطارَداً من قبل حشد من الجنود المغول في أعقابه، توفي وحيداً ومعوزاً في

جزيرة قصية في بحر قزوين.) فعل جنكيز خان المستحيل من جديد: فقد عبر ألفي ميل من المناطق الجليدية والصحراوية، واقتحم تحصينات عصية، وحطم جيوشاً أكبر من جيشه عدداً وعدة، ووضع واحدة من أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض، وأغناها وأكثرها أبهة تحت إبهام رجل كان في صباه يقتات على الفضلات وينام في خيمة من صوف اللباد.

الآن، وهو في منتصف الستينيات من عمره، ويحكم الإمبراطورية الأكبر في العالم، يقفل جنكيز خان عائداً إلى السهوب المغولية. توفي سنة ١٢٢٧، محاطاً بعائلته وأصدقائه، وجنرالاته الذين بقوا موالين له. وبحسب العادات المغولية، تم دفنه بطريقة سرية، وفي مكان سري. (تقول الحكاية الشعبية إن أمراً صدر إلى ثمانمئة من الفرسان ليدوسوا بحوافر خيولهم بشكل متكرر المنطقة التي دفن فيها جنكيز خان بغية إزالة أي أثر لقبره. تم بعد ذلك قتل هؤلاء الفرسان الثمانمئة على يد مجموعة من الجنود، الذين قُتلوا بدورهم بعد ذلك على يد مجموعة أخرى من الجنود، وهؤلاء أيضاً تم قتلهم.) استناداً إلى إدوارد غيبون، «مات جنكيز خان في أوج عمره ومجده، وفي آخر لحظة في حياته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان يوجه النصح والإرشاد لأبنائه كي يقوموا بفتح الإمبراطورية الصينية والاستيلاء عليها»[٢٦].

محنة أوروبا

لم يرتقِ أداء أبناء جنكيز خان إلى المستوى المأمول منهم، وكان والدهم يعلم ذلك. في سني حياته الأخيرة، بدأ جنكيز خان ينتابه القلق بشأن المحافظة على إمبراطوريته وحمايتها. وبالرغم من أن حملاته الأولى كانت تكتنفها بشكل أساسي عمليات التخريب، إلا أنه بعد أن تقدم به العمر، بدأ يتحدث عن «توحيد العالم بأسره». قال لأبنائه «لا يمكن لأي شخص أن يدير حياته، ناهيك عن إدارة حياة الآخرين من دون أن تكون لديه رؤية وهدف.» كان أكثر ما يقلق جنكيز خان بشأن

أبنائه، هو احتمال قيامهم بالاقتتال فيما بينهم، خصوصاً حول من منهم سوف يخلفه في منصب الخان الأكبر. كانت مخاوفه في محلها. لم يكن أي من أبنائه الأربعة يتمتع بالحكمة أو القسوة أو القدرة على إلهام إحساس الآخرين بالولاء، والتي كان جنكيز خان يمتلكها. تقاتل الأخوان الأكبر فيما بينهما بمرارة - كانت حجة الثاني التي كان يلمح إليها هي أن الأول كان ابناً غير شرعي - لدرجة أنه كان على جنكيز خان أن يلجأ إلى حل وسط اختار بموجبه ابنه الثالث وريثاً له: أوغودي المرح والمسكون بمعاقرة الخمرة [٢٧].

بدأ أوغودي المبذر والسخي اليد بشكل مَرَضي بالإنفاق من دون حساب منذ اللحظة التي استلم فيها الحكم. يقال إنه فتح أبواب خزينة الدولة على مصراعيها في حفل تنصيبه، وقام بتوزيع محتوياتها بما في ذلك أكوام من اللآلئ والجواهر على رعاياه الجدد. كما أمر ببناء عاصمة جديدة تتضمن قصراً إمبراطورياً وحدائق من تصميم مهندسين معماريين صينيين، ويقوم بزخرفتها حرفيون صينيون، وتحاط بالأسوار وذلك للمرة الأولى في تاريخ السهوب. أطلق على المدينة اسم كراكورم، وهذه التسمية تعني «الصخور السوداء» أو «الأسوار السوداء». وبالرغم من شموخ ذلك القصر، إلا أنه كان يستخدم بشكل رئيس كمستودع، ومسكن للحرفيين؛ أما العائلة المالكة فقد فضلت العيش في خيامها المصنوعة من اللباد. خصص ثلث المدينة لإقامة هيئات الإداريين الأجانب - من نُسّاخ ورجال فكر من جميع البلدان التي تم فتحها وإخضاعها - الذين كانوا يقومون بكافة أعمال الاتصالات، ويديرون كافة شؤون الإمبراطورية لصالح العائلة المالكة التي كان أفرادها من الأميين. كما أمر أوغودي بإنفاق مبالغ طائلة من أجل تشييد دور للعبادة لرعاياه المتنوعين عرقياً وثقافياً بما في ذلك المساجد والكنائس والمعابد البوذية والتاوية محولاً بذلك مدينة كراكورم البسيطة إلى عاصمة تحتضن أكبر تجمع ديني متنوع في العالم.

كانت عملية تسيير أمور مدينة كراكورم مكلفة جداً، كما كان مزاجه الميال إلى الإسراف والتبذير يتطلب الكثير من المال. وكان المغول أنفسهم ما يزالون رعاة رُحّل

بشكل رئيس. وكانت الجزية التي فرضها المغول على رعاياهم في الإمبراطورية، والتي تُعد المصدر الوحيد للدخل قد بدأت بالضمور في ظل حكم أوغودي المتراخي. الأهم من ذلك، لم يكن أوغودي رجل أعمال موهوب. فلكي يغري التجار بالقدوم إلى عاصمته القصية، كان يدفع أموالاً طائلة ثمناً لبضائع لم تكن تفيده في شيء - مثل أنياب العاج، واللآلئ، وصقور الصيد وأحزمة جلدية مرصعة بالجواهر، ومقابض للسياط مصنوعة من خشب الصفصاف، والكؤوس المذهبة والفهود» - ثم يقوم بتوزيعها هنا وهناك. بحلول سنة ١٢٣٥، تبخرت كل الثروة الهائلة التي كدسها جنكيز خان تقريباً. لم يكن أمام المغول سوى خيار واحد: غزو أراضٍ جديدة ونهب ثرواتها.

قام أوغودي بجمع مجلسه الحربي لتحديد الهدف اللاحق، وهناك حدثت خلافات شديدة. أراد بعض المشاركين غزو الهند؛ وآخرون تبنوا الرأي القاضي بغزو مدن عظمى مثل بغداد ودمشق. ورأى فريق آخر، ومن بينهم أوغودي نفسه اجتياح إمبراطورية سونغ الصينية المتداعية التي قاومت محاولات المغول احتلالها مدة ثلاثين سنة. لكن الصوت المرجح كان صوت سابودي العجوز الذي كان واحداً من أكثر جنرالات جنكيز خان ولاء وأهلاً للثقة، والذي قام بدور حاسم في صناعة جميع انتصارات المغول في المعارك التي خاضوها. حث سابودي العجوز الجميع على غزو أوروبا - وهي أرض لم يكن يسمع بها إلا أقل القلة من المغول.

مر سابودي بأوروبا بمحض المصادفة قبل ذلك باثنتي عشرة سنة عندما كان يطارد برفقة جنرال آخر سلطان خوارزم. بعد وفاة السلطان، حصل سابودي على إذن من جنكيز خان لاستكشاف الأراضي غير المعروفة التي تقع شمال بحر قزوين. اكتشف هناك مملكة جورجيا المسيحية التي قام بفتحها، والتي أصبحت بعد ذلك دولة خاضعة لحكم المغول. تابع سابودي اتجاهه شمالاً حيث أخضع كلاً من روسيا وأوكرانيا اللتان كانتا تحكمان من قبل دوقات وأمراء متناحرين، كل واحد منهم له إقطاعيته الخاصة، وجيشه الخاص به. سقطت المدن الروسية، الواحدة منها إثر

الأخرى بينما كان سابودي يجتاح قوات خصومه ويذبح قادتهم. كان على وشك عبور نهر دناير باتجاه شرق أوروبا، عندما تلقى أمراً من جنكيز خان يطلب فيه إليه العودة إلى الديار. الآن، يطلب سابودي من المجلس الحربي المنعقد سنة ١٢٣٥ الموافقة على شن حملة عسكرية في الغرب حيث توجد مراعي شاسعة المساحة لخيول المغول، وبالتأكيد، الكثير من الكنوز التي يجب وضع اليد عليها [٢٨].

ونظراً لعجزه عن السيطرة على الخلافات في الرأي داخل المجلس الحربي، اتخذ أوغودي قراراً كان يمكن أن يثير الهلع في قلب والده. فقد قسم الجيش المغولي إلى قسمين، وأعطى أوامر بشن هجوم متزامن على كل من الصين وأوروبا. فشلت الحملة التي قام المغول بشنها على إمبراطورية سونغ، وقتل في هذه الحملة قائدها وكان الابن المفضل لأوغودي. وكان على المغول الانتظار حتى الجيل الآتي قبل أن ينجحوا في غزو الصين. أما في أوروبا فقد كان الانتصار حليف سابودي.

بالرغم من كل عيوب أوغودي، أثبت نجاح الغزو المغولي لأوروبا أن القوات المغولية كانت ما تزال في أوج قوتها. فقد كان الجيش الرئيس يتكون من ١٥٠٠٠٠ من الفرسان، من بينهم ٥٠٠٠٠ من المغول. كان سابودي على دراية بتكتيكات إدارة المعارك التي نفذها جنكيز خان في حياته بالمطلق، وكان يعرف كيف يضعها موضع التطبيق. كما كان من بين أركان القيادة اثنان من حفدة جنكيز خان الأشداء وهما مونجك وباتو. الأهم من ذلك، أن الجيش المغولي الذي استخدم أكثر أنواع الأسلحة تطورا، مستفيداً من التكنولوجيا الإسلامية والصينية، كان يمتلك أسلحة مثيرة للرعب، وغير معروفة في أوروبا. فقد هاجم المغول المدن الأوروبية المحصنة داخل الأسوار ليس بالمنجنيقات والراجمات وحسب - فهذه الأسلحة كانت معروفة للأوروبيين - بل بالمدافع والقنابل النفطية، وراجمات الصواريخ البدائية، والقنابل الدخانية التي كانت تنفث غازات كيماوية تثير روائح قاتلة.

سقطت روسيا وشرق أوروبا أولاً. كان الدمار الذي لحق بكييف التي كانت تُعد

جوهرة العالم السلافي وقلبه الديني سنة ١٢٤٠ قد بث موجات من الشائعات المرعبة التي انتشرت في كافة أنحاء أوروبا. فقد قيل إن المغول هم أشبه بسحابة من الجراد، وأن بين فرسانهم تنينات تبصق النار (ربما كان ذلك إشارة إلى قاذفات اللهب المغولية). وحتى في أصقاع قصية مثل إنجلترا، ذكر ماثيو باريس، وهو راهب من أتباع القديس بينديكيت سنة ١٢٤٠، أن «حشوداً هائلة من أتباع الشيطان المثيرين للاشمئزاز» قد اجتاحت شرق أوروبا. «فهم يرتدون جلود الثيران ويمتشقون رماحاً حديدية؛ قصار القامة، غلاظ البنية، أجسامهم مشدودة ويتمتعون بقوة بدنية هائلة، لا يُقهَرون في المعارك، ولا ينتابهم التعب؛ لا يلبسون دروعاً تغطي ظهورهم، لكنهم يرتدون دروعاً تحمي صدورهم. يشربون الدماء التي يستنزفونها من ماشيتهم، ويعتبرونها من المشروبات الشهية»[٢٩].

كانت وجهة المغول الآتية هي ألمانيا وبولندا وهنغاريا التي اجتاحوها جميعاً. مهّدت هزيمتهم الصاعقة «لزهرة» فرسان أوروبا - تم قتل حوالي مئة ألف جندي - لنهاية عصر الإقطاعية الأوروبية. كان اكتساح المغول لهنغاريا عملاً شائناً؛ فقد ذكر أحد شهود العيان أن «القتلى كان يتساقطون يمنة ويسرة كأوراق الأشجار في فصل الشتاء، وكانت جثث هؤلاء القتلى التعساء منتشرة على طول الطريق، وكان الدم يسيل كزخات المطر المنهمر». اجتاح المشهدَ نوعٌ من الهستريا: كانت تروى قصص عن اختطاف المغول لنسوة عجائز، وعمليات اغتصاب للعذارى المسيحيات من قبل عصابات من المغول - قبل أن يقوموا بالتهامهم في ولائم خاصة - ولكن هذه القصص مشكوك في صحتها.

كانت ردة فعل أوروبا على الهجمات المغولية تتمثل في سيل من التعصب الشديد. فنظراً إلى أن الهزيمة قد شلت حركتهم، ولأن موجة من الإحساس بالضياع قد طغت على عقولهم، وأعجزتهم عن تقديم مبرر مقنع يفسر منطقياً الظهور المباغت لحشود المغول، فقد أنحى رجال الدين الأوروبيون باللائمة على اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم - من بين كل الأقوام الأخرى. فقد زعم هؤلاء أن المغول هم

في واقع الأمر، القبائل العبرية التائهة منذ زمن موسى، والذين حوّلهم الله انتقاماً منهم إلى مجموعة من الوحوش الآدمية غير العقلانية. بالإضافة إلى ذلك، فقد زعموا أن هذه الوحوش تتلقى الدعم والتمويل من الزعماء اليهود النافذين الذين كانوا يخططون بالتنسيق مع إخوانهم التتار للسيطرة على العالم. ولسوء الحظ، فقد تصادفت سنة ١٢٤١ مع سنة ٥٠٠٠ في التقويم اليهودي - أي دليل أبلغ من هذا على «الشر المطلق الذي يمثله اليهود وخيانتهم المخبوءة وخداعهم الذي لا مثيل له»؟ هذه النظريات بكل ما تثيره من اشمئزاز، أسهمت في تأجيج أحقاد أدت إلى نتائج مأساوية. ففي يورك وروما والمدن الأوروبية الرئيسة الأخرى، صب المسيحيون جام غضبهم على جيرانهم اليهود: حرقوا منازلهم، وذبحوهم - وهم بذلك قاموا فعلياً بالأعمال نفسها التي مارسها المغول ضدهم، مع فارق واحد؛ وهو أن هذه الارتكابات كانت تحدث باسم الرب.

كانت أوروبا المسيحية في القرن الثالث عشر منقسمة على نفسها ويحكمها التعصب، استهلكتها الحملات الصليبية والنزاعات الطائفية ومعاداة السامية، واضطهاد الكفرة. وكان التعصب والانقسام اللذان عانت منهما أوروبا قد صب في صالح المغول. فبالرغم من أن المغول كانوا يتميزون بالوحشية في المعارك، إلا أن مبعثها لم يكن التشنج الديني أو الكراهية. وفي الوقت الذي كان الأمراء الأوروبيون يقومون بعمليات التعذيب ضد رعاياهم الأكثر مهارة من غير المسيحيين ويطردونهم، كان المغول يستقطبون نظائر هؤلاء من الشعوب التي يخضعونها بكل حرية، ويجنون من ذلك مكاسب جمة من دون أن يلقوا بالاً للعرق أو الدين. استقطب المغول من أوروبا نماذج جديدة من الناسخين والمترجمين والمهندسين المعماريين والحرفيين، بالإضافة إلى عمال المناجم من مقاطعة سكسونيا الذين لديهم الخبرة كيف يستخرجون من باطن السهوب المغولية مصادر غنى جديدة لم تكن معروفة لدى المغول أنفسهم. عندما ألقى جنود هابسبورغ القبض على أحد الضباط المغول عشية هزيمتهم، اعترتهم الدهشة عندما اكتشفوا أن ذلك الضابط ما هو سوى رجل

إنجليزي فذ يجيد العديد من اللغات تعرض للتهديد بالحرمان من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، لكنه اختار أن يعمل لصالح المغول. قام جنود هابسبورغ بقتله(٣٠).

في نهاية سنة ١٢٤١، توفي أوغودي فجأة حيث كان في حالٍ من السكر الشديد كالعادة. بعد أشهر قليلة، توفي أخوه الأكبر أيضاً؛ وكان آخر أبناء جنكيز خان. لاحت مشكلات الوراثة في الأفق من جديد، وهو ما أجبر كل من مونجك وباتو على العودة مع قواتهما من أوروبا إلى السهوب، وقد وضعا بذلك حداً للموجة الثانية من الفتوحات المغولية. تمتد الآن الإمبراطورية المغولية غرباً إلى حدود فيينا تقريباً. لكنها سوف تتوسع أكثر فأكثر.

سيطرة المغول على العالم

فاق حفدة جنكيز خان أبناءه بكثير قوة وذكاء. لم يخلف أوغودي من بعده ورثة عظاماً. بدلاً من ذلك، وبعد سلسلة من المؤامرات البشعة في القصر، كان الحفدة المنتصرون فيها هم من نسل تولي، وهو الابن الأصغر لجنكيز خان. في ظل قيادة هؤلاء الخانات الجدد - مونجك، وهولاكو، وأريك بوك، وخوبيلاي - اجتاحت الموجة الثالثة من الفتوحات المغولية، وكانت هي الأعظم في العالم.

نُصِّب مونجك وكان الأكبر بين إخوته، في موقع الخان العظيم سنة ١٢٥١. بعدها بفترة وجيزة، أصدر أمراً إلى أخيه هولاكو بفتح الشرق الأوسط، وأمراً آخر إلى أخيه خوبيلاي بفتح الصين الجنوبية. تباطأ خوبيلاي الذي لم يكن متحمساً للحروب، في القيام بالمهمة. لكن هولاكو، ذا الميول العدوانية، لم يهدر وقته؛ وهكذا، فخلال السنين السبع اللاحقة نافست انتصاراته العسكرية في بلاد المسلمين انتصارات جده جنكيز خان.

لم تتحقق آمال سابودي من الحملة التي شنها على أوروبا لأن مردودها كان

ضئيلاً . فقد كانت أوروبا في العصور الوسطى بدائية وغير متطورة وفقيرة بالمقارنة مع الحضارتين العظيمتين الإسلامية والصينية. كانت مدن بغداد ودمشق والقاهرة - التي شكلت أهداف هولاكو الرئيسة - من بين أغنى المدن في العالم. كانت بغداد على وجه الخصوص، القلب التجاري والفني والثقافي للمسلمين. كانت قصورها تخلب الألباب، كما كانت المساجد والكنائس منتشرة في كافة أرجائها، إلى جانب أسواقها المزدهرة وبيوت القمار؛ كانت مدينة شهرزاد متخمة بالذهب والكنوز.

كانت بغداد أيضاً مركز الخلافة العباسية التي تأسست قبل خمسة قرون. كان الخليفة الحاكم هو السابع والثلاثون في سلسلة الخلفاء - وكان الأضعف، والأكثر غروراً، والأقل قيمة من بين جميع خلفاء الرسول محمد. وجه هولاكو تحذيراً إلى الخليفة اعتبر في غاية الوقاحة، وتضمن هذا التحذير الطلب إليه الاستسلام أو الموت. رد الخليفة على هذا التحذير بكثير من العجرفة والتعالي؛ إذ أعلن أن العالم الإسلامي برمته، بدعم من الله، سوف ينتفض كي يذبح الكفار. لكن الخليفة كان مخطئاً في تقديره.

كانت الخلافة العباسية ثيوقراطية النزعة، وتحكم بموجب المذهب السني التقليدي. في منتصف القرن الثالث عشر، كانت المناطق التابعة للخلافة العباسية مليئة بالأقليات المضطهدة مثل الشيعة واليهود والمسيحيين على وجه الخصوص الذين كانوا يتطلعون إلى وقت يطاح فيه بقادتهم من السنة. استغل المغول بقوة تلك الانقسامات الدينية والمذهبية. تآمر العديد من كبار رجالات الشيعة في بغداد، بمن فيهم مستشار الخليفة وكبير وزرائه مع المغول ضد الخليفة، حيث عملوا بصفة مخبرين وجواسيس. كما انضم الآلاف من مسيحيي بغداد إلى القوات المغولية[٣١].

بالمقابل، كان المغول أكثر انفتاحاً من الناحية الدينية من أي قوة حاكمة في العالم. فقد عمل مسلمون ومسيحيون من كل المذاهب في جيش هولاكو. وكان أحد مستشاريه عالم الفلك الفذ الشيعي ناصر الدين الطوسي. بالإضافة إلى ذلك، كانت

أم هولاكو واثنتان من زوجاته مسيحيات، وهو ما سهّل عليه التواصل مع مسيحيي الشرق الأوسط الذين اعتبروه منقذاً لهم. اتجه هولاكو نحو بغداد سنة ١٢٥٧. (كان قد غادر السهوب المغولية سنة ١٢٥٣، إلا أن رجاله احتاجوا إلى بضع سنوات للقضاء على الحشاشين الشديدي البأس، الذين ينتمون إلى مذهب إسلامي غريب، وكانوا يسيطرون على شبكة واسعة من التحصينات الجبلية الممتدة من أفغانستان إلى سورية.) في الخامس من شهر شباط، فبراير، سنة ١٢٥٨، وبعد مرور أسبوع على بدء العمليات العسكرية المتمثلة في إغراق المدينة بالمياه وقصفها بالراجمات، استطاع المغول اجتياح السور الشرقي لمدينة بغداد؛ وتم قطع رأس الخليفة بعد عدة أيام من ذلك. وبسقوطها في أيدي المغول، خضعت الخلافة العباسية ليس إلى جحافل البدو الرحل، بل انضمت إلى قائمة «الموارد البشرية والمالية والمادية والتكنولوجية التي مثلتها الصين الشمالية وآسيا الوسطى وروسيا والقوقاز وإيران» [٣٢].

استبيحت بغداد ونُهِبت؛ كانت الجثث مكدسة في الطرقات وتنبعث منها روائح نتنة. استثني من هذه العمليات الوحشية الشيعة والمسيحيون. قيل إن هولاكو حاول إرغام الخليفة على أكل قطع من الذهب الذي كان بحوزته. وعندما لم يفلح في ذلك، أمر بلف الخليفة وورثته كلاًّ في سجادة وسحقهم بمدقات حتى الموت- وهي عقوبة كانت تقتصر في ما يبدو على النبلاء.

بنجاحهم في إسقاط الخلافة العباسية، حقق المغول خلال سنتين ما عجز المسيحيون الصليبيون عن تحقيقه في قرنين. احتفل المسيحيون البغداديون بانتصار المغول على طريقتهم الخاصة حيث قاموا بذبح المسلمين وتدمير المساجد. حيّا المسيحيون على امتداد رقعة الشرق الأوسط من دمشق إلى حلب التقدم المغولي بنوع من الحماسة الرؤيوية. كانوا يبتهلون إلى الرب كي يقوم المغول بتحرير بيت المقدس، وكانوا أثناء ذلك يستعدون للانتقام من مضطهديهم السابقين من المسلمين [٣٣].

لم يعرف عن المغول بالرغم من وحشيتهم، أي تعصب أو تحامل ديني. العكس

كان هو الصحيح. بالعودة إلى كاراكورم، كانت طريقة البلاط المغولي في مقاربة الأديان شبيهة إلى حد كبير بمقاربة جامعات Ivy League. بحسب رواية ويليام روبروك وهو راهب فرنسيسكاني كان في زيارة إلى كاراكورم سنة ١٢٥٤، ترأس الخان الكبير مونجك مناظرات دينية محددة كان كل مشارك فيها له نفس قوة التصويت وكان يؤمل من تلك المناظرات إيجاد قواسم مشتركة بين الأديان. كان روبروك نفسه كاثوليكياً متزمتاً، ومتعصباً حتى ضد مسيحيين من مذاهب أخرى. عندما أبلغ روبروك الخان الكبير مونجك أنه أتى إلى هذا المكان "لينشر كلمة الرب" طلب إليه مونجك المشاركة في مناظرة أمام ثلاثة من القضاة: بوذي ومسيحي ومسلم. كانت المناظرة تخضع لرقابة شديدة؛ وكان من أهم شروط المناظرة "عدم جواز قيام أحد باستخدام كلمات جدلية تثير مشاعر التعصب". يصف العالم الأنثربولوجي جاك ويذرفورد أحداث تلك المناظرة:

> في الجولة الأولى، واجه روبروك بوذياً من شمال الصين الذي بدأ بسؤاله عن كيفية صنع الكون، وماذا يحل بالروح بعد الموت. احتج روبروك على ذلك بالقول إن الراهب البوذي طرح الأسئلة بطريقة خاطئة: فالمسألة الأولى يجب أن تتمحور حول الرب الذي منه بدأ كل شيء. منح الحكام النقاط الأولى لصالح روبروك.
>
> استمر السجال بينهما جيئة وذهاباً حول موضوعات الخير مقابل الشر، وطبيعة الرب، وماذا يحل بأرواح الحيوانات، ووجود التقمص، وفيما إذا كان الرب هو من خلق الشر... بعد كل جولة من المناظرة، كان هؤلاء العلماء يتوقفون لاحتساء جرعات كبيرة من الخمر استعداداً للمباراة الآتية.
>
> وفي الوقت الذي بدأ تأثير هذه الجرعات من الخمر يتضح أكثر على المشاركين، توقف المسيحيون عن محاولة إقناع أحد بحججهم العقلية، وبدؤوا بدلاً من ذلك بالغناء. أما المسلمون الذين لم يشاركوا في الغناء، فقد بدؤوا بترتيل آيات من القرآن بصوت عال في معرض محاولتهم لكبح جماح الغناء من قبل المسيحيين. أما البوذيون فقد انسحبوا من المناظرة وبدؤوا في عملية تأمل صامتة. في النهاية، ونظراً لعجزهم عن إقناع بعضهم بعضاً، وكذلك عن قتل بعضهم بعضاً، فقد اختتموا تلك المناظرة بالطريقة التي تختتم فيها معظم الاحتفالات المغولية حيث كانوا في حال من السكر الشديد الذي منعهم من الاستمرار في تلك المناظرة [٣٤].

ربما بدا ذلك النوع من المناظرات مضحكاً في القرن الحادي والعشرين، لكنها كانت لافتة إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي كان يتم التعامل فيها مع الخلافات الدينية في عالم القرن الثالث عشر «المتحضر». أصدر البابا إنوسينت الرابع بياناً بابوياً صارماً سنة ١٢٥٢ يصادق فيه على ممارسة التعذيب لاجتثاث شأفة الهراطقة. جال الرهبان الدومينيكانيون - أي كلاب الرب - الذين كانوا ينتظرون مثل هذا البيان بفارغ الصبر بين المدن الواحدة إثر الأخرى، وبدؤوا بانتزاع اعترافات من المشبوهين بأساليب وحشية. أخذ ملوك أوروبا من دعاة الصليب في طول القارة وعرضها على عاتقهم إشهار السيف في وجه المسلمين: الألسن قطعت، والرؤوس تدحرجت باسم المسيح. في فرنسا، كان لويس التاسع، وهو ممول الراهب روبروك قد تم تطويبه في مراتب القديسين لقيامه ببعض الأعمال المقدسة بما في ذلك قيامه بإحراق ١٢٠٠٠ من المخطوطات التلمودية المدونة بخط اليد. كما صب «جنود الصليب» جام غضبهم ليس فقط على المسلمين بل أيضاً على المسيحيين الأرثوذكس. في القسطنطينية، «قام الصليبيون بذبح جميع من صادفوه في طريقهم بغض النظر عن عمره وجنسه. ... أسيئت معاملة الراهبات والعذارى والأمهات وتمت استباحتهن. ... كما مورس أشد أشكال التنكيل بالرهبان الأرثوذكس» [٣٥].

أما المغول «البرابرة» فقد كانوا عالميين في انفتاحهم على الثقافات الأخرى. التقى روبروك في بلاط مونجك ليس فقط بالمفكرين الدينيين والتجار ووفود الدبلوماسيين، بل بحرفيين عاليي المهارة من سورية وروسيا وهنغاريا وألمانيا وفرنسا بمن فيهم الصائغ الفارسي الشهير غولوم باوشر. بالرغم من أن هؤلاء الفنانين كانوا من الناحية التقنية أسرى حرب، إلا أنهم عوملوا بمنتهى الاحترام. قام باوشر يعاونه فريق من خمسين من المساعدين بإعادة تزيين عاصمة المغول على النمط الأوروبي. كان المغول بالتأكيد نزقين على طريقتهم الخاصة: كان مونجك، مثل جنكيز خان يعتقد أن المغول هم شعب اختاره الله والطبيعة - اللذان كان يعنيان الشيء نفسه من وجهة نظرهم - لفتح العالم بأسره.

لم يقم المغول بالاستيلاء على القدس في نهاية المطاف. توقف الزحف المغولي غرباً سنة ١٢٦٠عند حدود فلسطين في عين جالوت (بئر جوليات) حيث تعرض جيش هولاكو إلى هزيمة على يد المماليك في مصر. قبل تلك المعركة بوقت قصير تلقى هولاكو نبأ وفاة أخيه مونجك. وكان هولاكو الذي لم تكن لديه أية طموحات كي يصبح الخان العظيم، قد أصابه حزن شديد، ربما لأنه شعر بأن وفاة شقيقه مونجك كان إيذاناً بنهاية وحدة الإمبراطورية المغولية [٣٦].

حكم المغول للصين

قبل سنوات قليلة على وفاته، أخذ مونجك على عاتقه مهمة فتح إمبراطورية سلالة سونغ الحاكمة في الصين بعد أن يئس من تباطؤ شقيقه خوبيلاي، وعدم تقدمه، والأعذار الواهية والدائمة التي يختلقها كي لا يقوم بهذه المهمة تاركاً مسؤولية إدارة شؤون الإمبراطورية لأخيه الأصغر أريك بوك في كاراكورم. في شهر أيار، مايو، سنة ١٢٥٨، قاد مونجك جيشه عبر النهر الأصفر متجهاً إلى قلب الصين الجنوبية مستخدماً الأساليب نفسها التي اتبعها جده جنكيز خان. لكن السونغيين العظام - حتى في الزمن الذي بدأت فيه إمبراطوريتهم بالتداعي كانوا أكثر الأعداء الذين كان المغول يحسبون لهم ألف حساب - قاوموا الغزو المغولي بضراوة. توفي مونجك قبل عقدين من اكتمال الحملة، ويقال إن سبب وفاته في إقليم سيشوان كان الزحار أو الكوليرا.

أدت وفاة مونجك إلى حقبة من الاضطرابات والحروب الداخلية. عقد خوبيلاي وأريك بوك سنة ١٢٦٠ كل على حدة مجلساً حربياً بطريقة فيها الكثير من الدراماتيكية؛ عقد الأول مجلسه الحربي في زانادو، أما الثاني فقد عقده في كاراكورم، ونصب كل منهما نفسه في موقع الخان العظيم. وأدى هذا الصراع بين الأخوين إلى إلحاق عطب دائم بالإمبراطورية المغولية.

ما من شك في أن خوبيلاي كان يمثل حالاً شاذة بين أشقائه. أما بقية أنسبائه

فقد بقوا متمسكين بتقاليدهم التي عاشوا عليها في السهوب. كانوا بالدرجة الأولى محاربين رُحّل، وكانوا يرون مثل جنكيز خان أن الترف الذي تتسم به الحضارة الحالية له إغراءاته المؤذية. بالمقابل، كان خوبيلاي يفضل القصور والمدن على حياة السهوب. كان يحب الاسترخاء وإقامة الولائم، وبالتالي فقد أصيب بالبدانة وداء النقرس في مراحل مبكرة من سني شبابه.

انتصر خوبيلاي على شقيقه أريك بوك في نهاية الأمر. كان انتصار الأول على الثاني يمثل جزئياً انتصار المزارع على البدوي. حدث الصراع بين الشقيقين في أسوأ وقت بالنسبة لأريك بوك، لأن منغوليا عانت من أكثر المجاعات فتكاً بسبب البرودة الشديدة التي قضت على أعداد كبيرة من قطعان الماشية في السهوب. ونظراً إلى أنه لم يتمكن من توفير الطعام لأتباعه الجياع، وجد أريك بوك نفسه تحت رحمة خوبيلاي الذي كانت المنطقة الواقعة تحت سلطته تحتوي على أراضٍ زراعية ومؤن غذائية. استسلم أريك بوك سنة ١٢٦٤ لشقيقه خوبيلاي مبرراً هزيمته ببعض العبارات المؤثرة: «كنا نحن حينئذ، واليوم هو يومك.» سامح خوبيلاي شقيقه (الذي مات مسموماً بعد سنتين)، لكنه تسبب في دمار كاراكورم لأن العاصمة الجديدة التي اختارها مقراً لحكم إمبراطوريته هي عاصمة الجورشيين السابقة زونغدو - التي استباحها جنكيز خان سنة ١٢١٤ - التي أصبح اسمها بيجين فيما بعد.

لكن واقع الحال يشير إلى أن الإمبراطورية المغولية هي الآن منقسمة على نفسها. فأفراد العائلة المالكة الذين كانوا يريدون أن يصبح أريك بوك هو الخان العظيم، رفضوا الاعتراف بشرعية خوبيلاي. في غضون ذلك، حكم هولاكو والمنحدرون من صلبه المناطق العربية والفارسية التي أطلقت عليها تسمية "إيلكاناتي" بينما سيطر المنحدرون من صلب الابن الأكبر لجنكيز خان واسمه جوشي على روسيا وشرق أوروبا؛ وهؤلاء بدورهم رفضوا الاعتراف بسلطة خوبيلاي خاناً عليهم [٣٧].

ولكن حتى من دون تلقي دعم كامل من عائلته، استطاع خوبيلاي تحقيق ما

لم يستطع جده الشهير تحقيقه: فقد فتح الصين الجنوبية وأعاد توحيد المملكة الوسطى. كان انتصار خوبيلاي على السونغيين من عدة زوايا أقل شأناً من وجهة النظر العسكرية من الانتصار الذي حققه من خلال فتح قلوب وعقول الشعب الصيني. فعلى العكس من حروب جنكيز خان الخاطفة، كانت هزيمة السونغيين على يد خوبيلاي تدريجية، وامتدت نحو أربعين سنة. خلال تلك الحقبة، كان خوبيلاي يعمل بصبر وتؤدة، ومن خلال الدعاية وإتباع السياسات العامة الحازمة من أجل إقناع الصينيين أنه هو، وليس القادة السونغيين المتعجرفين والفاسدين، من يمثل الفضائل والقيم الصينية.

مع كل نصر كان يحققه على السونغيين مهما كان صغيراً، كان خوبيلاي يسوّق لفكرة أن العناية الإلهية قد اختارته لهذا الموقع؛ وهي مهمة لم يكن من الممكن تحقيقها بسهولة بالنسبة لشخص «بربري». ولكن الفلاحين والطلاب والجنود وحتى الجنرالات كانوا ينضمون سنة إثر أخرى إلى الجانب المغولي بأعداد متزايدة. ما كان مدعاة للإعجاب أكثر من ذلك، أن المغول المشهورين بفروسيتهم انتصروا أيضاً في المعارك البحرية. استقطب خوبيلاي من جديد خبراء غير مغوليين لبناء وقيادة أسطول لجيشه. كما ضمن ولاء الأميرالات الصينيين الأقوياء الذين كانت لهم سيطرة كاملة على مياه الصين الإقليمية والممرات المائية الداخلية، مما كان له أثر حاسم في الانتصار المغولي [٣٨].

امتدت مدة حكم خوبيلاي (١٢٦٠-٩٤) مدة طويلة، وكانت تتمتع بسلام نسبي. عندما سقطت مدينة هانغزو، عاصمة السونغيين الرائعة بيد القوات المغولية أخيراً، سنة ١٢٧٦، وجد خوبيلاي نفسه مسيطراً على أعظم كنوز الصين، وأعظم المدن، وأكثر الموانئ ازدهاراً وحركة - كانت حوالي ٢٠٠٠٠٠ من المراكب التجارية تمخر عباب نهر يانغتزي لوحده سنوياً - بالإضافة إلى وضع يده على قوة بحرية هائلة ومدربة بشكل رائع. الآن، وقد استعادت الصين وحدتها، فقد أصبحت أكبر تجمع بشري في العالم يحتوي على ما بين ١١٠ إلى ١٢٠ مليون من الرعايا.

بالرغم من انقسام الإمبراطورية المغولية على نفسها، إلا أنها الآن تسيطر فعلياً على العالم المتحضر برمته. كان خوبيلاي لوحده يحكم شعباً أكثر عدداً من أي حاكم في التاريخ من قبله. اتبع خوبيلاي مزيجاً من السياسات العرقية لكي يتمكن من حكم رعاياه الصينيين الذين لم يكونوا يشكلون أعداداً هائلة وحسب، بل كانوا متفوقين ثقافياً بمراحل على المغول. من ناحية، تبنى خوبيلاي عدداً من السياسات التي تبدو بعيدة عن منطق التسامح؛ فقد كان من اللافت قيامه بمنع الزواج بين الصينيين والمغول، كما منع الصينيين من تعلم اللغة المغولية، أو حمل الأسلحة. بالإضافة إلى ذلك، قام بإلغاء نظام الامتحان الكونفوشيوسي كآلية لتدريب البيروقراطيين الصينيين، كما رفض بشكل عام تعيين الصينيين في أعلى المناصب الحكومية في الدولة. (لم تكن هذه سياسة مغولية مطبقة في جميع مناطق الإمبراطورية المغولية؛ ففي بلاد فارس على سبيل المثال، كان من المسموح للفرس تبوء مثل هذه المناصب الرفيعة.)

ظهرت نظريات مختلفة تشرح الأسباب التي حدت بالخان خوبيلاي لاتباع مثل هذه السياسات الإقصائية. قد يذهب الظن بالبعض إلى اعتباره مغولياً متعالياً ومعادياً للصينيين. لكن مثل هذا الافتراض هو أبعد ما يكون عن الحقيقة. فبحكم أنه قضى معظم حياته في المملكة الوسطى، كان خوبيلاي من أشد المعجبين برقي الثقافة الصينية، وبجمالية الفن المعماري الصيني، ونظام المجتمع الصيني. وبعكس ممارسات أسلافه الوحشية في الصين الشمالية، فإن خوبيلاي لم يقم بتدمير أي شيء تقريباً في الصين الجنوبية. على العكس من ذلك تماماً، فإن التاريخ يسجل له إصدار الأوامر بإصلاح المعابد والأماكن المقدسة والمباني العامة الأخرى التي تهدمت أو تعرضت لضرر كبير خلال الحرب. كما أحاط نفسه بالمستشارين الصينيين، وتميز حكمه بالاعتدال والتنوّر. كانت مقاربة خوبيلاي المتعاطفة مع الصين قد أغضبت الكثير من أقاربه الأكثر التزاماً بالعادات والتقاليد، والذين أرادوا -ببساطة- تخريب الصين واستغلالها وذلك انسجاماً مع الممارسات المغولية السابقة.

بالإضافة إلى ما تقدم، أظهر خوبيلاي ما يمكن وصفه بالنموذج المثالي للتسامح العرقي. فهو لم يمتنع عن فرض العادات المغولية على رعاياه الصينيين وحسب، بل تبنى، على الأقل ظاهرياً، الثقافة الصينية بشكل شخصي، وفي بلاطه، ومع الطبقة الحاكمة أيضاً. تبنى لقباً صينياً ومنح أسلافه بعد موتهم أسماء صينية. قام ببناء عاصمة صينية على الطراز المعماري الصيني القديم، ومارس الطقوس الإمبراطورية الصينية، كما قام بتأسيس سلالة صينية حاكمة تعرف إلى اليوم باسم "اليان" وتعني بالصينية "الأصل" أو "البدايات العظيمة". كما قام بشغف بتسويق الفن والموسيقى والدراما الصينية، ووضع الأساس لما أصبح يعرف فيما بعد بأوبرا بكين. بالرغم من أنه بقي في أغلب الظن أمياً، فقد سمح خوبيلاي للأدب والفكر الصينييْن بالازدهار من خلال بناء المدارس، وإعادة تأهيل أكاديمية "هانلين" التي كانت مخصصة لأهم المفكرين والباحثين في المملكة الوسطى. استناداً إلى ما ذكره المؤرخ ديفيد مورغان، «كان الأدباء يتمتعون بحرية أكبر بكثير(تحت سلطة المغول) مما كانوا ينعمون به في ظل سلطة السلالات الحاكمة «الأكثر احتراماً» [٣٩].

وكان من المثير للاهتمام أن خوبيلاي الذي قام بإقصاء الصينيين عن الوظائف الحكومية العليا في الإمبراطورية، لم يعين بدلاً منهم موظفين مغول؛ بل قام على نطاق واسع بتعيين موظفين أجانب من غير الصينيين. أقر خوبيلاي بأن المغول أنفسهم كانت تعوزهم الخبرة والعدد الضروريان لحكم مجتمع معقد مثل المجتمع الصيني، ولذلك فقد استقر رأيه على استقطاب أصحاب مواهب وخبرات من الإيغوريين والخيطانيين والفرس وكذلك من آسيا الوسطى، والأوروبيين وقام بتعيينهم حكاماً للأقاليم، ووزراء كبار. وهكذا فقد عين شخصاً من طشقند في منصب وزير مالية خوبيلاي (وكان فاسداً جداً)، وبقي في هذا المنصب مدة عشرين سنة؛ كما استلم شخص مسلم، وابنه من بعده منصب حاكم إقليم "يونان". ويبدو أن ماركو باولو نفسه قد استلم منصباً حكومياً في مدينة يانغزو بالقرب من مدينة نانجينغ. تباهى باولو فيما بعد أمام أقرانه من أهل البندقية أنه كان حاكماً لمدينة يانغزو؛ إلا أن ذلك

لم يكن صحيحاً. أغلب الظن أن وظيفته كانت المساعدة في إدارة احتكار الحكومة لتجارة الملح - وهي وظيفة لا تتمتع بنفس الدرجة من الأهمية.

استمر الصينيون في شغل وظائف حكومية أدنى مرتبة من مناصب الدولة العليا التي كانت في مجملها حكراً على الأجانب. أبقى خوبيلاي في واقع الأمر على أعداد كبيرة من عناصر الجهاز البيروقراطي الصيني الشديد الانضباط والتأثير في الوقت الذي كان ينشئ مكاتب جديدة لمعالجة المشكلات التي تثير قلقاً عند المغول بشكل خاص، ومن هذه المكاتب على سبيل المثال، قسم يعنى باستعادة الحيوانات المسروقة. كان خوبيلاي يعين في كل واحد من هذه الأقسام خليطاً من الموظفين الصينيين وغير الصينيين: وكان يشغل كل واحد من تلك المكاتب موظفون تتحدد أعدادهم بموجب المحاصصة العرقية التي تحدد العدد المطلوب من الصينيين الشماليين، والصينيين الجنوبيين، والبيروقراطيين الأجانب. قام خوبيلاي في بعض الحالات بتعيين اثنين من الموظفين - أحدهما صيني والآخر أجنبي - في الموقع الحكومي المهم نفسه طالباً منهما أن يمارسا الوظيفة سوياً.

باختصار، كانت مقاربة خوبيلاي للحكم تعكس شكلاً من أشكال العالمية تجاوزت بكثير موضوع التسامح. (كان يرسل وفوداً باستمرار إلى البابا وإلى حكام أوروبا يدعوهم لإرسال أفضل باحثيهم ومفكريهم للعمل لديه إلا أنهم رفضوا مثل هذه الدعوات.) ومن ثم، يمكن تفهم السبب الذي حدا به إلى سن قوانين تمنع الصينيين من الزواج من المغول، أو تعلم اللغة المغولية، أو تبوء مناصب حكومية رفيعة من زاوية مختلفة. فالدافع لسن تلك القوانين لم يكن مبعثه أي اعتبارات شوفينية، بل ربما اعتبارات سياسية كان القصد منها حماية الأعداد القليلة من المغول الحاكمين من خطر ابتلاعهم أو الإطاحة بهم من قبل الأعداد الكبيرة من السكان الصينيين. وربما كانت هذه الاعتبارات تتعلق بإستراتيجية أشمل، سهّلت على خوبيلاي كثيراً وضع المجموعات العرقية المختلفة في مواجهة بعضها بعضاً، كما يشير بعض المؤرخين.

على أي حال، كانت نتائج السياسات التي انتهجها خوبيلاي لوحة مزركشة من الثقافات والأعراق والأديان المختلفة. استمرت العائلة المالكة المغولية داخل جدران القصر الإمبراطوري في النهج الحياتي المغولي التقليدي نفسه الذي يشمل التحدث باللغة المغولية، ويأكل أفرادها ويشربون على الطريقة المغولية، ويناموان في خيام من اللباد على أرضية القصر. أما خارج القصر، أي في العاصمة - التي كانت تعرف عند الصينيين باسم "دادو" أو «العاصمة العظيمة»، أو "خان باليك" أي «مدينة الخان» كما كان يطلق عليها الأوروبيون - فقد كان المكان يعج بالعرب والأرمن والتانغوتيين والأتراك والتيبيتيين والفرس ومن آسيا الوسطى والأوروبيين. أما المقيمون فيها بشكل مؤقت من مختلف أصقاع العالم، فقد كانوا يعملون في كافة المجالات التي يمكن للمرء أن يتخيلها: وهذه المجالات هي بائعو الصقور والأطباء وبائعات الهوى والطباخون ومهندسو الهيدروليك وعلماء الفلك والنحاتون وحراس البوابات والناسخون والمترجمون والمستشارون الروحيون والتجار والباعة.

عملياً، كانت كل أديان العالم ممثلة في تلك المدينة. ففي شوارع دادو المزدحمة، كان الحاخامات وحكماء الهنود يختلطون بأعداد أكبر من نظرائهم البوذيين والمسلمين والنيسطوريين والكاثوليك. وبالرغم من أن خوبيلاي نفسه كان أكثر ميلاً نحو البوذية، إلاّ أن الكثير من أفراد العائلة المالكة كانوا من المسيحيين المؤمنين، في الوقت الذي كان بعض المغول في الصين ما زالوا يعتنقون الديانة الشامانية. في غضون ذلك، كان بعضٌ من أكثر مستشاري المغول احتراماً، من أتباع الديانتين التاوية والكونفوشيوسية [٤٠].

ومع أن الطبقة العليا التي تربّتْ على الطريقة الكونفوشيوسية في الصين الجنوبية كانت تنظر إلى الحكم البربري باعتباره بغيضاً ومهيناً، إلا أن المغول، والحق يقال، جلبوا إلى الصين السلام والوحدة السياسية لم تعهدهما منذ أن أطيح بالتانغيين سنة ٩٠٧. تحولت مدن المرافئ الصينية إلى مراكز رئيسة للاستيراد والتصدير حيث تخصصت مدينة هانغزو في تجارة السكر، ومدينة يانغزو في تجارة

الأرز؛ أما مدينة زيتون (التي تدعى كوانزو هذه الأيام) فقد تخصصت في تجارة اللآلئ والأحجار الكريمة.

كانت القناة الكبرى التي شقها المغول تمتد إلى مسافة ١١٠٠ ميل من هانغزو إلى بيجين الحديثة، وكانت تصل من الناحية الاقتصادية بين شمال الصين وجنوبها. وكانت المراكب التجارية الصينية تبحر غالباً باتجاه فيتنام وماليزيا وجاوا وسيلان وجنوب الهند، وتقفل عائدة وعلى متنها كميات كبيرة من السكر والعاج والقرفة والقطن. وازدهرت التجارة العالمية البرية والبحرية بين الصين وبلاد فارس التي يسيطر عليها المغول وآسيا الوسطى وأوروبا بشكل لم يسبق له مثيل. وكان التجار من كل الأديان والأعراق يجنون ثروات طائلة إبّان الحكم المغولي [٤١].

في غضون ذلك، لم يشعر فلاحو الصين الذين يشكلون غالبية السكان إلا بتغيرات بسيطة على أنماط حياتهم اليومية. فقد كانوا يدفعون الضرائب لعائلة إمبراطورية مختلفة، وبقوا يئنون تحت وطأة استغلال أصحاب الأراضي لهم. (أبقى خوبيلاي على أملاك كبار إقطاعيي الصين الجنوبية على حالها كي يضمن ولاء هؤلاء له.) من ناحية أخرى، إذا كان لنا أن نصدق ما هو مدون في السجلات الإمبراطورية، فقد أنشأ خوبيلاي ٢١٠٠٠ مدرسة حكومية ذات مناهج تركز على التعليم العالمي. بالإضافة إلى ذلك، استفاد الفلاحون من إصلاح خوبيلاي للقانون الجزائي الذي كان شديد القسوة في عهد السونغيين. فقد منح خوبيلاي العفو لمرتكبي الجرائم البسيطة الذي أظهروا الندم على ما ارتكبوه، وفي بعض الحالات، أبدل العقوبات الجسدية بغرامات مادية. وفي الوقت الذي كان نظراؤه من الأوروبيين ينزلون عقوبات بعدد متزايد من الناس عن طريق تمزيق أجسادهم بواسطة المِخلعة، أو تحطيمها بواسطة دواليب ضخمة، كان خوبيلاي يعارض ممارسة التعذيب. كما أنه لم يكن من أنصار عقوبة الإعدام؛ فقد انخفضت معدلات أحكام الإعدام في عهده بشكل دراماتيكي، وبمعدلات سنوية أقل بكثير مما هي عليه الحال الآن في الصين الحديثة أو الولايات المتحدة [٤٢].

يرى بعض الناس أن القرون التي كان العالم فيها تحت السيطرة المغولية، شهدت الموجة العظيمة الأولى للعولمة. فتحت الحكم المغولي، تم الربط بين أوروبا والشرق الأقصى للمرة الأولى بواسطة الطرق التجارية، وأيضاً بواسطة ما كان يعرف ب"اليام": وهي عبارة عن شبكة من محطات الإبدال التتابعي التي كانت تبعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثين ميلاً، وكانت هذه الشبكة تغطي الإمبراطورية من أقصاها إلى أدناها. وبحسب رواية ماركو باولو، كانت الرسائل العاجلة تنتقل بواسطة نظام السعاة هذا مسافة ثلاثمئة ميل يومياً. كان نظام اليام أيضا مفيداً للتجار الدوليين لأنه كان يوفر لهم أماكن للراحة والنوم - وأحياناً ملاءات الحرير - والطعام وخيول إضافية والعلف وحتى مرشدين للطرق.

كتب ويذرفورد أن المغول كانوا «حاملي الحضارة الثقافية من دون منازع». فقد بنوا الكنائس في الصين، والمدارس الإسلامية في روسيا، والقباب البوذية في بلاد فارس. «ونظراً إلى أنه لم يكن لديهم نظام خاص بهم كي يفرضوه على رعاياهم، فقد كانوا على استعداد لتبني نظم مختلفة من كل مكان ودمجها.» أحضر المغول أنواعاً جديدة من بذور الأرز والشعير والحبوب الأخرى من الصين إلى بلاد فارس، في الوقت الذي كانوا ينقلون أنواعاً جديدة من أشجار الليمون والحمضيات في الاتجاه الآخر. انتشرت في العالم الواقع تحت سيطرة المغول «أنواع عديدة من حبوب البازيلاء والفاصولياء والعدس والعنب والجوز والجزر واللفت والبطيخ وأنواع لا حصر لها من الخضراوات ذات الأوراق» مثلما انتشرت أنواع جديدة من الأصباغ والزيوت والتوابل والنماذج المعمارية ووسائل الطباعة والأقمشة مثل الساتان والموسلين والحرير الدمشقي. وكان الجراحون المسلمون الذين قيل إنهم كانوا الأفضل في عصرهم يجرون عمليات جراحية الآن في الصين، بينما كان الأطباء الصينيون المتخصصون في الأمراض الداخلية وعلم الصيدلة يعالجون الأمراض في آسيا الوسطى وبلاد الرافدين. تم إرسال الروس إلى شمال الصين، والتجار من جنوى إلى منطقة البحر الأسود، والتجار الصينيين إلى جنوب شرق آسيا حيث بنوا هناك شبكات تجارية واسعة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا. ومن علماء الرياضيات

العرب، مروراً بالسجاد الطاجيكي، وانتهاء بالمعالجين بواسطة الإبر الصينية، كان المغول «يبحثون دائماً عما هو أفضل، وعندما يجدونه، كانوا يقومون بنشره في البلدان الأخرى» [٤٣].

توفي خوبيلاي الذي كان آخر ملوك المغول العظام، بهدوء سنة ١٢٩٤ بعد حكم امتد طيلة أربع وثلاثين سنة. كان مختلفاً في كثير من الأوجه عن جنكيز خان. فقد كانت تعوزه حنكة جده ونزوعه نحو التوسع العسكري. كان أيضاً أكثر إنسانية منه. لم يقم خوبيلاي بارتكاب أي مجازر وحشية حتى في الحملات التي قادها هو بنفسه كتلك التي طبعت عهود أسلافه وجعلت من أسمائهم مثار رعب. إلا أنه درج على نهج جده من حيث ابتعاده عن الشوفينية الدينية أو العرقية. لم تكن لديه مشكلة في التعبير الحر عن إعجابه بالمعارف والإبداعات والإنجازات الثقافية لرعاياه من الشعوب المختلفة، بل والاقتباس منها. سمح لكل المعتقدات بأن تنمو وتزدهر، كما أنه تعامل مع الحضارة الصينية كما لو كانت جوهرة، بالرغم من أنه قام بتطعيمها بالمعرفة والتكنولوجيا الهندية والإسلامية.

ربما كان خوبيلاي عولمياً يناضل من أجل إنشاء نظام موحد للعالم، بخلاف جده الذي كان في أعماقه بدوياً من السهوب. وبفضل جمعه للخبرات العربية والصينية والإغريقية، استطاع المسّاحون وعلماء الفلك العاملون بإمرة خوبيلاي إنتاج أكثر أنواع الخرائط والرسوم البيانية البحرية والخرائط البرية للعالم تطوراً، متجاوزين في ذلك بأشواط بعيدة، أقرانهم الأوروبيين. قدم الكثير من الدعم للتجارة العالمية، وأيد مبدأ التعايش الديني، والتواصل الحر والتبادل الثقافي. ومن اللافت للنظر والمناسب في آن التذكير بأن أكثر الطموحات التي كانت تشغل بشغف بال خوبيلاي تمثلت في الرغبة في ابتكار أبجدية عالمية، تضم كل لغات الأرض، بالإضافة إلى تقويم عالمي يوحد بين التقويم القمري عند العرب، وبين التقويم الشمسي عند الأوروبيين، وبين دورة الإثنتي عشرة سنة الحيوانية عند الصينيين [٤٤].

التعصب والانحطاط

كما هي الحال دائماً في كل إمبراطورية، تسببت مجموعة من العوامل في انهيار الإمبراطورية المغولية العظمى؛ وكان من بين هذه العوامل عدم كفاءة قادتها، والفساد، والثورات، والانحطاط، والصراعات الفئوية، والاغتيالات، والهجمات الخارجية، وسوء الطالع. وصل الحكم المغولي في الصين إلى نهايته سنة ١٣٦٨، عندما أرغم حكام المينغ الجدد - يتباهون بانتمائهم الصيني العرقي - خصومهم المنحدرين من سلالة جنكيز خان على الفرار عائدين إلى السهوب. وكان الحكم المغولي في الإقليم الخاناتي الفارسي الذي كان يعاني من فوضى عارمة، قد انهار قبل ثلاثة عقود على ذلك. بالمقابل، قام المغول الذين كانوا يسيطرون على منطقة آسيا الوسطى بسلسلة من الفتوحات الدموية الجديدة في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر، واستطاعوا في النهاية تأسيس الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند إلى حين وقوعها في قبضة البريطانيين الذين استولوا عليها سنة ١٨٥٧. في غضون ذلك، كان المغول الذين يحكمون روسيا، والذين كان يطلق عليهم اسم "القبائل الذهبية" قد بدؤوا يفقدون - بشكل تدريجي - سلطتهم في الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم، وبدأ الانقسام يدب بينهم على امتداد أربعة قرون فتحولوا إلى جماعات صغيرة أقل عدداً.

إلا أن الانحطاط الذي دب في جسم الإمبراطورية المغولية في كافة أنحائها كان يتسم بقاسم مشترك واحد: ألا وهو التحول الفاضح للمغول نحو التعصب، خصوصاً في إطاره الديني على الصعيدين الرسمي والشعبي. تحالف حكام المغول في القرن الرابع عشر مع أكثر الفئات الدينية نفوذاً في إمبراطوريتهم وذلك لجملة من الأسباب المختلفة، كان من بين أهمها السبب غير المعلن والمتمثل بانتشار وباء الطاعون الدّبلي الذي أزهق أرواح خمس وسبعين مليوناً من البشر، وتسبب في وقف التجارة الدولية، ومنع فعلياً كل سبل الاتصال بين الخانات المغول الأربعة. وكان التخلي عن مبدأ حرية العقيدة الدينية الذي أسس له جنكيز خان قد أدى بهم إلى

ولوج طريق التعصب الأعمى، وتحميل الآخرين تبعة ما تعاني منه الإمبراطورية، وفي بعض الحالات، إلى القتل الجماعي.

تفاوتت تفاصيل ممارسات التعصب تلك داخل كل واحدة من أجزاء تلك الإمبراطورية. فقد كان مغول روسيا أول من أشهروا إسلامهم بين المغول. تحالفوا بعدها مباشرة مع المماليك الذين كانوا يحكمون مصر في حربهم المقدسة ضد العالم المسيحي؛ وقاموا في بعض الحالات بمهاجمة أقرانهم المغول في بلاد فارس الذين كانوا بدورهم يمارسون التنكيل برعاياهم المسلمين ثَمَّ، وفي سنة ١٢٩٥، أشهر الخان المغولي غازان الذي كان حاكماً لبلاد فارس إسلامه، تماشياً مع رعاياه الفرس الذين كان يدين معظمهم بالإسلام. لسوء الحظ، كان أحد أكثر مستشاري الخان غازان تأثيراً هو الجنرال نيروز المسلم، المعروف بتعصبه وكراهيته.

قام نيروز بتطهير الإقليم الخاناتي من البوذية، وتدمير معابدها وتماثيلها، مجبراً معتنقيها - الذين كانوا يشكلون أقلية مغولية بشكل خاص - على إشهار إسلامهم. لقد وجهت الأوامر إلى المسيحيين واليهود كي يرتدوا ألبسة خاصة مميزة كي يكون باستطاعة العصابات الإسلامية التحرش بهم والاعتداء عليهم. اندلعت أعمال الشغب الدينية؛ حيث دمرت الكنائس وألقى القبض على المسيحيين الذين اعتقلوا وضربوا أو قتلوا. لم يسلم حتى أتباع الديانة الشامانية التي كانت الديانة الأصلية للمغول، من الاضطهاد والقمع. فقد نيروز في النهاية حظوته عند غازان الذي أمر بقطع نيروز إلى نصفين. لكن المغول في إيران استمروا في حكم تلك المنطقة باسم الإسلام، واستمر النزاع الديني في هز أركان الإقليم الخاناتي إلى أن انهار سنة ١٣٣٥ [٤٥].

أما في الصين، فقد وصل المنحدرون من سلالة خوبيلاي خان الذين كان يحيط بهم سخط شعبي من كل حدب وصوب، إلى استنتاج مفاده أنهم أضعفوا أنفسهم بسبب أنهم أصبحوا «صينيين أكثر مما ينبغي». كان أعضاء البلاط الإمبراطوري

يستذكرون أحلاماً كان يحثهم فيها جنكيز خان على ممارسة حكمهم للصينيين بصورة أكثر قسوة. ولكن، بغض النظر عن الأسباب التي حدت بهم للقيام بذلك، بدأ الأباطرة اليوانيون يضعون حواجز بشكل متزايد بينهم وبين رعاياهم الصينيين، من خلال عزل أنفسهم، والتأكيد على هويتهم المغولية، ورفض استعمال اللغة والثقافة الصينية. تم منع الحكايات التقليدية والأوبرا الصينية التي قدم خوبيلاي لها الدعم الكبير فيما مضى. وكما كانت الحال في بقية الخانات، تخلى الحكام المغوليون عن حيادية أسلافهم الدينية. أما في الصين، فقد كانت البوذية بصوفيتها التيبيتية، وإطارها التانتري، الديانة التي ارتقت فوق جميع الديانات الأخرى.

تميزت العقود الأخيرة من الحكم المغولي للصين بالضّعة والفوضى. بدأت الإشاعات تعم البلاد بأسرها بأن الحكام المغوليين يخططون من خلف أسوار قصورهم لإبادة الأطفال الصينيين، وينغمسون في طقوس جنسية شاذة. كانت الإشاعة الأخيرة صحيحة جزئياً. فبناء على إلحاح من رجال الدين التيبيتيين، قامت العائلة الحاكمة المغولية بممارسة أنواع جنسية ماجنة من الرقص، كان من المفترض أن تكون جزءاً من الطريق باتجاه التنوير التانتري. تصاعد الشعور بالعصابية ورهاب الأجانب خارج أسوار المدينة المحرمة. وكان من بين الأجانب الذين كانوا يحظون بنفوذ كبير، الرهبان التيبيتيون الذين كانوا يتمتعون بامتيازات إمبراطورية كبيرة؛ وقد أصبحوا محط كراهية السكان المحليين. سنة ١٣٣٣، ارتقى طوغون تيمور - وكان فتى لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره - عرش المغول. في الوقت نفسه، ضرب الطاعون الدّبلي الصين مخلفاً وراءه تسعين في المئة من سكان إقليم هيبي في عداد الموتى. بحلول سنة ١٣٥١، مات أكثر من ثلثي الشعب الصيني الإجمالي بسبب الطاعون. في غضون ذلك، توقفت الأعمال التجارية بشكل كلي، وضرب التضخم اقتصاد الإمبراطورية، واشتعلت ثورات الفلاحين في كل مكان.

بحسب رواية بايان، وهو أحد وزراء طوغون تيمور، كان أساس كل تلك المشكلات المبالغة في عملية "التصيّن". اقترح حلاً لتلك المشكلة يتضمن إعدام كل الصينيين في كافة أنحاء الإمبراطورية الذين تنتهي أسماء عائلاتهم ب: تشانغ، ووانغ، وليو،

ولي، وتشاو. لو قيض لهذه الخطة أن توضع موضع التطبيق، لكان تسعون في المئة من الشعب الصيني قد أُعدموا؛ لكنها لم تطبق أبداً، إلا أنها تمثل المزاج العام المليء بالتعصب، والذي طبع آخر سني سلالة يوان الحاكمة.

كان طوغون تيمور آخر أباطرة الصين اليوانيين. اندلعت الانتفاضات المعادية للمغول في جميع أنحاء الصين الجنوبية، وبرز اسم أحد قادة التمرد الصينيين وهو زو يوانزانغ المفعم بالحيوية، والذي زعم أنه مفوض من قبل الإله للقيام بالثورة. بعد أن نجحت قواته في طرد جيش طوغون تيمور المغولي من الأراضي الصينية، أسس زو يوانزانغ سلالة مينغ الحاكمة.

غاصت الصين على امتداد القرون الثلاثة اللاحقة، في أعماق سياسة انعزالية فرضتها على نفسها. وعندما اتضح لأباطرة المينغيين أنه ليس بإمكانهم إخضاع «البرابرة» المحيطين بهم، قاموا ببناء أسوار هائلة عزلوا الشعب الصيني داخلها عن العالم الخارجي. قاموا بطرد التجار الأجانب، ومنعوا سفر الصينيين إلى الخارج، كما شنوا حملة شعواء ضد كل العادات والديانات والأفكار غير الصينية. منعت اللغات الأجنبية من التداول، وأعيد الاعتبار للكونفوشيوسية والتاوية كديانتيْن رسميتين للبلاد. وكان على الصين الانتظار حتى بداية القرن الحادي والعشرين كي تعود من جديد إلى الانفتاح، والعالمية، ومد اليد إلى العالم، كما كانت عليه الحال إبان العصر المغولي[٤٦].

كانت عبقرية جنكيز خان هي التي أنشأت شعباً موحداً انبثق من بين قبائل متحاربة في السهوب المغولية. نجح جنكيز خان، بعكس الفرس الأخمينديين، في التأسيس لهوية سياسية جديدة - الأمة المغولية العظمى، أو «شعب الجدران المصنوعة من اللباد» - لكن هذه الهوية لم تتضمن إلا الشعوب البدوية في السهوب. لم يكن الهدف منها بأي حال من الأحوال أن تتضمن، أو تجذب الشعوب غير المغولية التي كانت تنظر إلى فاتحيها المغول على أنهم أشرس أنواع البرابرة.

وبينما كان المنحدرون من صلب جنكيز خان يمعنون في ضم قطاعات هائلة من

أراضي بلاد فارس والصين والهند، وروسيا، وشرق أوروبا، في حين أن شعوب هذه البلدان لم تَعُد أنفسها مغولية، أو جزءاً من «شعب الجدران المصنوعة من اللباد»، أو رعايا يفتخرون بأنهم جزء من الإمبراطورية المغولية العظمى، لا من قريب ولا من بعيد. ما حدث، كان عكس ذلك تماماً، وكان في غاية الروعة.

فبدلاً من أن يفرضوا هويتهم على إمبراطوريتهم ذات الحجم الهائل، قام الحكام المغول بشكل تدريجي بتبني ثقافات رعاياهم الأكثر «تمدناً ورقياً». ففي الصين، تبنى خوبيلاي خان لقباً صينياً، وأسس لسلالة حكم صينية، كما أحاط نفسه بالفن والموسيقى والدراما الصينية. وفي آسيا الوسطى، اعتنق الخانات المغول الإسلام وجعلوا من الفارسية لغتهم الرسمية. ولكن لم يتم استعمال أي نوع من أنواع «الغراء» لجمع هذه الممالك التي بدأت تتباعد عن بعضها بعضاً بالتدريج. خلال مدة قصيرة، انقسمت هذه الإمبراطورية المغولية التي كانت - يوماً ما- تسيطر على العالم، إلى أربع قطع كبيرة؛ غاصت كل واحدة منها في خضم التعصب، وخصوصاً التعصب الديني. ولم تمضِ سوى مدة قصيرة، حتى انهارت هذه الإمبراطورية المغولية العظمى

القسم الثاني

التنوير المنبثق من التسامح

الفصل الخامس

«تطهير» أسبانيا في العصور الوسطى

محاكم التفتيش والطرد وثمن التعصب

> أبلغنا المفتشون وكذلك عدد كبير من الناس من المؤمنين ورجال الكنيسة والأشخاص العاديين عن الضرر الكبير الذي عانى منه المسيحيون جرّاء اتصالهم باليهود وتواصلهم معهم واختلاطهم بهم. هؤلاء اليهود حاولوا بشتى السبل أن يغووا المسيحيين المؤمنين كي يرتدوا عن إيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية المقدسة. ... قررنا نحن، أن على اليهود جميعاً، ذكوراً وإناثاً مغادرة ممالكنا وعدم العودة إليها مجدداً تحت أي ظرف. ... وإذا لم يحترموا هذا القرار، وثبت أنهم مذنبون بالبقاء في هذه المناطق، أو العودة إليها، فسوف نحكم عليهم بالإعدام.
>
> - قرار الطرد، آذار، مارس، ١٤٩٢

في التاسع عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة ١٤٦٩، وفي حفل أحيط بالسرية والكتمان، وغلب عليه ما يشبه جو المؤامرة، تزوج وريث عرش أرغون البالغ من العمر سبع عشرة سنة من وريثة الكاستيل التي كان يبلغ عمرها ثماني عشرة سنة. من خلال هذا الرابط بين فرديناند وإيزابيلا اللذين التقيا للمرة الأولى قبل أربعة أيام من حفل الزواج ذاك، ارتقت أسبانيا الموحدة إلى درجات عُلا من المجد. كانت أسبانيا في الحقبة التي تم فيها ذلك الزواج - وقبل ذلك بمئتيْ سنة- واحدة من أكثر المجتمعات التي تتميز بتنوع ديني في أوروبا المسيحية. فقد كان أجداد

فرديناند نفسه من اليهود من طرف أمه [1]. بعد ثلاث وعشرين سنة على ذلك، -وفي الوقت الذي كانت فيه السفن الأسبانية المموّلة من قبل اليهود تصل إلى الشواطئ الأمريكية - كان فرديناند وإيزابيلا يصدران أمراً بطرد يهود أسبانيا منها. أدى نزوع أسبانيا المتزايد نحو التعصب الشديد - ليس فقط ضد اليهود، بل ضد من اعتنق اليهودية، وكذلك ضد المسلمين، والذين اعتنقوا الإسلام، والبروتستانت، وأخيراً حتى ضد اليسوعيين - إلى عرقلة قوتها، ووضع حد لأي فرصة لها في أن تتحول إلى قوة عظمى.

كانت أسبانيا في العصور الوسطى بعكس جميع جاراتها الأوروبيات في الشمال تضم أقلية مسلمة كبيرة، هي من بقايا قرون سالفة من الحكم الإسلامي. في منطقة أرغون، كانت نسبة "المودي جاريين"، وهي التسمية التي كانت تطلق على المسلمين الذين يعيشون في أراضي المسحيين، حوالي ٣٥ في المئة من عدد السكان الذين بلغ عددهم ٢٠٠٠٠٠ نسمة تقريباً. أما في بعض المناطق الريفية، فقد كان المسلمون يشكلون في واقع الأمر أغلبية. كانت أسبانيا أيضاً موطناً للغالبية العظمى من اليهود في أوروبا المسيحية الذين كانوا قد طردوا من مناطق مختلفة من إنجلترا سنة ١٢٩٠، ومن فرنسا في سنوات ١٣٠٦ و ١٣٢٢ و ١٣٩٤ والذين تعرضوا لمذابح بشكل متكرر في ألمانيا سنة ١٢٩٨، وبين سنتيْ ١٣٣٦ و٣٨، وكذلك سنة ١٣٨٤. كان الأسبان يعتبرون الأكثر عالمية من بين كل أقرانهم الأوروبيين في تعاملهم مع غير المسيحيين، نتيجة للتعايش غير المألوف بين هذه المجتمعات الدينية. «لم يتصور أي من الكتاب الأيبيريين، كما فعل الألماني وولفرام فون إيزينباخ، أن أبناء زوجين أحدهما مسيحي والآخر مسلم سوف يكونون مرقطين باللونين الأبيض والأسود، فقد كانوا أكثر تنوراً»[2].

لا يجوز بالطبع المبالغة في تصوير التسامح الأسباني، أو الخلط بينه وبين «احترام الاختلاف» الذي يتضمنه مفهوم التسامح في القرن الحادي والعشرين. كان المسلمون واليهود غالباً ما يتم عزلهم في أحياء منفصلة، ويطلب إليهم ارتداء

ملابس خاصة تميزهم عن الآخرين. كان التزاوج بينهم وبين المسيحيين جريمة يعاقب عليها القانون بالسجن والتعذيب وحتى الإعدام. وبالرغم من أن الخوف من النسل المرقط لم يكن وارداً، فإن المسلمة التي كانت تضبط وهي تواقع مسيحياً، كانت تنزع عنها ثيابها، وتجلد في الشوارع. أما معاداة السامية التي كان غالباً ما يؤججها رجال الكنيسة، فقد كانت تخرج عن نطاق السيطرة من حين لآخر، وتظهر على شكل موجات من عمليات قسر اليهود على اعتناق المسيحية. أدت هذه العمليات إلى نشوء طبقة جديدة ممن أطلق على أفرادها اسم "المُهتدون" (أي اليهود الذين اعتنقوا المسيحية)، الذين كانوا في الغالب مثار شك في أنهم ما زالوا يمارسون طقوسهم اليهودية سراً - وكان هذا صحيحاً في معظم الأحيان. وكانت موجات العنف التي اندلعت على خلفية معاداة السامية موغلة في وحشيتها أحياناً لدرجة أنها كانت تثير إحساساً عارماً بالصدمة. في شهر حزيران، يونيو، سنة ١٣٩١، تعرض اليهود إلى سلسلة من المذابح الجماعية في سيفيل؛ وما لبث هذا العنف أن امتد إلى قرطبة وتوليدو وفلينسيا وبرشلونة. وكانت حصيلة هذه المذابح قطع أعناق العديد من اليهود، واعتناق الآلاف منهم الديانة المسيحية [٣].

مرة أخرى، ما يهم هو التسامح النسبي؛ فبالرغم من اندلاع مثل هذه الموجات الرهيبة من العنف، كانت أسبانيا في معظم فترات القرنين الثالث عشر والرابع عشر أفضل مكان - وأحياناً المكان الوحيد - بالنسبة لغير المسيحيين للعيش والاستقرار في أوروبا الغربية. استفاد العديد من مسلمي أسبانيا من المعاهدات الخاصة التي منحتهم الحق في ممارسة معتقداتهم الدينية، وأن تحكمهم قوانينهم الخاصة بهم. كان المسلمون في أماكن مثل فالينسيا يعيشون تحت شكل من أشكال الحكم الذاتي، بحيث إنهم كانوا يتواصلون فقط مع أقرانهم المسلمين ويتحدثون فقط باللغة العربية. وفي بعض المناطق الأخرى، كان المسلمون مندمجين في المجتمع المسيحي بقدر أكبر؛ فقد كان المسلمون في كل من أرغون وكاتالونيا على سبيل المثال، يعيشون جنباً إلى جنب مع المسيحيين يتبادلون فيما بينهم الخدمات وعمليات البيع والشراء. سيطر المسلمون على بعض الصناعات المحلية، وكان من أهمها تجارة البناء [٤].

كانت الحال بالنسبة إلى اليهود مختلفة تماماً. فبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين تعمل في مجال الزراعة - حيث إن معظم النخب المسلمة هاجرت إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين - فقد كان اليهود الأسبان في غالبيتهم من سكان المدن، وكانوا أكثر تعلماً وثقافة. كان جميع اليهود الأسبان يتكلمون الأسبانية بلكنة خاصة بالإضافة إلى اللغتين العبرية والعربية. وبينما كان المسلمون في معظمهم يعملون أجراء عند أصحاب الأراضي من الإقطاعيين وقادة السلطة الدينية، كان اليهود تحت سيطرة الملك وحمايته المباشرة بحكم أنهم كانوا يدفعون له الجزية.

شارك اليهود الأسبان في العديد من الأنشطة الاقتصادية في مختلف المجالات. كان رجال اليهود يعملون كإسكافيين وبائعي سمانة وصيادلة ومربي نحل وصباغين وصاغة. وكان جل زبائنهم من المسلمين والمسيحيين. أما النساء اليهوديات فكن يعملن غزّالات ونسّاجات وقابلات قانونيات. بعض اليهود كانوا من كبار مالكي المواشي؛ وكان بعضهم الآخر من أصحاب الأراضي التي يؤجرونها على شكل مزارع صغيرة أو عقارات كبيرة أو كروم عنب أو بساتين.

وبالرغم من أن معظم اليهود الأسبان، شأنهم في ذلك شأن معظم المسيحيين الأسبان، كانوا من ذوي الموارد البسيطة، فقد تبوأت نسبة لا بأس بها منهم مواقع محترمة وذات نفوذ؛ كما ارتقى بعضهم إلى موقع أصحاب النفوذ والثروات الطائلة. كان اليهود الأسبان من فلكيين وفلاسفة وخطاطين وأطباء من بين أهم أفراد البلاط الأسباني. وكان الطاقم الطبي لكل ملك كاستيللي في القرن الخامس عشر يضم طبيباً يهودياً. كما كان من الشائع وجود جباة ضرائب من اليهود في كافة أنحاء البلاد، وكان التجار اليهود يتمتعون بأهمية خاصة في مجال تجارة التصدير والاستيراد في أسبانيا. أما أكثر اليهود ثراء فكانوا مشرفين ماليين في البلاط الملكي وخبراء ماليين، وكانوا يعملون أيضاً في مجال الاستشارات والبنوك، حتى إنهم "كمُهتدين" إلى الديانة المسيحية، كانوا يتزاوجون مع العائلة المالكة الأسبانية وطبقة النبلاء. يبدو أن العائلات اليهودية في كاستيل أدت دوراً في ترتيب زواج إيزابيلا من أمير ذي

جذور يهودية. خلال العقود الأولى من حكم إيزابيلا وفرديناند، كانت دائرة البلاط الداخلية تتضمن ليس فقط المُهتدين من اليهود السابقين، بل أيضاً اليهود المؤمنين، بمن فيهم أبراهام سينيور الذي كان المسؤول المالي في "الميليشيا المركزية"، وأحد أقوى الأشخاص في أسبانيا بأسرها [٥].

كانت الفوائد التي جنتها أسبانيا من تسامحها النسبي حاسمة في توسعها الجغرافي وصعودها بصفتها قوة إمبراطورية. فبالإضافة إلى الفوائد غير المرئية التي أسهمت في تنشيط حركتها الفكرية والثقافية، أفادت أسبانيا من ميزتين أساسيتين من سكانها غير المسيحيين: القوة العاملة والمال.

عندما أعاد الأسبان فتح المناطق التي كان يحكمها المسلمون، اتبعوا في بداية الأمر الإستراتيجية الناجعة نفسها التي طبقت في بلاد فارس الأخمينيدية، وكذلك في روما القديمة: فقد سمحوا لأفراد تلك الجماعات بالحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، وممارسة عقائدهم الدينية، وفي بعض الأحوال، حكم أنفسهم بأنفسهم. وكانت النتيجة المباشرة لذلك ازدياد عدد السكان المنضوين في منظومة الحكم الأسباني. على سبيل المثال، تضاعف حجم التاج الأرغوني مرتين من خلال الفتوحات التي تمت في القرن الثالث عشر. استطاعت أسبانيا من خلال التسامح مع المسلمين الذين كانوا يعيشون هناك بدلاً من محاولة طردهم أو القضاء عليهم، تأمين فتوحاتها، ومن ثَم، الحصول على العمالة المطلوبة لزراعة الأراضي الخصبة في جنوب أسبانيا. كانت الحاجة إلى العمالة الزراعة في واقع الأمر، السبب الرئيس الذي دفع الملوك الأسبان للدخول في معاهدات مع المجموعات المسلمة التي تم إخضاعها بواسطة الفتوحات، وبموجب هذه المعاهدات، تم السماح لهؤلاء بممارسة شعائرهم الدينية الإسلامية.

في الوقت نفسه، حصدت أسبانيا في العصور الوسطى مكافآت مالية مجزية من خلال انفتاحها على اليهود، بالرغم من أنها كانت تنظر إلى هؤلاء بعين الحسد. كان يهود ذلك العصر يسيطرون على واحدة من أهم الشبكات التجارية وشبكات

الإقراض والتبادل التجاري في العالم. فقد كانوا يسيطرون على تجارة الألماس العالمية، وكانوا لاعبين أساسيين في المراحل الأولى لتطور الأعمال المالية العالمية. عمل اليهود في القرنين الثالث عشر والرابع عشر كأمناء صناديق مالية، وجباة للموارد المالية لعدد كبير من الملوك الأسبان، وبيوتات النبلاء، والأساقفة، وكبار الأساقفة، وحتى لجماعات الرهبان في الكاتدرائيات. كان قيام اليهود بإقراض المال مهماً جداً لاستمرار البذخ الملكي، وكان ذلك يتم على شكل قروض مباشرة للملك، وكشكل رئيس من مصادر إيرادات الضرائب. (مقابل عملية الإقراض التي كانت تتم بفوائد، كان الملك يفرض ضرائب على جميع القروض اليهودية.)

أحد الأمثلة التي تدل على أن الممولين اليهود لم يكن بالإمكان الاستغناء عنهم تمثّلَ في الحرب الأهلية التي دارت رحاها في القرن الرابع عشر بين الملك بطرس «الشرس» الكاستيللي وأخيه غير الشقيق وغير الشرعي هنري ملك تراستمارا. كان كبير أمناء صندوق بطرس، الخبير المالي ذا النفوذ الكبير، اليهودي صاموئيل هاليفي هو الذي قام ببناء كنيس مدهش في توليدو الذي ما يزال قائماً إلى يومنا هذا. وكان من ضمن استراتيجية هنري لإقصاء بطرس، قيامه بتغليف محاولته الاستيلاء على العرش باعتبارها نوعاً من الحملة الصليبية ضد "الوجود الشرير" للخبراء الماليين وجباة الضرائب اليهود في البلاط الملكي. ولكن بعد أن هزم بطرس، اكتشف هنري أنه ليس بإمكانه الاستغناء عن رأس المال والخبرات المالية اليهودية؛ وهكذا فقد كان كبير خبرائه الماليين من اليهود، وكذلك كان طبيبه الخاص. بعد مرور قرن على ذلك، كانت أموال رجال البنوك اليهود هي التي موّلت البعثات الأسبانية الأولى لاكتشاف العالم الجديد [٦].

محاكم التفتيش والتعصب

تأسست محاكم التفتيش الأسبانية سنة ١٤٧٨ بموجب أمر بابوي. وهكذا انتهى عصر التسامح الأسباني النسبي. أناطت مؤسسة الكنيسة بموجب الأمر الرهباني

الدومينيكاني المزود بسلطات وحشية بمحاكم التفتيش مهمة تطهير البلاد من الهراطقة. من اللافت أن عبارة "الهراطقة" لم تشر إلى اليهود والمسلمين وحسب، بل إلى المسيحيين المزيفين أيضاً. ومع بداية سنة ١٤٨٠، بدأت محاكم التفتيش بملاحقة "المُهتدين" إلى المسيحية الذين كانوا، بالرغم من اعتناقهم للديانة المسيحية، متهمين بممارسة الطقوس اليهودية سراً، ومحاكمتهم وإعدامهم. بعد ذلك مباشرة، بدأت في أسبانيا عمليات تطهير البلاد من المسلمين واليهود على السواء.

أصدر فرديناند وإيزابيلا أمرهما الشهير سنة ١٤٩٢ خيّرا فيه اليهود بين اعتناق الكاثوليكية أو مغادرة البلاد في غضون أربعة أشهر. وبحسب أحد التقديرات، غادر حوالي ٢٠٠٠٠٠ يهودي أسبانيا، ذهب حوالي ١٢٠٠٠٠ منهم إلى البرتغال، أما البقية الباقية فقد اتجهت صوب إيطاليا والأراضي العثمانية. بحلول سنة ١٥٠٣، صدر أمر إلى المسلمين بأن عليهم أن يختاروا إما اعتناق المسيحية أو الهجرة. اختارت الأغلبية الساحقة منهم اعتناق المسيحية، وبذلك فقد أسسوا لمجموعة جديدة هائلة العدد أطلقت عليها تسمية " الموريسكوس". بعد ذلك مباشرة، صدر أمر مشابه لمسلمي أرغون. بدأت محاكم التفتيش باضطهاد الموريسكوس سنة ١٥٢٦ لإخفاقهم في ممارسة الطقوس المسيحية. تبنت العائلة الملكية الأسبانية التعصب بشكل رسمي، وكانت تلك الخطوة مغامرة غير محسوبة بالنسبة إلى إمبراطورية تطمح في أن تصبح قوة عالمية عظمى [٧].

أدت الموجة الأولى من محاكم التفتيش إلى القضاء بشكل كامل تقريباً على السكان من فئات "المُهتدين". في فالينسيا، أدين ألف من هؤلاء تقريباً بين سنتيْ ١٤٩٤ و١٥٣٠ بتهمة "التهوّد" وحكم عليهم بالإعدام. أما في سيفيل، وفي المدة نفسها تقريباً، فقد أدين منهم حوالي أربعة آلاف أعدموا جميعاً حرقاً على الخازوق. وهو ما أثار الرعب في قلوب عشرات الآلاف من عائلات المُهتدين التي فرت من البلاد.

خلّف النزوح الجماعي لليهود والمُهتدين فراغاً مالياً كارثياً في أسبانيا. فالثقافة الكاستيلية لم تكن تعنى بالمال أو التجارة. كان هناك عداء واضح للأعمال المالية والتعهدات من قبل النخبة الكاستيلية التي كانت تظهر ميلاً نحو المحاربين والرهبان ومالكي الأرض الأرستقراطيين. مع ذلك، لم يكن للمصرفيين الأجانب قبل سنة ١٤٩٢ أي دور في أسبانيا، في حقيقة الأمر. من وجهة نظر الأسبان، «لم يكن ملوكنا بحاجة إلى مصرفيين غرباء عن المملكة؛ فحَمَلَة اسم أبراهام وإسحاق وصاموئيل كانوا يفون بالغرض.» هذه السيطرة على المقدرات المالية من قبل اليهود والمُهتدين كانت في كثير من جوانبها تمثل ظاهرة صحية: فاليهود كانت لهم مصلحة عليا في الإبقاء على قوة الدولة الأسبانية التي اعتمدوا عليها في حمايتهم. خدمت هذه العلاقة التكافلية ملوك أسبانيا بشكل جيد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وبحلول نهاية القرن الخامس عشر، أصبح التاج الأسباني الموحد بقيادة فرديناند وإيزابيلا الأغنى في كل دول أوروبا. وتحولت أسبانيا إلى «أعظم سلطة على وجه الأرض.»

دمرت أسبانيا مصدرها الرئيس للثروة بمهاجمتها لليهود والمهتدين، فأصبحت بعد ذلك تعتمد كلياً على أصحاب المصارف الأجانب بمن فيهم الهولنديين والألمان والفرنسيين وخصوصاً الجنويين الممقوتين («المغاربة البيض» كما سماهم أحد الأسبان الممتعضين). ارتفع سعر رأس المال. بدأ الجنويون منذ سنة ١٥٠٩ بتقديم قروض بنسب فوائد عالية لدرجة أن أساقفة سيفيل بدؤوا في التفكير في فرض حظر عليها؛ إلا أن فرديناند منعهم من القيام بذلك وذلك لأحكام الضرورة.

سيطر رجال المصارف "الجنويون" خلال عقود قليلة على حركة الأسطول الأسباني، و «بدأ الخبراء الماليون الأجانب بإدارة الموارد المالية للتاج.» كان الاعتماد على الخبراء الماليين الأجانب يشكل خطورة من نوع خاص لأن تلك الحقبة كانت تمثل المدى الأقصى للتوسع الأسباني الاستعماري خصوصاً في الأمريكيتين حيث كانت البعثات الاستكشافية البحرية والحروب تتطلب أموالاً لا تعد ولا تحصى.

وهكذا ومن قبيل المفارقة، نشأت إمبراطورية كانت بالأساس مفلسة بالرغم من أنها هي التي اكتشفت واستغلت أكبر احتياطات من نوعها من المعادن الثمينة التي تم العثور عليها في التاريخ [٨].

كانت مناجم الذهب والفضة الرائعة في أمريكا الجنوبية والوسطى تضخ كنوزها في السفن الأسبانية، لكن هذه الكنوز كانت محجوزة سلفاً لأصحاب المصارف الأجانب الذين قاموا هم بتمويل هذه السفن، والجيش والتاج الأسباني الغني المترف. أعلن عن الإفلاس الملكي مرتين وذلك في سنتي ١٥٥٧ و ١٥٧٥. فجأة، استفاق التاج الأسباني من جديد على فائدة الخبراء الماليين اليهود.

استولى الأسبان سنة ١٥٨٠ على مملكة البرتغال، ونظراً لحاجتهم الماسة إلى رأس المال، بدأ فيليب الثاني بقبول قروض من اليهود و «المسيحيين الجدد» البرتغاليين (وهم مهتدو البرتغال). كان الكثيرون من هؤلاء المسيحيين الجدد يتمتعون بثروات طائلة، حيث أصبحوا مستثمرين مهمين في تجارة أسبانيا الدولية جنوا من خلالها ثروات طائلة من الاستثمار في السكر البرازيلي والتوابل الآسيوية والعبيد الأفارقة. هاجر بعض المسيحيين الجدد البرتغاليين إلى مستعمرات أمريكا الأسبانية حيث وضعوا أيديهم على سبيل المثال، على التجارة في منطقة المحيط الهادي من ليما وإليها. عاد بعضهم الآخر إلى أسبانيا - أرض أجدادهم التي فروا منها قبل قرن على ذلك - وذلك لاعتقادهم بأن عصر الاضطهاد قد ولى إلى غير رجعة [٩].

لكنهم كانوا مخطئين. على العكس من ذلك، وهو ما كان متوقعاً، فقد اندلعت موجة جديدة من التعصب الديني في طول أسبانيا وعرضها. عادت محاكم التفتيش النائمة إلى الانتعاش من جديد في تسعينيات القرن السادس عشر على شكل حملة لا هوادة فيها من الاضطهاد والتعذيب والإعدام التي استهدفت المسيحيين الجدد في لا مانشا، والذين اتهموا من قبل مدينيهم بأنهم ما يزالون يهوداً في السر. أضحت نغمة «نقاء الدم» من جديد محور المعركة الحالية في الوقت الذي عادت إلى الحياة

التشريعات القديمة التي تمنع أي شخص ذي جذور يهودية من تبوء أي مناصب في الحكومة أو الجامعات أو المعاهد، أو المؤسسات العسكرية والدينية. في سنة ١٦٠٠، هاجمت محاكم التفتيش في ليما المسيحيين الجدد في البيرو. بدأت أسبانيا سنة ١٦٠٩ حملة طرد جماعي، ولكن هذه المرة ليس فقط ضد اليهود، بل ضد المسلمين، والمسلمين «السريين». وبحلول سنة ١٦١٤، كانت أسبانيا قد أنهت عملية طرد ما يقرب من ربع مليون من "الموريسكوس، وتدمير ممتلكاتهم الزراعية في الجنوب[١٠].

خضع التعصب الذي كان أحد مظاهر تدمير أسبانيا الذاتي إلى مراحل من المد والجزر خلال القرن السابع عشر. تم إعدام تسعة وثلاثين من المسيحيين الجدد سنة ١٦٢٥ في احتفال مرافق لأحكام الإعدام نظمته محاكم التفتيش في قرطبة. وفي سنة ١٦٣٢، قامت محاكم التفتيش بالاحتفال "بفعل إيمان"، آخر في مدريد تم فيه إعدام سبعة "متهودين" حرقاً على مرأى من الملك فيليب الرابع. وفي غرناطة، تم إعدام سبعة وتسعين آخرين من هؤلاء "المتهودين" حرقاً على الخازوق سنة ١٦٧٢. وفي مدريد من جديد، أعدم تسعة وعشرون من «اليهود الخونة...الأشد عداوة للرب» بحضور الملك تشارلز الثاني وحاشيته سنة ١٦٨٠. بلغ مجموع من أعدمتهم محاكم التفتيش حرقاً على الخازوق ٣٢٠٠٠ من "الهراطقة". في الوقت نفسه، أخذت الإمبراطورية على عاتقها مهمة الدفاع عن الدين في أوروبا وأنفقت في سبيل ذلك مبالغ طائلة على الحروب التي شنتها على البروتستانت في ألمانيا وفرنسا وهولندا. وقام الملك تشارلز الثالث سنة ١٧٦٧ بطرد اليسوعيين الأسبان بناء على «مكائد» كانت من «الفظاعة» لدرجة أن الملك كان عليه «التزام الصمت المطبق حول الموضوع»[١١].

وجد المؤرخون في الأسباب التي أدت إلى انهيار أسبانيا في القرن السادس عشر موضوعاً ذا جاذبية خاصة. من بين بعض أهم العوامل المساهمة في هذا الانهيار يمكن الإشارة إلى التخلف التقني، والتقاليد الإقطاعية المتجذرة في المجتمع، والديون الأجنبية التي ناءت الدولة تحت ثقلها، وغياب أي دور حقيقي للقطاع المهني

أو الصناعي، والتراجع السكاني، وضعف جهاز الدولة، والميزانية التي تعاني من أمراض مزمنة (١٢). يمكن في واقع الأمر إرجاع الكثير من هذه العوامل بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى نزوع التاج الأسباني نحو التبني الرسمي لعمليات التطهير الديني وإحراق الخصوم، والذي بدأ منذ ثمانينيات القرن الخامس عشر.

ما سبق لا يتضمن الإشارة إلى أن محاكم التفتيش كانت تشكل المصدر الأوحد لجميع أمراض أسبانيا؛ وهو ما سخر منه أحد الكتاب في القرن التاسع عشر الذي تساءل بتهكم: «لماذا لا توجد صناعة في أسبانيا؟ بسبب محاكم التفتيش.... لماذا الأسبان كسالى؟ بسبب محاكم التفتيش. لماذا تنتشر مصارعة الثيران في أسبانيا؟ بسبب محاكم التفتيش. لماذا يأخذ الأسبان قيلولة؟ بسبب محاكم التفتيش» (١٣).

مع ذلك، لا يمكن إغفال حقيقة أن التعصب الأسباني - المتمثل في جملة من العوامل منها محاكم التفتيش وعمليات الطرد والتشريعات القائمة على تنقية الدماء، وهكذا - جعل الإمبراطورية تدفع أثماناً كارثية. ولو وضعنا جانباً عمليات القتل الفظيعة والآلام الإنسانية المرافقة، فلا يمكن إغفال حقيقة أن الاضطهاد الديني الذي مورس في أسبانيا أدى إلى ضياع هائل للموارد. فعلى سبيل المثال، اضطرت أسبانيا بعد طرد ربع مليون من جماعة الموريسكوس، إلى استخدام جميع قوتها البحرية وميليشياتها للعمل في الزراعة. تسببت المحاكمات وغرف التعذيب التي استخدمتها محاكم التفتيش في خسائر فادحة، ولم تؤد إلى إضافة جديدة لحقل المعرفة أو زيادة في الثروة؛ بل أدت إلى زيادة حدة الكراهية والعصابية. الأهم من ذلك، كانت أسبانيا، مع كل جولة جديدة من التعصب المترافق بأعمال عنف، تدمر أو تتخلى عن أهم موارد رأسمالها البشري والمالي والاجتماعي. أدت حملات التطهير في نهاية المطاف إلى تمزيق أوصال المجتمع على كافة المستويات: مجتمعها الريفي، وفنانوها، وأطباؤها، وعلماؤها، وخبراؤها الماليون، وحتى النبلاء الكاثوليكيون الذين كان الكثير منهم (إن لم يكن معظمهم) ينحدرون من أصول يهودية.

ربما كان فرديناند يعاني من مزاج سيء، ولكن لا بد أنه كان على دراية بما رافق فعلته المتمثلة في الأمر الذي أصدره لطرد اليهود من تدمير ذاتي. ففي رسالة كتبها فرديناند في اليوم تفسه الذي أصدر أمر الطرد، ذكر أن المكتب المقدس لمحاكم التفتيش هو الذي أقنعه بطرد اليهود «بالرغم من الأذى الكبير الذي سنسببه لأنفسنا جراء ذلك، مفضلين بذلك خلاص أرواحنا على مكاسبنا المادية ومصالح الأفراد»[١٤].

على أي حال، كانت أسبانيا على شفير الانهيار سنة ١٦٤٠؛ ولم تَعُدْ تُعَد ضمن القوى الرئيسة في أوروبا. استمرت في الانحدار بعد ذلك، لدرجة أن دورها أصبح هامشياً على المسرح العالمي. وبينما لم يكن من الواضح أن أسبانيا متسامحة كان يمكن لها أن تتحول إلى قوة مطلقة - وهنا أعيد التأكيد على أطروحتي القائلة بأن التسامح هو شرط ضروري ولكنه غير كاف لأي قوة من أجل السيطرة على العالم - فليس هناك من شك في أن التعصب في أسبانيا الإمبراطورية أعاق ارتقاءها وتسبب في التسريع بانحدارها وسقوطها.

بالرغم من أن أسبانيا «تخصصت في عمليات الطرد» إلا أنها بالتأكيد لم تكن الدولة الأوروبية الوحيدة التي غرقت في لجة التعصب الديني. على العكس من ذلك، كان الاضطهاد الديني، وكانت الحروب هي القاعدة في أوروبا في مرحلة ما قبل عصر التنوير، وليست الاستثناء. ففي ألمانيا سنة ١٥٢٤ على سبيل المثال، قام الفلاحون الذين استثارتهم حركة الإصلاح الديني البروتستانتية بذبح العشرات من الروم الكاثوليك الذين ردوا على ذلك بأعمال قتل أكثر وحشية، مشعلين بذلك فتيل حرب أطلق عليها "حرب الفلاحين" قيل إن أكثر من ١٠٠٠٠٠ من البشر قتلوا فيها. أما في سنة ١٥٦٩، فقد قام البابا بيوس الخامس بطرد جميع اليهود من العواصم البابوية. وفي سنة ١٥٧٢، تم ذبح ١٠٠٠٠ من الهوغوتيين احتفالاً بعيد القديس بارثولومو في فرنسا. وفي بولندا، تم ذبح أكثر من ٥٠٠٠٠ يهودي بين سنتيْ ١٦٤٨ و ١٦٥٤.

لم تكن أسبانيا المملكة الوحيدة التي حاولت فرض ديانة موحدة على جميع رعاياها. ففي الولايات الألمانية، تبارى الأمراء الحكام فيما بينهم فيمن يسبق في فرض الكالفينية المستبدة، أو اللوثرية المستبدة في المناطق الخاضعة لسلطتهم. أما في السويد، فكانت هناك كنيسة من لون واحد، وكانت تفرض على المتخلفين عن أداء الصلاة فيها غرامات مالية، بالإضافة إلى أن التعليم الديني فيها كان إجبارياً. قامت بوهيميا الكاثوليكية بطرد جميع أفراد طبقة النبلاء البروتستانت فيها من أراضيها سنة ١٦٢٧. وفي هنغاريا جرت عمليات تحويل قسرية إلى المذهب الكاثوليكي. أما في إنجلترا - حيث غالباً ما كان الكاثوليك فيها عرضة لهجمات تشن ضدهم - فقد أُسس المذهب الأنجليكاني بقوة القانون، وكان عدم الانتماء إليه يستوجب عقوبات جنائية [١٥].

بلغ عدد سكان فرنسا في فجر القرن السابع عشر ١٦ مليون نسمة. لكن سكان أسبانيا والبرتغال مجتمعين لم يكن يتجاوز عشرة ملايين. وكانت الأقاليم الألمانية مجتمعة تشكل جمعاً من السكان ربما بلغ تعداده ٢٠ مليوناً [١٦]. أما هولندا فقد كانت الأقل سكاناً بين جميع الدول التي ذكرت آنفاً حيث إن سكانها لم يتجاوزوا المليونين. مع ذلك، كانت هذه الجمهورية الهولندية الصغيرة، خلال السنين الخمسين اللاحقة، ستبز جميع القوى الأخرى في أوروبا.

الفصل السادس

الإمبراطورية الهولندية العالمية

الألماس، والدِّمَقس، وكافة «المذاهب الهجينة في العالم المسيحي»

وهكذا، ارتقت أمستردام بواسطة العناية الإلهية إلى ذروة الازدهار والعظمة. ... يقف العالم برمته مشدوهاً أمام كنوزها، حيث قدم إليها العالم من جهاته الأربع لمشاهدتها.

- كاتب هولندي، سنة ١٦٦٢

المدينة غير مقسمة إلى أبرشيات كما هي الحال عندنا، لكن كل شخص يذهب إلى الكنيسة التي يريد، هناك ثماني أو تسع كنائس عامة فقط إلى جانب الكنائس الإنجليزية والفرنسية واللوثرية والأناباتيستية المعمودية إلخ، بالإضافة إلى عدد من الكُنُس اليهودية... توجد آلات الأرغن الموسيقية في بعضها، ولكن لا يتم العزف عليها إلا بعد مغادرة الناس للكنائس بحيث يبدو وكأن القيمين على الكنائس يريدون من المصلين الخروج منها...لا يحتفل إلا بعدد محدود من المناسبات باستثناء عيد الميلاد وعيد الفصح وبعض الأعياد الأخرى؛ أما يوم الأحد فيحتفل به بشكل خاص. يوجد هنا تسامح بين أتباع كل المذاهب الدينية.

- الإنجليزي بيتر مندي واصفاً أمستردام، سنة ١٦٤٠

يشتهر الهولنديون بأشياء كثيرة من بينها القباقيب وطواحين الهواء وورود الخزامى والرساميْن رمبراندت وفيرمير - ولكن قد لا يخطر في بال الكثيرين في

هذه الأيام أن الهولنديين تربعوا يوماً ما، على عرش أهم إمبراطورية بحرية تجارية في العالم، وهي الإمبراطورية التي سبقت نظيرتها البريطانية مباشرة. كما لا يتذكر الكثيرون أن الهولنديين كانوا يوماً ما، أكبر منتجي طيب سنور الزّباد في العالم.

يُستخرَج الطيب من قطط الزّباد التي هي ليست في الحقيقة قططاً أبداً، بل من فصيلة حيوان النمس الذي يتواجد في آسيا وأفريقيا حيث موطنه الأصلي. يُعد لحم النمس وجبة فاخرة في الصين الجنوبية - «النمر» في حساء التنين ، والنمر وطائر الفينيق الشهي. ارتبط اسم قطط الزّباد سنة ٢٠٠٤، بغاز الأعصاب "السارس" SARS القاتل؛ فأبيدت الآلاف منها. بالإضافة إلى أهميته كطعام شهي، فإن النمس له قرب مؤخرته غدة عطرة شبيهة بالزبدة تحتوي على مادة تسمى الطيب ومنها تستخرج أجود أنواع العطور في العالم.

في العصور الوسطى، كان الطيب يدخل في تركيب كرات عطرية كان يعتقد أنها تقي من الأمراض. أصبحت تلك الكرات العطرية في القرن السادس عشر مكوناً ثميناً من مكونات أفخم أنواع العطور التي قام بتركيبها أشهر العطارين في باريس. وقبل البدء في تصنيع مواد الاستحمام ومزيلات روائح الجسم، كانت العطور القوية الرائحة، والتي تغطي رائحة الجسم مطلوبة جداً من قبل الطبقات الغنية. في واقع الأمر، لم تكن سوى القلة القليلة من البضائع أغلى ثمناً من أونصة الطيب العالية الجودة، وفي بعض الأحيان، كانت أغلى حتى من الذهب.

نتيجة لذلك ازدهرت، تجارة قطط النمس في القرن السابع عشر، وتحولت إلى تجارة عالمية؛ وحاول كثيرون الإفادة من هذه التجارة. كانت إنجلترا في عهد دانيال ديفو على سبيل المثال تعيش على تربية قطط النمس قبل أن يكتب روايته الشهيرة "روبنسون كروزو". ولكن بحلول العشرينيات من القرن السابع عشر، احتكر الهولنديون تجارة قطط النمس.

أرسلت شركات تابعة للتجار في أمستردام سفناً هولندية إلى الهند، وجزيرة

جاوا وغينيا، وعادت محملة بآلاف من قطط النمس. كانت تلك القطط تربى حينها في أقفاص في أمستردام حيث كان يقدم لها الحليب وقشور البيض وذلك لكي يكون الطيب الذي تفرزه أبيض اللون، بدلاً من لونه الطبيعي الأصفر الميال إلى البني. كان العمال المدربون يقومون كل بضعة أيام بتكبيل تلك الحيوانات الحية، ويشقون غددها الشرجية، ومن ثم يستخرجون بعناية مادة الطيب منها. كان الطيب بعدها يعبأ بسرعة في زجاجات - يتحول الطيب إلى اللون الأسود ويصبح أكثر سماكة إذا ما تعرض للهواء - ثم يصدر مرافَقاً بوثائق تثبت نقاءه إلى الأسواق المترفة في جميع أنحاء أوروبا.

كان الطيب واحداً من البضائع الغالية الثمن التي يتم تداولها في أوروبا - وهي البضاعة التي تدر أرباحاً وفيرة من بين البضائع الفاخرة - والتي احتكرتها الجمهورية الهولندية خلال طيلة القرن السابع عشر تقريباً. كانت المعادلة في غاية الوضوح. كانت السفن الهولندية تبحر إلى أقاصي الأرض حاملة على متنها في طريق العودة التوابل والبهارات من جزر الهند الشرقية، والسكر من البرازيل وساو تومي، والموهير التركي، والصوف الكاستيللي والقطن الهندي والألماس الخام. كان الهولنديون يتاجرون في هذه البضائع في كافة أنحاء أوروبا، أو يعودون بها إلى هولندا نفسها، حيث كانت هذه المواد الخام تعالج ويعاد تصديرها، وكان الهولنديون يجنون أرباحاً طائلة من بيع هذه المواد على شكل سجاد فاخر، وحرير مطرز وكتان ناعم وألماس مصنع بطريقة رائعة. كانت أرباح هذه التجارة العالمية وفيرة لدرجة أن الإيطاليين والألمان والفرنسيين والإنجليز حاولوا السيطرة عليها، أو على الأقل، على جزء منها.

لا بد من الإشارة إلى موضوع التسمية التي كانت محيرة بالنسبة إلى الأراضي المنخفضة: فالدولة الأوروبية التي يطلق عليها اليوم اسم مملكة الأراضي المنخفضة، غالباً ما كان يطلق عليها إلى الآن اسم هولندا، حتى من قبل الهولنديين أنفسهم. من الناحية التقنية، تضم الأراضي المنخفضة فقط الإقليمين الأكثر أهمية من

الناحيتين الاقتصادية والسياسية وهما شمال هولندا وجنوب هولندا، واللذان يضمان مدناً رئيسة مثل أمستردام، وديلفت، وهارلم، والهيغ، وليدن، وروتردام.

ما زاد الأمور تعقيداً، هو أن حدود هولندا وإطارها السياسي خضعت إلى الكثير من التغيير بمرور الوقت. كانت أراضيها في العصور الوسطى تغطي بشكل تقريبي ما يعرف اليوم ببلجيكا، واللوكسمبورغ وشمال غرب فرنسا؛ وكانت هولندا تعرف باسم الأراضي المنخفضة (حصلت بلجيكا واللوكسمبورغ على استقلالهما في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.) جلب الإصلاح معه تغيرات جذرية. وقعت المناطق الجنوبية مدة من الزمن تحت سيطرة الهابسبورغيين الكاثوليك، بينما أصبحت هولندا الشمالية التي كانت تقطنها غالبية بروتستانتية تعرف باسم الأقاليم المتحدة [٢].

سأحاول في هذا الفصل استخدام كل هذه التسميات - البلدان المنخفضة، والأراضي المنخفضة، والجمهورية الهولندية، والأقاليم المتحدة - بناء على السياق التاريخي. أما هولندا، فستشير بشكل عام إلى الأقاليم التي تقع تحت هذه التسمية فقط.

قبل الارتقاء

بدأت الجمهورية الهولندية التي شقت طريقها نحو الشهرة العالمية في القرن السابع عشر، كالإمبراطورية المغولية العظمى، بداية متواضعة جداً. فقبل سنة ١٢٠٠، كانت هولندا والمناطق المنخفضة الأخرى في الأراضي المنخفضة عملياً - وفي بعض الأحوال، بشكل فعلي - تحت الماء. (يبدأ انحدار الأراضي المنخفضة من الشرق باتجاه الغرب، وصولاً إلى بحر الشمال. وتقع أعلى نقطة في تلك البلاد في الجنوب الشرقي. تقع ٢٧ في المئة من مساحة هذه البلاد التي يعيش فيها ما يقرب من ٦٠ في المئة من السكان حتى يومنا هذا، تحت مستوى سطح البحر.) كما تقع هذه المنطقة التي تتشكل من «بقايا الرمل والطين الرطب من مخلفات العصر الجليدي» في الدلتا المليئة بالمستنقعات التي تتوسط ثلاثة أنهر؛ وهي منطقة غير مأهولة، ولا تصلح للزراعة، وغالباً ما كانت هذه المنطقة خطرة بسبب الفيضانات.

بدءاً من القرن الثالث عشر، كانت المناطق الرئيسة المغمورة بالمياه بما في ذلك أمستردام الحالية وروتردام قد أعيد تجفيفها بفضل بناء السدود المحكمة البناء والحواجز وأنظمة التصريف. وبالرغم من أن طواحين الهواء لم يكن قد تم اختراعها في هولندا - إذ إن أولى النماذج من هذه الطواحين ظهرت في بلاد فارس في القرن التاسع - فإن الهولنديين وضعوا اللمسات الأخيرة على هذه التقنية مستخدمين طاقة الرياح لضخ المياه باتجاه مناطق أكثر أماناً. اعترف الكاتب الساخر الإنجليزي أوين فيلثام الذي أطلق على جمهورية هولندا تسمية «المستنقع العالمي» وأيضاً « قطعة الجبن الخضراء في مَرَق المخلل» بأن الهولنديين «كانوا بشكل من الأشكال آلهة وذلك لأنهم استطاعوا وضع حد للمحيط الذي سمحوا له بالتقدم والتراجع بناء على هواهم» [٣].

مع ذلك، كانت البلدان المنخفضة حتى عقد الخمسينيات من القرن الرابع عشر منطقة لا يكترث لها أحد على الخريطة الأوروبية الشاملة، وكانت يعتمد أبناؤها في حياتهم بشكل رئيس على الزراعة، ولم تكن في مجملها أكبر حجماً من ولاية تينيسي. على عكس كل من فرنسا أو أسبانيا اللتين كانتا تحكمهما ملكيتان قويتان، كان الحكم في البلدان المنخفضة محلياً ولا مركزياً. أما بالنسبة لموضوع التسامح الديني، أو غيابه في واقع الأمر، فلم تكن البلدان المنخفضة تشكل استثناء. وكما كانت الحال في كافة أنحاء أوروبا بالنسبة لوباء الطاعون الذي انتشر فيها، فقد ألقي اللوم في الأراضي المنخفضة على أسباب عديدة - حركة الكواكب غير الملائمة، وخطايا العالم - ولكن اليهود بشكل خاص نالوا نصيبهم من اللوم:

> كان الموت الأسود مدمراً لدرجة أنه يمكن ببساطة اعتباره مؤامرة ضد الإنسانية. ومن غير اليهود يمكن أن يكون وراء هذه المؤامرة؟ فاليهود، كما يعرف المسيحيون جميعاً، هم أعداء الكنيسة؛ وهم يسعون دائماً إلى تدمير المسيحية والقيام بالاستيلاء على العالم بدلاً منها. اليهود هم المجرمون: فقد تناقلت الأخبار أنهم قاموا بتلويث الآبار بسموم العناكب وطيور البوم والسحالي والعُظاءات السامة ودم الأطفال وخبز القربان المقدس. وهذا السم تم إعداده في طليطلة من قبل اليهود الأسبان، ثم نقل في حقائب وأكياس من الجلود وألقي في الآبار [٤].

قامت السلطات في البلدان المنخفضة بوسم اليهود واضطهادهم، حتى بعد انحسار موجة الطاعون تلك. كان اليهود في الأراضي المنخفضة يرغمون على لصق رُقَع تعريف خاصة بهم (بعكس القبعات الحمراء الشائكة التي أرغموا على ارتدائها في ألمانيا في الحقبة نفسها تقريباً.) اتُّهم أحد الشبان اليهود، وكان وسيماً جداً، «بخلب ألباب» الفتيات. وقد تم سجن هذا الشاب الذي كان يعرف «باليهودي ذي الشعر الجميل» في قلعة حبسه فيها دوق روزندال، ثم تم طرده في نهاية المطاف من آرنهيم. صدرت قوانين في بداية القرن الخامس عشر تم بموجبها وضع قيود على ممارسات الإقراض اليهودية، وهو ما كان يعني إيقاف المصدر الوحيد لوسائل العيش المتاحة أمام اليهود. بقي اليهود حتى نهاية القرن السادس عشر كماً مهملاً في البلدان المنخفضة [٥].

الكاثوليك في مواجهة البروتستانت:
قيام الجمهورية الهولندية

كانت البلدان المنخفضة في معظم مراحل القرن السادس عشر جزءاً من إمبراطورية هابسبورغ، التي كانت تمتد حينها من النمسا إلى أسبانيا. ربما كان من المفيد الخروج قليلاً عن سياق الموضوع الرئيس للتحدث في الكيفية التي وقعت فيها أسبانيا تحت سيطرة الهابسبورغيين. كان لفرديناند وإيزابيلا خمسة أولاد من الذكور والإناث؛ وكانت واحدة من بناتهما معروفة بلقب جوانا المجنونة. تزوجت جوانا من فيليب الوسيم الذي كان وريث عرش إمبراطورية هابسبورغ والمناطق البورغوندية، ووضعت مولوداً أسمياه تشارلز الخامس. بعد وفاة جده فرديناند الأرغوني سنة ١٥١٦، أصبح تشارلز الخامس الملك الهابسبورغي الأول لأسبانيا. وبحلول سنة ١٥١٩، ونتيجة لأواصر القربى الملكية المختلفة التي ينتمي إليها، أصبح تشارلز حاكماً على بورغوندي، وكبير دوقات النمسا، وملكاً على الأراضي المنخفضة. وجرى تتويجه في السنة نفسها أيضاً، إمبراطوراً رومانياً مقدساً.

كان تشارلز الذي ولد في مقاطعة غينت متعاطفاً مع الهولنديين. تمتعت البلدان المنخفضة أثناء مدة حكمه بحقوق تجارية لا محدودة، وأصبحت تسيطر على معظم مفاتيح التجارة العالمية. كان مجيء الإصلاح (البروتستانتي)عاملاً تقسيمياً في الأراضي المنخفضة كما في بقية أنحاء أوروبا. فقد اكتسحت الكالفينية بقوتها الخانقة البلدان المنخفضة، واضعة البروتستانت في مواجهة الكاثوليك في المقاطعات الشمالية والمقاطعات الجنوبية على حد سواء. وقد وصل هذا الصراع إلى أقصى مداه سنة ١٥٥٦ وذلك عندما تنازل تشارلز عن سيطرته على كل من الأراضي المنخفضة وأسبانيا لصالح ابنه فيليب الثاني.

ولد فيليب وترعرع في أسبانيا بعكس أبيه، ولم يكن يتحدث اللغة الهولندية، وأعلن صراحة احتقاره للبلدان المنخفضة. كان أيضاً كاثوليكياً شديد التعصب. وجعل فيليب من أهم أولوياته وقف المد التوسعي لحركة الإصلاح، وبالتالي فقد «شن واحدة من أكثر الهجمات دموية ودراماتيكية، ومضطربة الرؤى في تاريخ أوروبا الحديث» [٦].

طالب فيليب بإظهار الولاء التام لكنيسة الروم الكاثوليك، وقام بتعيين حكام كاثوليكيين لا يتقنون اللغة الهولندية في كافة أنحاء الأراضي المنخفضة. بدأت العديد من الأقاليم الشمالية في ستينيات القرن السادس عشر تعبر عن سخطها وتمردها بقيادة وليام الصامت من إقليم أورانج على نير الاستعمار الأسباني. رد فيليب بإرسال عشرة آلاف جندي بقيادة الدوق الأسباني "ألفا" للتعامل مع مثيري الشغب. وكان الدوق ألفا على حد تعبير أحد الكتاب «غير قابل للتغير، وحتى متعصباً في موضوع كراهيته للهرطقة البروتستانتية. ... وكان مستعداً لاستخدام القسوة الشديدة ولكن ضمن حسابات شديدة الانضباط. كانت رؤيته مزيجاً غريباً من العالمية الإنسانية، والكراهية المبنية على رهاب الأجانب. ...وكان تشككه العميق في أفراد طبقة النبلاء في الأراضي المنخفضة وسكانها بشكل عام يترافق مع احتقار مكشوف لم يكلف نفسه عناء إخفائه».

في واحدة من حالاته النفسية الأقل إنسانية قام ألفا فور وصوله إلى الأراضي المنخفضة بتشكيل محكمة - أطلق عليها وصف «مجلس الدم» - قرر من خلالها إعدام ألف من الهولنديين بعضهم من المواطنين المشهورين، ومصادرة أملاك أعداد أكبر من المواطنين وزجهم في السجون. كما قام بفرض ضرائب جديدة عالية. بدأت الثورات الشعبية تتفجر ابتداءً من سنة ١٥٧٢ في كافة مناطق الأراضي المنخفضة الشمالية. رد ألفا على هذه الثورات بوحشية حيث قام بتدمير مدينة هارلم، وذبح سكان مدن ميشلين، وناردين، وزوتفين. كان وصول «متسولي البحار» الهولنديين -وهم عبارة عن قوات مناهضة بشدة للكاثوليك، ويشبهون القراصنة، وتم طردهم مؤخراً من المرافئ الإنجليزية - الذين كانوا سبباً في توسع رقعة أعمال العنف في السنين الأربع اللاحقة قد زاد الأمر سوءاً. ما حدث بعد ذلك لم يكن متوقعاً أبداً[٧].

في سنة ١٥٧٦، قامت الوحدات العسكرية الأسبانية المتمردة بسبب تضور جنودها جوعاً - نظراً إلى أن فيليب الثاني المستنزف مادياً لم يكن بمقدوره دفع رواتبهم - بترك ثكناتها في الشمال المتمرد والتوجه نحو الجنوب المزدهر اقتصادياً؛ مخربة في طريقها مدينة أنتويرب وذبح ما يقرب من سبعة آلاف مواطن. أطلق على هذه الحادثة وصف "الغضب الأسباني". بالرغم من أن المذبحة حصلت في الجنوب، فقد كان تأثيرها أشد وقعاً في الشمال حيث تم تصويرها بتفاصيل رؤيوية من قبل الشعراء والفنانين المعاصرين، واعتُبِرت جزءاً من قصة الولادة الوطنية للأراضي المنخفضة. تروي قصة أرخها شاعر أمستردام بيتر هوفت، حكاية عروس تم اغتصابها وقتلها ليلة زفافها من قبل ضابط أسباني سادي: «قام بتعريتها، نزع عنها ثيابها وأطواقها وملابسها الداخلية، وأي شيء ترتديه من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها وانتزع كل ما استطاع أن ينتزعه من ذلك الجسد الطاهر.» وبعد أن قام باغتصابها، قام ذلك الضابط «بمطاردتها كما ولدتها أمها، والدماء تقطر من الجروح التي لا حصر لها في جسدها في أنحاء المدينة».

أدت ثورة الغضب الأسباني هذه إلى توقيع معاهدة صلح أطلق عليها "معاهدة

غينت" وكانت بنودها تتضمن توحيد أقاليم الشمال والجنوب الهولنديين من أجل طرد القوات الأسبانية. لكن معاهدة الصلح تلك لم تعش إلا مدة قصيرة. ففي سنة ١٥٧٩، أعلنت الأقاليم الجنوبية التي يتزعمها نبلاء كاثوليك من ذوي النفوذ القوي ولاءها من جديد للملك فيليب الثاني وللكنيسة الكاثوليكية. أعلنت الأقاليم الشمالية في معرض ردها على تلك الخطوة، استقلالها الذاتي وحقها في ممارسة الحرية الدينية. بعد سنتين على ذلك، قاموا بتفعيل "قسم التخلي عن المذهب" الذي كان بمنزلة إعلان للاستقلال، وجدت مقدمته المفعمة بالعاطفة صدى كبيراً لها في التاريخ الأمريكي بعد انقضاء مئتي سنة على إعلانها:

> من الواضح للجميع أن الأمير قد اختاره الرب لكي يحكم الناس، ويدفع عنهم الاضطهاد ويجنبهم العنف، تماماً كواجب الراعي تجاه قطيعه؛ وبينما لم يخلق الرب الناس كي يكونوا عبيداً لأميرهم، أو يقدموا له فروض الطاعة العمياء سواء كان على حق أو على باطل، فإن على الأمير ألاّ يعامل شعبه على هذا الأساس ... وعندما لا يتصرف الأمير على هذا الأساس، بل يقوم بعكس ذلك؛ أي عندما يقوم باضطهاد رعيته، ويتحين الفرص كي يقضي على عاداتهم وتقاليدهم وحقوقهم، وينتزع منهم طاعة كطاعة العبد للسيد، فإنه عندئذ لا يعود له الحق في لقب الأمير، بل يتحول إلى طاغية، وهنا يتعين على رعاياه ... ليس فقط وضع حد لسلطته ونفوذه بل البحث من خلال الطرق القانونية عن أمير آخر يرعى مصالحهم ويدافع عنها. هذا ما يقره ... قانون الطبيعة دفاعاً عن الحرية التي يجب علينا أن نجيّرها إلى ذريتنا حتى لو كان ذلك على حساب حياتنا.

بعد ذلك الإعلان، أصبحت الأقاليم الشمالية السبعة تسمى أقاليم الأراضي المنخفضة المتحدة، بينما بقيت الأقاليم العشرة الجنوبية تحت السلطة الأسبانية[٨].

لكن فيليب الثاني لم يقر أبداً بالهزيمة. على العكس من ذلك، قام بوضع جائزة مقدارها ٢٥٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل رأس وليام الصامت، ثم أرسل قوات إضافية لقمع التمرد في الشمال. ونظراً إلى أن وليام كان يعي مدى التفوق الأسباني، فقد رد على ذلك بأن عرض قيادة الجمهورية الجديدة المكبلة بالعديد من الإجراءات الدستورية على دوق آنجو، وهو الأخ الأصغر لملك فرنسا. قبل الدوق العرض لكنه فر

بعد أقل من سنتين من مواجهة الجيش الأسباني المتقدم. اغتيل وليام الصامت سنة ١٥٨٤ على يد أسباني يدعى بلتزارد جيرارد. لكن جيرارد هذا لم يتسلم جائزته أبداً. كان الهولنديون قساة غلاظ القلوب، فقد ابتكروا عقوبة غير مألوفة لمن يقوم بعمليات الاغتيال، وهكذا فقد واجه جيرارد نهاية مؤلمة استخدمت فيها بشكل مبتكر قضبان الحديد الحامية وشحم الخنزير المسلوق والمغلي.

بعد مقتل وليام، عرض الهولنديون على ملك فرنسا نفسه السيادة على الأراضي المنخفضة، لكن هنري الثالث الذي كان غارقاً في مشكلات الحرب الأهلية ومتردداً بشأن جدوى مجابهة أسبانيا، رفض ذلك العرض. بعد ذلك عرض الهولنديون أنفسهم على إليزابيث، ملكة بريطانيا التي بدورها رفضت العرض [٩].

المُهجّنون والأفاعي
التسامح في الجمهورية الهولندية

نحن الآن في سنة ١٥٨٨. حاولت الأقاليم المتحدة العاجزة عن الدفاع عن نفسها تسليم بلادها إلى كل من فرنسا وإنجلترا ولكن من دون جدوى. لا يبدو أن الهولنديين قد نجحوا في السيطرة على العالم. مع ذلك، أصبحت الجمهورية الهولندية بحلول سنة ١٦٢٥ «قوة مهيمنة على اقتصاد العالم الرأسمالي» - أي الإمبراطورية «العالمية الأولى بحق» [١٠]. فما الذي حدث؟

أصبحت الجمهورية الهولندية الصغيرة القوة الاقتصادية المطلقة في العالم في القرن السابع عشر وذلك من خلال تحولها إلى ملاذ للفارين من المستثمرين من بقية أنحاء أوروبا. من المؤكد أن تطورات أخرى حدثت بطريق المصادفة، وساعدت في جعل ذلك ممكناً. فالحروب التي اندلعت بين أسبانيا وإنجلترا وفرنسا على سبيل المثال، أنهكت تلك الدول واستنزفتها مالياً، وأعطت الهولنديين فسحة من الوقت تأجلت بسببها الاعتداءات الأسبانية عليها. لكن أهم عامل على الإطلاق في انطلاق الهولنديين باتجاه تبوء موقع قيادة العالم كان فورة اقتصادية استثنائية. وهنا أثبت التسامح الديني الذي تجلى في سياسات الجمهورية الهولندية الاستثنائية أنه لا غنى عنه في تحقيق ذلك.

إذا أخذنا بعين الاعتبار الاضطهاد والتعصب والحروب الدينية التي سادت في أوروبا في القرن السابع عشر، تظهر بجلاء سياسات التسامح اللافتة للنظر، والتي اتبعتها الجمهورية الهولندية. فالأقاليم المتحدة لم تكن فيها كنيسة تتبعها الدولة، وهو ما كان غير مألوف البتة في بقية أنحاء أوروبا. أكد الميثاق التأسيسي لاتحاد أوتريخت سنة ١٥٧٩ على أن «كل شخص سوف تكون له كامل الحرية في اختيار دينه و... لن يتعرض أي شخص إلى الاضطهاد بسبب الديانة التي يؤمن بها.» فالدولة لم تجبر أياً كان، على الالتزام بتعاليم كنيسة الإصلاح البروتستانتية، أو تفرض غرامات لعدم اعتناق هذا المذهب، أو تعاقب غير المؤمنين.

دعا العديد من رجال الدين بالطبع من على منابرهم إلى اعتناق المذهب الأرثوذكسي شاجبين بشدة المواقف السلبية من استخدام موسيقى آلة الأرغن في الكنيسة، واستمرار المهرجانات الوثنية والمعارض الريفية والحمى الفضائحية «لموضة الشعر الطويل المجعد» التي اجتاحت أنحاء الجمهورية في الأربعينيات من القرن السابع عشر. بالإضافة إلى ما تقدم، كانت كنيسة الإصلاح البروتستانتي تحتل دائماً موقعاً متميزاً. رسمياً، لم يكن من المسموح لغير الأعضاء المنتسبين لهذه الكنيسة تبوء مناصب حكومية، كما أنه لم يكن من الممكن التصريح عن الانتماء إلى ديانات أخرى «بشكل علني».

أما من حيث الممارسة الفعلية، فقد انتشرت البدع الدينية مترافقة مع التسامح الديني. فقد سمح للأبرشيات المحلية أن تختار الكيفية التي تريد أن تعبر بها عن طهارتها ونقائها، واختارت معظم تلك الأبرشيات المرونة في التعبير عن ذلك. فإلى جانب الغالبية الكالفينية، كان هناك الكاثوليك واليهود واللوثريين والمينونيين والمحتجين الذين سمح لهم جميعاً بتأسيس أماكن عبادة «غير ظاهرة»، وعقد نقاشات وطباعة كتبهم المقدسة والفكرية الخاصة بهم. بالإضافة إلى ذلك، كان العديد من موظفي الحكومة مجرد أعضاء في الكنيسة الإصلاحية، وبالكاد كانوا يحاولون إخفاء ميولهم الحقيقية المعادية للأرثوذوكسية [١١].

وهكذا، ففي سنة ١٦١٦، عندما كان اليهود يتعرضون في بقية أنحاء أوروبا المسيحية للهجوم والإرهاب، كتب الحاخام إسحق أوزيل إلى أحد المراسلين ما يأتي: «يعيش شعبنا في الوقت الحاضر بأمان في أمستردام. يقوم سكان هذه المدينة الذين يعون جيداً الزيادة في أعدادهم بوضع قوانين وترتيبات يسمح بموجبها بحرية الأديان. يمكن لأي شخص أن يكون على الدين الذي يريد طالما أنه لا يظهر في العلن أنه يتبع ديناً مغايراً للدين الذي تتبعه غالبية سكان المدينة.» وبالرغم من أن طقوس الصلاة اليهودية كانت تمارس في البيوت في بداية الأمر، إلا أنه سمح لليهود ببناء كنسهم في أمستردام منذ عشرينيات القرن السابع عشر. في الواقع، كان مجلس مدينة أمستردام، ومنذ سنة ١٦١٢، «يتصرف كما لو أن اليهود لهم الحق الكامل في ممارسة شعائرهم الدينية علناً.» سنة ١٦٧٥، تم بناء كنيس أمستردام لطائفة السفارديم الرائع الشكل. بني هذا الكنيس بأعمدته الكبيرة ومقاعده ذات المساند، والمصنوعة من خشب السنديان الداكن وثرياته النحاسية على شكل هيكل سليمان الافتراضي في القدس، وكان يتسع لألفيْ مصلٍّ؛ إلا أنه لم يكن «غير ظاهر»، كما كان مفترضاً فيه أن يكون. وفي الوقت نفسه، أسس اليهود الإشكنازيون كنيسهم الخاص بهم في الطرف المقابل من الشارع؛ وكان يحتوي على مقر لحاخاماتهم وأنظمتهم الخاصة بهم ودور نشرهم التي تطبع بلغة ألمانية خاصة إنما بالحروف العبرية [١٢].

كانت الحرية الدينية الاستثنائية في الجمهورية الهولندية مادة للنقاش في أوروبا. كان هناك القليل من المعجبين بهذه الحرية الدينية بمن فيهم بلزاك الذي كتب إلى ديكارت سنة ١٦٣١: «هل هناك بلد تستطيع فيه التمتع بحرية كاملة مثل هذه ... وفي أي مكان غير هذا استطاعت براءة أجدادنا أن تجد لنفسها موطناً؟» لكن معظم الأجانب هالهم ما رأوه من فسوق ديني في الجمهورية الهولندية. تساءل أحد الدعاة الإنجليز: «هل هناك في كل العالم المسيحي مذاهب هجينة تنق وتبيض وتفرخ في مستنقعاتها القذرة كما يحدث هنا؟» عبر آخر عن استيائه بالقول: «ترى أحياناً سبعة أديان تمارس ضمن العائلة الواحدة.» حتى أولئك الذين أفادوا من كون الجمهورية الهولندية ملجأ لهم، عبروا عن استيائهم مما وصفه المؤرخ سيمون

سكاما « بقبو الأديان الرخيصة» الذي وجدوا أنفسهم فيه - إنه، كما عبر عنه أحد الإنجليز، «وكر فيه مجموعة من الثعابين تستطيع فيه أن تكون ما تشاء طالما أنك لا تنطح الدولة بقرنيك» (١٣).

كان هناك جانب للتسامح الديني الهولندي محسوب بعناية. فقد تبنت العديد من الشخصيات السياسية الرئيسة في الجمهورية الحرية الدينية على أساس أن لها مزايا اقتصادية ملموسة. ذكر بيتر دو لا كورت على سبيل المثال في كتابه Interest of Holland أن «التسامح كان ضرورياً» من أجل «تشجيع الهجرة التي كانت الحاجة إليها ماسة كي تنعش الاقتصاد وتزيد من عدد سكان المدن في هولندا.» لقد حقق التسامح الذي كانت الدوافع إليه المصالح الاقتصادية، الكثير من النجاح.

تحولت الجمهورية الهولندية إلى ملاذ آمن لموجات من اللاجئين الدينيين من مختلف أنحاء أوروبا - البروتستانت من جنوب الأراضي المنخفضة، والهوغونيون من فرنسا، واللوثريون الألمان، ويهود السفارديم من أسبانيا والبرتغال، ويهود الأشكناز من أوروبا الشرقية، والصاحبيون الكويكريون، والحجاج من إنجلترا. (كان الحجاج الذين يمثلون فرعاً منشقاً عن التطهيريين يتعرضون بشكل خاص للاضطهاد في إنجلترا قد وجدوا في هولندا ملاذاً آمناً مدة اثنتي عشرة سنة قبل أن يهاجروا على متن سفينة Mayflower سنة ١٦٢٠ باتجاه إنجلترا الجديدة في ما يعرف اليوم بشرقي الولايات المتحدة الأمريكية.) كما حل بالجمهورية مهاجرون قصدوها من أجل غايات اقتصادية بحتة. بين سنتي ١٥٧٠ و١٦٧٠ على وجه التقريب، وبينما كانت الكثير من المدن الأوروبية تضيق بسكانها، ازداد عدد سكان مدينة أمستردام من ٣٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ نسمة. ومدينة ليدن من ١٥٠٠٠ إلى ٧٢٠٠٠ نسمة، وهارلم من ١٦٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ نسمة، وروتردام من ٧٠٠٠ إلى ٤٥٠٠٠ نسمة. شكل المهاجرون بمجملهم المحرك الذي دفع بالجمهورية الهولندية - ولمدة نصف قرن - باتجاه تبوء موقع السيطرة الاقتصادية العالمية، وفي كل مجال من مجالات الاقتصاد (١٤).

«الروح الرأسمالية»
الخسارة الأسبانية والمكاسب الهولندية

أسهم اليهود، والبروتستانت بدرجة أكبر، في زيادة أوار الفورة الاقتصادية الهولندية - وكان الجانبان قد فرا من الاضطهاد في أسبانيا الهابسبورغية. وفي الوقت الذي كونت فيه هاتان المجموعتان جماعتين سكانيتين مزدهرتين في هولندا، فقد جعلتا من الجمهورية الهولندية المركز العالمي للتجارة، والاقتصاد والمال.

خذوا على سبيل المثال، تجارة الألماس. قبل سنة ١٧٢٥، عندما اكتشف الألماس في البرازيل، كانت كل تجارة الألماس الخام تأتي فعلياً من الهند. أكثر أحجار الألماس شهرة في العالم هي من الهند بما في ذلك الألماسة الأسطورية التي تدعى "الأمل" وهي ألماسة نادرة زرقاء اللون، تزن ٤٤,٥ قيراطاً والألماسة المغولية العظيمة التي تزن ٢٨٠ قيراطاً (لا يعرف مكانها اليوم بالضبط)، وألماسة الكوهينور التي تزن أكثر من ١٠٠ قيراط، والتي تُعد واحدة من جواهر التاج البريطاني. (طالب أعضاء البرلمان الهندي سنة ٢٠٠٠ الحكومة البريطانية بإعادة هذه الألماسة التي ما تزال حتى الآن ترصع تاج الملكة في برج لندن.) كانت وسائل استخراج الألماس الأولى من المناجم الهندية بدائية. وكان العمال الفقراء من الطبقات السفلى في المجتمع والذين كان يبلغ عددهم في الموقع حوالي ٦٠٠٠٠ - يحفرون في مناجم ضحلة الأعماق في مجاري.. الأنهار. وكان ما يتم نبشه، يُغربل يدوياً من أجل البحث عن الألماس.

كانت عملية تحويل الحجارة الخام المستقدمة من الهند إلى جواهر رائعة براقة ومتعددة الألوان، تزين أعناق سيدات المجتمع المخملي الأوروبيات صناعةً سيطر عليها اليهود. وكانت شبكة من التجار اليهود تمتد من مدراس إلى القاهرة، إلى البندقية تسيطر على تجارة الألماس العالمية منذ سنة ١٠٠٠ ميلادية. طور اليهود الذين كانوا يعملون في مجال الإقراض الرّبَوي منذ القدم (لأنه كان من المحظور عليهم ممارسة أعمال أخرى لكسب لقمة عيشهم) خبراتهم في تقييم أسعار

الجواهر وقصها وبيعها، والتي كانت غالباً ما ترتهن لديهم مقابل القروض التي يقدمونها. نتيجة لذلك، كان اليهود يصطحبون معهم أينما حلوا، تجارة الألماس، بالإضافة إلى شبكة تجارية ومالية واسعة تربط أوروبا ومنطقة البحر المتوسط بآسيا وأفريقيا والأمريكيتين.

عندما قامت أسبانيا بطرد مواطنيها من اليهود سنة ١٤٩٢، استقر العديد منهم في لشبونة، وفيما بعد، في مدينة أنتويرب (التي كانت حينها ما تزال تحت حكم الهابسبورغيين). لم يكن من قبيل المصادفة أن كلتا المدينتين أصبحتا مركزي انطلاق عالميين في المجالين التجاري والمالي. أصبحت لشبونة نقطة الدخول بالنسبة إلى كل قطعة ألماس قدر لها أن تدخل إلى أوروبا، كما تحولت أنتويرب إلى أشهر مركز عالمي لقص وتقطيع حجارة الألماس. بحلول سنة ١٥٥٠، أصبح ميناء أنتويرب من الازدحام بحيث إن السفن التجارية القادمة إليه كان عليها أن تنتظر في صفوف طويلة قبل إفراغ حمولتها: أصبحت المدينة المركز الآمن لتبادل البضائع والأموال في الإمبراطورية الهابسبورغية برمتها، لا بل تحولت إلى «سوق مالية كبرى» لأوروبا بكاملها [١٥].

لكن ظهور التعصب كلف الهابسبورغيين غالياً. عندما بدأت محاكم التفتيش بضرب البرتغال في أربعينيات القرن السادس عشر، بدأ اليهود والمُهتدون بالهرب إلى مدن أكثر تسامحاً في هولندا. كان هؤلاء اليهود والمهتدون الأيبيريون، بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة من اليهود الأشكنازيين الفقراء والأميين الذين تدفقوا على هولندا هرباً من المجازر في كل من بولندا وألمانيا، من بين أغنى التجار وأصحاب الأموال في العالم. كان هؤلاء اليهود السفارديم الأنيقين والمتعلمين والأرستقراطيي المظهر - والذين أصبح العديد منهم فيما بعد من طبقة النبلاء - قد ضخوا الكثير من رؤوس الأموال إلى الجمهورية الهولندية التي شكلت دعماً كبيراً للاحتياط النقدي للبنوك، ومصدراً لتمويل الدولة، وزخماً إضافياً للاستعمار الهولندي، كما أدت دوراً محورياً في التأسيس لبورصة أمستردام. بحلول منتصف القرن السابع عشر، حلت

أمستردام محل لشبونة وأنتويرب كمركز للألماس في أوروبا، ونقطة انطلاق لشبكة التجارة والمصارف اليهودية نحو العالم أجمع.

كما أصبحت العائلات اليهودية مشهورة في مجال الصناعات المربحة مثل صناعة التبغ وتكرير السكر، وغزل الحرير، وصناعة الشوكولا، وإنتاج الألماس واستخراج الطيب. (كان من الشائع قيام اليهود السفارديم باستخدام اليهود الأشكناز في أعمال وضيعة. كان اليهود الأشكناز على سبيل المثال، غالباً ما يُشاهَدون خارج أمستردام يقطعون لحم الغنم لإطعام قطط السمور.) لكن الكثير من العائلات اليهودية المعروفة مثل عائلة البلمونت ولوبيس سواسو، ونون دو كوستا، تقدم الدعم للأعمال الخيرية. فقد كانت هذه العائلات راعية لفنانين وشعراء وموسيقيين، وأسست برامج الرعاية الاجتماعية وقامت بتمويل الأكاديميات الدينية والعلمانية على حد سواء. وكانت تقام الحفلات الموسيقية وحفلات الأوبرا في منازلهم الفارهة التي مُلئت بالتحف الفنية والكتب والمخطوطات النادرة [١٦].

لم يغب عن ناظري الأسبان المكاسب التي جنتها الجمهورية الهولندية جراء إيوائها لليهود. حثّ الكثيرون من المستشارين التاج الأسباني على تغيير سياسة محاكم التفتيش، ومحاولة استقطاب "المُهتدين" من جديد، واستمالتهم للعودة إلى أسبانيا. حذّر دييغو دو سيسنيرو سنة ١٦٣٧ على سبيل المثال، من أن اليهود الذين استقروا في أمستردام مؤخراً، يساهمون في تقوية الجمهورية بشكل كبير:

> بدأ المتمردون الهولنديون يرفعون رؤوسهم عالياً، وقويت شوكتهم، وذلك لأن اليهود يمدون لهم يد المساعدة في حروبهم وفتوحاتهم ومفاوضاتهم وكافة طموحاتهم، كما تحولوا إلى جواسيس لهؤلاء المتمردين في أراضي جلالتكم، وتغلغلوا في مراكز التجارة، وإدارة الأرمادا، ومواكب السفن ومصادر التمويل لجلالتكم ... وهم يقومون بامتصاص كافة مصادر الثروة (في كل من أسبانيا والبرتغال) [١٧].

ولكن بقدر ما كان لليهود من أهمية قصوى في مجال الازدهار الاقتصادي

الذي كانت الجمهورية الهولندية تتمتع به، بقدر كانت أعدادهم قليلة، وإسهاماتهم ضئيلة، بالمقارنة مع واحدة من الجماعات الأخرى. ففي نهاية القرن السادس عشر، تدفق سيل من التجار والعمال المهرة والصناعيين البروتستانت إلى الجمهورية، وأدوا دوراً أكبر بكثير في التأسيس لما أطلق عليه ماكس ويبر «روح الرأسمالية» في الأراضي المنخفضة.

في العصور الوسطى، كانت مدينتا غينت وبروج الواقعتان في جنوب الأراضي المنخفضة - بتقاليدهما الطويلة في مجالات الغزل والصباغة والنسيج - منتجيْن مزدهرين للأنسجة الجميلة. وبحلول سنة ١٥٠٠، أصبحت مدينة أنتويرب المجاورة سوقاً للأنسجة الأوروبية ومركزاً صناعياً مهمًا. وبالرغم من أن أنتويرب وغينت وبروج كانت تشكل جزءاً من الإمبراطورية الأسبانية الهابسبورغية، إلا أنها كانت أيضاً مراكز للكالفينية التي كانت منتشرة بين طبقتي التجار والعمال على وجه الخصوص. وبينما كان الاضطهاد للبروتستانت يتعاظم في ظل حكم فيليب الثاني، كانت هذه المدن تعاني من هجرة كارثية للمهارة ورأس المال البروتستانتيين. تقلص عدد سكان أنتويرب بين سنتيْ ١٥٦٠ و ١٥٨٩ من ٨٥٠٠٠ نسمة إلى ٤٢٠٠٠ نسمة. وفي التاريخ نفسه تقريباً، خسرت كل من غينت وبروج ما يقرب من نصف سكانهما أيضاً.

انتقل معظم هؤلاء المهاجرين إلى شمال الأراضي المنخفضة، وكما كان متوقعاً فقد استقروا في أمستردام، وليدن، وهارلم حيث كان بإمكانهم ممارسة شعائرهم الدينية بحرية. كان العديد منهم عمال نسيج مهرة ومن ذوي الاختصاصات المتطورة في هذا المجال. (كان والد فيرمير على سبيل المثال متخصصاً في مجال الساتان المطرز، أما والد جاكوب فان روشديل، فقد كان متخصصاً في طبع الرسوم على السجاد.) اصطحب أولئك المهاجرون معهم ليس فقط المهارة والخبرة، بل أرقى تقنيات معالجة وتكرير المواد الخام. بحلول التسعينيات من القرن السادس عشر، استقر معظم أكثر التجار والصناعيين البروتستانت ثراء من جديد في هولندا

وكان ما أغراهم للقيام بذلك هو الأعداد الكبيرة من العمالة الماهرة، بالإضافة إلى الذهنية التجارية المنتشرة بشكل كبير في تلك المنطقة، والفرص الاقتصادية والاجتماعية التي لا مثيل أو منافس لها، والمتاحة أمام جميع الأفراد والجماعات بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية [١٨].

خلال مدة قصيرة جداً، تبوأت الجمهورية الهولندية مقعد القيادة من خلال سيطرتها على قطاع مدهش من الصناعات مثل تكرير السكر وصناعة الأسلحة الحربية وإنتاج المواد الكيماوية - ويعود الفضل في ذلك إلى الخبرات التي كان المهاجرون يتمتعون بها. الأهم من كل ما تقدم، أن هولندا أعادت تموضع أنتويرب كأهم منتج ومشذب للصناعات النسيجية. وبفضل المهارات والتكنولوجيا التي تم الحصول عليها مباشرة من أنتويرب، «أصبحت هارلم مركزاً لتبييض الكتان الخام من ألمانيا ووضع اللمسات الأخيرة عليه ... تخصصت أمستردام في صباغة المواد النسيجية المستوردة من إنجلترا "باللون الأبيض". أما ليدن فقد تم تنشيط الحركة فيها بوجود المهاجرين إلى الأراضي المنخفضة الجنوبية بحيث أضحت أكبر مركز صناعي لإنتاج ما يسمى "الأجواخ الجديدة" في أوروبا في القرن السابع عشر.»

لم تمضِ سوى مدة قليلة قبل أن تقوم هولندا بالسيطرة على»كافة أنواع تجارة المواد الباهظة الثمن» والتي كانت تسيطر عليها فيما مضى عصبة الهانسيتيين (وهي عبارة عن تحالف كان يضم نقابات تجارية في أوروبا الشمالية) والإنجليز، وقبل ذلك تجار البندقية. كانت أساطيل السفن المحملة بالكتان المكرر، والمخمل، والخملة، والساتان، والدمقس تبحر من هولندا إلى موانئ شهيرة في كل من أسبانيا والبرتغال. كان الهولنديون يبيعون هناك المواد النسيجية مقابل الفضة الأسبانية التي اشتروا بها مواد خام وبضائع فاخرة من الإيست إنديز والعالم الجديد: التوابل والسكر والبهارات والمعادن والقهوة والشاي والمرجان والقطم والحرير والصوف والموهير. أصبح الهولنديون بسرعة، وبفضل الكميات الوفيرة من الفضة التي تحملها تلك السفن المهيأة بشكل جيد، وشبكاتها التجارية التي لا تجارى في مناطق

البلطيق وشمال أوروبا، لو استعرنا عبارة دانيال ديفو: «حَمَلَة العالم، وسماسرةً تجاريين، ووسطاء متقاضين للعمولة في كل أنحاء أوروبا» [١٩].

لقد تركزت في واقع الأمر بين أيدي الهولنديين ثروة هائلة من التجارة في المواد الباهظة الثمن؛ وهو ما دفع الأسبان سنة ١٥٩٨ إلى فرض حظر على جميع السفن الهولندية منعت بموجبه تلك السفن من الرسو في الموانئ الأيبيرية، وهم أملوا من خلال ذلك أن يمنعوا الهولنديين من الحصول على البضائع التي ترد إليهم من المستعمرات. وقد ارتكب بذلك الأسبان خطأً جسيماً. فبعد أن بدأت هذه الإجراءات تشكل تهديداً لموارد أرزاقهم، وبوجود رأسمال جاهز للاستثمار أكثر من أي وقت مضى، قررت نخب التجار الهولنديين تجاوز كل من البرتغال وأسبانيا بالكلية، وإرسال سفنهم مباشرة إلى الإيست إنديز والأمريكيتين. وهكذا، أنشئت شركة شرق الهند المتحدة، ولاحقاً، شركة غرب الهند المتحدة؛ ومعهما، برزت الجمهورية الهولندية قوة استعمارية عالمية [٢٠].

إمبراطورية: «الذهب هو ربُّكم»

بحلول سنة ١٦٠١، كانت هناك ثماني شركات هولندية خاصة تملك فيما بينها خمسًا وستين سفينة تتنافس فيما بينها بشكل مسعور من أجل شراء بضائع من الإيست إنديز. كان المردود في البداية وفيراً جداً، وتبين للتجار الهولنديين بسرعة أن التنافس فيما بينهم كان يدفع بالأسعار نحو الارتفاع وهو ما كان يهدد أرباحهم. في الوقت نفسه، كانت السفن الهولندية عرضة لغارات من قبل القراصنة، والسفن الحربية المعادية، والمراكب المفوضة من قبل الحكومات لمهاجمة السفن المعادية. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى الهولنديين - بعكس الأسبان والبرتغاليين - أي وجود عسكري مستقل في آسيا أو أفريقيا أو العالم الجديد. في الإيست إنديز والويست إنديز، استعمرت كل من أسبانيا والبرتغال الشعوب واحتلت البلاد، وهو ما سهّل عليهما شحن المواد الخام من تلك البلدان لغايات تجارية. اطلع التجار الهولنديون على كل تلك الامتيازات، وتعلموا الدروس المناسبة منها.

قامت مجموعة من التجار والمواطنين ورجال الكنيسة الهولنديين بتأسيس شركة شرق الهند المتحدة سنة ١٦٠٢، وكانت عبارة عن احتكار مشترك للتبادل التجاري ذي السلطات المستقلة. كانت لشركة شرق الهند المتحدة صلاحية ممارسة العمل الدبلوماسي، وتوقيع المعاهدات، وإقامة التحالفات، وتشكيل الوحدات العسكرية، وتنصيب الحكام ، وشن الحروب. وكان على كل عملائها، سواء من القادة البحريين أو الحكام العامين المحليين أداء قَسَم مزدوج بالولاء للشركة، وأيضاً للحاكم العام للأقاليم المتحدة.

كان تجميع المستثمرين المؤسسين لشركة شرق الهند المتحدة مذهلاً. ففي إحدى أهم غرف التجارة في أمستردام، كان هناك أكثر من ألف مستثمر؛ واحد وثمانون من هؤلاء أسهموا في أكثر من نصف رأسمال الشركة الكلي. من بين كبار المستثمرين «الواحد والثمانين»، كان هناك ما يقرب من النصف من اللاجئين البروتستانت الذين فروا من الاضطهاد الأسباني، ونصفهم الآخر تقريباً كانوا من الهولنديين الأصليين. كانت المجموعة الأولى التي أسهمت برأسمال أكبر، تضم عائلات مصرفية وتجارية من مدينة أنتويرب مثل عائلة بارتولوتي، وكويمان، ودو سكوتس، ودو فوغيليرس. أما الهولنديون الأصليون فقد كانوا أقل ثراء،(على الأقل في البداية) ولكن كان لهم نفوذ سياسي أكبر؛ وكان من بينهم أسماء مثل غيريت بيكر ابن أحد مالكي مصانع الخمور، ورينيه بو، ابن احد تجار الحبوب، وغيريت رينست، ابن أحد مالكي مصانع الصابون. جنا هؤلاء الأشخاص ثروات طائلة من تجارة ما وراء البحار. كان هناك أيضاً ثلاثة مستثمرين رئيسيين هم في الأصل مهاجرون من ألمانيا بمن فيهم القطب المالي جان بوبين الذي كانت عائلته في سنة ١٦٣١ الأغنى بين عائلات مدينة أمستردام، وتليه عائلتا بارتولوتي و كويمان. وبالرغم من أن عشرة إلى عشرين في المئة من سكان المدن الهولندية من الكاثوليك، فقد كان جميع كبار المستثمرين في شركة شرق الهند المتحدة من البروتستانت [٢١].

مع ذلك، لم يكن التعصب الديني هو الدافع للتوسع الهولندي في مناطق ما

وراء البحار. لم تذهب سوى قلة قليلة من البعثات التبشيرية الهولندية ، إلى الإيست إنديز أو الأمريكيتين، بالمقارنة مع الأسبان والبرتغاليين من أجل «إنقاذ الوثنيين». كان هناك بالتأكيد عدد من الكالفينيين المتعصبين من بين بناة الإمبراطورية الهولندية بمن في ذلك الأميرال المتدين بيت هين والحاكم العام جان بيترسون كوين؛ إلا أن أشخاصاً مثل هين وكوين كانوا دائماً يشتكون من عدم وجود الورع الديني لدى مواطنيهم الهولنديين في آسيا. تذمر أحد رجال الدين من أن «البحارة الهولنديين لم يعرفوا عن الإنجيل أكثر مما كانوا يعرفون عن القرآن.» لم تتغذ الإمبريالية الهولندية على الكالفينية، بل على السعي وراء الربح. وكما قال رجال القبائل في غرب أفريقيا للتجار الهولنديين في بداية القرن السابع عشر: «الذهب هو ربكم.» أكد تشارلز العاشر، ملك السويد على النقطة نفسها فيما بعد: فعندما كان المندوب الهولندي يتحدث عن الحرية الدينية، سحب الملك قطعة نقدية من جيبه وقال: «هذا هو دينكم!» [٢٢].

شهدت بدايات القرن السابع عشر مدّاً توسعياً على الصعيدين التجاري والاستعماري على امتداد العالم بأسره. استولى الهولنديون سنة ١٦٠٥ على جزر التوابل الإندونيسية من البرتغاليين. نصّبت شركة الهند المتحدة الحاكم العام الأول لها في جزيرة جاوا، كما قامت بالإضافة إلى ذلك، بإنشاء مراكز تجارية في جزر تيرناتي، وتيدور، وأمبوينا، وباندا المجاورة. كما استولى الهولنديون على جاكرتا سنة ١٦١٩، وأعادوا تسميتها باتافيا، وجعلوا منها المركز الرئيس لشركتهم. في المدة نفسها، حل الهولنديون محل البرتغاليين كقوة مهيمنة على ساحل غرب أفريقيا؛ وبذلك، وضعوا يدهم على تجارة الذهب والعاج في المنطقة. وقام الهولنديون بإجراء أكثر دراماتيكية بين سنتي ١٥٩٩ و ١٦٠٥؛ ذلك أنهم أرسلوا ٧٦٨ سفينة إلى البحر الكاريبي وإلى شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية - التي كانت في السابق معقلاً رئيساً للأسبان - وأدى ذلك إلى قيام الهولنديين بوضع يدهم على كميات كبيرة من الملح والتبغ والجلود والسكر وسبائك الفضة.

في غضون ذلك، وبالعودة إلى أوروبا، استمر الصراع الهولندي الطويل من أجل الحصول على الاستقلال عن أسبانيا (وهو صراع استمر من سنة ١٥٦٨ إلى سنة ١٦٤٨ وكان يعرف بالثورة الهولندية أو حرب الثمانين سنة). وكان الهولنديون يحققون الانتصار تلو الانتصار. تبنى الهولنديون سلسلة من الإصلاحات العسكرية التي غذّتها الثورة الاقتصادية التي حققتها هولندا؛ وهذه الإصلاحات اقتبستها أوروبا خلال وقت قصير. كانت تدفع رواتب الوحدات العسكرية بانتظام، وأدخلت إلى الخدمة أسلحة أكثر قوة، كما تم توحيد القياسات المعيارية للقذائف والطلقات النارية. كانت هناك أيضاً ثورة في تقنيات التدريب على خوض المعارك؛ كان الجنود على سبيل المثال، يتدربون على حشو بنادقهم، ومن ثم إطلاق النار منها في وقت متزامن مسهّلين بذلك استمرار عملية رشق الطلقات بواسطة أرتال أفقية متعاقبة من جنود المشاة. أصبح التفوق الهولندي في المعارك من الوضوح بحيث إنه في معركة تارنهوت سنة ١٥٩٧، قتل ما يربو على ٢٢٥٠ من الجنود الأسبان، مقابل عدد لا يتجاوز أربعة من الجنود الهولنديين - أو، في أقصى التقديرات، لا يتجاوز عددهم المئة.

سنة ١٦٠٧، هاجمت السفن الهولندية الأسطول الأسباني في مضيق جبل طارق الذي يُعد ساحة الأسبان الخلفية وأغرقت ذلك الأسطول. وفي سنة ١٦٠٩، وقعت أسبانيا معاهدة السنوات الإثنتي عشرة مع المتمردين الهولنديين سمح بموجبها للسفن الهولندية بالدخول إلى الموانئ الأسبانية والبرتغالية والفلاندرية، وأن تجوب المياه الدولية من دون أن تخشى من هجوم قد تشنه السفن الحربية الأسبانية أو مراكب حرس الشواطئ الأسبانية. انخفضت بوالص التأمين على البضائع والسفن الهولندية بنسبة كبيرة إثر توقيع هذه المعاهدة مباشرة؛ كما ازدادت الأرباح الهولندية بمعدلات قياسية، ووصلت السيطرة الهولندية على التجارة مع بلدان بحر البلطيق والبحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا إلى ذروتها. عندما انتهت مدة المعاهدة لم تقم أسبانيا بتجديد بنودها. استؤنفت الحرب سنة ١٦٢١، وأعادت

أسبانيا فرض الحظر على السفن الهولندية من جديد. في السنة نفسها، تم إنشاء شركة شرق الهند المتحدة الهولندية بشكل رسمي، انطلق بعدها المد الاستعماري الهولندي باتجاه العالم الجديد.

في ثلاثينيات القرن السابع عشر، انتزعت هولندا من البرتغال كل تجارتها في مجال السكر تقريباً بين البرازيل وشمال أوروبا. وفي سنة ١٦٣٤، احتلت هولندا كركاس التي كانت تحت السيطرة الأسبانية، وأسست لنفسها قاعدة دائمة في منطقة الكاريبي. بحلول سنة ١٦٤٨، أصبح العلم الهولندي يخفق فوق أروبا، وبونير، وسانت مارتن، وبقية الجزر مجتمعة، والتي تعرف اليوم باسم جزر الأنتيل الهولندي. في غضون ذلك - وبالعودة إلى أوروبا - أعلن هنري هدسون، وهو إنجليزي استخدمه الهولنديون وزودوه بالمؤن، وَضْعَ يده على أغلب مساحة ولاية نيويورك لصالح مستخدميه الهولنديين. قام الهولنديون في منتصف القرن السابع عشر، انطلاقاً من قواعد في منطقة أمستردام الجديدة (التي تدعى اليوم مانهاتن)، ومنطقة فورت أورانج (التي تسمى اليوم ألباني) بالسيطرة على تجارة الفرو المزدهرة في أمريكا الشمالية [٢٣].

تأسست شركة الهند الغربية المتحدة الهولندية كمثيلتها شركة الهند الشرقية المتحدة بشكل رئيس من قبل المهاجرين الذين فروا إلى الجمهورية الهولندية نظراً للتسامح الديني النسبي الذي تتمتع به. كان من بين هؤلاء المؤسسين أيضاً لاجئين بروتستانت ميسورين - في واقع الأمر، كانت شركة الهند الغربية تمارس الكثير من العدوانية ذات المنشأ الكالفيني، والتي تجاوزت بكثير، العدوانية في مثيلتها الشرقية. من ناحية أخرى، وبينما أدى اليهود دوراً صغيراً في شركة الهند الشرقية، فقد كان لهم وجود وأنشطة مؤثرة في شركة الهند الغربية.

ونظراً لطلاقتهم في اللغتين الهولندية والأيبيرية، بالإضافة إلى خبراتهم الطويلة في الاتجار بالسكر وبعض المواد الخام الاستوائية الأخرى، فإن اليهود السفارديم في

هولندا كانوا مناسبين للقيام بمهمة المستعمرين الهولنديين في الويست إنديز. وقد مثّلَ اليهود الهولنديون بحلول سنة ١٦٤٤ ثلث المواطنين البيض تقريباً في البرازيل الخاضعة لسلطة الأراضي المنخفضة.

ساعد اليهود في استعمار غويانا، وبربادوس، والمارتينيك، وجمايكا بالإضافة إلى جزر أصغر مثل نيفيس، وغرانادا، وتوبوغو. وكانت أكبر مستعمرة يهودية في العالم الجديد والأكثر أهمية، هي كركاس، وتليها جماعة اليهود السفارديم المكونة من خمسمئة فرد في سورينام، والتي كانت تملك بحلول سنة ١٦٩٤، أربعين مصنعاً للسكر وتسعة آلاف من العبيد [٢٤].

بحلول منتصف القرن السابع عشر، كانت الجمهورية الهولندية «أعظم أمة تجارية في العالم من دون منازع، وكانت تحت سيطرتها محطات تجارية ومصانع محصنة ومحمية بشكل جيد منتشرة من آرش آنجيل إلى ريسيف، ومن أمستردام الجديدة إلى ناغازاكي.» كانت كميات غير محدودة من البضائع الفاخرة تصب في هولندا وتمر عبرها. في السابع والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة ١٦٣٤، أفرغت هذه الكميات الهائلة من المواد التالية في ميناء أمستردام:

> ٣٢٦٧٣٣،٥ باوند من توابل مالاقا، من وحدات الوزن المتعارف عليها في أمستردام، و٢٩٢٦٢٣ ليبرة من الملح الصخري، و ١٤١٢٧٨ ليبرة من النيلة، و٤٨٣٠٨٢ ليبرة من الخشب، و ٢١٩٠٢٧ قطعة من ملابس المينغيين الزرقاء، و ٥٢ صندوقًا من البورسلين الكوري والياباني، و ٧٥ مزهرية كبيرة وقدور فخارية تحتوي على أنواع من المربى المحفوظة، أغلبها كان من الزنجبيل المخلوط بالتوابل، و٦٦٠ ليبرة من النحاس الياباني، و ٢٤١ قطعة من الأعمال الفنية الزيتية اليابانية، و ٣٩٨٩ قطعة من الألماس الخام من الحجم الكبير، و ٩٣ صندوقًا من اللؤلؤ والياقوت، و ٦٠٣ من البالات المليئة بأثواب فارسية من الحرير، و ١١٥٥ ليبرة من الحرير الصيني الخام، و ١٩٩٨٠٠ ليبرة من السكر غير المكرر [٢٥].

العصر الهولندي الذهبي

عرف الهولنديون منذ مدة طويلة بأنهم شعب اقتصادي. اتهم أوين فيلثام الهولنديين «بالاحتفاظ حتى بقشور البيض.» من جهته، عبر السفير البريطاني إلى الهيغ بين سنتي ١٦٦٨ و ١٦٧٠، السير ويليام تمبل الذي سبق له أن أبدى إعجابه بالأقاليم المتحدة عن الضيق من كون الهولنديين أصبحوا أصحاب ثروات بسبب البخل:

> لم يسبق لأي أمة في الدنيا أن تاجرت بهذه الكميات الكبيرة من البضائع، وأنفقت هذا المقدار الضئيل: فهم سادة تجار التوابل الهندية، والحرير الفارسي العظام، ومع ذلك فهم يلبسون الصوف العادي ويأكلون من الأسماك التي يصيدونها، ومن الخضراوات ذات الجذور. الأدهى من ذلك، أنهم يبيعون أفضل أرديتهم وألبستهم لفرنسا، ويشترون لأنفسهم ثياباً خشنة من إنجلترا. باختصار، إنهم يعرضون أهم أشكال الترف لكنهم لا يعيشونه، ويتاجرون بكل المتع الدنيوية من دون أن يتذوقوها.

لكن بينما كان بعضهم يرتدي «الصوف العادي»،ويأكل الخضراوات ذات «الجذور»، فإن آخرين من بينهم لم يكونوا يفعلون ذلك. بيّنَ سايمون سكاما في كتابه الموسوم The Embarrassment of Riches أن الكثيرين من بين الهولنديين بدءاً من الذين تجري في عروقهم دماء ملكية وصولاً إلى الناس العاديين، لم تكن لديهم أي مشكلة في إيجاد شكل من أشكال التوازن بين مبادئ الكالفينية من جهة، وبين حياة الترف من جهة أخرى - والمتمثلة في الولائم الضخمة، والاحتفالات الباهظة التكاليف، والاستهلاك الباذخ.

عرفت الجمهورية الهولندية في كافة أنحاء أوروبا، إبان القرن السابع عشر الذي كان يُعد عصرها الذهبي، كالولايات المتحدة في معظم مراحل تاريخها، بأنها أرض الفرص: قدس جديدة تطفو على بحيرة من الحليب والعسل. لكن كان هناك الكثير من الفقر المدقع و اللا مساواة أيضاً: كان من بين الآلاف المؤلفة الذين تدفقوا

على الجمهورية بين سنتي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ ليس فقط المستثمرون الماليون وأقطاب الثروات، بل أطفال مشردون، وبائعات هوى، وبحارة لا يملكون شروى نقير من النرويج والسويد. مع هذا كله، كانت الجمهورية الهولندية أغنى بلدان أوروبا قاطبة؛ حتى العمال غير المهرة كان مستوى معيشتهم أفضل من معظم نظرائهم في العالم بأسره [٢٦].

وكما أن الأمريكيين اليوم يعدون الأكثر شراهة في العالم، كان الهولنديون مشهورين بأنهم يحشون أجسادهم بالطعام. أعرب العالم الطبيعي الإنجليزي جون ري من القرن السابع عشر عن اشمئزازه من منظر النساء والرجال الهولنديين، الذين كانوا في معظمهم «من ذوي العظام الغليظة والأجسام البدينة، والذين لا يكادون يتوقفون عن التهام الطعام.» ولم تكن هذه الشراهة في الأكل مقصورة على الأغنياء. فقد كان الأرستقراطيون والناس العاديون يتناولون وجبات فطور متشابهة، درجت العادة أن تتضمن الخبز والزبدة والجبن والسمك والمعجنات والحليب الكامل الدسم والبيرة - وكانت هذه الأخيرة «أكثر أنواع المشروبات المترافقة مع الفطور شيوعاً بالنسبة للكبار والصغار على حد سواء.

كانت وجبتا الغداء والعشاء وفيرة وشهية أيضاً. تظهر إحدى فواتير الطعام في الرابع والعشرين من شهر نيسان، أبريل، سنة ١٦٦٤ أن اثني عشر بروفسوراً من مقاطعة غرونينجين طلبوا قائمة الطعام الآتية للعشاء: ديك رومي وأرنب بري مطبوخ في قدر فخاري وخنزير صغير وخروف ولحم عجل مشوي على السيخ وسمك وخبز وزبدة وخردل وجبن وليمون حامض واثنتا عشرة قارورة من الخمر.» وفي سنة ١٧٠٣، قيل إن سبعة على الأكثر من رجال الكنيسة من آرنيم، استهلكوا في جلسة طعام واحدة «أربع عشرة ليبرة من لحم البقر، وثماني ليبرات من لحم العجل وستة من الطيور والملفوف المحشي بالأرز واللحم والتفاح والدراق والخبز والبسكويت المملح والمكسرات المشكلة واثنتين وعشرين زجاجة من النبيذ الأحمر واثنتي عشرة زجاجة من النبيذ الأبيض والقهوة.» حتى في البيوت الفقيرة، كانت الوجبات لا

تخلو من حساء الخضراوات واللحم المطبوخ والخبز والزبدة وأحياناً لحم الطيور والفواكه الطازجة والنبيذ الأحمر للمرضى.

كان الهولنديون يأكلون أكثر من المعتاد في المناسبات الخاصة. فبالإضافة إلى العطلات الرئيسة مثل عيد الميلاد وعيد القديس مارتن وغيرهما (وكان يتطلب في مثل هذه المناسبات التهام الكعك المحمص والشطائر المحلاة والنقانق والمعجنات المحشوة بلحم الخنزير)، كان الهولنديون يولمون في مناسبات الولادة والمعمودية والتقميط والزواج والوفيات وافتتاح المدارس وحفلات اليانصيب والتدرب على مهن جديدة وتركيب آلات الأرغن الموسيقية ورسو السفن في الموانئ وحتى في «الولائم الإرتكاسية» حيث يتبادل السيد والسيدة الأدوار مع خدمهما. يمكن أن يصل عدد الصحون التي تقدم في مثل تلك الولائم إلى مئة صحن أو أكثر. تم تشييع أحد أصحاب النزل غير المعروفين، وهو ما أطلق عليه سايمون سكاما وصف «التشييع الاستثنائي» حيث استهلك أبناء مدينته في تلك المناسبة

٢٠ برميلاً من النبيذ الفرنسي والرايني

٧٠ برميلاً مملوءًا إلى منتصفه من البيرة

١١٠٠ باوند من اللحم المسلوق

٥٥٠ باوندًا من لحم الخاصرة

٢٨ صدرًا من لحم العجل

١٢ خروفًا كاملاً

١٨ غزالاً

٢٠٠ باوند من اللحم المفروم

وكانت هذه الكميات تغطى كالعادة بالخبز والزبدة والجبن.

إلا أن الطعام الذي كان يلتهم بكميات كبيرة، وبكثير من النهم، لم يثر أي صعوبات دينية ذات شأن. فالخبز تم تقسيمه في "العشاء الأخير"؛ «وحتى بالنسبة لأي واعظ متحمس، لم يكن الكعك المملح يستثير أي إحساس بالخطيئة.» المشكلة كانت تكمن في أن الهولنديين كانوا يكثرون من الشراب والتدخين إلى درجة كبيرة. احتج أحد رجال الدين على ذلك بالقول: «لا يعدم الرجال إيجاد الأعذار كي يبدؤوا بمعاقرة الخمرة ... عند سماعهم صوت الجرس، أو رؤيتهم لطاحونة تدور. ... الشيطان نفسه تحول إلى مصنّعٍ للخمور.» قيل إنه في سنة ١٦٠٣، كان يوجد ٥١٨ مصنعاً للبيرة في أمستردام وحدها. وفي المدة نفسها، قيل إن ١٢٠٠٠ ليتراً من البيرة تستهلك يومياً في مدينة هارلم؛ وكان أكثر من ثلثي هذه الكمية يتم استهلاكها منزلياً. في الوقت نفسه، كان التدخين وحتى مضغ التبغ يشكلان ما يمكن أن يطلق عليه وصف الإدمان على الصعيد الوطني عند الجنسين، وبين أفراد جميع الطبقات الاجتماعية. ذكر سكاما أن «الجمهورية الهولندية تفوح منها رائحة التبغ.» كان الزوار الأجانب ينفرون تحديداً من أسنان النساء الهولنديات المغلفة بسواد القطران. وكان السكان المحليون يعلقون بالقول: إن «من المستحيل أن ترى هولندياً من دون غليون في فمه» [٢٧].

تسببت مثل هذه الخطايا والإفراط في إحباط عميق في نفوس الكالفينيين المتعصبين. حاول عمدة مدينة أمستردام سنة ١٦٥٥، وكان من الأتقياء، تمرير قانون يحظر بموجبه إقامة ولائم أعراس فيها الكثير من البذخ. في موقع آخر، وضعت مدينة ديلفت حظراً على الظهور العلني للرجال الذين يرتدون ملابس وحليّ مبتذلة. كما حاول عدد من رجال الدين منع استهلاك الكحول في أيام السبت.

إلا أن هذه الإجراءات فشلت في نهاية المطاف فشلاً ذريعاً. لم تكن هذه الإجراءات مرفوضة شعبياً وحسب، (كانت محاولة منع استهلاك الكعك المحلى في عيد سانت نيكولاس قد أدت إلى ثورة عارمة بين الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم الحادية عشرة.) بل وقفت القوى الرأسمالية بشراسة في وجه مثل تلك المحاولات.

فقد كانت البيرة والتبغ اثنتين من أهم المنتجات التجارية في الجمهورية الهولندية. وكان ما يقرب من نصف القوة العاملة في مدينة غودا تعمل في تصنيع الغليون. وحتى شركة الهند الغربية التي اشتهرت بخطها الكالفيني المتشدد، جنت أرباحاً طائلة من تجارتها في التبغ الذي كانت تأتي به من المستعمرات. انتصرت المصالح الاقتصادية بسهولة على جهود الحظر التي قادتها الكنيسة. ففي روتردام على سبيل المثال، استطاع منتجو الخمور في المدينة بسرعة قياسية سحب القانون الذي كان يحظر شرب الخمور أيام الآحاد. الكنيسة نفسها لم تكن بمعزل عن المشاركة في تجارة «الخطايا». فقد كان من الشائع عند رجال الكنيسة المحليين أن يقوم أحدهم باختلاس لحظات يمارس فيها التدخين بين القداس والآخر؛ وكان أحد كبار أقطاب صناعة التبغ في مدينة أميرسفورت واسمه برانت فان سليختينهورست من كبار المنتسبين إلى الكنيسة الإصلاحية البروتستانتية [٢٨].

بحلول منتصف القرن السابع عشر، اشتهرت الجمهورية الهولندية في كافة أنحاء أوروبا بأنها موغلة في ليبراليتها على الأصعدة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والفكرية. كان زوارها الأجانب يشعرون بالصدمة من عدم الاحترام الذي يبديه كل من الخدم والزوجات والناس العاديين للسادة والأزواج والنبلاء. تحدث الألماني هنريخ بينثيم ساخراً عند زيارته للجمهورية الهولندية في السنوات العشر الأواخر من القرن السابع عشر قائلاً، إن الخادمات يلبسن ويتصرفن تماماً مثل سيداتهن لدرجة أنه لم يكن يستطيع التمييز بينهن. لاحظ أيضاً أنه وبينما كان الأزواج الألمان يذهبون إلى الكنيسة معاً، كانت زوجاتهم يمشين إلى الخلف منهم ويهتممن بالأولاد؛ أما في هولندا فقد كان العكس هو السائد؛ قال: «هنا الدجاجة تصيح، بينما يكتفي الديك بالقوقأة.» كانت النساء في الجمهورية الهولندية بشكل عام - شابات وعجائز، ومن كافة الطبقات الاجتماعية - يشتهرن باستقلاليتهن، «وبالحرية في الذهاب أنى شئن، من دون أن يصطحبهن أو يرافقهن أحد إلى العمل أو ممارسة أي أعمال تجارية أو الخوض في أي أحاديث شأنهن في ذلك شأن الرجال.»

الأسوأ من هذا وذاك، أنه لم تكن توجد حدود أو توضع ضوابط على من يمكن أن يصبح غنياً في الجمهورية الهولندية - أو على الأقل، هذا ما لاحظه معاصروهم الأوروبيون الذين اعتادوا على أنماط هرميات اجتماعية أكثر تشدداً. كان التجار حديثو النعمة وأبناء صانعي الجبن يعيشون في قصور فخمة «ذات أعمدة من الرخام والمرمر، وأرضية مطلية بماء الذهب.» كانوا يرتدون ملابس فاخرة ويزينون زوجاتهم بملابس مصنوعة من الحرير الأسباني الصقيل، والزمرد البرازيلي، والياقوت الهندي. حتى أصحاب المحلات التجارية والإسكافيون من ذوي الأصول المتواضعة كانوا يرتدون الكتان الغالي الثمن والمخمل والدمقس. تمتم أحد النقاد الساخطين قائلاً: «السيد "أيٌّ كان" يظن أن من حقه ارتداء ما يشاء طالما كان قادراً على دفع ثمنه.» وتابع القول: «هل يمكنكم تحمل رؤية خياط يملك غرفة أو ردهة معلق على جدرانها الجلد الذهبي اللون أو السجاد؟ أو تاجر أقمشة حريرية أو حرفي من هنا أو هناك يزين منزله كما لو كان سيداً نبيلاً أو عمدة المدينة؟»

كان التسامح الديني والرواتب العالية في الجمهورية عاملا جذب للأفراد المهرة والموهوبين من كل أنحاء أوروبا مثل الألمان والإنجليز والفرنسيين والاسكتلنديين وحتى الأتراك والأرمن. حقق الهوغونيون الذين وصلوا إلى الجمهورية بعد إلغاء مرسوم نانت سنة ١٦٨٥ في فرنسا النجاح بشكل لافت في مجالات صناعة الحرير والملابس والقبعات والشعر المستعار والساعات الهولندية. أصبحت مدن هولندا الكبرى وجامعاتها أكثر الأماكن عالمية في أوروبا. بلغت نسبة الطلبة الإنجليز في جامعة ليدن سنة ١٧٠٠ ثلث عدد الطلبة الإجمالي؛ كما تدفق الآلاف من الباحثين الإنجليز والإسكتلنديين إلى غرونينغين وأتريخت أيضاً. بحلول سنة ١٦٨٥، أصبح المهاجرون والمنحدرون من أصول المهاجرين أغلبية في هولندا [٢٩].

شهدت الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر - مثلها في ذلك مثل الصين في العصر الذهبي للتانغيين - مداً هائلاً من الإبداع الثقافي والفني والفكري. وكان الرسامون الهولنديون في ذلك العصر - من أمثال رمبراندت، وفيرمير وفرانز هالز

وجان ستين وجاكوب فان رويسديل - من أعظم الفنانين وأشهرهم على مر العصور. قام سادة الفن الهولنديون الذين تجنبوا التعاطي مع رموز القداسة التي تناولها الفن التقليدي بممارسة الرسم بأسلوب واقعي فيه الكثير من التكثيف مسلطين الكثير من الضوء بشكل غير مسبوق على موضوعات محلية وعلى قضايا الطبقة الوسطى التي كان من غير المسموح تداولها في لوحات الرسم العظيمة التقليدية. (اختار رمبراندت أن يعيش في الحي اليهودي في أمستردام.) قدم هولنديو ذلك العصر إنجازات لافتة في مجالات فكرية وثقافية أخرى: هوغو دو غروت، الموسوعي والإنساني النزعة الذي يعرف اليوم باسم غروتيوس، كان أول من وضع أسس القانون الدولي الحديث في القرن السابع عشر، بينما كان ما يزال في العشرينيات من عمره.

وأخيراً، بعضٌ من ألمع مفكري عصر التنوير الذين استهوتهم الحرية الفكرية في الجمهورية، كتبوا أو عاشوا في هولندا. وكان من بين هؤلاء رينيه ديكارت، وباروخ سبينوزا، وجون لوك، «وهم المتنورون الثلاثة العظام في فكر القرن السابع عشر.» كان ديكارت سيداً فرنسياً كاثوليكياً وجد في هدوء هولندا راحة البال التي كان ينشدها، وكتب فيها أكثر أعماله شهرة. (كتب أيضاً عن أمستردام المهووسة بعالم التجارة: «لا يعيش في هذه المدينة العظيمة، لو نحيت نفسي جانباً، سوى الذين يعملون في مجال التجارة، فالجميع هنا غارق في البحث عن مصلحته لدرجة أنه بإمكاني قضاء بقية عمري في هذا المكان من دون أن ألتقي بإنسان.») كان سبينوزا فيلسوفاً يهودياً هاجرت عائلته إلى هولندا في العشرينيات من القرن السابع عشر؛ وقد أدت أفكاره الحديثة المتطرفة حول العقل ومفهوم الفردية إلى طرده من محيط جماعته من اليهود السفارديم. أما جون لوك فقد كان إنجليزياً طرده الملك جيمس الثاني، وكانت أعظم كتاباته - حول مفهوميْ الحكومة والتسامح - قد تأثرت بسنوات المنفى التي قضاها في هولندا. كما استقرت شخصيات لامعة مثل الإيطالي غريغوريو ليتي، والفرنسي بيير بيل في الجمهورية الهولندية أيضاً، وبذلك أصبحت هولندا «ملاذاً للفلاسفة»[٣٠].

هل كانت الجمهورية الهولندية قوة مطلقة؟

يمكن القول: إن الجمهورية الهولندية في ذروة تفوقها البحري والاقتصادي غير المسبوق بين سنتي ١٦٢٥ و١٦٧٥ تقريباً، كانت دولة مسيطرة عالمياً. الاعتراض الواضح على مثل هذا القول يكمن في أن الجيش الهولندي لم يكن الأكبر في أوروبا - بالرغم من أنه كان من بين أكبر الجيوش وأفضلها تجهيزاً وأكثرها حرفية وانتظاماً. حتى في سنوات انحدارها في القرن السابع عشر، كانت أسبانيا تملك جيشاً أكبر عدداً، وكان من المشكوك فيه إلى درجة كبيرة أن يكون باستطاعة الأراضي المنخفضة غزو مناطق الهابسبورغيين وفتحها. هل يمكن القول إن الجمهورية الهولندية كانت حقاً دولة كبرى؟

التركيز على حجم الجيش الهولندي يؤدي إلى عدم فهم الأسباب التي ساعدت الجمهورية الهولندية في الانتصار على منافساتها من الدول والإمبراطوريات الأخرى. لم يكن في نية الهولنديين أبداً غزو القارة الأوروبية. وبينما أرهقت كل من أسبانيا وفرنسا وإنجلترا نفسها في حروب عدوانية ضد بعضها بعضاً، كانت الجمهورية الهولندية تبني لنفسها جيشاً قوياً يكفي لانتزاع الاستقلال من الهابسبورغيين، والدفاع عن حدودها - كما فعلت سنة ١٦٧٢ عندما ألحقت الهزيمة، لدهشة الأوروبيين، وفي وقت متزامن بالغزاة الفرنسيين والإنجليز وردتهم على أعقابهم. والأهم من كل ما تقدم، مثلها في ذلك مثل البندقية في العصور الوسطى، كانت الإمبراطورية الهولندية إمبراطورية محمولة على سطح مياه المحيط، يدفعها التعطش إلى التوسع التجاري، وليس التوسع في مساحة الأراضي [٣١].

بحلول القرن السابع عشر، أضحت القوة البحرية الطريق الملكية المؤدية إلى السيطرة على العالم، وقد وضعت الجمهورية الهولندية يدها على البحار والمحيطات. بلغت السيطرة البحرية الهولندية مدى مثيراً للدهشة. ففي معركة الداونز، سنة ١٦٣٩، ألحقت السفن الحربية الهولندية هزيمة مذلة للبحرية الأسبانية الهائلة

الحجم، حيث تم تدمير ما يقرب من مئة من سفن الأسطول الحربي الأسباني، بالإضافة إلى قتل ما يقرب من عشرين ألف جندي أسباني، وهو ما تسبب في «ارتقاء سمعة هولندا البحرية إلى ذرى لم تبلغها من قبل.» سنة ١٦٦٧، لقن الهولنديون الإنجليز درساً في الهزيمة ربما كان الأسوأ في التاريخ البريطاني، ومما زاد الطين بلة، أن الهولنديين سحبوا السفينة الحربية الإنجليزية "رويال تشارلز" وهي سفينة القيادة في الأسطول الإنجليزي إلى الموانئ الهولندية. على الصعيد التجاري، كانت سيطرة الهولنديين البحرية أكثر وضوحاً. بحسب أحد التقديرات، من أصل ما يقرب من عشرين ألف سفينة تجارية في العالم تحمل مواد تجارية، في منتصف القرن السابع عشر، كانت هناك ما بين خمسة عشر ألف إلى ستة عشر ألف سفينة منها للهولنديين. وكان الهولنديون ، يدفعون بحلول سنة ١٦٧٠، رسوماً على حمولات سفنهم أكثر مما تدفعه كل من إنجلترا وفرنسا والبرتغال وأسبانيا وبروسيا مجتمعة.

كان الأسطول الهولندي في أوج قوته من حيث الحجم، يوازي تقريباً القوات البحرية لكل من بريطانيا وفرنسا سوية - وكان ذلك أمراً مدهشاً، نظراً إلى أن فرنسا كانت أكبر من الجمهورية الهولندية من حيث عدد السكان بما يزيد عن عشر أو عشرين مرة [٣٢].

تبين للهولنديين قبل غيرهم أن هناك طريقاً جديدة لتحقيق السيطرة على العالم مع بزوغ فجر العصر الحديث. فجميع القوى المطلقة السابقة في التاريخ بدأت باحتلال جيرانها أولاً، متوسعة باتجاه الخارج تساعدها في ذلك الجيوش الغازية التي تزداد حجماً من خلال ضمها لشعوب أكثر فأكثر، وكذلك من خلال إبداء التسامح الإستراتيجي الذي شجع الشعوب المستعمرة على الإسهام بقواها ومواهبها في سبيل دعم سلطة تلك الجيوش ونفوذها.

لكن التسامح الهولندي أدى دوراً مغايراً. فقد شهدت الحقبة الممتدة بين ١٤٩٢

و١٧١٥ أعظم هجرة قام بها أصحاب المهارات في التاريخ، ويعود ذلك بدرجة كبيرة إلى الاضطهاد الديني الوحشي الذي ساد أوروبا في تلك الحقبة [٣٣]. استخدم الهولنديون التسامح من أجل اجتذاب الفارين والمضطهدين من أصحاب المواهب المختلفة من كافة أنحاء أوروبا، وهو ما قامت به الولايات المتحدة نفسها بعد قرنين من الزمن. تبين أن تلك كانت إستراتيجية رابحة تم من خلالها اجتذاب المجموعات الأكثر ديناميكية من الناحية الاقتصادية -بالإضافة إلى نصب شبكات تجارية بالغة الأهمية، وتكنولوجيا صناعية بالغة الدقة، وكميات هائلة من رؤوس الأموال- إلى هولندا الصغيرة الحجم؛ محققة بذلك فورة اقتصادية ساعدت في امتداد الجمهورية الهولندية إلى حدود أبعد بكثير من منافسيها الأوروبيين في الثروة. وقد استخدم الهولنديون هذه الثروة كي يمدوا سيطرتهم باتجاه العالمية.

أدى التقدم التكنولوجي وبروز الرأسمالية إلى ازدياد عدد المناطق التي يمكن أن يتم وضع اليد عليها في أصقاع شتى من العالم، كما أسهم في تغيير الأهداف التي تطمح القوة إلى تحقيقها. تضاءلت إلى حد كبير أهمية التوسع الجغرافي على حساب البلدان المجاورة. فالجوائز الجديدة الأكثر دلالة وربحية هي الذهب والفضة التي يمكن الحصول عليهما من الأمريكيتين، وتجارة التوابل من الإنديز، والسكر من منطقة الكاريبي، بالإضافة إلى أنواع أخرى من «التجارة المربحة» - في أسواق القهوة والشاي والكاكاو وصناعة النسيج والجواهر ومواد الترف الأخرى - وذلك من منطقة البلطيق مروراً بمنطقة البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى أفريقيا. وكان الهولنديون هم الذين مهّدوا الطريق للفاتحين المستقبليين - من أمثال نابليون وهتلر- لتجديد أحلامهم المنحرفة بإخضاع أوروبا عسكرياً، مع ما رافق تلك الأحلام من دمار، ودمار ذاتي هائل.

لم تتمثل إستراتيجية السيطرة على العالم الحديثة بالفتوحات بهذا المعنى، بل بالرأسمالية التي تدعمها القوة العسكرية. وبالرغم من أن الهولنديين كانت لهم مواقع استعمارية مهمة في إندونيسيا ومنطقة الكاريبي ومناطق أخرى، فإن معظم

مناطق "الإمبراطورية" الهولندية كانت بالأساس عبارة عن شبكة من نقاط استناد تجارية تدار من قبل شركتيْ الهند الشرقية والغربية شبه الخاصة؛ وكانت السفن الحربية توفر الحماية لاحتكار هاتين الشركتين لأكثر طرق وممرات التجارة ازدهاراً في العالم. ومع الأخذ بعين الاعتبار «تفوقها الإنتاجي والتجاري والمالي» الواضح، بالإضافة إلى شهرتها التكنولوجية وقوتها البحرية الطاغية، فإنه لم يكن مستغرباً أن يخلص إيمانويل وولرستين إلى الاستنتاج بأن الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر تبوأت «موقعاً استثنائياً» في مجال «السيطرة» العالمية [٣٤].

«الفتح» الهولندي لإنجلترا

غزا الأسطول الهولندي الهائل الحجم إنجلترا سنة ١٦٨٨، واحتلت القوات الهولندية لندن، ونصّب نائب الرئيس الهولندي وليام الثالث من أورانج نفسه ملكاً على بريطانيا التي تقاسم حكمها مع زوجته ماري. وكان يبدو أن التفوق الهولندي قد وصل ذروته، وأن التوسع العسكري والتجاري لهولندا لا يمكن إيقافه. في الواقع، كان اعتلاء وليام العرش إيذاناً بانتقال عباءة السيطرة العالمية من كتف هولندا إلى كتف بريطانيا [٣٥].

كان البرلمان البريطاني هو الذي خطط لهذه الثورة المجيدة، أو «الثورة التي لم تهرق فيها الدماء» سنة ١٦٨٨. قبل ذلك بعشر سنوات، كان وليام، الهولندي الطموح قد تزوج من ابنة عمه ماري ستيوارت، ابنة الملك جيمس الثاني، ووريثة العرش الإنجليزي. بعكس وليام وماري اللذان كانا من البروتستانت، كان جيمس الثاني كاثوليكياً وهو ما جعله غير محبوب عند رعاياه الإنجليز.

كانت محاولة وليام الاستيلاء على العرش الإنجليزي من عمه (ووالد زوجته) محفوفة بالمخاطر بالرغم من حصوله على موافقة البرلمان البريطاني على ذلك. ونظراً لأن جيمس الثاني كان قد عقد تحالفاً مع لويس الرابع عشر، الملك الفرنسي، فقد كان من المهم أن يقوم وليام بتحريك قواته ونقلها عبر القنال الإنجليزي بسرعة.

كانت القوة البحرية الهولندية التي رست على شواطئ إنجلترا سنة ١٦٨٨ - والتي وصلت على متن أسطول قوامه خمسمئة سفينة حربية - مجهزة وممولة جزئياً من قبل مجموعة صغيرة من اليهود الهولنديين. بعد تبوئه عرش إنجلترا، قام وليام على الفور باستقدام خبرائه الماليين من اليهود السفارديم لمتابعة تمويل قواته التي تضم الآن الجيش الإنجليزي والبحرية الإنجليزية أيضاً. وتبع هؤلاء الخبراء بعد مدة قصيرة عمال النسيج المهرة والعلماء وفنانو الصور الهولنديون والرسامون والنحاتون. وهكذا بدأت موجة كبيرة من رأس المال البشري والمالي بالتدفق من هولندا إلى إنجلترا [٣٦].

وهكذا، فقد كان من المفارقة أن تستفيد إنجلترا بشكل هائل من الاندماج بين القوتين الهولندية والإنجليزية. فقد قامت الجمهورية الهولندية بتصدير تسامحها وخبرائها الماليين من المستثمرين وكل «نموذجها التجاري» إلى إنجلترا التي حلت بدورها محل الجمهورية الهولندية كموطن للحرية في أوروبا، وأرض للفرص بالنسبة للمهاجرين والأقليات الدينية. لم يمض وقت طويل قبل أن تحل إنجلترا محل الجمهورية الهولندية بوصفها قوة بحرية عالمية عظمى، تتربع فوق عرش إمبراطورية استعمارية وتجارية عالمية لم يسبق لعظمتها مثيل في التاريخ؛ وبذلك، ورثت إنجلترا عن هولندا مشكلة استعصى على هذه الأخيرة حلها.

كان التسامح بالنسبة إلى الهولنديين سياسة داخلية بالدرجة الأولى؛ ذلك أن التسامح الديني اللافت الذي طال الأراضي المنخفضة داخل حدودها لم يترجم إلى تسامح عرقي أو عنصري في نقاط تواجدها الاستعماري فيما وراء البحار. فقد عامل الهولنديون المستعمرون شعوب مستعمراتهم من سورينام إلى جاوا وصولاً إلى أفريقيا بطريقة دونية من الناحيتين العنصرية والثقافية، وقد مارسوا ضدهم كل ما يمارسه المستعمرون عادة من رق وتمييز عنصري وتدمير ثقافي. وهكذا فقد كان هناك تناقض بين التسامح الهولندي داخل الوطن، والتعصب الذي مورس في المستعمرات في الخارج، وهو تناقض سوف يبين بشكل أوضح في ممارسات الإنجليز.

لو قمنا بتوصيف ذلك بألطف العبارات، لقلنا إن الهولنديين لم ينجحوا أبداً في تحويل الإندونيسيين أو السيلانيين إلى رعايا موالين للإمبراطورية الهولندية العظمى. لم يسعَ الهولنديون أبداً في واقع الأمر، إلى إقامة إمبراطورية من هذا النوع. لقد تُرِكَ لإنجلترا أمر المواءمة بين أضداد تتمثل في محاولة الجمع بين مبادئ التنوير، والمركزية العرقية الأوروبية، والرؤية الرومانية لبناء الإمبراطورية وتمثل ذلك في تكوين عالم من الرعايا البريطانيين الذين ملؤوا صفوف الجيش البريطاني، وأداروا أراضي المستعمرات البريطانية، وحاكوا السلوك البريطاني، واندفعوا بشكل أو بآخر، لتعزيز المصالح الإمبريالية البريطانية.

الفصل السابع

التسامح والتعصب في الشرق

الإمبراطوريات العثمانية والمينغية والمغولية

قبل الانتقال للحديث عن بريطانيا العظمى التي كانت خليفة الجمهورية الهولندية، دعونا نلقي نظرة سريعة خارج نطاق الغرب. يسلط هذا الفصل الضوء على ثلاثة من المجتمعات غير الغربية - وهي العثمانية والمينغية والمغولية - التي ارتقت إلى ذرى لافتة من القوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، إلا أنها لم تصل إلى حد يمكن معه أن نعدّها قوى عظمى. في كل واحدة من هذه الحالات الثلاث، كانت الإمبراطورية تصل إلى ذروة قوتها في العصر الذي كانت تمارس أقصى ما يمكن من التسامح. في المقابل، وفي كل واحدة من هذه الحالات أيضاً، كان التعصب بمثابة سرطان عمل في جسد الإمبراطورية، وحد كثيراً من نجاحاتها، وأدى في النهاية إلى انهيارها.

الإمبراطورية العثمانية

ترافق الصعود المدهش لنجم الإسلام في القرن السابع الميلادي منذ بدايته تقريباً مع الحروب والانقسامات بين المسلمين. يمكن النظر إلى الإسلام، تماماً كالمسيحية التي يعتبر امتداداً لها، من زاويتين في الوقت نفسه؛ ينظر إليه من الزاوية

الأولى باعتباره ديناً يمتاز بالتسامح من الناحيتين العنصرية والعرقية، وأن أبوابه مشرعة أمام الجميع بغض النظر عن ألوانهم ومشاربهم، ومن الزاوية الثانية، يتميز بالتعصب خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالدين. فهناك إله واحد وحقيقة واحدة.

عانى العالم الإسلامي طيلة مدة العصور الوسطى من انقسامات داخلية شديدة، بما في ذلك الانقسام بين الشيعة والسنة، وهو الانقسام الذي اتخذ طابعاً دموياً كالصراع الذي دار بين الكاثوليك والبروتستانت، بالإضافة إلى الصراع بين السلالات الحاكمة المتنافسة ومراكز الخلافة والمذاهب التي احتدم الصراع فيما بينها من أجل السيطرة على العالم الإسلامي. في دمشق، سنة ٧٥٠، قام العباسيون بذبح جميع أفراد الأسرة الأموية الحاكمة باستثناء أمير واحد. ولكن بالرغم من هذه النزاعات الداخلية، فقد قامت في العالم الإسلامي إمبراطوريات إقليمية قوية ثم سقطت بعدها. وكان من بين هذه الإمبراطوريات الإسلامية العظمى الإمبراطورية العثمانية؛ وكانت الأكبر والأكثر بقاء بين تلك الإمبراطوريات.

استمرت الإمبراطورية العثمانية التي أنشأتها أسرة عثمان التركية من سنة ١٣٠٠ إلى الحرب العالمية الأولى. امتدت في ذروة توسعها من حدود فيينا إلى البحر الأحمر، ومن شمال أفريقيا إلى البلقان. وكان أحد أهم المظاهر اللافتة التي امتازت بها الإمبراطورية العثمانية تسامحها الديني.

كان للإمبراطوريات الإسلامية تاريخ طويل تميز بالتسامح بالرغم من قيامها من حين لآخر بذبح «الهراطقة» من المسلمين ومن غير المسلمين. فقبل ما يقرب من ألف سنة على قيام الجمهورية الهولندية، والتي كانت الدولة الأوروبية الأولى التي جعلت مبدأ التسامح من ضمن مبادئ الحكم فيها، اشتهر الحكام المسلمون الفاتحون في القرن الثامن بالسماح للمسيحيين واليهود بالاستمرار في التعبد بالطريقة التي يختارونها - طالما اعترفوا بالحكم الإسلامي. كانت تلك سياسة مليئة بالدهاء إلا أنها كانت تعكس أيضاً المبدأ الإسلامي المتضمن حماية «أهل الكتاب» - أي المسيحيين واليهود الذين يؤمنون كالمسلمين بإله واحد، والذين كان ينظر المسلمون إلى كتبهم

الدينية باعتبارها تحتوي على عناصر من الوحي. استند الأتراك العثمانيون إلى هذه التقاليد وحكموهم بنوع من التسامح المدروس على امتداد منطقة فيها الكثير من التنوع العرقي والديني [١].

كان من المثير للانتباه أن الحكام العثمانيين كانوا يعون حقيقة أن تسامحهم النسبي قد عاد عليهم بالكثير من الفوائد المباشرة على حساب منافسيهم من الحكام المسيحيين المتعصبين. رأوا على وجه الخصوص، في اليهود السفارديم الذين كانت لهم صلات تجارية واسعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط مصادر محتملة للدخل الذي يصب في الخزينة الإمبراطورية. بعد أن تناهى إلى سمع السلطان بيازيد الثاني سنة ١٤٩٢ صدور قرار الطرد الذي أصدرته أسبانيا، أصدر هذا السلطان إعلاناً رحب فيه بالمنفيين وأمر الحكام في جميع أنحاء إمبراطوريته «بعدم رفض دخول اليهود» إليها، بل «الترحيب بهم بشكل لائق.» كما حذر من أن أي مخالفة لهذا القرار سوف تعرض صاحبها «للموت». قيل إن بيازيد كان سعيداً باكتشاف أن «من الخطأ وصف الملك الكاثوليكي فرديناند بالحكمة لأنه أفقر أسبانيا وأغنى تركيا من خلال طرده لليهود [٢].

كانت قوة الإمبراطورية العثمانية وروعتها قد وصلتا إلى الذروة في ظل حكم سليمان الكبير الذي حكم منذ سنة ١٥٢٠ إلى سنة ١٥٦٦، وهي المدة التي توصف بأنها العصر الذهبي في التاريخ العثماني. كان قائداً عسكرياً ملهماً أصر على أن يقود جيوشه بنفسه. فتح سليمان هنغاريا والعراق وشمال أفريقيا، وأسس لسيطرة عثمانية على منطقة البحر الأبيض المتوسط، كما مدّ حدود إمبراطوريته إلى أقصى مدى ممكن. كان سليمان أيضاً إدارياً أسطورياً. وقد وصفه سفير البندقية سنة ١٥٢٥ بأنه «أكثر الأباطرة عدلاً». كان سليمان معروفاً في العالم أجمع بحكمته وعدالته وتسامحه اللافت. (لم تكن هذه الصفات تطلق على أبيه سليم المقيت، الذي أرسى دعائم حكمه من خلال قيامه بإعدام إخوته، وستة من أبنائهم، وثلاثة من أبنائه هو.)

استمر سليمان في اتباع سياسة التسامح العثمانية من خلال السماح لليهود والمسيحيين بممارسة عقائدهم الدينية بحرية، وإدارة شؤون جماعاتهم. المقابل، كان الرعايا من غير المسلمين يدفعون ضريبة من نوع خاص، وهذه الضريبة، وإن كانت مصدراً مهماً من مصادر الدخل الحكومي، كانت تتحدد بمدى القدرة على الدفع، وغير مرهقة. في ظل حكم سليمان، كانت القيود على المسيحيين واليهود بالنسبة للمناطق التي يرغبون في العيش أو العمل فيها شبه معدومة؛ وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون في المدن يتواصلون ويختلطون فيما بينهم بشكل يومي. وكان المسيحيون واليهود يشاركون المسلمين في النقابات نفسها المهنية، كما كان بإمكانهم رفع دعاوى قضائية على المسلمين في المحاكم الإسلامية.

كانت الصداقات عبر الحواجز الدينية ممكنة، وكان من الشائع عقد تحالفات سياسية وتجارية بين عائلات تنتمي إلى أديان مختلفة. وكان المسلمون وغير المسلمين يتبادلون التهاني في الأعياد الدينية. فقد كان المسيحيون في عيد الفصح على سبيل المثال، يقدمون البيض المصبوغ باللون الأحمر لجيرانهم المسلمين الذين كانوا يردون التحية بدعوة المسيحيين لتقاسم اللحوم مع المسلمين في عيد الأضحى. وكان أكثر ما هو مدعاة للفت النظر أن اليهود والمسيحيين مارسوا طريقة الحياة التي اختاروها، وكانت الأوضاع الاقتصادية للكثيرين من بينهم مزدهرة. في واقع الأمر، كان بعض أكثر الناس ثراء في المدن العثمانية الرئيسة من غير المسلمين [٣].

كانت الإمبراطورية العثمانية حتى في ظل حكم سليمان المحب للخير قوة تنتمي إلى عصر ما قبل التنوير - فلم يكن للرعايا أي حقوق سياسية - إذ من الخطأ إعطاء الانطباع بأن اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا يكنون احتراماً لبعضهم بعضاً. فقد كان الناس المنتمون إلى ديانات مختلفة يلتزمون عادة بالجماعات التي ينتسبون إليها، وكان من المتعارف عليه أن الزواج المختلط لم يكن أمراً مألوفاً أو حتى مسموحاً به. ونظراً إلى أن اليهود والمسيحيين والمسلمين كانوا يتبعون تقاويم مختلفة، «فإن تقسيم الشهور وتعداد السنين كانا مختلفين أيضاً، بحيث إن كل

مجموعة دينية كانت تنظر إلى التقويم بعين مختلفة.» اللافت أكثر، أن العثمانيين كانوا يتبعون نظاماً هرمياً يستند أساساً إلى الدين، كما كان من الواضح أن الإسلام كانت له اليد العليا. فمهما بلغت درجة ثراء اليهودي أو نجاحه، فقد كان موقعه الاجتماعي أدنى مرتبة من موقع المسلم، تماماً كما كان موقع النساء أدنى مرتبة من موقع الرجال [٤].

عملياً، كان يتم تجاهل معظم هذه القيود أو التراخي في تطبيقها. فالعديد من غير المسلمين كانوا يتمتعون بقدر كبير من السلطة والنفوذ. كانت السيرة المهنية لجوزيف ناسي خير مثال على ذلك. فقد ولد ناسي في البرتغال لعائلة ميسورة من "المهتدين" تعمل في مجال البنوك، وكان لهذه العائلة عملاء في كافة أنحاء أوروبا الغربية بمن في ذلك ملكا أسبانيا وفرنسا. غادر ناسي الأراضي الهابسبورغية سنة ١٥٥٤ قاصداً اسطنبول، حيث اعتنق هو وعائلته من جديد الديانة اليهودية، وقد تزعمت عائلته الطائفة اليهودية في الإمبراطورية العثمانية. خلال سنين قليلة، أصبحت عائلة ناسي واحدة من كبار الممولين للخزينة العثمانية، وكانت تضع يدها على احتكارات واسعة وأسهم تجارية كثيرة في كافة أنحاء الإمبراطورية وحتى خارجها.

بحلول سنة ١٥٧٠، أصبح جوزيف ناسي - الذي يعتبر الآن واحداً من أهم المقاولين في البلاد - أيضاً أحد أكثر الأفراد نفوذاً في البلاط العثماني. فقد كان أقرب مستشاري السلطان، وكان يتمتع بنفوذ قوي في مجال السياسة الخارجية (أسهم سنة ١٥٦٩ في إقناع الهولنديين بالانتفاضة ضد أسبانيا مقروناً بوعد بالمساعدة من العثمانيين.) وقد كوفئ ناسي بتعيينه حاكماً على مقاطعتيْ ناكسوس وسيكليديس أرتشيبيلاغو، بالإضافة إلى منحه لقب "الدوق" في إيطاليا. تمثل قصة ناسي ليس فقط كيف يمكن لغير المسلم أن يرتقي سلم السلطة في الإمبراطورية العثمانية، بل كيف تطبق بعض القيود الرسمية على غير المسلمين بشكل متراخٍ (على الأقل، في بعض الحالات). من غير المحتمل مطلقاً أن يكون ناسي قد ركب الحمير أو

البغال في طريقه إلى البلاط الإمبراطوري، أو أن يكون قصره المهيب قرب اسطنبول قدر حجم بيوت المسلمين العاديين. الأهم من ذلك، كان ناسي في واقع الأمر، وبحكم كونه أحد أشهر جامعي الضرائب، يمارس سلطة واسعة على العديد من المسلمين، حتى لو لم يكن القانون ينص على ذلك [٥].

كان أحد المكونات الرئيسة الأخرى للتسامح العثماني يتمثل في تعاملهم مع الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي. فبغض النظر عن وجود أفراد استثنائيين أمثال ناسي، كان المجتمع العثماني يتسم عموماً بصفة الهرمية التي تقبع على رأسها فئة العساكر، أو الطبقة الحاكمة، وهي متاحة فقط للمسلمين تحديداً. إلا أن أي فرد من شعوب الإمبراطورية، بغض النظر عن أصوله العرقية أو طبقته الاجتماعية، كان بإمكانه أن يعلن إسلامه ويصبح مسلماً، وبالتالي يمكن له من حيث المبدأ أن ينضم إلى الطبقة الحاكمة. بالإضافة إلى ما تقدم، كان المتحولون إلى الدين الإسلامي يتم التعامل معهم بالطريقة التي يُعامل بها أي شخص «وُلِدَ مسلماً»؛ ومن ثم لم تكن هناك أي قيود على فرص النجاح التي يمكن أن يفيدوا منها. وهو ما دعا بوسبيك، السفير الهابسبورغي إلى الإمبراطورية العثمانية خلال فترة حكم سليمان إلى إبداء إعجابه مدوَّناً:

> الموهبة وحدها هي التي تدفع الناس باتجاه الارتقاء في السلم الوظيفي ضمن نظام يضمن أن تكون المواقع وقفاً على من يستحقها. ... لا يؤمن العثمانيون بأن الميزات الرائعة فطرية أو وراثية ... لكنها من ناحية، هبة من الله، ومن ناحية أخرى، نتاج للتدرب الجيد، والجهد الشاق، و ... الاندفاع. ... فالاحترام والمواقع الرفيعة ومناصب القضاء هي بمنزلة المكافأة للإمكانات الكبيرة والخدمة الممتازة. هذا هو سبب نجاحهم فيما يصبون إليه.

كانت فرص "المهتدين" إلى الإسلام في ارتقاء المواقع العامة من دون أي عوائق أو حدود في طريقهم تمثل تناقضاً لما كان يحدث في أسبانيا الكاثوليكية حيث تم الحظر على اليهود الذين تحولت عائلاتهم إلى الديانة المسيحية منذ وقت طويل

تبوء أي مواقع رفيعة بسبب دمهم «غير النقي»، كما استمروا في مواجهة خطر امتد قروناً من الزمن من أن يتم إعدامهم حرقاً على الخوازيق [٦].

لم يكن مفهوم التسامح العثماني الإستراتيجي مع ذلك، ينتمي إلى المفهوم نفسه المعتمد في العصر الحديث، ولم يكن بالتأكيد متجذراً في مبدأ احترام حقوق الإنسان أو الحرية الفردية المعمول بهما اليوم، وخير مثال على ذلك كان نظام التجنيد والتدريب العثماني للحرس الإمبراطوري اللافت للنظر، والمعروف باسم الجيش الإنكشاري. كان العثمانيون يقومون بجباية الضرائب سنوياً، وكانت نسبة من تلك الضرائب تتمثل في تجنيد فتيان تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعشرين من العمر الذين يتم جمعهم من المناطق المسيحية التي يتم غزوها وفتحها. لم يكن أبناء المسلمين يخضعون لمثل هذا التجنيد بسبب أنه كان من السائد الاعتقاد أن الشباب من أصول مسيحية الذين توفر لهم فرصة اعتناق الإسلام، وتتم تنشئتهم في بيئة غريبة عن بيئتهم الأصلية سوف يصبحون أكثر تعصباً وأكثر ولاء للإمبراطورية. وقد أتى معظم هؤلاء الفتيان حتى القرن السابع عشر بشكل رئيس من أصول فلاحية من منطقة البلقان من ألبان وبلغاريين وكرواتيين وصربيين وإغريق، وفيما بعد، من روسيا وأوكرانيا.

كان هؤلاء الفتيان يعزلون بشكل تام عن عائلاتهم الأصلية باعتبار أنهم أصبحوا ملكاً للسلطان، ويتم تحويلهم إلى الإسلام، وتدريبهم كي يصبحوا إما جنوداً أو إداريين وموظفين حكوميين في البيروقراطية العثمانية. كان يُفْرَض عليهم حظر شديد. فبحكم كونهم «عبيداً للدولة»، كان يمنع هؤلاء المجندون من الزواج، وكانوا ملزمين بخدمة الإمبراطورية مدى العمر. كان يتم اختيار الواعدين منهم وتهيئته لولوج عالم الطبقة الحاكمة. في تلك المدارس النخبوية، أصبح الطلاب ضليعين في اللغتين الفارسية والعربية، كما درسوا القرآن، وتم إعدادهم لتبوء مراكز قيادية عسكرية. وكان الأذكى من بينهم يرتقي إلى مواقع رفيعة حيث يمكن أن يتم تعيينه في مناصب إمبراطورية كمنصب رئيس الوزراء، أي كبير وزراء ومستشاري

السلطان. جميع كبار وزراء السلطان سليمان باستثناء واحد فقط، كانوا من العبيد المسيحيين السابقين، الذين قدموا من خلفيات شديدة التواضع.

كان المجندون الذين لم يرتقوا إلى سوية الطبقة الحاكمة، ينضمون إلى الجيش الإنكشاري، وهو مؤسسة من جنود النخبة من المشاة الذين شكلوا حرس السلطان الخاص. وصل عدد أفراد الجيش الإنكشاري في أعلى مراحل قوته ونفوذه في القرن السادس عشر إلى ما يقرب العشرين ألفاً. ربما كان هؤلاء الأفضل تدريباً بين كل الجيوش الأوروبية، واللافت أنهم جميعاً كانوا من غير الأتراك. كان أفراد الجيش الإنكشاري يعيشون حياة فيها الكثير من الرفاهية؛ وبحكم أنهم كانوا يرثون من يموت من الإنكشاريين، فقد تجمعت بين أيديهم ثروة عظيمة مشتركة. وهكذا، فبينما اعتبرت بعض العائلات المسيحية أخذ الفتيان «كضرائب بشرية» هو أسوأ أشكال الاضطهاد العثماني، فإن عائلات أخرى رأت في ذلك فرصة سانحة لأبنائها للانتقال مستقبلاً إلى مناصب عليا في الإمبراطورية، ووسيلة من أجل تبوء مواقع رفيعة ما كان من الممكن تصورها لولا هذا الإجراء [٧].

جنا العثمانيون مكاسب كبيرة من تسامحهم الإستراتيجي. فقد وفر لهم هذا التسامح تعاوناً، أو على الأقل رضاً وقبولاً من الشعوب التي استعمروها وذلك من ترانسلفانيا إلى اليمن، وصولاً إلى السهوب الإيرانية. وكما كانت الحال في أي إمبراطورية، كانت حركات تمرد متفرقة تقوم هنا وهناك بين الحين والآخر، إلا أنها كانت تقمع بشدة بواسطة آلة الحرب العثمانية. أما التسامح العرقي والعنصري الذي يشكل إحدى سمات الإسلام الأساسية، فقد كان ورقة إستراتيجية رابحة جداً بيد العثمانيين. فقد اعتنقت أعداد كبيرة من المسيحيين الإسلام بعد مضي فترة قصيرة على استعمار بلدانهم. وبالرغم من أن بعض هؤلاء أشهر إسلامه بناء على إيمان برسالة النبي، إلا أن الذرائعية كانت الدافع الأقوى بالنسبة إلى أغلب من أعلنوا إسلامهم.

كان اعتناق الإسلام الذي لم يرتبط بعرق أو لون يعني بالنسبة للعثمانيين، زيادة مطردة في أعداد الرعايا المسلمين المتعاونين، كما كان يعني توافر أعداد مهولة من القوة العاملة التي ترفد قطاعيْ الزراعة والجيش؛ وكانت تلك الزيادة تتمثل على المستويات الأعلى، بمجموعة من الأفراد الموهوبين الذين ارتقوا السلم الوظيفي بموجب نظام الجدارة العثماني المدهش. كان العثمانيون قادرين على استثمار مسألة اعتناق الإسلام تلك، من أجل تكوين مجموعات نخبوية خاصة من الخدم الموالين للسلطان، كما يدل على ذلك، الجيش الإنكشاري، وتعيين سليمان لكبار الوزراء من بين هؤلاء.

ساعد التسامح الديني النسبي، الإمبراطورية العثمانية في تحقيق مكاسب جمة من خلال رعاياها الذين لم يعتنقوا الإسلام. فقد أسهم رعايا الإمبراطورية من غير المسلمين من مختلف المشارب والمذاهب - المسيحيون الموارنة، واليعقوبيون، والأقباط المصريون، والمسيحيون النسطوريون، والمسيحيون الأرثوذكس اليونانيون، والمسيحيون الأرثوذكس الأرمن، واليهود اليونانيون والأيبيريون، من بين أقوام أخرى عديدة - بشكل كبير في إضفاء الحيوية على الإمبراطورية ، وفي توسعها الاقتصادي. أحضر اليهود الهاربون من الهابسبورغيين معهم إلى تركيا تجارتهم التي لا تقدر بثمن، بالإضافة إلى شبكاتهم المالية التي جعلت مدناً عثمانية مثل اسطنبول والقاهرة وحلب وسالونيك تتحول إلى مراكز رئيسة للتجارة العالمية.

كما قدم اليهود الأوروبيون للعثمانيين المعرفة العلمية والطبية، بالإضافة إلى تكنولوجيا جديدة في مجالات الصناعة والأسلحة والذخائر. كتب نيكولاس دو نيكولاي وبيير ميلون دو مان، الرحالتان الأوروبيان اللذان زارا الإمبراطورية في الخمسينيات من القرن السادس عشر، عن المساهمة اليهودية اللافتة في النجاح العثماني ما يلي:

> كان من بين اليهود عمالٌ يزاولون مختلف الفنون والحرف الرائعة، وخصوصاً أولئك [المهتدين الذين تم طردهم مؤخراً من كل من أسبانيا والبرتغال، والذين - لسوء

> طالع المسيحيين - قاموا بتعليم الأتراك فن الغوص، والأعمال الحرفية، وتصنيع الآلات الحربية؛ كما علموهم كيفية صنع المدافع، والبارود، والطلقات النارية، وصناعة أنواع أخرى من الذخائر، وقاموا بإنشاء مطابع لم يسبق أن تم وضعها في الخدمة في تلك البلدان.

عمل العديد من الإغريق والأرمن والموارنة اللبنانيين ومجموعات مسيحية أخرى في مجال المقاولات، وأدوا أدواراً مهمة في مجالات الأعمال البنكية، وصناعة السفن، ونسج الصوف وإنتاج التبغ، والاتجار في مواد باهظة الثمن [٨].

بدت الإمبراطورية العثمانية في ذروة قوتها المتمثلة في توسعها الإقليمي الباهر وتطورها الثقافي وازدهارها تحت حكم السلطان سليمان الكبير، وكأنها في طريقها كي تصبح القوة الإسلامية المطلقة الأولى في التاريخ. ولكن لم يقيض لها ذلك. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية - حتى وهي في ذروة مجدها - مجرد قوة إقليمية محاطة من جميع الجهات بمنافسين أشداء من الفرس الصفويين إلى الهابسبورغيين وصولاً إلى الإمبراطورية الموسكوفية بقيادة إيفان الرهيب.

لو قيض لسليمان أن يعيش مئة سنة أخرى، لكان من الممكن أن تكون الأمور على غير تلك الشاكلة. لكن خلفاء سليمان الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر من السلاطين، كانوا متفاوتين في مستوى مواهبهم وإمكانياتهم؛ فكان من بينهم العاجز والأحمق. ونظراً لكون الحكومة العثمانية مبنية على هيكلية هرمية دكتاتورية بشكل استثنائي، فإن وجود سلطان ضعيف في سدة الحكم يُعَد مسألة كارثية. تكاتفت العديد من العوامل من أجل إضعاف الإمبراطورية ابتداءً من النصف الثاني من القرن السادس عشر؛ إلا أن فشل خلفاء سليمان في المحافظة على مبدأ التسامح المدهش الذي أرساه، أدى دوراً جلياً في انحلال الإمبراطورية [٩].

ربما كان من المهم ملاحظة أن الإمبراطورية بعد عهد سليمان أضحت غير قادرة أن تترفع عن التعصب والانقسامات الدينية التي تسببت في إراقة الدماء بين المسلمين منذ القرن السابع حتى وقتنا الحاضر، وأعني بها الانقسام بين السنة

والشيعة. فبالرغم من أن التوجه العام في الإمبراطورية العثمانية كان مبنياً بشكل دائم على المذهب السني، إلا أن مذهب التشيع كان عموماً موضع احترام في ظل حكم السلطان سليمان. لكن الشرايين الدينية للإمبراطورية بدأت في التصلب بعد وفاته. سعى المسؤولون من بعده إلى كبت الحريات الدينية، بما في ذلك الفكر الشيعي. وفُرض حظر على الصحف المطبوعة. ظهرت حركات تمرد شيعية في العراق وبلاد فارس وقد قُمعت لاحقاً بشدة بواسطة القوات الإمبراطورية التي كانت تفوق تلك الحركات عدداً وعدة، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تقوية شوكة مملكة الصفويين الشيعية التي ذهبت إلى أبعد من ذلك من خلال عقد تحالفات مع بعض القوى الأوروبية ضد العثمانيين [١٠].

في الوقت نفسه، بدأت مظاهر الترحيب بالأجانب وغير المسلمين التي طبعت الإمبراطورية في عصرها الذهبي بالانكماش أيضاً. كان هناك دائماً خط في الفكر الإسلامي ينتقد التجار والتجارة، وخصوصاً المتاجرة مع غير المسلمين. هذا الكره للتجارة وأهلها يمكن أن يكون العامل الذي دفع باليهود وغير المسلمين بشكل عام للسيطرة على معظم النشاط التجاري في الإمبراطورية. لكن حقيقة أن معظم التجار والمقاولين والخبراء الماليين كانوا من الأجانب، أدت إلى وضع غير مستقر البتة. وسواء كان الدافع وراء ذلك هو الاستياء من هؤلاء التجار، أو الشكوك الحقيقية ذات المنشأ الديني حول التجارة، فقد بدأ التجار يتعرضون في نهاية القرن السادس عشر إلى وابل من الانتقادات الدينية التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم، وبعد ذلك، فُرضت الضرائب عليهم بشكل غير متوقع، كما صُودرت أملاكهم. وقد وُضع حظر على تصدير البضائع خارج حدود الإمبراطورية؛ كما قُمعت الإبداعات الاقتصادية والتكنولوجية، وهو ما أدى ليس فقط إلى خنق التجارة بل إلى إضعاف للجيش العثماني الذي أصبحت أسلحته وسفنه بالية بمعايير ذلك الزمن [١١].

وبينما كان غير المسلمين ما زالوا يتمتعون بمعاملة وفرص عمل أفضل من تلك التي كان يتلقاها غير المسيحيين في معظم دول أوروبا في نهاية القرن السادس

عشر، إلا أن خطوط التشقق بدأت في الظهور في ذلك الجدار، وتحولت فيما بعد إلى شقوق واضحة المعالم. تعرض التجار والباعة المتجولون من اليهود في كافة أنحاء الإمبراطورية للهجوم والسرقة والقتل. وعندما مات أحد الأطباء اليهود من العاملين في البلاط الإمبراطوري، سعى رئيس الأطباء بنجاح إلى تعيين بديل له من الأطباء المسلمين، وكانت حجته في ذلك أن البلاط يعج بالأطباء اليهود؛ وانخفض خلال الخمسين سنة اللاحقة، عدد الأطباء اليهود في البلاط من واحد وأربعين إلى أربعة أطباء فقط. عندما تمرد أمير مقاطعة والاتشيا، مايكل «الشجاع» على سلطة العثمانيين سنة ١٥٩٤م، قام فوراً بذبح جميع اليهود (والأتراك) في بوخارست الذين كان الرومانيون مدينين لهم. ولكن في الوقت الذي ازداد النزاع الداخلي سوءاً، بدأ اليهود يتعرضون إلى هجمات من العثمانيين أيضاً. أُرغم شابيتاي تزيفي في ستينيات القرن السادس عشر، وكان زعيم إحدى الحركات اليهودية الدينية على الاختيار بين الموت أو اعتناق الإسلام. (اختار اعتناق الإسلام.) وفي واحدة من الحروب الأخرى التي اندلعت سنة ١٦٨٨م ضد النمساويين، قام الجيش الإنكشاري بإحراق الحي اليهودي في بلغراد وتدميره [١٢].

أسباب تداعي الإمبراطورية العثمانية متعددة وخضعت لنقاشات حامية، كما هي الحال في كل إمبراطورية. وبينما كانت القرون تمضي، كانت الإمبراطورية العثمانية تتعرض للهزائم، وتفقد المزيد من الأراضي. حققت القوى الأوروبية الغربية تفوقاً متزايداً على الصعيدين الاقتصادي والتكنولوجي، وامتد نفوذها إلى الأمريكيتين وآسيا بطريقة لم تستطع الإمبراطورية العثمانية بلوغها. أدت الثورات الداخلية المتزايدة وتصاعد الشعور القومي دوراً حاسماً في إضعاف الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه، ترافق الانهيار النهائي للعثمانيين مع موجة من التعصب الأعمى. وقد سبق التدمير النهائي للإمبراطورية سنة ١٩٢٢، وعجّل في حدوثه من زوايا عديدة، انتشار الكراهية العرقية والدينية والطائفية والعنف خصوصاً في منطقة البلقان. هاجم المسلمون المسلمين، واضطهد المسيحيون الأرثوذكس اليونانيون

مسيحيين يونانيين من طوائف أخرى، في الوقت الذي جُعل آخرون من اليهود كبش فداء فأعملوا فيهم القتل. توج هذا الإرهاب العرقي بمذبحة الأرمن التي حدثت في أثناء الحرب العالمية الأولى، والتي ذهب ضحيتها ما يقرب من ٨٠٠٠٠٠ من رعايا الدولة العثمانية من الأرمن، وذلك أثناء عملية طردهم من الإمبراطورية، وحتى بعد أن طردوا منها [١٣].

سلالة المينغ الحاكمة في الصين

في بداية القرن الخامس عشر، أرسلت حكومة المينغ خصياً مسلماً هو الأميرال "زينغ هي" على رأس أسطول قوامه ثلاثمئة «سفينة كنوز» عملاقة على متنها أكثر من ثمانية وعشرين ألف رجل في سبع رحلات بحرية مخرت عباب المحيط الهندي. كانت سلالة المينغ حينها في وضع يمكنها من السيطرة العالمية أكثر من أي قوة أوروبية؛ ذلك أن الأباطرة المينغيين الذين ورثوا عن المغول صيناً موحدة، حكموا رعايا أكثر مما حكم العثمانيون وملوك أوروبا مجتمعين. أما من الناحية التكنولوجية، فقد كانت الصين في عهد المينغيين أكثر تقدماً بكثير من أوروبا المتخلفة. ففي عهدهم، اخترعت الطباعة، والبارود، والبوصلة المغناطيسية. بزت الصين في القرن الخامس عشر أوروبا في مجالات أخرى أيضاً: ففي حفل تدشين عاصمتهم الجديدة، وتدعى "المدينة العصية" أولم المينغيون الطعام المكون من عشرة أنواع لستة وعشرين ألفاً من الضيوف على أطباق من البورسلين الفاخر، في حين أن الإنجليز أولموا لستمئة ضيف طعاماً مكوناً من سمك الكود المملح قدموه على أرغفة من الخبز وذلك في حفل زفاف هنري الخامس، ملك إنجلترا على كاثرين فالوا.

بحلول سنة ١٤٢١، استطاعت القوة البحرية الهائلة التي يملكها المينغيون أن تقزّم أي قوة أخرى في العالم. فقد بلغ العدد الإجمالي للأسطول الإمبراطوري أكثر من أربعة آلاف سفينة بما في ذلك ليس فقط السفن التسع العملاقة، وإنما ١٣٥٠ سفينة مراقبة، و ٤٠٠ سفينة حربية، و ٤٠٠ سفينة نقل بضائع كالقمح والماء والخيول

بالمقارنة مع "الأسطول الملكي" الذي أعده الملك هنري الخامس لغزو فرنسا والمكون من أربع سفن للصيد تستوعب كل منها مئة رجل تقلهم عبر القناة الإنجليزية إلى الشاطئ الفرنسي في كل رحلة. كانت السفن الصينية أشبه بمخلوقات عملاقة من خشب الساج مزودة بمدافع حديدية هائلة الحجم، باستطاعتها حمل بضائع أكثر من مثيلاتها الأوروبية بأربعمئة مرة؛ وكانت دفة أي من تلك السفن في الغالب بنفس طول البارجة "نينا" التي أقلت كريستوفر كولومبس إلى أمريكا [١٤].

لكن الصين المينغية لم تكن لديها الرغبة في أن يكون لها نفوذ عالمي. ففي سنة ١٤٢٤، حول الأباطرة المينغيون اهتمامهم المَرَضي إلى الداخل؛ حيث قاموا بتفكيك أسطولهم البحري الخاص بهم، ورفضوا ممارسة أي نوع من أنواع التجارة مع العالم الخارجي. نتيجة لذلك، أصبحت الصين بحلول سنة ١٦٠٠، خلف أوروبا تكنولوجياً، وعسكرياً، وتجارياً بأشواط بعيدة.

كرّس الحكام المينغيون الأوائل بعد طرد المغول سنة ١٣٦٨ جميع طاقاتهم للإصلاح الزراعي الداخلي متجاهلين تماماً العالم التجاري خارج حدود الصين. منع زاو يوانزانغ، مؤسس سلالة المينغ الحاكمة ارتداء الملابس وتسريحات الشعر «الأجنبية» في بلاطه، وأصدر أوامره مرتين فرض بموجبهما على رعاياه الظهور بأزياء شبيهة بتلك التي كان يتم ارتداؤها في القرن السابع في عصر سلالة التانغ الحاكمة. (من المفارقة أن يعتبر الإمبراطور زاو سلالة تانغ الحاكمة «صينية» صرفة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مؤسسها كان في أغلب الظن نصف تركي.) اعتقد الإمبراطور زاو، وهو المؤسس الوحيد لسلالة حكم صينية، والذي كان ينتمي إلى أصول فلاحية، أن مهمة الحكومة الرئيسة هي حماية المزارعين الذين تعتمد عليهم البلاد في ثروتها. وهكذا، فقد وضع نظام ضرائب زراعية فاعل سجل بموجبه أسماء جميع سكان الصين، وجمد الضرائب عند المعدلات التي كان معمولاً بها في القرن الرابع عشر. كما كان يمنع باستمرار محاولات التجار السفر باتجاه الخارج.

تغير ذلك كله فجأة سنة ١٤٠٣ مع اعتلاء يونغل، ابن زاو، عرش الإمبراطورية. كان يونغل يعرف أنه مغتصب للسلطة التي انتزعها بالقوة بعد صراع داخل القصر مع ابن أخيه الذي عينه والده الإمبراطور اللاحق. أخذ يونغل على عاتقه إقامة مشاريع عملاقة على الفور في معرض محاولته إضفاء الشرعية والمهابة على نظام حكمه. أمر يونغل بنقل العاصمة من نانجينغ إلى بيجين، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى خشيته من استمرار الخطر المغولي في الشمال، وكانت تلك مهمة تتطلب إصلاحاً هائلاً للقناة الكبرى، من بينها بناء سبعة وأربعين مغلاقاً تربط ما بين هانغزو وبيجين، ونقل ٢٣٥٠٠٠ من الجنود مع عائلاتهم. في الوقت نفسه، كان يونغل متلهفاً لتوجيه القوة الإمبراطورية الصينية خارج حدودها الحالية. أرسل الجيوش شمالاً بهدف إخضاع المناطق المغولية، وجنوباً من أجل فتح ما يعرف اليوم بفيتنام (وقد فشل في كلتا الحالتين). الإمبراطور يونغل نفسه كان هو من موّل بعثات الأميرال "زينغ هي" لاكتشاف المحيطات، وفرض الضرائب، وأخذ على عاتقه مهمة تعريف العالم بقوة الصين في عهد المينغيين وروعتها.

كان زينغ هي صينياً مسلماً؛ وكان كل من أبيه وجده قد حجّا إلى مكة. قام يونغل بتعيينه في مرتبة أميرال ربما بسبب معرفته بالعادات الأجنبية، خصوصاً في البلدان الإسلامية. ونظراً إلى أن سلالة تانغ الحاكمة قامت سابقاً بإرسال بعثات إلى الخارج منذ قرون، فقد كان الأميرال زينغ هي يبحر بمساعدة خرائط في منتهى الدقة - كان يبلغ طول إحدى تلك الخرائط عشرين قدماً، وكانت تتضمن اتجاهات إبحار مفصلة، بالإضافة إلى أسماء مدن إفريقية ساحلية مثل مومباسا وماليندي (في كينيا الحالية). كانت أجسام سفن (زينغ هي) تحتوي على مقصورات منفصلة من الموانع المائية التي سمحت بإجراء ما يلزم من عمليات الإصلاح أثناء الإبحار. كانت تلك المقصورات تحتوي أيضاً على المياه العذبة والأسماك لإطعام المسافرين[١٥].

كانت سفن النفائس التي يقودها "زينغ هي" الأكبر في العالم؛ وكان باستطاعتها شحن ٢٥٠٠ طن من المواد المختلفة، وكانت تتجاوز في طاقتها السفن الأوروبية

بمعدل عشرة أضعاف من حيث الحجم وعدد البحارة على متنها. وكان على متن سفن (زينغ هي)

> ٨٦٨ من المسؤولين المدنيين، و ٢٦٨٠٠ جندي و٩٣ ضابطاً واثنان من كبار القادة و ١٤٠ كابتنا بإمرة كل واحد منهم ألف جندي، و٤٠٣ من قادة المئة جندي، وكبير أمناء مجلس الخزينة، وضارب بالرمل، ومدرب عسكري، واثنان من القضاة العسكريين، و١٨٠ من الأطباء ومساعديهم، واثنان من حَفَظة النظام، وسبعة من السفراء من المخصيين، وعشرة من المخصيين الأدنى مرتبة، و ٥٣ من المخصيين الحُجّاب.

هذا بالإضافة إلى عدد غير محدد من المترجمين، والناسخين، والملاحين، والميكانيكيين، والمفاوضين، والبحارة والطباخين. وبلغ عدد الأطباء والمتخصصين في المداواة بالأعشاب لوحدهم ١٨٠ شخصاً - وهو ما يوازي طاقم فاسكو دو غاما بأكمله. وبعكس طاقم كريستوفر كولومبس الذي لم يكن يتوافر لديه سوى ماء آسن للشرب، وكان أعضاؤه يأكلون الطحين المعجون بمياه البحر، كان لدى (زينغ هي) ورجاله «فائضاً من مخزون القمح والماء العذب والملح وسائل الصويا والشاي والخمور والزيت والشموع، وخشب التدفئة والفحم النباتي»[١٦].

أخيراً، كانت سفن النفائس هذه تحمل الكنوز أيضاً. فقد كانت سفن (زينغ هي) تعود محملة بأثمن وأبهى البضائع التي كان الحكام الأجانب يرسلونها على سبيل الهدايا للإمبراطور. لكن رجال زينغ هي، بعكس المغول الذين سبقوهم، أو البرتغاليين الذين أتوا من بعدهم، لم يقوموا بأي عمليات تخريبية. بدلاً من ذلك كله، قاموا بتقديم الهدايا الرمزية للحكام المحليين - كالحرير الملون، والمظلات، والكتب، أو التقاويم السنوية - مقابل بضائع نادرة مثل العنبر، وخيول السباق، والببغاوات، والطواويس، وخشب الصندل، والذهب، والفضة «و عين القطة ذات الحجم الكبير، والياقوت وأنواع أخرى من الأحجار الكريمة، وأغصان كبيرة من الكهرمان، والعنبر، وعطر الأزهار»، بالإضافة إلى أنواع غريبة من الحيوانات التي تجلب الحظ مثل الطيور التي تشبه الجمال (النعامة)، والزرافات، وحيوانات الكركدن، والفهود المرقطة ببقع ذهبية اللون، وحمير الوحش، والأسود[١٧].

انتهى كل ذلك سنة ١٤٢٤ بنفس الفجائية التي بدأت بها تقريباً. توفي الإمبراطور يونغل، علّقت على أثر ذلك حكومة المينغيين جميع الرحلات البحرية. وبعد أن تمت الموافقة بعد لأي، على أن يقوم (زينغ هي) برحلته البحرية الأخيرة سنة ١٤٣٣، منع البلاط الإمبراطوري بناء أي سفن عابرة للمحيطات. كما أحيلت سفن النفائس إلى أحواض خاصة وتركت من دون أي صيانة إلى أن عاث فيها الخراب. أعيد تعيين بحارة (زينغ هي) للعمل في القناة الكبرى كجباة ضرائب. أخيراً، صدر أمر إمبراطوري حُظر بموجبه بناء أي سفن تحمل أكثر من ساريين، وكان أكثر ما يبعث على الاستغراب إتلاف السجلات الرسمية للبعثات والرحلات البحرية التي قام بها (زينغ هي).

أسهم العديد من العوامل في «انتصار تيار الجنوح باتجاه الانكفاء». أكد كبار الموظفين الكونفوشيوسيين الذين احتجزوا سفن النفائس رسمياً أن البعثات البحرية مكلفة جداً، إلا أن المؤرخين بشكل عام، يجمعون على أن ذلك لم يكن سوى حجة كي ينتزعوا السلطة من منافسيهم من خصيان البلاط الذين كانوا يضعون أيديهم على البحرية الإمبراطورية. كان البيروقراطيون الكونفوشيوسيون محافظين شأنهم في ذلك شأن الإمبراطور المينغي الأول، وكانوا بطبيعة الحال، معادين لمهنة التجارة، ومقاومين لأي محاولة للتغيير الاجتماعي، بما في ذلك التوسع فيما وراء البحار. الأهم من هذا وذاك، كان هناك التهديد المتجدد الذي يمثله المغول الذين أعادوا تجميع صفوفهم بعد وفاة يونغل، وبدؤوا بغزو الأراضي الصينية.

ألحقت القوات المغولية بالوحدات الإمبراطورية المينغية هزيمة نكراء سنة ١٤٤٩ في موقع يسمى "تومو" وهو الآن محطة لتجمع السيارات الشاحنة على مسافة ساعتين إلى الشمال من بيجين. وما زاد في الإحساس بالإذلال، هو أن المغول استطاعوا القبض على الإمبراطور المينغي الذي ساقوه أسيراً إلى منغوليا. وبالرغم من أن المغول أعادوا الإمبراطور الأسير إلى بيجين في السنة اللاحقة، إلا أن هزيمة المينغيين في تومو أحدثت نقلة نوعية دائمة في سياسة الصين الخارجية. فمنذ ذلك

الحين، ازداد إحساس الأباطرة المينغيين بعقدة رهاب الأجانب، وأعادوا بذلك بعث الفكرة القديمة القائلة بأن الصين هي المجتمع المتحضر الوحيد في العالم، والمحاط من جميع جوانبه ببرابرة خطرين ليس لديهم أي شيء ذي قيمة يمكن أن يقدموه للبشرية. استحوذت فكرة خطر قيام المغول بغزوهم على عقولهم، ومن ثم حاول الأباطرة المينغيون عزل أنفسهم، فأعادوا بناء السور العظيم، ومنعوا بشكل متكرر أي شكل من أشكال التجارة الخارجية، وأي اتصال مع الأمم الأجنبية. وبحلول سنة ١٥٥٠، كان رعايا الإمبراطورية ممنوعين ليس فقط من بناء سفن بغرض السفر بحراً، بل من مغادرة البلاد.

استمرت سلالة مينغ الحاكمة حتى سنة ١٦٤٤. ولكن من قبيل المفارقة أن القضاء عليها تم ليس من قبل المغول، بل من قبل المانكوسيين، وهم من البرابرة القادمين من مناطق الشمال الشرقي. مرت الصين المينغية بحقب تميزت بالنمو الاقتصادي حتى بعد أن فرضت على نفسها تلك العزلة منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر. عزز من هذا النمو الزيادة المطردة في عدد السكان، بالإضافة إلى وجود جيوب من التجارة الداخلية النشطة خصوصاً في منطقة وادي "يانغتزي" المنخفض، والمناطق الجنوبية في "فوجيان" و"غوانغزاو".

ولكن لم يكن بمقدور الصين المينغية بعد منتصف القرن الخامس عشر - وفي بعض الحالات لم تكن لديها الرغبة في ذلك - المنافسة على المسرح الدولي. انحدرت الصين تكنولوجياً بالمقارنة مع الغرب، ويبدو أنها نسيت الكثير من ابتكاراتها واختراعاتها، ولم تبادر بالقيام بأي ثورة علمية أو صناعية من ذلك النوع الذي غير وجه أوروبا. في الوقت نفسه، تركت لأسطولها البحري الذي كان هائلاً يوماً ما، أن يتداعى وينهار بالكامل، وتحاشت أي شكل من أشكال التوسع فيما وراء البحار، وتخلت عن سيطرتها على البحار لمصلحة الأوروبيين [١٨].

الإمبراطورية المغولية
حكام مسلمون ورعايا هندوس

"أيوضيا" هي مدينة صغيرة في شمال الهند؛ و بحسب الأسطورة الهندوسية، هي المدينة التي ولد فيها الأمير راما الذي كان التجسيد السابع ل "فيشنو"، أي الإنسان الكامل الذي يجسد الحقيقة الكلية والأخلاق. في السادس من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة ١٩٩٢، قامت عصابة من القوميين الهندوس المسلحين بالمطارق والفؤوس بهدم المسجد الموجود في أيوضيا، والذي يعود إلى خمسمئة سنة خلت، بزعم أنه ينتهك حرمة المكان الذي ولد فيه راما. أدى هدم ذلك المسجد الذي بني إبان حكم "بابور"، الإمبراطور المغولي الأول، إلى اندلاع موجة من القتال الشرس بين المسلمين والهندوس في كافة أنحاء الهند. وأدى ذلك القتال بين أفراد مختلف العصابات إلى إزهاق أرواح ما يقارب ألف شخص من الطرفين. من جانبهم، برر المتطرفون الهندوس تلك الهجمات ضد «أبناء بابور» بأنها تشكل انتقاماً لقرون من الاضطهاد الذي مورس ضدهم خلال الحكم الإسلامي.

تأسست الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند قبل الإمبراطورية البريطانية مباشرة على يد أحد أحفاد جنكيز خان. (كلمة المغول هي اللفظة الفارسية لكلمة «منغوليين».) حكمت تلك الإمبراطورية في ذروة سطوتها شبه القارة الهندية وأجزاء مما يعرف اليوم بأفغانستان وباكستان. كان الأباطرة المغول مسلمين شأنهم في ذلك شأن سلاطين بني عثمان الذين مارسوا الحكم بطريقة تتماشى مع العصر. ومع ذلك، فقد حكموا ما يربو على مئة مليون إنسان مدة تزيد على قرنين من الزمن؛ وكان ما يقرب من ٨٥٪ من هؤلاء من غير المسلمين: كانوا بشكل رئيس من الهندوس والسيخ واليانيين والمسيحيين [١٩]. يصر القوميون الهندوس هذه الأيام على أن المغول كانوا حكاماً متوحشين ومتعصبين ومضطهدين لرعاياهم من غير المسلمين. هل كانوا بالفعل كذلك؟

صحيح أن بابور، مؤسس الإمبراطورية المغولية أمسك بزمام السلطة من خلال ركوبه موجة التعصب. أشعل بابور عواطف جنوده المسلمين من خلال إطلاق وصف الجهاد أو الحرب المقدسة على حربه ضد الهندوس وذلك كي يكون باستطاعته إلحاق الهزيمة بالملوك الراجبوتيين العظام الذين كانت أعدادهم تفوق أعداد جيشه بنسبة عشرة أضعاف. ولكي يثبت حسن التزامه بالإسلام، قام بإهراق جميع محتويات مجموعته من الخمور على الأرض، وتحطيم كؤوس وزجاجات الخمر أمام رجاله. أعطى هذا الفعل -الذي يشبه الأضحية- للجنود شحنة من الحماس الديني الذي قادهم إلى النصر في معركة "كانوا" الحاسمة. ولكن من المؤكد أن الفضل في انتصار بابور يعود إلى أن رجاله كانت بحوزتهم أسلحة نارية، بينما لم يكن لدى الراجبوتيين أسلحة مماثلة. على أي حال، بعد أيام من المذابح، فر الراجبوتيون من أرض المعركة ممهدين بذلك الطريق لبابور المنتصر كي يحكم شمال الهند. لكن بابور لم يحكم سوى أربع سنين (من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٥٣٠) قبل أن ينتقل إلى العالم الآخر. الإمبراطورية التي تركها في عهدة ابنه "هومايون" كانت مجزأة ومعادية للحكم المغولي، ومصابة بتمرد علني من جميع أطياف الإمبراطورية. فقد هومايون السيطرة على الإمبراطورية المغولية طيلة خمس عشرة سنة استولى خلالها الحكام الأفغان على العرش وأقاموا شبكة مدهشة وفاعلة لجباية الضرائب. أخيراً، وبعد قضاء عدة سنين في المنفى في بلاد فارس، أعاد هومايون فتح الإمبراطورية سنة ١٥٥٥. بعد ذلك بسبعة أشهر، وبينما كان هومايون المسكين يسرع لأداء فريضة الصلاة، تعثر بردائه فتدحرج على الدرج عدة مرات مما أدى إلى وفاته [٢٠].

لكن سلالة المغول الحاكمة لم ترسِ دعائم سلطتها وقوتها إلا على يد الإمبراطور "أكبر" ابن هومايون، وخلفائه من بعده، إذ تحولت إلى واحدة من أعظم الإمبراطوريات في عصرها. لم يكن من قبيل المصادفة أن "أكبر" والملوك المغول الآخرين في عصر المغول الذهبي كانوا من بين أكثر الحكام تسامحاً من الناحيتين الدينية والعرقية في تاريخ عالم ما قبل الحديث. في حقيقة الأمر، أنه لولا ممارسة

هذا التسامح، ما كان من الممكن للإمبراطورية المغولية أن تستمر طيلة تلك المدة، أو أن تصل إلى تلك الذرى الشاهقة من العظمة الثقافية. في المقابل، ارتبط عصر انحطاط الإمبراطورية المغولية ببعض أكثر مراحل الاضطهاد العرقي والديني دموية في تاريخ الهند.

كان مرشد الإمبراطور الفتى "أكبر" واحداً من الأوصياء الطموحين؛ تولت إرشاده بعده مجموعة تقودها "ماهام أنغا"، وكانت والدته بالتبني. وعندما شب عن الطوق، بدأ يشعر بالاستياء من محاولات الحد من سلطاته. عندما أصبح في سن السابعة عشرة سنة ١٥٦٠، أرغم وصيه على الاستقالة، وقيل إنه أرسله للحج إلى مكة (تم اغتيال الوصي في الطريق إلى هناك). وعندما قتل ابن ماهام أنغا أحد وزراء أكبر، أمر هذا الأخير بأن يرمى أخوه بالتبني من على سطح القصر إلى باحة القصر عدة مرات إلى أن مات. ثبّت أكبر دعائم حكمه في البلاط بشكل لا يقبل اللبس قبل أن يصل إلى سن الثلاثين.

لكن تثبيت دعائم حكمه على الإمبراطورية كان يشكل تحدياً أكبر من ذلك بكثير. فكان عليه كي يمنع إمبراطوريته من الانهيار، أن يضع شبكة من منافسيه الأشداء المراس في ظل رقابة لصيقة. وكان من بين هؤلاء، الأفغان الذين تمت الإطاحة بهم مؤخراً، والنبلاء الفرس من وسط آسيا، والراجبوتيون الهندوس، والماراثيون، وكذلك الأمراء المسلمون من مقاطعة لودي.

كانت الدبلوماسية المتشددة أحد مظاهر الحل الذي وضعه أكبر، وكان التلاقح الثقافي مظهراً آخر لهذا الحل. صاهر "أكبر" عائلات من منافسيه، أو خصومه؛ وهو بذلك مشى على خطى الإسكندر الكبير، ولو بمنحى أعظم بسبب عدد النساء اللواتي كن يشكلن حريمه. ربما كانت أهم نجاحاته في هذا المجال تتمثل في زواجه من الابنة الكبرى "لراجا" حاكم مقاطعة أمبر، وهو أحد أشد الملوك الراجبوتيين الهندوس استقلالية. لم تكن فكرة زواج أميرة هندوسية من سلطان مسلم مألوفة،

إلا أنها لم تكن غير معروفة بالمرة في أرجاء شبه القارة. لكن أكبر ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. فقد سمح للأميرة جوهاديبي بأن تبقى على ديانتها الهندوسية، وممارسة طقوس هذه العبادة في معبد هندوسي داخل قصره، وكان أكبر من حين لآخر يشارك في هذه الطقوس التعبدية. شجع هذا التسامح غير المألوف الزعماء الراجبوتيين الآخرين على البدء في مفاوضات من أجل الانضمام إلى النخبة الإمبراطورية من خلال تزويج بناتهم للإمبراطور. عندما توفي الإمبراطور أكبر، كانت له أكثر من ثلاثمئة زوجة بمن فيهن الراجبوتيات والأفغانيات وأميرات من الممالك الهندية الجنوبية، والتركيات والفارسيات كما تزوج اثنتين من النساء المسيحيات اللتين كانتا تنحدران من أصول برتغالية.

أدت تلك الزواجات إلى عقد تحالفات مع أقارب الزوجات من الذكور الذين كان يمكن الاعتماد عليهم لتقديم الدعم والمساعدة. حصل أكبر على ولاء الآلاف من المحاربين الراجبوتيين، في الوقت الذي منع فيه أي محاولة للانتفاضة على حكمه من قبل الراجبوتيين. استفاد الراجبوتيون أيضاً من هذا التحالف. فقد أصبح من بينهم جنرالات إمبراطوريون، وموظفون في إدارة شؤون الإمبراطورية. وتنامت قوة بعضهم لدرجة أنهم بدؤوا بالسيطرة على إقطاعياتهم بشكل مستقل. لم يقاوم المغول سوى قلة من الحكام الراجبوتيين الذين دفعوا مقابل تلك المقاومة ثمناً باهظاً. فقد انهارت الحصون الراجبوتية الكبرى في كل من شيتور ورانثامبور أمام الجيش المغولي، الذي كان معظم قادته من إخوانهم الراجبوتيين أنفسهم.

امتدت سلطة أكبر لتشمل أشخاصاً من مختلف الديانات. وبالرغم من أن أكبر كان أمياً، فقد عمل على ملء بلاطه بفنانين ومفكرين (تماماً كما فعل أحد أسلافه في الماضي البعيد، وهو خوبيلاي خان). وكان من بين أعضاء بلاطه تسعة أشخاص من ذوي النفوذ الكبير الذين كانوا يعرفون باسم "نافراتانا" أو الجواهر التسع التي ترصع التاج المغولي. أربع من تلك الجواهر التسع كانت من الهندوس، وكان من بينهم وزير المالية، وقائده العسكري، ومستشاره، ومهرج البلاط رجا بربال

الذي كانت حواراته الذكية مع الإمبراطور ما تزال تروى حتى أيامنا هذه على شكل حكايات شعبية، بالإضافة إلى المغني والمؤلف الموسيقي الهندوسي الأسطوري "تانسين". قيل إنه عندما كان تانسين يغني أغاني "الراجا"، وهي نوع من أنواع الموسيقى المعقدة لا نظير لها في الموسيقى الغربية، كان النهار يتحول إلى ليل، وتبدأ الأمطار بالتدفق من السحب.

كان الإمبراطور أكبر مفتتناً بموضوع الديانات المقارنة. بنى سنة ١٥٧٥، قاعة ضخمة خصصها لحوار الأديان. انضم في نهاية المطاف إلى المشاركين في هذا الحوار رجال دين مسلمون، وقساوسة من طائفة الهندوس، والرهبان اليانيون، والكهنة الزرادشتيون، أعضاء البعثات التبشيرية اليسوعيون القادمون من غاوا، المستعمرة البرتغالية. نشأت في منطقة البنجاب، في ذلك الجو من التسامح الذي طبع تلك الحقبة، الديانة السيخية، وهي ديانة توفيقية تجمع بين بعض السمات الهندوسية والإسلامية. كما شهدت الثقافة الشعبية شكلاً من أشكال الاندماج في العادات والاحتفالات والأساطير. كانت الحركتان البختية والصوفية اللتان انبثقتا من رحم كل من الهندوسية والإسلام على التوالي، تحتويان على معتقدات نابعة من الديانتين في وقت واحد، وكانتا تدعوان إلى وحدانية الإله. (يحج الهندوس حتى يومنا هذا إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في مناطق آجمير، وفاتحبور، وسيكري، بينما يصلي المسلمون في أغلب الأحيان للآلهة الهندوسية المحلية مثل الإلهة ستيلاماتا، إلهة الحمى الصفراء.) في واقع الأمر، كان الإمبراطور أكبر غالباً ما يُقارَن في الأغاني والقصائد الشعرية الهندوسية بالإله الهندوسي "راما" - وهو من باب المفارقة، نفس الإله راما الذي باسمه قام القوميون الهندوس بتدمير المسجد في مدينة أيوضيا سنة ١٩٩٢م.

كان الإمبراطور أكبر يؤمن بمبدأ مشاركة إخوانه الحكام في رؤيته الدينية المتنورة. ففي رسالة بعث بها إلى الملك فيليب الثاني الأسباني سنة ١٥٨٢، قال:

> بما أن معظم الناس تجمع بينهم روابط التقاليد، وإتباع خطى آبائهم وأجدادهم وأقاربهم ومعارفهم، يستمر الجميع من دون التحقق من مصداقية الأفكار والأسباب في التمسك بالدين الذي نشؤوا عليه وتعلموه؛ وهم بذلك يبعدون أنفسهم عن إمكان التثبت من الحقيقة التي هي أنبل هدف للفكر البشري. ونحن لهذا السبب، نتواصل في الأوقات المناسبة مع علماء الدين من مختلف الملل والنحل، وننهل من معين أفكارهم الرائعة وطموحاتهم التي لا حدود لها [٢١].

لا يوجد في الأرشيف ما يشير إلى رد على تلك الرسالة من قبل الملك فيليب الذي كما علمنا من قبل، كان مشغولاً بإنهاء الهرطقة البروتستانتية، والإشراف على «مجلس الدم» في هولندا.

ما كان يدعو إلى الدهشة أن أكبر لم يكن يحابي المسلمين. وكان في زمن الحرب، يسحق حركات التمرد بنفس الدرجة من الوحشية سواء كانت من قبل المسلمين أو الهندوس. هاجم كافة مظاهر الفساد بين رجال الدين المسلمين، وبادر إلى إجراء إصلاحات جذرية تتضمن توزيع الامتيازات في تملك الأراضي بشكل متساوٍ بين رجال الدين من كل التابعيات الدينية على حد سواء. كان يحتفل بالإضافة إلى الأعياد الإسلامية، بعيد "الديوالي"، وهو عيد الأنوار عند أتباع الديانة الهندوسية. كما منح غير المسلمين، في تحد سافر للقوانين الأصولية الإسلامية، الإذن بترميم معابدهم، وبناء دور أخرى للعبادة. قام أيضاً بإصدار أمر منح بموجبه الإذن للهندوس الذين أجبروا على اعتناق الإسلام بالارتداد إلى ديانتهم الأصلية من دون أن يتعرضوا إلى عقوبة القتل. وفي سنة ١٥٧٩، قام أكبر بطريقة دراماتيكية، بإلغاء قانون الجزية، وهي ضريبة إجبارية تفرض بشكل حصري على غير المسلمين.

امتدت مدة حكم أكبر خمسين سنة (١٥٥٦-١٦٠٥)، وتعرف هذه الحقبة حتى أيامنا هذه بأنها كانت في ظل أكثر حكام الإمبراطورية المغولية نجاحاً. كان العديد من كبار مستشاريه من التابعية الفارسية، كما أن الفلسفة والأدب واللوحات التي سادت في تلك الحقبة، كانت تعكس تقديره الكبير للثقافة الفارسية. إلا أن فشله

الذريع تمثل في محاولته غير الموفقة لخلق «نظام إيماني جديد» يسمى "الدين الإلهي" ويفترض أن يضم عناصر من الفكر الإسلامي والهندوسي والزرادشتي. كان هدف أكبر على ما يبدو، ليس استبدال الديانات الموجودة بل التأسيس «لنوع من الدين العالمي الذي يطلق عليه حرفياً تسمية دين الله، وليس دين محمد أو المسيح أو كريشنا»، لكن الإيمان بهذا الدين الجديد كان يتطلب «ولاء مطلقاً لشخص "أكبر" نفسه. لم ينجح "الدين الإلهي" في استمالة سوى قلة قليلة من الأتباع في الإمبراطورية، وحتى ضمن عائلة الإمبراطور نفسه. كما أن تأسيس هذا الدين أثار حفيظة القادة المسلمين الأصوليين الذين رأوا فيه هرطقة، وحاولوا القيام بثورة على الإمبراطور. إلا أن البطل الإمبراطوري للتسامح العالمي سحق هذه الثورة من دون رحمة [٢٢].

استمر الإمبراطوران اللذان خلفا الإمبراطور أكبر بنهج سياساته نفسها حول مسألة التسامح الديني. كان جاهانغير، النجل الأكبر للإمبراطور أكبر وخليفته انتقائياً جداً فيما يتعلق بمسألة الأديان لدرجة أن السفير الإنجليزي لاحظ أن «ديانته هي من اختراعه هو.» كان جاهانغير، مثل والده، يعقد حلقات نقاش دينية علنية. كان يستمتع بشكل خاص بالخلافات بين الكهنة اليسوعيين ورجال الدين المسلمين، وكان غالباً ما يضرب بيديه على فخذيه تعبيراً عن استحسانه عند قيام أحد الطرفين بتسجيل نقطة ضد الطرف الآخر. التقى في إحدى المناسبات بأحد النساك الهندوس في مغارته، وقد أثرت تلك المقابلة فيه تأثيراً شديداً. كتب جاهانغير معلقاً على تلك المقابلة فيما بعد: «تبادلنا فيما بيننا كلمات رفيعة المستوى. فقد وهبه الله جلت قدرته مهابة غير اعتيادية.» في غضون ذلك، ازداد استهلاك جاهانغير للحم الخنزير والخمر المحرمين في الإسلام خلال شهر رمضان المبارك.

كانت المسيحية أيضاً تشد اهتمام جاهانغير بالرغم من أن جاذبيتها بالنسبة له انحصرت في مظاهرها الاحتفالية أكثر من مضمونها. كان يحضر القداس في أعياد الميلاد، وكان يستعير الكنيسة من حين لآخر لإقامة المآدب. وبالرغم من أنه

لم يعتنق المسيحية أبداً - فقد كان يرى أن فكرة كون المسيح ابناً لله هي على الدرجة نفسها من العبثية لإيمان الهندوس بالتقمص - فقد سمح لثلاثة من أحفاده باعتناق المسيحية وأقام بهذه المناسبة احتفالاً عاماً في "أغرا" بمناسبة تعميدهم. لم يكتفِ جاهانغير بالسماح لليسوعيين بالوعظ بحرية في كافة أنحاء الإمبراطورية، بل أعطى كل واحد منهم مرتباً بلغ خمسين روبية في الشهر من الخزينة الإمبراطورية.

أما شاه جاهان، («حاكم العالم»)، وخليفة جاهانغير، فقد اشتهر بالدرجة الأولى لبنائه تاج محل الذي يقطع الأنفاس، والذي كان بمثابة ضريح بناه من أجل ممتاز محل، وهي زوجته التي كان يحبها كثيرا. عمل في بناء ذلك الضريح زهاء عشرين ألف عامل، واستغرق بناؤه عقدين من الزمن، وكان هذا الصرح الرخامي يجمع بين الفن المعماري الفارسي والفن المعماري الهندي، ورسومات هندوسية وإسلامية. أصبحت كلمة "مغول" تجسيداً للمجد والعظمة الثقافية في ظل حكم شاه جاهان. وكان أحد العوامل التي ساعدت في ترسيخ هذه الفكرة أن شاه جاهان كان أغنى رجل في العالم آنذاك، وكان معروفاً بحبه للتبذير. أمر بتشييد قلاع رائعة المنظر وقصور ومساجد في كافة أنحاء الإمبراطورية من دون أن يحسب حساباً للمصاريف، وبتبذير وصل إلى درجة التهور. بنى لنفسه عرش الطاووس الشهير الرائع، والمرصع بالجواهر بكلفة وصلت إلى ٢٥٠٠ من الليرات من الذهب الخالص، والتي قيل إنها الكنز الأعلى ثمناً، والذي تم صنعه في السنوات الألف الأخيرة.

استمر شاه جاهان بالسماح لرعاياه من غير المسلمين بممارسة طقوسهم الدينية في كافة أنحاء الإمبراطورية، لكنه كان أكثر أصولية وأقل قبولاً للآخر من أسلافه. فقد قلب سياسة جده "أكبر" من خلال منع غير المسلمين من ترميم معابدهم أو تشييد معابد جديدة. كما منع المسلمين من اعتناق ديانات أخرى في الوقت الذي منح رواتب شهرية لغير المسلمين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. في الوقت نفسه، شن شاه جاهان عدداً من الحملات العسكرية في آسيا الوسطى ومناطق الصفويين في بلاد فارس. لكن هذه المحاولات التوسعية المكلفة وغير الناجحة في أغلب الأحيان

أدت ليس فقط إلى استنزاف موارد الخزينة، بل إلى وضع حد بشكل شبه نهائي لتدفق المهاجرين الفرس إلى الهند [٢٣].

انتقل حكم الإمبراطورية المغولية سنة ١٦٥٨ إلى يدي أورانغزيب ألامغير، وكان الابن الثالث لشاه جاهان. أصبح أورانغزيب إمبراطوراً بعد أن قام بقتل أخيه الأكبر، دارا - الذي أرسل رأسه على طبق إلى والدهما الذي كان يحتضر. كان دارا يتميز بفضول فكري، وكان باحثاً منفتح العقل، وكان يبدي اهتماماً كبيراً بالهندوسية واليهودية والسيخية والمسيحية بالإضافة إلى الإسلام. وكما أوضح أورانغزيب لاحقاً، فقد كان «الخوف من رؤية الدين المحمدي يضطهد في الهند فيما لو اعتلى أخي دارا العرش» هو الدافع الذي حدا به إلى الإمساك بزمام السلطة.

كان أورانغزيب بكل المقاييس - على الأقل بالنسبة إلى كونه قاتل أخيه - شخصاً ورعاً جداً. وكان يعيش، بالمقارنة مع بعض أسلافه المنحطين أخلاقياً، عيشة في غاية البساطة: كان يحيك قبعات الصلاة، وينسخ القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب مرة إثر مرة بخط يده.

وسّع أورانغزيب الاضطهاد الذي بدأه شاه جاهان، وزاد من وتيرته. بدأت المعايير الدينية الأصولية تطغى شيئاً فشيئاً على البلاط الإمبراطوري. فقد منع أورانغزيب شرب الكحول وتدخين الأفيون كما فرض حظراً على الاحتفالات الدينية لغير المسلمين. ولأول مرة منذ قرن، لم يتم الاحتفال بعيد الديوالي الهندوسي، أو بعيد النيروز الربيعي الفارسي في البلاط. في معرض تعزيزه للقوانين الجديدة الصارمة، عين أورانغزيب "المحتسبين" أو الرقباء على الأخلاق العامة في كافة أنحاء الإمبراطورية.

فرض أورانغزيب حكم الشريعة (القانون الإسلامي) على كافة أرجاء الإمبراطورية؛ مناقضاً بذلك سياسات التسامح الديني التي كان معمولاً بها في السابق. سوّى بالأرض كل المعابد والأضرحة الهندوسية بما في ذلك معبد ماثورا

الكبير. كما وضع يده على الأراضي التي وُهِبت للمؤسسات الهندوسية وأعاد توزيعها على رجال الدين المسلمين. كما أعاد فرض الجزية سنة ١٦٧٩، وهي الضريبة الجزائية المفروضة على الرعايا من غير المسلمين، مما أدى إلى احتجاجات حامية في كافة أنحاء الإمبراطورية.

كان التعصب الذي مارسه أورانغزيب كارثة على الإمبراطورية. بدايةً، أدى اضطهاد الهندوس إلى إلحاق الأذى بالتجارة. فعندما أرغم أحد أتباع أورانغزيب الموثوقين موظفاً هندوسياً على اعتناق الإسلام في مدينة سورات، غادرت ثمانية آلاف عائلة هندوسية غاضبة تلك المدينة الساحلية مما أدى إلى توقف الحركة التجارية هناك بشكل فعلي.

أدى التعصب الإسلامي الذي مارسه أورانغزيب إلى ما هو أدهى وأمر، وأكثر تدميراً للإمبراطورية؛ فقد تسبب في تمزيق الوحدة السياسية والدينية الهشة في الإمبراطورية المغولية. تسببت حملته الشرسة في إبادة الديانة السيخية - بما في ذلك تدمير المعابد، وإعدام زعيم طائفة السيخ (من دون توجيه أي تهمة له بشكل رسمي) - في تعميق الكراهية للمغول في قلوب عشرات الآلاف في شمال الهند، وتمهيد الطريق أمام عسكرة أفراد هذه الطائفة.

في غضون ذلك، تآلفت في جنوب الهند عدد من عشائر "الماراثا" لخوض الحرب ضد التسلط المغولي. وكان قائد تلك العشائر شخص يدعى "شيفاجي" الذي تحول في حينه إلى بطل شعبي أسطوري، واعتبره الكثيرون مؤسس حرب العصابات في الهند. نجح شيفاجي في طرد المغول من"ديكان" التي تعرف اليوم بولاية مهراشترا، توج بعدها ملكاً على كونفيدرالية ماراثا سنة ١٦٧٤. أنفق أورانغزيب خلال العقدين اللاحقين أموالاً طائلة في محاولة منه للتشبث في مواقعه ضد الماراثيين الذين استغلوا تكتيكات حروب العصابات، ومعرفتهم بالأرض في إلحاق خسائر دامية بالجيش المغولي القوي. وبدلاً من تقوية صلاته بالهنود الراجبوتيين - الذين كان

من الممكن أن يستمروا في تحالفهم معه، والذين كانوا في السابق من أهم بناة الإمبراطورية المغولية - قام أورانغزيب بنهب معابدهم، مما أدى في النهاية إلى وقوفهم أيضاً ضده.

لم يكن الهندوس وحدهم الذين كان عليهم مواجهة أصولية أورانغزيب الإسلامية. كان الشيعة أيضاً يواجهون الأصولية ذاتها. ونظراً لأنه كان سنياً متعصباً، وجه أورانغزيب جيوشه لفتح مقاطعتي "بيجابور" و"غولكوندا" اللتين كانت تحكمهما منذ عدة قرون، عائلات تنتمي إلى الطائفية الشيعية.

حافظ أورانغزيب على وحدة الإمبراطورية حتى وفاته سنة ١٧٠٧، من خلال جيوشه الجرارة التي كانت تسحق أعداءها بوحشية، وتنتزع شأفة الهراطقة، وتبسط سلطة الحكم المغولي على الأراضي الهندوسية والشيعية. عند موته، كانت الإمبراطورية المغولية أكبر وأكثر اتساعاً من أي وقت في تاريخها، أو فيما بقي من مستقبلها. ولكن بسبب الحروب المستمرة التي خاضها في الداخل والخارج، وصلت الإمبراطورية إلى حد الإفلاس. الأدهى من ذلك، كانت بذور الكراهية والانقسامات التي نثرها في كافة أنحاء الإمبراطورية قد جعلت من الهند فريسة سهلة لمروجي سياسة فرّق تسد، والتي استغلها البريطانيون أيما استغلال، محولين بذلك الهند من شبه قارة تحكمها إمبراطورية إسلامية إلى جوهرة في تاج أكبر إمبراطورية غربية عرفها العالم في تاريخه.

ربما فهم أورانغزيب المتعصب طبيعة إرثه الشخصي متأخراً. كتب لابنه وهو على فراش الموت: «جئت إلى هذا العالم غريباً، وسأغادره كما جئته. لا أعرف من أنا، ولا ماذا كنت أفعل. ارتكبت خطايا فظيعة، ولا أعرف أي نوع من العقوبات ينتظرني»[٢٤].

الفصل الثامن

الإمبراطورية البريطانية

«المتمردون الأوغاد»
و«العبء الملقى على كاهل الرجل الأبيض»

قم بإلقاء نظرة على مركز التبادل التجاري الملكي في لندن، وهو موقع أكثر حساسية من الكثير من المحاكم العدلية، حيث يلتقي ممثلون عن كل الأمم من أجل خير الإنسانية. سوف ترى هناك اليهود والمحمديين والمسيحيين يجرون الصفقات سوياً كما لو كانوا أتباع دين واحد، ولا يطلقون لقب «الكافر» إلا على المفلسين. هناك يثق أتباع الكنيسة المشيخية بأتباع الكنيسة المعمودية، ورجال الكنيسة بوعود أفراد من طائفة الأصحاب. وفي النهاية، يكون الجميع راضين.

- فولتير، 1733

يجب على الإنسان مهما حصل أن ينغلق على جماعته، ويلتزم بأبناء عرقه، والسلالة التي أنجبته. دعِ البيض يلتزمون بالبيض، والسود بالسود.

- روديارد كيبلينغ، Beyond the Pale, 1888

يكشف التعصب عن نقص إيمان المرء بقضيته

- المهاتما غاندي، ١٩٢١

عندما تركنا بريطانيا قبل فصلين، كان ذلك يشير إلى سنة ١٦٨٨، وإلى وليام الثالث، من مقاطعة الأورانج، وحاكم الأراضي المنخفضة الذي كان قد أصبح لتوه

ملكاً لإنجلترا. ما نوع البلاد التي استولى عليها كل من وليام وماري؟ وهي بلاد لا تختلف كثيراً عن بقية أوروبا المسيحية المتعصبة.

خلال معظم سني القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان ما يعرف الآن ببريطانيا العظمى مرتعاً لحروب دينية وعرقية وحشية. كان البروتستانت يذبحون الكاثوليك، والكاثوليك يجزون رؤوس البروتستانت؛ وكان الإنجيليون يضطهدون معارضيهم، والإنجليز يذبحون الأيرلنديين، والويلزيين، والاسكتلنديين، الذين ردوا على تلك المذابح بمثلها. كان بريطانيو تلك الحقبة في الواقع، أشبه بالمغول قبل ظهور جنكيز خان: انتقام كل طرف من الآخر، والتورط في دوائر مغلقة لا تنتهي من سفك الدماء والتدمير المتبادل. وقد وصف أحد المعاصرين تلك الحقبة وما كان يجري بالقول: إن البريطانيين أنزلوا بأنفسهم "القتل وجز الرقاب والنهب والسلب وتقطيع أوصال بعضهم بعضاً (كل ذلك بذريعة حماية الدين والإصلاح) ببربرية ووحشية لا إنسانيةٍ، أفظع بكثير مما يمكن أن يرتكبه ملايين الأتراك أو التتار أو أكلة لحوم البشر" [١].

كل ما تقدم، كان عرضة للتغيير بشكل دراماتيكي مع بدء عهد وليام وماري. ففي سنة ١٦٨٩، صادق البرلمان على وثيقة الحقوق المدنية، وقانون التسامح، واعتبرت هاتان الوثيقتان ثوريتين. وبالرغم من الكثير من القيود التي تضمنتهما هاتان الوثيقتان - على سبيل المثال، اقتصر قانون التسامح على حماية المنشقين البروتستانت، وليس الكاثوليك - إلا أن هذين القانونين كانا بمثابة مؤشر على عصر جديد. وبالرغم من استمرار الكراهية والممارسات الوحشية خصوصاً ضد الكاثوليك، فقد عرفت إنجلترا على امتداد القرنين اللاحقين، كأكثر أمم الأرض تسامحاً.

كان بروز بريطانيا العظمى في الواقع بمنزلة المثل الجلي لأطروحة هذا الكتاب. فبسبب تحول إنجلترا اللافت باتجاه التسامح بعد سنة ١٦٨٩، كان بمقدور ثلاث

جماعات على وجه التحديد: هي اليهود والهوغونيون والإسكتلنديون، الاندماج في المجتمع البريطاني بحرية لم يسبق لها مثيل. أدت هذه الجماعات الثلاث بشكل مشترك دوراً لا غنى عنه في الثورات المالية والصناعية التي نَحَتْ ببريطانيا العظمى باتجاه السيطرة العالمية. ولكن عندما وصلت بريطانيا إلى ذروة سيطرتها العالمية، وجدت نفسها في موقع انفصامي عميق. فقد طبقت بريطانيا بنجاح في الداخل مبادئ وقيم الفكر الجماعي والتسامح. ولكن في الوقت نفسه، مارس الحكام البريطانيون في الهند وروديسيا وجمايكا، وفي كل المستعمرات التابعة لها وراء البحار الحكم كطغاة غربيين اعتنقوا التفوق المسيحي الأبيض فكراً وممارسة تجليا بشكل لا يقبل التأويل في تطبيقهم لسياسة التمييز العنصري والعرقي.

بعبارة أخرى، وقع أمر طريف بالنسبة للبريطانيين في طريقهم نحو السيطرة العالمية، ألا وهو عصر التنوير. ربما يبدو هذا نوعاً من النكوص، لكن الواقع أن بريطانيا العظمى تختلف عن جميع قوى السيطرة العالمية التي سبقتها في السياق اللاحق: فقد وصلت بريطانيا إلى ذروة سيطرتها العالمية بعد ولوج عتبة الحداثة بكل قيمها الأساسية المتمثلة في الحرية والمساواة والديمقراطية بطريقة لا يمكن معها التراجع. وهكذا فقد وجدت بريطانيا نفسها في عصرها الذهبي إبان الحقبة الفيكتورية تواجه معضلة لم يعانِ منها قط جنكيز خان أو حتى مواطنو هولندا في القرن السابع عشر الذين لم يتخيلوا أبداً أن التسامح الذي مارسوه في داخل أوطانهم يمكن أن يتطلب منهم التعامل مع سكان جزيرة جاوا كأنداد لهم. كيف يمكن لبريطانيا الفيكتورية، وهي التي ترى في ذاتها الأمة الأكثر تحرراً وتسامحاً وأخلاقية في العالم، أن تحكم إمبراطورية يوجد فيها سكان مستَعمَرون؟

خضعت فكرة التسامح إلى التغيير في العالم الحديث. فالتسامح الذي استخدم كذريعة صرفة في الإمبراطوريات القديمة حيث كانت جماعات المهرة، أو الأفراد الذين يتمتعون بمواهب متميزة «يُرَوّضون» من أجل خدمة الإمبراطورية تماماً كالخيول أو البغال البرية، لا يمكن أن يتطابق مع المثل العليا الحديثة في الحرية

والمساواة وحق تقرير المصير. وهكذا، فإن تاريخ بريطانيا يثير سؤالاً محيراً. هل يمكن لقوة مسيطرة عالمياً أن تكون متسامحة فعلاً بالمعنى «التنويري» الحديث؟ تعتبر الإجابة على هذا السؤال أمراً محورياً بالنسبة إلى القوة العالمية المطلقة في عالم اليوم، وأعني بها الولايات المتحدة الأمريكية، وهي القوة الوحيدة في تاريخ البشرية التي كانت يوماً ما هي نفسها مستعمَرة.

«الحشد الهائل من الناس الرائعين من مختلف الملل والنحل»
اليهود والهوغونويون في بريطانيا

بعد أن قامت إنجلترا بطرد اليهود الإنجليز من أراضيها سنة ١٢٩٠، لم يوجد فيها أي يهودي بشكل فعلي على امتداد القرون الأربعة اللاحقة. في المراحل الأولى من القرن السابع عشر، حث السير توماس شيرلي الملك جيمس الأول على دعوة اليهود إلى العودة مجدداً إلى إنجلترا - ولو اعترضت مثل هذه الدعوة بعض العراقيل، يمكن على الأقل دعوتهم للعودة إلى أيرلندا، التي كانت تعج بالبرابرة والكفار على أي حال، وذلك بغية الإفادة من صلاتهم ومهاراتهم التجارية. لم تلق نصيحة شيرلي أي اهتمام يذكر. بقي الأمر على هذا المنوال حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، خصوصاً بعد وصول وليام، من مقاطعة الأورانج، حيث بدأت جماعة يهودية لا بأس بها من حيث العدد تعود إلى موطنها الأصلي من جديد.

كانت لوليام علاقات قديمة ووطيدة مع اليهود السفارديم في هولندا، وكانت العلاقة مفيدة للطرفين. وكان بين من لحقوا بوليام إلى إنجلترا من اليهود الهولنديين أفراد من عائلتي "ماشادو" و "بيريرا" النافذتين على الصعيد المالي. كان أنطونيو ماشادو وجاكوب بيريرا الممونيْن الرئيسيين لجيش الجمهورية الهولندية حيث كانا يزودانه بالخبز والحبوب والخيول والعربات التي تقل الجنود الهولنديين. وفي إنجلترا، استمر اليهود الذين كانوا قد وصلوا إليها حديثاً في إمداد جيش وليام

بالمؤن. وقد أثبت "سولومون دو مدينا" متعهد تموين الجيش والذي كان أحد وكلاء ماشادو وبيريرا، أنه لا يمكن لوليام الاستغناء عن خدماته لدرجة أن الملك تناول العشاء على مائدته في منطقة ريتشموند هيل سنة ١٦٩٩. أصبح مدينا في السنة اللاحقة اليهودي الأول الذي يتم منحه لقب فارس في إنجلترا [٢].

لكن يهود بريطانيا الجدد لم يكتفوا بتقديم المؤن للجيوش. فقد قاموا بأداء دور حاسم تمثل في تمويل حروب بريطانيا العظمى التي خاضتها ضد فرنسا التي كانت أهم وأعتى خصومها في القرن الثامن عشر.

بين سنتيْ ١٦٨٩ و ١٧٦٣ وحتى أبعد من ذلك بكثير، كانت الخصومة بين إنجلترا وفرنسا مستمرة ووصلت إلى درجة الاستحواذ. اتسع نطاق المواجهة بينهما إلى كافة المجالات الممكنة: الحروب البرية، والسيطرة على البحار، والمستعمرات فيما وراء البحار، وتجارة العبيد في أفريقيا والأمريكيتين. كان وضع فرنسا في كثير من المناحي، أفضل من وضع إنجلترا في محاولة الحلول محل الجمهورية الهولندية كأهم قوة أوروبية على الإطلاق. كان عدد سكان فرنسا سنة ١٦٨٩ أكبر من عدد سكان إنجلترا بأربع مرات، وكان لديها جيش يفوق عددياً بكثير، الجيش الإنجليزي، كما كان لديها أسطول يوازي في قوته وعدد سفنه الأسطول الإنجليزي، وسلسلة من الموانئ الرائعة والقواعد البحرية في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط. الأهم من ذلك، كان الإنتاج الصناعي الفرنسي سنة ١٦٨٩ أقوى بدرجة ملحوظة من الإنتاج الصناعي الإنجليزي. ولكن كيف استطاعت إنجلترا مع ذلك، أن تكون لها اليد العليا في الصراع مع فرنسا [٣].

باختصار، حققت إنجلترا الانتصار على فرنسا لأنه كان بمقدورها الحصول على مصادر التمويل. كان ملوك أوروبا طيلة القرن السابع عشر يبحثون دائماً عن مصادر كانوا بأمس الحاجة إليها من أجل تمويل حروبهم التي كانت كلفتها تزداد بوتيرة عالية. كانت خزائن معظم الدول الأوروبية في تلك الحقبة خاوية. كانت

الجيوش تخوض المعارك من دون مؤن أو معدات كافية، وكان الجنود جياعاً، ولا يتلقون أي رواتب. كما كانت صناديق المال الإنجليزية خاوية عملياً سنة ١٦٠٣. (بحسب رواية إيرل مقاطعة كلاريندون، فإن «الخطوة البديهية التي قامت بها الملكة إليزابيث» التي حكمت بين سنتيْ ١٥٥٨ و ١٦٠٣، «ولاقت رواجاً شعبياً تمثلت في أنه بينما كان كنزها الأعظم مخبأ في قلوب رعاياها، فقد ارتأت أن تكون أموالها في جيوب الناس بدلاً من الخزينة.») في هذا السياق، «كانت القدرة على جمع كميات كبيرة من الأموال بسرعة، وتحويلها سراً تشكل العامل الحاسم في تنفيذ مبادرات شجاعة ومفاجئة تقوم بها الدولة.» كان اليهود بشكل خاص في الموقع المناسب تماماً للقيام بذلك: كان بإمكانهم جمع أموال طائلة معتمدين في ذلك على الشبكات العائلية التقليدية، واجتذاب مصادر تمويل من كافة أنحاء العالم.

أدى اليهود الدور نفسه لصالح الملك وليام الثالث. لم تمول القروض اليهودية نائب الملك نفسه وحسب، وإنما أيضاً أسبانيا التي كانت على شفير الإفلاس. ساعدت هذه القروض التحالف المناهض لفرنسا والمكون من إنجلترا وأسبانيا والأراضي المنخفضة في قلب المعادلة بوجه لويس الرابع عشر [٤] وكان من قبيل المفارقة أن القروض التي قدمت لأسبانيا أتت من عائلات من اليهود السفارديم الذين فروا من محاكم التفتيش قبل عدة عقود من ذلك التاريخ.

لكن القروض التي قدمها بعض الأفراد الأثرياء إلى ملوك كانوا بأمس الحاجة إليها أضحت شيئاً من الماضي. (المقصود هنا هو القروض الفردية، وليس الملوك الذين كانوا بأمس الحاجة إليها). أسس البرلمان سنة ١٦٩٤ بنك إنجلترا الذي بني على نظام حديث يعتمد على التمويل الناتج من الإقراض العام؛ وهو نظام كان الهولنديون أول من ابتكره. وهنا أيضاً، أدى يهود بريطانيا الجدد دوراً مهمًا بالرغم من أنه لم يكن ذلك الدور المباشر.

كان أول ما قام به أشخاص مثل ماشادو ومدينا بعد وصولهم إلى لندن سنة ١٦٨٩، هو تأسيس سوق للأوراق المالية على شاكلة سوق هولندا المزدهرة. كان

هؤلاء هم «من ساعد في إعادة إنتاج جهاز المضاربة المعقد، والذي وضعت اللمسات الأخيرة عليه في أمستردام قبل ذلك بمئة سنة، والمكون من: أنظمة التسويات، والبيع والمزادات، والمتابعة، وتغير اتجاه السوق، وتطوير كافة الأسواق المالية الحديثة.» الأهم من ذلك كله، كانت سوق لندن للأوراق المالية الوسيلة الرئيسة التي كان الرأسماليون الأجانب، وفيما بعد، المواطنون الإنجليز العاديون، يستطيعون من خلالها الاستثمار في توسع أسطول بريطانيا البحري، والمد الصناعي والتجاري الذي كانت تشهده، وكذلك في الاتفاقيات التي قامت بتمويل حروب بريطانيا [٥].

عندما أنشئ بنك إنجلترا، عمل اليهود أيضاً كسماسرة للديْن الحكومي، وتخصصوا في وضع أوراق الحكومة النقدية في أيدٍ أقل شأناً. وهكذا أصبح سامسون غيديون - الذي جمع ثروته في البداية بواسطة المضاربة في سندات الحكومة المالية وشركات أسواق الأسهم المشتركة - بحلول خمسينيات القرن السابع عشر الضامن المالي الأول للقروض الحكومية في بريطانيا، وأكثر اليهود ثراء في بريطانيا. عندما مات، كان يملك ما قيمته ٨٥٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني، وهو مبلغ كان يُعَد رقماً فلكياً بمعايير ذلك الزمان (تماشياً مع الظروف، تزوج غيديون من امرأة بروتستانتية، وربّى أبناءه تربية مسيحية، كما زف ابنته لأحد النبلاء الإنجليز؛ وبالرغم من أن غيديون نفسه لم ينل لقب البارون نظراً لأنه كان ما يزال يهودياً، فإن ولده الذي تلقى تعليمه في مدارس إيتون، وكان الوارث لوالده، نال هذا الشرف ولما يتجاوز عمره الثالثة عشرة.) كذلك كان الأمر النسبة إلى أبناء آرون غولدسميث، وهو أحد الأقطاب الماليين اليهود الذين هاجروا من أمستردام؛ فقد كانوا من بين أهم سماسرة بنك إنجلترا الضامنين لسندات الحكومة المالية الصغيرة الأجل، مثل فواتير الخزينة التي لا تتجاوز مدتها ثلاثة أشهر. لقد كان آل غولدسميث هم الذين ساعدوا في جمع مئات الملايين من الجنيهات التي ضمنت لإنجلترا الانتصار في حربها ضد فرنسا خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر، من خلال نجاحهم في العثور على مستثمرين خاصين لهذه الفواتير.

دفع إنشاء سوق الأسهم المالية، وتطوير أسواق جديدة لرأس المال، وضمان مبالغ

كبيرة من الديون الحكومية والخاصة، يهوداً أمثال مدينا، وغيديون، وغولدسميث، بالإضافة إلى عائلات المونتاغوس، والستيرن، وأفراد من عائلة روتشيلد الشهيرة إلى المساعدة في جعل لندن أهم مركز مالي في العالم. وبعد سنة ١٨١٥، «أصبحت لندن المكان الذي تحدد فيه إطار النظام المالي العالمي، بينما تراجع دور أمستردام إلى موقع ثانوي» [٦].

ولكي لا تبدو صورة اليهود في بريطانيا وردية جداً، يجب التأكيد على أن العائلات اليهودية الأكثر ثراء، كانت هي الاستثناء وليست القاعدة. كان هناك ما مجموعه حوالي مئتي عائلة من اليهود الأثرياء في ثلاثينيات القرن التاسع عشر من بين مجموع السكان اليهود الذين كان يبلغ تعدادهم آنذاك ثلاثين ألفاً. كانت غالبية اليهود الموجودين في بريطانيا قبل القرن التاسع عشر - الذين وصل معظمهم من ألمانيا وبولندا ووسط أوروبا،حيث كانوا يعاملون بشكل روتيني على أنهم أكباش فداء، ويفرض عليهم التجمع في أحياء خاصة بالأقليات - من الفقراء وشبه الأميين الذين يحتالون على الحياة من أجل تأمين لقمة عيشهم بالعمل كباعة متجولين أو مدربي صقور. (كانت الصورة النمطية عن البائع اليهودي بأسماله البالية ما تزال حية في سبعينيات القرن التاسع عشر عندما كان رسامو الكاريكاتير يصورون رئيس الوزراء دزرائيللي في هذا الشكل لإبراز يهوديته.) بالإضافة إلى ذلك انتشرت معاداة السامية التي تجلت في حملات من التحامل والتمييز العنصري. استمر إقصاء اليهود عن المناصب الحكومية أو الدراسة في الجامعات القديمة (مثل أكسفورد وكامبردج اللتين كانتا تتطلبان - كشرط من شروط التسجيل فيهما - القَسَم المسيحي.) [٧].

مع ذلك، فبالمقارنة مع الدول الأوروبية الأخرى على الأقل، اشتهرت بريطانيا العظمى بعد سنة ١٦٨٨ بأنها أصبحت ملاذاً آمناً لليهود. لم يخضع اليهود البريطانيون عموماً لنوع خاص من الضرائب، كما كانت الحال في بعض الدول الأخرى، كما أن البرلمان لم يقم بفرض أي قيود على الهجرة أو الوظائف أو التجارة

أو أماكن السكن التي يختارها اليهود. بالإضافة إلى أن اليهود المولودين في بريطانيا كانوا يعدون مواطنين بريطانيين، لهم الحقوق نفسها في التملك كالمسيحيين. وبحلول سنة ١٨٦٠، تم السماح لليهود بشكل رسمي بالتسجيل في جامعتي أكسفورد وكامبردج، وتبوء مناصب في البلدية، وحتى الترشح لنيل عضوية البرلمان. بين سنتيْ ١٨٨١ و١٩١٤، وصل حوالي ١٥٠٠٠٠ يهودي إضافي من أوروبا الشرقية إلى بريطانيا، بالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد حلت محل بريطانيا كمقصد أكثر شعبية للهجرة (٨).

كانت بريطانيا ملاذاً آمناً وأرضاً للفرص بالنسبة لأقلية دينية استثمارية أخرى. كان الهوغونيون من البروتستانت الفرنسيين الذين تأثروا كثيراً بجون كالفين، وكانوا يعارضون بشدة الهرمية والطقوس التي كانت تمارس في الكنيسة الكاثوليكية. تأسست الكنيسة الهوغونية الأولى في باريس سنة ١٥٥٥. انتشرت هذه الحركة بعد هذا التاريخ بسرعة؛ وصلت أعداد الهوغونيين في ذروة اتساعها، إلى رقم يتراوح بين مليون ومليونين من الأتباع مقارنة بحوالي ١٦ مليون من الكاثوليك. وكان يمكن أن يوجد هؤلاء في كافة فئات المجتمع بمن فيهم الفنانين والحرفيين بالإضافة إلى الخبراء الماليين والنبلاء. وفي إحدى مراحل تاريخهم، كان للهوغونيين الذين تلقوا الدعم من عائلة البوربونيين، أسطولهم الحربي الخاص بهم، كما كانوا يسيطرون على عدة مدن وبلدات محصنة تحصيناً جيداً في كافة أرجاء فرنسا (٩).

شن لويس الرابع عشر في منتصف القرن السابع عشر حملة شعواء قمع فيها البروتستانت بوحشية؛ ووصلت هذه الحملة إلى ذروتها سنة ١٦٨٥ والتي تمثلت في إلغاء مرسوم "نانت" الذي ضمن لهم حداً معقولاً من الحرية الدينية. وبعد إلغاء المرسوم، بدأت حملات الإعدام تطال رجال الدين البروتستانت، والكنائس تهدم، والأملاك تصادر. تحول العديد من الهوغونيين إلى الكاثوليكية، أو ادعوا ذلك بعد أن تعرضوا للتهديد بالسجن، أو بالإعدام، أو التعذيب بواسطة الدولاب. بينما هرب آخرون قدرت أعدادهم بمئة وخمسين ألفاً إلى مئتي ألف من البلاد. اختار حوالي خمسين ألفاً من هؤلاء الهجرة إلى الجزر البريطانية.

أعقبت موجة الهجرة الهوغونية الجماعية مدة ركود اقتصادي في فرنسا، إلا أنه من الصعب تحديد أسباب ذلك الركود. يعتقد بعض المؤرخين أن هجرة الهوغونيين كانت عاملاً مهماً جداً أثر على صناعات الفولاذ والورق والسفن والنسيج الفرنسية. بينما يشير الآخرون إلى أن غالبية الهوغونيين بقوا في فرنسا، وكانوا يمارسون طقوس عباداتهم في السر، وأن عوامل أخرى كانخفاض في مستوى المحاصيل الزراعية، وتوسع لويس الرابع عشر العسكري غير المنضبط أسهمت كثيراً في مشكلات فرنسا الاقتصادية.

ولكن ليس هناك من شك في أن بريطانيا استفادت من تلك الهجرة. فقد ساعد صانعو الساعات الهوغونيين في جعل لندن واحدة من أهم مراكز صنع الساعات في العالم. كما خسرت مدينة كوديبيك الفرنسية معظم أفضل صانعي القبعات لصالح إنجلترا التي بدأت بإنتاج نموذجها الخاص من القبعات من طراز "كوديبيك" وذلك بعد أن أصبحت لديها أسرار حرفة صناعة القبعات الصوفية الناعمة الجديدة المقاومة للأمطار (كانت الحيلة تكمن في مزج الصوف بفراء الأرانب). اصطحب الهوغونيون معهم كذلك مهارتهم في صنع الورق، وصناعة أربطة الأحذية، وطباعة الكتب، والأشغال المعدنية وتقنية إنتاج الكتان والحرير [١٠].

ازدهرت أوضاع الهوغونيين في إنجلترا حيث اندمجوا في المجتمع البريطاني بمرور الوقت عن طريق التزاوج. تماهى أفراد من بعض أكثر العائلات الهوغونية ثراء مع الإنجليز إلى درجة لم يعودوا في نظر الإنجليز أجانب؛ وينطبق ذلك على عائلات مثل برنارد جانسين، وشاميير بيتي، وأوليفييه المصرفية. (غالباً ما كانت الأخطاء التي ارتكبها الموظفون الإنجليز تؤدي دوراً في ذلك أيضاً. فالأسماء «الإنجليزية» مثل "فيري" و "فاش" كانت في الأصل "فيريت" و "فوش" على التوالي.) ولكن أهم ما قدمه الهوغونيون لإنجلترا، كان في المجال المالي، تماماً كما فعل اليهود.

تضاعفت ديون إنجلترا الوطنية بين سنتيْ ١٧٤٠ و ١٧٦٣ بنسبة ثلاث مرات

تقريباً بسبب حروبها التي خاضتها ضد فرنسا حيث وصلت هذه الديون إلى ١٢١ مليون جنيه إسترليني سنة ١٧٦٣. من اللافت أن خمس هذا المبلغ جاء من مؤسسة «الهوغونية العالمية» التي تضم هوغونيين من الذين قدموا إلى بريطانيا، بالإضافة إلى آخرين - من هولندا وسويسرا وألمانيا - ممن كانت تربطهم بهم علاقات وطيدة. كان الهوغونيون في المنفى يفضلون، -ولأسباب واضحة- الاستثمار في إنجلترا (وإقراضها) بدلاً من فرنسا. كان الهوغونيون الأثرياء بخلفياتهم المالية، وكونهم أصحاب دخل من وراء السندات والأسهم في فرنسا، أكثر رغبة في الاستثمار في عمليات التمويل الإنجليزية الحكومية من نظرائهم الإنجليز أنفسهم، والذين كانوا يفضلون الاحتفاظ بأموالهم بين أيديهم - أو حتى «في صناديق متينة في منازلهم.»

لكن وبالرغم من الدور المهم الذي قام به كل من اليهود والهوغونيين الإنجليز، فإن من غير المنطق التفكير في أنهم أصحاب الدور الوحيد في تبوء بريطانيا موقع السيطرة العالمية. وكما أشار أحد المؤرخين، كانت إسهاماتهم أشبه بجزء من "خميرة" في عملية صعود بريطانيا إلى تلك السدة [١١]. بالإضافة إلى ذلك، تكاد هذه الإسهامات لا تساوي شيئاً بالمقارنة من الدينامية الاقتصادية والفكرية التي قدمتها لإنجلترا أقلية أخرى، ألا وهي الإسكتلنديون.

بناة الإمبراطورية من «حثالة الأرض»

ولد وليام باترسون «الاسكتلندي الطليق اللسان» في مزرعة "دامفرشاير" حوالي سنة ١٦٥٨ [١٢]. جمع في شبابه ثروة من خلال أسفاره إلى الأمريكيتين والويست إنديز مستعملاً في ذلك طرقاً وأساليب ما تزال غير واضحة تماماً. كان يطلق عليه حيناً لقب رجل الكنيسة، وحيناً آخر، كان يظهر بمظهر رجل الأعمال، أو القرصان، وربما كان يمارس هذه الأعمال كلها. كانت له أيضاً رؤية في قضايا المال. خلال مهمة له في لندن سنة ١٦٩٤، قام باترسون بتطوير فكرة مبتكرة لصالح بنك إنجلترا بالاشتراك مع مجموعة من تجار لندن، وأصبح من ثم واحداً من مديريه

المؤسسين. ولكن بينما أصبح ذلك البنك الذي كان من بنات أفكاره العمود الفقري لارتقاء بريطانيا إلى سدة العالم، انكفأ باترسون وزملاؤه المديرون إلى الظل، وفي نهاية الأمر، عاد باترسون إلى إدنبرة.

كان اقتصاد اسكتلندا في ذلك الوقت تقليدياً بشكل عام. أما اقتصاد إنجلترا فكان بالمقابل، يمر بمرحلة ازدهار من خلال التبادل التجاري مع المستعمرات ومراكز التجمع في كل أنحاء العالم، وأيضاً من خلال حقنه برأس المال وأعمال المقاولات التي كانت مؤسسات جديدة مثل بنك إنجلترا وشركة شرق الهند توفرها لهذا الاقتصاد. ونظراً لأنه كان هو مؤسس بنك إنجلترا فقد أخذ على عاتقه مهمة هزيمة شركة شرق الهند. خرج باترسون سنة ١٦٩٥ بخطة "داريان" التي أدت إلى واحد من أكثر الفصول مأساوية في التاريخ الإسكتلندي.

أقنع باترسون البرلمان الإسكتلندي بإنشاء مستعمرة إسكتلندية في بنما تطل على برزخ داريان. وكان يراد لهذه المستعمرة أن تكون بمنزلة مركز تجاري يربط بين المحيطين الأطلسي والهادي. وهكذا، فبدلاً من الإبحار تلك المسافة الطويلة حول رأس القارة الجنوبي لأمريكا الجنوبية، يمكن للسفن الأوروبية أن تفرغ حمولاتها في ميناء داريان. يمكن بعد ذلك نقل تلك الحمولات إلى الجانب الآخر من البرزخ الضيق، ومن ثم يعاد تحميلها من جديد على متن سفن أخرى وجهتها قارة آسيا. سيكون حينها بمقدور الإسكتلنديين الذين سيؤدون دور الوسيط أن يفرضوا عمولات مجزية على الطرفين. في ذات الوقت، تكون اسكتلندا قد وضعت يدها «على بوابات البحار، وأمسكت بمفاتيح العالم.»

كانت خطة داريان تبدو واعدة لدرجة أنها جذبت في البداية كثيراً من المستثمرين ليس فقط من أسكتلندا، بل من إنجلترا وهولندا أيضاً. إلا أن البرلمان الإنجليزي، وبضغط كبير من شركة شرق الهند، هدد باتخاذ إجراءات قانونية، حتى إنه اتهم باترسون وشركاءه المغامرين بارتكاب جريمة جزائية خطيرة، وهو ما أدى إلى انسحاب المستثمرين الإنجليز والهولنديين من المشروع. مقابل ذلك،

قام الآلاف من الإسكتلنديين القوميين الغاضبين من كل الطبقات الاجتماعية للتعويض عن انسحاب أولئك المستثمرين. رهن الأرستقراطيون عقاراتهم، بينما قدم المواطنون العاديون مدخراتهم المتواضعة. استطاعت شركة باترسون خلال شهرين جمع كل الأموال اللازمة من أجل تمويل هذا المشروع؛ وقد بلغت تلك الأموال حوالي ٤٠٠٠٠٠جنيه إسترليني، وشكلت تقريباً نصف مجموع الأموال التي كان يتم تداولها في أسكتلندا في تلك الحقبة. وفي الثامن عشر من شهر تموز، يوليو، سنة ١٦٩٨، أبحرت خمس سفن إسكتلندية نحو العالم الجديد، وكان باترسون وعائلته من بين المسافرين الذين بلغت أعدادهم ١٢٠٠ شخص على متن تلك السفن.

من الصعب جداً تخيل نتيجة أكثر كارثية من ذلك. وصف باترسون الرومانسي بنما بالرغم من أنه لم يكن قد ذهب إليها من قبل قط، بأنها أرض الحليب والعسل، وأن شعبها ودود ويحب التجارة. لهذا السبب لم يكن المستعمرون مستعدين لما سيلاقونه عند وصولهم: من مستنقعات تعج بالبعوض المسبب للملاريا، وأمطار غزيرة، وتربة غير صالحة للزراعة. وبدلاً من أن يحضروا معهم كميات كافية من المواد الغذائية، فقد أحضر المستعمرون خمسة آلاف نسخة من الكتاب المقدس، وأربعة آلاف قطعة من الشعر المستعار المرشوش بالمساحيق، وآلاف من المرايا والأمشاط التي تبين أن السكان الأصليين غير مهتمين بها البتة. خلال مدة وجيزة، كان نصيب الفرد لا يتعدى نصف كيلوغرام تقريباً من الطحين المتعفن في الأسبوع. كتب أحدهم عن ذلك في رسالة بعث بها إلى الوطن: «عندما كان يتم سلق هذه الكمية في قليل من الماء، من دون أن يترافق مع أي شيء آخر، كان يجب علينا نزع يرقات كبيرة وديدان من على سطح المادة المطبوخة.» وذكر هذا المستوطن نفسه في رسالة أخرى «ومع ذلك، ومقابل هذا المردود الضئيل، كان كل شخص فينا... يذهب يومياً إلى العمل عند بزوغ ضوء النهار، بعضنا كان يحمل الفؤوس الصغيرة، والبعض الآخر كان يدفع بعربات الجر ذات العجلة الواحدة، أو يحمل المعاول والرفوش والمطارق.... أُنهِكت كتفاي من الأحمال التي كنت أضعها عليهما لدرجة أن الجلد بدأ يقشط عنهما،

وبدأت تظهر عليهما الفقاعات المليئة بالقيح.... غارت أجسادنا، وبدأ الهزال يلفنا بسبب ندرة المردود لدرجة أننا أصبحنا أشبه ما نكون بالهياكل العظمية.»

انتشرت الحمى بين المستوطنين، وكذلك الإدمان على الكحول. وارتفع معدل الوفيات إلى عشر وفيات يومياً. وكانت الضربة القاضية تتمثل في رفض الإنجليز إجراء أي مبادلات تجارية مع أولئك الإسكتلنديين الجياع، كما هددت أسبانيا بشن هجوم عليهم. وفي شهر تموز، يوليو، سنة ١٦٩٩، أي بعد مرور سنة على إبحارهم من أسكتلندا، قرر المستوطنون هجر تلك المستوطنات. ولم تنجح سوى سفينة واحدة من بين السفن الخمس، في الوصول بسلام إلى الوطن، وعلى متنها أقل من ثلاثمئة من الناجين. وكانت زوجة باترسون من بين الموتى.

أدت مغامرة داريان الفاشلة إلى إفلاس أسكتلندا. عومل باترسون وبقية الناجين معاملة المنبوذين. وفي سنة ١٧٠٧، لم تجد أسكتلندا الجائعة، والفاقدة لروحها المعنوية بدأ من توقيع اتفاق الوحدة مع إنجلترا، وهو ما أدى إلى ولادة كيان جديد أطلق عليه بريطانيا العظمى. كان النزوع باتجاه الوحدة مع إنجلترا بقيادة عدد من النبلاء الإسكتلنديين المفلسين الذين - بحسب بعض الروايات - تمت رشوتهم من قبل الإنجليز بمبالغ مالية سرية. ولكن في نهاية المطاف، قام البرلمان الإسكتلندي بحل نفسه، وتخلى مجلس الشورى الملكي الإسكتلندي عن حقه في جباية الضرائب، والإشراف على الجمارك، والشؤون العسكرية، والسياسة الخارجية. في المقابل، قامت إنجلترا بدفع ما يقرب من ٤٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني من الديون المستحقة على أسكتلندا، والتي غطت عملياً الخسائر التي تسببت فيها مغامرة داريان. كان إعلان الوحدة بين اسكتلندا وإنجلترا بالنسبة إلى الكثيرين من الإسكتلنديين الذين عارضوا بشدة هذه الوحدة بمنزلة «استسلام مطلق»، وأطلقوا عليها وصف «صفقة الشيطان» التي اعتبروها بمنزلة النهاية لأمتهم [١٣].

وكان السؤال الكبير بالنسبة لوجهة النظر الإنجليزية بعد سنة ١٧٠٧، هو ما الذي سيفعلونه بالإسكتلنديين؟. فبالرغم من كارثة داريان، كان الإسكتلنديون

مشهورين بطموحاتهم وبراعتهم التجارية. كان العديد من الإنجليز يتوجسون من الإسكتلنديين الذين كانوا يعتبرونهم قساة، وماكرين، وعدوانيين. كان الإسكتلنديون الجبليون معروفين بشجاعتهم، وأحياناً بتقلباتهم النمطية أيضاً. ذكر أحد المتوجسين من الإسكتلنديين أن « الكم الأكبر من نبلائهم هم من الطغاة، والعدد الأكبر من عامة شعبهم من العبيد.» في الوقت الذي أكد فيه آخرون على نقطة مضادة تماماً، حيث تحدثوا عن الراديكالية الخطيرة التي يتصف بها «الإسكتلنديون المتمردون الأوغاد.» في معرض ذلك كله، تمسك الإنجليز باعتقادهم الراسخ بأنهم يفوقون جيرانهم الشماليين «الفقراء والملحاحين» رقياً ومستوى. وقد وصفهم أحد النبلاء الأسبان بأنهم «حثالة الأرض.»

بعد إقامة الوحدة، كان على الإنجليز أن يقرروا إما رفع شأن الإسكتلنديين، أو إبقاؤهم في الحضيض؛ إما أن يحاولوا دمج الإسكتلنديين وكسب ولائهم واستخدامهم أو، كما توجس العديد من الشماليين، قمعهم واضطهادهم. اختار الإنجليز الطريق الأولى، وكان ما جنوه من وراء ذلك أكبر من أن يوصف [١٤].

توسعت السيطرة البريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بشكل مذهل. في واقع الأمر، توسعت الإمبراطورية البريطانية بين سنتيْ ١٨١٥ و١٨٦٥ بمعدل مئة ألف ميل مربع سنوياً. كانت مثل هذه الإمبراطورية التي تتوسع بهذا المعدل غير المسبوق تتطلب أكثر ما تتطلب موارد بشرية: جنوداً، ومستوطنين، ومزارعين، وموظفين، وتجارًا، وأطباء، وضباطًا، وحكامًا. ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الإنجليز من الراغبين أو القادرين على ملء هذه المواقع. فالمستعمرات البريطانية التي تفصل المحيطات بينها وبين إنجلترا، والأراضي المليئة بالأوبئة الاستوائية، والسكان الأصليين الذين لا يظهرون ما يكفي من الود، لم تشكل ما يكفي من الإغراء بالنسبة إلى الإنجليز الذين كان اقتصادهم داخل إنجلترا منتعشاً ومزدهراً.

إلا أن وضع الإسكتلنديين كان مختلفاً. فقد كانوا أشد فقراً من الإنجليز بكثير.

وتعرض الكثير من نبلائهم وأثريائهم للإفلاس بسبب خطة داريان. ولم يكن اقتصاد أسكتلندا المتخلف نسبياً يبشر بمستقبل واعد، كما لم يكن من السهل على أي إسكتلندي أن يبني لنفسه مستقبلاً، أو يجد لنفسه فرصة حقيقية في إنجلترا، حيث إن أفضل الوظائف كانت تذهب إلى الإنجليز. وهكذا، وباعتبار أن هناك الكثير مما يمكن كسبه، والقليل مما يمكن خسارته، فقد كان الإسكتلنديون متلهفين للقيام بالمجازفة والمشاركة في بناء الإمبراطورية.

أما بالنسبة للإنجليز، فقد كانت هذه بمنزلة نعمة هبطت عليهم من السماء. اتخذ رجال الدولة الإنجليز قراراً إستراتيجياً قضى بتجنيد الإسكتلنديين في خدمة الإمبراطورية. بعد قيام الوحدة، وبعكس توقعات المتنبئين بالكوارث الناجمة عن «العبودية للإنجليز»، فقد خبر الاسكتلنديون «تجربة غير مسبوقة من الحرية و الحركة.» أعلن رئيس وزراء إنجلترا هنري بيلام سنة ١٧٤٧، أن «كل إسكتلندي لديه الحماسة والقدرة على خدمة جلالة الملك، يتمتع بالفرصة نفسها في العمل في إدارة الدولة كأي مواطن في إنجلترا.» وهو ما أثار حنق الإنجليز واستهجانهم.

وهكذا، فبدلاً من أن يوصم الإسكتلنديون «الشجعان» بالعداء، فقد تم تجنيدهم في الجيش البريطاني، خصوصاً الجبليين منهم، والذين كوفئوا على شجاعتهم وطاعتهم. أصبح الإسكتلنديون في الجيش البريطاني بحلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر يشكلون ربع عدد الضباط. في الوقت نفسه، كان الإسكتلنديون يقومون بأعمال الزراعة في مناطق أونتاريو المنخفضة، ويربون الأغنام في منطقة ويلز الجنوبية الجديدة. كما سيطروا على تجارة التبغ الأمريكية المزدهرة، وأبحروا بسفن إلى النيجر، وباعوا الأفيون في الشرق الأقصى؛ وفي ثمانينيات القرن الثامن عشر، كان ستون في المئة من التجار البريطانيين في منطقة البنغال من الإسكتلنديين. وقد تبوأ العديد من الإسكتلنديين مناصب رفيعة مثل جيمس موري الذي أصبح أول حاكم لكندا سنة ١٧٦٠، وجيمس دالوسي الذي خدم بصفة الحاكم العام للهند بين سنتيْ ١٨٤٨ و ١٨٥٦. كتب أحد رجال الدولة الإنجليز في القرن التاسع عشر: «في

المستعمرات البريطانية من كندا إلى جزيرة سيلان، ومن دونيدين إلى بومباي، مقابل كل إنجليزي يمكن أن يكون قد حقق لنفسه الثراء من بدايات متواضعة، ومن دون مساعدة من أحد، فإنك ستجد عشرة من الإسكتلنديين.» كان الإسكتلنديون في الواقع ممثلين بنسب يصعب إحصاؤها في اقتصاد المستعمرات والمحطات التجارية في الخارج لدرجة أن بعض الكتاب (الإسكتلنديين) أشاروا إلى أن فكرة استبدال تسمية الإمبراطورية البريطانية باسم الإمبراطورية الإسكتلندية هو أكثر دقة[١٥].

لم يقدم الإسكتلنديون للإمبراطورية الموارد البشرية وحسب، وإنما قدموا أيضاً قادة الفكر والكتاب والمخترعين في بريطانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أشهر مفكري بريطانيا في القرن الثامن عشر كان ديفيد هيوم، وهو إسكتلندي؛ وكذلك كان آدم سميث الذي غالباً ما كان يطلق عليه «أبُ علم الاقتصاد». كان هيوم وسميث بالإضافة إلى العديد من المفكرين الأقل شهرة أمثال وليام روبرتسون، وآدم فيرغسون، وفرانسيس هتشيسون واللورد كيمس من خريجي جامعات اسكتلندا الراقية، والتي كانت بعكس أكسفورد وكامبردج أقل كلفة، وفي متناول يد العامة. ثمّن الإسكتلنديون عالياً التعليم واكتساب المعرفة من خلال الدراسة. بدأت أسكتلندا في نهاية القرن الثامن عشر في التباهي بأن معدلات المتعلمين فيها أعلى من أي بلد آخر في العالم؛ فحتى التجار العاديون، كان بإمكانهم أن يقرؤوا باللاتينية والإغريقية. نشرت الطبعة الأولى من "الموسوعة البريطانية" في إدنبرة؛ وكان المؤرخ توماس كارلايل، والشاعر روبرت بيرنز، والكاتب جيمس بوزويل، والسير والتر سكوت، وروبرت لويس ستيفينسون جميعاً من الإسكتلنديين.

من اللافت أيضاً أن الإسكتلنديين كانوا القوة الدافعة للثورة الصناعية في بريطانيا. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانت أسكتلندا المنتج الأول للحديد في العالم، وكانت الشركات الإسكتلندية أكبر شركات تصنيع السفن في بريطانيا، وكان أهم اختراع في ذلك العصر، وهو محرك وات البخاري، قد وضع اللمسات الأخيرة عليه الإسكتلندي جيمس وات بالشراكة مع الصناعي الإنجليزي ماثيو بولتون. كان

المصدر الأول للطاقة المستقلة في العالم هو محرك وات البخاري الذي أحدث ثورة في الحياة الاقتصادية الحديثة، إذ لم يعد هناك حاجة لبناء المصانع بالقرب من شلالات المياه أو مياه الأنهار المتدفقة. أدى اختراع وات في نهاية المطاف إلى بروز مدن صناعية لم تكن لها هوية من قبل، مثل برمنغهام وليفربول ومانشستر. أدى اختراع المحرك البخاري إلى جملة من الابتكارات الإسكتلندية الأخرى بما فيها محالج القطن المدمجة، والمطرقة البخارية، والفرن الانفجاري الحديث، وقطع الغيار المعيارية للآلات. أخيراً وليس آخراً، لقد كان الإسكتلندي جيمس نيسميث من إدنبرة هو من اخترع سنة ١٨٣٩ أكثر الأدوات الحديثة شيوعاً، ألا وهي آلة الحفر التي يستخدمها طبيب الأسنان[١٦].

ثمار التسامح

مع بداية القرن العشرين، كانت الإمبراطورية البريطانية تغطي مساحة أكثر من اثني عشر مليون ميل مربع؛ أو ما يعادل نسبة مدهشة تصل إلى ربع مساحة اليابسة. ولو أضفنا إلى تلك المساحة المحيطات التي كانت تسيطر عليها البحرية البريطانية، لوصلت النسبة إلى سبعين في المئة من مساحة الكرة الأرضية. وكما كانت الحال بالنسبة للإمبراطورية الهولندية، فإن الأساس في السيطرة العالمية التي كانت بريطانيا تتمتع بها يكمن في قوتها البحرية والتجارية والمالية. كانت البحرية الملكية بأسطولها الهائل من السفن الحربية أكثر قوة من ثلاث أو أربع قوى بحرية تلتها مجتمعة. لم تصل أي أمة، أو أي تحالف أممي على امتداد السنوات الثمانين التي تلت سنة ١٨١٥، إلى مرحلة شكلت فيها تحدياً لسيطرة بريطانيا على البحار.

سنة ١٨٦٠، كانت «أكثر من ثلث سفن العالم التجارية تحمل العلم البريطاني، وقد كانت هذه الشراكة في ازدياد مطرد.» بالإضافة إلى ذلك، أصبحت بريطانيا المركز المالي الأول في العالم، كما أضحت عملاق الإنتاج في العالم الصناعي. كانت

«الإمكانيات الصناعية لبريطانيا، التي لم يكن عدد سكانها يتجاوز الاثنين في المئة من سكان العالم في منتصف العصر الفيكتوري، تعادل ما بين أربعين إلى خمس وأربعين في المئة من الإمكانيات العالمية، وما بين خمس وخمسين إلى ستين في المئة من الإمكانيات الأوروبية، وكانت تنتج لوحدها ما يعادل خمسيْ إنتاج العالم من المواد الصناعية.» [١٧].

إلى أي مدى ساعد التسامح البريطاني بعد سنة ١٦٨٩ في ارتقائها لسدة السيطرة العالمية؟ من المستحيل معرفة ذلك بطبيعة الحال. لكن كي لا نتجاهل ما هو جليّ وملموس، لا بد من ملاحظة أنه نظراً إلى أن إنجلترا هي أكبر سكانياً بكثير، فقد كان من المنطقي أن تكون الغالبية الساحقة من أهم النافذين البريطانيين في الشؤون المصرفية، والتجار والأقطاب الماليين والجنرالات والحكام العامين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الإنجليز. لم يكن الإسكتلنديون وحدهم المسؤولين عن الابتكارات التكنولوجية البريطانية. فقد كان الإنجليزي "جيثرو تال" على سبيل المثال، هو من اخترع آلة نثر البذار، كما تنسب إلى إنجليز آخرين اختراعات كان لها دور مؤثر في الثورة الصناعية في بريطانيا مثل المراكب المكوكية الخفيفة، ودولاب الغزل، والمغزل الآلي، والحاضن المائي.

مع ذلك، كانت إسهامات اليهود والهوغونيين والإسكتلنديين التي ما كانت لتحصل لولا تحول بريطانيا باتجاه التسامح، كبيرة ومحورية. خير مثال على ذلك هو بنك إنجلترا الذي كان «أقوى مؤسسة مالية في أقوى دولة في العالم»، والسبب الرئيس وراء انتصار بريطانيا على فرنسا. لقد كان هذا البنك فكرة إسكتلندية، مولها الهوغونيون، ورتب اليهود أكبر صفقات الديون فيها (استثمر بعض الرأسماليين من الهولنديين في ذلك البنك أيضاً). كما قام اليهود بإنشاء سوق الأسهم في لندن، وجلبوا معهم تجارة الألماس وسبائك الذهب إلى بريطانيا، وجعلوا من لندن بمفردهم تقريباً، المركز المالي العالمي بدلاً من أمستردام [١٨].

ولكن لولا المحرك البخاري وفرن صهر الحديد، وهما اختراعان إسكتلنديان، ما كان لبريطانيا أن تبني تلك الوحوش البحرية مثل سفينة HMS Warrior التي وصفها نيال فيرغسون بأنها «التعبير المتألق عن القوة في منتصف العصر الفيكتوري»:

كانت سفينة Warrior العاملة بالقوة البخارية، والمصنوعة من الحديد بسماكة خمس بوصات من الدرع المصفح، والمزودة بأحدث أنواع مغاليق التلقيم، والمدافع لإطلاق القنابل، أقوى سفينة حربية في العالم. كانت من القوة بحيث لم تجرؤ أي سفينة حربية أجنبية أبداً على تبادل إطلاق النار معها. كانت واحدة من أصل ٢٤٠ سفينة حربية تقريباً، وعلى متنها ٤٠٠٠٠ من البحارة، وهو ما جعل البحرية الملكية الأكبر في العالم على الإطلاق. كانت بريطانيا تمتلك بفضل إنتاج أحواض السفن فيها، والذي لم يكن أحد يجاريها فيه، ثالث أكبر أسطول تجاري في العالم. ولم يسبق لقوة في التاريخ السيطرة على محيطات العالم بهذا الشكل [١٩].

باختصار، بينما يعتبر في حكم المستحيل القيام بأي عملية إحصاء كمي في هذا الصدد، فإن الفوائد التي جنتها بريطانيا العظمى من ترويض مواهب، ورأسمال، وعبقرية الجماعات غير الإنجليزية مثل الإسكتلنديين والهوغونيين واليهود كانت هائلة، وذات تأثير كبير على المدى البعيد.

تجاوز التسامح البريطاني في القرن التاسع عشر الاعتبارات الإستراتيجية الصرفة. فقد تقبل الإنجليز إلى درجة مدهشة مُثُلَ عصر التنوير القائمة على مبدأ التسامح، ومارسوها بالفعل. تبنوا مبادئ المساواة الكونية، وسمحوا إلى حد بعيد لأشخاص ينتمون إلى جماعات عرقية ودينية مختلفة بأن يصبحوا من مواطني بريطانيا العظمى، وأن يتمتعوا بكافة الحقوق الاجتماعية والسياسية التي يتمتع بها المواطن الإنجليزي الأصلي.

تجاوزت فكرة «بريطانيا» في الواقع، الحدود القومية والعرقية المتأصلة في النفوس. فبالرغم من أنها كانت أمة في حد ذاتها، نشأت بريطانيا على أساس

اندماجي على الأقل بين ثلاثة شعوب مختلفة، بإمكان كل منها أن تدّعي، وغالباً ما كانت تدّعي، أن لها هويتها القومية الخاصة بها: وهذه الشعوب هم الإنجليز والويلزيون والاسكتلنديون. التزاوج بين عائلات النبلاء كان دليلاً قوياً على أن الحواجز القديمة بين هذه الشعوب بدأت في التهاوي. تضاعفت أعداد الزواجات بين بنات العائلات الأرستقراطية الإسكتلندية والرجال الإنجليز في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأدى هذا إلى نشوء طبقة عليا «بريطانية» جديدة. عندما تزوجت الوريثة الإسكتلندية إليزابيث، كونتيسة مقاطعة "ساذرلاند" من الإنجليزي جورج غرانفيل ليفيسون-غور، حصل هذا الأخير على ٨٠٠٠٠٠ فدان من الأراضي في اسكتلندا. وبينما كانت الكتب المرجعية التي تتناول طبقة النبلاء البريطانيين قبل سنة ١٧٧٠ تعامل النبلاء الإنجليز والويلزيين والإسكتلنديين على أساس أنهم يمثلون كيانات منفصلة، وتفرد لكل منهم مجلداً خاصاً به بحسب انتمائه القومي، إلا أن معظم كتب الدليل عن أصول النبلاء بين سنتيْ ١٧٧٠ و ١٨٣٠ والتي نشرت في بريطانيا، وكان عددها خمسة وسبعين كتاباً، تحدثت عن نبلاء المملكة المتحدة كوحدة متكاملة.

بدأ الويلزيون والإسكتلنديون خلال القرن التاسع عشر يتبوءون أعلى المناصب الحكومية. وأغدقت على اليهود ألقاب "السير" و"البارون". وكان الأكثر لفتاً للانتباه، استلام بنيامين دزرائيلي منصب رئيس الوزراء مرتين: الأولى سنة ١٨٦٨، والثانية سنة ١٨٧٤. وبالرغم من أن عائلته اعتنقت مذهب الكنيسة الأنجليكانية، إلا أن دزرائيلي كان معروفاً بخلفيته اليهودية. كان بإمكان الكوميدي جون هي بيث، بحلول الحرب العالمية الأولى، أن يكتب في محاكاته التهكمية بعنوان: "الإنجليز المضطهدون" The Oppressed English ما يلي:

> في أيامنا هذه، يقود إسكتلندي جيشنا في فرنسا، وآخر يقود الأسطول البريطاني الضخم في البحر، بينما يقوم ثالث بإدارة شؤون طاقم الموظفين الحكومي الإمبراطوري في الوطن. كبير القضاة إسكتلندي، وكذلك وزير الخزانة ووزير

الخارجية. أما رئيس الوزراء فهو ويلزي. مع ذلك، لم يقدم أحد مشروع قانون يعطي الحق في حكم البلاد لإنجلترا [٢٠].

قامت بريطانيا في غضون ذلك، بإجراء أدهش العالم في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حيث قامت بإلغاء تجارة الرق في الوقت الذي كانت هذه التجارة مزدهرة. كانت البحرية الملكية تجوب المحيطات طيلة القرن التاسع عشر، ضمن حملة شنتها ضد الاتجار بالرقيق التي كانت تقوم بها أمم أخرى بين أفريقيا والأمريكيتين. وفرت هذه الحملة لبريطانيا تفوقاً أخلاقياً ليس فقط على منافستها الرئيسة، فرنسا، وإنما على مستعمرتها السابقة أيضاً، وأعني بها الولايات المتحدة الأمريكية. أما تلك الحملة التي كلفت الخزينة البريطانية ملايين الجنيهات الإسترلينية، وذلك في الوقت الذي وصلت إلى ذروة سيطرتها العالمية، فقد طبعت بريطانيا العظمى بتوصيف أطلق عليه القوة «الأكثر أخلاقية» في العالم. وصفت المؤرخة ليندا كوللي هذا الموقف على الشكل الآتي: «أصبحت سياسة إلغاء الرق واحدة من أكثر السياسات التي تؤكد على السيادة البريطانية في العصر الفيكتوري، مقدمة الدليل القاطع، كما بدا ذلك جلياً، على أن القوة البريطانية بنيت على أساس ديني، وكذلك على مبدأ الحرية والمعايير الأخلاقية، وليس فقط على أساس القوة العسكرية الصرفة، أو رأس المال» [٢١].

ولكن كانت هناك إشكالية من نوع ما. فالهوية البريطانية بنيت منذ البداية على أساس متين من البروتستانتية، بعكس أسبانيا وفرنسا[٢٢]. زرع هذا المكون الديني للهوية البريطانية بذور التعصب الذي لم تستطع الإمبراطورية البريطانية التغلب عليه أبداً. في الواقع، خلقت البروتستانتية البريطانية للإمبراطورية مشكلة قاتلة في قلب المملكة المتحدة: ألا وهي مشكلة أيرلندا الكاثوليكية.

المشكلة الكاثوليكية وحدود التسامح «البريطاني»

لم يتلق الأيرلنديون أبداً المعاملة نفسها التي تلقاها الإسكتلنديون والويلزيون من بريطانيا العظمى. كان السبب الرئيس في ذلك هو الدين. أصبح الإنجليز

والإسكتلنديون والويلزيون بحلول سنة ١٧٠٠، في غالبيتهم من البروتستانت، بينما أصر الأيرلنديون بعناد على البقاء على المذهب الكاثوليكي. يعود سبب فقدان بريطانيا العظمى لأيرلندا في كثير من جوانبه إلى القليل من التسامح الذي أبدته الأولى تجاه هذه الأخيرة، والذي أتى متأخراً جداً.

من الصعوبة بمكان المبالغة في التأكيد على استمرار الخلاف الشديد والكراهية المتبادلة بين الكاثوليك والبروتستانت في التاريخ البريطاني. فالتاريخ الطويل من الحروب بين الجانبين خلف إرثاً من العداوة والغضب. وكان الكاثوليك في إنجلترا مثل الساحرات في العصور السالفة، يُحَمّلون كل الأوزار الممكنة، ويتم الاعتداء عليهم جسدياً، أو يعذبون بواسطة إلقائهم في المياه حتى يشرفوا على الهلاك غرقاً. حتى جون لوك، أقصى الكاثوليك في كتابه الشهير Letters on Toleration الذي نشر سنة ١٦٨٩، بسبب أن آراءهم "تؤدي إلى تدمير كل الحكومات ما عدا حكومة البابا." كانت الكاثوليكية تعتبر ليس فقط تجديفية، وإنما بدائية ومغلفة بالخرافات. وبحسب وصف إحدى الصحف الإنجليزية سنة ١٧١٦ فإن "أتباع البابا، هم من عبدة الأصنام؛ فهم يعبدون الصور واللوحات والخشب والحجارة، والأعمال الحرفية التي يصنعها الإنسان، ويتوجهون نحو مريم العذراء والقديسين والملائكة كي يتوسلوا بهم في صلواتهم، كما يعبدون الموتى، ويأكلون إلههم من خلال خدعة ماكرة تتمثل في تحويل خبز القربان إلى جسد المسيح. كما يقسمون أن البابا معصوم" [٢٣].

في الوقت نفسه، كان الكاثوليك بالنسبة إلى العديد من الناس في بريطانيا موضع شبهة في أنهم «خونة» و»متآمرون» ويخططون للقيام بانقلاب على النظام الملكي البروتستانتي. كانت بعض تلك المخاوف لها ما يبررها. ففي سنة ١٦٠١، نزلت قوة غازية قوامها ثلاثة آلاف رجل من الجنود الأسبان بدعوة من زعماء أيرلندا الكاثوليك على الساحل الأيرلندي (حيث تلقوا هزيمة منكرة على يد الإنجليز عشية عيد الميلاد في معركة كينسال). كان النبلاء الأيرلنديون يتحالفون بشكل مستمر

مع أسبانيا الكاثوليكية، وكذلك مع فرنسا في محاولة منهم لطرد مستعمريهم الإنجليز. جرت محاولات أخرى سنة ١٧٠٨، و١٧١٥، و١٧٤٥ على التوالي، وكانت أقرب بكثير هذه المرة، أي في الداخل البريطاني تحديداً، حيث نزلت قوات أوروبية في أسكتلندا حيث كانت تهدف إلى المسير من هناك باتجاه لندن لمساعدة أسرة ستيوارت الكاثوليكية في استعادة العرش.

كانت أعمال العنف ضد الكاثوليك تتكرر غالباً في بريطانيا في القرن الثامن عشر بدءاً من غلاسكو، مروراً ببرمنغهام، وصولاً إلى باث. وكانت أسوؤها على الإطلاق تلك التي وقعت في غوردون سنة ١٧٨٠. اندلعت أعمال العنف هذه في البداية للمطالبة بإلغاء قانون إنصاف الكاثوليك الذي منح الكاثوليك حقوقاً جديدة تتمثل في المشاركة في الحقوق. تحولت مظاهرة قامت بها عصابة مكونة من حوالي ٦٠٠٠٠ من الرعاع بسرعة إلى أعمال عنف. ذكر أحد شهود العيان أن تلك «الحرائق كانت مذهلة إلى درجة تفوق الوصف؛ كان النوم والراحة أمران لا يمكن لأحد التفكير فيهما، وقد سيطر الرعب على كل شيء.» استمرت أعمال العنف في غوردون على مدى أسبوع كامل. وفي النهاية، أُضرمت النيران في أكثر من مئة كنيسة ومنزل تابع للكاثوليك ونُهبت محتوياتها، كما قُتل في تلك التظاهرات أكثر من ثلاثمئة شخص، قضى العديد منهم حرقاً[٢٤].

هل كان بمقدور الإنجليز والإسكتلنديين تقبل فكرة أن يكون الأيرلنديون مواطنين بريطانيين؟ هل كان باستطاعة بريطانيا البروتستانتية أن توسع دائرة الحرية الدينية والحقوق السياسية للبابويين «الجهلة» و«الكسالى» و«الطغاة»؟ خطت بريطانيا خطوات مهمة في هذا الاتجاه بعد انتهاء أعمال العنف في غوردون. صدر قانون اتحادي جديد سنة ١٨٠٠يقضي بضم أيرلندا إلى المملكة المتحدة. وفي سنة ١٨٢٩، صدر قانون إلغاء الرق الذي منح الكاثوليك حق التصويت في الانتخابات والترشح للبرلمان، بالرغم من أنهم مثل اليهود آنذاك، كانوا محرومين من دخول الجامعات الأكثر عراقة، وكذلك من تبوء مناصب عليا في الدولة. بحلول سنة

١٨٣١، كان ما يربو على ٥٨٠٠٠٠ من الأيرلنديين يعيشون في كل من أسكتلندا وإنجلترا، وكانوا يشكلون ما نسبته خمسة في المئة من القوة العاملة؛ وقد مثل ذلك زيادة بلغت اثني عشر ضعفاً عما كان الأمر عليه سنة ١٧٨٠. عندما احترقت مباني البرلمان سنة ١٨٣٤، كان أحد كبار المهندسين المعماريين الذين أعادوا بناء القصر الجديد في ويستمينيستر، والذي تحول فيما بعد إلى واحد من الرموز الإيقونية للقوة الإمبراطورية لبريطانيا العظمى، من الروم الكاثوليك الأصوليين.

مع ذلك، كانت الوقائع على الأرض في أيرلندا ما تزال تشهد استعباداً مستمراً للأيرلنديين، وإهانة لهم. فالقوانين الجزائية التي تم إقرارها في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تمنع الكاثوليك من تبوء مناصب حكومية وحسب، بل انتزعت منهم - فعلياً - ممتلكاتهم الخاصة. بالإضافة إلى ما تقدم، شهدت أيرلندا موجات متلاحقة من «التوطين»، أي استعمار أيرلندا من خلال استقدام مستوطنين بروتستانت بدعم من الحكومة، وقد أدى هذا إلى نشوء طبقة بريطانية حاكمة جديدة في كافة أنحاء البلاد. عندما تم تحرير الأيرلنديين الكاثوليك سنة ١٨٢٩، كانت الغالبية الساحقة منهم تعيش في فقر مدقع، وكان هؤلاء يقتاتون على البطاطا، والزبدة المستخرجة من الحليب، وكانوا يدفعون الإيجار لحفنة من النبلاء الإنجليز الذين كانوا يضعون أيديهم على ما نسبته تسعين في المئة من الأراضي الأيرلندية القابلة للزراعة. وكان ينظر إلى الثقافة الأيرلندية واللغة الأيرلندية نظرة دونية، حيث هُمشت بشكل مطرد. أصيبت أيرلندا في أربعينيات القرن التاسع عشر بوباء مدمر حصد محصول البطاطا. وبالرغم من أن ذلك الوباء كان قد أطلق عليه وصف «المجاعة»، إلا أن كميات كبيرة من هذا المحصول الغذائي الضروري للمحافظة على حياة الأيرلنديين كانت ما تزال تُنتَج؛ ولكن لسوء الحظ، استمر مالكو الأرض البريطانيون في شحن هذا المنتج إلى الخارج محققين من ورائه أرباحاً طائلة، وتاركين في الوقت نفسه، مليوناً من الأيرلنديين، الذين كان جميعهم تقريباً من الكاثوليك، يموتون جوعاً.

وهكذا، لم يشمل «التسامح» البريطاني الجديد الأيرلنديين الكاثوليك في القرن التاسع عشر. تلقى معظم الأيرلنديين قانون الاتحاد الذي صدر سنة ١٨٠١ ليس كدليل على الرغبة في ضم الأيرلنديين إلى الاتحاد، بل ذريعة سياسية من أجل إلغاء برلمانهم الخاص بهم، وربما كانوا محقين في ذلك. حتى الحقوق التي حصلوا عليها سنة ١٨٢٩، كانت جوفاء بالنسبة للكثيرين من الأيرلنديين الكاثوليك الذين بقوا في الواقع، في موقع التبعية والاعتماد الكلي على مستعمريهم البروتستانتيين. في أعياد الفصح سنة ١٩١٦، وبينما كانت بريطانيا تخوض الحرب، انتفض بعض المتمردين الأيرلنديين من الكاثوليك في مدينة دبلن، وقاموا بالاستيلاء على بعض المباني معلنين استقلالهم، إلا أن هذا التمرد تم سحقه؛ لكن البريطانيين وافقوا في عشرينيات القرن العشرين على قيام دولة أيرلندية حرة ومستقلة، أصبحت تعرف منذ سنة ١٩٤٩ بجمهورية أيرلندا (في الوقت الذي احتفظ البريطانيون بأيرلندا الشمالية بوصفها جزءًا من المملكة المتحدة) [٢٥].

كان الاستقلال من وجهة نظر الأيرلنديين إنجازاً تحقق بعد جهد جهيد، وكان (لو وضعت مشكلة أيرلندا الشمالية جانباً) مدعاة للفخر والاحتفال. إلا أن خسارة أيرلندا بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية، شكلت ضربة سياسية قاسية جداً لهذه الأخيرة. كانت خسارة المستعمرات البريطانية في الأمريكيتين أسهل من نواحٍ عديدة على البريطانيين من خسارتهم لأيرلندا. قد يكون من المنطقي أن يعجز البريطانيون سنة ١٧٧٦عن المحافظة على سيطرتهم على شعوب صعبة المراس في المستعمرات الحدودية التي تبعد عنهم ثلاثة آلاف ميل، ويفصل بينهم المحيط؛ إلا أن خسارة المملكة المتحدة نفسِها لجزءٍ منها، لا يبعد عن البر البريطاني أكثر من رمية حجر، فهي مسألة مغايرة تماماً.

من المؤكد أن هناك شروخاً لغوية وثقافية وقومية وسياسية كانت دائماً تفصل بين البريطانيين والأيرلنديين. لكن أياً من هذه الشروخ، لا يمكن أن يكون مبرراً لخسارة بريطانيا لأيرلندا. لقد حوّل الإنجليز الويلزيين الذين استعمروهم إلى

بريطانيين. كما جعلوا من لندن مركز استقطاب لليهود الذين طالما أظهروا نحوهم الكثير من الاحتقار. وقاموا بضم خمسين ألفاً من الهوغونيين المولودين خارج بريطانيا والناطقين بالفرنسية وتأهيلهم. كما استوعبوا الإسكتلنديين الذين كانوا في السابق يخشونهم وينحون باللائمة عليهم، وتحول هؤلاء بموجب ذلك إلى أهم بناة الإمبراطورية وأكثرهم فاعلية. في كل واحدة من هذه الحالات، كان الإنجليز يتجاوزون تحاملهم على هذه الجماعات، ومن ثَم، يكسبون ولاء هذه الجماعات ويَفيدون من مواهب أفرادها.

لكن مقارنة ما تقدم، بوضع أيرلندا يدل على واقع فاضح ومأساوي. كانت خسارة بريطانيا لأيرلندا بمعنى من المعاني، دلالة على فشل سياسة التسامح. صحيح أن بريطانيا اتخذت في القرن التاسع عشر خطوات حقيقية باتجاه تحقيق المساواة للكاثوليك - بالرغم من أن الكاثوليك ما يزالون ممنوعين حتى الآن من التفكير باعتلاء العرش البريطاني - إلا أنها كانت خطوات قليلة، وأتت متأخرة جداً. قام البريطانيون البروتستانت على امتداد قرون طويلة تميزت بالحروب والاضطهاد بتحويل الأيرلنديين الكاثوليك إلى طبقة دونية يهلكها الفقر، والحط من شأن ثقافتهم وعقيدتهم الدينية، ومصادرة أراضيهم وممتلكاتهم، ومحو لغتهم، وفي أفضل الأحوال، التسبب من خلال اللا مبالاة التي أظهروها حيالهم، في مقتل أو فرار الملايين منهم خارج أيرلندا. ولهذا، فمن غير المستغرب بعد هذا كله، ألاّ يرى معظم الأيرلنديين أنفسهم كبريطانيين.

من المفهوم أن الأمور كان يمكن أن تأخذ منحى آخر، بالرغم من أن ذلك يستوجب شطحة من خيال. فلو تعامل البريطانيون مع الأيرلنديين بروح التسامح الإستراتيجي الذي أظهروه للإسكتلنديين، لكانت أيرلندا الآن، باقتصادها المزدهر ما تزال جزءاً من المملكة المتحدة. لكن بريطانيا لم تنفتح على الأيرلنديين الكاثوليك الطريقة نفسها، وربما لم تفعل، لأنها لم تستطع القيام بذلك.

هناك حكاية موازية تسترعي الاهتمام، وقد كُشِف النقاب عنها ضمن الممتلكات الإمبراطورية غير البيضاء لبريطانيا. فبينما بدأت البروتستانتية تفقد ثقلها المركزي بالنسبة للهوية البريطانية في القرن التاسع عشر، وبينما توسعت الإمبراطورية لتشمل كافة أرجاء المعمورة، بدأ البريطانيون يؤكدون على «بياض بشرتهم» وعلى «حضاريتهم» بالمقارنة مع الشعوب التي استعمروها. أدى هذا التعصب ببعديه العنصري والعرقي إلى وضع قيود وحواجز على التسامح البريطاني في العالمين الآسيوي والأفريقي تشبه إلى حد بعيد مثيلاتها التي أدت إلى التحامل المتجلي في معاداة الكاثوليكية الذي مورس على الأيرلنديين. وأكثر ما تجلت هذه القيود والحواجز في الهند، «جوهرة الإمبراطورية».

عصر التنوير والإمبراطورية
صعود حكم الراجا وسقوطه

عندما كانت بريطانيا العظمى تقترب من أوج قوتها سنة ١٨٥٨، أصدرت الملكة فيكتوريا الإعلان الشهير الذي أعلنت بموجبه أن بريطانيا ليس لها الحق أو الرغبة في «فرض معتقداتها على أي من رعاياها» ووعدت بتطبيق «المساواة الكاملة بين الأوروبيين وسكان البلاد الأصليين.» كان الدافع وراء هذه التأكيدات الوردية ظروفاً غير وردية. فقبل سنة على صدور ذلك القرار، قام المتطرفون المسلمون والهندوس في شمال غرب الهند بذبح المئات من النساء والأطفال البريطانيين. وفي رد انتقامي، قام الجنود البريطانيون بربط الهنود إلى فوهات المدافع، ومن ثم، تفجيرهم إلى أشلاء، كما قاموا بإعدام آلاف آخرين منهم شنقاً ورمياً بالرصاص، وربما تجاوز ذلك العدد عشرات الآلاف من الضحايا.

من المحزن القول إن إعلان الملكة فيكتوريا عن «المساواة الكاملة» كان خالياً من المضمون. فقد استمر البريطانيون في حكمهم الاستبدادي للهند، ولم يسمحوا لرعايا الملكة من الهنود بأي تمثيل سياسي على الإطلاق. ولم يكن هذا في الهند وحدها،

وإنما في كل مستعمراتها التي تقطنها شعوب لا تنتمي إلى العرق الأبيض. لم يرتقِ البريطانيون إلى مستوى مثلهم ومبادئهم حول التسامح المتنور الذي كانوا يدعون اعتناقه. من ناحية أخرى، كان البريطانيون يجيدون هذه اللعبة عندما كان الأمر يتعلق بالتسامح المبني على أسس إستراتيجية، كالتجنيد وتقديم المكافآت واستخدام أفراد من جنسيات وأعراق وديانات مختلفة من أجل صالح الإمبراطورية.

عندما وصل عملاء شركة شرق الهند الإنجليزية إلى الهند، كانت الإمبراطورية المغولية في مرحلة احتضار، وكانت تتفتت بفعل الأورام التي سببها التعصب البغيض الذي مارسته. وجد مديرو شركة شرق الهند أن هناك فراغاً في السلطة منشؤه انهيار الإمبراطورية المغولية، فما كان منهم إلا أن قاموا بملء ذلك الفراغ. قامت الشركة أساساً باتباع الإستراتيجية نفسها التي مارسها كل من الأباطرة الفرس والتانغيين. فقد قاموا بتصنيف وحدات المحاربين من رعاياهم من الشعوب المستعمرة - كما فعلوا على سبيل المثال مع الراجبوتيين من ذوي الأصول الشمالية، والذين كان لهم باع طويل في التقاليد العسكرية - ومن ثم تجنيدهم لفتح أراضٍ أكبر مساحة وأكثر سكاناً، ثم السماح لهم بحكمها؛ ولولا ذلك ما كان بإمكان الإنجليز السيطرة على تلك المناطق. وصل عدد أفراد الجيش التابع لهذه الشركة في ذروة قوتها إلى ما يربو على ٣٢٠٠٠٠ جندي، لم يشكل الأوروبيون من بينهم سوى ٤٠٠٠٠ جندي. تحولت شركة شرق الهند إلى أعظم قوة في شبه القارة الهندية بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وكانت تتربع على قمة أكبر إدارة حكومية، وتحت إمرتها أكبر الجيوش، وتحكم شعوباً يبغ تعدادها أكثر من مئتي مليون. وصف المؤرخ هيثكوت الصورة كما يأتي: «أصبحت شركة شرق الهند وريثة المغول فيما يعرف بالإمبراطورية الهندية اللاحقة» [٢٦].

بعكس الإمبراطور المغولي أورانغزيب الشديد التعصب، مارست الشركة الحكم بتسامح، ليس من منطلق المبادئ والمثل، بل من منطلق المصالح؛ وقد اتبعت في ذلك مبدأ "ويللينغتون" القائل بأن التدخل في «قوانين الهند القديمة، وفي عاداتها

وديانتها» له عواقب خطيرة من الناحية السياسية. كان جيش بريطانيا الهندي يضم مسلمين وهندوس ومسيحيين وسيخ، بالإضافة إلى بعض الأفارقة والعرب. وكان من المسموح للجميع ممارسة طقوسهم الدينية كيف شاءوا. وكان الضباط البريطانيون يحضرون بأوامر من الشركة، الصلوات الدينية لأتباع تلك الديانات الأصلية. وكانت الوحدات العسكرية والمدافع موجودة للمشاركة في تلك الاحتفالات. حافظ مديرو الشركة الذين حلوا محل الملوك والأمراء في واقع الأمر على المعابد الهندوسية، وكانوا يجمعون الضرائب لصالح الحج إلى المواقع الدينية [٢٧].

كانت مصالح الشركة التجارية والحكومية في الهند هي التي تقوم بتحديد نفس مبادئ ذلك التسامح المدروس. جنت الشركة الكثير من الفوائد من خلال التحالفات التي عقدتها مع مقاولين ينتمون إلى أقليات عرقية من البلاد المستعمرة، والذين كان معظمهم يعمل في خدمة الأباطرة المغوليين. استطاعت الشركة أن تنفذ إلى الداخل الهندي من خلال عقد شراكة مع رأسماليي البلاد الأصليين مثل شركة "اليانيين الهنود" لإقراض الأموال، وعائلات "الغوجاراتي" المصرفية، والتجار الهندوس والزرادشتيين، والدوباشيين في مدراس، والبانيين في البنغال. وقد سمح تجار الشركة البريطانيون لنظرائهم الهنود بجني أرباح طائلة، وذلك في معرض تحويلهم إلى «متعاونين صعاب المراس بهدف إنشاء الهند المستعمرة.» في الوقت ذاته، قامت الشركة باستخدام المزيد من العمال الهنود موظفين صغارًا، وذلك لإدارة الأراضي الجديدة التي تتوسع شيئاً فشيئاً. تُعَد هذه الإستراتيجية نموذجاً حديثاً يشبه النموذج الذي اتبعه جنكيز خان. اختارت الشركة طاقماً من الموظفين والنخب الهندية من الموالين للإنجليز بغية تدريبهم كي يسيروا الأعمال الإدارية اليومية تحت الإشراف البريطاني [٢٨].

من الجدير بالاهتمام ملاحظة أن القيمين على الشركة أبدوا انفتاحاً مشابهاً على «الطاقات» المحلية عندما كان الأمر يتعلق بحياتهم الجنسية. خلال فترة حكم الشركة للهند الممتدة من سنة ١٧٥٧ إلى سنة ١٨٥٨ تقريباً، كان الزواج بين الرجال

البريطانيين والنساء الهنديات أمراً شائعاً. وكان من الشائع أيضاً قيام علاقات جنسية بين أشخاص ينتمون إلى أعراق مختلفة أكثر بكثير من الزواج المختلط. كتب أحد الإنجليز، مشيراً إلى أيامه الأولى في الهند عندما كان طالباً عسكرياً لصالح الشركة في سن السادسة عشرة: «بدأت الآن أولى تجاربي الجنسية الطبيعية مع نساء البلاد المحليات». كما عبّر أحد موظفي الشركة عن هذا الموضوع بطريقة فلسفية أكثر صقلاً: «كل أولئك الذين عاشوا مع النساء المحليات مدة من الزمن طالت أم قصرت، لا يمكن أن يقبلوا بالزواج من أوروبية أبداً؛ فالنساء المحليات مسليات ولعوبات، ويهمهن جداً إرضاء الرجل وإشباع رغباته لدرجة أن أي شخص يتعود على مجتمعهن، سوف يطرد من ذهنه فكرة الانصياع إلى نزوات وأوهام أي امرأة إنجليزية».

أثارت مثل هذه الممارسات غير الشرعية التي كان يقوم بها رجال الشركة على الصعيدين الجنسي والديني حفيظة رجال الكنيسة الإنجليز في لندن. فهؤلاء لم يعتبروا التفوق المسيحي على «الخرافات المشينة والمهينة» السائدة في الهند مجرد لغط لفظي. أعلن وليام ويلبرفورس في مجلس العموم البريطاني سنة ١٨١٣ أن «ديننا سامٍ وطاهر وخيّر؛ لكن دينهم وضيع وفاسق وفظ.» كما طالب ويلبرفورس البرلمان برفع القيود التي وضعتها الشركة ضد قيام المسيحيين بالتبشير في الهند. استطاعت الحركة الإنجيلية بمرور الوقت فرض نفوذ أكبر، وحضور أقوى في عملية صياغة السياسة الإمبراطورية البريطانية.

ولكي يتم وضع حل لمسألة العشيقات المحليات، تم إقناع الشركة بالبدء في عملية نقل شابات بريطانيات بواسطة السفن إلى الهند. كان وصول «أسطول الصيد» هذا حدثاً مميزاً في التقويم الاجتماعي لمدينة كلكوتا في القرن التاسع عشر. كانت العازبات اللواتي يحدوهن الأمل «يقفن» في صفوفٍ لثلاث ليالٍ على التوالي في حفلات كان ينظمها أعضاء المجتمع البارزين من البريطانيين في كلكوتا، في الوقت الذي كان الجنود والضباط المؤهلون للزواج من مختلف الأعمار يقومون باستعراضهن. وبعد

مرور سنة، كانت كل من تفشل في الحصول على زوج، توضع على متن سفينة تعيدها إلى إنجلترا.

نجحت البعثات التبشيرية سنة ١٨٢٩ في الدفع باتجاه فرض حظر على الطقس الاجتماعي المسمى "الساتي" وهو عبارة عن طقس هندوسي تقليدي يقضي بوجوب انتحار الأرملة بعد إتمام عملية إحراق زوجها المتوفى. يُعد هذا الحظر بمثابة التدخل البريطاني الواضح الأول من نوعه في أحد الطقوس الهندية الدينية المهمة، وقد أدى ذلك كما تخوف مسؤولو الشركة إلى احتجاجات واسعة النطاق بين أفراد الغالبية الهندوسية. حصلت البعثات التبشيرية سنة ١٨٣٣ على الحق بالتبشير وإقامة مدارس خاصة بها في الهند من دون موافقة الشركة. أما في سنة ١٨٥٠، وفي مخالفة صريحة للقانون الهندي، أقر البريطانيون تشريعاً يسمح للهنود الذين تحولوا إلى المسيحية بالحصول على حقهم من الإرث. وفي سنة ١٨٥٦، سنّ البريطانيون قانوناً شرّعوا بموجبه حق الأرملة الهندية في الزواج ثانية. وقد أثار قرار البعثات التبشيرية فتح المجال أمام النساء للحصول على حقهن في التعليم، وتبني الأيتام المنبوذين وتحويلهم إلى المسيحية، غَضِب مسلمي الهند بشكل خاص[٢٩].

لم يكن الإنجيليون الوحيدين بين البريطانيين الذين أبدوا رغبة في تحويل الهنود إلى النمط الإنجليزي وجعلهم حضاريين. كان هناك أيضاً «الحداثيون» مثل الحاكم العام الإسكتلندي الأصل، جيمس دالوزي الذي قام بمد شبكة الخطوط الحديدية والتلغراف، وأحضر معه إلى الهند الابتكارات الحديثة المبدعة. ولكن من قبيل المفارقة، أدى أحد هذه الابتكارات إلى اندلاع حريق هائل، كان الأسوأ في تاريخ الراجا.

كانت بندقية "إينفيلد" التي صممت سنة ١٨٥٧، من قبل أحد الإسكتلنديين، تشكل انتصاراً للتكنولوجيا. كل ما كان على الجندي القيام به هو نزع رأس الخرطوشة المخصصة لهذه البندقية من خلالها قضمها بأسنانه كي تصبح هذه

البندقية المزودة بأخمص جاهزة للإطلاق بضعف سرعة ومدى البندقية ذات الفوهة التي تحتاج إلى التلقيم. سرت لسوء الحظ شائعات، ربما كانت صحيحة، مفادها أن خرطوشة بندقية إينفيلد مدهونة بخليط من دهن البقر والخنزير. كانت فكرة ملامسة هذه الخرطوشة لشفتي الجندي الهندي بمثابة التدنيس له، نظراً لأن المسلمين يعدون الخنزير حيواناً نجساً؛ أما الهندوس فيعدون البقر حيواناً مقدساً. كان الهنود مقتنعين في واقع الأمر بأن بندقية إينفيلد هي جزء من «خطة سرية وضعتها البعثات التبشيرية من أجل تدنيسهم» وفرض الديانة المسيحية على الهند. وفوق هذا وذاك، كان البريطانيون قد ضموا إقليم "أوض" الغني بالموارد بالقوة، وخلعوا ملكه بشكل مهين، وقد اعتبر هذا الفعل تعدياً فاضحاً على الحرمات ذلك أن ٧٥٠٠٠ جندي في ذلك الجيش الذي غزا إقليم "أوض" انحدروا من ذلك الإقليم.

رفضت المجموعة تلو الأخرى من الجنود الهنود تلقيم بنادق إينفيلد الجديدة، وفي كل مرة كان يحدث ذلك، كان الجنود الذين يعصون الأوامر يتم تسريحهم من الخدمة بسرعة، ويطلب إليهم تسليم بزاتهم العسكرية وأسلحتهم، ويجردون من امتيازات التقاعد. وفي التاسع من شهر أيار، مايو، سنة ١٨٥٧، تم تقييد خمسة وثمانين جندياً من أعضاء فرقة الخيالة المحلية الثالثة في مقاطعة "ميروت" وزجهم في السجن لقيامهم بهذا النوع من العصيان. في اليوم اللاحق، أعلنت الحامية المحلية بكاملها العصيان بينما كان ضباطها البريطانيون يؤمون الكنيسة في قداس يوم الأحد، وهاجم أفرادها السجن حيث قاموا بتحرير رفاقهم. وقد وصف أحد الجنود البريطانيين ما حدث على الشكل الآتي:

> كانت هناك انتفاضة مفاجئة ... حدث اندفاع باتجاه الخيول التي تم امتطاؤها بسرعة واقتيدت باتجاه السجن ... فتحت البوابات عنوة، وتم تحرير ليس فقط المتمردين الذين سجنوا بموجب قرارات صادرة عن محاكم عرفية، بل أكثر من ألف من المجرمين الخطرين والأوغاد من كل شاكلة. في الوقت نفسه، قام أفراد وحدة المشاة المحلية بذبح ضباطهم الإنجليز وقتل النساء والأطفال بطريقة يعجز عن وصفها اللسان.

توجه الجنود الذين أفلتوا من عقالهم ترافقهم عصابات من المدنيين إلى دلهي، وقاموا «بإشعال الحرائق في البيوت، وقتل كل شخص أوروبي يصادفونه في طريقهم من الرجال أو النساء أو الأطفال» امتد ما أطلق عليه البريطانيون وصف «التمرد» إلى كافة أنحاء الهند بحلول نهاية شهر أيار، مايو.

وقع بعد ذلك التمرد أعمال قتل وحشية من كلا الجانبين مدة سنتين تقريباً. ففي مقاطعة "كونبور" تم قتل مئتان من النساء والأطفال البريطانيين بعد أن استسلمت الحامية البريطانية، وقد مُثّل بالعديد من هؤلاء وهم أحياء إلى أن لفظوا أنفاسهم الأخيرة. في المقابل، رد البريطانيون بطريقة انتقامية بربرية ووحشية. تحولت عملية «مطاردة المتمردين» إلى «أفضل رياضة» مارسها الجنود البريطانيون، عندما كانوا يغرسون رؤوس حرابهم التي يبلغ حجمها اثنتي عشرة بوصة في أجساد أسراهم الهنود، والتي أعادوا تسميتها بعشاء كونبور لأنها كانت تغرس في معدة الضحية مباشرة. وفي بيشاور، قيل إن من اشتبه بانتمائه إلى المتمردين، كان يربط إلى فوهة المدفع ويفجر جسده الذي يتحول إلى أشلاء. أما هناك في لندن، فقد كانت رسوم الكاريكاتير تظهر أطراف أجساد الهنود وهي تتطاير في الهواء وسط سحب من الدخان. وفي دلهي، قام الجنود البريطانيون «بشنق جميع القرويين الذين تعاملوا بسوء مع اللاجئين إلى أن غطى أولئك "الأوغاد" جميع الأشجار التي كانت جثثهم تتدلى من أغصانها. وفي كونبور، أُجْبر المسلمون على تناول لحم الخنزير، والهندوس على تناول لحم البقر قبل أن يتم إعدامهم أمام مرأى الجنود الذين كانوا يطلقون صيحات الاستهجان. لم تقتصر عمليات الإعدام على المتمردين وإنما شملت الفتيان والكبار في السن والخدم المحليين الذين أعدموا رمياً بالرصاص بدم بارد. يعود أحد الضباط الإنجليز بالذاكرة إلى ذلك اليوم الذي قتل فيه اثني عشر شخصاً، وكان يتطلع بلهفة إلى قتل المزيد: «شعرت يومها بأن قلبي تحول إلى كتلة من الصخر، وبأن دماغي تحول إلى كتلة من اللهب.» [٣٠].

أثار ذلك التمرد موجات من تبادل الاتهامات ومساءلة الذات في إنجلترا. استفاق البريطانيون على الحقيقة غير السارة التي تظهر بشكل واضح أنهم لم

يعودوا مثار إعجاب ملايين الوثنيين من ذوي البشرة الداكنة، والذين يرزحون تحت حكمهم. فما الذي كانت تقوم به بريطانيا بالضبط في أماكن كالهند - أو جامايكا حيث حدثت هناك في سنة ١٨٦٥ انتفاضة لا تقل عنفاً، قام بها عبيد محررون ناكرون للجميل؟

انتشرت على إثر ذلك في كل أرجاء بريطانيا نقاشات حامية، لكن شيئاً واحداً مؤكداً حصل في سبعينيات القرن التاسع عشر: فبدلاً من أن يقوم الإنجليز بالانسحاب، عادوا إلى التمسك بفكرة بريطانيا الإمبراطورية. حُلَّت شركة شرق الهند، ووضعت الهند تحت حكم التاج البريطاني مباشرة. وفي سنة ١٨٧٦، احتفل في بريطانيا بكثير من الصخب والاستعراض بتنصيب الملكة فيكتوريا إمبراطورة على الهند. في كلمة شهيرة ألقاها، تحدى دزرائيللي أبناء بلده أن يختاروا بين أمرين: إما «إنجلترا منكفئة ومرتاحة» أو «بلداً عظيماً، أي بلداً إمبراطورياً يفرض على العالم احترامه». اختار الإنجليز الأمر الثاني. منذ ذلك الحين، أصبحت الإمبراطورية المصدر المرجعي للكبرياء الوطنية بالنسبة للبريطانيين، سواء كانوا من الطبقة العاملة أم من الأرستقراطيين.

ولكن أي نوع من الإمبراطورية كانت؟ لكل من الحزبين الرئيسيْن في بريطانيا جواب مختلف عن هذا السؤال؛ ولكن الجوابين يتسمان بنفس القدر من التناقض مع الذات. فقد كان المحافظون يمجدون فكرة الهرمية، وكانوا يكنون أيما إعجاب للإمبراطوريتين المغولية والرومانية، وهكذا فقد أبرموا تحالفاً مع إقطاعيي الهند وأمرائها المحليين. في الوقت ذاته، كانوا متمسكين بصورة لا لبس فيها بفكرة تفوق العرق الأبيض. كانت تلك الاختلافات العرقية غير القابلة للتغير من وجهة نظر العديد من المحافظين البريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر، والتي أصبحت مثار جدل كبير اتخذ مساراً شبه علمي، تفسر ليس فقط حق البريطانيين المكتسب في حكم رعاياهم الهنود ذوي البشرة الداكنة، وإنما الانقسامات داخل المجتمع الهندي نفسه. وهكذا فقد قام رايزلي، عالم الأعراق والمفوض العام للإحصاء في الهند

بتصميم «دليل بالحروف الأنفية» يبرر مقولة تفوق العرق الأبيض، وكذلك نظام الطوائف الاجتماعية في الهند. كتب في هذا الصدد ما يأتي: «لو أخذنا سلسلة من الطوائف الاجتماعية... وقمنا بترتيبها بحسب نظام دليل الحروف الأنفية العادي، بحيث تأتي الطائفة التي تمتلك الأنف الأكثر جمالاً في مقدمة القائمة، وتأتي الطائفة ذات الأنف الأكثر قبحاً في آخرها، فسنجد أن هذا النظام سيتوافق بشكل أساس مع نظام الأولوية الاجتماعية المتعارف عليه.»

أما الليبراليون الذين كانوا يقبعون في الطرف الآخر، فقد كانوا في أدبياتهم على الأقل، إمبراطوريين أكثر تردداً. أظهر هؤلاء الليبراليون بعكس المحافظين، ولاء مصطنعاً لمبدأ المساواة الإنسانية التي تشمل الكون بأسره، وربما حاولوا أحياناً تطبيق هذا المبدأ. كان الحكم الإمبراطوري البريطاني مبرراً بالنسبة إليهم ليس بسبب أن الهنود هم أدنى مستوى من الناحية العرقية، بل لأن الهنود كانوا متخلفين وغير حضاريين، وغير جاهزين لحكم أنفسهم بأنفسهم، لأسباب تتعلق بتاريخهم وثقافتهم (وربما مناخ بلادهم أيضاً). كانوا كالأطفال بحاجة إلى وصاية. عبر عن ذلك الفيلسوف الشهير والعالم بشؤون الهند جون ستيوارت ميل بالقول: إن الحكم الذاتي ليس «مناسباً» لجميع الشعوب التي تستعمرها بريطانيا، والتي لا يرقى بعضها «ثقافياً أو تطوراً إلا بنسبة ضئيلة جداً فوق مستوى الحيوانات». لكن ما يطمئن هو أن التطور يمكن أن يكون متاحاً لجميع الأعراق؛ فلو أن يد المساعدة امتدت على سبيل الافتراض، إلى الهنود، خصوصاً في مجاليْ القانون والتعليم، فإنه من الممكن لهم أن يصبحوا (في المستقبل البعيد وغير المنظور) في مستوى الإنجليز.

كانت هناك نقطة تلاقٍ بين المحافظين والليبراليين في أعقاب التمرد الذي ساد الهند. فقد أجمع الطرفان على أن خطأ بريطانيا الفادح تمثل في «عبثها السافر في القضايا الدينية»، ومحاولتها «فرض نظم أجنبية على عادات الشعوب وأمانيها.» وهكذا، فبدلاً من محاولة فرض الديانة المسيحية على الهند، انضم بعض رجال الدولة من المحافظين أمثال دزرائيللي إلى الليبراليين في الإعلان عن التزام جديد

بالتسامح الديني وعدم التدخل في العادات المحلية. (لهذا أصدرت الملكة فيكتوريا حينها وعدها الشهير بعدم فرض المعتقدات البريطانية على أي من رعايا بريطانيا في المستعمرات.) كان هذا الالتزام يرقى إلى مستوى المبدأ، لكنه كان مناسباً جداً لتطبيق إستراتيجية فرّق- تسد. وقد تجلت هذه الإستراتيجية بأوضح صورها عند قيام بريطانيا بإعادة بناء الجيش الهندي في أعقاب حركة التمرد [٣١].

أعيد بناء الجيش الهندي بقصد فصل الهنود عن بعضهم بعضاً، وتجميعهم ضمن جماعات وأفواج على أساس انتماءاتهم المناطقية، وخلفياتهم وطوائفهم الاجتماعية. تم تصميم ملابس عسكرية جديدة من أجل التمييز بين الجنود بحسب خلفياتهم الدينية والمناطقية المتنوعة. فمثلاً كان الغوركيون الأقرب إلى التماثل مع الإنجليز من الهنود الآخرين، مزودين ببنادق، ويلبسون ثياباً عسكرية خضراء مخيطة على النمط الغربي، بينما كان بقية الجنود يرتدون سراويل فضفاضة. وكان البريطانيون في كثير من الحالات يطالبون جنودهم الهنود بارتداء ألبسة تقليدية مميزة. وكما أشار العديد من المؤرخين، فقد قام الضباط البريطانيون بابتكار هوية مميزة للجنود من أتباع طائفة السيخ، والذين طلبوا منهم حمل الخناجر، وارتداء العمامة. ولما لم يكن لدى الجنود السيخ هذه التجهيزات، قام البريطانيون بتزويدهم بآلاف من الخناجر التي صنعت خصيصاً في مدينة شيفيلد البريطانية، وتم شحنها إلى الهند. بهذا الأسلوب استطاع البريطانيون ليس فقط احترام التقاليد المحلية المتنوعة في المناطق المختلفة، بل تعميق الانقسامات داخل المجتمع الهندي واستغلالها.

بذل الضباط البريطانيون في الوقت نفسه جهوداً مضنية من أجل تثبيت حق ممارسة الطقوس المحلية. فقد سمح للهندوس بتقديم قرابين للإلهة "كالي" عشية اندلاع أي معركة. أما الجنود البرهميون فقد سمح لهم بممارسة الطقس الطويل المتمثل في تحضير الطعام، حتى لو أدى ذلك إلى إبطاء مسير الفوج. أكد اللورد روبرت قائد الجيش الهندي من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٣ على ضرورة «فعل أي

شيء من أجل ضمان رضا وولاء جيش المحليين من خلال إبداء الاحترام الشديد لتقاليدهم ودياناتهم.

كانت تلك المناورات والمجاملات التي قام بها البريطانيون فاعلة جداً. كتب أحد الجنود المسلمين في شهر رمضان ما يأتي: «قام العقيد "صاحب" بترتيبات رائعة، وبذل جهوداً كبيرة من أجلنا نحن المسلمين. كانت الترتيبات التي أمر بإجرائها من أجل طعام الإفطار خلال مدة صيامنا ممتازة، فقد وضعنا جميعاً في مجموعة واحدة لأنه من الصعب علينا خلال مدة الصيام أن نعيش مع السيخ والدوغريين. لا أستطيع أن أصف كم كانت ترتيباته لنا ممتازة.» كما عبر أحد الجنود السيخ عن تقديره لما كان يحدث في ظل البروتوكول البريطاني «حيث كانت الحيوانات التي تعد من أجل إطعام الجنود السيخ، تذبح حسب التقاليد السيخية بواسطة أحد أفراد طائفة السيخ تحديداً، وذلك بضرب الحيوان بالسيف على رقبته من الخلف، بينما كانت الحيوانات التي تعد من أجل إطعام الجنود المسلمين تذبح من قبل أحد الجنود المسلمين على الطريقة الإسلامية، أي بجزها من العنق.» وكتب أحد أفراد عائلة واحد من الجنود السيخ بعد أن أُعلِم بالسماح له بالاحتفال بذكرى مولد الإله "غورو سري نانك": «شكراً، وألف شكر للحكومة التي تحت ظلها نستطيع ليس وحدنا فقط، بل أتباع أي مذهب أو طائفة، ممارسة الاحتفال بأعيادهم الدينية. ألا فليحفظ الإله غورو فوق رؤوسنا ظل هذا الملك العظيم» [٣٢].

في غضون ذلك، استثمر البريطانيون بشكل هائل في مجال التعليم في الهند. كان هناك حوالي ٣٠٠٠٠٠ طالب هندي يدرسون الإنجليزية بحلول سنة ١٨٨٧؛ وفي سنة ١٩٠٧، وصل العدد إلى أكثر من ٧٠٠٠٠٠ طالب. هذه النخبة من المتخصصين بالثقافة الإنجليزية التي كان من المتوقع أن تؤدي دوراً مركزياً في الحركة القومية الهندية الجديدة، كانت على الأقل في بداية الأمر، ملتزمة إلى حد كبير بالإمبراطورية البريطانية. وهكذا، فقد نشر "دادابهي ناوروجي" الملقب ب«الأب الروحي العجوز» للقومية الهندية سنة ١٨٧١ نقداً لاذعاً للأمير الهندي "الراجا" إلا أنه لم يطالب

أبداً بالاستقلال. على العكس من ذلك، قام بدفاعه الشهير عن الحكم البريطاني طارحاً فكرة أن الحكومة الاستعمارية في الهند لا ترتقي إلى مستوى المبادئ التي تنادي بها بريطانيا في «العدل والإنصاف»، مضيفاً «أن قيامة الهند من جديد لا يمكن لها أن تتحقق من دون يد المساعدة التي تمدها لها بريطانيا.»

قام البريطانيون على امتداد العقود التي أعقبت حركة التمرد بتعيين قائمة من أمثال ناوروجي في سلك المحاماة والقضاء والبيروقراطية الإدارية الهندية. في الحقيقة، كان من المستحيل على بريطانيا أن تحكم الهند لولا هذا الطاقم من النخبة المحلية الموالية لبريطانيا. لولا ولاء الجنود الهنود والبيروقراطيين الهنود، لاستحال على ألف من الموظفين الحكوميين البريطانيين حكم شعب يبلغ تعداده مئات الملايين من البشر.

احتل معظم البيروقراطيين الهنود مناصب متوسطة أو قليلة الأهمية؛ ولكن سمح لحفنة قليلة منهم الارتقاء إلى أعلى مراتب الهرم الوظيفي حتى في بريطانيا نفسها. فقد انتخب ناوروجي على سبيل المثال سنة ١٨٩٢ عضواً في البرلمان البريطاني من قبل ناخبين إنجليز في منطقة "سنترال فينزبيري" في لندن، وهي الدائرة الانتخابية نفسها التي انتخبت فيما بعد مارغريت تاتشر [٣٣].

كانت السياسات الإمبراطورية البريطانية طيلة فترة حكم الراجا الممتدة تسعين سنة (١٨٥٧-١٩٤٧) تتميز بالتناقض؛ وتتأرجح بين خليط من الليبرالية والمحافظة. لم يستطع أي من هذين المعسكرين تحقيق سيطرة على مقاليد الحكم مدة طويلة. في البداية، استمر الحزبان الرئيسيان في خلع الواحد منهما للآخر من السلطة في لندن. الأهم من ذلك، عندما كان الليبراليون في موقع السلطة، كانت سياساتهم في الهند تتعرض للعرقلة من قبل الجالية البريطانية غير الرسمية التي تعيش هناك.

كان هؤلاء الأنجلو - هنديون وهم عنصريون متشددون، وكان معظمهم من

أصول إسكتلندية ويعملون تجاراً وباعة وعمالاً في السكك الحديدية ومزارعين في حقول الشاي وشجر النيلة. قام الأنجلو- هنديون بعد حركة التمرد - يدفعهم الخوف الحقيقي والشعور بالكراهية - بعزل أنفسهم ضمن نظام فصل عنصري بالأساس حيث كان أولئك البيض يعيشون في محميات محصنة تحرسها قوات عسكرية معزولة عن «المدن السوداء» التي كان يقطنها الهنود. كان معظم هؤلاء من رجال الأعمال الذين يسترخون في نواد اجتماعية تقتصر على البيض تحت مسميات مثل «اللا رسميين» و «نادي المسؤولية المحدودة»؛ وكان هؤلاء لا يتورعون عن ضرب عمالهم الهنود بسبب كسلهم أو وقاحتهم. سجلت بين سنتيْ ١٨٨٠ و١٩٠٠ إحدى وثمانين حادثة إطلاق نار «عَرَضية» قتل فيها سادة أوروبيون عمالاً مساكين من دون أن يخضعوا إلى أي مساءلة أو عقوبة.

كانت تصدر عن الأنجلو- هنديين ردات فعل عنيفة كلما حاولت الإدارات الليبرالية نزع تلك الحواجز العنصرية التي نصبت لحمايتهم. حاول نائب الملك الليبرالي تمرير قانون "إلبرت" المشؤوم المتضمن السماح للقضاة الهنود بمحاكمة متهمين من البيض. رد الأنجلو- هنديون على ذلك باحتجاجات عنصرية عنيفة في طول البلاد وعرضها. تساءل أحد أولئك الأنجلو- هنديين «هل يعقل أن تُجرّ نساؤنا من منازلنا بسبب اتهامات باطلة، وتتم محاكمتهن من قبل رجال لا يحترمون النساء، وربما يكونون لنا الكثير من العداء؟ ... أطلب إليكم أيها البريطانيون أن تتخيلوا كيف يتم جر إحدى هذه النساء لتقف أمام شخص محلي نصف عاري، وتتم محاكمتها وربما إدانتها.» صرخ أحد الخطباء في مناسبة أخرى: «بالتأكيد، الحمار يرفس الأسد. أثبتوا له كم هي غالية حرياتكم، أثبتوا له أن الأسد ليس بميت، بل نائم فقط، وبحق الله، دعوا الرعب يتملكه عندما يستيقظ». قابل الجمهور هذه العبارات بالتصفيق الحاد. وقفت جالية البيض في الهند بمعظمها ضد الحكومة. ولم يمضِ وقت طويل بعدها قبل أن يتحول الراجا إلى موقع المحافظين. (٣٤)

ولكن عندما استلم المحافظون زمام الحكم، واجهت سياساتهم مقاومة متزايدة

وأكثر عنفاً من قبل الحركة القومية الهندية التي كانت تزداد حجماً واتساعاً. عندما عين النبيل اللورد كورزون في منصب نائب الملك سنة ١٨٩٨، وضع نفسه في مواجهة مباشرة ضد سلك المحامين والموظفين الحكوميين الهنود الذين حصلوا على الجنسية الإنجليزية، والذين جهدت الإدارة الليبرالية السابقة في إعدادهم والعناية بهم. أسس أعضاء هذه النخبة المثقفة سنة ١٨٨٥ في كلكوتا - التي كانت بمنزلة قاعدة لهم - المؤتمر الوطني الهندي، وهو الحزب الذي تحول بسرعة إلى أهم صوت يعبر عن الطموحات السياسية الهندية. تعامل كورزون بازدراء مع هؤلاء الذين دعاهم بالسادة الهندوس البنغاليين، ومع أفكارهم حول المساواة والكرامة الوطنية (التي استقوها من الإنجليز). أقصاهم كورزون عن المناصب العليا في الوظائف الحكومية الهندية؛ لأنهم كانوا يشكلون من وجهة نظره خطراً على الحكم البريطاني؛ لذا، فقد اتخذ الإجراء تلو الإجراء من أجل النيل من مصداقية حزب المؤتمر الهندي. كانت الخطوة التي اتخذها كورزون سنة ١٩٠٥ والتي قضت بتقسيم البنغال إلى إقليمين منفصلين تهدف إلى جعل الهندوس الذين يتكلمون البنغالية أقليات في كلا الإقليمين، هي أشد الإجراءات التي اتخذها قسوة.

أدت سياسات كورزون إلى نتائج عكسية. فقد أعطت دفعاً إضافياً للجناح الثوري داخل حزب المؤتمر الهندي، تمثلت في مقاطعة البضائع البريطانية، وتسببت في تفجيرات بالقنابل، ومحاولات اغتيال. استقال كورزون سنة ١٩٠٥، وعاد البريطانيون إلى ممارسة السياسات الليبرالية التي بدورها لم تستمر طويلاً.

في النهاية - ومرة أخرى - خسرت بريطانيا الهند هذه المرة بسبب أنها لم تمارس إلا القليل من التسامح الذي جاء متأخراً على أي حال، كما حدث في أيرلندا. بالنسبة للحال الهندية، بذلت بريطانيا الكثير من الجهد، وعلى امتداد عقود من الزمن، لإثبات حسن نيتها تجاه رعاياها الذين تستعمرهم. كان حزب المؤتمر تحت قيادة زعماء مثل ناوروجي مؤيداً جداً للبريطانيين. وكان أعضاؤه المؤسسون يميلون إلى الاقتباس من شكسبير، ويطلقون على الإمبراطورة الملكة اسم «الأم»، كما كانوا يصفقون كلما ذكر اسمها. حتى أكثر أعضائه تطرفاً من الناحية القومية من الذين

تلقوا تعليماً في بريطانيا بمن فيهم «الإرهابيون»، كانوا أيضاً من النخبة الهندية التي تتمتع بكثير من الامتيازات، والتي حاول أفرادها ولوج طرق مهنية، كان قد مهدها لهم البريطانيون؛ إلا أنهم صدموا باكتشاف أن تقدمهم في هذا المجال قد عرقلته العنصرية البريطانية.

بقي العديد من زعماء الهند موالين للتاج البريطاني حتى عشية الحرب العالمية الأولى. عندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا سنة ١٩١٤، أبلغ غاندي أتباعه: «أننا مواطنون في إمبراطورية بريطانيا العظمى في المقام الأول. إن القتال كما يفعل البريطانيون الآن هو قضية عادلة من أجل مجد وكرامة الإنسانية والحضارة. ... واجبنا واضح: أن نبذل ما بوسعنا من أجل دعم البريطانيين، وأن نقاتل بأرواحنا وبكل ما نملك.» تم إرسال مئات الآلاف من الجنود الهنود من أجل القتال في معارك كانت تنشب في كافة أرجاء المعمورة، وبلغ عدد الهنود الذين خدموا الإمبراطورية في الخارج بشكل أو بآخر، أكثر من مليون شخص. في المقابل، اعتقد القادة الهنود الذين تلقوا وعوداً غامضة من لندن أن الهند سوف تمنح شكلاً من أشكال الحكم الذاتي، شبيه بما يطبق في كندا، وبعض مناطق البيض الأخرى التي تسيطر عليها بريطانيا[٣٥].

كانت خيبة الأمل بانتظارهم. فبدلاً من الحكم الذاتي، كانت «المكافأة» التي قدمت للهند في نهاية مدة الهدنة عبارة عن قمع وحشي واضطهاد أثار إحساساً بالصدمة.

كانت الهند بعد انقضاء مدة الحرب تعج بالاضطرابات. انتشر الوعي القومي والروح الوطنية في كافة أنحاء البلاد، بالتزامن مع شعور متزايد بالغضب بسبب قيام بريطانيا بتسخير مصادر الثروة الهندية ومواردها من أجل سداد الاحتياجات الإمبراطورية لبريطانيا. كان الاقتصاد العالمي يمر بمرحلة تغيير أيضاً. انتشر مبدأ الحماية الاقتصادية في أنحاء العالم. في الهند، تزامنت عملية التمدن مع البطالة في الوقت الذي بدأت الصناعات الهندية الجديدة تشق طريقها نحو الأسواق. كان

التعليم على النمط البريطاني سلاحاً ذا حدين؛ إذ بدأت أعداد متزايدة من الهنود بالمطالبة بمزيد من الحريات التي درسوا عنها أو كانوا على تماس مباشر معها خلال وجودهم وراء البحار. اكتسحت موجات من الاحتجاجات والمسيرات والإضرابات والقلاقل السياسية شبه القارة الهندية، تخللتها أعمال عنف.

كان هذا التغيير نذير شؤم كبير على الجالية الأنجلو- هندية. ومع أن وزارة الخارجية استمرت في تقديم مسودات لإجراءات تقدمية حول الإصلاح في الهند عن بعد، إلا أن الحكومة البريطانية في الهند استمرت في تطبيق قوانين "رولات" القمعية حيث فرضت حظر التجول على السكان المحليين، وحدّت من حقهم في التظاهر، وطبقت الأحكام العرفية بشكل خاص مدة زادت على ثلاث سنوات بعد الحرب. بعد أن فُرِض الحظر على التجمعات الجماهيرية سنة ١٩١٩، أمر الجنرال "داير" رجاله بفتح النار على أكثر من عشرة آلاف من الفلاحين الهنود غير المسلحين الذين تجمعوا داخل حقل مسوّر في "أرميستار" بإقليم البنجاب، ربما للاحتفال بأحد الأعياد الهندوسية. أطلقت فرقة داير النار من دون تحذير، ١٦٥٠ دورة من الرصاص الحي باتجاه أولئك الهنود المساكين المحتجزين، وقد أدى إطلاق النار العشوائي ذاك إلى مقتل ثلاثمئة منهم، وجرح أكثر من ألف منهم.

بالرغم من أن لندن قامت باستدعاء "داير" بسبب «سوء معالجته للأمور»، إلا أنه لم يظهر أي شعور بالندم. وقد استقبل في الواقع استقبال الأبطال في إنجلترا حيث قدم له المحافظون هناك سيفاً مرصعاً بالجواهر مكتوب عليه عبارة «منقذ البنجاب». أنزل الجنود البريطانيون في الأشهر القليلة اللاحقة عقوبات أكثر وحشية في معرض «دفاعهم عن الإقليم» على أهالي البنجاب الذين ازدادت وتيرة احتجاجاتهم، فقد أخضعوهم للجلد، وأجبروهم على القيام بالزحف على أيديهم وركبهم.

كانت أعمال الإبادة التي وقعت في البنجاب القشة الأخيرة بالنسبة للزعماء

الهنود الذين كانوا يوماً ما، من الموالين لبريطانيا. تخلى السير رابيندراناث تاغور، وهو أول آسيوي يحصل على جائزة نوبل في الآداب عن لقبه كفارس احتجاجاً على تلك المذبحة. شرح موقفه في هذا الصدد بالقول: «وصلنا إلى وقت أصبحت فيه شارات التكريم تكلل بالعار عندما يؤدي سياقها المتناقض إلى الشعور بالمهانة؛ ومن جانبي أشعر بالرغبة في الوقوف مجرداً من كل علامات التكريم، بجانب أبناء شعبي الذين، بالرغم مما يتهمون به من عدم القيمة، يتعرضون لإذلال لا يليق بالبشر.»

أطلق غاندي سنة ١٩٢٠ دعوته الثورية إلى الامتناع اللا عنفي عن أي تعاون مع الحكومة البريطانية. وقف حزب المؤتمر الوطني خلف غاندي منهياً بذلك عقوداً من الدعم الرسمي لحكم الراجا.

بدا الرأي العام في بريطانيا ينقلب أيضاً ضد داير. سأل اللورد مونتاغو وزير الدولة لشؤون الهند المدافعين عن داير في البرلمان: «هل ستبقون على تمسككم بالهند من خلال الإرهاب، والإذلال العنصري، والتبعية؟» وصف تشرشل المذبحة ب»الوحشية التي لا سابق لها أو مثيل في تاريخ الإمبراطورية البريطانية الحديث». واتهم داير بتدمير الحكم البريطاني في الهند وليس بإنقاذه [٣٦].

وفي محاولة يائسة لوقف مطلب الاستقلال، قامت حكومة بريطانيا الهندية ببذل آخر مسعى للمحافظة على سلطتها هناك من خلال اتباع مبدأ التسامح الإستراتيجي. حاولت بريطانيا الرسمية في مدة الحرب «هندنة» الأنساق العليا من الوظائف الحكومية الهندية، بالإضافة إلى سلك الضباط في الجيش الهندي، التي كانت في السابق حكراً على البيض. أما على الجبهة الاقتصادية، فقد كانت أكثر العبارات شيوعاً وتداولاً هي «التصنيع» و»التطوير»؛ إذ لن تكتفي الهند في المستقبل بتصدير المواد الخام، بل ستتحول إلى شريك تجاري مؤثر اقتصادياً لبريطانيا بما يفيد الطرفين، بحسب التوجه الحزبي الجديد. الأهم من ذلك، سعت حكومة بريطانيا الهندية إلى تشجيع التعاون مع الجالية الهندية التجارية المكونة من سكان

البلاد الأصليين، والتي تتمتع بنفوذ متزايد، وخصوصاً "المَرْوَريين" من كلكوتا، و"الكوراجاتيين" من أحمدأباد الذين تمت لهم السيطرة على قطاعات واسعة من الاقتصاد الهندي بعد انتهاء الحرب.

لم يكن الإيثار هو الدافع لهذه التنازلات. على العكس من ذلك، فقد كان دافع حكومة الراجا الرئيس للقيام بذلك هو تهميش القوميين المتطرفين الهنود. عبرت المؤرخة ماريا ميسرا عن ذلك بالقول: إن حكومة الهند «كانت مصممة على تسليم هذه الامتيازات الاقتصادية للهنود بطريقة تحافظ فيها على المصالح الإمبراطورية.»

ولكن من سوء طالع بريطانيا أن جالية رجال الأعمال الإنجليز في الهند ذهبت في الاتجاه المعاكس، أي باتجاه التعصب الشديد الذي كان يزداد حدة. فبدلاً من قيام الأنجلو- هنديون بدمج عرقي لشركاتهم كما شجعتهم على ذلك حكومة بريطانيا الهندية، رفضوا السماح للهنود الأثرياء من ذوي الصلات القوية بالمسؤولين مثل المروريين والكوراجاتيين بعضوية مجالس إداراتهم، أو حتى بتوظيف هنود من ذوي المؤهلات العالية في مناصب المديرين. وبينما كانت شركة شرق الهند في أكثر أيامها نجاحاً وشهرة، تستقطب بشكل نشط المقاولين الهنود، وترتبط بتحالفات وثيقة معهم، عارض الأنجلو- هنديين في القرن العشرين بشدة إقامة أي تعاون مع رجال الأعمال المحليين. أثبتت استراتيجية التعصب الأعمى أنها تؤدي إلى هزيمة منكرة لذاتها. فقد زادت عنصرية الأنجلو- هنديين الفاضحة من حدة الامتعاض بين أعضاء النخبة الهندية الذين بدؤوا يعقدون تحالفات ازدادت قوة مع مرور الأيام مع الحركة القومية ذات المد الشعبي، والتي تنادي بضرورة تأميم المصالح البريطانية، أو طرد رجال الأعمال البريطانيين [٣٧].

اندلعت الحرب الأهلية سنة ١٩٤٦ بين الهندوس والمسلمين والسيخ في الهند. كانت الهند في ذلك الوقت بمنزلة طائر القطرس بالنسبة لبريطانيا. أعلنت لندن سنة ١٩٤٧ تقسيم شبه القارة؛ وهكذا ولدت دولتا الهند وباكستان. وقد

شهد العقدان اللاحقان لذلك التاريخ هجرة جماعية لرجال الأعمال ورأس المال والموظفين البريطانيين.

من المستحيل بالطبع معرفة كيف يمكن للتاريخ أن يكشف عن مكنوناته لو أن البريطانيين تصرفوا بطريقة مغايرة. كانت قوى مؤثرة مثل الاشتراكية والقومية ومناهضة الاستعمار تزداد زخماً وقوة مع بداية القرن العشرين. لو لم تحصل الهند على استقلالها سنة ١٩٤٧، لكانت حصلت عليه في وقت آخر بالتأكيد؛ ذلك لأن أيام الاستعمار الأوروبي أصبحت معدودة.

ولكن ربما كان بإمكان الهند التملص من قبضة بريطانيا بطريقة أقل غضباً وعنفاً وتدميراً للمصالح البريطانية. فخلال حكم الراجا البريطاني الذي استمر مدة تسعين سنة، أهدر البريطانيون الفرصة تلو الفرصة لقبول الهنود على قدم المساواة معهم. بذل أصحاب المصالح التجارية الهندية جهوداً متكررة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لإقامة تحالفات وشراكات متعددة الأعراق مع الشركات البريطانية القديمة، لكن تلك الجهود باءت بالفشل. بعد الاستقلال، جعلت الحكومة الهندية الجديدة من هذه الشركات بالتحديد أهدافاً لهجماتها متهمة إياها بعداوة فكرة المساواة بين البشر. وفي النهاية، تعرضت معظم شركات الأنجلو- هنديين للسلب أو الإغلاق.

ولكن الشركات التجارية البريطانية لم تكن وحدها هي التي خسرت الكثير من الفرص. فالحكومة البريطانية خسرت تلك الفرص أيضاً بالرغم من الدفع المتأخر الذي قامت به باتجاه "الهندنة"، ووعودها الغامضة بتشكيل «حكومة على مستوى المسؤولية». كان هناك تفاوت كبير بين الطريقة التي عامل فيها البريطانيون رعايا مستعمراتهم البيض، ورعايا مستعمراتهم من غير البيض. استخف وينستون تشرشل سنة ١٩٢٢، وكان حينها وزيراً لشؤون المستعمرات، بفكرة «منح الأعراق المتخلفة مؤسسات ديمقراطية لأن تلك الأعراق غير مؤهلة كي تحكم نفسها بنفسها.» وفي تناقض صارخ بدأ بالظهور في أربعينيات القرن التاسع عشر - حين كان البريطانيون يستخدمون الجنود الهنود لعلف خيولهم - قام البريطانيون بمنح

رعاياهم البيض في كل من أستراليا وكندا ونيوزيلندا نفس الحقوق والحريات التي حققتها المستعمرات الأمريكية في سبعينيات القرن الثامن عشر. كان من حق رعايا بريطانيا الكنديين تقرير مصيرهم بأنفسهم، وأن يتحرروا من حكم سلطة بعيدة عنهم جغرافياً، وذلك بحسب تقرير "درهام" الشهير سنة ١٨٣٨. طبق هذا المبدأ نفسه فيما بعد في المستعمرات البريطانية الأخرى التي كان رعاياها من البيض. ومع حلول ستينيات القرن التاسع عشر، مُنِحت جميع مستعمرات بريطانيا التي يقطنها البيض الاستقلال بشكل فعلي، حيث بقيت السلطة في أيدي ممثلي المستعمرين المنتخبين. وصف نيال فيرغسون الوضع بالعبارات الآتية:

> وهكذا، سوف لن تقع معركة لينسيغتون أخرى في أوكلاند، ولن يكون هناك جورج واشنطن آخر في كانبيرة، ولن يكتب إعلان استقلال جديد في أوتاوا. في الواقع، من الصعب ألاّ يشعر المرء عند قراءته تقرير درهام بأن ذلك التقرير يحمل في طياته شعوراً بالندم. فلو مُنِحَ الأمريكيون حكومة مسؤولة عندما طالبوا بها أول مرة في سبعينيات القرن الثامن عشر- أي لو التزم البريطانيون بما كانوا يتشدقون به حول الحرية - ربما ما كان لحرب الاستقلال أن تقع؛ وربما ما كان في واقع الأمر لدولة اسمها الولايات المتحدة أن تنشأ أبداً [٣٨].

يمكننا المضي إلى أبعد من ذلك. لو كان بمقدور بريطانيا في أوج قوتها في العصر الفيكتوري تجاوز تحاملها العنصري والعرقي، ولو كان بمقدورها التعامل بالقدر نفسه من التسامح مع رعايا المستعمرات من ذوي «البشرة الداكنة»، وهو التسامح الذي مارسته مع سكان مستعمراتها البيض، لكان التاريخ الحديث ليس فقط للهند وباكستان، بل لروديسيا وكينيا والعراق ومصر وبورما بالإضافة إلى لائحة طويلة من المستعمرات الإمبراطورية الأخرى، قد كتب بطريقة مغايرة تماماً.

غروب شمس بريطانيا
وما كان يمكن أن يكون

ما كان لبريطانيا أن تتبوأ موقع الهيمنة العالمية، مثلها مثل أي قوة مسيطرة على العالم من قبلها، لولا الزخم الدراماتيكي الناجم عن التحول من التناحر المدمر

عرقياً ودينياً إلى انتهاج سياسات لافتة من الانفتاح والتسامح طبقاً للمعايير السائدة في ذلك التاريخ. ولم يكن من قبيل المصادفة أن عصر سيادة بريطانيا على العالم من دون منازع، والذي اتُّفِق على أنه امتد من سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٩١٨ تقريباً، كان هو العصر نفسه الذي ازدهرت فيه حياة اليهود والهوغونيين والإسكتلنديين الذين كانوا في حقيقة الأمر مشاركين في كل مناحي الحياة وعلى كل المستويات في المجتمع البريطاني بما في ذلك البرلمان وصولاً إلى رئاسة الوزراء. لم تقتصر مشاركة اليهود والإسكتلنديين على تمويل الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية وراء البحار وحسب، بل تعدتها إلى المساهمة بشكل محوري في تفوق بريطانيا الصناعي والمالي والبحري.

لم تغرب شمس بريطانيا بسبب ازديادٍ في معدل التعصب على المستوى الداخلي، ولم يكن هناك حتى تقاطع بالمصادفة بين هذين الأمرين. كان الواقع في حقيقة الأمر يشير إلى أن النصف الأول من القرن العشرين شهد تسامحاً أكبر في الداخل البريطاني مع الأقليات العرقية والدينية، هذا، في حال لم يكن لقوانين الهجرة وتوسيع المشاركة في حق التصويت أي دلالة في هذا الصدد. وبينما اختلف المؤرخون حول من يجب أن يلقى عليه اللوم، أو ما الذي يجب أن يتم التأكيد عليه، فإن الغالبية العظمى ترى أن غروب شمس بريطانيا كان بسبب جملة من الكِلف الباهظة التي شلتها في الحربين العالميتين الأولى والثانية، والتي تجلت في الإنفاق المتصاعد من قبل الحكومة على الضمان الاجتماعي، وأعباء الديون الخارجية التي ناءت بريطانيا بحملها، وانخفاض قيمة الجنيه الإسترليني، والاختناق النسبي في مجال الصناعة البريطانية، والزيادة المطردة في كلفة المحافظة على المستعمرات وحمايتها؛ وخصوصاً تلك التي اجتاحتها مشاعر العداوة للبريطانيين، وحركات التمرد التي قام بها القوميون، وأحياناً، اندلاع موجات العنف العرقي والديني (التي كان البريطانيون يؤججونها أحياناً).

مع ذلك، يعزى انهيار بريطانيا بدرجة كبيرة، إلى إخفاقها في التعامل بمنطق

التسامح في الخارج. كان بول كنيدي محقاً بالتأكيد بقوله: إن موقع بريطانيا مع حلول منتصف القرن العشرين في مستعمراتها المتبقية لم يكن بالإمكان الدفاع عنه من الناحيتين العسكرية والاقتصادية. ذكر هيو دالتون، وزير الخزانة في مذكراته التي نشرها سنة ١٩٤٦ما يأتي: «عندما تكون في مكان ليس مرحباً بك فيه، وعندما لا تكون لديك القوة الكافية كي تزيح الرافضين لك من طريقك، فلا مندوحة لك من مغادرة ذلك المكان.» لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف وصل البريطانيون إلى هذا الوضع؟

لا أريد بالقطع إعطاء الانطباع أنني أقصد القول: «يا للأسف، لو كانت بريطانيا أكثر تسامحاً لكانت ما تزال تحتفظ بمستعمرات في كل من آسيا وأفريقيا.» لكن كانت هناك احتمالات رؤيوية أخرى لم يتم وضعها موضع التجربة. حتى عندما كان زعماء الهند قد أكدوا تمسكهم بالاستقلال سنة ١٩٣١، سئل غاندي: «إلى أي مدى تريد أن تنفصل الهند عن الإمبراطورية؟» أجاب غاندي قائلاً: « عن الإمبراطورية، أريد الانفصال بشكل نهائي، أما عن الأمة البريطانية، فبالتأكيد لا أرغب في الانفصال، هذا إذا كنت أتمنى للهند تحقيق المكاسب وليس حصد المآسي.» أضاف قائلاً: «الإمبراطورية البريطانية لم تصبح إمبراطورية إلا بسبب وجودها الاستعماري في الهند. يجب على الإمبراطورية أن تختفي، ولكنني أتطلع إلى أن أكون شريكاً على قدم المساواة مع بريطانيا، أشاركها أفراحها وأتراحها؛ لكن هذه الشراكة يجب ان تقوم على مبدأ المساواة» [٣٩].

ما الذي كان من الممكن أن يحدث سنة ١٩٣١ لو أقامت بريطانيا حينها «شراكة على قدم المساواة» مع الهند كما طالب غاندي؟ إذ إن هذا هو ما قامت به بريطانيا بالضبط مع الرعايا البيض في مستعمراتها السابقة حيث أنشأت ما يسمى بمجموعة دول الكومنولث التي كانت فيها المملكة المتحدة وكندا ونيوزيلندة وأيرلندا وأستراليا في حال «شراكة على قدم المساواة، من دون أن تكون إحداها تابعة للأخرى على الإطلاق.» ما الذي كان يمكن أن يحدث لو تجاوز الأنجلو- هنديون من أجل

مصالحهم الاقتصادية، عنصريتهم، وقاموا بدمج شركاتهم مع الشركات وأصحاب المصالح الهندية؟

من المستحيل معرفة النتائج المترتبة على ذلك. ولكن لو قامت بريطانيا الإمبراطورية بتقصي خيارات أخرى في الأوقات الحرجة تتعلق بطرق التعامل مع رعايا مستعمراتها من غير البيض، لتم إنهاء المرحلة الاستعمارية بشروط أكثر إيجابية بكثير لبريطانيا ولمستعمراتها السابقة على حد سواء. كان من الممكن على سبيل المثال، أن تتطور مجموعة دول الكومنولث بطريقة تختلف عما هي حالها اليوم: فهذه المجموعة هي عبارة عن كيان رمزي يشتهر بالدرجة الأولى بالمسابقات الرياضية والجوائز الأدبية. كان من الممكن لمجموعة دول الكومنولث التي تشمل ثلث سكان العالم تقريباً يتوزعون على آسيا وأفريقيا وأوروبا والأمريكيتين؛ هذه الدول التي تربط بينها علاقات اقتصادية قديمة، أن تتحول إلى كتلة تجارية هائلة الحجم، وإلى اتحاد سياسي يشبه الاتحاد الأوروبي، ولكن يتميز عنه بوحدة اللغة، وتكون فيه بريطانيا في موقع القيادة.

لكن بريطانيا التي طرحت بذور العداوة مع مستعمراتها القديمة، وأسهمت في تأجيج مشاعر التعصب فيها، تراجعت من موقع الإمبراطورية التي سادت العالم إلى قوة من الدرجة الثانية؛ بينما تراجع رعاياها غير البيض في مستعمراتها السابقة إلى العالم الثالث بكل أمراضه. في غضون ذلك، كانت هناك قوة أخرى في طريقها نحو القمة، كانت أمة من المهاجرين الذين جمعت بينهم الضرورة، وهي الأمة التي بنيت منذ لحظة ولادتها الأولى على قيم التسامح الديني.

القسم الثالث

مستقبل السيطرة على العالم

الفصل التاسع

القوة الأمريكية المطلقة

التسامح والرقاقة المجهرية

لا يضيرني لو كان جاري مؤمناً أو ملحداً. فما يقوله لن يسلبني النقود من جيبي، ولن يكسر رجلي.

- توماس جيفرسون، Notes on the State of Virginia,

1785-1781

بينما يزن الكومبيوتر العملاق مثل جهاز «الدامج والكومبيوتر الإلكتروني والرقمي» (ENIAC) اليوم، والمزود ب 18000 أنبوب فراغي، ثلاثين طناً، فإن أجهزة الكومبيوتر في المستقبل سوف تكون مزودة ب1000 أنبوب فراغي وربما لن يتجاوز وزنه الطن الواحد ونصف الطن.

- Popular mechanics ، عدد آذار، مارس ، سنة 1949

كانت الإمبراطورية البريطانية في ذروة قوتها تضع يدها على مساحة تبلغ ربع سطح الأرض، ويعيش فيها حوالي ربع سكان العالم. وكانت الإمبراطورية التي حكمها أحفاد جنكيز خان أكبر من حيث رقعة الأرض. في المقابل، الولايات المتحدة اليوم تمتد على رقعة لا تتجاوز ٦،٥ في المئة من مساحة الكرة الأرضية، يعيش فيها

سكان لا تتجاوز نسبتهم ٥ بالمئة من عدد سكان العالم [1]. مع ذلك، تُعد أمريكا اليوم قوة مطلقة.

هل أمريكا قوة مطلقة؟ اختلف الأمريكيون حول ما إذا كان على الولايات المتحدة أن تدفع باتجاه أن تصبح قوة إمبراطورية وذلك منذ نشأة الدولة. ما يزال هذا السؤال موضع نقاش إلى يومنا هذا، وحتى بعد أن حققت الولايات المتحدة التفوق العالمي الذي نشهده حالياً. سوف أتابع تقصي جواب على السؤال المتعلق بنوع السلطة التي تتمتع بها أمريكا، والهدف الذي تبغي الوصول إليه، وذلك في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب. ولكن قبل أن نلتفت إلى المستقبل، يجب أولاً العودة إلى الماضي.

لماذا كانت الولايات المتحدة مُجلّيةً بشكل استثنائي على الصعيدين الاقتصادي والعسكري؟ كان لأرضها الغنية زراعياً دوراً في ذلك بالتأكيد، وكذلك مواردها الثرّة من المواد الخام، والمسافة الجغرافية الهائلة التي تفصلها عن المخاطر الخارجية، ومؤسسات القطاع الخاص فيها بالرغم من كل السلبيات التي تعانيها، وأسواقها الحرة، والديمقراطية التي تتمتع بها، وحكم القانون. ولكن كما كانت الحال بالنسبة لجميع القوى المطلقة التي سبقتها، فإن السر الحقيقي لقوة أمريكا يكمن في رأسمالها البشري.

إذا كان التسامح النسبي هو مفتاح السيطرة على العالم، فإن الولايات المتحدة كان لها دوماً الدور الريادي الذي تفوقت من خلاله بشكل كبير على جميع أمم أوروبا في هذا المجال. فأمريكا لم تكن مصدر جاذبية للمهاجرين وحسب، إنها أمة تشكلت من المهاجرين. كان الآباء المؤسسون للولايات المتحدة أبناء المهاجرين وأحفادهم، إن لم يكونوا المهاجرين أنفسهم. (أليكساندر هاميلتون المولود في الكاريبي، وصل إلى نيويورك عندما كان في سن السادسة عشرة.) أكثر من خمسة وتسعين في المئة من الأمريكيين اليوم ينحدرون من أصلاب أشخاص عبروا المحيط للوصول إلى هذا المكان.

بطبيعة الحال، عبر العديد من المهاجرين المحيط وهم مقيدون من أرجلهم بسلاسل حديدية. لم تكن ولادة الولايات المتحدة بالنسبة لهم، أو لسكان البلاد الأصليين تحكي قصة من قصص التسامح، بل القمع الوحشي. تأسست هذه «الأمة من المهاجرين» - وعرفت على مدى أجيال من الزمن على أنها أمة - من الأنجلو- سكسونيين البروتستانت البيض. عندما كتب زانغويل، وهو يهودي روسي، مسرحيته المشهورة بعنوان "البوتقة"The Melting Pot فإنه لم يرَ في تلك البوتقة سوى "الأقوام الأوروبية" [٢].

كانت الولايات المتحدة تظهر قدراً كبيراً من التسامح بشأن التنوع الديني بالمقارنة مع جميع القوى الأخرى المعاصرة لها. لقد سُنَّ قانون ثوري بالفعل سنة ١٧٨٩ أعلنت من خلاله الولايات المتحدة تمسكها ليس فقط بالحرية الدينية - مثل بريطانيا والجمهورية الهولندية - بل تبنيها لهذا القانون كمبدأ دستوري يمنع وجود كنيسة وطنية. من ناحية أخرى، يمكن القول إنه بالرغم من سياسة الهجرة المنفتحة التي انتهجتها الولايات المتحدة، فإن هذه الأخيرة مارست على امتداد تاريخها قدراً كبيراً من التعصب العرقي والعنصري تجاه بعض الجماعات وخصوصاً القادمين من أمريكا اللاتينية، والأفارقة الأمريكيين، وجماعات أخرى من غير البيض. وبالرغم من إعلانها المتكرر أن «جميع الناس متساوون بالفطرة»، فقد كانت العبودية، والفصل العنصري، والتمييز العنصري، واللا مساواة في المواطَنة حقائقَ طبعت الحياة الأمريكية مدة طويلة. ولم تتحول الولايات المتحدة إلى واحدة من أكثر المجتمعات انفتاحاً من الناحيتين العرقية والعنصرية في تاريخ العالم إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. كما لم يكن من قبيل المصادفة أن تلك الحقبة شهدت أيضاً ارتقاء الولايات المتحدة سدة السيطرة العالمية.

سوف يبحث هذا الفصل مسألة تحول الولايات المتحدة من مستعمرة رثة إلى قوة قارية، ثم إلى قوة عظمى، وأخيراً إلى قوة مطلقة. كان هذا الارتقاء ثمرة النتاج المباشر لقدرة أمريكا المستمرة على جذب، ومكافأة، واستيعاب طاقات وإبداعات

جماعات متنوعة من كافة أنحاء العالم. استطاعت الولايات المتحدة أن تنتج دينامية اقتصادية غير مسبوقة أدت بدورها إلى بروز أعظم تجمع للثروة، وأكبر قوة عسكرية مخيفة على وجه الأرض من خلال استيعابها للمنبوذين من البلدان الأخرى؛ وفيما بعد، من خلال استنزاف القوى المنافسة والدول النامية، وذلك بحرمانها من العديد من خيرة أبنائها وأكثرهم ذكاء.

الفصل الثوري بين
الكنيسة والدولة

كان للتطهيريين فضائلهم. كانوا مشهورين بكدّهم ونجاحهم في العمل؛ وكانوا بذلك يمثلون صورة مصغرة عن «أخلاقيات العمل البروتستانتية» التي نادى بها ماكس ويبر. رأوا في التعليم قيمة كبرى. أسس التطهيريون الأوائل أمثال جون هارفارد أولى الجامعات في أمريكا. وكان باستطاعة إنكريس ماثر الذي عمل رئيساً لجامعة هارفارد من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٧٠١، والذي أسهم أيضاً في إنشاء جامعة يال، قراءة الكتاب المقدس باللغات العبرية واللاتينية والإغريقية.

غالباً ما يُنسى أن التطهيريين لم يكونوا متسامحين دينياً. فنظراً إلى أنهم هربوا من الاضطهاد الديني في أوروبا، مارس التطهيريون أنفسهم الاضطهاد في أمريكا. ونظراً إلى أنهم كانوا يعدون أنفسهم شعب الله المختار - حَمَلة «الدين الصحيح» - فقد أنكر هؤلاء التطهيريون ليس فقط على الكاثوليك واليهود، بل على الإنجيليين والصاحبيين (أي الكويكرز) والمعمدانيين وأتباع أي مذهب من المذاهب البروتستانتية الذين لا يوافقونهم على معتقداتهم بشكل كامل، الحق في أن يختلفوا معهم دينياً. كان ماثر يعتقد أن «التسامح مع الأديان والمعتقدات الأخرى يعني أن الدين نفسه قد ضاع.» وصل تعصب التطهيريين إلى ما يشبه الحمّى في محاكمة السّحَرَة في مدينة "سالم" سنة ١٦٩٢ حين حكم على أكثر من مئة من الرجال والنساء بالسجن بتهمة عبادة الشيطان وممارسة السحر، وقد أُعدمت تسع عشرة «ساحرة» شنقاً على"تل أعواد المشانق" في مدينة سالم، كما أعدم اثنان من الكلاب بتهمة اشتراكهما في الجريمة.

كان مذهب التطهيرية واحداً من المذاهب العديدة التي ظهرت في الحقبة الأولى من نشأة أمريكا. قام الإنجليز «بزرع» ثلاث عشرة مستعمرة في أمريكا الشمالية بين سنتيْ ١٦٠٧ و ١٧٣٢. ونظراً إلى أن الاستعمار كان ممولاً من قبل مقاولين يعملون لحسابهم الخاص، فقد تنوعت الهوية الدينية لهذه المستعمرات، وكان ذلك يعتمد على الميول الدينية للممولين، وأيضاً على تركيبة المستوطنين الأوائل. وهكذا، فبينما كانت "نيو إنجلاند" في غالبيتها من التطهيريين الأبرشانيين، كان الصاحبيون (الكويكرز) يسيطرون على بنسلفانيا، وكانت جالية مهمة من الإصلاحيين الهولنديين تعيش في نيويورك. أما ميريلاند، فقد كان يقطنها عدد لا بأس به من الكاثوليك، وكان الإنجيليون يشكلون الغالبية في فيرجينيا وجورجيا وكل من كارولينا الشمالية والجنوبية. وكان أفراد من طائفة المشيخيين البروتستانت، وبعض الجاليات اليهودية الصغيرة موزعين في بعض المدن الكبرى.

مع ذلك، وبالرغم من هذا التنوع الجغرافي الديني، كانت الحرية الدينية في أمريكا المستعمَرة تمارَس على المبدأ اللاذع الذي يقضي بأنه «إذا لم يعجبك الدين الذي نمارسه، فإن لك كامل الحرية في الذهاب إلى مكان آخر.» وقد عبر عن ذلك القسّ "ناثانيال وارد" من ماساشوستس بالقول: «كل من لا ينتمي إلى الأبرشانيين لديه كامل الحرية في أن يبقى بعيداً عنا، ومن الأفضل لهؤلاء مغادرة المنطقة بأسرع ما يمكن.» باستثناء المقيمين في "رود آيلاند" لم يشعر الأمريكيون المستعمِرون بأي تأنيب للضمير بسبب تأسيس دين للأغلبية، وإنكار حق الآخرين في عدم اعتناق ذلك الدين. عندما اكتملت حقبة تأسيس المستعمرات الإنجليزية الجديدة بحلول سنة ١٧٣٢، كان خمس وثمانون في المئة من الأمريكيين يعيشون في مدن لكل منها كنيستها الخاصة بها. وكان من الطبيعي آنذاك أن من لم يكن يعتنق الدين على مذهب الكنيسة السائد في هذه المدينة أو تلك، لم يكن له الحق في التصويت أو الترشح لمنصب عام في المدينة. كانوا في بعض الأحيان يطردون من المدينة. على سبيل المثال، كان أي شخص من أتباع المذهب "الصاحبي" يحل في فيرجينيا التي

تتبع المذهب الإنجيلي، «يتم إلقاء القبض عليه فوراً ويلقى به في السجن من دون أن يكون له الحق في الخروج بكفالة» إلى أن يتعهد بمغادرة المستعمرة «بأقصى سرعة، وبشرط ألاّ يعود إليها ثانية» [٣].

إلا أن تغييرات عظيمة كانت تلوح في الأفق. فبالرغم من وجود أشخاص مثل ناثانيال وارد يدافعون عن «الطهارة والبساطة» الدينية، فإن أمريكا كانت تمر بمرحلة من التحول الفوضوي. ازداد عدد السكان بشكل مطرد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بسبب قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين الذين تدفقوا على أمريكا من جميع أنحاء أوروبا، والذين أسهم وصولهم في تعزيز الفورة التجارية؛ وكان هؤلاء يحملون أفكاراً اعتبرت هرطقية، وأفكاراً دينية جديدة. فإلى جانب الأبرشانيين والإنجيليين ظهر فجأة "التقويون" الألمان واللوثريون السويديون، والهوغونيون الفرنسيون، والإصلاحيون الأيرلنديون الشماليون.

كانت التجارة عاملاً مهمًا في التسامح الديني. فقد تبنى التجار من ذوي التأثير والنفوذ الحرية الدينية لأن سياسة الإقصاء أعقبتها انعكاسات سلبية على تجارتهم. أساساً، كان زبائنهم وعملاؤهم وممولوهم وخبراؤهم الماليون وشركاؤهم التجاريون ينحدرون من مذاهب وأقوام وديانات مختلفة - حتى من غير المسيحيين. كان هذا بالضبط هو محور تفكير البرلمان البريطاني سنة ١٧٤٠ عندما أقر القانون العام القاضي بتجنيس اليهود في المستعمرات الأمريكية. وقد شرح اللورد فيليب هاردويك ذلك بالقول: «حتى بالنسبة إلى اليهود، سيكون من الخطأ الفادح تثبيط عزائمهم، أوثنيهم عن الذهاب والاستيطان في المستعمرات الأمريكية، إذا لم أقل إنه سيؤدي إلى خراب وكساد في تجارة المستعمرات جميعها.»

في تلك المرحلة نفسها تقريباً، اكتسحت المستعمرات ما يمكن أن يطلق عليها وصف «الثورة الاستهلاكية» في مجال الدين - التي من الأنسب وصفها "باليقظة الكبرى". قاد تلك الثورة أشخاص مفعمون بالحيوية مثل جورج وايتفيلد وعشرات

من الوعاظ الإنجيليين المتجولين الذين بدؤوا يعرضون «بضاعتهم» الجديدة عن الإنجيل متجاهلين خط الأبرشية، ومتحدّين سلطات الكنائس الرسمية. كان هؤلاء المبشرون المتجولون - مثل المبشرين التلفزيونيين في أيامنا هذه - مقاولين دينيين في الشوارع والساحات العامة. كانوا يعلنون عن بضاعتهم بشكل حماسي، مانحين وعوداً بالأمل ومؤكدين على الحرية الفردية. علموا الناس أن الخلاص يمكن تحقيقه فقط من خلال التجربة الشخصية، وليس من خلال العقائد الكنسية الجامدة. كانوا هم الدعاة لأنفسهم، وذاع صيتهم ولاقوا الكثير من النجاح. كانوا يمارسون الوعظ والإرشاد في أي مكان يستطيعون جمع الجمهور ومخاطبته - على عتبات المحاكم، وفي زوايا الشارع، والحدائق العامة، وحتى في حلبات السباق والفنادق - وقد استطاعوا بذلك استقطاب عشرات الآلاف من المستوطنين.

شعر رجال الكنيسة التقليديون بالاستياء جراء ذلك. قال أحد القساوسة الإنجيليين من جنوب كارولينا: «تقوم بنسلفانيا ونيو إنجلاند سنوياً بإرسال مجموعة من الأشخاص المتجولين وتنشرهم ضمن هذا الخليط من الأديان - المسيحية الصحيحة الحقة غائبة. ... لو كان باستطاعة أحد هؤلاء التقاط شلن من حفل زفاف أو من جنازة، فلن يتردد أي من هؤلاء المستقلين من وضعه في جيبه.» وقال قس من فيرجينيا اسمه باتريك هنري، وهو إنجيلي أيضاً: «يقوم هؤلاء المتجولون بإثارة جماهيرهم إلى أقصى درجات الهياج الديني، ويتركونهم على تلك الحال من فقدان السيطرة على مشاعرهم مدة عشرة أو اثنتي عشر شهراً، إلى أن يأتي مؤْتور آخر من بينهم ليعيد على مسامعهم الشيء نفسه مرة أخرى.»

فجأة، انتهى كل شيء في طرفة عين. فمع نهاية أربعينيات القرن الثامن عشر تلاشت تلك اليقظة الكبرى بدرجة كبيرة - ولكن ليس قبل أن تغير المشهد الاستعماري بشكل دراماتيكي. بدأ العديد من هؤلاء الوعاظ المتجولين وأتباعهم بممارسة طقوسهم الدينية الخاصة بهم، أو قاموا بالانضمام إلى مذاهب الأقليات كالمعمدانيين؛ وحدثت فورة في صفوف المنشقين عن الخط الكنسي العام. ونظراً

إلى أن الأتباع الجدد لم يكونوا من عامة الشعب أو الطبقة الوسطى وحسب، بل من مواطنين من علية القوم، لم يعد أولئك المنشقون منبوذين. فقد تحولت ماساتشوستس المحافظة إلى التعددية. ففي سنة ١٧٤٧، ذكر أحد أهالي بوسطن «أن من بين الكنائس في مدينته، هناك ثلاث كنائس أسقفية، وعشر كنائس مستقلة، وكنيسة فرنسية على طريقة جنيف، وكنيسة معمدانية البالغين، وأخرى صاحبية.» وهكذا فقد تبخر حلم التطهيريين الذي نادى بوجوب إقامة كنيسة وحيدة تضم تحت مظلتها الجميع(٤).

وكان للإنجيليين المتجولين الذين أصروا على مبدأ الحرية الفردية في اختيار المعتقد خلفاء لهم لم يكونوا في الحسبان: وأعني بذلك الآباء المؤسسين للأمة. أهم ما كان يميز قادة الثورة الأمريكية هو انتماؤهم إلى عصر التنوير بالرغم من تبنيهم لأسماء مستعارة لاتينية مثل "بوبليوس" و"فابيوس" وذلك في محاكاة واضحة للجمهورية الرومانية. وبالرغم من أن كلاً من جورج واشنطن، وتوماس جيفرسون، وبنيامين فرانلكين، وجيمس ماديسون وآخرين كثر، لم يكونوا بالضرورة غير متدينين، إلا أنهم غلّبوا العقل على الكتاب المقدس، كما كانوا من أشد المنتقدين للأصولية الدينية. عبر توماس جيفرسون عن هذه المسالة بالقول: «تعرض الملايين من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء منذ بداية المسيحية للحرق والتعذيب والتغريم والسجن؛ إلا أننا لم نتقدم بمقدار بوصة واحدة باتجاه الوحدة الدينية. ماذا كانت نتيجة الإكراه؟ النتيجة هي أن نصف العالم تحول إلى مجموعة من الحمقى، والنصف الآخر تحول إلى مجموعة من المنافقين» (٥).

خبِر الثوريون الأمريكيون بأنفسهم حتى قبل نيل الاستقلال، الفوائد الملموسة التي يحققها التسامح. لم يكن أمام الأمريكيين خيار سوى تجهيز جيش من المقاتلين الذين ينتمون إلى كافة الأديان والمذاهب في معرض تصديهم للبريطانيين. علق جون آدمز بعد انتصار المستعمِرين بالقول إن المقاتلين كانوا خليطاً من الروم الكاثوليك، والأسقفيين، والمشيخيين، والمنهجيين الميثوديين، والمورافيين البروتستانت، والرجال

المعمدانيين، واللوثريين الألمان، والكالفينيين الألمان، والخلاصيين، والسوسنيين، والمستقلين، والأبرشانيين، وخيالة البروتستانت، والأخويين البروتستانت، والموحدين والملحدين، و"البروتستانت الأميين".»

كان الدستور الذي تبناه الآباء المؤسسون سنة ١٧٨٩ في غاية التطرف. فقد ذهب هذا الدستور إلى أبعد مما ذهبت إليه قوانين التسامح الإنجليزية، وتجلى ذلك في إحجام ممثلي المستعمرات الثلاث عشرة بشكل لا لبس فيه عن اعتبار الدستور وثيقة دينية، أو قيام كنيسة رسمية واحدة تمثل البلاد بكل أطيافها. كانت المرة الوحيدة التي ذكر فيها الدين في الدستور الأصلي تتمثل في بند يرفض إجراء اختبارات دينية كشرط من شروط تبوء أي منصب.

أدى غياب أي أثر أو ذكر للدين في الدستور إلى موجة من الاستياء وجملة من الاتهامات بالإلحاد والخيانة من قبل العديد من الأوساط. لكن الآباء المؤسسين - المنتمين إلى طبقة الأشراف الذين لم يكونوا بالضرورة ممثلين لعامة الشعب، والذين تلقوا تعليماً عالياً - كانوا يعتقدون أن الاختيار الديني الحر هو أفضل طريق لتجنب النزاعات الطائفية في أي مجتمع اندماجي متعدد. كان العديد منهم بمن فيهم ماديسون، متأثرين جداً بأفكار آدم سميث الذي ارتأى أنه مثلما هي حال البضائع في الأسواق غير المنظمة، فإن «وجود أعداد كبيرة من المذاهب الدينية» - يفضل أن تكون ما بين مئتين إلى ثلاثمئة مذهب - سيؤدي إلى منافسة صحية بين القادة الدينيين لتلك المذاهب، مما سينتج عنه في نهاية المطاف مجتمعاً أقل تعصباً، وأكثر اعتدالاً [٦].

تم تبني التعديل الأول على الدستور سنة ١٧٩١، وفيه مُنِع الكونغرس من تأسيس كنيسة وطنية، وتم إصدار تشريع يحمي حق المواطنين في ممارسة الدين الذي يعتنقونه بحرية. بعد ثماني سنوات على ذلك، أعلنت الولايات المتحدة للعالم من خلال معاهدة طرابلس، أن «حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لم تُبْنَ إطلاقاً

على أسس الدين المسيحي. ... وأنه لا يوجد في تركيبتها أي شكل من أشكال العداوة للقوانين الإسلامية والدين الإسلامي.» من جديد، أثار هذا «العصيان لأوامر الرب» من قبل المسؤولين الحكوميين مشاعر الغضب لدى المستعمرين. بدأ الترقب المشوب بالهلع ينتشر بين معارضي الدستور الذين تحدثوا عن احتمال وصول أحد البابويين أو اليهود أو المسلمين إلى سدة رئاسة الولايات المتحدة.

إلا أن كل ذلك لم يفرض على الآباء المؤسسين التراجع عن دفاعهم عن الدستور العلماني. وفي الوقت الذي كان جورج واشنطن يؤمن بأن الكنائس تبلور الشخصية الأخلاقية، فإنه حثّ بقية العالم على اتباع النموذج الأمريكي. كتب في هذا الصدد ما يأتي: «إن مواطني الولايات المتحدة الأمريكية لهم الحق في أن يفخروا بأنهم قدموا للإنسانية أمثلة على السياسة الليبرالية الموسعة؛ وهي سياسة جديرة بأن تكون مثالاً يحتذى. فالجميع يتمتعون بحرية الضمير على قدر المساواة.»

ولكن أكثر ما كان مدعاة للاهتمام - وهو ما ميز الرئيس الأول للولايات المتحدة عن سايروس الكبير، أو حتى وليام أوف أورانج - أن رأي واشنطن فيما يتعلق بالحرية الدينية يمثل حقاً أساسياً للفرد، وليس منة يهبها له من هم في موقع السلطة. وفيما يأتي، ما قاله حرفياً حول هذا الموضوع: «لم يعد مقبولاً الحديث عن التسامح بعد الآن كما لو أنه هبة من قبل فئة من الناس لفئة أخرى بشأن منحها الحرية في ممارسة حقوقها الطبيعية، ويسعدني القول إن حكومة الولايات المتحدة التي لا توفر غطاء للكراهية، ولا تغض الطرف عن أي شكل من أشكال الاضطهاد، لا تطالب مواطنيها الذين يعيشون في كنفها سوى أن يكونوا مواطنين صالحين» [٧].

بطبيعة الحال، لم يتمتع الكثيرون في الولايات المتحدة حتى بعد سنة ١٧٩١، بالحرية الدينية الكاملة على أرض الواقع. فمن ناحية، كان التعديل الأول على الدستور لا ينطبق في بداية الأمر سوى على الحكومة الفيدرالية. فقد استمرت بعض الولايات خصوصاً في "نيو إنجلاند"، ببناء كنائسها البروتستانتية. وكانت

بعض هذه الولايات تشترط حضوراً إلزامياً للقداس في الكنائس. إضافة إلى ذلك، حصرت معظم الولايات الأمريكية الأولى حق التصويت، وحق استلام مناصب حكومية بالمسيحيين. وكان لا بد من الانتظار لعدة عقود لاحقة قبل التخلص من آخر هذه الآثار الكنسية الرسمية.

مختصر القول إن الولايات المتحدة، ومنذ ولادتها، قامت على المبدأ التنويري المتمثل في التسامح الديني الذي ورثته عن هولندا وبريطانيا، لكنها قامت بتوسيع أفق هذا التسامح الذي أصبح أكثر شمولية. ومع حلول نهاية القرن الثامن عشر، أصبحت الولايات المتحدة الدولة الأولى في العالم من دون منازع، في التسامح الديني.

يجب ألاّ لا يتم الخلط بين التسامح الديني والتسامح العرقي. هنا يمكن القول إن الآباء المؤسسين عانوا، مع بعض الاستثناءات، من العنصرية العمياء التي سادت زمانهم. ربما لم يدر في خلد جورج واشنطن وتوماس جيفرسون أن الحرية الدينية يمكن أن تشمل عبيدهم السود. تشير السجلات التي تعود إلى سنة ١٨١٣، إلى أن العبيد في المزارع الجنوبية الذين قامت عائلاتهم بتسميتهم عند الولادة بأسماء إسلامية مثل "فاطمة" و "سالمة" و "عثمان" قد أعاد أسيادهم تسميتهم بأسماء مثل "نبتون" و "أفلاطون" و"هاملت". وهكذا فلم يكن للعبيد، أو سكان البلاد الأصليين في ظل دستور الولايات المتحدة «المتنور» أي حقوق على الإطلاق [٨].

ربما لأسباب لن نستطيع فهمها على الإطلاق، غالباً ما كان التعصب يرتبط بلون البشرة ارتباطاً وثيقاً. رأينا ذلك في الأسلوب الذي اتبعته بريطانيا في مستعمراتها من غير البيض؛ وما تزال أوروبا الغربية تواجه حقائق العنصرية المؤلمة إلى يومنا هذا. في الحال الأمريكية، كان التمييز المستند إلى العرق هو سمة تاريخ الهجرة ومحاولة التأقلم في الولايات المتحدة منذ بدايتها. كان المستعمرون الأوائل والآباء المؤسسون ينحدرون جميعاً من أصول أوروبية غربية أو شمالية؛ وكلما أتت موجة

جديدة من المهاجرين الذين يشبهونهم أو يتشبهون بهم، كانت فرص التعامل معهم بنوع من التسامح أكبر.

كانت الغالبية الساحقة من المهاجرين (الطوعيين) إلى الولايات المتحدة حتى نهاية القرن التاسع عشر ممن يمكن أن نعتبرهم اليوم من «البيض». بالطبع، كانت هذه العبارة دائماً وما تزال، مطاطة. تأملوا على سبيل المثال التصريح المذهل حول لون البشرة الذي أدلى به بنيامين فرانكلين حول لون البشرة في مقالته التي كتبها سنة ١٧٥١ بعنوان «ملاحظات حول ازدياد عدد البشر»:

> عدد الشعوب ذات اللون الأبيض الصرف في العالم أجمع، صغير جداً من حيث النسبة. كل شعوب أفريقيا هي سوداء، أو ذات بشرة سمراء تميل إلى الصفرة. وكل شعوب أمريكا كذلك (باستثناء القادمين الجدد). وفي أوروبا، الأسبان، والطليان، والفرنسيون، والروس، والسويديون ينتمون عموماً إلى ما يمكن أن نطلق عليه وصف داكني البشرة؛ أما بالنسبة للألمان، باستثناء السكسونيين فقط، والذين يشكلون مع الإنجليز قاعدة الشعوب البيضاء على وجه الأرض. ... ربما أكون منحازاً إلى لون بشرة أبناء بلدي ... ومع ذلك، فهذا الانحياز هو أمر طبيعي بين بني البشر.

كان ذلك رأي فرانكلين قبل حصول أمريكا على استقلالها، وكان حينها ما يزال بريطانياً وطنياً متحمساً. (قام بحذف هذه الفقرة بنفسه قبل ان يأذن بطباعة بقية المقالة سنة ١٧٥٤.) ولكن في ستينيات القرن الثامن عشر، خاض فرانكلين مرحلة تحول كبرى على الصعيد الشخصي. ففي زيارة له قام بها إلى لندن، أثارت طبقة النخبة البريطانية استياءه، وهكذا، وبدلاً من ذلك، وجد لنفسه أصحاباً ومعارف من الإسكتلنديين والصاحبيين. أثارت غضبه الأوصاف التي كانت تطلق على المستوطنين الأمريكان الأوائل في الصحف الإنجليزية مثل: «جماعات من المشردين الإسكتلنديين والأيرلنديين والأجانب، المنحدرين من أصلاب مجرمين محكومين، ومتمردين ناكري الجميل، إلخ.» بعد عودته إلى فيلادلفيا، أصبح فرانكلين شخصاً آخر. لم يتبين له أن المستعمرات لها هوية منفصلة وحسب، بل أصبح الآن من

دعاة مقاربة فكرة المواطنة الأمريكية الصرفة. وهكذا، فقد أصبح فرانكلين بحلول سنة ١٧٨٣، واحداً من أشهر وأقوى المنادين بالسماح بفتح باب الهجرة للجميع على مصراعيه: «كل شخص يهاجر إلى هذه البلاد، ... ويضع يده على قطعة أرض» سيضيف إلى قوة هذه الأمة [٩].

وصل فرانكلين إلى القناعة بأن الهجرة هي مفتاح النجاح الأمريكي. وقد أثبت القرنان اللاحقان صحة قناعته تلك.

الأمريكان «الماكرون»، والمعركة الأولى لاجتذاب عمالة أوروبا الماهرة

أكد توماس جيفرسون في سنة ١٧٧٤ أن «الطبيعة منحت البشر الحق في مغادرة البلاد التي ولدوا فيها عن طريق المصادفة وليس باختيارهم» كي يبحثوا «عن أماكن جديدة ليستوطنوا فيها». تصادف إعلان جيفرسون حول الحقوق الطبيعية بشكل مميز مصالح أمريكا الذاتية. فبعد الثورة، كانت أمريكا متعطشة للقوة العاملة، خصوصاً من العمال المهرة والحرفيين الذين يملكون أحدث الخبرات المعرفية والصناعية التي لا غنى عنها من أجل النجاح الاقتصادي. لم يكن مما يبعث على الدهشة أن أوروبا لم توافق جيفرسون على ما قاله. وكما بيّن دورون بن عطار في كتابه "أسرار التجارة" Trade Secrets فقد ناضلت أوروبا بشدة من أجل منع هجرة عمالها المهرة إلى أمريكا المستقلة حديثاً. أما الأمريكان من جانبهم، فقد فعلوا كل ما بوسعهم لاجتذاب الأوروبيين المزودين بخبرات تقنية.

وضعت مدن ولاية ماساتشوستس إعلانات في الصحف الإنجليزية تعرض فيها أراضٍ وأخشاب للمهاجرين الراغبين في بناء المطاحن وتشغيلها. واستطاع مقاولون من نيويورك اجتذاب ثلاثة عشر من "أفضل" عمال الحديد في مدينة شيفيلد الإنجليزية وذلك بتقديم "منح مباشرة" لهم مقابل الهجرة: رواتب مضمونة لهم ولأفراد عائلاتهم الباقين في الوطن مدفوعة مدة سنتين. وكان وكلاء التعاقد يجوبون

أنحاء أوروبا بحثاً عن العمال المهرة. سنة ١٧٨٤، تمكنت شركة وادسورث وكولت في ولاية كنيتيكت من إقناع مئة من عمال النسيج الإنجليز بأن يعيدوا تموضعهم في مدينة هارتفورد. كما تمكن مقاول من مدينة بلتيمور في السنة نفسها من العودة من أوروبا مصطحباً معه ثمانية وستين من نافخي الزجاج من ألمانيا، وأربعة عشر آخرين من هولندا.

تحولت المنافسة بين أوروبا وأمريكا بعد هذا مباشرة إلى معركة حامية. بدأت أوروبا بسن قوانين صارمة تمنع التعاقد مع جهات أجنبية. وقد أُودع توماس فيلبوت -على سبيل المثال-، في السجن سنة ١٧٨٨، وتغريمه مبلغ خمسمئة جنيه إسترليني بسبب قيامه بتقديم إغراءات لعمال أيرلنديين للهجرة إلى أمريكا. ازدادت حدة القلق بشأن هذه المسألة في إنجلترا خصوصاً. صدر كراس في لندن في تسعينيات القرن الثامن عشر يتضمن تحذيراً بأن «الكثير من العملاء يجوبون كالطيور الجارحة ضفاف نهر التايمز بحثاً عن أمثال هؤلاء الحرفيين، والميكانيكيين والخبراء الزراعيين والعمال الراغبين في التوجه إلى أمريكا.» حذر وليام سميث الذي عين فيما بعد بوظيفة كبير القضاة في كندا في نشرة مشابهة من أن الأمريكان "الماكرين" يقومون بإغراء الإنجليز لترك بلادهم. كان الأمريكيون يحاولون في واقع الأمر «من خلال ادعائهم الكاذب بفتح موانئهم بموجب اتفاقية تجارية» للصناعيين الإنجليز تقديم إغراءات «لأفضل الحرفيين والصناعيين الإنجليز من أجل القيام بما عجزت عن القيام به عائلة البوربونيين برمتها بواسطة السيف.»

ردت لندن على تلك المحاولات بسن قوانين في منتهى القسوة منعت بموجبها الحرفيين البريطانيين والأيرلنديين من الهجرة إلى الولايات المتحدة. ومع بداية القرن التاسع عشر، لم يكن بمقدور أي شخص يفكر في الهجرة ركوب سفينة في ميناء ليفربول أو أي مدينة بريطانية أخرى من دون أن تكون بحوزته وثيقة موقعة من «مشرفي الكنيسة والمراقبين» في أبرشيته تفيد بأنه «ليس، أو لم يكن يوماً أبداً، عاملاً صناعياً أو حرفياً في مجال تصنيع الصوف، أو الحديد، أو الفولاذ، أو

النحاس، أو أي معدن آخر؛ وأنه ليس، أو لم يكن يوماً أبداً من صانعي ساعات اليد أو ساعات الحائط، أو عمل في أي صناعة أو حرفة ماهرة مهما كانت على الإطلاق.» كانت العقوبة تتمثل في نزع الجنسية ومصادرة الممتلكات. وعندما كان أي من هؤلاء يضبط متلبساً، كانت توجه إليه تهمة الخيانة.

لم تقتصر مثل هذه الإجراءات على إنجلترا وحدها. قامت البندقية بعزل حرفييها من نافخي الزجاج في جزيرة مورانو، وهددت من يفكر في الهجرة بعقوبة الإعدام. قامت الدول الأوروبية من مدة إلى أخرى طيلة القرن الثامن عشر باستصدار تشريعات تمنع بموجبها الهجرة (بالرغم من أنها كانت غالباً ما تبعث بجواسيس لاستقطاب الأيدي الماهرة من بلدان أخرى منافسة). فرضت ألمانيا على المهاجرين تقديم طلب للحصول على إذن بالمغادرة، ودفع مبالغ طائلة لتحقيق ذلك. صدرت العديد من الكراسات التي تصف حال الفقر المدقع في أمريكا؛ وزعمت إحدى النشرات أن المهاجرين الألمان أصبحوا في حال من الفقر المدقع لدرجة أنهم اضطروا «للتخلي عن أولادهم القُصّر» الذين «لن تقع أعينهم بعد ذلك على آبائهم، وأمهاتهم، وإخوتهم، وأخواتهم ثانية أبداً» [١٠].

لكن مد الهجرة الأوروبية لم يكن بالإمكان إيقافه. فالأمريكيون الذين لم يكن في نيتهم التراجع - سواء كانوا مقاولين يعملون لحسابهم الخاص، أو مسؤولين حكوميين مثل وزير الخزانة أليكساندر هاملتون - استنبطوا طرائق لمواجهة الحملات الدعائية المناهضة لأمريكا في الخارج، والمناورة على القيود التي وضعتها أوروبا على الراغبين في الهجرة. وضعت الرسائل الواردة من أمريكا التي وجهها المهاجرون إلى أصدقائهم في العالم القديم النقاط على الحروف:

> يمكن لأي شخص يزاول أي مهنة، يدوية كانت أم آلية، بجهد مخلص، وحصافة عادية أن يحقق حياة مستقلة له ولأفراد عائلته؛ فأجور العمل هنا مرتفعة، وتعادل ضعف الأجور التي كنا نتلقاها في إنجلترا، و تبلغ أربعة أضعاف الأجور التي يتلقاها نظراؤنا في فرنسا. عدد السكان هنا ضئيل نسبياً، وهناك طلب

كبير على العمالة في جميع أنواع المهن، وعدد الوظائف المتوافرة كبير جداً، أما الأراضي فأسعارها رخيصة للغاية، والضرائب جد منخفضة. أما بالنسبة إلى الإنفاق العام والديون، فإنها خفيفة جداً.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجد أكثر من مليونين ونصف المليون من «المهاجرين غير الشرعيين» - كانوا غير شرعيين ليس بمعنى أنهم خالفوا قوانين الهجرة الأمريكية التي لم تكن في الأساس موجودة، بل قوانين بلدانهم الأصلية لأنهم كانوا أصحاب مهارات يحظر على أصحابها مغادرة بلدانهم - طريقهم إلى أمريكا قادمين إلى العالم الجديد. كانت معظم محالج القطن في أمريكا تدار من قبل المهاجرين الإنجليز من ذوي الخبرة. وفي سنة ١٨٥٠، كان ثلاثة أرباع عمال الغزل وعمال النسيج في المدينة الألمانية في بنسلفانيا من الوافدين الجدد.

حدثت فورة كبيرة في الاقتصاد الأمريكي في القرن التاسع عشر، ويعود الفضل في ذلك بدرجة كبيرة إلى المهاجرين الذين كانوا تلقوا تدريباً جيداً، وجلب العديد منهم معه مهارته التي اكتسبها خلال سنوات من العمل في المصانع الأوروبية. كان أحد أهم المساهمين في هذا المجال هو صاموئيل سلاتر الذي يُعد -من وجهة نظر الكثيرين - أباً للثورة الصناعية في أمريكا. عمل سلاتر في إنجلترا في صباه كمتدرب في أحد مصانع النسيج التي تستخدم آلات غزل جديدة ومبتكرة، اخترعها ريتشارد أركرايت. رقي سلاتر بسرعة إلى وظيفة مراقب لأنه كان سريع الفهم والاستيعاب. إلا أن سلاتر لم يكن باستطاعته مقاومة الإغراءات التي تتناقلها القصص حول أمريكا. عبر سلاتر المحيط الأطلسي بعد أن ادعى أنه عامل مزرعة، ووصل إلى أمريكا من دون أن تكون لديه أي رسومات تقنية أو تجهيزات.

نقل سلاتر أكثر تكنولوجيا في صناعة النسيج تقدماً في العالم من بريطانيا إلى أمريكا، وذلك من خلال إعادة بنائها معتمداً في ذلك بالدرجة الأولى على ذاكرته. ومع بداية القرن التاسع عشر، بدأت معامل الغزل والنسيج التي اعتمدت في تصميمها على النموذج الذي بناه سلاتر بالعمل في مختلف أنحاء الولايات المتحدة. في غضون

تلك الحقبة تقريباً، قام فرانسيس كابوت لويل من ولاية ماساتشوستس، بعد سنوات قضاها في التجوال في مصانع غلاسكو ومانشستر، باختراع آلة تقوم بكافة مراحل إنتاج النسيج - تمشيط الخيوط، وغزلها ثم نسجها - في المصنع نفسه. لم تمض على ذلك سوى سنوات قليلة حتى بدأ أول مصنع مدمج للخيوط القطنية في العالم بالعمل في مدينة والثام بولاية ماساتشوستس. وبحلول العشرينيات من القرن التاسع عشر، بدأ الإنتاج الصناعي الأمريكي يقترب من مستوى إنتاج بريطانيا، وكانت تكنولوجيا النسيج في الولايات المتحدة من زوايا عديدة، أكثر تقدماً من مثيلتها البريطانية[١١].

أعطى العديد من المهاجرين دفعاً إضافياً لأمريكا الفتية من خلال تزويدها بأسرار تكنولوجية ومهارات مختلفة. اصطحب أيرين دو بون، وهو مهاجر من فرنسا، معه تكنولوجيا البارود إلى الولايات المتحدة. أسس أيضاً شركة E. I. Du Pont de Nemours & Company، وهي اليوم إحدى أكبر شركات الكيماويات في العالم. اكتشف جوزيف بريستلي الأكسجين وحقق فتحاً كبيراً في مجال الكهرباء. (أطلق على بريستلي أيضاً لقب أب المياه الغازية لأنه هو من اخترع الماء المهدرج.) ساعدت مثل هذه الأسماء، وغيرها من موجات لا تحصى من "الأدمغة النازفة" من أوروبا في تحويل الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر من بركة مياه راكدة إلى واحدة من أهم القوى الصناعية في العالم.

كان التسامح الأمريكي عاملاً أساسياً في ذلك. بطبيعة الحال، لم تكن الغالبية الساحقة من المهاجرين من ذوي المهارات العالية والمخترعين قد لجأت إلى أمريكا هرباً من الاضطهاد الديني أو السياسي. كان هؤلاء يبحثون عن فرص اقتصادية أفضل؛ إلا أن أهم ما جعل الولايات المتحدة أرض الفرص، كان انفتاحها النسبي وتعدديتها. لم تكن بلدان أوروبا "أمماً من المهاجرين" بالمعنى الذي كانت عليه أمريكا. كانت فرص الأوروبيين الفقراء المغامرين في ترك مواطنهم الأصلية، وتحقيق النجاح في بلد أوروبي آخر، على امتداد القرن التاسع عشر وحتى أكثر مراحل القرن العشرين، محفوفة بالحواجز والمصاعب بما في ذلك العداوات الدينية التاريخية،

والشوفينية الثقافية، والتعصب الاجتماعي، والاختلافات والحواجز اللغوية. في المقابل، كانت أمريكا بتعدديتها الدينية، وحراكها الاجتماعي، وجالياتها المتعددة اللغات، منفتحة بشكل لافت على المواهب، والراغبين في الاستثمار بغض النظر عن أي خلفية أوروبية أتى منها هؤلاء. لم تكن هناك بمعنى من المعاني، حدود للطموح في أمريكا.

كان بإمكان المهاجرين أن يرتقوا إلى أعلى المستويات في المجتمع الأمريكي من الناحيتين السياسية والاقتصادية، وقد احتل العديد منهم مواقع عليا. شغل ألبير غالاتين، وهو خبير مالي بارع من سويسرا، منصب وزير الخزانة في عهد جيفرسون. وكان غالاتين هو من رتب لشراء أراضي لويزيانا، وقام بتمويل الرحلات الاستكشافية لبعثة "لويس وكلارك". استهل جون جاكوب آستر، وهو من التابعية الألمانية، حياته المهنية في أمريكا ببيع الأدوات الموسيقية. بعدها بمدة قصيرة، أسس "شركة الفراء الأمريكية" وأصبح أكثر الرجال الأمريكان ثراء في المرحلة التي سبقت الحرب الأهلية في أمريكا. بدأ ماركوس غولدمان، وهو يهودي ألماني، كبائع متجول يبيع بضاعته على عربة تجرها الخيل. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتحول إلى بيع الكمبيالات وأذون السندات. بلغ رأسمال شركته التي تدعى: Goldman"s Sachs & Co بحلول سنة ١٩٠٦، خمسة ملايين دولار. (بلغت قيمة أسهم هذه الشركة في شهر حزيران، يونيو، سنة ٢٠٠٧، حوالي ١٠٠ بليون دولار.) أما في سنة ١٨٤٧، فقد هاجر أندرو كارنيغي، الصبي الإسكتلندي الذي لم يكن يملك شروى نقير، والبالغ من العمر اثنتي عشرة سنة إلى بيتسبيرغ مع عائلته. بعد خمسين سنة، أسس شركة أطلق عليها فيما بعد اسم "الولايات المتحدة للفولاذ"، وأصبح أغنى رجل في العالم [١٢].

الهجرة الأطلسية الكبرى
وبروز أمريكا قوة إقليمية

لم يجلب المهاجرون الأوروبيون معهم إلى أمريكا المهارة وروح المقاوَلة وحسب. فقد جاؤوا أيضاً بالقوة البشرية. كانت الولايات المتحدة على امتداد القرن التاسع عشر بحاجة ماسة إلى القوة العاملة من أجل زراعة الأرض، وبناء السكك الحديدية، واستيطان مناطقها الداخلية، وتوسيع مناطقها الحدودية. عبر أبراهام لينكولن عن تلك الحاجة بالقول إن «هناك نقصاً كبيراً في اليد العاملة في كل المجالات؛ خصوصاً في مجالات الزراعة، والمناجم، واستخراج الحديد والفحم اللذين نعدهما من المعادن النفيسة».

كان من المستحيل على أمريكا أن تستمر في توسعها القاري لولا الملايين من المهاجرين الذين تدفقوا عليها من بريطانيا وأيرلندا وألمانيا واسكندنافيا، وفي مرحلة لاحقة، من إيطاليا وشرق أوروبا. قام المهاجرون الأيرلنديون ببناء قناتيْ "إيري وأوهايو" (كانوا أحياناً يقبضون أجورهم على شكل زجاجات من الويسكي)، انتقلوا بعدها إلى العمل في مد شبكة الخطوط الحديدية بدءاً من بوفالو، مروراً بأكرون وأوماها، وصولاً إلى سان فرانسيسكو. اختار المهاجرون القادمون من اسكندنافيا من تلقاء أنفسهم الاستقرار في شمال غرب أمريكا وكانوا يقطعون أشجار الغابات بالمنشار السويدي، وينقلون الأخشاب إلى الأسواق على متن مراكب نرويجية بخارية [١٣].

أما الألمان فقد استقروا بشكل رئيس في الشمال والغرب، وأيضاً في لويزيانا وتكساس وفيرجينيا. أثناء الحرب الأهلية، قاتل أكثر من ١٧٥ ألفاً من هؤلاء من أجل الاتحاد، وغالباً ما كانوا يقاتلون بإمرة ضباط ألمان، وكانت تتقدمهم فرقهم الألمانية الخاصة بهم في العروض العسكرية. أدى هؤلاء الألمان دوراً حاسماً في إبقاء ميسوري في أيدي القوات الاتحادية قبل معركة "فورت سومتر" وبعدها. ولولا

المهاجرين الألمان والمهاجرين من جنسيات أخرى، لما كان بإمكان الولايات المتحدة نشر الجيوش التي انتزعت كاليفورنيا وتكساس وجنوب الغرب الأمريكي من أيدي المكسيكيين، أو وقف زحف القوات الفرنسية في أمريكا الوسطى، أو هزيمة كوبا والفيليبين، وهو ما مهد الطريق لأمريكا كي تصبح القوة الأعظم في القسم الغربي من الكرة الأرضية مع نهاية القرن التاسع عشر.

كما أنه لم يكن بإمكان أمريكا أن تصبح واحدة من أهم المنتجين في المجالين الزراعي والصناعي في القرن التاسع عشر لولا تدفق العمالة المهاجرة إليها بوتائر ثابتة. وبينما كان الأمريكان من غير المهاجرين يتجهون غرباً، كان الوافدون الجدد الفقراء القادمون من أوروبا يستوطنون المراكز الحضرية, ويملؤون صفوف العمالة غير الماهرة. شكل الأيرلنديون نصف عدد عمال المناجم في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. كان أغلب العاملين في مصانع الفولاذ في بوفالو من البولنديين؛ أما مصانع النسيج في روشستر، فكانت تدار من قبل العمال الإيطاليين، وكانت شركة تعليب اللحوم في "سيدر رابيدز" وأوماها تستخدم التشيكيين بأعداد كبيرة. بحلول سنة ١٩١٠، عندما كانت الولايات المتحدة على رأس دول العالم في حجم إنتاج الصناعات الثقيلة، كانت الغالبية الساحقة من العمال الذين يقومون بعمليات الإنتاج تلك، من المهاجرين. كان ثلثا عدد الرجال ونصف عدد النساء العاملين في عشرين مركزًا في قطاعيْ التصنيع والمناجم في البلاد من الوافدين الجدد.

استمرت وتيرة الهجرة إلى الولايات المتحدة من أوروبا من دون انقطاع تقريباً حتى سنة ١٩٢٠. كانت أعداد المهاجرين كبيرة بشكل لا يصدق. ففي سنة ١٩٠٠ فقط، بلغ عدد المهاجرين الذين عبروا المحيط الأطلسي للبحث عن موطن لأنفسهم في الولايات المتحدة مليونين من البشر. أما بين سنتيْ ١٨٢٠ و١٩١٤، فقد تدفق ما يربو على ثلاثين مليوناً من المهاجرين على الولايات المتحدة - وهو أعلى معدل هجرة بشرية في تاريخ العالم [١٤].

لم يكن الوافدون الجدد دائماً موضع ترحيب من قبل الأمريكيين. على العكس من ذلك، كان القرن التاسع شر يتميز باندلاع موجات سُمّيّة من الخوف الشعبي من الأجانب، كذلك من «مسألة سكان البلاد الأصليين». كانت المظاهرات عنيفة بشكل خاص ضد الكاثوليك في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر. وفي سنة ١٨٥٦، شكّلت مجموعات ما يعرف بالذين «لا يعرفون شيئاً» حزباً سياسياً واختاروا مرشحاً لرئاسة الولايات المتحدة من بينهم على قاعدة مناهضة الكاثوليكية، مستهدفين بالدرجة الأولى المهاجرين الأيرلنديين والألمان. وبالرغم من أن محاولتهم الفوز بمنصب رئيس الولايات المتحدة قد باءت بالفشل، إلا أنهم أحرزوا عشرات الانتصارات في الانتخابات المحلية خصوصاً في مناطق نيو إنجلاند والجنوب.

ولكن بعد جيل أو جيلين، اندمجت الغالبية الساحقة من المهاجرين الأوروبيين في المجتمع الأمريكي. وقد سُمح لهم ليس فقط بالتعبد بحسب مذاهبهم الدينية الخاصة بهم، بل بجمع الثروات والوصول إلى مراكز القرار السياسي. وفي ستينيات القرن التاسع عشر كان الكاثوليك يمثلون أكبر تجمع ديني إفرادي في البلاد، واعتبر حزب الذين «لا يعرفون شيئاً» بحكم الميت. ساعدت الوطنية التي أظهرها مئات الآلاف من المهاجرين الذين قاتلوا إلى جانب الاتحاديين في الحرب الأهلية، وكان العديد منهم قد بدأ للتو في تعلم اللغة الإنجليزية، في ترطيب مشاعر العداء للأجانب. تم حث الكونغرس في الواقع على تشجيع الهجرة في أثناء الحرب الأهلية. منح قانون "هامستيد" الذي سُنَّ سنة ١٨٦٢، «مئة وستين فداناً من الأراضي الحكومية لأي مستوطن، أو من سكان البلاد الأصليين، أو أجنبي يعلن عن رغبته في أن يصبح مواطناً أمريكياً، ويتعهد بأن يعيش في تلك الأرض مدة خمس سنوات، وأن يقوم بما هو ضروري من عمليات استصلاح لهذه الأرض»[١٥].

أدت الديمقراطية والدراسات السكانية الإحصائية أيضاً دوراً إيجابياً لصالح المهاجرين. فمع حلول منتصف القرن التاسع عشر، أصبح الصوت «العرقي» قوة يحسب لها حساب، وذلك على الأقل في المدن التي توجد فيها تجمعات كبيرة من

المهاجرين. وهكذا، فبالرغم من أن بعض أرباب العمل علقوا يافطات كتب عليها: «لا داعي أن يتقدم أيرلندي بطلب للحصول على وظيفة»، استطاع الأيرلنديون من خلال قوة أصواتهم الانتخابية أن يسيطروا على أهم مفاصل الآلة السياسية في المناطق الحضرية؛ فقد نجحوا في تولي رئاسة البلدية وأمسكوا كذلك بزمام قيادة الشرطة في مدن مثل بوسطن وشيكاغو ونيويورك.

كان التسامح الذي أبداه زعماء الأحزاب السياسية مع المهاجرين مجرد إجراء إستراتيجي. بدأ الزعيم السياسي "تويد" على سبيل المثال، حياته السياسية مدافعًا عن حقوق سكان البلاد الأصليين؛ لكنه أمضى بقية حياته المهنية يخطب ود المهاجرين، لا لشيء إلا لأنه لم يكن لديه أي خيار آخر. منح المهاجرين وظائف وقروضًا وخدمات مختلفة مقابل حصوله على أصواتهم. كذلك كان الأمر بالنسبة للزعيم السياسي جون باورز الذي أصبح أقوى زعيم سياسي في شيكاغو بين سنتيْ ١٨٩٦ و١٩٢١ بسبب اهتمامه بالدوائر الانتخابية للأيرلنديين والألمان والإسكندينافيين والطليان واليهود والسلافيين. كان باورز بالإضافة إلى توفيره وظائف وتسهيلات لتلك الجاليات، لا يفوت مناسبة اجتماعية لهذه الأعراق من حفلات زفاف، ورحلات جماعية واستعراضات احتفالية. وقد أدت مهارته في استغلال مناسبات الجنازات لغايات سياسية خاصة به، إلى تسميته ب «النّدّاب».

استشرى الفساد الذي كان يمارسه زعماء الآلة السياسية الجدد. تحولت الرشوة والابتزاز وشراء الأصوات إلى ممارسات روتينية. تم اختلاس مبلغ ٢٠٠ مليون دولار من بلدية "تاماني" التابعة لمدينة نيويورك والتي كان يرأسها بوص تويد بين سنتيْ ١٨٦٥ و ١٨٧١. نقلت صحيفة L"Italia الصادرة في شيكاغو عن باورز قوله: "باستطاعتي شراء الصوت الإيطالي بكأس من البيرة مع التحية. فمن المعروف أنني اشتريت الصوت الإيطالي منذ سنتين بخمسين سنتاً لكل صوت، أما هذه السنة فإنني سأدفع خمساً وعشرين سنتاً مقابل الصوت الواحد. ولكن بالرغم من قذارة الآلة السياسية الحضرية، فقد كان لها بعض الجوانب الإيجابية. ففي

عصر ما قبل الصفقات الجديدة، كان زعماء تلك الدوائر يقدمون خدمات اجتماعية كانت الحاجة إليها ماسة. الأهم من ذلك، أن العلاقات التكافلية بين هؤلاء الزعماء وبين المهاجرين أسهمت في دمج الجماعات العرقية التي كانت مستثناة في السابق وخصوصاً الأيرلنديين والطليان [١٦].

قصة نجاح أمريكا في التوسع غرباً هي في الوقت نفسه بالطبع، قصة انكماش سكان أمريكا الأصليين؛ فقد كانت مكاسب المهاجرين تعني خسائر سكان البلاد الأصليين. عندما اتجه الأمريكان غرباً، لم يطبقوا صيغة التسامح الإستراتيجي والاندماج مع الأقوام الأخرى كما فعل قدامى الفرس والرومان أو المغول مع الشعوب التي استعمروها. وكان من سوء حظ سكان أمريكا الأصليين أن الولايات المتحدة كانت في موقع متميز تستطيع من خلاله أن تكون تلك القوة التوسعية الغازية؛ فقد كانت تملك مصدر تمويل آخر يزيد من عدد سكانها، وهذا المصدر كان يزودها بأعداد أكبر من المستوطنين الجدد من ذوي المهارات التكنولوجية المتفوقة. لم يكن الأمريكان يشعرون على ما يبدو بالحاجة إلى أنصال النبال المسنونة. تلك كانت الحقيقة الوحشية وراء التسامح الإستراتيجي الانتقائي. ففي الوقت الذي كانت الولايات المتحدة ترحب بالحشود الوافدة من أوروبا، كانت شعوب البلاد الأصلية تتعرض للإبادة، والتطويق والعزل، والتهجير.

لم يكن سكان البلاد الأصليين وحدهم الذين تم إقصاؤهم عن كافة الامتيازات التي وفرها التسامح الإستراتيجي الأمريكي. فلم يكن يسمح للنساء بممارسة حق التصويت، كما تم تغييبهن تماماً عن مواقع السلطتين الاقتصادية والسياسية (بالرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن تعاني وحدها من هذه السلبية النسبية وذلك لأن النساء كن مقصيات عن مواقع السلطة في أماكن أخرى من العالم). في نهاية القرن التاسع عشر، تعرضت النساء المهاجرات من أصول آسيوية في الولايات الغربية إلى موجات من الكراهية والتمييز والاعتداءات الجسدية. والأسوأ من هذا، أن الولايات المتحدة لم تلغِ العبودية إلا سنة ١٨٦٥، أي بعد ثلاثين سنة من

قيام بريطانيا بذلك؛ وبقيت أمريكا حتى في مرحة إعادة البناء التي أعقبت حقبة الحرب، مجتمعاً عنصرياً شديد التعصب.

مع ذلك، كانت للمجتمع الأمريكي في القرن التاسع عشر ثلاثة ملامح حاسمة أدت إلى فتح باب الفرص واسعاً أمام الناس الذين ينتمون إلى خلفيات متشعبة بشكل كبير. كانت التعددية الدينية لذلك المجتمع من الشمولية بحيث إنها لم تتح للوافدين الجدد ممارسة شعائرهم الدينية المختلفة وحسب، بل أفسحت المجال بشكل مستمر أمام إيجاد ديانات جديدة. (بحلول القرن العشرين، بدأت أمريكا تتباهى بقيام خمس ديانات جديدة كبرى على أرضها؛ وهذه الديانات الخمس هي: العلم المسيحي، والمورمونية، ومجيئية اليوم السابع التي تؤمن بعودة المسيح، وشهود يهوه، وأتباع عيد الحصاد عند اليهود والذي يدعى عيد الخميس عند المسيحيين.) كان نظام الحكم الديمقراطي فيها قادراً بالرغم من فساده، وربما بسبب ذلك الفساد، على منح الوافدين الجدد بعض النفوذ السياسي الفعلي، على الأقل، على الصعيد المحلي. كما استطاعت سوقها المليئة بالحراك أن تمتص كل القوى العاملة، وأن تكافئ المهارات الميكانيكية التي يتمتع بها بعض الوافدين الموهوبين، كما وفرت فرصاً للاستثمار لا تُرى إلا في الأحلام. كان يمكن لبعض الأمم في القرن التاسع عشر توفير كميات بسيطة من تلك الميزات الثلاث، لكن أياً من تلك الأمم لم يكن بمقدورها الذهاب إلى مدى تستطيع من خلاله توفير مثل هذه المزايا مجتمعة كما فعلت أمريكا.

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة القبلة الأولى للهجرة من دون منازع بالنسبة للوافدين الجدد. وصل حوالي عشرين مليوناً من المهاجرين إلى أمريكا بين سنتيْ ١٨٧١ و ١٩١١. وفي المدة نفسها استقبلت البرازيل والأرجنتين سوية ما لا يتجاوز الستة ملايين؛ واستقبلت أستراليا ونيوزيلندة مليونين ونصف، وأخيراً كندا، وفدَ إليها أقل من مليونين [١٧].

التحول من قوة إقليمية
إلى قوة عالمية

كانت الولايات المتحدة بالرغم من فورتها الاقتصادية الهائلة، وتمددها الجغرافي مع بداية القرن العشرين، ما تزال قوة إقليمية وحسب. وكانت تُعد دولة ضعيفة من الناحية العسكرية مقارنة مع القوى الكبرى في أوروبا. وكان أسطولها البحري في ثمانينيات القرن التاسع عشر في المرتبة الثانية عشرة في العالم من حيث عدد السفن، حتى إن ترتيبها جاء بعد السويد. أما جيشها «فلم يكن يعتد به حتى بالمقارنة مع دول متوسطة الحجم في أوروبا مثل بلغاريا وصربيا.» وبالرغم من أن قواتها المسلحة كانت كبيرة بما يكفي لحماية حدودها، والإبقاء على سيطرتها في منطقة الكاريبي والأمريكيتين، إلا أن الولايات المتحدة بحلول سنة ١٩٠٠، كانت بالكاد، على قائمة الدول التي تتمتع بوزن عسكري ملموس على الصعيد العالمي [١٨].

كان كل ذلك سيتغير في العقود القليلة اللاحقة. هيأت الحرب العالمية الأولى للولايات المتحدة الفرصة الأولى كي تكون قوة عالمية كبرى. تسبب التدخل الأمريكي سنة ١٩١٧ في تغيير موازين القوى لصالح الحلفاء، وأناط بالولايات المتحدة دور تعليم «أمم العالم كيف تسير في دروب الحرية» كما قال الرئيس وودرو ويلسون.

لكن الولايات المتحدة حينها لم تكن جاهزة بعد لتحقيق رؤية ويلسون. فبدلاً من توجيه قوتها نحو الخارج، انكفأت الولايات المتحدة على نفسها بحركة «انعزالية»، وتمثل ذلك في رفض مجلس الشيوخ التصديق على معاهدة عصبة الأمم التي استبسل وودرو ويلسون من أجل إنشائها [١٩]. في الوقت نفسه، كانت العواطف الوطنية التي أسهمت الحرب في تأجيجها قد أطلقت العنان لموجة أخرى من رهاب الأجانب والحس الوطني. أقر الكونغرس في سنوات ١٩١٧، و١٩٢١، و١٩٢٤ سلسلة من قوانين حول الهجرة كان من شأنها تغيير سياسة الولايات المتحدة حول هذا الموضوع بشكل جذري.

وضعت هذه القوانين، قيوداً على أعداد المهاجرين للمرة الأولى. الأهم من ذلك،

فرضت هذه القوانين نظام نسب حصص محددة تبعاً للانتماء القومي للمهاجرين، وهو نظام له دلالاته العنصرية والعرقية الواضحة. كان الهدف من سن قانون سنة ١٩٢٤، كما ذكر عضو الكونغرس ألبرت جونسون الذي وضع مشروع القانون، تحقيق فكرة «المواطَنَة المتجانسة»؛ وبذلك، وُضِع حد لمبدأ «قبول كل الأعراق من دون تمييز.» وقف جونسون بشدة ضد «ذوبان المؤسسات الأمريكية الراقية» في «الدم الأجنبي المتدفق»، كما حذّر من خطر«غير الأمريكي القذر» واليهود «غير القابلين للاندماج». وبناء عليه، أصبح عدد المهاجرين المسموح لهم بالقدوم من أي بلد بحسب نظام الحصص المنصوص عنها في قانون ١٩٢٤ يستند إلى عدد سكان البلاد الأصليين من ذلك البلد، والذين يعيشون في الولايات المتحدة منذ سنة ١٨٩٠. نتيجة لذلك، فرضت قيود شديدة على قبول الأوروبيين الشرقيين والجنوبيين، ناهيك عن الحظر شبه الكامل على الآسيويين والأفارقة والمهاجرين غير البيض من جنسيات أخرى.

وفّر "الركود الكبير" للسياسيين الأصوليين القوميين الفرصة كي ينحوا باللائمة على «قطعان الأوروبيين المفلسين» - «المهجنين» و»الأميين» الذين كان العديد منهم «متطرفين خطرين» - «الواقفين في طوابير بانتظار هجرتهم إلى أمريكا.» طالب الرئيس هوفر بتشديد القيود على الهجرة؛ وبالتالي فقد اتبعت الولايات المتحدة بين سنتيْ ١٩٣١ و ١٩٣٥ أسلوباً انتقائياً في مسألة الهجرة للمرة الأولى في تاريخها.

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كانت ردة الفعل الأولى عند العديد من الأمريكيين تتمثل في أن الولايات المتحدة يجب أن تبقى في منأى عن هذه الحرب - وبالتالي يجب إبقاء الأجانب خارج الولايات المتحدة. عشية مذابح كريستالناخت الكبرى التي وقعت في ألمانيا النازية سنة ١٩٣٩، قدم عدد من أعضاء الكونغرس مشروع قانون يسمح بموجبه استقبال ٢٠٠٠٠٠ من الأطفال اليهود اللاجئين في الولايات المتحدة زيادة على حصة ألمانيا المقررة من المهاجرين. وقفت منظمات الأصوليين القوميين بشدة ضد مشروع القانون، كما عارضته بشدة الغالبية الساحقة من الأمريكيين، ومن ثَم لم يعرض مشروع هذا القانون لا على مجلس النواب، ولا

على مجلس الشيوخ. أطلقت لورا ديلانو ابنة عم الرئيس روزفلت، وزوجة مفوض شؤون الهجرة تحذيرها الشهير الذي أعلنت فيه أن «عشرين ألفاً من الأطفال الجملاء سوف يكبرون بسرعة ويصبحون عشرين ألفاً من البالغين القباح.»

لم تستمر المعدلات السلبية للهجرة في ثلاثينيات القرن العشرين، والتي كانت استثنائية تماماً في تاريخ الولايات المتحدة، سوى مدة محدودة من الزمن. ومن قبيل المفارقة، فقد صبت المواقف السلبية من الهجرة خلال سنين الحرب في صالح عشرات الملايين من الوافدين الجدد الذين كانوا قد وصلوا لتوهم إلى الولايات المتحدة. أدى التدفق الهائل لمواطني أوروبا «الأكثر فقراً والأقل حظاً» - بمعدل مليون تقريباً من الإيطاليين والبولنديين والروس والفنلنديين واليهود والألمان والتشيكيين والهنغاريين سنوياً بين سنتي ١٩٠٠ و١٩١٤ - إلى ضغوطات اجتماعية كبيرة في أمريكا [٢٠]. وفرت سنوات الحرب التي أغلقت فيها أبواب الهجرة نسبياً فترة استرخاء سمحت لهذه الجاليات من المهاجرين أن تتأقلم وتندمج في الحياة الأمريكية. كانت تلك ضربة حظ، لأن العديد من أبناء هؤلاء الأمريكيين الجدد استُدعوا للقتال والموت في حرب أعادت أمريكا بشكل لا رجعة عنه هذه المرة، إلى خشبة المسرح الدولي.

إذا كانت الحرب العالمية الأولى قد تسببت في إضعاف القوى الكبرى في أوروبا، فإن الحرب العالمية الثانية أسقطتها بالضربة القاضية. لم يعد دور أوروبا محورياً في العالم الذي خرج من ركام الحرب سنة ١٩٤٥. عندما أزيل ذلك الركام وذلك الدمار، شمخت الولايات المتحدة قوة عظمى تعتمد أمم أوروبا المحطمة على قوتها وثروتها.

أدت تلك الحرب التي اتسمت بالفظاعة في كثير من جوانبها، إلى ازدهار اقتصادي غير مسبوق في الولايات المتحدة. بين سنتيْ ١٩٤٠ و ١٩٤٤، حدثت فورة هائلة في الاقتصاد الأمريكي الذي نفض عن نفسه غبار الركود الاقتصادي،

والذي توسع بمعدلات لم يسبق له أن وصل إليها قبل تلك الحقبة. مع نهاية الحرب، أصبحت الولايات المتحدة أعظم مُصدّرٍ للبضائع، وبلغ إنتاجها الصناعي أكثر من نصف الإنتاج العالمي الكلي. بلغ احتياطي الذهب لديها ما قيمته عشرون بليوناً من الدولارات (أي حوالي ثلثي الاحتياط العالمي)، كما بلغ مستوى المعيشة فيها وإنتاجية الفرد فيها معدلاً لم تنافسها فيه دولة في العالم. قدمت الولايات المتحدة لأوروبا بموجب مشروع مارشال ما قيمته ثلاثة عشر بليوناً من الدولارات، وهو ما ساعد الاقتصاد المنهار في دول مثل ألمانيا الغربية وإيطاليا وفرنسا في الوقوف على قدميه من جديد.

في الوقت نفسه، أضحت الولايات المتحدة أقوى قوة عسكرية في العالم الغربي؛ فقد استطاعت الولايات المتحدة مع نهاية الحرب تعبئة جيش يبلغ عدده اثني عشر مليوناً ونصف المليون من الجنود. وحلت القوات البحرية الأمريكية المكونة من ألف ومئتي سفينة حربية، وأسطول هائل من الغواصات الشديدة الفتك محل البحرية الملكية البريطانية كأقوى قوة بحرية في العالم. كما سيطرت على الأجواء قاذفاتها المقاتلة البالغ عددها ألف طائرة من نوع B29 والتي محت العديد من المدن اليابانية عن الخارطة. أما أشد الأسلحة فتكاً فقد كانت القنبلة الذرية التي لم تكن تمتلكها سوى الولايات المتحدة، والتي حولت مدينتي هيروشيما وناغازاكي إلى كتلتين من لهب لم يشهد لهما العالم مثيلاً.

وقد أدى التسامح دوراً حاسماً من كل النواحي، في تبوء الولايات المتحدة موقع الدولة العظمى. نستطيع التأكيد مرة أخرى أن الميزة التي تمتعت بها الولايات المتحدة والمتجسدة في قوتها البشرية كانت النتاج المباشر لسياسة الباب المفتوح أمام المهاجرين قبل سنة ١٩٢٠. كان عدد سكان الولايات المتحدة سنة ١٨١٦ لا يتجاوز ثمانية ملايين ونصف المليون نسمة مقارنة مع روسيا التي كان يبلغ تعداد سكانها آنذاك واحداً وخمسين مليوناً ومئتي ألف نسمة. بحلول سنة ١٩٥٠، أصبح عدد سكان الولايات المتحدة يربو على ١٥٠ مليون نسمة، بينما كان عدد سكان روسيا لا يتجاوز ١٠٩ مليون نسمة. الأهم من هذا وذاك، أن المهاجرين أخذوا على عاتقهم

القيام بتلك الفتوحات التكنولوجية الثورية التي كانت بمنزلة الرافعة التي أوصلت الولايات المتحدة إلى تفوقها العسكري العالمي [٢١].

أدى التعصب النازي في أوروبا، في ثلاثينيات القرن العشرين إلى فقدان أعداد لا تحصى من أصحاب المواهب العلمية. وكانت اللائحة التي تحتوي على أسماء علماء مبدعين في مجاليْ الفيزياء والرياضيات الذين فروا من هتلر مذهلة، وكان من بين هؤلاء إدوارد تيلر المعروف بلقب «أبي القنبلة الهيدروجينية»؛ وثيودور فون كارمان، عبقري هندسة الطيران؛ وجون فون نيومان، الطفل المعجزة، والمخترع المشارك لنظرية الصناعة؛ وليز ميتنر الذي سمي عامل الميتنريوم ١٠٩ باسمه؛ وليو زيلارد، مخترع سلسلة التفاعل النووي؛ وإنريكو فيرمي، باني أول مفاعل نووي تجريبي؛ وعلماء الفيزياء الحاصلين على جائزة نوبل، هانز بيث، ويوجين ويغنر، ونيلز بور، وبالطبع، ألبرت أينشتاين. جميع هؤلاء العلماء باستثناء ميتنر وبور، هاجروا إلى الولايات المتحدة.

كانت هجرة هؤلاء العلماء اللاجئين إلى الولايات المتحدة، والذين كان أغلبهم من اليهود، تمثل أعظم «تدفق للقدرات العلمية التي لم يسبق لها مثيل.» كانت ألمانيا وهنغاريا حتى ثلاثينيات القرن العشرين موطناً لبعض أهم علماء الفيزياء في العالم. حولت هجرتهم الولايات المتحدة بين ليلة وضحاها، إلى «القوة الأولى في العالم في مجال العلوم النظرية.» فأينشتاين الذي قامت السلطات النازية بمصادرة ممتلكاته سنة ١٩٣٣، صرح بأنه يتوق إلى «العيش في أرض تسود فيها الحرية السياسية والتسامح والمساواة بين جميع المواطنين أمام القانون»[٢٢].

لم يكن اليهود يتمتعون إلا بقدر ضئيل من المساواة بوصفهم مواطنين في الولايات المتحدة سنة ١٩٤٥. تسببت حصص اليهود النسبية الرسمية والتمييز الاجتماعي غير الرسمي ضدهم بحرمانهم من الانضمام إلى أرقى الجامعات، وتبوء أعلى المناصب الحكومية حتى ستينيات القرن العشرين على الأقل. لكن التسامح النسبي

كان هو ما يهم، وكانت الولايات المتحدة مقارنة مع الخيارات الأخرى بالنسبة لأينشتاين وزملائه العباقرة الآخرين تمثل قدساً جديدة. لقد كان ما قام به هؤلاء من اكتشافات هو الذي أدى إلى تطوير القنبلتين الذرية والهيدروجينية، وهو ما مهد لأمريكا أن تكون أول دولة في العالم تمتلك الأسلحة النووية. ربما لم يحدث في تاريخ العالم أن تُرجِمَ مثل هذا الخليط من المهاجرين العباقرة إلى تقدم علمي وتميز عسكري كان له أعظم الأثر في تغيير وجه هذا الكوكب.

ولكن بعد سنوات قليلة، لن تكون الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي تتفرد بامتلاك القوة الذرية في العالم. فقد شهد شرق أوروبا قيام كيان ضخم آخر، هو الاتحاد السوفيتي الذي تسببت منافسته للولايات المتحدة في رسم حدود الوقائع الجغرافية للعقود اللاحقة.

من اللافت أنه مع بداية الحرب الباردة، لم يكن واضحاً أي من القوتين العظميين كانت تمارس قدراً أكبر من التسامح. فبينما كانت الولايات المتحدة تمنح مواطنيها حرية دينية أكبر، فإن التزامها بالانفتاح الأيديولوجي لقي انتكاسة بسبب حملات الملاحقة التي قامت بها جماعة ماكارثي في خمسينيات القرن العشرين. إضافة إلى ذلك، كانت هناك أيضاً ممارسات التمييز العنصري التي كانت تحمل اسم "جيم كرو". مقابل ذلك، لم يحترم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الحريات الدينية والأيديولوجية، في الوقت الذي كان يتباهى بالأممية العرقية والعنصرية.

كانت الأراضي والمناطق التي استولى عليها البلاشفة سنة ١٩١٧ تتضمن خليطاً معقداً من الأقليات العرقية والقومية والقبلية. احتوى البلاشفة في المراحل الأولى لاستلامهم السلطة التمرد الذي قامت به بعض الأقليات العرقية من خلال إغداق الوعود عليهم «بالمساواة» والتأكيد على «حقهم الأكيد بتقرير مصيرهم». أظهر أول إحصاء رسمي اتحادي أجري سنة ١٩٢٧ وجود ١٧٢ «قومية» مختلفة في الاتحاد السوفييتي؛ بالرغم من أن هذا العدد انخفض بحلول سنة ١٩٣٩ إلى سبع وخمسين

قومية فقط (بسبب المناورات السياسية والإثنوغرافية التي قامت بها السلطة). كان من المفترض - من الناحية النظرية على الأقل - أن تساعد السياسة السوفيتية في نشر الثقافات واللغات غير الروسية وأن «تمنح كل القوميات» المنضوية تحت لواء الاتحاد استقلالاً ذاتياً ناجزاً، وتسمح للمتميزين من غير الروس الانخراط في النظام السوفييتي وتبوء مناصب عليا فيه. أما على الصعيد العالمي، فقد دعا اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وفوداً من كوبا والصين والدول الإفريقية إلى موسكو من أجل تقوية الروابط مع دول الكتلة الشيوعية. في ذات الوقت، كانت الدعاية السوفيتية تتحدث بشكل مستمر عن وضع السود في أمريكا وتصفهم بأنهم «أشبه بالعبيد»، وأنه «غالباً ما يتعرض هؤلاء الزنوج إلى أعمال إرهابية» بما في ذلك «الهجوم الوحشي الذي تعرض له أربعة من الزنوج على يد عصابة من البيض يتراوح عدد أفرادها بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً» في مدينة مونرو بولاية جورجيا سنة ١٩٤٦[٢٣].

ما من شك في أن مثل تلك الممارسات العنصرية قد تسببت في إحراج كبير للولايات المتحدة على الصعيد العالمي. حدثت إحدى تلك الحالات المشينة عند وصول وزير الزراعة الهاييتي إلى مدينة بيلوكسي في ولاية ميسيسيبي سنة ١٩٤٧ لحضور أحد المؤتمرات، إذ لم تسمح إدارة الفندق (التي لم تتوقع أن يكون هذا الوزير أسود اللون) بنزوله فيه مع بقية أعضاء المؤتمر «لأسباب تتعلق بلون بشرته» . بعد تلك الحادثة، نشرت إحدى الصحف الهايتية تعليقاً غاضباً تحت عنوان: «زنجي هايتي يتفهم أن كلمة الديمقراطية في الولايات المتحدة لا تعني شيئاً».

كانت استجابة الحكومة الأمريكية لمطالب تتعلق بإجراء إصلاحات في مجال الحقوق المدنية في حقبة ما بعد الحرب تعكس اهتمام أمريكا بتدعيم موقعها على الساحة العالمية. ففي مقالة نشرتها New York Times Magazine سنة ١٩٤٨ بقلم روبرت كوشمان عضو اللجنة التي شكلها الرئيس ترومان حول الحقوق المدنية، كتب كوشمان: " تُعد هذه الأمة نفسها أقوى داعية من أجل الحياة الديمقراطية،

بالمقارنة مع مبادئ الدولة الشمولية. ليس من المريح رؤية الروس وهم ينشرون انتهاكاتنا المستمرة، ومبادئ جيم كرو وممارساته، والتمييز المبني على معاداة السامية وملاحقة خصومنا السياسيين واضطهادهم. ولكن أليسوا محقين في ذلك؟" وخلص كوشمان إلى نتيجة مفادها أن "الأمريكيين أصبحوا أكثر إدراكاً بأننا لا نمارس الحريات المدنية بل نتحدث عنها على سبيل الوعظ فقط؛ ويعتبر هذا الإدراك في حد ذاته ظاهرة صحية" [٢٤].

مع إطلالة القرن العشرين، اتضحت أكثر فأكثر الطبيعة القمعية للنظام السوفيتي، كما أن مزاعمه بشأن المساواة قد ثبت إفلاسها. عم الفساد والهيمنة والتحجر في التفكير عموم الاتحاد السوفيتي؛ كما تبين للعالم خواء مبدأ التسامح العرقي المزعوم الذي تشدقوا به. أدت الهيمنة والشوفينية الروسية على الشعوب غير الروسية - من دون أن ننسى التدخلات العسكرية الوحشية بين الفينة والأخرى - إلى ازدياد حدة الاحتجاج والرفض على امتداد آسيا الوسطى، وجمهوريات البلطيق وشرق أوروبا. في غضون ذلك، وبينما انكفأ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية على نفسه وأوغل في الانغلاق على ذاته كانت الولايات المتحدة تسير في اتجاه مغاير تماماً.

بدأت ثورة الحقوق المدنية في أمريكا بشكل أو بآخر، مع قضية "براون ضد مجلس التعليم" سنة ١٩٥٤. وجهت المحكمة العليا ضربة قاصمة لنظام العزل في المدارس على أسس عرقية، رافضة بذلك مبدأ «متساوون ولكن منفصلون» في نظام التعليم الحكومي. وفي بداية ستينيات القرن العشرين، أرسل الرئيس جون كنيدي أول مشروع قانون حول الحريات المدنية إلى الكونغرس، أتبعه بخطاب حماسي وجهه إلى الأمة بواسطة التلفزيون:

> إننا نلقي العظات حول الحرية في كافة أنحاء العالم، ونحن نعني ما نقوله، كما أننا نفتخر بحريتنا التي نتمتع بها في وطننا؛ ولكن هل بإمكاننا القول للعالم، والأهم من ذلك، هل يمكن للواحد منا أن يقول للآخر إن هذه أرض الحريات للجميع

> ما عدا الزنوج؛ وإنه لا يوجد لدينا مواطنين من الدرجة الثانية إلا الزنوج؛ أو إنه لا يوجد لدينا نظام طبقي أو انغلاقي، أو أحياء عرقية، أو عرق سيد إلا إذا كان الأمر يتعلق بالزنوج؟ [٢٥]

كما دعا كنيدي قادة أهم الجامعات الأمريكية الراقية إلى واشنطن، وطلب إليهم بإلحاح توسيع قواعد الجسم الطلابي في جامعاتهم؛ خاطب تلك المجموعة قائلاً: «أريد منكم القيام بمبادرة تحدث تغييراً جذرياً. وإن لم تقوموا أنتم بذلك، فمن الذي تتوقعون منه أن يفعل؟»

اغتيل الرئيس كنيدي سنة ١٩٦٣. أقر الكونغرس قانون الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤، أي بعد مرور سنة على وفاته. أدى إقرار هذا القانون إلى قيام إصلاحات جذرية في النظام الانتخابي، كما فرض على أرباب العمل أن يقدموا فرصاً متساوية للاستخدام، واعتبر أي تمييز في الاستخدام في المرافق العامة مثل الفنادق والمطاعم والمسارح على أساس عرقي عملاً غير قانوني. أخذ كينغمان بروستر، رئيس جامعة يال على عاتقه القيام بخطوات إصلاحية مؤسساتية غير مسبوقة، وبعدها بمدة وجيزة، سارت جامعة هارفارد على خطاه. تعاقد بروستر مع إنزلي كلارك للعمل في وظيفة مدير القبول، وزوده بتفويض كي يؤسس لجسم طلابي أكثر تعددية. ألغى كل من بروستر وكلارك عوامل الانتماء الجغرافي كشرط من شروط القبول - والذي كان يحد من قبول الطلبة اليهود في الجامعة - وقلص من الميزات التي كان يتمتع بها خريجو الجامعة، وتلاميذ المدارس الإعدادية. كانت النتيجة ارتفاع النسبة المئوية للطلبة اليهود المقبولين في سنوات الدراسة الجامعية الأولى من ١٦ في المئة سنة ١٩٦٥ إلى ثلاثين في المئة سنة ١٩٦٦. كان صف كلارك الدراسي الأول يضم ٥٨ في المئة من الحاصلين على شهادة الثانوية العامة من مدارس حكومية، وكان عدد المتقدمين للحصول على إعانات مالية أكثر من غير المتقدمين، بالإضافة إلى تزايد مطرد في أعداد المنتسبين للجامعة من أقليات مختلفة - حصلوا على أعلى المعدلات في امتحانات تقويم الطلبة (سات SAT) في تاريخ جامعة يال.

واجهت سياسات القبول التي اعتمدها كلارك انتقادات عنيفة من أعضاء مجلس جامعة يال والمساهمين فيها من الخريجين. وفي جلسة الاستجواب التي دعي للمثول فيها أمام مجلس جامعة يال سنة ١٩٦٦، لمناقشة هذه التغيرات، برر كلارك موقفه بالقول إن البلد التي تمر بمرحلة تغيير، يمكن أن يخرج من بين ظهرانيها قادة من خلفيات غير تقليدية في المستقبل كالأقليات، واليهود، والنساء، وخريجي المدارس الحكومية. رد أحد أعضاء مجلس جامعة يال قائلاً: "أنت تتحدث عن اليهود وخريجي المدارس الحكومية كقادة. انظر حولك إلى من يجلسون إلى هذه الطاولة. هؤلاء هم قادة أمريكا. لا يوجد بيننا يهود هنا. ولا يوجد هنا أيضاً خريجو مدارس حكومية."

لكن بروستر وكلارك وبعض نظرائهم في المؤسسات الجامعية الأخرى لم يعبؤوا بمثل هذه الاعتراضات. ارتفع عدد الطلبة السود والمنتمين إلى أقليات أخرى من المقبولين في جامعات Ivy League بصورة دراماتيكية في الستينيات من القرن العشرين. كان عدد الطلبة السود المقبولين في السنة الأولى في الجامعات الثلاث الكبرى مجتمعة، لا يتجاوز ١٥ طالباً سنة ١٩٦٠. ارتفع ذلك العدد سنة ١٩٧٠ إلى ٢٨٤ طالباً (٨٣ طالباً في جامعة يال، و١٠٣ طلاب في جامعة برينستون، و٩٨ طالباً في جامعة هارفارد). كما ارتفع العدد الإجمالي لخريجي الجامعات من السود بين سنتيْ ١٩٧٠ و ١٩٨٠ بمعدل ٩١ في المئة. (٢٦)

كان التغير في ملامح التعليم العالي في الولايات المتحدة جزءاً من تغيير أكثر شمولية طال كافة مناحي الحياة في المجتمع الأمريكي. لم تضع الستينيات من القرن العشرين والعقود التي تلتها نهاية لتسيّدِ الرجال الأنجلو- بروتستانتيين البيض عالم المجالس المتحدة أو عالم واشنطن؛ لكن -وبالرغم من ذلك- استطاع السود والنساء والأقليات الأخرى في تلك الحقبة اختراق عوالم المهن والسياسة والثقافة. في الوقت نفسه، أدت سياسات الهجرة الجديدة إلى تغيير دراماتيكي في التشكيلة السكانية للمجتمع الأمريكي.

ألغى قانون الهجرة الذي أقر في سنة ١٩٦٥ نظام الحصص التمييزي المبني على أسس عنصرية وعرقية؛ وهو النظام الذي اعتُمد في عشرينيات القرن العشرين. جاءت بعد ذلك فورة في معدلات الهجرة حيث ارتفع العدد من ٧٠٠٠٠ مهاجر في السنة بموجب نظام الحصص إلى حوالي ٤٠٠٠٠٠ مهاجر سنوياً في بداية السبعينيات، وإلى ٦٠٠٠٠٠ مهاجر في الثمانينيات، ثم إلى مليون مهاجر سنة ١٩٨٩. وصل إلى الولايات المتحدة بين سنتي ١٩٩٠ و٢٠٠٠ حوالي ٩ ملايين مهاجر، وهو المعدل الأعلى للهجرة خلال عقد واحد بالمقارنة مع كل العقود الذي سبقته، باستثناء الأوج الذي وصلت إليه تلك المعدلات في نهاية القرن التاسع عشر في إليس آيلاند. تغيرت كذلك مصادر تلك الهجرات؛ فبينما كانت الغالبية الساحقة من المهاجرين قبل سنة ١٩٦٥ تصل إلى الولايات المتحدة من أوروبا، تحولت تلك الغالبية باتجاه الوافدين من آسيا وأمريكا اللاتينية. ترافقت الزيادة المطردة في عدد المهاجرين الشرعيين مع زيادة في عدد الذين دخلوا البلاد بشكل غير شرعي. في سنة ١٩٦٠، توزعت أعداد المقيمين في أمريكا، والذين ولدوا خارج الولايات المتحدة بشكل رئيس كما يأتي:

إيطاليا: ١٢٥٧٠٠٠

ألمانيا: ٩٩٠٠٠٠

كندا: ٩٥٣٠٠٠

المملكة المتحدة: ٨٣٣٠٠٠

بولندا: ٧٤٨٠٠٠

أما في سنة ٢٠٠٠، فقد كان توزيع المهاجرين كما يأتي:

المكسيك: ٧٨٤١٠٠٠

الصين:	١٣٩١٠٠٠
الفيليبين:	١٢٢٢٠٠٠
الهند:	١٠٠٧٠٠٠
كوبا:	٩٥٢٠٠٠

السيطرة الأمريكية على العالم

في شهر كانون الثاني، يناير، سنة ١٩٩١، كان مشاهدو التلفزيون حول العالم يراقبون بنوع من النشوة أقوى القنابل في العالم، وأكثر الصواريخ ذكاء، تطلقها للمرة الأولى في التاريخ طائرات "الستيلث" بواسطة نظام ملاحة موجه عن طريق أحدث الأقمار الصناعية وأكثرها تطوراً في العالم، وهي تضرب هدفاً وراء آخر - المستودعات المحصنة تحت الأرض، والجسور، ومنصات الدفاع الجوي، ومنصات إطلاق صواريخ سكود - بدقة، مستخدمة في ذلك أشعة الليزر. استمرت الطائرات الأمريكية من طراز أباشي، وبيف لو، وهورنيت، ونايت هوك بقصف أراضي العدو موقعة الحد الأقصى من التدمير مقابل نسبة تكاد لا تذكر من الخسائر في الجانب الأمريكي. ثم، انتهى كل شيء: «كانت أكثر الغارات المكثفة مهابة وتنسيقاً في تاريخ أي قوة جوية.» أزالت الدقة التي تمت فيها عملية عاصفة الصحراء التي تقطع الأنفاس أي شكوك بشكل قاطع: القوة العسكرية الأمريكية تسبق أي قوة عسكرية أخرى على وجه الأرض بسنوات ضوئية [٢٨].

لم تكن القوة العسكرية وحدها هي التي ساعدت الولايات المتحدة في تحقيق هذه السطوة الكونية. تجاوزت الطاقة الإنتاجية لأمريكا في ثمانينيات القرن العشرين التي زادت على ما كانت تملكه بالأصل، مجمل الطاقة الإنتاجية لألمانيا الغربية التي كان اقتصادها هو الأكبر بين دول أوروبا. بعد فترة من الركود الخفيف نسبياً بين سنتي ١٩٩٠ و ١٩٩١، حدثت فورة جديدة في الاقتصاد الأمريكي تمثلت

في الأرباح الطائلة التي جنتها جراء الثورة في مجال المعالجة المجهرية التي أدت إلى «أعظم حقبة من توفير مصادر الثروة في تاريخ العالم.» وبينما كان المشككون قبل عقد على ذلك يتساءلون فيما إذا كان بإمكان الأعمال التجارية في الولايات المتحدة الاستمرار في التنافس مع اقتصاد اليابان، وأوروبا الموحدة، كان الاقتصاد الأمريكي في عقد التسعينيات من القرن العشرين يحلق بعيداً، متقدماً بمسافات كبيرة على اقتصاديات كل أمم العالم. وفي مستهل القرن الحادي والعشرين، كان الناتج الإجمالي المحلي، لو تم احتسابه بالقيمة الحالية للدولار، لعَادَل ناتج الاقتصاد العالمي بأسره، بحيث تجاوز بمقدار ضعفين اقتصاد كل من الصين واليابان مجتمعتين، وأكبر من حصة بريطانيا العظمى من الناتج الإجمالي العالمي عندما كانت في أوج ازدهارها الاقتصادي بثلاثة أضعاف.

أمريكا هي أكثر بلد استفادت من العولمة. قال جورج سوروس، المهاجر الذي بنى ثروة تقدر بعدة مليارات من الدولارات في الولايات المتحدة حيث بدأ هناك من الصفر، إن «مفهوم العولمة هو رأس المال الفائض الذي ينتقل من دول الأطراف إلى المركز الذي هو الولايات المتحدة.» استمرت الشركات الأمريكية مثل وول مارت، ونايكي، وماكدونالد، وإكسون موبيل، وكوكاكولا، وديزني في تسعينيات القرن العشرين في بسط سيطرتها على الاقتصاد العالمي بالرغم من مشاعر السخط تجاه الولايات المتحدة. كان الدولار العملة الأقوى في العالم، وكانت اللغة الإنجليزية هي اللغة المسيطرة، والثقافة الأمريكية هي النموذج المتبع. وعندما شارف القرن العشرون على نهايته، وبينما كانت الفوضى تعم روسيا، وكانت أوروبا تمر في حال من الجمود، واليابان تعاني من الركود الاقتصادي؛ لم يكن هناك من منافس حقيقي لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية عسكرياً أو اقتصادياً أو حتى ثقافياً. استفاق العالم على قوة مطلقة جديدة [٢٩].

كانت هناك العديد من الأسباب التي دفعت بالولايات المتحدة إلى موقع السيطرة العالمية بهذا الشكل المفاجئ، ومن أهمها السقوط المذهل للاتحاد السوفيتي السابق.

لو لم ينفجر اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من الداخل، لكنا نعيش اليوم ضمن عالم تحكمه ثنائية قطبية. من ناحية أخرى، يمكن القول إن العوامل التي أوصلت الولايات المتحدة إلى موقع القوة العظمى هي نفسها التي أدت إلى تحقيق الإنجاز المتمثل بتبوئها موقع السيطرة على العالم.

من المعروف للقاصي والداني أن الولايات المتحدة ربحت السباق لامتلاك القنبلة الذرية بفضل ألبرت أينشتاين وعلماء فيزياء آخرين من المهاجرين. لكن قلة من الناس على اطلاع بالدور المشابه الذي اضطلع به علماء من المهاجرين والذي أدى إلى فوز الولايات المتحدة بالسباق لامتلاك «تكنولوجيا المعلومات» التي غيرت وجه العالم في ربع القرن الأخير. هناك تطوران ثوريان مباشران أسهما في الازدهار الذي حققته الولايات المتحدة في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، الأول تكنولوجي والثاني مالي: اكتشاف الرقاقة المجهرية، وإنشاء ما يسمى بالرأسمالية المغامرة التي تعتمد مبدأ المضاربات. أدى التطور الأول إلى ولادة عصر الكومبيوتر، أما التطور الثاني فأدى إلى ولادة "وادي سليكون" الذي مهد بدوره الطريق للإفادة من «تكنولوجيا المعلومات» بسرعة البرق. ترتبط أصول هذين التطورين ببعضهما بصورة وثيقة، فالاثنان كانا ثمرة الانفتاح الأمريكي على مواهب المهاجرين واستثماراتها.

وصل يوجين كلاينر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٤١ قادماً من فيينا قبل أن يستولي عليها النازيون بفترة وجيزة. بالرغم من أن كلاينر لم يكن قد حاز على الشهادة الثانوية، إلا أنه حصل على درجة البكالوريوس من معهد بروكلين في مجال الهندسة. قام وليام شوكلي، وهو عالم فيزياء مثير للجدل بسبب مشاركته قبل سنوات في مخابر "بيل" في اختراع لم يكن بالحسبان، بالتعاقد مع كلاينر في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين للعمل معه في كاليفورنيا. كان فريق شوكلي قد أنتج جهازاً صغيراً أثار دهشتهم بسبب قدرته على تضخيم الدائرة الكهربائية بواسطة استعمال قصاصات مطوية من الورق، وشرائط من ورق القصدير، وقطعة صغيرة من مادة شبه موصلة. أطلق الفريق على هذا الجهاز اسم "الترانزيستور".

ترك شوكلي العمل في مخابر بيل وأسس شركته الخاصة بهدف تطوير شبه موصل للصوت في جهاز ترانزيستور متعدد الاستخدامات. أصرّ شوكلي على استخدام مادة "الجيرمانيوم" بوصفها مادة شبه موصلة. أما كلاينر وآخرون في فريق العمل فكانوا يعتقدون أن مادة السليكون أكثر متانة، ومن ثم فهي أفضل، إلا أن شوكلي العنيد والعصابي، لم يتقبل فكرة اختلاف الآخرين معه. نتيجة لذلك، انفصل كلاينر وسبعة آخرون من زملائه عن شوكلي، وقاموا بجمع ٣٥٠٠ دولاراً من جيبهم الخاص لمتابعة البحث في مجال فاعلية السليكون. ولكن هذا المبلغ كان ضئيلاً حتى ضمن معايير الخمسينيات، وهكذا كان من المستحيل فعلياً تأمين تمويل استثماري لدعم فكرة علمية لم تُجرب بعد، وما تزال في مراحلها الجنينية. مع ذلك، بعد أن وجه كلاينر رسالته التي أصبحت شهيرة فيما بعد، إلى أحد السماسرة في سوق الأسهم في نيويورك، استطاع في نهاية المطاف الحصول على تمويل لمجموعته التي تعمل على هذا المشروع. نتيجة لذلك، أصبح كلاينر وزملاؤه المسؤولين في شركتهم الخاصة بهم والتي أطلقوا عليها اسم Fairchild Semiconductor.

حاز شوكلي على جائزة نوبل لدوره في اكتشاف الترانزيستور. كما أنه اجتذب الكثير من الاهتمام كأستاذ في جامعة ستانفورد، خصوصاً فيما يتعلق بمعتقداته العنصرية بشأن تحسين النسل. (كان غالباً ما يحذر علناً من أن السود «المتخلفين فكرياً» يتكاثرون بمعدلات عالية تنذر بالمخاطر.) إلا أن شركته الخاصة به، كانت فاشلة تجارياً.

في المقابل، نجح كلاينر وزملاؤه في إنتاج الدائرة المغلقة العملية على المستوى التجاري للمرة الأولى وذلك باستعمال السليكون. خلال مدة قصيرة، ازداد عدد العاملين في شركته من اثني عشر عاملاً إلى اثني عشر ألفاً، وكانت منتجات الشركة تدر أرباحاً تقدر ب ١٣٠ مليوناً من الدولارات سنوياً. تغير بسبب وجود هذه الشركة وجه وادي سانتا كلارا الذي كان يشتهر سابقاً بإنتاج ثمار الخوخ والجوز إلى الأبد.

قرر كلاينر، الذي أضحى ثرياً الآن، أن يقوم بشيء جديد. لا بد أنه عاد بالذاكرة

إلى الصعوبات التي واجهها عند تأسيسه شركة Fairchild Semiconductor حين قرر إنشاء صندوق للاستثمار من أجل الاختراعات العلمية التي تحدث فتوحات جديدة في مجالاتها التخصصية. وبالرغم من أن فكرة المضاربة برأس المال أمر مألوف هذه الأيام إلا أنه لم يكن كذلك في سبعينيات القرن العشرين. تبنت شركة الاستثمار التي أنشأها كلاينر التي كانت فريدة في زمانها - والتي أصبحت الآن شركة عملاقة تدعى شركة Kleiner, Perkins, Caufield Byers - إستراتيجية المغامرة في مجال الأبحاث والمراهنة من خلال الاستثمار بمبالغ كبيرة في تكنولوجيا جديدة لم تُجرب بعد؛ في الوقت الذي سمحت للمخترعين، بل وشجعتهم على الاحتفاظ بحصة كبيرة من ملكية هذه الشركات الجديدة. نجحت تلك الصيغة: فالشركات التي ساعد كل من كلاينر وبيركينز في إطلاقها، كان من بينها الشركات الآتية:AOL، Genentech، Compaq ، Lotus Development، Netscape Quantum، Sun Microsystems Amazon. com، و. Google

غالباً ما ينسب إلى كلاينر الذي توفي سنة ٢٠٠٣ الفضل في "البدء بمشروع وادي سليكون" وكذلك "اختراع فكرة رأس المال المغامر." غيّرَ نموذج التجارة الذي ابتدعه كل من كلاينر وبيركينز المفهومات المالية في أمريكا، مما أحدث فورة في رأس المال المغامر في الربع الأخير من القرن العشرين. لم يكن من باب المصادفة أن بروز ظاهرة الرأسمالية المغامرة لم تكن سوى تجسيد للتسامح الإستراتيجي الذي تجلى في أبهى صوره في نهاية القرن العشرين. فكما كانت الحال في روما أو الإمبراطورية المغولية العظمى، اعتمدت أمريكا في بسط سيطرتها على العالم بشكل كبير على مقدرتها في اجتذاب وتجييش رأسمال مكون من أفضل الطاقات وأصحاب المواهب في العالم. سجلت الرأسمالية المغامرة الأمريكية في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين نجاحاً منقطع النظير في هذا المجال، حيث قدمت إغراءات هائلة للعلماء الشباب والمخترعين والمقاولين من جميع الخلفيات العرقية والقوميات، أغنياء وفقراء، بيض أو ملونين، أمريكيين أو مهاجرين، كي يترجموا إلى واقع ملموس، الأفكار التي تنادي بها أمريكا.

كان أندرو غروف المولود في هنغاريا باسم "أندراس غراف" أحد أولئك المقاولين. فرّ غروف الذي كان في سن العشرين مع عائلته من الفوضى التي سادت هنغاريا في حقبة الثورة، ووصل إلى مدينة نيويورك على متن سفينة متهالكة في السنة اللاحقة. لم يلتحق غروف شأنه في ذلك شأن كلاينر، بمدرسة راقية. كان الأول في قائمة الخريجين من جامعة City College في نيويورك حيث كان خلال سني دراسته يعمل نادلاً في أحد المطاعم كي يغطي نفقاته الدراسية. ونظراً لأنه كان يكره البرد القارس الذي يطبع فصل الشتاء في منطقة الشمال الشرقي، اتجه غروف إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي حيث حصل من هناك على شهادة الدكتوراه في الهندسة الكيميائية سنة ١٩٦٣م.

كانت أمريكا بالنسبة لغروف بحق، أرض التسامح والفرص. تمكن غروف الصبي أن يختبئ من النازيين في هنغاريا مع بقية عائلته، لكنه وقع في شرك الإذلال بعد الحرب من قبل أحد أصدقاء طفولته الذي أبلغه بأن والده منعه من اللعب مع الأولاد اليهود. عندما أصبحت هنغاريا فيما بعد إحدى الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفيتي، واقتحمت الدبابات السوفيتية هنغاريا، بدت الاحتمالات المستقبلية بالنسبة لغروف أكثر كآبة.

كانت كاليفورنيا تحت الشمس الدافئة عالماً يختلف كلياً وجزئياً عن العالم الذي أتى منه غروف. حصل غروف على وظيفة في شركة Fairchild Semiconductor التي أسسها يوجين كلاينر. هناك، حاز غروف على إعجاب الجميع ليس فقط بسبب اندفاعه وذكائه، بل بسبب اهتمامه غير العادي بأدق التفاصيل. عندما ترك روبرت نويس وغوردون مور الشركة التي كانا من مؤسسيها، من أجل تأسيس شركتهما الخاصة بهما سنة ١٩٦٨، طلبا إلى غروف أن يكون مديراً للعمليات في الشركة الجديدة. كان القرار مفاجئاً للكثيرين: لم تساعد لكنة غروف الهنغارية الثقيلة، والمشكلات التي يعانيها في السمع في جعله أفضل الخيارات لهذا الموقع. لكن نويس ومور كان لديهما معيار وحيد لشغل هذه الوظيفة: أرادا التعاقد مع أفضل المواهب المتوافرة.

كان نويس أحد مخترعي الدائرة المدمجة. وكان مور أفضل مهندس نظري في شركة Fairchild. كانت خطتهما لتأسيس شركة جديدة تتضمن تحويل الدائرة المدمجة ذات الترانزيستور التعددي إلى جهاز ذاكرة. في سنة ١٩٦٨، كان يتم تخزين ذاكرة الكومبيوتر بموجب تكنولوجيا المركز المغناطيسي. اعتقد نويس ومور أن بوسعهما تجميع عدد أكبر من الترانزيستورات على رقائق السليكون التي قاموا بتصنيعها ومن ثم تحويلها إلى أجهزة ذاكرة أصغر وأرخص وأقوى من الذاكرة المبنية على أساس تكنولوجيا المركز المغناطيسي. باختصار، قرر كل من نويس ومور البدء ببناء ما سيطلق عليه لاحقاً اسم المعالج المجهري الذي يعرف أيضاً باسم الرقاقة المجهرية. أطلقا على شركتهما اسم شركة الإلكترونيات المدمجة Integrated Electronics التي عرفت فيما بعد بشركة Intel.

من اللافت أن الشخص الذي اعتُبِر على نطاق واسع، أنه القوة الدافعة لشركة Intel لم يكن نويس أو مور، بل آندي غروف. قبل أن يكون بإمكان هذه الشركة إنتاج معالجاتها المجهرية على نطاق واسع، كانت هناك آلاف المشكلات التي لا بد من حلها أولاً، وهذه المشكلات متنوعة فهي تجارية وتقنية وإدارية وإستراتيجية. وكان غروف وليس غيره، هو الذي وجد حلولاً لجميع تلك المشكلات. أصبح غروف الذي وصُف بأنه واحد من ثلاثة مؤسسين لهذه الشركة رئيساً لها سنة ١٩٧٩، والمسؤول التنفيذي الرئيس فيها سنة ١٩٨٧. عندما أعلنت مجلة تايم أن غروف هو رجل العام لسنة ١٩٩٧، فإنها وصفته بأنه "أكثر شخص مسؤول" عن صناعة الرقاقة المجهرية، ومن ثَمّ الثورة الرقمية التي - بحسب مجلة تايم - حولت نهاية القرن العشرين "بنفس الطريقة التي حولت فيها الثورة الصناعية نهاية القرن الذي سبقه."

بلغت قيمة شركة Intel تحت قيادة غروف ١١٥ بليون دولار، أي أعلى من قيمة شركة IBM. أنتجت هذه الشركة حوالي تسعين في المئة من المعالجات المجهرية للكومبيوترات الشخصية -حيث تمخضت عن "كدريليون" Quadrillion ترانزيستور كل شهر، كل سبعة ملايين منها مطبوع على رقاقة من السليكون أصغر من القطعة

النقدية المعدنية. تفوقت شركة Intel على شركات أجنبية عملاقة في هذا المجال خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين مثل Samsung، و Toshiba، و Hitachi، و Fujitsu، و NEC، و Siemens. أما اليوم، - وبالرغم من المنافسة الشديدة وبعض الأزمات هنا وهناك - فتظل شركة Intel أكبر منتج في العالم للمعالجات المجهرية[٣٠].

يُعد اختراع الرقاقة المجهرية جوهر عصر الكومبيوتر، تماماً كما كان اختراع الطباعة والمحرك البخاري الأساس في عصريهما. إنها الأساس الذي تستند إليه جميع برامج الكومبيوتر والأجهزة التي يتكون منها، والتي تنتج لنا منتجات مثل: CDs، و DVDs، و VCRs، و iPod، و iTunes، و TiVo، والكاميرات الرقمية، وأجهزة الهاتف الخلوي، والهواتف الذكية (BlackBerries)، والمنتجات الأخرى التي غيرت حياة البشر وطرائق تفكيرهم واتصالاتهم. كما أدت إلى تلك الفورة في مجال الاقتصاد العالمي الجديد الذي يعتمد على التواصل من خلال شبكة الإنترنيت، والتي سمّاها توماس فريدمان "عصر المواهب الجديدة".

كانت قصة نجاح غروف إحدى القصص التي تطفو فوق بحر النجاح الذي حققه رأسمال المهاجرين المغامر ، والذي غمر الولايات المتحدة بالثروة، وارتقى بالبلاد إلى سنام التفوق العالمي اقتصادياً وتكنولوجياً في العقود الأخيرة من القرن العشرين من دون منافس. من بين آلاف من الشركات الهندسية وشركات التكنولوجيا التي بدأت العمل في وادي سليكون بين سنتيْ ١٩٩٥ و٢٠٠٥، كانت هناك ما نسبته ٥٢،٤ في المئة من هذه الشركات التي تضم واحداً من المهاجرين على الأقل من بين كبار مؤسسيها. هاجر كل من فينود كوسلا، المؤسس المشارك لشركة Sun Microsystems وصابر باتيا، المؤسس المشارك لشركة Hotmail من الهند. أما بيرنر- لي مخترع الشبكة العنكبوتية العالمية، فقد قدم إلى أمريكا من بريطانيا. وفي سنة ١٩٩٨، حصل الطالب الروسي الشاب سيرجي برين على إجازة دراسية من برنامج الدكتوراه في علوم الكومبيوتر بجامعة ستانفورد، وأسس شركة أبحاث

صغيرة في مجال الإنترنيت مع زميل له في الدراسات العليا اسمه لاري بيج. هذه الشركة التي تدعى "غوغل Google" تستخدم اليوم أكثر من عشرة آلاف موظف، ويبلغ رأسمالها في السوق أكثر من ١٣٦ بليون دولار.

كان هناك بطبيعة الحال من بين الآلاف من العباقرة والمبدعين وأصحاب الرؤى الذين أنشؤوا وادي سليكون العديد من أبناء الجيل الثالث والخامس والسابع من الأمريكيين. على سبيل المثال، لم يكن فريد تيرمان، عميد كلية الهندسة وصاحب النفوذ القوي في جامعة ستانفورد في خمسينيات القرن العشرين من المهاجرين، وكذلك بيل هوليت، وديف باكارد، وروبرت نويس، وغوردون مور، وبيل غيتس، وستيف جوبز. كما لم تقتصر الثروات الطائلة التي تحققت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين على المهاجرين. على العكس من ذلك، كانت الفورة في الثروة التي لم يسبق لها مثيل تُظهر من جديد القدرة الاستثنائية للاقتصاد الأمريكي على مكافأة الاستثمارات والمواهب من أي خلفية أتت، سواء كانت محلية أو مستوردة. من بين أربعمئة من أكثر الأشخاص ثراء في الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٠، كان ثلثا هذا العدد من الذين بنوا ثرواتهم من الصفر [٣١].

تُرجِمت السيطرة الاقتصادية والتكنولوجية الأمريكية بشكل مباشر إلى تفوق عسكري. تمتلك الولايات المتحدة اليوم عشر حاملات طائرات من طراز نيميتز Nimitz، التي تعمل بالطاقة النووية، تستطيع كلّ منها حمل أكثر من سبعين طائرة مقاتلة. ليست لدى أي دولة أخرى في العالم حاملة طائرات واحدة يمكن مقارنتها من قريب أو بعيد بأي من أفراس البحر الهائلة الحجم تلك. كما أن لدى الولايات المتحدة أسطولاً من طائرات الستيلث التي لا يلتقطها الرادار، كل واحدة منها مزودة بطن من القنابل الموجهة بواسطة الرادار. لا توجد لدى أي دولة أخرى طائرة على هذه الشاكلة. كما أن الولايات المتحدة تمتلك مخزوناً من القنابل والصواريخ الذكية هو الأضخم في العالم، بالإضافة إلى طائرات من دون طيار تطير على ارتفاعات شاهقة، وأنظمة مراقبة بواسطة الأقمار الاصطناعية، والدبابات المدرعة المجهزة

بأجهزة رؤية ليلية، وكشافات تعمل على أشعة الليزر، وغواصات هجومية تعمل بالطاقة النووية - ما كان لأي من تلك الأسلحة أن يكون ممكناً لولا تكنولوجيا المعالج المجهري الجديدة [٣٢].

باختصار، إن تبوء الولايات المتحدة مركز السيطرة على العالم اعتمد بشكل رئيس على فوزها بالسباق لامتلاك التكنولوجيا المتقدمة. ولكن، في الحادي عشر من شهر أيلول، سبتمبر، انقلبت التكنولوجيا على الولايات المتحدة.

الفصل العاشر

صعود دول المحور وسقوطها

ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية

أنهينا الآن مسحاً لكافة القوى المطلقة في تاريخ العالم، مع ملاحظة أن كل واحدة من هذه القوى كانت مدينة في ارتقائها لهذا الموقع إلى حد كبير للتسامح. لكن ما لم نقم به حتى الآن هو إجراء دراسة لقوى التعصب في العالم؛ وهو ما يتطلع هذا الفصل إلى القيام به من خلال تمحيص قوة التعصب المتنقل القاتلة، وكذلك، القيود المتأصلة في تكوينه وطبيعته.

ليس بمقدور أي مجتمع يبنى على قاعدة أساسها النقاء العرقي والتطهير العنصري أو التعصب الديني أن يصبح قوة عالمية. ولكن ما حدث في منتصف القرن العشرين أن نظامين متعصبين وحشيين وهما ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية، امتلكا قوة هائلة، وهددا مجتمعيْن، بالاستيلاء على العالم. كان الصعود الصاروخي لدول المحور، ثم الهزيمة الماحقة التي حلت بها يمثلان في الوقت نفسه الفعالية المرعبة للتعصب المتطرف، وعجز المجتمعات التي تقوم على قاعدة هذا التعصب في نهاية المطاف، عن تحقيق هدف السيطرة العالمية.

ألمانيا النازية: حلم السيطرة الآرية على العالم

في الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر يوم الحادي والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة ١٩٤٠، هبط أدولف هتلر وكبار قادته وسط غابة "كومبيين" التي تقع على مسافة خمسين ميلاً إلى الشمال من باريس، وذلك من أجل الإشراف بنفسه على واقعة استسلام الفرنسيين. اختار هتلر شخصياً هذه الغابة المجوّفة التي كانت منطقة صيد للملوك الفرنسيين على امتداد ألف سنة، كما أنها المكان الذي ألقي القبض فيه على جان دارك، بسبب مكانتها في التاريخ الأكثر قرباً؛ فقد كان هذا المكان هو الموقع الذي استسلمت فيه ألمانيا لفرنسا في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة ١٩١٨، واضعة بذلك حداً للحرب العالمية الأولى. وفي الوقت الذي كانت أشعة شمس شهر حزيران الدافئة تغلف ذلك المكان، ترجل هتلر من سيارته المرسيدس. كان وجهه بحسب رواية أحد شهود العيان، يبدو «رزيناً ووقوراً، لكنه كان يطفح بالرغبة في الانتقام. كما كانت تقاطيعه توحي تماماً كخطواته الخفيفة الحركة، بالشعور بأنه الفاتح المنتصر، والمتحدي للعالم بأسره.» أصر "الفورهر" على إملاء شروط الاستسلام في عربة القطار نفسها التي استسلمت فيها ألمانيا لفرنسا قبل اثنتين وعشرين سنة. بعد يوم من المحاولات الفاشلة للتخفيف من وطأة شروط الاستسلام القاسية، لم يجد الجنرال بيتان، البطل الفرنسي في معركة فردان، بدأً من الإذعان كلياً لمطالب النازيين. [(١)].

كان هذا التبدل العكسي في المصائر الذي شهدته غابة كومبيين مؤشراً على ذروة قوة هتلر وألمانيا النازية. فألمانيا التي انبعثت من بين ركام الحرب العالمية الأولى، لم تكتفِ بإعادة تسليح ذاتها، وإعادة الحياة إلى صناعتها خلال أقل من عقد وحسب، لكنها انطلقت لاحتلال معظم قارة أوروبا في مدة لم تتجاوز تسعة أشهر. في الوقت الذي تم إخضاع فرنسا، كانت النمسا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك والنرويج وهولندا قد وقعت جميعها في قبضة النازيين الذين كانوا

يستعدون لغزو بريطانيا. قبل ذلك بسنة، شن الألمان بجيشهم الذي بدا وكأنه لا يقهر، حرباً خاطفة على بولندا مستخدماً «قوة ماحقة وحشية مؤللة لم ترَ لها الكرة الأرضية مثيلاً.» بعد مضي سبع سنوات فقط على استلام هتلر للسلطة سنة ١٩٣٣، لم يبدُ الوعد الذي أطلقه النازيون «بحكم للرايخ يمتد لألف سنة قادمة» بعيد المنال.

بعد خمس سنوات على تلك الحادثة، كان كل شيء قد انتهى. أعلن عن موت هتلر، وتحولت ألمانيا إلى أنقاض. كان نظام هتلر في مرحلة ارتقائه نحو السلطة قد أوصل التعصب المدعوم من قبل الدولة إلى مستوى جديد أسس «لنشر الإرهاب بين الشعوب المستعمَرَة، وهو إرهاب فاق في وحشيته ضد الحياة الإنسانية والروح الإنسانية كل أشكال الاضطهاد الوحشي الذي ارتكب في العصور السابقة.» (٢) كان التعصب الوحشي الذي مارسته النازية أكثر من مجرد نتاج جانبي لسيطرة النازيين على السلطة؛ فقد كان عاملاً حاسماً لحشد الطاقات في أعقاب الحرب العالمية الأولى. نجحت الأيديولوجية النازية التي كانت مزيجاً فعالاً من القومية المتشددة والشوفينية العرقية والكراهية الدينية، بشكل فاعل في حشد الولاء والاستعداد للتضحية من الشعب الألماني الذي تعرض للإذلال جراء الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. لكن الالتزام غير القابل للشك من قبل هتلر وحزبه بمبدأ التطهير العرقي الدموي أثبت في نهاية المطاف أنه سرطان بشع أوغل في جسد النظام، وأدى في النهاية إلى انهيار ذلك الحزب وتلاشيه.

قوة الكراهية

جعلت الحرب العالمية الأولى من ألمانيا أمة مَدْميّة ومهزومة. فقد هلك حوالي مليونين من شبابها في تلك الحرب، وأصيب عدد مشابه من شبابها بعاهات مستديمة. كما وجد الملايين من الألمان من الطبقتين المتوسطة والعاملة أنفسهم عاطلين عن العمل ويعانون من الفقر المدقع. وكانت معاهدة فرساي قد عمقت الشعور بالمرارة لدى الألمان. فرضت هذه الاتفاقية على ألمانيا سنة ١٩١٩ الاعتراف

بأنها المسؤولة الوحيدة عن اندلاع الحرب العالمية الأولى. نتيجة لذلك، ألقي على كاهل ألمانيا كافة أعباء إعادة بناء ما تسببت تلك الحرب في تدميره، كما تم انتزاع كافة المستعمرات التي كانت تحت سلطتها، وأجبرت على التخلي عن بعضٍ من أهم أجزاء أراضيها لفرنسا، وللبولنديين الذين كانت تكن لهم أشد أنواع المقت. ومن ضمن القيود الأخرى المهينة التي فرضت على ألمانيا كانت تقليص عدد الجيش الألماني المعتد بنفسه والذي كان يوماً ما، جيشاً هائل العدد والعدة. فقد تحول إلى جيش من المتطوعين لا يتجاوز تعداده مئة ألف جندي. شعر العديد من الألمان أنه لم يكن من الحكمة القبول بشروط تلك المعاهدة المذلة. وهكذا، فقد توقع جون كينز، المستشار في الوفد البريطاني بكثير من التشاؤم، في أن هذا السلام يحمل في طياته بذور الحرب المقبلة[٣].

ظهر هتلر وحزبه النازي من ضمن هذه البوتقة من الإحساس بالعار والألم والغضب المكبوت. كان من نتاج الإحساس بتفوق العرق الآري من جهة، ونظريات المؤامرة حول خطط شيوعية- يهودية، بالإضافة إلى دعوات من هنا وهناك من أجل إبادة الجماعات الأدنى عرقياً من جهة أخرى، تعهد هتلر بالعودة إلى الماضي الألماني الأساسي؛ وترافقت مع هذه العودة نزعة باتجاه إعادة بناء دولة ألمانية توسعية قوية في ظل قيادته. بدأ هتلر ومؤيدوه باضطهاد اليهود والشيوعيين والسلافيين والمثليين، وكذلك أي شخص آخر ليس «ألمانياً» بما فيه الكفاية. قام هتلر بتحميل هؤلاء مسؤولية التضخم الهائل، والبطالة، وغياب ألمانيا عن الساحة الدولية؛ وهو ما كانت تعاني منه ألمانيا حينها. كانت خطابات هتلر النارية حول تفوق العرق الآري التي ألهبت المشاعر الشعبية مادة خصبة في لغة الخطاب النازي. كان أحد الاتهامات التي تتكرر في تلك الخطابات تؤكد على أن الأقليات «طعنت ألمانيا في الظهر»، وهو ادعاء اعتاد النازيون على ترداده من خلال التساؤل عن السبب الذي أدى إلى خسارة ألمانيا للحرب الكبرى من دون أن تتعرض لغزو بري.

خلال عشرينيات القرن العشرين وبداية الثلاثينيات، كانت قلة فقط من

السياسيين الألمان تعتقد باحتمال خطر أن يستلم النازيون السلطة في ألمانيا. لكن النازيين تحولوا من مجموعة من المشاغبين في الأزقة الضيقة إلى حركة ذات قاعدة عريضة نجحت في الحصول على أصوات ٤٣ بالمئة من الناخبين الألمان سنة ١٩٣٢ بفضل التحالف الذي جمع كبار رجال الأعمال، والعسكريين، وفوق هذا وذاك، الطبقة الوسطى في المجتمع الألماني؛ وبذلك فقد مهدوا الطريق لهتلر كي يصبح المستشار الألماني القادم سنة ١٩٣٣[٤].

ربما كان من باب تقزيم الأمور وصف النظام النازي بالنظام «المتعصب». فقد شملت الكراهية العرقية كل مجال من مجالات السياسة النازية بدءاً بالصحة، مروراً بالزراعة وانتهاء بسياسة الدفاع. ونظراً لأن الاهتمام الرئيس للحزب النازي كان ينصب على التزامه بموضوع القومية الألمانية، فإنه لم يولِ إلا القليل من الاهتمام للسياسة الاقتصادية. (سمع الهتاف الآتي في أحد تجمعات الحزب النازي: لا نريد سعراً أعلى للخبز! لا نريد سعراً أدنى للخبز! لا نريد سعراً ثابتاً للخبز! نريد سعراً قومياً اشتراكياً للخبز!) لخّص المؤرخان رودريك ستاكلبيرغ وسالي وينكل التوجه الوحيد للسياسة النازية على الشكل الآتي: «لم يكن لدى هتلر أي رؤية حول الإصلاح الاجتماعي الداخلي سوى التخلص من اليهود ومن كل أشكال التنوع والسلالات الأخرى في المجتمع الألماني، وإنشاء نظام سلطوي يستند إلى العرق، ويهيئ الشعب من أجل الحرب.»

بالرغم من أن اليهود كانوا المستهدَفين الرئيسيين من التعصب النازي، فإنهم لم يكونوا الوحيدين. حيث رُحِّل الغجر والبولنديين والمثليين والمقعدين والمرضى ومجموعات أخرى إلى معسكرات الاعتقال، وتجمعات العمل بالإكراه، والإعدامات العشوائية. كان يعشش في جوهر النازية الاعتقاد الذي لا يشوبه الشك بأن الآريين هم العرق الأسمى، أو «العرق السيد»، وأن دورهم الطبيعي هو أن يكونوا حكاماً للعالم بأسره[٥].

كلفة التعصب

أسهم اضطهاد النازيين لليهود والجماعات الأخرى في إثراء الحزب ومن ثَم تمويل آلة الحرب الألمانية - لكن ذلك لم يدم إلا حقبة عابرة في التاريخ. قامت الدولة أولاً بوضع يدها على البنوك والتجارة اليهودية. بعدها، تم تجميع اليهود وإرسالهم ضمن مجموعات إلى أحياء خاصة بالأقليات أو إلى معسكرات الاعتقال، ومصادرة ممتلكاتهم: ساعات الجيب، والقلائد الذهبية، وحلق الأذن، ودبابيس الزينة والأساور والخواتم الماسية. كما تم وضع اليد على بيوت اليهود وسياراتهم ومقتنياتهم الفنية و«كميات هائلة من اللفافات النقدية». أخيراً وليس آخراً، وجهت أوامر لفرق الاستخبارات الخاصة (SS) لسحب الحشوات الذهبية من أسنان اليهود الذين كانوا يرسلون إلى غرف الغاز، وكان ذلك يتم أحياناً قبل إعدام الضحايا. كانت هذه الحشوات تذاب وتوضع مع بقية الغنائم في حساب سري بأحد البنوك التابعة للرايخ باسم مستعار هو "ماكس هيلليغر" [٦].

لكن التزام النازيين بإبادة الشعوب «الأدنى» كلف النظام غالياً في العديد من المجالات الحاسمة. بدايةً، كان تنفيذ أحكام الإعدام بأولئك الذين لا يمكن التعايش معهم في «النظام الجديد» يتطلب موارد غير محددة ووقتاً، وأشخاصاً من ذوي المواهب الخاصة للقيام بذلك. كان لا بد من إعداد طاقم بيروقراطي كبير يقوم بتحديد أماكن وجود اليهود، وإحصاء أعدادهم وتصنيفهم استناداً إلى أدق تفاصيل تصنيفات النسب المئوية في دمائهم. وكانت الوتيرة المكثفة التي تتم فيها عملية التطهير العرقي التي يقوم بها النازيون تتعارض مع متطلبات الحرب الملحة.

على سبيل المثال، كانت وحدات كاملة من الاستخبارات الألمانية مكرسة من أجل حراسة المساجين في معسكرات الاعتقال النازية. استخدمت مواد غالية الثمن مثل الرخام والحجر الرملي والنيكل المصقول بإسراف على بناء المحارق وغرف الغاز. كما تم حجز قطارات خاصة من أجل نقل اليهود إلى أماكن إعدامهم حتى في الأوقات

التي كان الألمان يجمعون وحداتهم من أجل إرسالها إلى القتال. وفي شتاء سنة ١٩٤٢، عندما كان الجنود الألمان محاصرين في معركة ستالينغراد الحاسمة، تدخل هنريك هيملر قائد الاستخبارات الألمانية شخصياً كي يحول خطة سير القطارات التي كان الجيش الألماني بأمس الحاجة إليها من أجل قتل مزيد من اليهود. خاطب هيملر رئيس مصلحة السكك الحديدية قائلاً: «أعرف تماماً الكلفة الباهظة التي تتكبدها مصلحة الخطوط الحديدية، وثقل المسؤوليات الملقاة على كاهلك. لكنني مع ذلك، لا بد أن أطلب إليك أن تساعدني في وضع قطارات أكثر تحت تصرفي.» لقد اختار النازيون في أحلك ساعاتهم الكراهية العنصرية التي أولوها أهمية أكبر مما أولوه للنصر العسكري [٧].

الأهم من ذلك، حرم النازيون أنفسهم، بسبب عمليات قتلهم الملايين من رعايا الدول التي غزوها، بالإضافة إلى مئات الآلاف من مواطنيهم الألمان، من رأسمال بشري وقوة بشرية لا تحصى. وكما أشرنا سابقاً، كانت ألمانيا قد خسرت أعدادا كبيرة من علمائها بمن فيهم ألبرت أينشتاين، وثيودور فون كارمان، ويوجين ويغنر، وليو زيلارد، وهانز بيث، وإدوارد تيللر، وليز ميتنر الذين أدى الكثيرون منهم دوراً حاسماً في بناء أول قنبلة ذرية في العالم، والتي استخدمتها الولايات المتحدة في كسب الحرب. من يعرف كم من العقول العظيمة الأخرى خسرتها ألمانيا النازية؟

كان كل شيء في ألمانيا النازية يمر عبر عدسة التفوق العرقي الألماني. وكان من المضحك أن يقوم العالم النازي برونو ثورينغ بالتهجم على نظرية النسبية التي أتى بها أينشتاين لأنها تتناقض مع «المفهوم الغريزي الإسكندينافي لمعنى الطاقة.» أودى الرفض النازي للعلم «اليهودي» بألمانيا إلى التخلف كثيراً في مجال تطوير الرادار، وهي تكنولوجيا أثبتت فاعليتها المحورية في انتصار الحلفاء في "معركة بريطانيا". في غضون ذلك، كانت ثقة النازيين المفرطة بتفوقهم العلمي قد أعمتهم عن احتمال أن يكون الحلفاء استطاعوا اختراق شيفراتهم؛ وكانت تلك خطيئة جسيمة أخرى[٨].

«مطرودون أو مُبادون؛ لا مندمجون»

عندما اقتحمت القوات الألمانية الجبهات الغربية للاتحاد السوفيتي لأول مرة، كانت غالباً ما تستقبل كقوات تحرير خصوصاً من قبل الأوكرانيين وشعوب دول البلطيق الذين كانوا يتعرضون منذ مدة طويلة للإرهاب الذي سببته السيطرة السوفيتية على بلدانهم. وشعر بعض كبار ضباط الجيش الألماني أنه «لو لعب هتلر أوراقه بشكل جيد من خلال تعامله مع الشعب الروسي باحترام، وإطلاق وعود بشأن تخليص ذلك الشعب من الممارسات البلشفية القمعية ... لكان من الممكن استمالة الشعب الروسي.»

كان هذا الأمر أكثر ما ينطبق على أوكرانيا حيث كانت الأيديولوجية النازية تحظى بشعبية واسعة، وحيث كان يتوق العديد من الأوكرانيين للتحرر من ربقة الاتحاد السوفيتي. ولكن، بدلاً من ضم ألوية من الجيش الأوكراني للقتال ضد الجيش السوفيتي، لحقت فرق الموت التابعة للاستخبارات الألمانية (ss) بالجيش الألماني مباشرة وكانت لديها أوامر بإخضاع السكان المحليين واستعبادهم وقتلهم. قام النازيون إضافة إلى إبادة سكان أوكرانيا من اليهود بالكامل تقريباً، بذبح ما يقرب من خمسة ملايين من سكان أوكرانيا من غير اليهود[٩].

لم يكن هتلر يعنيه أن يستقطب أصحاب المواهب من الشعوب التي استعمرها وذلك بعكس جنكيز خان. وكذلك على العكس من الرومان، لم يكن مهتماً بدمج تلك الشعوب المستعمرة مع بلاده. كان مهتماً بدلاً من ذلك بضم أراضي تلك الشعوب. كانت العلاقات الدولية بالنسبة لهتلر «صراعاً من أجل احتلال المواقع بالأساس»، وهو صراع «يفوز فيه الأقوى، ويستولي على الأرض، ويستوطن تلك الأرض، ثم يقاتل من جديد من أجل أرض إضافية.» أصبح الصراع من أجل «الأرض التي تشكل المجال الحيوي لألمانيا» يشكل محور السياسة الخارجية النازية. أعلن هتلر في كثير من خطبه التي أذاعها عن نيته في تحقيق هذا الحلم من خلال «الاستيلاء على

مناطق جديدة، وطرد سكانها المحليين أو إبادتهم، وليس الاندماج معهم.» بالنسبة لهتلر، فإن السلام العالمي لا يمكن تحقيقه إلا «عندما تكون قوة واحدة هي الأفضل والأرقى عرقياً قد حققت التفوق الكامل الذي لا ينازعها فيه أحد.»

لم يطل الأمر بهتلر قبل أن يثبت أن «مفهوم المجال الحيوي» بالنسبة لألمانيا ليس مجرد عبارات جوفاء. كان ذلك المجال الحيوي لألمانيا بالنسبة إلى النازيين يتكون بشكل رئيس من بولندا وأوكرانيا وروسيا. كان هتلر يعتبر أن الشعوب السلافية تنتمي إلى عرق «غير قادر على إدارة دولة أو تطوير ثقافة.» ومن ثَم، فقد وجهت السياسة النازية الجيش الألماني إلى ضرورة إبادة أو استعباد البلاشفة الذين هم «دون مستوى البشر». وكان الخطة تقضي «بإزالة مدن عظيمة في الشرق مثل موسكو ولينينغراد ووارسو من الوجود»، وأن يتم «القضاء على ثقافة الروس والبولنديين والسلافيين» [١٠].

من البديهي القول إن تلك السياسات لم ترقْ للشعوب التي فتحها النازيون. اعترف بعض كبار المسؤولين الألمان بأن الخط المتشدد المعادي للشعوب السلافية، الذي اتبعه النازيون كان سوء تقدير إستراتيجي أفرز عواقب وخيمة. على سبيل المثال، كتب أفريد روزنبرغ وزير الرايخ لشؤون الشرق، وكان قومياً آرياً متعصباً، سنة ١٩٤٢ أن « أفضل هدية كان يمكن لألمانيا أن تتلقاها» في الحرب تتمثل في دعم شعوب الاتحاد السوفيتي الساخطة على النظام. وكانت وجهة نظر روزنبرغ وبعض رفاقه تقضي بأن العديد من رعايا الاتحاد السوفيتي كانوا راغبين بالقتال إلى جانب الألمان من أجل الحصول على حكم ذاتي قومي واستقلال عن الاتحاد السوفيتي.» وكان البولنديون على وجه الخصوص، الذين يكنون مشاعر العداء للسامية، يعتبرون أنفسهم حلفاء طبيعيين للألمان. إلا أن هتلر بقي ملتزماً بخطة «الإبادة وليس الاندماج»، معتبراً البولنديين «أوروبيين شرقيين من فصيلة الصراصير» الذين «ليس لديهم الحق في الحياة»، اللهم إلا إذا كانوا عبيداً لأسيادهم الألمان [١١].

أدت سياسة الإبادة الجماعية التي اتبعها المحتلون النازيون، بالإضافة إلى هدفهم المعلن في الحصول على «مجال حيوي» أوسع لألمانيا، إلى تأليب شعوب الاتحاد السوفيتي ضد النازيين ومقاومتهم بتصميمٍ لم يكن بمقدور القادة الستالينيين القيام به من دون تلك المساندة الشعبية. وبالرغم من أن الاتحاد السوفيتي فقد أكثر من عشرين مليون قتيل إلا أن الجيش الأحمر تابع القتال. ولكن لو اختار هتلر أن يتبع إستراتيجية أكثر تسامحاً واندماجاً مع الشرق، فإن تصور النجاح الذي كان يمكن للإمبراطورية النازية أن تحققه يصيبنا بالقشعريرة.

كانت هناك احتمالات للتعاون حتى في أوروبا الغربية؛ لكن النازيين بددوا تلك الاحتمالات من خلال تعصبهم الضاري والفظائع التي ارتكبوها. فعلى سبيل المثال، بعد أن نجح الألمان في اجتياز خط ماجينو، والحقوا الهزيمة بالفرنسيين، أبدى القادة الفرنسيون من حيث المبدأ الرغبة في التعاون. كانت المقاومة الفرنسية في واقع الأمر صغيرة في بداية الأمر، وكانت تقتصر في الغالب على المثقفين اليساريين والاشتراكيين، وفي وقت لاحق، الشيوعيين. لكن سياسة ألمانيا في فرض العمل القسري على الذكور الفرنسيين البالغين، والقتل المجاني للمدنيين في بلدات مثل "أورودور سور غلين" أدت إلى اندلاع أعمال المقاومة مما سهّل في نهاية المطاف على قوات الحلفاء القيام بغزو النورماندي ، وقلب موازين الحرب.

لم يكن هتلر يشبه سايروس العظيم من قريب أو بعيد. لم يكن ليجثو أمام البابليين الذين فتح بلادهم من أجل كسب ولائهم. كانت الأيديولوجية النازية تنظر إلى الشعوب المستعمَرة على أنها جماعات «دون مستوى البشر» لا بد من إبادتها كي تفسح المجال لأسيادها العرقيين. وضع المؤرخ كلاوس فيشر يده على جوهر المعضلة النازية عندما كتب أنه «بالرغم من وجود ذلك الكم الهائل من المهارات وكفاءة الأداء» التي تعزز مهمة هتلر في «إخضاع الشعوب المستعمَرة وإبادة الجماعات التي تنحدر من أصول دونية بتلك الطريقة الوحشية»، فإن «تلك المهمة الوحشية كان لا بد من أن تثور في وجهها مقاومةٌ شرسة» [١٢].

اليابان الإمبراطورية: الفتوحات التي قامت بها أكثر الشعوب «طهارة»

لم تكن ألمانيا الوحيدة بين دول المحور التي كانت لها تطلعات نحو الهيمنة على العالم. كشف وزير الخارجية الياباني في الأول من شهر آب، أغسطس، سنة ١٩٤٠ عن خطة تبنتها اليابان حول نيتها في التوسع الإقليمي . كان ما أطلق عليه "الفضاء الكبير للشرق الآسيوي الذي يتم فيه تقاسم الازدهار" - والذي سيتم غزوه من قبل الجيش الإمبراطوري، ويتم توحيده تحت الحكم الرحيم والخيّر للإمبراطور الياباني - سيتوسع باطراد على أربع مراحل.

كان من المأمول أن تضم المرحلة الأولى من هذا الفضاء إلى محوره كلاً من كوريا ومنشوريا وجنوب الصين وتايوان التي ستكون جميعها تحت السيطرة اليابانية خلال سنتين. في المرحلة الثانية، تقوم اليابان بالاستيلاء على البقية الباقية من الصين، بالإضافة إلى المستعمرات الأوروبية السابقة مثل الإيست إنديز الهولندية (إندونيسيا حالياً) والهند الصينية التي كانت تابعة لفرنسا (بما فيها كمبوديا الحالية وفيتنام ولاوس)، وبورما وتايلاند وماليزيا وأستراليا ونيوزيلندة. وستتوسع اليابان في المرحلة الثالثة بحيث تصل إلى الأراضي السوفيتية الشرقية والفيليبين والهند. أخيراً، سيتم الانتقال باتجاه آسيا الوسطى وأجزاء من الشرق الأوسط بما في ذلك إيران والعراق وتركيا بحيث تكون كافة هذه المناطق خاضعة للسيطرة اليابانية.

اعتقد اليابانيون أن من حقهم، وكذلك من واجبهم الأخلاقي، أن يتبوءوا موقع القيادة في ذلك الفضاء المشترك باعتبار أنهم «العرق السيد» في هذا الفضاء. فوق هذا وذاك، أعطي لقارة آسيا تعريف واسع وشامل. كان رسّامو الخرائط اليابانيون في زمن الحرب يعرضون كلاً من أوروبا وأفريقيا باعتبارهما جزءاً من قارة آسيا؛ كما وصف مسؤولون حكوميون يابانيون أمريكا بأنها «الجناح الشرقي» لآسيا. قال الإمبراطور هيروهيتو إن هذا الفضاء المشترك «سيساعد كافة الأمم والأعراق في

تبوء مكانتها الصحيحة في العالم» - بحيث تكون اليابان متربعة على عرش هذا الفضاء بطبيعة الحال [١٣].

لكن هذه الخطة المتغطرسة تحولت، شأنها شأن اليابان نفسها، إلى أشلاء بحلول سنة ١٩٤٥. لقد كان التعصب القاعدة التي انطلقت منها تلك الأحلام حول السيطرة اليابانية على العالم، وكان في الوقت نفسه السبب في دمار الإمبراطورية اليابانية.

مفهوم اليابان المتناقض والمثير
للاستغراب حول «العِرْق»

قام الكتاب اليابانيون في بداية القرن العشرين بتوليفة تتضمن أفكاراً غربية تتعلق بالعرق مع الفلسفة الكونفوشيوسية والأفكار المنبثقة عن الديانة اليابانية: «الشنتو» التي ترتكز على الطهارة الروحية والأخلاقية، من أجل الخروج برؤية يابانية جديدة عن العالم. تحولت اليابان باتجاه الحداثة خلال الحقبة التي كانت فيها الداروينية، وما يسمى العنصرية العلمية عملة رائجة في الغرب. كان العلماء وعلماء الاجتماع الغربيون يحاولون تقديم نظرية تتضمن «دليلاً تجريبياً» تثبت الدونية البيولوجية للآسيويين والسود والشعوب الأخرى من الملونين. في الوقت نفسه، بدت دبلوماسية الزوارق الحربية، والمعاهدات التي تفرض بالإكراه، والتطور الاقتصادي الغربي المتفوق وكأنها تثبت دونية آسيا (وبالطبع اليابان). رد المفكرون اليابانيون القوميون بابتداع شكل من أشكال التاريخ الأسطوري الذي قلب موقع اليابان الدوني رأساً على عقب من خلال التأكيد على البعد الإلهي للخط الإمبراطوري، وكذلك على «نقاء» الشعب الياباني وفضائله الأخلاقية الأرقى.

كانت القصة التي رواها اليابانيون لأنفسهم عن أنفسهم تبريراً منطقياً لفتوحاتهم وتسيدهم واستغلالهم للآخرين. أعلن ناكاجيما تشيكوهي سنة ١٩٤٠، وكان أحد كبار الصناعيين، وواحداً من القادة السياسيين «أن هناك شعوباً أرقى

وشعوباً أدنى في العالم، وأن الواجب المقدس المنوط بالعرق الأرقى يحتم عليه أن يكون في موقع القيادة وينير الطريق أمام الشعوب الأدنى» [١٤].

في ذات الوقت، كانت الأساطير التي وضعتها اليابان في خدمة توجهاتها مليئة بالمفارقات والتناقضات. فقد رأى اليابانيون أنفسهم ليس فقط «الأنقى» عرقاً بين الشعوب، بل بيضاً من ناحية اللون. كانت البشرة الناعمة البيضاء دائماً محل تقدير واحترام بين اليابانيين منذ القرن الثامن على الأقل. ارتبط لون البشرة الفاتح بالجمال الشخصي، وبالوضع الاجتماعي الرفيع المستوى. من هنا جاءت فكرة طلاء وجه الراقصات اليابانيات أو الممثلين باللون الأبيض. لكن بحلول القرن العشرين، ازداد هوس اليابانيين بمسألة البياض بسبب إحساس بعقدة الدونية تجاه الغرب. كانت الطبعات على الرسومات الخشبية منذ زمن الحرب الصينية اليابانية الأولى تصور اليابانيين ليس فقط كأشخاص طوال القامة ومن ذوي البشرة البيضاء، وإنما بملابس على النمط الغربي. في المقابل، كان الصينيون يصورون كأشخاص صفر البشرة، قصار القامة وممتلئي الجسم، ويرتدون الأردية الشرقية[١٥].

كانت العنصرية اليابانية التي مورست على الأخص على سكان المستعمرات اليابانية في جنوب المحيط الهادي تمثل صدى كاملاً تقريباً للعنصرية الأوروبية. وصفت تقارير رسمية يابانية سكان الجزر المايكرونيزية الواقعة شرق الفيليبين بأنهم «شعب من الكسالى والبدائيين والدونيين» الذين ليس بإمكانهم التخلي عن «عاداتهم الداعرة وهمجيتهم ... وفسوقهم.» واستناداً إلى ما ذكره أحد الباحثين اليابانيين في خمسينيات القرن العشرين، «فإن طرائق تفكيرهم طفولية بسبب أن حياتهم في غاية البساطة والبدائية ... فهم لا يمتلكون الرغبة في تحسين أوضاعهم، ولا روح التغيير. وتنحصر متع الدنيا عندهم في الطعام والرقص وإشباع رغباتهم الجنسية.» نتيجة لذلك، «فإن هؤلاء الناس الاستوائيين بحاجة ملحة إلى اليابانيين كي يرشدوهم إلى الاتجاه الصحيح.» [١٦].

أما بالنسبة للصينيين والكوريين، فقد كان على اليابانيين أن يخرجوا على العالم بقصص وتبريرات أكثر تعقيداً. ففي المحصلة، لا يمكن التمييز من حيث الشكل، بين اليابانيين وكثير من الصينيين أو الكوريين، كما أن هذه البلدان الثلاثة تتقاسم الكثير من العادات والتقاليد الثقافية. كتب أراكاوا غورو، رئيس تحرير إحدى الصحف اليابانية وعضو البرلمان الياباني، عن الكوريين سنة ١٩٠٥ ما يأتي:

> ليس هناك ما يجعلهم مختلفين عنا. فهم يشبهون إلى حد بعيد اليابانيين، إنهم ينتمون إلى العرق الشرقي نفسه، ولهم اللون والمظهر الجسدي نفسه، لون الشعر الأسود نفسه. ... فلو أخذنا بعين الاعتبار أن مظهر وبنية الكوريين واليابانيين هي ذاتها بشكل عام، وأن تراكيب وقواعد اللغتين متطابقة إلى حد بعيد، وأن تقاليد الشعبين القديمة متشابهة مع بعضهما بعضا، لتبادر إلى ذهنك أن اليابانيين والكوريين ينتمون إلى النموذج البشري نفسه.

إلا ان غورو يتابع موضحاً أن هذه التشابهات السطحية خدّاعة:

> لو أمعنت النظر [إلى الكوريين] لوجدت فيهم شيئاً من البلاهة؛ أفواههم مفتوحة وأعينهم زائغة، وإلى حد ما، يعوزها التركيز. ... وستجد على أطراف أفواههم، وفي تقاطيع وجوههم بعض التراخي. أما فيما يتعلق بمسائل النظافة والأمراض، فإنهم منفلتون تماما. لو قمنا في واقع الأمر، بتوصيف لهؤلاء بأسوأ العبارات، لجاز لنا القول إنهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى بني البشر [١٧].

كانت تتم مقارنة كل فضيلة يابانية بنقيصة كورية. فاليابانيون أطهار ونظاف، بينما الكوريون «وسخون» وقذرون. اليابانيون يتمتعون بروح الإيثار، أما الكوريون فهم أنانيون. اليابانيون منظمون وعصريون، لكن الكوريين بالمقابل، «برابرة» و«فوضويون». كان اليابانيون يعتقدون أن تعقيدات الحياة الحديثة أكبر بكثير من قدرة الكوريين على استيعابها؛ لأنه ليست لديهم المقدرة العقلية للعمل حتى بصفتهم موظفين في محطات السكك الحديدية بسبب أنهم «عاجزون تماماً عن إحصاء عدد بطاقات المسافرين التي قاموا بثقبها.» وهم «مثل غالبية البدائيين البرابرة، عاجزون عن أنهم العمليات الحسابية الدقيقة.» الأسوأ من هذا وذاك، فهم متمرسون في الكذب «ولعب القمار والغش والسرقة وارتكاب الفاحشة.»

من ناحية أخرى، فبالرغم من أن الكوريين كسالى بطبيعتهم، إلا أنهم «يمتلكون درجة غير معقولة من القدرة على التحمل»، وبالتالي فهم حيوانات مثالية لحمل الأثقال. شرح غورو هذه الظاهرة بالقول «إن الكوريين يمتلكون قوة بدنية عظيمة تمكنهم من حمل البضائع الثقيلة؛ وهم قادرون في الواقع على حمل أشياء أكثر وزناً مما تستطيع الخيول اليابانية حمله. سمعت بأنه من المألوف بالنسبة للكوري أن يقوم بحمل أثقال تبلغ زنتها ما بين ٢٢٥ و٢٦٠ كيلوغراماً. ومن ثَم، لو قمت بتشجيعهم وطلبت إليهم العمل تحت إشرافك، فإنهم سيكونون مفيدين حتماً.»

الحل إذاً، كان واضحاً: الكوريون بحاجة إلى قيادة يابانية [١٨].

كما كانت الحال بالنسبة لحلفائهم النازيين، فإن موضوع التطهير - العرقي والأخلاقي والروحي - كان دائم الحضور في أدبيات اليابان إبان الحرب، ووجد له صدى في الدين والثقافة الشعبية، وكذلك في ألوان الحياة اليومية (بكل ما تحمله كلمة لون من معنى). ففي سنة ١٩٤٢، اشتهرت أغنية وطنية بعنوان «الجنود الإلهيون يسقطون من السماء»، وكانت بمنزلة تحية للجنود المظليين الذين كانوا يتساقطون على أعدائهم مثل «ورود بيضاء نقية» من السماء. كان اللون الأبيض هو لون اللباس الذي يرتديه كهنة ديانة "الشنتو" وهو أيضاً اللون الذي يتم ارتداؤه في أثناء عملية الطقوس التطهيرية اليابانية منذ زمن طويل. لكن اللون الأحمر الذي يمثل «السطوع» كان رمزاً يابانياً أيضاً. شرحت مقالة شهيرة بعنوان «التأسيس لرؤية عرقية يابانية عالمية» نشرت سنة ١٩٤٢ في واحدة من أشهر المجلات الشعبية في اليابان، السبب في أنّ اللون الأحمر هو لون الدم والحياة:

> ساد اعتقاد بأن مفهوم الطهارة التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من ديانة الشنتو يرتبط بنقاوة اللون الأبيض. ... لكن التجربة التي خضناها منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب، تظهر خطأ هذا الاعتقاد؛ وهذا الخطأ في واقع الأمر جلي لأولئك الذين انخرطوا في طقوس التطهير. إن لون الطهارة هو اللون الأحمر الشاحب الممتزج بوردية الدم؛ إنه لون الحياة نفسها. إن دفء الحياة هو ما جعل الكرز يتبرعم كرمز في روح «ياماتو».

ولكن لم يكن كافياً بالنسبة إلى اليابانيين أن يكونوا من «ذوي الدماء النقية» إذا كانت دماء شعوب العالم من حولهم ليست كذلك. وهكذا فقد نودي على اليابانيين كي يساعدوا في تنقية القارة الآسيوية برمتها وإصلاح سكانها الوسخين من أشباه الحيوانات والعفاريت من أجل بناء «الدولة الأرقى المتسمة بالكمال والطهارة.» وقد فسّرت مجموعة من أساتذة جامعة كيوتو الإمبراطورية الحرب على أنها وسيلة «خلاقة وبنّاءة» من أجل الدفع بعملية «التطهير من الذنوب» التاريخية. عندما يقدم المرء حياته ثمناً في المعركة، فإن ذلك يُعد أكثر الإنجازات طهارة على الإطلاق. كتب في هذا المجال المؤرخ جون داوار أن «التضحيات في أوقات الحروب تُعد فعلاً مقدساً في حقيقة الأمر؛ إنها حمام من الدم يتحول إلى شكل سامٍ من أشكال التطهير الروحي» [١٩].

ولكن ماذا عن الشعوب الآسيوية الأدنى مرتبة، والتي كان يراد لها أن «تتطهر»؟

الاحتلال الياباني لبرّ شرق آسيا
مهمة إلهية

عندما سقطت القنابل على ميناء بيرل هاربر في السابع من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة ١٩٤١، ظهرت اليابان على أنها قوة عالمية كبرى تمتلك جيشاً هائلاً وطموحات إمبراطورية توسعية كانت تتحقق بسرعة كبيرة. بعد ذلك بسنة، استولت اليابان على إندونيسيا وماليزيا وسنغافورة وتايلاند وأجزاء من بورما والصين والفيليبين والعديد من الجزر في جنوب المحيط الهادي؛ وكانت في الأساس تسيطر على كوريا ومنشوريا وتايوان. كانت السياسة التي اتبعتها اليابان في كل تلك المنطقة التي أطلقت عليها «الفضاء الذي يتم فيه تقاسم الازدهار» - باستثناء وحيد سوف يتم الحديث عنه لاحقاً - سياسة ملؤها التعصب في جوهرها.

لم يكن اليابانيون يهتمون في استمالة قلوب وعقول الشعوب المستعمَرة شأنهم في ذلك شأن النازيين. كان الهدف البديل لليابان الإمبراطورية يتمثل في استنزاف

الموارد المحلية، واستغلال اليد العاملة للسكان الأصليين من خلال تشغيلهم في أكثر الأعمال دونية وخطورة، واستخدام المناطق المحتلة في نهاية المطاف لتكون مناطق استيطان لليابانيين الذين كانوا يعانون من مسألة الاكتظاظ السكاني [٢٠].

ففي كوريا على سبيل المثال، كان العمل القسري يفرض على المواطنين هناك على نطاق واسع. حيث جُنِّد ما يقرب من مليون من الشباب الكوريين وإجبارهم على القيام بأعمال شاقة في مجال البناء ومناجم الفحم، وكان يتم ترحيلهم إلى أماكن بعيدة جداً عن مناطق سكناهم حتى إلى اليابان أحياناً. وكانت الآلاف من الشابات الكوريات اللواتي وُعِدن باستلام «وظائف إدارية» قد فرض عليهن القيام بالترفيه عن الجنود اليابانيين. كما فرضت ضرائب كبيرة على السكان المحليين بالرغم من أن اليابانيين كانوا قد استولوا على معظم إنتاج البلاد من أهم مادة غذائية هي الأرز تاركين الكوريين يقتاتون على الشعير وحبوب الدّخن. انتشرت المجاعة بين السكان بسرعة على أثر ذلك؛ وفي الوقت نفسه، منعت اللغة الكورية من التداول بوصفها لغة للتدريس في المدارس الحكومية، واستبدلت الكنية التي تحمل أسماء العائلات الكورية بأسماء يابانية، وأصبح التعبد على الطريقة الشينتوية إلزامياً. حاول اليابانيون أيضاً وضع حد للتقاليد الكورية التي تقضي بارتداء ملابس بيضاء. لكن عندما فشلت جهودهم الرامية إلى ذلك، عمد المسؤولون اليابانيون إلى رش الحبر أو الطلاء على الكوريين الذين يرتدون الألبسة البيضاء[٢١].

كانت الأمور أكثر سوءاً في إندونيسيا. هناك، لم يقم اليابانيون حتى بمحاولة «تحضير» أهالي جاوا أو السلواسيين؛ ذلك أن اليابانيين لم يكونوا يرون في إندونيسيا سوى حوض من الموارد التي حرصوا على تجفيفها. كان اليابانيون ينظرون بنهم إلى احتياطات إندونيسيا الهائلة من النفط والأخشاب واليد العاملة، وهي موارد كانوا في أمس الحاجة إليها.

من المفارقة أنه عندما وطأت أقدام اليابانيين أرض إندونيسيا للمرة الأولى سنة ١٩٤٢، كانت نظرة الكثيرين من أهالي إندونيسيا إيجابية تجاه مستعمريهم

الجدد. يكفي أن اليابانيين طردوا الهولنديين الذين كانوا سادة إندونيسيا الاستعماريين لأكثر من ثلاثمئة سنة، والذين كان شعب إندونيسيا يكن لهم الكثير من الكراهية. رحب العديد من قادة إندونيسيا الوطنيين بمن فيهم سوكارنو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لإندونيسيا باليابانيين بصفتهم محررين، وصدّقوا كلام اليابانيين الإنشائي حول الوحدة الآسيوية التي انتصرت على الغرب. وكان هذا التأييد لليابان يتخذ شكل شعارات مثل: «اليابان حامية آسيا»، و «اليابان نور آسيا»، وهي شعارات أصبحت متداولة بين الأحزاب الإندونيسية المطالبة بالاستقلال في ذلك الوقت. ولكن كما فعل النازيون بالضبط في أوكرانيا، فإن التعصب الشديد والفاضح الذي أبداه اليابانيون تسبب في انقلاب مرير وسريع للشعب الإندونيسي على «أسياده» الجدد [٢٢].

مارس اليابانيون في أثناء مدة احتلالهم لإندونيسيا التي دامت من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٥ قسوة وجبروتاً عرقياً تجاوزا بكثير حتى ممارسات الهولنديين أنفسهم. كانت عقوبة الجلد والضرب بالعصي التي تمارس بحق السكان المحليين في الأماكن العامة أمراً شائعاً. وكان يُطْلَب من المسلمين الملتزمين الاعتراف بألوهية الإمبراطور الياباني، وهو ما شكل تناقضاً صارخاً مع معتقداتهم الدينية. وصل إخضاع الإندونيسيين للعمل القسري إلى حد لا يطاق، وكانت قسوته من الشدة بحيث لا يمكن تخيل مثيل لها؛ تفاوتت التقديرات بشأن أعداد من أُخِذوا من بيوتهم بالقوة وأجبروا على القيام بأعمال تقصم الظهر، وأدت إلى وقوع مئات آلاف من القتلى بين الإندونيسيين. قدّر بعض المؤرخين هذه الأعداد ببضعة ملايين. وكانت عمليات اقتلاع الغابات من الشمول بحيث إن قرى بأكملها تحولت إلى سهول جرداء غمرتها الفيضانات. أدت مصادرة الأراضي الزراعية لأغراض عسكرية إلى حدوث مجاعات للملايين من الناس الذين يعتمدون في معيشتهم على الزراعة. كما أصبحت الملابس والأقمشة من الندرة بحيث إن العديد لم يكن باستطاعتهم مغادرة منازلهم لأنهم لا يملكون ما يسترهم من اللباس. وكان من الشائع أيضاً في

أثناء الاحتلال، التعذيب بواسطة الطعن بالحراب والصدمات الكهربائية، وإكراه المساجين على ابتلاع كميات كبيرة من المياه، أو خلع رُكَبهم.

أما أكبر كارثة إستراتيجية حلت باليابانيين فكانت في سنغافورة، وهي مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨١٩. قبل وصول اليابانيين سنة ١٩٤٢، كانت سنغافورة مركزاً مزدهراً للتجارة العالمية. لكن ازدهار سنغافورة والحكم البريطاني انتهيا فجأة سنة ١٩٤٢ عندما وقعت تلك الجزيرة في أيدي اليابانيين بعد معركة طاحنة نتج عنها أكبر استسلام لقوات قادها البريطانيون في التاريخ. (وقع حوالي ١٣٨ ألفاً من الجنود البريطانيين والأستراليين والهنود في أسر القوات اليابانية.) كان اليابانيون يهدفون إلى جعل سنغافورة العاصمة الاقتصادية لجنوب شرق آسيا الذي تسيطر عليه اليابان. لكن هذه الخطة فشلت فشلاً ذريعاً.

قام العساكر اليابانيون فور احتلالهم للجزيرة بمنع شعب سنغافورة المكون في غالبيته من الصينيين بممارسة أي نشاط اقتصادي قبل الحصول على تصريح رسمي من السلطات. أعطيت الامتيازات والعقود للشركات اليابانية الكبرى مثل ميتسوبيشي وميتسوي، بينما سُلّمت المصالح الصينية الصناعية الأقل حجماً وكذلك تجارة التجزئة إلى»صيادي الامتيازات« اليابانيين الذين لم يكن الكثيرون منهم يملك ما يكفي من المهارة أو الخبرة، أو الشبكات التجارية لإدارة اقتصاد سنغافورة. وكانت النتيجة أن التضخم الذي أصبح خارج السيطرة، والارتفاع الجنوني للأسعار، والفساد، والنقص الحاد في المواد الغذائية، أدى بالاقتصاد إلى الانهيار.

في غضون ذلك، اتخذ اليابانيون إجراءات وحشية من أجل اقتلاع المقاومين الصينيين. قامت القوات العسكرية اليابانية فيما أصبح يطلق عليه لاحقاً مذبحة "سوك تشينغ" بمهاجمة البيوت واحداً إثر الآخر في شهر شباط، فبراير، سنة ١٩٤٢، حيث جمعت السكان الصينيين الذين كانوا يُعدون من المناهضين للوجود الياباني بمن فيهم النساء والأطفال والعجزة. بعد أن احتجزوا في ظروف مرعبة،

وأخضعوا لاستجواب عنيف، ثم أُطْلِق سراح بعضهم. لكن الكثيرين منهم لم يُطْلَق سراحهم. جُمِع حوالي ٢٥ ألفاً من هؤلاء وحُملوا على متن شاحنات نقلتهم إلى أماكن بعيدة، حيث طعنوا هناك حتى الموت، أو أعدموا رمياً بالرصاص. وهكذا، فبدلاً من أن تكون سنغافورة منارة لفضاء تقاسم الازدهار الياباني، انحدرت بحلول سنة ١٩٤٥ إلى موئل للأوبئة، وسوء التغذية، وإلى مرتعٍ للقمع الوحشي.

كانت الصورة في بقية دول جنوب شرق آسيا لا تقل ألماً وقتامة. وكما كانت الحال بالنسبة لألمانيا النازية، فلا يجوز القول فقط إن اليابانيين لم يسمحوا للشعوب التي استعمروها بالمشاركة في حكم أنفسهم وتحسين أوضاعهم وتحقيق الازدهار لبلادهم. كان أحد رموز الاحتلال الياباني هو «سكة حديد الموت»، وهي السكة الحديدية التي بناها اليابانيون بين بورما وتايلاند التي كانت تعرف يومها بدولة سيام في أربعينيات القرن العشرين. لكي يكون باستطاعة اليابانيين بناء هذه السكة، كان لا بد لهم أن يجندوا رجالاً من كافة أنحاء آسيا كي يعملوا في ظل ظروف أقرب إلى العبودية. مات في ذلك المشروع قرابة ٦٠ ألف شخص. وصف كارلوس رومولو، وهو محرر في إحدى الصحف، وكان ممن هربوا من معسكر باتان في الفيليبين سنة ١٩٤٢، المشهد بعد عودته إلى مانيلا سنة ١٩٤٥:

> كان أولئك جيراني وأصدقائي الذين رأيت أجسادهم التي مزقها التعذيب وهي تدفع باتجاه كومات من البشر في شوارع مانيلا، كانت أيديهم مقيدة إلى الخلف وآثار طعنات الحراب تملأ أجسادهم. تلك الفتاة التي كانت تنظر من دون أن تنبس ببنت شفة، وكان نهداها الصغيران مثخنان بالجروح التي سببتها طعنات الحراب، كانت زميلة ابني في المدرسة. رأيت جثث رجال الدين والنساء والأطفال والرضع الذين مزقت أجسادهم الطعنات بهدف التسلية [٢٣].

كان الرد على تلك المذابح في الأراضي المحتلة كماً كبيراً من المقت لليابانيين ما يزال مستمراً في أجزاء عديدة من آسيا حتى يومنا هذا. وبينما كان هناك متعاونون مع الاحتلال في كل من تلك البلاد المحتلة بطبيعة الحال، انتشرت كذلك أعمال المقاومة والتخريب والعصيان. قامت في كوريا المظاهرات والانتفاضات الشعبية

مطالبة بالاستقلال عن اليابانيين. وفي الفيليبين وإندونيسيا ومناطق أخرى، قامت حركات المقاومة السرية بمقاتلة القوات اليابانية المحتلة مستخدمة أسلوب حرب العصابات [٢٤].

من المستحيل إثبات أن التعصب الياباني الوحشي هو الذي أدى إلى تحجيم طموحاته الإمبراطورية. يمكن القول إن اليابانيين كان لا بد أن يواجَهوا بشعور الكراهية، وبالمقاومة بصفتهم محتلين أجانب، بغض النظر عن طبيعة سياساتهم التي كان من الممكن أن يتبعوها مع شعوب البلدان التي احتلوها. إلا أن هناك منطقة احتلها اليابانيون واتبعوا فيها سياسة التسامح الإستراتيجي بدلاً من سياسة التعصب المعهودة؛ وهذا الاستثناء الوحيد الذي يدعو إلى الدهشة هو دليل قاطع على أن الحكم الياباني لشعوب دول آسيا التي استعمروها كان يمكن أن يكون أكثر فاعلية.

سقطت فورموزا التي تدعى اليوم تايوان في يد اليابانيين سنة ١٨٩٥ بعد انتصار اليابان على الصين في الحرب اليابانية الصينية الأولى. في تلك الحقبة كانت اليابان ما تزال تركب موجة حكام التنوير (Meiji) في التحديث والتصنيع، ولم تكن حينها قد وقعت بعد في قبضة الجناح العسكري القومي المتطرف الذي استلم السلطة في ثلاثينيات القرن العشرين. كانت فورموزا التي تُعَد أول مستعمرة يابانية بالمعنى الرسمي تمثل ليس فقط مصلحة إستراتيجية عليا لليابان بسبب قربها من الصين، بل فرصة لإظهار بروز اليابان على المسرح العالمي بوصفها قوة إمبريالية محدثة. ولكن مهما كانت الأسباب، فقد اختلف احتلال اليابان لفورموزا بشكل كبير عن السياسة التي كانت تمارسها في مناطق مثل بورما وإندونيسيا وكوريا في أثناء الحرب العالمية الثانية.

بدايةً، يمكن القول إنه خلال العقود الأولى التي أعقبت احتلال فورموزا، لم يقم اليابانيون بقمع الثقافة المحلية بشكل علني. وفي الوقت الذي فرض اليابانيون على الكوريين حظراً على التحدث بلغتهم الأصلية أو استخدامها وسيلة للتعليم،

فإنهم سمحوا للفورموزيين بالتحدث بلهجتهم الأصلية المحلية الصينية، وبتعليم الأطفال التايوانيين اللغتين الصينية واليابانية في مدارس تمولها اليابان، بالإضافة إلى تدريب الضباط الصينيين على التحدث باللغة الصينية أيضاً. قامت السلطات اليابانية سنة ١٩٢٢ بدمج مدارس النخبة الابتدائية في الجزيرة، وبذلك فقد سمحت للأطفال التايوانيين بالدراسة جنباً إلى جنب مع أطفال مستعمريهم اليابانيين [٢٥].

كان من بين أهم المؤسسات الفورموزية التي تركها اليابانيون وشأنها نظام الحكم المحلي الصيني (Pao-Chia) الذي تنضوي تحته تجمعات لمئة من العائلات تقريباً ويكون كل واحد من هذه التجمعات مسؤولاً عن أي أخطاء يمكن أن يرتكبها أي من أفراد هذه التجمعات. حاز اليابانيون على ولاء النخب المحلية في فورموزا من خلال الإفادة من هذا النظام، والسماح للعائلات الفورموزية ذات الشأن الاجتماعي بالمحافظة على مراكزها القيادية داخل مجتمعاتها. ومن أجل هذا الهدف أيضاً، قامت السلطات اليابانية المستعمِرة بمنح امتيازات للفورموزيين البارزين مغدقين على بعضهم أحياناً لقب "السيد النبيل" (shisho). في الوقت ذاته، استثمر اليابانيون أموالاً في البنية التحتية الفورموزية وفي حقل الزراعة؛ فقد شقوا الطرقات، وبنوا السكك الحديدية، ومجاري الصرف الصحي، والسقاية، وأسسوا للإنتاجية الزراعية. ازدادت كمية الغلال بشكل كبير لدرجة أنه بعد تصدير كميات كبيرة من الأرز إلى اليابان، بقي لدى الفورموزيين كميات من الطعام أكثر نسبياً مما كان متوافراً للصينيين في البر الصيني المقابل.

بالتأكيد كان اليابانيون يمارسون بعض أشكال القمع في فورموزا، حتى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. فقد قدر عدد القتلى من المقاومين الفورموزيين على يد الجيش الياباني بحوالي ١٢ألفاً خلال المدة الأولى من الحكم الياباني. ولكن ما يثير الدهشة أن اليابانيين مع ذلك، استطاعوا نيل ثقة السكان المحليين وولائهم. خدم حوالي ثمانين ألفاً من الفورموزيين بصفة متطوعين في الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية. ما يزال التايوانيون إلى يومنا هذا يشعرون بالارتباط

بالثقافة اليابانية. بعض التايوانيين المعمرين الذين عاشوا تحت الاحتلال الياباني ما زالوا يتحدثون اللغة اليابانية بين الحين والآخر، ويتذكرون أن أولئك المستعمرين جلبوا معهم إلى فورموزا النظام والحداثة وحكم القانون. لو مارس اليابانيون سياسات مشابهة في مستعمراتهم الأخرى المشتركة في "الفضاء الذي يتم فيه تقاسم الازدهار"، لكانت محاولتهم لفرض هيمنة إمبراطورية، أكثر نجاحاً بكثير[٢٦].

لا يمكن إنكار مدى فاعلية التعصب. ربما لا توجد قوة على وجه الأرض أكثر إثارة للمشاعر، أو أكثر استحضاراً للهوية، أو أكثر تحريضاً على خوض الحروب من القومية العرقية - اللهم إلا إذا استثنينا الأصولية الدينية وتفرعاتها الجهادية. ولكن من حسن حظ العالم أجمع، أن العناصر التي تثير المشاعر في هذه الأيديولوجيات هي نفسها التي تضع حداً لقدرتها على التمدد والاستمرار.

ما يبعث على الدهشة أن الألمان أخفقوا في الإفادة من فرصة الحصول على دعم عشرات الملايين من الروس والبولنديين والأوكرانيين وآخرين ممن كان يمكن أن يشكلوا دعماً كبيراً لهم، وحتى أن يكون الكثيرون منهم جنوداً يقاتلون في صفوفهم. كما أن من المدهش أن اليابانيين الذين رأوا في تايوان مدى فاعلية التسامح الإستراتيجي في الأراضي المحتلة، اختاروا ممارسة سياسة القمع الوحشي وارتكاب المجازر في حق الشعوب المستعمَرة في مناطق أخرى، وهم بذلك ضمنوا نشوء أشرس أشكال المقاومة الممكنة لحكمهم. لكن الأيديولوجية التي أوصلتهم إلى سنام السلطة - وهي العوارض نفسها المرضية القومية القائمة على أساس عرقي، التعطش نفسه للدماء وممارسة سياسة التطهير العرقي - هي نفسها التي منعت ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية من ممارسة سياسات كان لها أن تخدم توجهاتهم بغرض تبوء الموقع الذي من خلاله يستطيعون السيطرة على العالم. غني عن القول إن الأيديولوجيات التي تنادي بالتفوق العرقي وتدعو إلى ممارسة التطهير العرقي لا يمكن لها أن تخلق شعوراً بالولاء عند الشعوب التي يتم التخطيط لإبادتها، أو تساعد في استقطاب رأس المال البشري اللازم من هذه الشعوب بما يخدم مصالح أصحاب تلك الأيديولوجيات.

التسامح وحده يمكن له أن يحقق مثل تلك النتائج. سيتبين لنا - ونحن نقفل عائدين إلى القرن الحادي والعشرين في الفصل الآتي - أن ثلاثة من أهم متحدّي هيمنة الولايات المتحدة اليوم ومن بينهم الصين والاتحاد الأوروبي قد تعلموا الدرس جيداً. هل يمكن لأي من هذه المجتمعات تحقيق كمٍ وافٍ من الثروة والسلطة بما يكفي كي تضع نهاية لسياسة القطب الواحد المسيطر على العالم، الذي تمثله أمريكا؟

الفصل الحادي عشر

المُتَحَدّون

الصين والاتحاد الأوروبي والهند
في القرن الحادي والعشرين

عانينا من مئتيْن من السنين العجاف، لكننا عدنا الآن.

- أحد سكان مدينة شنغهاي

بإمكان الولايات المتحدة أن تلجأ إلى استخدام أسلوب الرشوة، أو تفرض إرادتها في أي مكان من العالم تقريباً؛ ولكن حالما تدير ظهرها، فإن فاعليتها سوف تتلاشى. أما قوة الاتحاد الأوروبي في المقابل، فهي شاملة وعميقة الجذور: عندما تلج أي دولة إلى فضاء تلك القوة، فإنها ستتغير إلى الأبد.

- مارك ليونارد: «لماذا ستمسك أوروبا بزمام القرن الحادي والعشرين»

لو صحت استطلاعات الرأي العالمية، فإن الغالبية الساحقة من شعوب العالم تتطلع إلى زوال الهيمنة الأمريكية على العالم، وتأمين تجمع عالمي للقوة أكثر توازناً[١]. يتناول هذا الفصل ثلاثاً من القوى الأكثر استعداداً لأن تشكل تحدياً لسيطرة الولايات المتحدة: وهذه القوى هي الصين والاتحاد الأوروبي والهند. من اللافت للنظر أن كلاً من هذه القوى الثلاث بدأت لتوها تطبيق مفهومها الخاص المتعلق بمبدأ التسامح الإستراتيجي. وبالرغم من أن نماذج التسامح المتبعة هنا

تختلف جداً عن نموذج التسامح المطبق في الولايات المتحدة - في الحال الصينية، لا يوحي الانطباع الأول إلا بالكاد، بوجود أي تسامح على الإطلاق - إلا أنها قطعت شوطاً بعيداً ومدهشاً في تبرير النجاحات الساحقة التي حققتها هذه القوى الصاعدة.

الصين الصاعدة

اختتم الصحفي مايكل إليوت تحقيقه الرئيس الذي ظهر على صفحة غلاف مجلة تايم الأمريكية الصادرة في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة ٢٠٠٧ حول «القوة العالمية العظمى التالية» بما يأتي: «ستبدأ القوة النسبية للولايات المتحدة في التلاشي التدريجي في هذا القرن، وستحل محلها القوة الصينية التي بدأت في الصعود. لقد أُعد قالب الحلوى هذا، منذ زمن طويل.» نشر إليوت أيضاً استطلاعاً أجري سنة ٢٠٠٦ في الصين. أظهر هذا الاستطلاع أن سبعاً وثمانين في المئة من الصينيين الذين تم استطلعت آراؤهم يشعرون بأن على الصين أن «تؤدي دوراً أكبر في القضايا الدولية»، كما اعتقد خمسون في المئة من هؤلاء أن «النفوذ الصيني العالمي سوف يكون موازياً للنفوذ الأمريكي خلال عقد من الآن.» بحسب ما ذكر كينيث ليبرثال، المدير الرئيس لمكتب الشؤون الصينية في مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهد الرئيس بيل كلينتون، فإن «الصينيين لا يعلنون عن ذلك صراحة، ولكنني أميل إلى الاعتقاد أنهم في أعماق قلوبهم يعتقدون أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرناً صينياً بامتياز» [٢].

هل بإمكان الصين أن تصبح القوة المطلقة الآتية في العالم؟ لو نظرتم إلى التغيرات التي حدثت في الصين من أي جهة شئتم، لوجدتم أن التحول الاقتصادي فيها خلال ربع القرن الأخير، كان مثيراً للذهول. كان دخل الفرد في الصين سنة ١٩٧٨ لا يتجاوز ٢٣٠ دولاراً، وهي نسبة تكاد تكون الأدنى في العالم، كما كان معدل النمو يمر في مرحلة ركود. أما من حيث النمو، فقد كانت الصين تقارن بدول مثل إندونيسيا وتنزانيا. ولكن الاقتصاد الصيني في السنين الثلاثين الأخيرة توسع

بمعدل يشبه الظاهرة، حيث بلغ نسبة ٩،٥ في المئة سنوياً؛ أما اليوم، فلا توجد دولة في العالم تؤثر في الاقتصاد العالمي كما تفعل الصين.

في سنة ٢٠٠٣، تجاوزت الصين الولايات المتحدة كأهم قِبلة للاستثمارات الأجنبية المباشرة. فالصين لم تعد مسيطرة فقط في قطاعات العمل اليدوي وحسب، مثل قطاع الألعاب والأحذية وصناعة الملابس. الصين اليوم، هي المنتِج الأول في العالم للهواتف الخلوية، وأجهزة التلفزيون ومشغلات DVD. ومما يلفت النظر أن الصين بدأت تتجه إلى صناعة رقائق الكومبيوتر وصناعة السيارات ومحركات الطائرات والصناعات الحربية؛ وهي قطاعات كانت تسيطر عليها تقليدياً الدول ذات الاقتصاديات المتقدمة. وهي أيضاً المستهلك الأول للهواتف الخلوية والإلكترونيات الاستهلاكية، وربما ستصبح المستهلك الأول للسيارات في مستقبل ليس ببعيد. وبحسب بعض الخبراء، سيكون اقتصاد الصين بحلول سنة ٢٠٣٠ أكبر بثلاث مرات من اقتصاد الولايات المتحدة[٣].

ذهبت الصين إلى أبعد من ذلك، فقد بدأت تنافس القوة المطلقة الحالية على جبهة التجارة العالمية في الموضوع المالي. ففي الوقت الذي تخوض الولايات المتحدة معركة العداء المتزايد ضدها عالمياً، قامت الصين بربط نفسها من دون ضجيج، مع جميع القوى الكبرى في العالم تقريباً في العالميْن النامي والمتقدم؛ وغالباً ما تلجأ الصين إلى إسقاط الديون المترتبة لها على بعض تلك الدول، وتقديم المساعدات الخارجية من أجل تحسين صورتها العامة، وزيادة فاعلية الصفقات التي تعقدها. في غضون ذلك، قامت الصين بتوقيع عقود طويلة الأجل لشراء مليارات الأطنان من النحاس التشيلي، والفحم الأسترالي، والحديد البرازيلي ومواد خام أخرى هي في أمس الحاجة إليها من أجل تشغيل آلتها الاقتصادية الهائلة.

وكان من قبيل المفارقة اللافتة للنظر أن الصين أبلت بلاء حسناً من خلال استغلال رفض الدول الغربية التعامل مع «الدول المارقة». فقد رفضت الصين رفضاً

قاطعاً الامتثال للقيود التجارية المفروضة على دول في الشرق الأوسط وأفريقيا بحجة انتهاكها لمعاهدات حقوق الإنسان، كما التزمت بذلك الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي، وهو ما وفر للصين مدخلاً أرحب من أجل الوصول إلى موارد قيّمة في دول مثل أنغولا وبورما والكونغو وإيران. وبينما تصاعدت الاحتجاجات بسبب تلكؤ حكومة الولايات المتحدة في تقديم المساعدات الإنسانية ودعم القوات الدولية في منطقة دارفور، سارعت الصين إلى ملء هذا الفراغ حيث أصبحت أكبر مستثمر في حقول السودان النفطية الهائلة. ما زاد الطين بلة، أن استطلاعاً عالمياً للرأي أجرته مؤسسة (Pew) أظهر أن غالبية المستطلعة آراؤهم في كندا وفرنسا وألمانيا وهولندا وروسيا وأسبانيا والمملكة المتحدة ينظرون إلى الصين نظرة أكثر إيجابية من نظرتهم إلى الولايات المتحدة[٤].

لكن أياً مما تقدم لا يشكل عاملاً حاسماً يؤدي بالصين إلى تبوء مقعد السيطرة العالمية. إذا كانت الأطروحة التي يقدمها هذا الكتاب صحيحة، فهذا يعني أن أمريكا هي قوة مطلقة هذه الأيام لأنها سبقت العالم برمته في تسامحها. يضاف إلى ذلك، أن قدرة الولايات المتحدة على اجتذاب أكثر أنواع رأس المال البشري قيمة، واستثماره فيما يحقق مصالحها كانت السبب في ارتقاء الولايات المتحدة سلم السيطرة العالمية اقتصادياً وعسكرياً وتكنولوجياً بشكل لا يمكن لأحد إيقافه، أو الوقوف في وجهه. إذا كان هذا الأمر صحيحاً، وإذا كان للتاريخ أن يكون مرشداً ودليلاً، فإن باستطاعة الصين تجاوز الولايات المتحدة والحلول محلها كقوة عالمية مطلقة، فقط إن استطاعت أن تذهب إلى أبعد ما ذهبت إليه الولايات المتحدة في تسامحها الإستراتيجي. هل بإمكان الصين الديكتاتورية والمحابية للدول المارقة أن تقوم بذلك؟

يبدو من النظرة الأولى أن الجواب سيكون "كلا". الصين لها تاريخ طويل من المركزية العرقية، والرهاب من كل ما هو أجنبي ما عدا بعض الاستثناءات القليلة، كما قامت في السنوات الخمسين الأخيرة بعمليات قمع وحشية لكافة أشكال التمرد

السياسي والديني. والأنكى من ذلك، فالصين التي توصف رسمياً بأن ٩٢ في المئة من شعبها متجانسون عرقياً، وأن ٩٤ في المئة من شعبها ملحدون، بالإضافة إلى سجلها السلبي في مجال الهجرة، لا يقوم مجتمعها على مفهوم التعددية المنبثقة من مهاجرين قد يؤمّونه ويصبحون جزءاً منه.

لكن الأمور أكثر تعقيداً مما قد تبدو. فإمكانيات الصين الضخمة هذه الأيام تنبثق بالدرجة الأولى من حقيقة أنها نجحت في ممارسة شكل من أشكال التسامح الرائعة. دعوني أشرح لكم هذه النقطة.

بالنسبة إلى معظم الغربيين بمن فيهم أولئك الذين يحاولون أن يكونوا متنورين، فإن الشعب الصيني اليوم يبدو في مجمله شعباً غير متعدد الأعراق. لو تمعن المرء في أي بقعة مربعة في مدينة نيويورك لوجد أنها تضم في جنباتها أمريكيين من أصول كوبية، وكورية، وإسكتلندية، وأيرلندية، وإيطالية، وأفريقية، وآخرين من كافة الخلفيات العنصرية والعرقية. بالمقابل، فإن الصين يعيش فيها أكثر من مليار شخص، جميعهم تقريباً من ذوي الشعر الأسود (بالرغم من أن صباغة الشعر أصبحت دارجة أكثر فأكثر هذه الأيام)، وينتمون إلى السلالة نفسها، ويَعدون أنفسهم صينيين.

ولكن ما لا يعرفه الغربيون، وكذلك الصينيون أن فكرة «التصيّن» في حد ذاتها هي انعكاس لثقافة التسامح الإستراتيجية. لقد حققت الصين خلال تاريخها الممتد ثلاثة آلاف سنة ما يحاول الاتحاد الأوروبي بالضبط تحقيقه هذه الأيام؛ أي القيام بضم عدد كبير من الأفراد ينتمون إلى طيف واسع من الخلفيات الثقافية والجغرافية واللغوية ضمن بوتقة وحدة سياسة واحدة [٥]. لقد انبثقت الحضارة الصينية في واقع الأمر من خليط كبير من الثقافات المختلفة.

فالأمة التي تعرف اليوم باسم الصين كانت «أرضاً استوطنتها منذ مدة طويلة شعوب تنتمي إلى مجموعات عرقية متعددة» ذات «تشعبات لغوية كثيرة», وتتميز

باختلافات جد واضحة في طريقة اللباس وفي العادات والطقوس والديانات. كان هناك انقسام عميق بين الشعوب في شمال الصين وجنوبها على وجه الخصوص حيث كان النهر الأصفر يُعد خطاً حدودياً فاصلاً بينهما [٦]. هناك حتى يومنا هذا، قطاعات من الشعب الصيني في الأقاليم الجنوبية مثل إقليم "غواندونغ" أو إقليم "فوجيان" حيث موطني الأصلي، يتحدث أفرادها فيما بينهم مستخدمين لهجات صينية غير مفهومة بالنسبة لمعظم الصينيين الشماليين (أو حتى بالنسبة لبعضهم بعضاً). يميل الصينيون الذين يعيشون في المناطق الشمالية إلى تناول أطعمة من مشتقات القمح مثل الخبز المُبَخّر الذي يطلق عليه اسم "مانتو Mantou" بينما يفضل صينيو المناطق الجنوبية تناول الأرز والأطعمة المشتقة منه. الأهم من ذلك، أن العديد من الصينيين بمن فيهم أنا، يزعم أن باستطاعته أن يميز فيما إذا كان أي شخص يلتقي به من أصول شمالية أو جنوبية من خلال شكله الخارجي.

بنيت الصين ضمن سلسلة من الفتوحات وعمليات الدمج بين جماعات تنتمي إلى أعراق متشعبة ومتباينة. وكما كانت الحال بالنسبة إلى الرومان، فقد تبين للشعوب التي كانت تستوطن المنطقة الممتدة من حوض "سيشوان" إلى مضيق تايوان، أنه ليس بمقدورها الوقوف في وجه المد الثقافي والسياسي والعسكري الصيني. وهكذا، وبالطريقة نفسها التي انتشر فيها زي التوغا الروماني واللغة اللاتينية من أسكتلندا إلى مصر، انتشرت الثقافة الصينية - بأفكارها التي تؤكد على التفوق العرقي، والعقائد التاوية والكونفوشيوسية، ونظام التمحيص الإمبراطوري، وعبادة ابن السماء العظيم الذي يحكم الجميع - بين مئات الملايين من الناس من صحراء "غوبي" إلى بحر الصين الجنوبي. تحولت المجموعات التي كانت تنتمي سابقاً إلى أعراق متميزة مثل شعوب "مين" و "يو" و "وو" إلى صينيين من شعب «الهان»؛ وهذا التحول شبيه بما حدث للأسبان والليبيين الذي أصبحوا من الرومان في القرن الثاني الميلادي.

نجحت الصين ليس فقط من خلال السيطرة على الشمال والجنوب، وإنما من خلال بسط نفوذها على المناطق الساحلية والداخلية، والمناطق الريفية

والحضرية، بالإضافة إلى كافة المناطق التي تفصل بين تلك الأقاليم، في دمج كافة تلك الشعوب في بوتقة واحدة لا يمكن للاتحاد الأوروبي أن يحققها حتى في أقصى أحلامه. فهناك لغة واحدة تجمع بين جميع سكان الصين تقريباً - كانت تلك اللغة في البداية مكتوبة، والآن، في ظل جمهورية الصين الشعبية، فقد أصبحت محكية أيضاً. الأهم من هذا وذاك، هناك إحساس بالانتماء يشد الشعب الصيني إلى بعضه بعضاً؛ وأعني بذلك انتماءه إلى شعب «الهان» الذي يضم نحو اثنين وتسعين في المئة من الشعب الصيني باعتباره يمثل هويته الوطنية والعرقية. أصر الخبراء الغربيون المتخصصون في الدراسات العرقية منذ مدة طويلة على أن "الكانتونيين" و"الشانغهايين" و"الهونانيين" وغيرهم، الذين يتميزون عن بعضهم بطريقة الكلام والعادات وحتى المظهر الخارجي، يجب عليهم إدراك أنهم ينتمون إلى خلفيات عرقية مختلفة. لكنهم لا يعدون أنفسهم كذلك؛ بل على العكس، فبالرغم من كل تبايناتهم وإحساسهم بالكبرياء، يرى أفراد هذه الجماعات أنفسهم أولاً وأخيراً صينيين، أو "زونغوريين"؛ وهذه العبارة تعني حرفياً «شعب المملكة الوسطى.» مثلهم في ذلك مثل أقرانهم "السيشوانيين" و"التيانجينيين" و"الأنهويانيين"، والعديد من الجماعات العرقية الأخرى [٧].

هذه إذاً قصة التسامح التاريخي الداخلي في الصين، والتي غالباً ما تُجُوهِلت. لأسباب وجيهة، يتصدر واجهات الصحف الغربية الحديث عن التعصب والاضطهاد الذي تتعرض له المعارضة السياسية، وأتباع المذاهب الدينية كمذهب "فالون غونغ، والأقليات العرقية مثل سكان التيبيت. لكن الجانب الآخر للتعصب تمثل في النجاح الباهر الذي حققته القومية العرقية الصينية بوصفها وسيلة من وسائل التسامح الإستراتيجي - وهو نجاح تحقق منذ مئات السنين، ويُعد الآن أمراً مفروغاً منه. وبينما يكافح الاتحاد الأوروبي هذه الأيام من أجل إبقاء ٤٥٠ مليوناً من سكانه تحت مظلته، فإن الصين ضمنت ولاء مليار وثلاثمئة مليون مواطن من مختلف الخلفيات العرقية، يشكلون خمس سكان العالم.

لذا، هل يمكن ألاّ تكون الصين، بعكس أي قوة مطلقة في تاريخ العالم، بحاجة إلى مواهب المهاجرين والأجانب؟ فمن بين مليار وثلاثمئة مليون مواطن، هناك أعداد هائلة من أصحاب المواهب بانتظار أن يتم استثمار مواهبهم على الشكل الأمثل. فوق هذا وذاك، يجب ألاّ نغفل حقيقة أن الجاليات الصينية في كافة أنحاء العالم تضم بين صفوفها أفضل المقاولين الذين ينافسون الأغلبية من سكان البلاد الأصليين في كافة أنحاء جنوب شرق آسيا، وغالباً ما يحققون نجاحات كبيرة في البلدان الغربية أيضاً[٨]. هل من الممكن أن تكون الصين، في معرض السباق إلى تبوء موقع السيطرة على العالم، تمتلك كل رأس المال البشري الذي هي بحاجة إليه؟

نعم إن ذلك ممكن، ولكنه غير محتمل. بدايةً، يعاني رأس المال البشري الصيني من ضعف شديد في مجال التعليم. ولكن بالرغم من أن مستوى التعليم في الصين متقدم أكثر بكثير من مستوى التعليم في أي من الدول النامية الأخرى - على سبيل المثال، تبلغ نسبة المتعلمات بين الإناث ٨٧ في المئة، بينما لا تبلغ في الهند سوى ٤٥ في المئة - فإنه لا يقاس بالنسبة التي وصلت إليها الولايات المتحدة حيث تبلغ نسبة اللواتي يجدن القراءة والكتابة ٩٠ في المئة من الإناث على الأقل. زد على ذلك أن نظام التعليم في الصين تعرض لانتقادات شديدة بسبب ميله إلى التعليم بواسطة التلقين بدلاً من التعليم بواسطة التفكير الإبداعي؛ ذلك أنه «يركز على سرعة حفظ الحقائق الغامضة عن ظهر قلب»، كما أنه أخفق في «تخريج نوعيات من الطلاب القادرين على تطبيق المعرفة التي اكتسبوها في المواقف السريعة التغير في الاقتصاد الحديث.» اشتكى أحد المسؤولين الحكوميين في وزارة التعليم سنة ٢٠٠٥ من أن «الطلبة يحشون رؤوسهم بمعلومات يحفظونها. ذاكرتهم قوية، لكنهم لا يستوعبون ما يحفظونه» [٩].

في غضون ذلك، ما تزال الصين تعاني من آثار الثورة الثقافية حتى على أعلى المستويات التعليمية، خصوصاً عندما نعود بالذاكرة إلى أربعين سنة خلت لنتذكر كيف نُفِي أعظم علماء البلاد وكبار الباحثين والأكاديميين فيها إلى المناطق الريفية

للقيام بأعمال حقلية - وهذا الإجراء لم يشكل مأساة إنسانية ومضيعة لمواهب هؤلاء على نطاق واسع وحسب، بل انتكاسة كبرى أدت إلى شلل القطاعات التكنولوجية والعلمية الصينية. اعتباراً من سنة ٢٠٠٠، هناك ٤٦٠ عالماً ومهندساً يعملون في مجال البحث والتنمية مقابل كل مليون صيني، بينما يبلغ معدل العلماء والمهندسين مقابل كل مليون أمريكي أعلى من ذلك بعشر مرات تقريباً[١٠].

تقوم حكومة الصين في معرض تحديثها لما أطلق عليه أحد المسؤولين الحكوميين الصينيين وصف «الجهاز البشري» بتكريس موارد هائلة من أجل تحسين مستوى التعليم، مع التركيز على الأصالة والابتكار. هناك اليوم حوالي ٢٥ بالمئة من الجسم الطلابي في الصين يدرسون في مدارس ابتدائية وثانوية «تجريبية» تركز جداً على «البحث العلمي» و»التفكير المرن.» قامت مؤخراً شركة ديزني بعقد اتفاق غريب من نوعه مع رابطة الشباب الشيوعي الصينية يتم من خلاله إقامة ورشات عمل تهدف إلى «رفع سوية الفكر الإبداعي» - متزامنة مع ميزة إضافية تتمثل في تعريف السوق الصينية بشخصيات عالم ديزني.

تقوم الصين في الوقت نفسه بابتعاث أعداد متزايدة من العلماء الشباب الواعدين والباحثين للدراسة في الخارج. يتوقع من هؤلاء المبتعثين الذين يطلق عليهم وصف «العائدين من وراء البحار» أو Haigui أن يصطحبوا معهم معرفة علمية قيّمة يمكن أن تشكل طليعة الثورة التكنولوجية في الصين. (تعني كلمة Haigui بالصينية "السلحفاة" ويمكن استخدامها بأكثر من معنى، إلا أنها غالباً ما تترجم خطأ إلى اللغة الإنجليزية.) إلا أن الغالبية الساحقة من هؤلاء يفضلون البقاء للعمل في الخارج بعد حصولهم على الدرجة العلمية بدلاً من العودة إلى الوطن. فبين سنتي ١٩٨٦ و ١٩٩٨ على سبيل المثال، ذكر حوالي ٨٥ بالمئة من الطلبة الصينيين الذين تخرجوا من جامعات أمريكية أن في نيتهم البقاء والعمل في الولايات المتحدة [١١].

ولكن يمكن أن تتغير هذه الظاهرة بصورة دراماتيكية. ففي السنوات الخمس الأخيرة، وبينما استمر مستوى المعيشة في الصين في الارتفاع، بدأت أعداد متزايدة من الصينيين الذين تلقوا تعليمهم خارج البلاد بالعودة إلى جمهورية الصين الشعبية[١٢]. غالباً ما يتم تشجيع هذه الحفنة المتميزة من العلماء والمهندسين الصينيين بالعودة إلى الصين من خلال تقديم عروض مغرية لهم على النمط الغربي تتمثل في السيارات الفارهة، وأفضل المزايا، ورواتب تنافسية تضاهي مثيلاتها في العالم المتقدم. إلا أن العديد من هؤلاء يعودون مدفوعين بعامل الولاء الوطني؛ ذلك أن فكرة أن تتحول الصين إلى دولة عظمى تداعب مخيلاتهم، وتغمرهم بمشاعر الفخار وتوفر لهم الدافع للعودة - مرة أخرى، استأنفت عجلة القومية العرقية الصينية الدوران.

مع ذلك، وبالرغم من أن الاقتصاد الصيني قد انفتح بشكل لافت، فما يزال هناك إحساس شعبي عارم بأن العمل الشاق والذكاء لن يحققا مكافآت تتناسب وتلك الجهود. ربما يوجد الآن في شنغهاي جيل جديد من الأقطاب الماليين الذين يعملون في بيع العقارات، ويرتدون أفخر الأزياء من مارك برادا الإيطالية؛ ولكن بما أن الفساد ما يزال يضرب أطنابه في الصين فإن العلاقات الشخصية في العمل ما تزال تتمتع بأهمية كبيرة. وطالما أن الأمر مستمر على هذا المنوال، فقد يفضل أصحاب المواهب ألاّ يبقوا في الصين (أو يعودوا إليها). سوف يحاولون العودة إلى حيث يمكن لهم ترجمة مواهبهم مباشرة إلى نجاحات.

ولكن حتى لو حاولت الصين القيام بخطوات كبيرة لاحتواء طاقات ومواهب أبنائها الكُثُر، فإنه من غير المحتمل أن تضع مثل هذه الخطوات الصين على سكة المنافسة، على جبهة المواهب البشرية. لماذا؟ لأن الدول الغربية تجاوزتها بكثير من الأشواط. والأهم من ذلك، فإن من غير المتوقع البتة أن تكون أذكى الطاقات وأكثرها إبداعية ومهارة وقدرة على الاستثمار موجودة في بيئة واحدة أو ضمن تجمع عرقي مغلق. هذه بالطبع هي أطروحة هذا الكتاب: فلكي تتحقق السيطرة ليس على

المستوى الإقليمي، بل على المستوى العالمي، لا بد للمجتمع ذي الصلة أن يستقطب أهم رأسمال بشري في العالم، ويضمن ولاءه، ويستثير هممه.

هل بإمكان الصين القيام بذلك؟

توجد الآن أعداد مدهشة من الأمريكيين والغربيين عموماً يعملون بصفة نادلٍ أو مدرب رياضي في شنغهاي. لكن اجتذاب أجانب من ذوي المهارات المحدودة، لن يكون البطاقة التي تلج بواسطتها الصين إلى مجال السيطرة العالمية. أكثر ما يمكن أن تفيد منه الصين الآن يتمثل في الأعداد اللافتة من المقيمين الأجانب الغربيين الذين يعملون لدى الشركات المتعددة الجنسية في الصين. فبالإضافة إلى استقطاب أصحاب المهارات، والقيام بتدريب العمال الصينيين المحليين، واستهلاك البضائع الغالية الثمن، سوف يقوم هؤلاء المقيمون الغربيون باستثمار ملايين الدولارات في العقارات الصينية.

من المفيد التأكيد على التغير الهائل الذي طرأ على صورة الصين في الربع الأخير من القرن العشرين. فحتى بعد «عملية الانفتاح» على العالم، والتي أقرت رسمياً سنة ١٩٧٨، ظلت تراود القادة الصينيين شكوك كثيرة تجاه الغرب. كان الأجانب يفدون إلى الصين بمجموعات صغيرة، وكانوا دائماً موضع تساؤل حتى في المدن الكبرى. استناداً إلى الانطباع الذي خرج به الأجانب العاملون في الشركات، والذين وصلوا إلى شنغهاي في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، فقد ذكروا أنهم شعروا بأنهم "نسخ عن شخصية جيمس بوند" في بلاد لا يجيد إلا القليل من سكانها اللغة الإنجليزية؛ وبأن «الأموال تتدفق بطريقة غبية جداً، جداً؛ وأن كل شيء ممكن» [١٣].

بدأت الصين بحلول سنة ١٩٩٥ قبول فكرة وجود الأجانب فيها، وحتى مبدأ التعاقد مع أعداد متزايدة منهم؛ فقد حاولوا بشكل علني الإفادة من المهارة التكنولوجية لليابانيين، والخبرة الإدارية للفرنسيين والهولنديين، وعلماء الآثار

الألمان، والصناعيين اللبنانيين، ومهندسي العمارة السويسريين، بالإضافة إلى تكنولوجيا شركات مثل جنرال إليكتريك، وموتورولا، ومؤسسة "جيتي" من بين أسماء أخرى كثيرة. اليوم تُعد الصين أكثر عالمية من أي وقت مضى في تاريخها منذ حكم سلالة التانغيين. لم تعد شنغهاي وبيجين منذ مدة طويلة «مركزين للحرمان والفاقة» في نظر المقيمين الغربيين الذين يقطنون هذه الأيام في مجمعات سكنية راقية على النمط الغربي يطلق عليها تسميات مثل «السوهو» و«تشيلسي»، ويحتسون المشروبات في مقاهي "ستارباك" والشاي الأخضر في حانات مشهورة جنباً إلى جنب مع الأثرياء الصينيين من المهنيين الشباب. وسواء اعتبر ذلك مظهراً صحياً أم لا، فإن المرء يستطيع أن يبتاع الحمص والكعك المحلى الأمريكي وجبن موزاريلا الطازج وأنواع أخرى من المنتجات الاستهلاكية الأجنبية في بيجين؛ هذا بالإضافة إلى الوجود التقليدي لسلسلة مطاعم ماكدونالد و "كينتاكي فرايد تشيكن KFC" في الصين؛ كما أن المرء لا يحتاج إلى قطع مسافات طويلة قبل أن تقع عيناه على مطاعم "تاكو بيل" و"ساب وي" وحتى "مستر سوفتي"[١٤].

مع ذلك، تبقى حقيقة أن المقيمين الأجانب هم ... مقيمون أجانب. فمهندسو برامج "غوغل"وعلماء شركة بوينغ الأمريكيين المقيمون في الصين ليسوا مواطنين صينيين؛ والأمر نفسه ينطبق على الفنيين اليابانيين الذين يعملون في الفرع الصيني لشركة ميتسوبيشي، وكذلك على المديرين التنفيذيين الألمان الذين يعملون في فرع الصين لشركة سيمينز.

هل بإمكانهم أن يصبحوا مواطنين صينيين لو أرادوا ذلك؟

يقودنا هذا السؤال إلى اللغز المدهش حول الهوية الصينية المعاصرة. عندما بدأت بالتحضير لمادة هذا الكتاب منذ خمس سنوات، طرحت صيغاً مختلفة من هذا السؤال على العديد من الناس من جمهورية الصين الشعبية.

«هل بإمكان شخص من الفيليبين أو المالاوي أن يصبح مواطناً صينياً ينتمي إلى شعب الهان؟» وكان الجواب دائماً "لا" قاطعة.

«هل بإمكان فرد ينتمي إلى أي من الأقليات العرقية الاثنتين والخمسين التي تعيش في الصين أن يصبح صينياً من شعب الهان؟» عندما كنت في زيارة لإقليم سيشوان منذ عدة سنوات، طرحت هذا السؤال على أحد الشباب الذين ينتمون إلى أقلية "يي". أثار جوابه دهشتي عندما قال: «نعم. فوالداي ينتميان إلى أقلية "يي". ولكنني على العكس منهما، فانا لا أتكلم لغة أهل أقلية "يي". ولذلك فأنا لا أَعُد نفسي من هذه الأقلية. بالإضافة إلى ذلك، فأنا متزوج من امرأة صينية من شعب الهان؛ لذا فقد أصبحت صينياً من شعب الهان، وكذلك ابني.» ما أدهشني أكثر، هو أن موقفه ذاك، أكده العديد ممن ينتمون إلى شعب الهان، والأقليات الأخرى كذلك.

قمت أخيراً بصياغة سؤالي ضمن إطار المواطَنة. «هل بإمكان أي غربي يتحدث اللغة الصينية بطلاقة، ويحب الثقافة الصينية، ويرغب في الانتقال والعيش بصفة دائمة في جمهورية الصين الشعبية أن يصبح مواطناً صينياً؟» طرحت هذا السؤال على أعداد كبيرة جداً من المسؤولين والمحامين والباحثين القانونيين الزائرين الصينيين. تُعد الإجابة عن مثل هذا السؤال في بلد كالولايات المتحدة سهلة للغاية. إلا أن الصينيين الذين وجهت هذا السؤال إليهم تلعثموا في الإجابة، وبدت على وجوههم الحيرة. أشار العديد منهم إلى حقيقة أن معظم الأجانب لا يريدون الحصول على الجنسية الصينية (وهذا وارد بالطبع). ولكن لم يستطع أي منهم الإجابة عن ذلك السؤال بصراحة ووضوح، بالرغم من أن أكثر من شخص من بين هؤلاء قال: «أجنبي؟ لا أظن ذلك.» *

تعكس هذه الشكوك والفوضى خلافاً شديداً عمره ألف سنة حول معنى الهوية الصينية - وهو خلاف زادت حدته في القرن العشرين. فخلال الحقبة من الاضطرابات التي أدت إلى ثورة سنة ١٩١١ التي أطاحت بثلاثة آلاف سنة من

* التشريع الحالي في قانون الجنسية المعمول به في جمهورية الصين الشعبية (١٩٨٠) يعطي فرصة للأجانب في التقدم للحصول على الجنسية الصينية «بشرط أن تتم الموافقة على هذا الطلب»، إلا أنه لا يعطيه الحق أو يخوله الحصول عليها. (المادة ٨).

الحكم الإمبراطوري، قاد "سان يات- سين" ومجموعة من زملائه الثوريين مفهوماً عنصرياً أو عرقياً جديداً أكثر وضوحاً للأمة الصينية. لقد رأوا في الصين «أكثر من مجرد أمة قومية: إنها أمة عرقية يجب أن يحكمها شعب الهان الصيني.» وبناء عليه، فإن «الأمة الصينية» تضم أي شخص تسري في عروقه الدماء الهانية، سواء كان يعيش في سان فرانسيسكو أو ماليزيا. هذا المفهوم العرقي للصين كان عاملاً قوياً في توحيد الصينيين ضد حكامهم «الأجانب» "المانشو كينغ"، الذين تعود أصولهم إلى الشعب الجورشي الذي يقطن السهوب، والذي كان ينظر إليه دائماً باعتباره شعباً دخيلاً وغير مرغوب فيه بالرغم من أنه استوطن الصين لعدة قرون[١٥].

بعد انتصار الشيوعيين سنة ١٩٤٩، أضحى هذا المفهوم العرقي للجنسية الصينية إشكالياً بالنسبة للحكومة وطريقة تعاملها مع الملايين التي تشكل الأقليات العرقية التي بالرغم من أنها لا تمثل سوى نسبة ضئيلة من عدد السكان، إلا أنها تنتشر على ٦٠ في المئة من المساحة الكلية للأراضي الصينية، بما في ذلك المناطق الحدودية ذات الأهمية الإستراتيجية الكبرى مثل التيبيت ومنغوليا وزينغيانغ. وجدت الحكومة أن من المناسب تبنّي مفهوماً جغرافياً للجنسية الصينية وذلك بغية الإبقاء على سيطرتها على مجمل الأراضي الصينية المترامية الأطراف. واليوم، يتبنى الخط الرسمي مبدأ اعتبار الصين أمة متعددة الأعراق حيث يشكل العرق الهاني نسبة ٩٢ في المئة من عدد السكان، لكن هذه الأمة تضم أيضاً خمساً وخمسين أقلية عرقية، جميعهم مواطنون صينيون.*

لكن الصين، شأنها شأن أي أمة أخرى، لا يمكن لها أن تهرب من تاريخها. كتب "لوسيان باي" ذات مرة: «الصين ليست مجرد دولة أمة ضمن عائلة الأمم»؛ إنها «حضارة تدعي أنها دولة»[١٦]. أكثر من ذلك، إنها حضارة تتجذر في أفكار

* كلمة «الصيني» Chinese بالإنجليزية لها مرادفات متعددة باللغة الصينية (Zhongguo ren, Zhongguo minzu, hanrem, huaqio, etc.)، وكل واحد من هذه المرادفات له معنى يختلف قليلاً عن المرادفات الأخرى مثل «الشعب الصيني» و«المواطنين الصينيين» و«العرق الصيني» و«والشعب الهاني» و«المنحدرين من أصول صينية» و«شعب التانغيين» الخ.

حول الهوية العرقية والتفوق العرقي. بقي الصينيون على مدى ثلاثة آلاف سنة يعتقدون أنهم يمتون إلى نفس الجذور العرقية؛ وهي جذور لا يمت إليها التيبيتيون أو الأيغوريون أو الغربيون بالتأكيد، بأي صلة.

أما فيما يتعلق بالقرن الحادي والعشرين، فإن الصين في المحصلة ما تزال أبعد ما تكون عن مفهوم مجتمع المهاجرين. فالمقيمون اليابانيون والغربيون العاملون ضمن تجمعات أجنبية في المدن الصينية هذه الأيام ليسوا من المهاجرين. كما أنهم ليسوا في طريقهم ليصبحوا مواطنين صينيين؛ بالإضافة إلى أن الحكومة الصينية لا تسعى إلى منحهم الجنسية الصينية. وبالرغم من أن عدد العاملين الأجانب في الصين في يومنا هذا أكبر من أي وقت مضى، فإن الحكومة لا تبدي أي رغبة في دمجهم في المجتمع الصيني، أو تشجيعهم على أساس أنهم صينيون. بسبب ذلك، لا تبدو الصين قريبة من أن تمثل قوة جذب تستقطب أفضل العلماء والمهندسين والمفكرين والمخترعين من الغرب، أو من أي مكان آخر.

القادة الصينيون يعون هذا تماماً، بطبيعة الحال؛ فالصين لا ترغب في أن تتحول إلى مجتمع من المهاجرين، لكنها مع ذلك وجدت أن هناك طريقين لاجتذاب المهارات العالمية، والتكنولوجيا، والمعرفة العلمية. أولاً، ضربت الصين على وتر الولاء والكبرياء الوطنية، ناهيك عن وتر الفائدة الشخصية، حيث نجحت أيما نجاح، بلعب «الورقة العرقية»، في مناشدتها «لصينيي ما وراء البحار» الذين يشكلون حوالي خمس وخمسين مليوناً من أصول صينية يستوطنون أكثر من مئة وستين دولة.* يُعد الصينيون الذين يعيشون في الخارج من عدة زوايا، خزاناً بشرياً مدهشاً. فهم يملكون فيما بينهم ما قيمته تريليونان من الدولارات في مجال الاستثمارات، كما أنهم ينتجون ما قيمته ٦٠٠ مليار دولار سنوياً من العائدات الاقتصادية، أي ما

* أقصد من خلال استعمالي لتعبير «صينيي ما وراء البحار» الإشارة إلى مواطني جمهورية الصين الشعبية الذين يعيشون في الخارج، وإلى صينيي هونغ كونغ، وماكاو، وتايوان، وكافة المواطنين الأجانب من أصول صينية في كافة أنحاء العالم.

يعادل الناتج القومي الحالي لأستراليا[١٧]. بالإضافة إلى ما تقدم، هناك من بينهم العديد من كبار المتعلمين، كما أن بعضهم حاز جائزة نوبل.

نجحت بعض الدول الأخرى أيضاً في الإفادة من خبرات جالياتها التي تعمل في الخارج. لكن حجم وموارد أبناء الجاليات الصينية في الخارج لا مثيل لها. منذ انفتاحها سنة ١٩٧٨، وضعت الحكومة الصينية المركزية نصب عينيها هدف الإفادة من هذا الخزان البشري؛ وقد قدمت لهذه الغاية الكثير من الحوافز الاستثمارية الخاصة والمعاملات الضريبية التفضيلية للمستثمرين الأجانب المنحدرين من أصول صينية. في الوقت نفسه، قامت الحكومات المحلية بمنح صينيي ما وراء البحار الذين أظهروا كرماً تجاه «وطنهم الأم»، وولاء «لقرى أجدادهم في الوطن» ألقاباً فخرية[١٨].

أتت هذه الإستراتيجيات أُكُلَها. فقد استثمر الصينيون الذين يعيشون في الخارج في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين أكثر من ١٩٠ مليار دولار في الصين؛ وهو رقم يعادل نصف حجم الاستثمارات الأجنبية المباشرة التي أعطت الصين دفعاً قوياً باتجاه التحول من بلد من العالم الثالث يعاني من الركود إلى «تنين صاعد». (بلغت استثمارات الصينيين الذين يعيشون في الخارج ٨٠ في المئة من إجمالي الاستثمارات الأجنبية في الأقاليم الجنوبية المزدهرة مثل إقليمي فوجيان وغواندونغ.) وفوق هذا وذاك، لم ينقل الصينيون الذين يعيشون في الخارج الثروة وحسب، بل المعرفة أيضاً. فعلى سبيل المثال، قام البروفسور شينغ- تانغ يو، الأستاذ في جامعة هارفارد والحائز على جائزة Fields Medal (وهي أرفع جائزة عالمية في مجال الرياضيات) مؤخراً بضم جهوده إلى الجهود التي تبذلها الحكومة بالتعاون مع الأقطاب الماليين في سوق العقارات في هونغ كونغ من أجل إعداد جيل جديد من العلماء الصينيين على المستوى العالمي[١٩].

في الوقت نفسه، وجدت الصين منافذ أخرى للإفادة من المعرفة التكنولوجية الغربية من خلال عقود أبرمتها مع شركات ضخمة غير صينية. على سبيل المثال،

استطاعت الحكومة الصينية من خلال التلويح لهذه الشركات باحتمال الفوز بالاستثمار في السوق الصينية الهائلة، توقيع عقد مع شركة "جنرال إليكتريك" قيمته ٩٠٠ مليون دولار لبناء محرك توربيني بشرط موافقة الأخيرة على اطلاع الصين على هذه التكنولوجيا والمشاركة فيها. بالطبع لم تكن شركة جنرال إليكتريك الوحيدة التي تعاقدت الصين معها بنفس الشروط. استناداً إلى مقالة نشرت في صحيفة Wall Street Journal بعنوان: "الثمن الذي تتقاضاه الصين لدخول السوق: أعطونا تكنولوجيتكم أيضاً":

> لكي تفوز بعقود في السوق الصينية، قامت شركة موتورولا بضخ 300 مليون دولار في 19 من المراكز البحثية في كافة أنحاء الصين. يعمل حالياً في مركز مايكروسوفت في بيجين 200 باحث. وتقول شركة سيمنس إنها أنفقت أكثر من 200 مليون دولار منذ سنة 1998على الأبحاث التي أجرتها بالتعاون مع المؤسسة الأكاديمية الصينية لتطوير تكنولوجيا أجهزة الهاتف الخلوي بما يناسب المعايير التي وضعتها الحكومة للبلاد .

وافق العديد من الشركات الأجنبية الأخرى بما فيها شركة "كاواساكي" اليابانية، وشركة "آلستوم" الفرنسية على عقود مشابهة نقلت فيها تكنولوجيتها إلى الصين مقابل الفوز بحصة في السوق الصينية [٢٠].

في نهاية المطاف، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الإستراتيجيات غير كافية لاجتذاب أصحاب أفضل المواهب والمعارف العلمية في العالم. فتحت الأفضلية التي منحت لصينيي ما وراء البحار في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين الباب على مصراعيه لولوج الفساد إلى الصين على نطاق واسع. فمقابل كل عالم من وزن شينغ- شين شيرن، العالم الرياضي المذهل من جامعة بيركلي في كاليفورنيا، والذي كرس القسم الأخير من حياته من أجل نشر دراسة الرياضيات والعلوم في الصين، هناك العشرات من رجال الأعمال الصينيين من هونغ كونغ وجنوب شرق الصين الذين جنوا أرباحاً تقدر بملايين الدولارات في الصين من خلال الرشوة، وسياسة الأبواب الخلفية. ونظراً لوجود أقطاب ماليين صينيين كبار في الخارج

مثل الإندونيسي جيمس ريادي تحت الأضواء، فقد ساد الاعتقاد بأن «الصلات الشخصية» هي العامل الحاسم في إبرام العقود، وأن النجاح في الصين يعتمد على من لديه العدد الأكبر من «الأصدقاء القدامى» الذين يستطيعون تقديم أكبر الهدايا، وإقامة أفخر الولائم للمسؤولين المحليين. وهكذا، فبينما كانت الحكومة الصينية تأمل أن يتحول صينيو ما وراء البحار - باعتبارهم من أفراد العائلة - إلى مستثمرين مخلصين ممن يمكن الاعتماد عليهم، فقد أجج نفوذهم حال الاحتقان المحلي، وأسهم في خلق الشعور بأنه لا توجد فرص متساوية للاستثمار في الصين.

في غضون ذلك، يمكن القول إن المقاربة التي اعتمدتها الصين للحصول على التكنولوجيا الغربية لها عيوبها الواضحة أيضاً. فالشركات التي اضطرت لتقاسم المعرفة التكنولوجية مع الصين (مقابل الفوز بحصة من السوق الصينية) حجبت أهم ما في هذه التكنولوجيا التي بحوزتها عن الصينيين. استناداً إلى جيفري إيميلت، رئيس شركة جنرال إليكتريك، فإن المهندسين الصينيين متخلفون بمعدل جيلين على الأقل في مجال صناعة المحركات التوربينية بالرغم من وجود اتفاقية تقاسم المعلومات التكنولوجية بين الشركة والحكومة الصينية. كما صور أحد المسؤولين الصينيين هذا الواقع بدقة أكبر عندما قال إن «الأجانب يوافقون الآن على إطلاعنا على كيف نقوم بالحفر، وكذلك أين نحفر؛ لكننا ما نزال نجهل لماذا علينا أن نقوم بالحفر في تلك البقعة بالذات» [٢١].

ليس هناك من شك في أن الصين قد أصبحت في مصاف الدول العظمى. صحيح أن الصين تواجه سلسلة من التحديات الداخلية الملحة بما في ذلك الانفجار السكاني عددياً، والركود في الاستهلاك العام؛ إلا أنها في ما يتعلق بتحقيق نجاحاتها الحالية، يبدو أن الصين تتحرك في الاتجاه الصحيح. وهي إذ تضع نصب عينيها المستقبل على المدى الطويل، فإنها تستثمر أموالاً طائلة في البنية التحتية والبحث والتطوير والتعليم على كل المستويات. قليلون فقط اليوم، يساورهم الشك في أن الصين سوف تصبح واحدة من القوى العظمى في العالم في المستقبل القريب.

إذا كانت الأطروحة التي أعتمدها في هذا الكتاب صحيحة، فإن الصين لن تصبح يوماً قوة مطلقة. تعتمد السيطرة على العالم، اليوم أكثر من أي وقت مضى، على القدرة المتمثلة في اجتذاب أصحاب أفضل المواهب العلمية والتكنولوجية الخلاقة في العالم أجمع، والمحافظة عليها؛ لكن الصين - التي هي في جوهرها أمة غير مهاجرة، وتعتمد في تركيبها ووجودها على العامل العرقي - ليست في موقع يؤهلها كي تقوم بذلك. إلا أن هذا لا يشكل البتة مشكلة بالنسبة إلى الصين التي ربما لا ترغب في حمل الأعباء الناتجة عن التململ الذي تسببه قضية السيطرة على العالم. تؤكد الخطوط العامة الرسمية للسياسة الخارجية الصينية على مبدأ «عدم التدخل»؛ ومن ثَم، فإن موقع القوة العظمى فقط، يناسب الصين تماماً.

هل بإمكان الولايات المتحدة أن تبقى القوة المطلقة في عالم تكون فيه الصين قوة عظمى؟ هذا ممكن من حيث المبدأ. لو استمرت أمريكا في البقاء قِبلة للأفضل والأذكى من أصحاب المواهب - بمن فيهم أفضل المواهب الصينية وأذكاها - فإن من المفهوم حينها أن تحافظ الولايات المتحدة على تفوقها التكنولوجي والعسكري والاقتصادي على كافة منافسيها في العالم أجمع. الأقرب إلى المنطق هو أن كون الصين دولة عظمى يمكن أن يفرض نظاماً عالمياً جديداً يتصف بالثنائية القطبية على الأقل. إذا أصبحت الصين قوة عظمى اقتصادياً كما يتوقع لها الكثيرون، فإن الثروة التي ستكون في متناول يدها ستوفر لها قوة هائلة في العالم الحديث تعتمد عليها الكثير من الدول في مجال التجارة ورأس المال الاستثماري (ربما بمن فيها الولايات المتحدة نفسها). في الوقت نفسه، ازداد معدل الإنفاق على القطاع الدفاعي بشكل مطرد خلال العقد السابق؛ ومن المؤكد أنه ليس مستحيلاً أن تكون القوة العسكرية الصينية منافسة لقوة الولايات المتحدة بحلول منتصف القرن الحادي والعشرين، إذا لم نقل إنها قد تسبقها.

الاتحاد الأوروبي: قوة عظمى
في الحقبة ما بعد الإمبراطورية

عندما دقت الساعة معلنة منتصف الليل في الأول من شهر أيار، مايو، سنة ٢٠٠٤، بدأت تسمع أصوات كؤوس الشمبانيا وهي ترتطم ببعضها بعضاً إيذاناً بانضمام عشر دول أوروبية من الأعضاء الجدد إلى الاتحاد الأوروبي، حيث ارتفع عدد أعضاء هذا الاتحاد من خمس عشرة دولة إلى خمس وعشرين دولة. «فرقعت الألعاب النارية في الأجواء وبدأت أجراس الكنائس تدق» عبر أنحاء أوروبا التي أصبحت حدودها الآن تمتد على ثلاث مواقيت زمنية من بولندا إلى أيرلندا، ومن فنلندا إلى مالطا. توحدت أوروبا التي كانت منقسمة على نفسها بفعل الحرب الباردة وقرون سبقت تلك الحرب من الصراعات المتقطعة - بشكل حميمي وسلمي، وذلك للمرة الأولى في تاريخها.

كانت تلك المناسبة مؤثرة جداً خصوصاً بالنسبة إلى شعوب ثمانية بلدان أمضت خمسين سنة خلف الستارة الحديدية. وصف "ليخ فاويلسا" زعيم نقابات التضامن البولندية تلك اللحظة بأنها تتويج «لأحلامه والنضال الذي مارسه طيلة حياته»، بينما وصفها رئيس الوزراء الهنغاري بيتر ميدغيسي بأنها «أطلقت حركة الساعة الرملية العملاقة التي ترمز إلى بدء حقبة جديدة.» في غضون ذلك، حثت حكومة جمهورية ليتوانيا التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي السابق مواطنيها على إيقاد المصابيح والشموع كي يجعلوا من بلدهم « البقعة الأكثر سطوعاً في أوروبا.» وهكذا، فإن تجمع الدول الذي بني في الأساس كمتراس في وجه المد الشيوعي باتجاه الغرب، وهو التجمع الذي يسمى الآن "الاتحاد الأوروبي" لم يعمر أكثر من منافسه وحسب، بل كان شاهداً على سقوطه[٢٢].

لم تقتصر لحظة الانتصار على الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي التي كانت تعرف سابقاً بدول الكتلة الشرقية السابقة. كان ضم عشر دول جديدة أيضاً مؤشراً

لانتصار حاسم على تاريخ أعمق بكثير؛ وهو تاريخ سادته الانقسامات والمنافسات وسفك الدماء. كان كبار الفلاسفة والمفكرون ورجال السياسة الأوروبيون، ومن بينهم فيكتور هوغو، وجان جاك روسو، وإيمانويل كانط، وويستنون تشرشل، يؤمنون بأن الوحدة هي الأمل الأفضل للسلام والازدهار والقوة بالنسبة للأوروبيين. اقترح الملك البوهيمي جورج في القرن الخامس عشر مشروع اتحاد يشبه إلى حد بعيد التركيبة الحالية للاتحاد الأوروبي من أجل الوقوف في وجه الخطر الخارجي المتمثل في الغزو التركي، وليس من أجل رأب الصدع داخل الأسرة الأوروبية. لكن تلك الرؤى التقدمية حول الوحدة الأوروبية لم تستطع التغلب على المشاعر القومية المفرطة، أو العداوات والانقسامات الدينية التي شكلت هوة سحيقة ملأتها مشاعر عدائية سادت الألفية اللاحقة التي أعقبت سقوط روما. وقد ازدادت حدة تلك الانقسامات، ووصلت إلى أقصى مدى لها في الحرب العالمية الثانية التي أشعلتها الطموحات القومية المتشددة، وتسببت في تفتيت أوروبا ومقتل وتشويه الملايين من الأوروبيين[٢٣].

لكن ما يبعث على الدهشة أن ما بدأ على شكل اتفاقية اقتصادية متواضعة حول إنتاج الفحم والفولاذ بين فرنسا وألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية تحول خلال عقدين من الزمن فقط إلى وحدة أوروبية لم يسبق لها مثيل منذ العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية. يتكون الاتحاد الأوروبي اليوم من سبع وعشرين دولة أوروبية - انضمت كل من بلغاريا ورومانيا إلى الاتحاد الأوروبي سنة ٢٠٠٧ - تنضوي تحت لواء قانون يعيش في ظله حوالي نصف مليار نسمة. يوصف الاتحاد الأوروبي «بأكبر سوق في العالم المتقدم» حيث يبلغ إنتاجه المحلي الإجمالي ١٣ تريليون دولار؛ وهو إنتاج لا يماثله إلا الإنتاج الإجمالي للولايات المتحدة[٢٤]. لكن عدد السكان في الاتحاد الأوروبي يفوق عدد سكان الولايات المتحدة بمعدل ١٥٠ مليون نسمة. يُعد الاتحاد الأوروبي من الناحية النظرية على الأقل عملاقاً عسكرياً بوجود قوتين نوويتين فيه هما بريطانيا وفرنسا، وجيش تفوق أعداده الجيش الأمريكي. كما أن

الاتحاد الأوروبي لم ينهِ عملية توسعه حتى الآن. تقتضي قواعد الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي أن تكون الدول المرشحة لعضويته قد حققت بعض الشروط الاقتصادية والسياسية بما في ذلك احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية. الدول التي يتم النظر في طلبها للانضمام إلى الاتحاد هذه الأيام هي ألبانيا وكرواتيا وصربيا وأيضاً تركيا الذي ما يزال طلبها لنيل عضوية الاتحاد يثير جدلاً واسعاً. يمكن للاتحاد الأوروبي نظرياً أن يمتد ليشمل في المستقبل دولاً في الشرق الأوسط وأفريقيا وحتى روسيا.

يمثل التوسع الجغرافي للاتحاد الأوروبي، الذي لا يتم من خلال الفتوحات العسكرية بل من خلال المؤهلات ومبدأ القبول، نموذجاً جديداً ومدهشاً للتسامح الإستراتيجي. ففي الماضي جعلت دول مثل الجمهورية الهولندية والولايات المتحدة من نفسها قِبلة وملاذاً للأفراد من خلال رزمة ضمنية من الحريات والحوافز الاقتصادية. أما الاتحاد الأوروبي، فقد جعل نفسه من خلال الإعلان عن رزمة جديدة من الحريات والحوافز الاقتصادية قِبلة وملاذاً للأمم.

نستطيع بهذا المعنى مقارنة الاتحاد الأوروبي بروما؛ ذلك أن روما في عصرها الذهبي، استطاعت استقطاب شعوب بأكملها للدخول في فلكها. لكن روما كانت لها فيالقها العسكرية الجاهزة دوماً، والتي كانت تلوح بها من أجل الحصول بواسطة السيف على التعاون الذي تفرضه على الشعوب غير الراغبة في الإذعان لسطوتها. أما الاتحاد الأوروبي فقد تحوَّل مركزًا لاستقطاب الأمم الأخرى ليس من خلال استعمال القوة أو حتى مجرد التلويح بها. وصف الكاتب البريطاني مارك ليونارد الاتحاد الأوروبي بأنه «قوة عظمى في الحقبة ما بعد الإمبراطورية» وهو يزداد اتساعاً «ليس من خلال التهديد بعصا الغزو للدول الأخرى» بل من خلال اتباع سياسة الجزرة الاقتصادية. فبدلاً من فرض الديمقراطية وحكم القانون على البلدان الأخرى بالقوة، يقوم الاتحاد الأوروبي بتقديم حوافز للتغيير. وبدلاً من إسقاط الحكومات عن طريق استخدام القوة، يقوم الاتحاد الأوروبي الذي لا يملك

سوى هيكل بيروقراطي، بممارسة نشاطه بواسطة البرلمانات الوطنية والمجالس المحلية. يتنبأ ليونارد بأن الاتحاد الأوروبي الذي يرفض المنطق الإمبراطوري سوف ينجح في نهاية المطاف، وبسبب هذا الرفض، «بتغيير الطريقة التي يعمل العالم على أساسها»[٢٥].

يسعى الاتحاد الأوروبي كجزء من تحدّيه المناهض للإمبراطورية، والمتمثل في الهيمنة التي تمارسها الولايات المتحدة إلى الإعلان عن نفسه كرمز حقيقي لقيم الحرية والمساواة والتنوير في العالم. كان العديد من الأوروبيين - حتى قبل الحادي عشر من أيلول - يعدون مجتمعاتهم التي تنفق بكثير من السخاء على نظاميْ الضمان الاجتماعي والخدمة الاجتماعية، أرقى بكثير من المجتمع الأمريكي؛ لأنها تظهر قدراً أكبر من التسامح الحقيقي بالرغم من اللغة الإنشائية التي تتحدث عن الحلم الأمريكي. ففي استطلاع أجري سنة ٢٠٠٠، طُرح السؤال الآتي: «ما هي الولايات المتحدة من وجهة نظرك؟» أجاب خمسة وأربعون في المئة من المستطلعة آراؤهم بأنها «أمة تنعدم فيها المساواة الاجتماعية»؛ وأفاد ثلاثة وثلاثون بالمئة منهم بأن الولايات المتحدة «أمة عنصرية». فقط أربعة وعشرون بالمئة قالوا إنها «بلد يمكن لأي شخص أن يصبح غنياً فيها»، أما الخمسة عشر في المئة الباقون فقد أجابوا بأنها «البلد التي ترحب بالمهاجرين» [٢٦].

زاد الغزو الذي قامت به وقادته الولايات المتحدة للعراق من حدة الانتقادات الأوروبية للولايات المتحدة. ففي مقالة نشرت بالتزامن في العديد من الصحف في مختلف أنحاء أوروبا، أكد الفيلسوفان الشهيران الألماني يورغان هابرماس والفرنسي جاك ديريدا على هوية أوروبية تتناقض بحدة مع الولايات المتحدة، وأبرزا مقاربة أوروبية لرأس المال أكثر ليونة، كما أبرزا رفض أوروبا لعقوبة الإعدام، بالإضافة إلى ما يمكن اعتبارها أهم نقطة تمايز عن الولايات المتحدة وتتمثل في «حساسية أوروبا الأخلاقية تجاه الأنظمة الديكتاتورية في القرن العشرين والفظائع المتمثلة في المجازر الجماعية.» واجهت «الأحادية» الأمريكية - المتمثلة في استعدادها لخرق القانون

الدولي، والتقليل من هيبة الأمم المتحدة - انتقادات واسعة في أوروبا حيث تظهر المعاهدات والمواثيق التي يتبناها الاتحاد الأوروبي موقفاً متقدماً جداً حول حقوق الإنسان وعدم التمييز لم يعرفه العالم من قبل[٢٧].

هناك - بالطبع - بعد إستراتيجي لكل هذا. فلكي تقطف الدول الأوروبية ثمار هذا الاندماج، كان لا بد لها من تجاوز العداوات التاريخية، وكبح جماح جميع المظاهر القومية (مثل التخلي عن العملات الوطنية على سبيل المثال)، والتسامح على المستوى الديني، والتأكد من عدم ممارسة أي تمييز ضد العمال أو المنتجات من أي من بلدان الاتحاد. بعبارة أخرى، إذا كان الدافع المحرك لموقف الاتحاد الأوروبي من مسألتيْ حقوق الإنسان «والوحدة عبر التنوع» (وهو الشعار الذي تبناه الاتحاد الأوروبي وقد رُفِع في عشرين لغة مختلفة) يعكس موقفاً أوروبياً أخلاقياً جديداً، فإنه في الوقت نفسه، يعكس حسابات دقيقة تتعلق بالمصالح الذاتية المتجلية في حرية السوق.

بالرغم من أن معظم الأوروبيين سوف يؤكدون من دون أدنى شك، أنهم يعارضون المستأسدين العالميين، وأنهم يفضلون قيام عالم لا توجد فيه أي قوة مطلقة، فإن من الصحيح أيضاً أن الهدف الرئيس من قيام الاتحاد الأوروبي كان إنشاء كيان سياسي كبير وقوي بما يكفي للتنافس مع الولايات المتحدة. ونظراً لأن الصيغة التي اعتمدها الاتحاد الأوروبي من أجل بناء قوته هي التسامح الإستراتيجي، فإن سؤالاً مهماً لا بد أن يطرح نفسه بقوة على بساط البحث؛ وهو كيف يمكن للنموذج الأوروبي في التسامح أن ينافس النموذج المتبع في الولايات المتحدة؟

قد يبدو من النظرة الأولى أن الاتحاد الأوروبي قد بزّ الولايات المتحدة في مسألة التسامح. لم يعد الاتحاد الأوروبي مجرد مركز استقطاب للأمم (من خلال التسامح الإستراتيجي الذي لا تملك الولايات المتحدة له نظيراً)، بل قام بتبنّي جملة من الحقوق الفردية التي تحوي تسامحاً لا يقل أهمية عما هو موجود في الحقوق الشهيرة التي يتضمنّها دستور الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن الواقع يبدو أكثر تعقيداً. كانت الولايات المتحدة خلال سبعينيات وثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين تستنزف العقول من كل أنحاء العالم وتتربع على قمة ثورة الكومبيوتر، في الوقت الذي لم تكن أوروبا قادرة على تقليص المسافة الواسعة التي تفصلها عن الولايات المتحدة. كانت دول مثل ألمانيا وبريطانيا في تسعينيات القرن العشرين تعانيان من نقص حاد من الخبراء في مجال تكنولوجيا المعلومات؛ وبدا كما لو أن أوروبا قد سقطت من قارب التكنولوجيا المتقدمة. حتى اليوم، يحاول مطبخ دول أوروبا الغربية اجتذاب مهنيين ومهندسين وفنيين في مجال تكنولوجيا المعلومات من دول أخرى بينما ما يزال سيل من هؤلاء يتدفق على الولايات المتحدة. لماذا يحدث هذا إذا كانت أوروبا تتمتع بهذا الكم من التسامح؟

يكمن الجواب في أن التسامح في الاتحاد الأوروبي موجه نحو الداخل وليس نحو الخارج؛ إنها إستراتيجية تتعلق بموضوع توحيد أوروبا، وليس بموضوع اجتذاب مهاجرين من العالم الثالث للتوجه نحو أوروبا، أو من أجل تحويل الدول الأوروبية إلى مجتمعات من المهاجرين متعددة الأعراق كالولايات المتحدة. عندما يتحدث ميثاق الحقوق الأساسية في الاتحاد الأوروبي عن «حرية تحرك الأشخاص»، فإنه لا يقدم ضمانة للأفارقة في حرية الهجرة إلى النرويج. على العكس من ذلك، كان التوجه العام خلال المراحل الأولى لقيام الاتحاد الأوروبي على امتداد البقعة الأوروبية معادياً لفكرة الهجرة.

في الربع الأخير من القرن العشرين، أعلنت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا أنها دول خالية من المهاجرين[٢٨]. ومنذ سبعينيات القرن العشرين إلى سنة ٢٠٠٠، كان عدد الأشخاص المقيمين في أوروبا من ذوي الأصول غير الأوروبية يتكون بالدرجة الأولى من العمال المهاجرين أو «الضيوف» وعائلاتهم (غالباً ما كان هؤلاء قادمين من المستعمرات السابقة)، أو لاجئين يطلبون حق اللجوء السياسي، أو أجانب مقيمين بصورة غير شرعية لكنهم يقتاتون على برامج الضمان الاجتماعي والخدمة الاجتماعية السخية نسبياً. وكان أكثر ما يثير القلق، أن الدول الأوروبية لم تفعل

سوى القليل لتشجيع الاندماج السياسي والثقافي للجاليات المهاجرة الفقيرة التي بدأت في الظهور في المدن الكبرى وحولها.

أما اليوم، فإن دولاً أوروبية كبرى كفرنسا وألمانيا وهولندا ما تزال تعاني من نقص حاد في العمالة الماهرة بالرغم من أن البطالة تغذي روح الإحباط والشعور بالغربة بين أفراد الجاليات الفقيرة المهاجرة. وبالرغم من الإعلان عن إصلاحات في قوانين الهجرة تهدف صراحة إلى اجتذاب فنيين في مجال التكنولوجيا المتقدمة من بلدان مثل الهند وكوريا والصين، فإن دول الاتحاد الأوروبي ما تزال الطرف الخاسر كوجهة محتملة خصوصاً أمام «دول المهاجرين» التقليدية كأستراليا، وكندا، والولايات المتحدة(٢٩).

خير مثال على ذلك هي التجربة الألمانية. فمن أجل إنشاء "وادي السليكون" الخاص بها، على غرار الولايات المتحدة، قامت حكومة ألمانيا في نهاية التسعينيات من القرن العشرين بإصدار بطاقة خضراء ألمانية جديدة هدفها اجتذاب مهنيين أجانب في مجال التكنولوجيا المتقدمة خصوصاً من دول مثل الهند. كانت ألمانيا تأمل في اجتذاب حوالي عشرين ألف من هؤلاء سنوياً؛ ولكن بعكس مثيلتها الأمريكية التي تَّعد نسبياً محطة مؤكدة في الطريق إلى التجنيس، لم توفر البطاقة الخضراء الألمانية أي إمكانية لهؤلاء للحصول على الجنسية. وصف فريد زكريا هذا الواقع كما يلي: «كانت ألمانيا تطلب من المهنيين الشباب المهرة ترك أوطانهم وثقافاتهم وعائلاتهم، والسفر لمسافات هائلة تبلغ آلاف الأميال، وتعلم لغة جديدة، والعمل في بلاد غريبة؛ ولكن من دون أن يلوح هناك أي أمل في الأفق في أن يصبح أحدهم جزءاً من هذا الوطن الجديد.» فشل هذا البرنامج فشلاً ذريعاً، ومن ثَم فإن الجهود الكبيرة التي بذلت من أجل اجتذاب فنيين في مجال التكنولوجيا المتقدمة الأجانب لم تحقق نتائج تذكر. بنهاية ٢٠٠٦، كان في ألمانيا ٢٢٠٠٠ وظيفة للمهندسين بانتظار من يشغلها، وكان ثلاثون في المئة من هذه الشواغر مدورة من السنة التي قبلها(٣٠).

في هذا المجال الحيوي، أي التنافس على الأفضل والأذكى في العالم، أثبتت إستراتيجية اجتذاب العمالة الماهرة الأجنبية التي طرحها الاتحاد الأوروبي فشلها بالمقارنة مع الإستراتيجية المتبعة من قبل الولايات المتحدة. مع كل هذا، يبدو أن المشاعر المعادية للهجرة في دول الاتحاد الأوروبي في ارتفاع مستمر. لماذا يحدث مثل هذا خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الالتزام الواضح الذي قطعه الاتحاد الأوروبي على نفسه في موضوع القيم التنويرية في مجالات المساواة وحقوق الإنسان ومحاربة التمييز؟

من المستحيل فهم النقاش الحالي الدائر في أوروبا من دون التطرق إلى الإسلام. فالمسلمون هم أكثر الجاليات نمواً في أوروبا من حيث العدد. يتوقع بعض المحللين أن نسبة المسلمين في أوروبا ستشكل عشرين في المئة من عدد السكان خلال خمس عشرة سنة من الآن. المسلمون في فرنسا يمكن أن يمثلوا عشرة في المئة من تعداد السكان، وربما أكثر؛ وبذلك فإن أعدادهم تفوق الجماعات غير الكاثوليكية مجتمعة بمن فيهم البروتستانت واليهود. يتوقع أن يصبح المسلمون أغلبية في مدن كبرى مثل أمستردام وروتردام خلال عقد من الآن. (من باب المقارنة فقط، تبلغ نسبة المسلمين من واحد إلى اثنين في المئة من عدد السكان في الولايات المتحدة.) مع ذلك يبدو أن التسامح الأوروبي مع هذه الجالية التي تنمو عددياً بشكل مطرد، بالرغم من الزعم بوجود بعد إنساني لهذا التسامح، يلاقي صعوبة بالغة في تطبيقه مع المسلمين[٣١].

هذه المشكلة في أوروبا أعمق بكثير من الحظر الذي فرضته فرنسا على ارتداء الحجاب في المدارس الرسمية. فالعديد من شعوب دول أوروبا الشرقية ما تزال تعتقد أن المسيحية تشكل ثقلاً مركزيا في التراث الأوروبي. فمثلاً، قام الرئيس البولندي أليكساندر كواسينسيكي سنة ٢٠٠٣ بانتقاد عنيف لدستور الاتحاد الأوروبي الذي وصفه بالدستور «البعيد عن الرب»، معلناً في الوقت نفسه أن من المعيب عدم إتيان هذا الدستور على ذكر «القيم المسيحية التي هي في غاية الأهمية من أجل نمو

أوروبا وتطورها.» في الوقت نفسه، هناك العديد من العلمانيين في أوروبا الغربية من الذين يرون أن الإسلام يشكل تهديداً غير مباشر لهوية أوروبا التنويرية الحديثة. هاجم الصحافي الإيطالي أوريانا فالاشي «الغزاة المسلمين» الذين يخوضون «حرباً صليبية معاكسة» من أجل فتح أوروبا وإعادتها إلى الوثنية. كما قال أحد أعضاء البرلمان الدانمركي: «من السذاجة الاعتقاد بأن من الممكن دمج المسلمين في المجتمع الدانمركي. فالإسلام ليس ديناً وحسب، بل هو أيديولوجية سياسية خطرة ممزوجة بالتعصب الديني الذي تعود جذوره إلى القرون الوسطى، وهو إهانة لحقوق الإنسان ولجميع الشروط الأخرى الضرورية لقيام مجتمع متقدم.» يعود أحد أهم الأسباب في الممانعة الواسعة لطلب تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي من دون شك، إلى أن سكان تركيا البالغ عددهم ثمانية وستين مليون نسمة هم من المسلمين. وهكذا فقد وصل التسامح الأوروبي في علاقته بالإسلام إلى طريق مسدود في مسألتيْ التوسع الجغرافي والانفتاح على الهجرة[٣٢].

في غضون ذلك، كانت الجاليات المسلمة الفقيرة نسبياً داخل أوروبا في قلب صراع عرقي وديني وعنصري يزداد حدة يوماً بعد يوم. ولم تسلم أي دولة أوروبية إلا ما ندر، من هذه المشكلات. وتشكل التجربة الدنمركية نموذجاً لهذه المشكلات التي واجهت الدانمرك وهي تتكون من مجتمع مختلط، والتي كانت تعتبر«محور الليبرالية الاسكندينافية يوماً ما»، في نهاية القرن العشرين ما يمكن اعتباره بمقاييسها الديموغرافية جالية إسلامية كبيرة تمثل حوالي ثلاثة في المئة من السكان. أغلب السكان المسلمين في الدانمرك الذين هاجروا بشكل رئيس من تركيا والمغرب والعراق والصومال يعانون من الفقر المدقع والبطالة.

حصل حزب الشعب الدانمركي اليميني المتطرف على ١٢ في المئة من الأصوات في انتخابات سنة ٢٠٠١، وهو ما جعله ثالث أكبر حزب سياسي في البرلمان الدانمركي. أعلن حزب الشعب الدانمركي برنامجه الحزبي الذي تضمن فيما تضمنه أن «الدانمرك ليست أمة من المهاجرين، ولم تكن كذلك يوماً. ومن ثَم، لن

تقبل أبداً التحول إلى مجتمع متعدد الأعراق. فالدانمرك للدانمركيين.» وبحسب برنامج حزب الشعب، فإن «تحويل الدانمرك إلى بلد متعدد الأعراق يعني أن ثقافات رجعية معادية للتطور سوف تهدم مجتمعنا المنسجم والمتميز بالاستقرار منذ مدة طويلة.» في غضون ذلك، اتخذ الحزب الليبرالي الذي فاز في انتخابات سنة ٢٠٠١ موقفاً مناهضاً للهجرة بالرغم من أن موقفه كان أقل تشدداً من موقف حزب الشعب اليميني المتطرف. حققت الحملة المتمثلة في الإعلانات التي تدعو إلى القانون والنظام -والتي تظهر مهاجرين مسلمين من الشباب المحكوم عليهم في جناية الاغتصاب مع قريبات لهم يرتدين الحجاب ويصرخن في وجه رجال الصحافة- نجاحاً كبيراً. ركز أندير فوغ راسموسين زعيم الحزب الليبرالي في حملته الانتخابية على إصلاح قوانين الهجرة، وتعهد بحماية نظام الضمان الاجتماعي الدانمركي الذي يدعى «نظام الرعاية من المهد إلى اللحد» من محاولات الأجانب استغلاله. أوضح في هذا الصدد أن «الدانمرك لن تكون مكتباً للضمان الاجتماعي لبقية العالم»[٣٣].

تمثل مقاومة المسلمين لفكرة الاندماج مع مجتمعهم الجديد، والعنف الذي تبنته جماعات الإسلاميين المتطرفين، أحد الأسباب التي تجعل من الصعوبة بمكان على الاتحاد الأوروبي التسامح مع الإسلام. تواجه كافة الدول الأوروبية الآن مشكلة تتمثل في كيفية «التسامح مع التعصب». تتجسد المشكلة بالنسبة إلى الحال الأوروبية في تجمع جاليات المسلمين سكانياً في بيئات منغلقة: هناك حقيقة توضح أنه بالرغم من المقاربات المتباينة للأقليات من إسكندينافيا إلى أسبانيا، فإن مسلمي أوروبا يفضلون العيش في مناطق معزولة ومنفصلة مادياً وثقافياً ونفسياً عن مواطنيهم الأوروبيين.

هذه المناطق المعزولة التي تتكون بشكل رئيس من أحياء فقيرة تعج بعالم الجريمة، وتتناثر فيها مشروعات إسكانية مهملة ومثيرة للإحباط على تخوم مدن كبرى مثل مرسيليا وأمستردام، ليست مجرد وسائل تمنع أي نوع من أنواع الاندماج وحسب، بل هي مرتع خصب للتطرف الإسلامي، كما تدل على ذلك، الشعبية التي

يحظى بها (بن لادن) الذي تعلق صوره على جدران غرف نوم الصبيان المراهقين في شقق سكنية يقطنها مسلمون فرنسيون، والخلايا الإرهابية التي كُشف النقاب عنها في مدريد وهامبورغ وفرانكفورت وميلان ولندن(٣٤).

الصعوبات التي تواجهها أوروبا مع الجاليات المهاجرة إليها وخصوصاً الجاليات المسلمة لا يبدو أنها ستتوقف. على العكس من ذلك، فقد ازدادت أعمال العنف والقلاقل سوءاً بدءاً من تفجيرات مدريد سنة ٢٠٠٤ مرراً بمقتل ثيو فان غوخ السينمائي الهولندي المناهض للإسلام، وأعمال الشغب العرقية في فرنسا سنة ٢٠٠٥، و«الجهاد» ضد الرسوم الكاريكاتورية التي بدأت في الدانمرك وانتشرت بسرعة لتشمل كافة أنحاء الشرق الأوسط، وتفجيرات أنفاق المترو في لندن التي أدت إلى مقتل اثنين وخمسين شخصاً، وانتهاء بالمحاولة الفاشلة سنة ٢٠٠٦ التي قام بها إسلاميون بريطانيون من أصول باكستانية لتفجير متفجرات سائلة في عدد من الطائرات فوق المحيط الأطلسي. من المفارقة ملاحظة أنه بينما يفترض أن يشكل الأمريكيون الهدف الرئيس لكراهية الإسلاميين المتشددين، فإن هناك إجماعاً الآن على أن الولايات المتحدة نجحت أكثر من أوروبا في دمج الجاليات الإسلامية في مجتمعها، وبالتالي، حيّدت حتى الآن على الأقل، مشكلة اندلاع موجة من الإرهاب الإسلامي على أراضيها.

«المشكلة الإسلامية» التي يواجهها الاتحاد الأوروبي تحدد بدرجة كبيرة، وتزيد من تعقيد الأساليب الحالية التي تتبعها الدول الأوروبية ليس فقط فيما يتعلق بمسألة الهجرة، وإنما بالحجم النهائي لطبيعة الاتحاد نفسه. فبينما لا توجد من حيث المبدأ، حدود واضحة للتوسع الجغرافي للاتحاد، فإن هناك قيوداً واقعية تفرض نفسها على عملية توسع الاتحاد الأوروبي. تباطأت عملية مفاوضات انضمام تركيا للاتحاد بشكل كبير بسبب إصرار كل من فرنسا والنمسا على أن ظروف تركيا «الخاصة» تتطلب اتخاذ إجراءات جديدة - خصوصاً عمليات استفتاء شعبي - قبل أن تتم الموافقة على انضمام تركيا للاتحاد. ليست لدى الاتحاد الأوروبي بالتأكيد خطط لدعوة الهند على سبيل المثال، بشعبها غير المسيحي، والذي يعاني من فقر مدقع للانضمام إلى صفوفه.

هذه القيود العملية المفروضة على عملية توسع الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى مقاومة فكرة الهجرة التي تسود العديد من دول الاتحاد الأوروبي، تضع الاتحاد في موقع ضعيف بالمقارنة مع الولايات المتحدة. فبالرغم من نجاحاته المذهلة على الكثير من الأصعدة، إلا أن الاتحاد الأوروبي لم يجد الطريق المثلى لاجتذاب رأس المال البشري من كافة دول العالم والإفادة منه كما يجب. يبقى الاتحاد الأوروبي بالمقارنة مع الولايات المتحدة أقل انفتاحاً وأقل جاذبية بالنسبة للمستثمرين الشباب من الهند وباكستان وروسيا وتايوان والصين وغيرها من البلدان، والذين يتطلعون إلى ترك أوطانهم من أجل الاستثمار في مهاراتهم.

من ناحية أخرى، هناك إشارات تلوح في الأفق مفادها أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تقدم هذه الامتيازات إلى ما لا نهاية. فعلى سبيل المثال، ربما استطاعت أوروبا بسبب أحداث الحادي عشر من أيلول، والفورة في أعداد المنح الدراسية الأوروبية، ورزم الإعفاءات من الرسوم الدراسية التي تقدمها، اجتذاب أعداد من الطلبة الأجانب أكثر بمرتين من نظرائهم الذين يدرسون في الولايات المتحدة. مع ذلك، تبقى الولايات المتحدة الدولة الأولى عالمياً في استقطاب أعداد الطلبة الأجانب الذين يتوجهون إليها بقصد طلب العلم؛ كما أنها تشكل مركز استقطاب خصوصاً للطلبة القادمين من الصين والهند ودول أخرى في آسيا[٣٥].

على الصعيد الشخصي، كنت قد طلبت إلى أحد طلاب كلية الحقوق في جامعة يال من الهند أن يقوم بإجراء سلسلة من المقابلات بالنيابة عني عندما كان يقضي إجازته هناك في صيف سنة ٢٠٠٦. وكان من بين الذين استطلعت آراؤهم بعض رجال الأعمال الصغيرة، وطلاب، وموظفون في البنوك، ومستشارون تكنولوجيون، وبعض أصحاب الثروات الجدد في مومباي وبنغالور ونيودلهي. تمحورت الأسئلة الموجهة إليهم حول مفهومهم للفرص الاقتصادية النسبية في مناطق مختلفة من العالم. كان أحد الأسئلة يدور حول ما إذا كانت الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي أو كندا هي من تقدم فرصاً أفضل بالنسبة للمهاجرين الهنود. وفيما يأتي بعض نماذج الأجوبة التي قدموها:

أوروبا هي أقل جاذبية بالنسبة للهنود من الولايات المتحدة. فباستثناء إنجلترا،

لا تبدي الدول الأوروبية ترحيباً بوجودهم بين ظهرانيها. فثقافتهم لا تتماشى مع ثقافتنا، وبدورنا، لا نستطيع التحدث بلغاتهم.

تقدم أوروبا فرصاً أقل. الناس مفتونون بالولايات المتحدة. الولايات المتحدة توفر فرصاً أفضل. الحياة هناك أسهل بفضل طبيعة النظام هناك - إنه تجسيدٍ للديمقراطية بكل ما لهذه الكلمة من معنى. عامل اللغة إيجابي جداً في كون أمريكا مركز استقطاب. الشعوب الأوروبية أكثر عنصرية.

كندا بلد مترامية الأطراف ولكن أكثر من نصفها مغطى بالثلوج ... من الواضح أن الولايات المتحدة توفر فرصاً أفضل. لكن ليس في كندا الكثير من الصناعات التي تنافس على الصعيد العالمي مثل صناعة الفولاذ. مع ذلك، لا أعتقد أنني أرغب في العمل هناك. ليست لديهم أنواع كافية من الطعام للنباتيين.

كندا ما تزال في نظر الكثيرين أمة فرعية ويرتبط اسمها دائماً بالولايات المتحدة. ما يزال عليها أن تقوم بتطوير هويتها الخاصة بها.

بمرور الوقت سيكون بإمكان أوروبا توفير المزيد من الفرص، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد. يتبع الاتحاد الأوروبي أسلوب المبادرة في مقاربته لموضوع الاستثمار، وإنشاء المراكز التجارية ونشرها. إلا ان هناك حواجز لغوية.

المعيشة في أوروبا مكلفة جداً. ومن ثَم، فلا يبحث الهنود فيها عن فرص حقيقية. الهند والولايات المتحدة تربطهما أيضاً علاقات مالية وثقافية أفضل بكثير.

يبدي الأوروبيون مواقف عنصرية أشد بكثير تجاه الهنود؛ بالإضافة إلى أن اللغة والمناخ يشكلان مشكلة حقيقية. لندن مدينة جميلة، لكن الناس يجب أن يتوجهوا إلى الولايات المتحدة بقصد العمل.

لا تمثل هذه الإجابات بالطبع دراسة علمية، وإنما انطباعات عبرت عنها حفنة صغيرة من الناس؛ لكنها أكدت على ما يشير إليه كم أكبر من الدلائل. ما تزال الولايات المتحدة حتى الآن - على الأقل - تعتبر الوجهة التي يمكن للمهاجرين الذين يتوقون إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية بسهولة أكبر، حيث يوجد هناك مردود

جيد للجهد الشاق الذي يبذل من أجل تحقيق ذلك. من أجل ذلك، ما تزال أمريكا قادرة على اجتذاب حتى الأدمغة الأوروبية وليس العكس؛ فقد تم التعاقد بدءاً من سنة ٢٠٠٤ مع ما يقارب من ٤٠٠٠٠٠ من خريجي الكليات العلمية والتكنولوجية من الأوروبيين في الولايات المتحدة، وفي المقابل هناك قلة قليلة من نظرائهم الأمريكان يعملون في أوروبا. [٣٦].

من المنظور الأوروبي، لا تُعد القيود المفروضة على الهجرة أمراً سيئاً بطبيعة الحال. فكما هي الحال في الصين، لم تزعم أي دولة أوروبية أنها تريد تحويل مجتمعها إلى مجتمع متعدد الأعراق من المواطنين الأصليين والمهاجرين. وكما الصين، ربما يفضل معظم الأوروبيين التمهل في مسألة توسيع الاتحاد الأوروبي. ليست للاتحاد الأوروبي مصلحة كقوة عظمى في الحقبة ما بعد الإمبراطورية في ضم روسيا أو بلدان من آسيا وأفريقيا، فقط من أجل أن يصبح أكثر اتساعاً. ولكن إذا كان من ضمن أهداف الاتحاد الأوروبي استعادة نظام عالمي متعدد الأقطاب، فإن هذه القيود ستمنعه من تحقيق هذا الهدف. وطالما استمر الاتحاد الأوروبي في السماح للولايات المتحدة في أن تبقى قِبلة لأهم عناصر رأس المال البشري، فإن على أوروبا أن تعترف للولايات المتحدة بتفوقها عليها في مجاليْ التكنولوجيا والاقتصاد، وهما العاملان اللذان جعلا من الولايات المتحدة قوة مطلقة.

ضحية الاضطهاد: الهند

خلال فترة انعقاد المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس بسويسرا سنة ٢٠٠٦، اختار اتحاد الصناعة الهندية شعاراً له هو «الهند في كل مكان.» وفي دافوس، كانت الهند في كل مكان. ظهر هذا الشعار الهندي على الحافلات وفي لوحات الإعلان؛ وقامت الوفود الهندية بتوزيع "آيبودات iPods" مجانية تتضمن آخر وأفضل ما أنتجته "بوليوود"، بالإضافة إلى أن أعضاء في الحكومة الهندية الذين يطلق عليهم رجال الاقتصاد اسم "فريق الحلم" امتدحوا كثيراً الفرص المتاحة لبلادهم مع

المستثمرين المحتملين. خلال الحفل الاجتماعي الباذخ الذي أقيم في نهاية أعمال المنتدى، ارتدى كلاوس شواب رئيس المنتدى عمامة وشالاً هنديين أثناء النقاش الذي أجراه حول فرص الاستثمار في الهند وخلفه صورة كبيرة مضاءة بالأضواء الزرقاء لتاج محل. في معرض تغطيتها لأعمال المنتدى، أعلنت مجلة نيوزويك "أنه ما من دولة اجتذبت مخيلة الحاضرين في المنتدى وطغت على موضوعات ذلك المؤتمر أكثر من الهند سنة ٢٠٠٦."

أضاف النجاح الذي حققته الهند في منتدى دافوس إلى الأحاديث المتزايدة حول إمكان أن تصبح الهند القوة العظمى القادمة في العالم. أصبحت الهند استناداً إلى آراء العديد من النقاد والسياسيين والمستثمرين القوة التي تجذب الانتباه في القرن الحادي والعشرين لأسباب عديدة منها وجود حوالي ٤٠٠٠٠٠ من الخريجين سنوياً في مجالي الهندسة والتكنولوجيا، وقاعدة عريضة من المهنيين الذين يتقنون اللغة الإنجليزية، واقتصاد مزدهر تبلغ نسبة النمو فيه ٧بالمئة على امتداد السنوات الأربع الأخيرة على التوالي[٣٧].

بدأ نجم الهند الاقتصادي في الصعود في بداية عقد التسعينيات من القرن العشرين عندما قام وزير المالية مانموهان سينغ بتقليص الإنفاق الحكومي بنسبة كبيرة وتخفيض قيمة الروبية لمنع البلاد من الوقوع في فخ الديون الخارجية. في المقابل، حصل سينغ الذي حصل على إجازته الجامعية من جامعة كامبردج على عدة مليارات من الدولارات من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. انتقل سينغ بعد ذلك إلى مرحلة إلغاء القيود البيروقراطية التي تعيق وجود الاستثمارات الخارجية. أدت هذه الإجراءات التي تهدف إلى تحرير الاقتصاد الهندي إلى زيادة حدة التضخم ونسبة العاطلين عن العمل على المدى القصير. إلا أنه وخلال خمس سنوات، عاد الاقتصاد الهندي إلى النمو أكثر مما كان الأمر عليه خلال السنوات الأربعين الأخيرة. وبعد مضي عشر سنوات، أعلنت مجلة Foreign Affairs أن الهند تروي "قصة النجاح المدوي للرأسمالية" [٣٨].

بدأ النجاح الهندي في اقتناص رؤوس الأموال والوظائف من دول أكثر تقدماً يوغر صدور الأمريكيين. كان موضوع نزوح رؤوس الأموال والوظائف باتجاه الهند موضوعاً ساخناً في السباق نحو الرئاسة الأمريكية سنة ٢٠٠٤. منذ ذلك التاريخ، أصبحت الهند موقعاً أفضل لاجتذاب الاستثمارات الأمريكية: اليوم أكثر من نصف رؤوس أموال خمسمئة شركة أمريكية تستثمر في الهند. الشركات المتعددة الجنسية مثل Intel وIBM و Dell و Motorola و Yahoo! و AOL تستثمر في عمليات كبرى في الهند. هناك ما يقرب من أربعين شركة عالمية تنشئ لها فروعاً في المدن الهندية شهرياً. تحدث الرئيس بوش عن صعود نجم كل من الهند والصين كمنافسيْن مستقبليين في خطابه حول حال الاتحاد سنة ٢٠٠٦. وفي شهر آذار، مارس، سنة ٢٠٠٦، كان بوش خامس رئيس أمريكي يقوم بزيارة دولة إلى الهند [٣٩].

لفتت زيارة بوش إلى الهند في شهر آذار سنة ٢٠٠٦ الانتباه ليس إلى قوة هذه البلاد الاقتصادية وحسب، بل إلى قوتها العسكرية أيضاً. فبوجود جيش يبلغ تعداده مليونين من الجنود النظاميين وشبه النظاميين، يُعد هذا الجيش واحداً من أكبر الجيوش في العالم. انضمت الهند سنة ١٩٩٨ إلى النادي النووي في العالم بعد أن قامت بإجراء خمس تجارب نووية تسببت في قيام كلينتون بفرض حظر اقتصادي عليها. في المقابل، قام الرئيس بوش بإضفاء صفة الشرعية على البرنامج النووي الهندي من خلال عقد اتفاقية تبيع بموجبها الولايات المتحدة الوقود النووي وقطع غيار للمفاعلات للهند (مقابل قيام الهند بفتح منشآتها النووية المدنية للمفتشين الدوليين).

في غضون ذلك، تستمر الهند في جذب الاهتمام العالمي إليها اقتصادياً. قام لاكشمي ميتال في شهر تموز، يوليو، سنة ٢٠٠٦ وهو خامس أغنى رجل في العالم بشراء شركة الفولاذ الأوروبية العملاقة Arcelor. وقد احتفلت إحدى كبريات الصحف الهندية التي تعنى بالشؤون الاقتصادية بهذه العملية، إذ اعتبرتها دليلاً على "السيطرة الهندية عالمياً" [٤٠].

هل يمكن أن تصبح الهند دولة مسيطرة على الصعيد العالمي؟ سوف أبدأ الإجابة عن هذا السؤال من خلال تقديم أفضل دفاع عن الهند ضمن سياق أطروحة هذا الكتاب. ثم أقوم بعد ذلك بالحديث عن أهم التحديات التي تواجهها هذه البلاد.

اللافت للنظر في المسألة الهندية، ليست الفورة الاقتصادية الحديثة التي انطلقت في الهند على الرغم من أهميتها. فما تزال حصة الهند من الاقتصاد العالمي صغيرة جداً. وهذه الدولة التي يبلغ عدد سكانها سبع عشرة في المئة من سكان العالم، لا يتجاوز حجم إنتاجها اثنين في المئة من حجم الإنتاج العالمي، وواحد في المئة من التجارة العالمية. أما حجم اقتصاد الصين بالمقارنة، فهو ضِعف حجم اقتصاد الهند؛ وفي سنة ٢٠٠٥، بلغ حجم الاستثمارات الخارجية المباشرة في الصين عشرة أضعاف الاستثمارات الخارجية في الهند. كما بلغ دخل الفرد السنوي في الهند سنة ٢٠٠٦ ما يعادل ٣٤٠٠ دولاراً للفرد، مقابل ٦٣٠٠ دولار للفرد في الصين، و٣٠٧٠٠ دولاراً للفرد في اليابان. عموماً، يمكن القول إن معدل النمو الذي حصل في الهند بالرغم من أهميته، لم يستطع الدفع بمستوى المعيشة في الهند إلى مصاف الدول المتقدمة. هناك ثمانون في المئة من الهنود يعيشون على دولارين في اليوم. كما أن دليل الأمم المتحدة حول التنمية البشرية، يضع الهند في المرتبة ١٢٧ من بين ١٧٧ دولة[٤١].

لكن ما يميز الهند، هو أنها أكبر ديمقراطية في العالم بالرغم من التعدد الهائل لطوائفها العرقية والدينية التي تتجاوز بكثير أعداد الطوائف والأعراق في الولايات المتحدة. قامت الهند منذ نشأتها بالتركيز على إبراز التنوع المدهش للثقافات الأقل شأناً، والديانات، واللغات، والطوائف، والمذاهب، والمجموعات القبلية والعرقية فيها. هناك ست عشرة لغة رسمية مختلفة تستعمل في الهند، وأكثر من اثنتين وعشرين لغة أخرى محكية يتكلم بكل واحدة منها مليون شخص على الأقل، كما توجد أكثر من ألفٍ من اللهجات المحلية. في سنة ٢٠٠٤، خاض مئتان وثلاثون حزباً

سياسياً غمار الانتخابات البرلمانية على الصعيد الوطني. وبالرغم من أن الأغلبية الساحقة من سكان الهند هم من الهندوس (أكثر من ٨٢٧ مليون نسمة)، إلا أن هناك تبايناً واسعاً في طرق ممارسة طقوس هذه الديانة؛ هناك في الواقع الآلاف من الطوائف الهندوسية المختلفة على امتداد البلاد. كما أن الهند موطن لما يربو على مئة وخمسين مليون مسلم، يشكلون ثاني أكبر تجمع للسكان المسلمين في العالم بعد إندونيسيا. بالإضافة إلى ذلك، تعيش في الهند أقليات ذات شأن كبير مثل السيخ، والمسيحيين، والبوذيين، والبارسيسيين، واليانيين[٤٢].

إن وجود الهند بوصفها دولة، خصوصاً كونها دولة ديمقراطية، هذا في حد ذاته انتصار لمبدأ التسامح. كان المهاتما غاندي وجواهر لال نهرو، وهما اثنان من الآباء المؤسسين لدولة الهند الحديثة، رمزان بارزان من رموز التسامح في القرن العشرين؛ وكانا يعارضان الأصولية من أي نوع كانت، أيما معارضة. انطلقت الهند في ظل قيادتهما، من الاستقلال إلى إيجاد شكل من أشكال التوازن بين المعتقدات الدينية المتشعبة من خلال استصدار قوانين متعددة تسهم في وضع أنظمة مختلفة تتناسب مع أتباع كل ديانة من الديانات المتبعة في البلاد. كان قانون الأحوال الشخصية في الهند على سبيل المثال يسمح بتعدد الزوجات بين المسلمين إلا أنه فرض مبدأ الزواج الفردي بالنسبة لأتباع الديانة الهندوسية. كما خطت الهند خطوات واسعة في السنين الخمسين الأخيرة بشأن السيطرة على كل أشكال التعصب والتطرف الذي كان يمارس منذ وقت طويل ضد من كان يطلق عليهم وصف «من لا تجوز ملامستهم» وطبقات دونية أخرى في المجتمع.

كما توقعت أطروحة هذا الكتاب تماماً، فقد نجحت سياسة الهند في تطبيق سياسة المحافظة على أصحاب المواهب الذين ينتمون إلى كافة الفئات السكانية المتشعبة تشعباً كبيراً والإفادة من مواهبهم أيما نجاح. أكد عالم الاقتصاد الهندي أمارتيا سين، الحائز على جائزة نوبل، أن السر في عظمة الهند على مدى قرون من الزمن يكمن - بالضبط - في «تعدديتها» و«انفتاحها» المذهلَيْن. اعتبر سين أن

أعظم حكام الهند كانوا أباطرة من طراز "أشوكا" و"أكبر"- الأول بوذي، والثاني مسلم؛ ومع ذلك كان كلاهما بطلان من أبطال التسامح العلماني. كتب أشوكا منذ حوالي ٢٢٠٠ سنة ما يأتي: «كل من يقوم بممارسة طقوس التعبد بموجب معتقداته، بينما يسفّه معتقدات الآخرين، فإنه في واقع الأمر يسيء إساءة بالغة إلى معتقداته هو بالذات.» وهكذا، فبحسب سين، كان للتسامح والتعددية جذور ضاربة في أعماق الثقافة الهندية قبل ظهور عصر التنوير في أوروبا بوقت طويل[٤٣].

لكن وضع التسامح في الهند هذه الأيام ليس بأفضل أوقاته أو أسعدها، كما قد يشير التاريخ. اكتسح الحزب القومي "باهاراتيا جاناتا" الهندوسي الانتخابات سنة ١٩٩٨، ودعا إلى قيام دولة هندوسية في الهند. وكان غالباً ما يشير في أدبياته إلى المسلمين باعتبارهم «غزاة» و»غرباء»، ومن ثم فقد توعد سياسيو هذا الحزب بتدمير المساجد في طول البلاد وعرضها، وإبدالها بمعابد للهندوس. عمل حزب جاناتا في الأقاليم التي فاز فيها بأغلبية كبيرة على وضع قيود على الزواج بين الهندوس والمسلمين، وملاحقة البعثات التبشيرية المسيحية، وإعادة كتابة كتب التاريخ المقررة في مختلف مراحل التعليم، وذلك في معرض تأكيد قادته على الهوية الهندوسية للهند.

شهدت الهند سنة ٢٠٠٢ اندلاع أسوأ موجة من موجات العنف الديني في العقود الأخيرة. أُجهز حينها على ما يربو على ألفين من المسلمين بدم بارد في ولاية "غوجارات" الشمالية. اندلعت أعمال العنف تلك بسبب الهجوم الذي قام به متطرفون إسلاميون على قطار يقل حجاجاً من الهندوس قادمين من منطقة "أيوضا" حيث قام متطرفون من الهندوس الذين يرتدون أردية بلون الزعفران قبل عقد على ذلك بتدمير أحد المساجد، وقاموا بنهب المنطقة المجاورة للمسجد وإحراقها ضمن موجة عنف معادية للمسلمين اجتاحت المنطقة. وقد تسبب هجوم المسلمين على القطار في مقتل ما لا يقل عن تسعة وخمسين من الحجيج.

انتابت الهندوس من المدنيين ورجال الشرطة، وعلى مدى أربعة أيام متلاحقة، نوبة من القتل الجماعي، ونهب المحلات التجارية وحرق البيوت، واغتصاب للفتيات والنساء المسلمات. كان العنف الذي مورس على النساء المسلمات مثيراً للتقزز، حيث قام المتظاهرون ببتر أثداء الفتيات، وفي بعض الحالات، كانت تبقر بطون النساء الحوامل وتقتلع الأجنة من أرحامهن قبل قتلهن. كانت أعمال القتل تلك تدعمها سلطات الولاية حيث قاد ضباط من الشرطة ومجموعات من المتطوعين القوميين تلك الغارات. وكانت تلك الغارات في غاية التنظيم؛ إذ كان مثيرو الشغب يتعرفون على منازل المسلمين باستعمال خرائط مسحوبة على أجهزة الكومبيوتر، وتتضمن قوائم بأسماء العائلات المسلمة وعناوينها؛ وكانوا بعد ذلك يقومون بتنسيق هجماتهم عن طريق استخدام الهواتف الخلوية. أنكرت فيما بعد حكومة حزب جاناتا حدوث مثل تلك الهجمات، واعتبرت العديد من القتلى في عداد المفقودين بالرغم من الكشف عن عدد من المقابر الجماعية. وكانت لأعمال العنف هذه عواقب وخيمة في كافة أرجاء المنطقة نتج عنها ترحيل أكثر من مئة ألف مسلم فرضت عليهم الإقامة في معسكرات للاجئين[٤٤].

وعلى الرغم من أن حزب جاناتا تعرض للهزيمة في انتخابات سنة ٢٠٠٤، فقد استمرت الروح القومية الهندوسية في الظهور كقوة فاعلة على المسرح السياسي الهندي. فقد استمر التوتر بين الهندوس والمسلمين، والذي ترافق بأعمال عنف دينية بالغليان. تحولت الهند سنة ٢٠٠٤ إلى موطئ لأربعة وأربعين في المئة من أشد أنواع الهجمات الإرهابية دموية في العالم. في استطلاع أجري سنة ٢٠٠٦، اختار سبعة عشر في المئة من المستطلعة آراؤهم هتلر كنموذج للقائد في الهند[٤٥]. وهكذا، فبالرغم من مُثُل التعايش التي كان أهم أقطابها أشخاص مثل غاندي ونهرو، فإن السؤال المطروح حول ما إذا كانت الهند اليوم ستبقى - أو أنها ستكون في المستقبل - واحدة من أكثر المجتمعات تسامحاً في العالم، سيبقى مفتوحاً على كافة الاحتمالات.

حتى لو كان باستطاعة الهند تجنب وقوع المزيد من النزاعات الطائفية،

واستمرارها دولة ديمقراطية مستقرة ومتعددة الأعراق، فإنها لن تتمكن من أن تكون مركز استقطاب للباحثين عن النجاح في مجال الاستثمارات العالمية. على العكس من ذلك، فبالنسبة للعديد من الهنود الذين يقارنون أوضاعهم، بأوضاع نظرائهم الأكثر ازدهاراً فيما وراء البحار، فإن المثل الشائع حول الهنود يبقى قائماً: يمكن لليهود أن يحققوا نجاحات في أي مكان، إلا في الهند نفسها. فبالرغم من القوة الاقتصادية التي حققتها الهند مؤخراً، إلا ان الهنود استمروا في الهجرة بمعدلات عالية. فقد هاجر حوالي ٧٠٠٠٠ من الهنود إلى الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٤، وكانوا يشكلون ثاني أكبر مجموعة من المهاجرين الشرعيين إلى الولايات المتحدة. العديد من هؤلاء المهاجرين لا يعودون أبداً إلى الهند بصفة دائمة، ولا يستثمرون فيها إلا بمعدلات منخفضة تكاد لا تذكر بالمقارنة مع نظرائهم الصينيين في بلاد المهجر. أما بالنسبة إلى الهنود الذين «يصوتون بأقدامهم» من خلال إقدامهم على الهجرة فإنهم يعتبرون أن على الهند قطع مسافة طويلة قبل أن يكون بمقدورها مجاراة الدول الأخرى كالولايات المتحدة أو المملكة المتحدة من حيث عدد الفرص التي يمكن أن تقدمها لذوي المواهب والطموحات.

ما من شك في أن هناك أسباباً وجيهة تدعو إلى التفاؤل حول مستقبل الهند. فالهند تملك قاعدة واسعة من خريجي الجامعات الجاهزين لركوب موجة النمو الاقتصادي القادمة. وفي الوقت الذي أصبحت غالبية سكان الاتحاد الأوروبي من المسنين، فإن نصف سكان الهند من الذين تقل أعمارهم عن خمس وعشرين سنة. وبعكس الصين التي يعتمد النمو فيها على قطاع التصنيع، فإن أكثر القطاعات ازدهاراً في الهند هي في مجال البرمجيات، وتكنولوجيا المعلومات، ووسائل الإعلام، والإعلان، وبوليوود - وهي مجالات تعتمد بالدرجة الأولى على الإبداع والمواهب الفردية[٤٦]. توفرت نتيجة لذلك، إمكانيات للتطور السريع في الهند لم يكن بالإمكان تخيل حدوثها قبل عقدين من الزمن: فاليوم، هناك من ينتمون إلى طائفة «من لا تجوز ملامستهم»، يشغلون مناصب المديرين في شركات تكنولوجية شهيرة. وهناك

أيضاً، أعداد قليلة من الغربيين من الطبقة الوسطى، والذين لا صلة لهم بالماضي الاستعماري، انتقلوا للإقامة في الهند بعد حصولهم هناك على وظائف أفضل مما يمكن أن توفرها لهم بلدانهم؛ وهو ما يحدث للمرة الأولى في التاريخ. مع ذلك، على الهند تجاوز العديد من المشكلات المستعصية - الفقر المدقع في الأرياف، وأحزمة الفقر المنتشرة حول المدن، والتي تكتسحها الأوبئة، والفساد الذي تأصل في كل مكان، من بين مشكلات عديدة أخرى - قبل أن يبدأ أصحاب أفضل المواهب والخبرات في العالم بمجرد التفكير في التدفق على الهند والاستثمار فيها.

يمكن القول باختصار، إن الهند حققت إنجازات هائلة. تتمثل بعض هذه الإنجازات منذ الاستقلال في التقدم الذي أحرزته في عملية استئصال نظام الطوائف المتجذر في الهند منذ قرون، ونجاحها في المحافظة على النظام الديمقراطي، وهو ما جعلها أكبر ديمقراطية في العالم. هذان الإنجازان يعدان غير مسبوقين في التاريخ الهندي، كما أنهما يفسران السبب الذي جعل من الهند قِبلة للعديد ممن امتهنوا الحديث عن العولمة. أشار بعض الخبراء إلى أن النموذج الهندي في التنمية الذي يعتمد على التطوير بدءاً من القاعدة باتجاه الأعلى، يمكن أن يثبت تفوقه على المدى الطويل، على النموذج الصيني الذي يعتمد إستراتيجية تقوم على التطوير من القمة باتجاه القاعدة[٤٧].

مع ذلك، يبقى من السابق لأوانه القول: إن الهند سوف تتحول إلى دولة عظمى، ناهيك عن أن تصبح قوة مطلقة. في حقيقة الأمر، لا يبدو أن الهند نفسها راغبة في استئصال شأفة أمريكا أو التشويش على موقعها في السيطرة على العالم. على العكس من ذلك، يبدو أن الهند التي تُعد من بين الدول التي تتعاطى بإيجابية مع الولايات المتحدة - أظهر استطلاع للرأي العام أجري سنة ٢٠٠٥، أن واحداً وسبعين في المئة من الهنود يكنون مشاعر إيجابية تجاه الولايات المتحدة - مهتمة أكثر من أي شيء آخر بأن تصبح شريكاً للولايات المتحدة في النظام الاقتصادي العالمي.

لم يسبق لأي قوة مطلقة أن استمرت إلى الأبد. إن سيطرة الولايات المتحدة على العالم لا بد وأن تصل إلى نهاية؛ إلا أن السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه في هذا السياق، هو إلى متى ستبقى هذه السيطرة - هذا إذا لم تكن قد تجاوزت ذروتها بالفعل. وحتى لو لم تستطع الصين، أو الاتحاد الأوروبي، أو الهند، أو ربما روسيا، أو أي منافس آخر غير معروف الآن، الحلول محل أمريكا بوصفها قوة مطلقة، بشكل منفرد، أو من خلال اتحاد فيما بينها، فإن هذه الدول سوف تصبح من القوة بحيث سيكون بإمكانها إعادة تشكيل نظام عالمي ثنائي القطب أو متعدد الأقطاب.

مع ذلك، يفترض طرح السؤال حول المدة التي تستطيع خلالها الولايات المتحدة البقاء كقوة مطلقة، أن على الولايات المتحدة أن تحاول المحافظة على سيطرتها على العالم. سوف يناقش الفصل الآتي والأخير هذا السؤال. هل على الولايات المتحدة الإبقاء على هيمنتها على العالم؟ هل سيخدم وجود إمبراطورية أمريكية مصالح العالم - أم مصالح الولايات المتحدة نفسها؟

الفصل الثاني عشر

عصر الإمبراطورية

عِبَرٌ من التاريخ

وعند الانتهاء من كافة تحرياتنا نكون قد وصلنا إلى النقطة التي بدأنا منها

وتعرفنا على المكان للمرة الأولى.

- تي. إس. إليوت، Little Gidding

في العالم الأحادي القطب الذي ظهر بشكل مفاجئ في العقد الأخير من القرن العشرين، بدا وكأنه لا يوجد منافس حقيقي أو عدو للقوة العظمى الوحيدة الباقية. كما بدا للعديد من المراقبين أن الخيارات الجيوبوليتيكية قد ولت إلى غير رجعة؛ وأن الأسواق الحرة والديمقراطية مجتمعةً، سوف تغير العالم إلى مجموعة من الأمم المحدثة، والمنتجة، والمحبة للسلام. في غضون ذلك، سوف يتم مرة وإلى الأبد، وضع حد لكل مظاهر الكراهية العرقية والتعصب الديني، وكافة المظاهر الهدامة والمعوقة لعملية التنمية. إنها «نهاية التاريخ»، وحقبة الأعمدة الذهبية بدلاً من الحروب[1]. أما فيما يتعلق بقوة الولايات المتحدة العسكرية، فقد كانت أهم النقاط المثيرة للجدل، والتي دارت حولها نقاشات حامية، تتناول مسألة ما إذا كان على الولايات المتحدة أن تتدخل عسكرياً في الخارج لأسباب إنسانية محضة (كما

كانت الحال في كوسوفو أو رواندا)، كما تناولت أيضاً ما يتعين على الولايات المتحدة أن تقوم به من أجل توزيع «هبات السلم» المتمثلة في مليارات الدولارات التي لن تكون أمريكا بحاجة إلى إنفاقها على مؤسستها العسكرية.

كان هذا التفاؤل بشكل أو بآخر، مؤشراً على الشعور بالارتياح الذي منحته الولايات المتحدة للعالم طيلة القرن العشرين بغض النظر عما حدث في فيتنام، أو المغامرات الفاشلة التي وقعت في مناطق الأزمات المزمنة في أمريكا اللاتينية. هاكم مجتمع يملك قوة تدميرية مذهلة، وتعجز أي قوة في الأرض على الوقوف في وجهه. ومع ذلك، يبدو من المسلم به أن الولايات المتحدة لن تستخدم هذه القوة التي لا يقف في وجهها أحد من أجل اكتساب مزيد من الأراضي، أو من أجل تحقيق غايات إمبراطورية عدوانية.

لم يتبخر هذا التفاؤل اليوم، حتى بعد عشرين سنة على سقوط جدار برلين. وبالرغم من أن أمريكا ما تزال هي القوة المطلقة، فإن الشعور بالارتياح الذي تنشره في الخارج لم تخفّ جذوته أبداً. أما داخل الولايات المتحدة نفسها، فإن الثقة بالمستقبل بدأت تهتز، واجتاحت موجة من الإحساس بالخطر الداهم عقول الناس، سواء كان مبعث ذلك الخوف من هجوم إرهابي، أو من المهاجرين، أو من ركود اقتصادي داهم. لقد غيرت هجمات الحادي عشر من أيلول، وسياسة التدخل العسكري المكثف التي اتبعتها الولايات المتحدة إثر ذلك، المشهد كله.

إمبراطورية أمريكية؟

في شهر أيلول، سبتمبر سنة ٢٠٠٢، أي بعد مرور سنة على وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول، أعلن البيت الأبيض عن إستراتيجية جديدة للأمن القومي. استُهِلّت هذه الإستراتيجية بالتأكيد على ما يأتي: «تحتل الولايات المتحدة اليوم موقعاً ليس له نظير من حيث القوة العسكرية، والتأثير الهائل اقتصادياً وسياسياً.... سوف تستغل الولايات المتحدة هذه المناسبة كي تنشر فوائد الحرية ومزاياها في كل أرجاء العالم.

وسوف نبذل أقصى جهودنا من أجل تحقيق أمل الديمقراطية والتنمية والأسواق الحرة والتجارة الحرة في كل ركن من أركان الكرة الأرضية.» تبدو إستراتيجية الأمن القومي هذه حتى الآن، وكأنها صادرة عن إدارة كلينتون. فقد أعلن الرئيس كلينتون سنة ١٩٩٦ ما يأتي: «لأننا الأمة التي لا يمكن للعالم الاستغناء عنها، يجب علينا أن نبادر، ويجب علينا أن نمارس دورنا في قيادة العالم» [٢].

لكن إستراتيجية الأمن القومي ذهبت إلى أبعد من ذلك. فقد أعلنت أنه لكي يتم إحباط أي هجوم إرهابي آخر، فإن «على الولايات المتحدة عند الاقتضاء، أن تتصرف بطريقة استباقية.» «علينا أن نكون يقظين ومستعدين من أجل وضع حد للدول المارقة وعملائها الإرهابيين قبل ان يكون بمقدورهم تهديدنا بأسلحة الدمار الشامل أو استخدامها ضد الولايات المتحدة وضد حلفائنا.» أخيراً أعلنت إستراتيجية الأمن القومي عن تصميم الولايات المتحدة على المحافظة على دورها كقطب أوحد في النظام العالمي الجديد: «حان الوقت لكي نؤكد من جديد على الدور الأساسي المنوط بالقوة العسكرية الأمريكية. علينا أن نبني قواتنا المسلحة ونحافظ عليها كي تواجه أعتى التحديات. ... سوف تكون قواتنا المسلحة قوية بما يكفي لكي تردع أعداءنا المحتملين عن القيام بأي محاولة بناء ترسانة عسكرية يأملون من خلالها التفوق على قوة الولايات المتحدة أو حتى مجاراتها» [٣].

وجدت هذه اللغة الحماسية أصداء إيجابية لها في مختلف الأوساط داخل الولايات المتحدة وخارجها في الفترة التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول. أيد المحافظون الجدد المعروفون أمثال بول وولفويتز، وريتشارد بيرل، وإليوت أبرامز - وكان لهؤلاء جميعاً تأثير كبير على قرار إدارة بوش شن الحرب على العراق - استخدام القوة العسكرية الأمريكية من أجل الإطاحة بحكومات أنظمة دكتاتورية مارقة، وإبدالها بأنظمة ديمقراطية ستكون على حد زعمهم، مؤيدة لاقتصاد السوق، ومناصرة للأمريكان، ولمبادئ السلام والحرية.

كما أيد الليبراليون النافذون غزو العراق. كتب توماس فريدمان في صحيفة نيويورك تايمز أن «الحرب على العراق إذا ما شُنّت بالطريقة الصحيحة مستخدمة الذرائع الصحيحة» فإنها ستؤدي إلى استقرار الشرق الأوسط، وستفرز هذه الحرب «حكومة محترمة في قلب العالم العربي والإسلامي.» أما كريستوفر هيتشينز الذي ينشر مقالاته في مجلة The Nation منذ زمن طويل، فقد أيد استخدام الولايات المتحدة القوة من أجل استئصال "الفاشية ذات الوجه الإسلامي" [٤]. لم يعد السؤال يدور حول ما إذا كان على الولايات المتحدة استخدام القوة العسكرية في الخارج، بل كيف ستقوم بذلك - أي كيف ستقوم بشن هذه الحروب بصورة انفرادية، أو استباقية، وكيف ستتجاهل مسألة خرق سيادة الدول الأخرى، أو القانون الدولي.

بدأ الحديث عن إمكان قيام إمبراطورية أمريكية يطفو على السطح ويعلو موائد النقاش، وكان ذلك النقاش يتم بصوت مرتفع - داخل الولايات المتحدة وكذلك خارجها - مؤيداً لمثل هذا التوجه بشكل متزايد. بعد مرور شهر على وقوع أحداث الحادي عشر من شهر أيلول، كتب ماكس بوت المحرر السابق لصحيفة Wall Street Journal والخبير الأمني في مقالة شهيرة بعنوان: "قضية الإمبراطورية الأمريكية" ما يلي: "إن أبلغ رد واقعي على الإرهاب يتمثل في قيام الولايات المتحدة بأداء دورها بكل وضوح كقوة إمبراطورية." كما حذّر "ديباك لال" في كتابه المنشور سنة ٢٠٠٤ بعنوان In Praise of Empires من عواقب وخيمة على الصعيد العالمي "في حال لم يعِ الشعب حقيقة العبء الإمبراطوري الذي ألقاه التاريخ على كاهله، أو إذا كان غير راغب في حمل هذا العبء." دعا المؤرخ البريطاني في الفترة نفسها في مقال نشره بمجلة Colossus الولايات المتحدة لأن تتخطى حال "الإنكار الإمبراطوري" الذي تعاني منه، وتتبنى هذا العبء الحضاري والحداثي الذي حملته بريطانيا في القرون المنصرمة[٥].

كانت الدعوة إلى قيام إمبراطورية أمريكية أمراً مفهوماً تماماً، بما في ذلك الاستخدام الفاعل للقوة العسكرية من أجل الإطاحة بالدكتاتوريات وإبدالها

بمؤسسات ديمقراطية تتبنى سياسة الأسواق الحرة. نشرت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قوة عسكرية لا نظير لها من أجل احتلال ألمانيا واليابان وتحويلهما إلى دولتين ديمقراطيتين، وفي الوقت نفسه، اتخذت إجراءات مُنعت بموجبها هاتان الدولتان من أن تشكلا خطراً عسكرياً على الولايات المتحدة في المستقبل. أثبتت هاتان التجربتان اللتان أجريتا في أعقاب الحرب العالمية الثانية -واللتان أدّتا إلى قيام دولتين جديدتين - نجاحاً باهراً. ومع الأخذ بعين الاعتبار الأخطار الرهيبة المتمثلة في الإرهاب، أليس من واجب الولايات المتحدة في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول، استخدام سطوتها العسكرية لنزع أسلحة الدول المارقة في الشرق الأوسط وتحويلها إلى دول ديمقراطية؟ لماذا لا تحذو الولايات المتحدة حذو روما التي استخدمت قوتها المهيمنة على العالم من أجل تحديث وإخضاع أعدائها وتحويلهم إلى شعوب حضارية؟

أعطى الانهيار شبه الفوري لنظام صدام حسين سنة ٢٠٠٣ دفعاً قوياً لأولئك الذين دعوا إلى استخدام فعال للقوة العسكرية الأمريكية من أجل تغيير الأنظمة، وبناء دول ديمقراطية مكانها. ولكن بعد مرور ثلاث سنوات على ذلك، حيث أخذت فاعلية القوة العسكرية الأمريكية في التلاشي التدريجي في العراق، بدأ التأييد الشعبي الكاسح للحرب الذي ترافق مع بداية الحرب ينحسر هو الآخر في الولايات المتحدة بشكل حاد. أكد العديد ممن أيدوا الحرب في البداية من الليبراليين والمحافظين أنهم فعلوا ذلك فقط بسبب التهديد المبالغ فيه من أسلحة الدمار الشامل المزعومة. (٦) سحب بيرل الذي وصف بأنه أحد مهندسي الحرب على العراق، تأييده لهذه الحرب. وانخفض مستوى التأييد للرئيس بوش بين الأمريكيين إلى ٣١ في المئة، كما خسر الحزب الجمهوري سنة ٢٠٠٦ الأغلبية في مجلسي النواب والشيوخ. تبين أيضاً في استطلاع قامت به محطة CBS بعد شهر على ذلك أن ٦٢ في المئة من الأمريكيين يعتقدون بأن إرسال القوات الأمريكية إلى العراق كان خطأ كبيراً [٧].

أغفلت الدعوات لإقامة إمبراطورية أمريكية أمراً في غاية الأهمية: التاريخ. هناك دروس وعبر حول صعود القوى المطلقة وسقوطها في الماضي - وهي عِبَرٌ تعكس

في الوقت نفسه أوجه التشابه والاختلاف بين الولايات المتحدة من جهة، وبين القوى المسيطرة على العالم التي سبقتها من جهة أخرى. كان هناك عبْرَ القرون المنصرمة تغيرٌ بطيء لكنه مؤكد حول معنى القوة المطلقة والشروط الواجب توافرها من أجل أن تصبح قوة ما، مطلقة. يتجلى هذا التغير في أبسط صوره، في التحول من الفتح إلى التجارة، ومن الغزو إلى الهجرة، ومن حكم الفرد الواحد إلى الديمقراطية. في عين الوقت، وبالرغم من هذا التغير، فإن هناك تحدياً جوهرياً لا يمكن إغفاله يتمثل في أن جميع القوى المطلقة تواجه بالضرورة المشكلة التي أطلقت عليها وصف «الغراء». ونظراً إلى أن طبيعة السيطرة على العالم قد تغيرت في أيامنا هذه، فقد كان على الولايات المتحدة أن تواجه هذه المشكلة القديمة بشكل عصري. إنه ذلك المزيج بين القديم والحديث الذي يمسك بمفتاح فهم الاحتمالات التي تواجهها القوة الأمريكية في القرن الحادي والعشرين.

تطور القوى المطلقة

السيطرة الأمريكية على العالم هي نتاج لعملية طويلة من التطور في تاريخ القوى المطلقة. كانت القوة العسكرية والقوة الاقتصادية مرتبطتين مع بعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً في الأزمنة القديمة بشكل مباشر. فكلما قام ذلك المجتمع بفتح أراض أكثر، أضحى أكثر ثراء، إما من خلال فرض الضرائب أو أعمال السلب والنهب، أو الإلحاق والضم، أو فرض الجزية. استولى الملوك الأخمينديون على «أغلى وأثمن الممتلكات» و«المنتجات» في كل مملكة قاموا بفتحها، «سواء مما كانت تنتجه الأرض أو من الحيوانات التي تربى فيها، أو من الأعمال الفنية التي أبدعها حرفيو هذه البلاد أو تلك» (٨). وضع الرومان أيديهم على ملايين من الليرات الفضية والذهبية بعد استيلائهم على "داسيا" لوحدها. أما المغول الذين لم تكن لهم صناعة أو تكنولوجيا خاصة بهم، فقد أصبحوا قوة مطلقة من خلال فتح الأراضي والاستيلاء على ثروات الحضارات الأكثر تقدماً في عالم تلك الحقبة - في بلاد فارس والصين والبلدان العربية.

إذا كان مفتاح الثروة هو القوة العسكرية، فإن مفتاح القوة العسكرية يكمن في التسامح الإستراتيجي. لقد كان التسامح الإستراتيجي العامل الحاسم الذي ساعد القوى المطلقة في العصور القديمة على تشكيل أقوى الجيوش وأعتاها من خلال ضم مئات الآلاف من جنود المشاة الذين تتم هزيمتهم في المعارك إلى صفوف جيوشها، وأيضاً من خلال تجنيد أكثر المحاربين والقادة مهارة، ومن مختلف الخلفيات. شكل المرتزقة الإغريقيون صفوة الجيش الأخمينيدي؛ وكانت الفيالق الرومانية تعج بالليبيين والسوريين والكلدانيين والغاليين والأسبان. أما الصين التانغية فقد مدت نفوذها إلى أفغانستان وسمرقند وطشقند بعد أن ضمنت ولاء فرسان السهوب «البرابرة». وما كان للمغول أن يقتحموا المدن المحصنة تحصيناً عظيماً في وسط آسيا وأوروبا لولا قيامهم بضم المهندسين الصينيين الذين بنوا لهم أدوات الحصار الضخمة إلى صفوفهم.

مع انبلاج فجر العصر الحديث، بقيت السيطرة الاقتصادية بحاجة إلى القوة العسكرية، لكن المقاييس بدأت في التغير. أضحت القوة البحرية أكثر أهمية. ومع بداية القرنين الرابع عشر والخامس عشر، زاد التقدم التكنولوجي بشكل كبير من مدى سيطرة أقوى المجتمعات وأكبرها. أصبحت مناجم الذهب والفضة في أقاصي الأمريكيتين، وتجارة البهارات والتوابل في منطقة الإنديز، والسكر الكاريبي، والاتجار بما اصطلح على تسميته البضائع الثمينة - مثل القهوة والشاي والكاكاو والنسيج والتبغ والجواهر والمواد الثمينة الأخرى من مناطق البلطيق مروراً بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، وصولاً إلى أفريقيا - الجوائز الجديدة التي تدر أرباحاً طائلة. فجأة، صار مفتاح الثروة والسيطرة على العالم يتمثل في الاستيلاء على طرق الملاحة البحرية، كما أثبت ذلك كل من البريطانيين والهولنديين.

ولكن في الوقت الذي تحولت رافعة الثروة العالمية من البر إلى البحر، ومن الفتوحات العسكرية إلى التجارة، بدأت العلاقة بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية بالتحول أيضاً. لم يعد الغزو العسكري أو الاحتلال أو الضم بالقوة من المتطلبات الأساسية المسبقة التي لا بد لأي قوة مطلقة من تحقيقها بغية استيلائها

على الثروات الموجودة في أقاصي الأرض. فالفتوحات والسيطرة على تلك المناطق مكلفة جداً بينما تُعد السيطرة من خلال التجارة أكثر فاعلية وأقل كلفة.

هذا هو الدرس الذي بدأ الرومان باستيعابه بعد دفع ثمن باهظ قبل ألف سنة من الآن. كان فتح منطقة داسيا (١٠١-١٠٦م) المرة الأخيرة التي جنا منها الرومان في الواقع أرباحاً طائلة عن طريق فتح البلدان الأجنبية ونهب ثرواتها. ومع ذلك، فإن روما التي تتكون من «مجتمع معد لأن يكون مجتمعاً حربياً، والتي يتوق أبناؤها الذكور إلى القيام بأعمال عسكرية» استمرت في الدفع بفيالق جيوشها الهائلة للقيام بفتوحات من أجل التوسع حتى بعد أن أثبتت هذه الحروب أن كلفتها أعلى بكثير من الفوائد التي تجنيها مقابل ذلك[٩].

مالت كفة الميزان لصالح التجارة على حساب الفتوحات بالنسبة للجمهورية الهولندية. تخلت الإستراتيجية الهولندية المتعلقة بالسيطرة العالمية بشكل غير مسبوق عن فكرة الفتوحات والتوسع الجغرافي. كانت معظم مناطق «الإمبراطورية» الهولندية في الأمريكيتين وأفريقيا وجنوب شرق آسيا (باستثناءات قليلة مثل جزيرتيْ جاوا وسيلان) مجرد قواعد تجارية متقدمة ذلك أن الهولنديين تركوا سكان البلاد الأصليين وشأنهم حيث استمر هؤلاء في ممارسة حياتهم الاعتيادية في مدنهم [١٠]. هذه القواعد المتقدمة كانت تحت حماية القوات البحرية الهولندية الشديدة المراس، والتي فعلت أفضل ما بوسعها من أجل ردع التجار المنافسين من أوروبا عن الدخول إلى مجالهم الحيوي، وتأمين سيطرة الجمهورية الهولندية على هذه المنابع التجارية المدرة للكثير من الأرباح.

كانت مسألة التسامح الإستراتيجي بالنسبة للهولنديين ذات أهمية قصوى لتحقيق سيطرتهم العالمية، تماماً كما كان الأمر بالنسبة للقوى المطلقة القديمة؛ إلا أن التسامح الهولندي بدأ يأخذ بعداً عصرياً جديداً كل الجدة. كان التسامح بالنسبة إلى الأقدمين يعني ممارسة التسامح تجاه الشعوب المستعمَرة: أي ترك هذه

الشعوب وشأنها في ممارسة عاداتها والتكلم بلغاتها الأصلية واستمالة نخبها الفكرية واستقطاب حرفييها وتجنيد محاربيها. أما التسامح الهولندي فقد حول هولندا نفسها إلى مركز استقطاب ليس فقط للشعوب المستعمَرة، بل للأقليات المضطهَدة دينياً من كافة أنحاء أوروبا. أصبحت أمستردام في القرن السابع عشر أكثر المدن عالمية في العالم بأسره - أي أنها تحولت إلى «بوتقة حقيقية» صار فيها «الفلامينغيون والوالونيون والألمان والبرتغاليون واليهود الألمان والهوغونيون الفرنسيون هولنديين بالفعل»[11]. أضحت الجمهورية الهولندية مركزاً للتجارة العالمية والصناعة والمال، وذلك بفضل الإسهامات المباشرة التي قدمها المهاجرون.

فتحت الجمهورية الهولندية الباب مدة وجيزة في التاريخ، أمام نوع جديد من السيطرة العالمية لم يكن لمظاهر الفتوحات العسكرية والاستعمار فيها سوى أثر يكاد لا يذكر. لكن القوة المطلقة التي أعقبت الجمهورية الهولندية، واحتلت المسرح العالمي، وأعني بها بريطانيا العظمى، لم تكن خليفة لروما بمقدار ما كانت خليفة لهولندا. فقد عرفت إنجلترا - شأنها في ذلك شأن هولندا - بتسامحها داخل حدودها، وأصبحت بسبب ذلك مركز اجتذاب للمهاجرين الهاربين من الاضطهاد الديني في البلدان المجاورة. ولكن بعكس الهولنديين، أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها المهمة نفسها التي قامت بها روما، والمتمثلة بالتوسع وتمدين الشعوب التي تستعمرها. دأب البريطانيون على فرض حكمهم على المناطق الشاسعة التي وضعوا أيديهم عليها، وكذلك سن التشريعات التي حكموا بها سكان هذه المناطق. لم تكن فيكتوريا ملكة لإنجلترا وحسب، بل كانت أيضاً إمبراطورة الهند. في الوقت ذاته، أعاد البريطانيون اكتشاف الوصفة القديمة للتوسع الإمبراطوري حيث استخدموا مبدأ التسامح الإستراتيجي مطية لحشد جيوش هائلة الحجم تتكون في معظمها من مئات آلاف الجنود من سكان الهند الأصليين والمناطق المستعمَرة الأخرى.

اختارت الولايات المتحدة اتباع الطريق التي مشى عليها الهولنديون. حوّلَ التسامح الأمريكي -تماماً كمثيله الهولندي في القرن السابع عشر- الولايات

المتحدة إلى مركز استقطاب للمهاجرين، وكذلك لآخرين يبحثون عن فرص أفضل. وبالرغم من أنه كانت للولايات المتحدة طموحاتها الإمبراطورية الخاصة، وبالرغم من أن توسعها غرباً كان يعتمد إلى حد ما، على قوتها العسكرية، فإن المفتاح الحقيقي لنجاح الولايات المتحدة كان يتمثل في قدرتها على اجتذاب أفراد موهوبين مدفوعين بروح المغامرة وحب الاستثمار من كافة الخلفيات، ومكافأتهم. كان وقود الثروة في أمريكا منذ البداية يتمثل في مبدأ الهجرة، وحب الابتكار وهو ما وفر للولايات المتحدة رأسمال بشري لا ينضب معينه؛ وقد أثبت رأس المال هذا أنه العامل الحاسم في العصور الصناعية والذرية والكومبيوترية. من المهم في هذا السياق ملاحظة أن الولايات المتحدة هي قوة مطلقة وفق النموذج الهولندي؛ إلا أنها أخذت منحى جديداً كلياً، وأبعاداً أكثر عَظَمَة من مثيلتها الهولندية. فالجمهورية الهولندية استقبلت المهاجرين بينما الولايات المتحدة هي أمة من المهاجرين - ومن ثَم فهي أمة المهاجرين الوحيدة في التاريخ التي تتبوأ موقع السلطة المطلقة. إضافة إلى ذلك، بنت الولايات المتحدة، مثلها مثل الجمهورية الهولندية، بل وأكثر منها، سيطرتها العالمية ليس عن طريق الفتوحات، بل عن طريق التجارة.

تاريخياً، كان البريطانيون «ينصبون العلم البريطاني في كل المناطق» التي يقومون باحتلالها. أما أمريكا، «فقد أقنعت نفسها ببناء شكل من أشكال ... الإمبراطورية في البحار - أي إمبراطورية غير معلنة مبنية على أساس من التجارة والنفوذ» خلال أغلب مراحل القرن التاسع عشر[١٢]. لاحظ المؤرخ روبرت إمرسون سنة ١٩٤٢ أنه «باستثناء مدة قصيرة من النشاط الإمبراطوري خلال الحرب الأمريكية الأسبانية، فإن الأمريكيين أظهروا نفوراً شديداً لفكرة غزو مناطق بعيدة عن الولايات المتحدة، أو القيام بحكم الشعوب الأخرى.» (١٣)

كتب جون ستيل غوردون مؤخراً: «إذا بدأ العالم "يتأمرك" بشكل متسارع كما أصبح رومانياً يوماً ما، فالسبب وراء ذلك ليس الأسلحة التي بحوزتنا، بل لأن الآخرين يريدون الحصول على ما حصلنا عليه، ويرغبون، لا بل يتوقون إلى تبني طرق معيشتنا كي يكون بمقدورهم الحصول عليها أيضاً.» اللغة الإنجليزية هي

اللغة السائدة عالمياً في أيامنا هذه؛ لكن مرد ذلك ليس الخطر الذي تمثله الطائرات القاذفة من طراز "ستيلث"، بل قوة الدولار الأمريكي. وبالرغم من المخزون النووي المرعب الذي تمتلكه الولايات المتحدة «فإن قوتها الحقيقية» - تماماً كما كانت عليه الحال في الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر - تكمن «ليس في قوتها العسكرية، بل في ثروتها» (١٤).

وهكذا، فإن الولايات المتحدة تمثل تتويجاً لتطور مفهوم القوى المطلقة. قديماً، كانت الطريقة الوحيدة التي يتحول بموجبها أي مجتمع إلى أكثر المجتمعات ثراء في العالم تتم من خلال الفتوحات العسكرية. وفي الوقت الذي ما تزال الروابط بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية في يومنا هذا مهمة، إلا أنها آخذة في التلاشي التدريجي؛ ذلك أنه لا يوجد حتى بين أكثر مؤيدي عسكرة أمريكا تشدداً، من يدعو إلى ضم مناطق أجنبية إلى الولايات المتحدة. أثبت الواقع الملموس أن التجارة وروح المبادرة، وليس النهب أو مصادرة الملكية، هما أهم عوامل خلق مصادر الثروة. في الوقت نفسه، تغير وجه التسامح الإستراتيجي مع حلول الهجرة محل الفتوحات كأهم طريق يستطيع من خلالها المجتمع اجتذاب أصحاب أهم المواهب في العالم وأكثرها ذكاء.

إذاً، ما يدعو إلى التفاؤل هو احتمال ظهور شكل جديد من أشكال السيطرة العالمية في العالم المعاصر، لا يعتمد المظاهر العسكرية، ويمكّن الولايات المتحدة - كقائدة اقتصادية وتكنولوجية للعالم، لا السيدة العسكرية للعالم - من أن تكون النموذج المحتذى في العقود القادمة. إلا أن هناك ما لا بد من التوقف عنده. فبسبب هذا التحول في المفهوم المتعلق بمعنى عبارة "القوة المطلقة" نجد أن الولايات المتحدة ليست مهيأة كما يجب لمواجهة واحد من أهم التحديات التي واجهتها جميع القوى المطلقة في التاريخ - وستواجه بالتأكيد أي قوة مطلقة في المستقبل.

القوة المطلقة الديمقراطية ومشكلة «الغِراء» المزمنة

الولايات المتحدة ليست الأمة الأولى من المهاجرين التي تتحول إلى قوة مطلقة وحسب؛ بل هي الديمقراطية العالمية الأولى (حيث حق الاقتراع مكفول لكافة مواطنيها) التي تتحول إلى قوة مطلقة. هذه ليست مصادفة. فبالرغم من كل السلبيات التي تعاني منها الديمقراطية في أمريكا، فإن هذه الديمقراطية التي تشكل مصدر قوة أمريكا وحريتها، أصبحت ذات جاذبية عظيمة للأمم الأخرى. فالنظام الديمقراطي الأمريكي في الحكم (تماماً كنظام السوق الذي يتميز بالانفتاح النسبي، والذي يوفر الفرص لأي من أفراده لجني الثروة)، يشكل جزءاً من النموذج الحديث للتسامح الإستراتيجي؛ ذلك أنه يوفر فرصاً متساوية للأمريكيين من أي خلفية أو معتقد أو لون - وبغض النظر عن متى أصبح هؤلاء، أو عائلاتهم، أمريكيين - للمشاركة في صنع القرار السياسي والارتقاء على سلم السلطة السياسية. ومن ثَم، يجب التأكيد على أن الديمقراطية جزء من العوامل التي جعلت من أمريكا قوة مطلقة.

لكن الديمقراطية تفرض قيوداً على أمريكا لم تكن القوى المطلقة القديمة تواجهها. فالدعوة إلى قيام إمبراطورية أمريكية غالباً ما تؤدي إلى مقارنة بين الولايات المتحدة وروما؛ وهي مقارنة معقولة من عدة أوجه. فلم تكن روما عملاقاً اقتصادياً وعسكرياً في زمانها وحسب، بل كانت كذلك «متعددة الثقافات» بطريقة مدهشة، ومتسامحة عرقياً ودينياً وهي في أعظم مراحل قوتها وجبروتها. في الوقت نفسه، كانت روما الوحيدة بين كل الإمبراطوريات القديمة، التي قدمت رزمة ثقافية متكاملة كانت موضع تقدير هائل من قبل الشعوب التي كانت ترزح تحت سلطتها - باستثناء طبقة العبيد على الأقل. تقوم الولايات المتحدة اليوم بتقديم رزمة ثقافية مشابهة - سراويل الجينز الزرقاء، ولعبة البيسبول، والهيب هوب، وهوليوود، والأطعمة السريعة وغيرها - ذات جاذبية عالية للملايين، إن لم نقل للمليارات من البشر في كافة أنحاء العالم.

ولكن روما كانت تمتاز عن أمريكا بميزة إضافية كما لاحظنا: فقد جعلت الشعوب التي استعمرتها جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. فالشعوب التي استعمرتها روما من إسكتلندا إلى أسبانيا إلى غرب أفريقيا، أصبحت رعايا لأعظم قوة في الأرض. الأهم من ذلك، أن روما حولت العديد من الرجال الذين استعمرت بلدانهم سواء كانوا من النخبة أو الناس العاديين إلى مواطنين رومان يتمتعون بالمزايا الرفيعة نفسها والامتيازات التي تمنحها المواطَنة لكل حامليها.

ليس بإمكان الولايات المتحدة أن تقوم بشيء مشابه لذلك. ونظراً إلى كونها دولة ديمقراطية بالتحديد، لا تحاول الولايات المتحدة، أو لا ترغب في تحويل الشعوب الأجنبية إلى رعايا لها - وبالتأكيد لا تتطلع إلى إعطائهم حق المواطنة. عندما يتخيل الأمريكان أن بإمكانهم اصطحاب مؤسسات الولايات المتحدة وديمقراطيتها إلى الشرق الأوسط، فلا يعني ذلك أنهم يتوقعون أن يقوم سكان بغداد أو الفلوجة بالتصويت في الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة. حتى عندما تقوم الولايات المتحدة بغزو بلدان أخرى واحتلالها، فإن هدفها من ذلك ليس أبداً ضم هذه البلدان إلى الولايات المتحدة، بل على الأقل ظاهرياً، سحب قواتها العسكرية في نهاية المطاف، تاركة وراءها بلداً يتمتع بالديمقراطية الدستورية (وتأمل أن تكون حكومة هذه البلاد الجديدة موالية للأمريكيين).

خلال حقبة الحرب الباردة، شكل دعم الولايات المتحدة للحركات الديمقراطية في كل أنحاء العالم، خصوصاً في حقبة الثمانينيات من القرن العشرين، جزءاً من إستراتيجية عامة هدفها مقاومة النفوذ السوفيتي. كانت هذه الإستراتيجية تتضمن نشر ثقافة الليبرالية الاقتصادية بالتزامن مع التبشير بالمؤسسات الديمقراطية. في تلك الفترة كانت الحساسية ضد أمريكا كقوة عظمى خفيفة نسبياً، ربما لأنها كانت تمثل بديلاً واضحاً للنظام القمعي الذي كان الاتحاد السوفيتي يمثله. أدى انهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثل عقبة كأداء في وجه انتشار ديمقراطية السوق الحرة، إلى جعل بقية دول العالم أكثر تقبلاً لفكرة زعامة الولايات المتحدة للعالم.

لكن النتيجة التي شكلت مفارقة لافتة، تمثلت في أن «السيطرة الديمقراطية على العالم» التي تزعمتها الولايات المتحدة، تحولت إلى كراهية ممزوجة بالغضب تفشت في كل أنحاء العالم ضد الولايات المتحدة. أمريكا اليوم تجد نفسها في مواجهة مع مليارات من البشر في كافة أنحاء العالم، أغلبهم من الفقراء الذين يعرفون أن الدولار الأمريكي هو أكثر العملات سيطرة في السوق العالمية، وأن اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة في العالم، وأن الشركات الأمريكية هي الأقوى والأكثر نفوذاً في العالم، وأن البضائع الأمريكية هي الأكثر انتشاراً والأكثر جاذبية في العالم. أمريكا في نظر مليارات من البشر هي نقيض لما هم فيه وعليه. فهم فقراء ومستغَلّون ولا حيلة لهم، وغالباً لا يستطيعون حتى تقرير مصير عائلاتهم. أمريكا في أعينهم هي الغنية والمعافاة والرائعة والواثقة من نفسها والمستغِلة - هذا إذا اعتبرنا أن هوليوود وشركاتنا المتعددة الجنسية وقادتنا هم الذين يمثلون الوجه الحقيقي لأمريكا. أمريكا هي أيضاً دولة «كلية القدرة» بإمكانها «السيطرة على العالم»، سواء عن طريق القوة العسكرية أو صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي، أو القوة الاقتصادية الهائلة التي بحوزتها. باختصار، تشعر أعداد كبيرة من الناس في كافة أنحاء العالم بأنهم تحت سيطرة الولايات المتحدة من دون أن يكون بينهم وبينها أي روابط أو مواثيق.

تلك إذاً هي المعضلة التي تواجهها الولايات المتحدة. نجحت الولايات المتحدة مع مرور الوقت، داخل حدودها في التأسيس لهوية سياسية محايدة لا تشوبها أي شوائب عرقية أو دينية، واستطاعت هذه الهوية توحيد الأمريكيين من مختلف الخلفيات من كل أصقاع الأرض. لكن أمريكا لا تفرض قوتها على الأمريكان وحسب. أما خارج حدود الولايات المتحدة، فلا وجود لأي نوع من أنواع الغِراء السياسي يربطها إلى مليارات الناس الذين يعيشون في ظلها.

المشكلة التي تواجهها الولايات المتحدة قديمة قدم الإمبراطورية نفسها. ولم تستطع أولى القوى المطلقة في التاريخ، وهي إمبراطورية فارس الأخمينديـة حل هذه

المشكلة. ففي الوقت الذي توسعت فيه الإمبراطورية الأخميندية، كان لا بد أن تخضع شعوباً إضافية من عرقيات وخلفيات متشعبة بقيت محافظة على خصائصها المجتمعية في ظل سيطرة حكامها الفرس. لم تكن للإمبراطورية الأخميندية أي رؤى حول هويتها السياسية؛ ولم يكن يبقي على تماسكها سوى القوة العسكرية. في واقع الأمر، كان التسامح الذي سهّل على الأخمينديين بناء آلتهم الحربية الفائقة القوة، هو ما شجع الشعوب المستعمَرة بمختلف أطيافها، على المحافظة على لغاتها، وهوياتها وميولها السياسية. وبعد أقل من قرن على إنشائها، تعرضت الإمبراطورية للتشرذم والتقسيم بسبب المتمردين الانفصاليين. وعندما بدأ الإسكندر المقدوني، القائد الأقوى والمليء بالحيوية باكتساح تلك المنطقة، قامت النخب الموجودة في كافة أرجاء الإمبراطورية الأخميندية بنقل ولائها إلى الإسكندر، هكذا بكل بساطة. لا يمكن تسميتهم خونة لأنهم لم يكونوا يوماً مواطنين.

واجه المغول المصير نفسه. نجح جنكيز خان من خلال تطبيقه لمبدأ التسامح الإستراتيجي في تكوين شعب موحد يضم القبائل المتناحرة في السهوب المغولية. وهو بذلك استطاع تحقيق ما لم يتمكن سايروس العظيم من تحقيقه أبداً؛ ذلك أنه أسس لهوية سياسية لأبناء شعبه. لكن هذه الهوية - الأمة المغولية العظيمة، أو «شعب الجدران المصنوعة من اللباد» - لم تتجاوز حدود سهوب البدو. أما ما وراء السهوب، فلم يكن للسكان الخائفين الذين يعانون من الازدراء، والذين أخضعهم المغول بقوة السلاح، أي شكل من أشكال الارتباط بالإمبراطورية التي ابتلعتهم. على العكس من ذلك، تبنى خانات المغول وأفراد حاشيتهم الهويات الثقافية للشعوب التي استعمروها والتي كانت تبزهم في الحضارة مثل خوبيلاي خان الذي تماهى مع الثقافة الصينية وأسس سلالة حكم صينية، أو المغول في آسيا الوسطى الذين اعتنقوا الإسلام. كانت جيوشهم الأقوى في العالم، ولكن من دون أن تكون لهم هوية مشتركة تشدهم إلى بعضهم بعضاً، خصوصاً وأنهم ينتمون إلى مكونات ثقافية غير متجانسة، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تفتت الإمبراطورية المغولية بسرعة وانقسامها إلى ممالك أربع، قبل أن تنهار جميعها بالكلية.

تقدم إمبراطورية الصين التانغية مثالاً آخر. تعتبر قصة التانغيين بشكل أو بآخر صورة معكوسة عن التجربة المغولية. كان الأباطرة التانغيون الفاتحون هم الأكثر حضارة ورقياً. وتجلت عبقريتهم في الانتصار على«البرابرة» الذين يستوطنون خارج أسوار الصين، والذين يتصفون بالشراسة الشديدة، ومن ثم إخضاعهم، وترويضهم في نهاية المطاف.

أكثر ما كان يلفت الانتباه في الأباطرة التانغيين الأوائل محاولتهم إنشاء إمبراطورية عالمية يكون فيها الصينيون والبرابرة متساوين على الأقل من الناحية النظرية. لكن العرض السياسي الذي قدمه الأباطرة التانغيون لرعاياهم من غير الصينيين كان من الضعف بحيث لم يستطع الحفاظ على تلك الجماعات غير المتجانسة التي سعى التانغيون إلى فرض سيطرتهم عليها- مثل التيبيتيين والسوغديانيين والأتراك والمسلمين والزرادشتيين والنيسطوريين. كما كانت الحال بالنسبة للأخميننديين، انقلب تسامح الحكام التانغيين في نهاية المطاف ضدهم؛ فنظراً إلى أن التانغيين لم يحاولوا فرض الهوية «الهانية» الصينية على رعاياهم من غير الصينيين، فقد أبقوا على تماسك الجماعات التي تمثل أقليات فرعية كبيرة ترتبط ببعضها بعضاً من خلال وشائج ثقافية وعرقية ودينية واضحة المعالم. وعندما وصلت الإمبراطورية التانغية إلى أوج قوتها، بدأت الحركات الانفصالية من قبل الشعوب غير الصينية بالانتشار في المناطق الحدودية على وجه الخصوص. كما انقلب القادة العسكريون المنحدرون من أصول عرقية أجنبية على سادتهم الصينيين بشكل مطرد.

من بين جميع القوى المطلقة في التاريخ، استطاعت روما أن تقترب كثيراً من إيجاد حل للمشكلة من خلال إنشاء هوية جديدة قادرة على إنتاج الشعور بالولاء لروما من قبل رعاياها الذين يعيشون في مناطق بعيدة (وهو ما يفسر إلى حد بعيد العمر المديد لهذه الإمبراطورية). استطاعت روما من خلال طرحها لهذه الرزمة الثقافية التي لاقت استحسان رعاياها، ومنحها الجنسية الرومانية للإغريق والغاليين والبريطانيين والأسبان، أن تحول هؤلاء الرعايا الذين ينتمون إلى خلفيات متنوعة

ويعيشون في قارات بعيدة عن بعضها بعضاً، إلى مواطنين رومان. وبعد مرور ألف وخمسمئة سنة على ذلك، نجحت بريطانيا في القيام بشيء مماثل. ففي تسعينيات القرن التاسع عشر، كان أعضاء حزب المؤتمر الهندي يهتفون كلما ذكر اسم الإمبراطورة فيكتوريا. كما قاتل مئات آلاف الجنود الهنود إلى جانب البريطانيين في الحرب العالمية الثانية، حتى إن أشخاصاً مثل غاندي ونهرو، وهما آخر كبار قادة حركة الاستقلال كانا مواليَيْن جداً للتاج البريطاني في مراحل حياتهما السياسية الأولى، وكانا يريان نفسيهما «بالدرجة الأولى، مواطنَيْن بريطانيين ينتميان إلى إمبراطورية بريطانيا العظمى»[١٥].

لكن عملية الدمقرطة داخل بريطانيا وخارجها أوقعت الإمبراطورية في بعض المطبات في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ففي الوقت الذي كان البريطانيون يناضلون من أجل نشر حق الاقتراع داخل الجزر البريطانية، فإنهم لم يكونوا يملكون أي آلية أو أي اهتمام لتحويل ما يربو على ٢٥٠ مليون هندي، أو أي رعايا للإمبراطورية من غير البيض إلى مواطنين بريطانيين ممن يحق لهم الاقتراع. وفي النهاية، كانت تلك القيود المفروضة على التسامح البريطاني، بالإضافة إلى الكلفة المتزايدة لحكم هذه الإمبراطورية الشاسعة، وتزايد المطالبة بحق تقرير المصير بعد الحرب العالمية الثانية، هي التي أدت في نهاية المطاف إلى انهيار هذه الإمبراطورية.

هناك اعتراف عالمي واسع مع بداية القرن الحادي والعشرين بحق جميع الأمم في حكم نفسها بنفسها بالرغم من أن هذا الحق لا يطبق دائماً. وكنتيجة تتضمن الكثير من المفارقة، تجدر ملاحظة أن هناك أوجه تشابه كبيرة بين أمريكا في علاقتها بالشعوب التي تسيطر عليها، وإمبراطورية فارس الأخمينيدية في علاقتها برعاياها، أكثر بكثير من التشابه مع روما أو بريطانيا العظمى. ففي ظل الهيمنة الفارسية منذ ألفين وخمسمئة سنة، «كان الإغريقي يشعر بأنه إغريقي، وكان يتكلم الإغريقية»، كما أن «المصري كان يشعر أنه مصري ويتكلم اللغة المصرية»[١٦]. وهكذا هي الحال اليوم، في ظل هيمنة القوة الديمقراطية المطلقة الأولى في العالم.

الخطأ الفادح الذي وقع فيه المنادون بإقامة إمبراطورية أمريكية يتمثل في الافتراض بأن الانتشار العالمي للأسواق الحرة، والديمقراطية، والمنتجات الأمريكية، والعلامات التجارية الأمريكية، والثقافة الاستهلاكية الأمريكية، سوف يؤدي في المحصلة إلى «أمركة» الأمم الأخرى من خلال إيجاد قيم مشتركة، وحتى رغبة في الانضواء تحت الزعامة الأمريكية. لكن هذا الافتراض كان من السذاجة بحيث إنه تصور أن العراقيين "المحَرّرين" سوف يقابلون القوات الأمريكية بالحلوى والورود. لا يتخيلن أحد أن الفلسطيني الذي يعتمر قبعة بيسبول ويشرب الكوكاكولا، يمكن أن يتحول إلى أمريكي.

أنْ تجعل قوة صاعدة من نفسها ملاذاً آمناً للمضطهدين شيء، وأن تفرض مؤسسات التسامح فيها كمثال يحتذى على العالم أجمع، شيء آخر تماماً. الأمر يختلف تماماً لو حاول المهيمن العالمي أن يأخذ على عاتقه مهمة نشر هذه المؤسسات أو فرضها على بقية العالم من دون أن تترافق تلك المهمة مع منح الجنسية الأمريكية للسكان الأجانب، أو على الأقل، خلق هوية سياسية مشتركة معهم. ومما أثار حنق العديد من أصحاب النوايا الحسنة من الأمريكيين، أن محاولات الولايات المتحدة مؤخراً تصدير مفهوم التسامح الغربي، بما في ذلك الأسواق الحرة والديمقراطية قد استفزت مشاعر الملايين في شتى أنحاء العالم، وأحيانا أعمال عنف غاضبة ضد الولايات المتحدة من قبل الملايين الذين يرون في ذلك توجهاً إمبريالياً، وتهديداً لأنماط حياتهم.

مشاعر العداء لأمريكا أكثر حدة في الشرق الأوسط الإسلامي منها في أي مكان آخر بالطبع. يُصَوّرُ العم سام هناك كمخلوق ملطخ بالدماء، أسنانه كأسنان سمك القرش، ويقتات على لحم أبناء المسلمين. شنت الأميرة السعودية ريم الفيصل، وهي حفيدة الملك الراحل فيصل، هجوماً لاذعاً مؤخراً على الأمريكيين قائلة: «ألا تخجل أمريكا من النظر في وجه بقية العالم ... لقد حان الوقت كي يعترف الأمريكيون بجرائمهم ويعتذروا، لا بل يطلبوا السماح والغفران من العديد من الشعوب التي

ألحقوا بها أفدح الضرر. ... يجب على الولايات المتحدة مغادرة العراق بعد أن تعتذر عن موت أكثر من مليون عراقي تسببت هي في موتهم بسبب الحصار غير القانوني والجائر الذي ضربته حولهم، وبعد شن تلك الحرب الاستعمارية التي ليست في أفضل حالاتها سوى مهزلة، أما في أسوئها، فهي جريمة موصوفة.» حتى النخب المؤيدة لاقتصاد السوق في أمريكا اللاتينية من أمثال أوسكار آرياس سانشيز الحائز على جائزة نوبل، والرئيس السابق لدولة كوستاريكا، يحتج قائلاً: «إن أمريكا تريد أن تملي على العالم ما تريده له أن يفعله. أنتم تماماً مثل رومان الألفية الجديدة»[١٧]. لا تقتصر مشاعر السخط وانعدام الثقة تجاه أمريكا على الدول النامية، بل تتعداها إلى العالم المتقدم. ففي استطلاع للرأي أجري سنة ٢٠٠٥، في خمس عشرة دولة رئيسة خارج الولايات المتحدة، تبيّنَ أن غالبية المستطلعة آراؤهم (في المجموع العام، وكذلك في كل دولة على حدة) يفضلون «بروز قوة أخرى تشكل تحدياً للتفوق العسكري الأمريكي على الصعيد العالمي»[١٨]. وبحسب استطلاع قامت به محطة BBC سنة ٢٠٠٧، فإن واحداً وخمسين في المئة من المستطلعة آراؤهم من مختلف أنحاء العالم عبروا عن اعتقادهم بأن "الولايات المتحدة تمارس نفوذاً سلبياً على العالم،" كما صنّفوا أمريكا في موقع أقل أفضلية بكثير من كوريا الشمالية أو روسيا أو فنزويلا[١٩].

مع ذلك، لا يقف الناس في مختلف أنحاء العالم في طوابير طلباً للهجرة إلى كوريا الشمالية أو روسيا أو فنزويلا. الحقيقة أن مواقف الناس من الولايات المتحدة، خصوصاً في المناطق الأكثر فقراً في العالم، تتميز بالانفصامية العميقة - وهي مزيج متناقض من الإعجاب والحسد من جهة، والكراهية العميقة والاحتقار من جهة أخرى. يعتبر الملايين من البوليفيين والنيجيريين والمغاربة والإندونيسيين في كل أنحاء العالم أن أمريكا متعالية، وجشعة، وواعظة منافقة - ولكنها أيضاً المكان الذي يرغبون في التوجه إليه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. لخص أحد الطلبة الصينيين هذا الموقف من أمريكا بشكل طريف. فبعد مضيّ عدة أسابيع على مشاركته طلاباً

آخرين في مظاهرة أمام السفارة الأمريكية في بيجين قذفوا خلالها السفارة بوابل من الحجارة، عاد إلى السفارة طالباً سمة دخول إلى الولايات المتحدة. عبر في مقابلة أجراها معه مندوب U.S. News & World Report عن رغبته في الالتحاق بإحدى كليات الدراسات العليا في أمريكا قائلاً: "لو استطعت الحصول على فرص أفضل في الولايات المتحدة، فلن أعارض كثيراً الهيمنة الأمريكية" [٢٠] .

هل بإمكان قوة ديمقراطية مطلقة كالولايات المتحدة الدخول في اتحاد سياسي مع الشعوب التي تفرض عليها الهيمنة في شتى أرجاء العالم؟ من الناحية الواقعية، يصعب تصور كيف يمكن لأمر كهذا أن يحدث. فلكي يتم هذا، لا بد للولايات المتحدة إما أن تتخلى عن هويتها الوطنية وسيادتها، أو عن مكانتها كقوة مطلقة.

بإمكان الولايات المتحدة من الناحية النظرية أن تعرض على كل دولة من دول العالم فرصة أن تصبح ولاية أخرى من الولايات الأمريكية. ربما تقبل بعض الدول أن تفعل ذلك. ولكن لنتصور على سبيل المثال أن ١٩٠ مليون برازيلي و٢٣٤ مليون إندونيسي أصبحوا مواطنين أمريكيين، عندها بالتأكيد ستتحول الولايات المتحدة إلى دولة أخرى مختلفة تماماً. على أي حال، هذا الخيار مستحيل من الناحية السياسية.

تستطيع الولايات المتحدة أيضاً أن تتوارى خلف حكومة عالمية ديمقراطية جديدة تحكمها مؤسسات عالمية تحت مظلة القانون الدولي. ضمن مثل هذا السيناريو الافتراضي، ستكون هناك قوة مطلقة، إلا أن تلك القوة المطلقة لن تكون الولايات المتحدة، بل الحكومة العالمية التي تخلت لها الولايات المتحدة عن سلطتها. هناك العديد من المثاليين الذين يحبذون فكرة قيام حكومة من هذا النوع؛ ولكن في الوقت الحاضر - خصوصاً مع وجود المشكلات التي تعاني منها الأمم المتحدة والمؤسسات العالمية الأخرى - فإن مثل هذا السيناريو يبدو غير واقعي البتة.

في واقع الأمر، تحولت الولايات المتحدة إلى الاتجاه المعاكس لذلك تماماً بعد

أحداث الحادي عشر من أيلول. فقد رفضت خلال السنين القليلة الماضية الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية، وانسحبت من اتفاقية "كيوتو" حول التغيير المناخي، وقامت بغزو العراق من دون تفويض من الأمم المتحدة، أو دعم من حلفائها التقليديين في الناتو مثل فرنسا وألمانيا وكندا. لم تحسّن هذه الأفعال من وضعية الولايات المتحدة أو صورتها في العالم. الأحادية هي قضية إشكالية بالنسبة إلى القوة المطلقة الديمقراطية؛ ذلك أن أحداً لا يتوقع أن يقوم الإسكندر الكبير أو جنكيز خان بمنح الأمم الأضعف فرصة للتعبير عن رأيها في القضايا الدولية. ولكن يفترض في القوة المطلقة الديمقراطية أن تعترف بالمبدأ القائل بأن الجميع في العالم لهم الحق في المشاركة وتقاسم مصادر الثروة والازدهار في مجتمع عالمي. ومن سوء حظ الولايات المتحدة أن الانطباع السائد في كل أنحاء العالم يشير إلى أن الولايات المتحدة لا تبدي أي احترام لهذا المبدأ.

آخر المُهيمنين

إلى أين سيقود هذا كله الولايات المتحدة؟ جميع العوامل التي نوقشت حتى الآن - دروس الماضي وعِبَره، وكذلك أوجه العوامل الجديدة - تشير إلى اتجاه واحد ووحيد: رفضٌ لقيام إمبراطورية أمريكية.

نظراً إلى أن الولايات المتحدة هي أمة المهاجرين الأولى، والديمقراطية الناضجة الأولى في التاريخ التي تصبح قوة مطلقة، فإن أمامها عدد أقل بكثير من الفرص التي كانت في متناول يد الرومان أو حتى البريطانيين. بدايةً، يمكن القول: إنه ليس من الواضح إطلاقاً أن الولايات المتحدة سوف تمر بامتحان اجتياز الديمقراطية في الداخل. فالجهد المبذول من أجل الاحتفاظ بالمبادرة في حرب العراق، خصوصاً بعد الكشف عن تعذيب السجناء وإساءة معاملتهم في سجن أبو غريب، واستمرار العنف في العراق استهلك بسرعة التأييد الشعبي لتلك الحرب. وإذا لم يحدث تحول كامل لمجريات الحرب وللوضع في العراق بشكل عام، فمن غير المتوقع أن يقوم الناخبون الأمريكيون بدعم فكرة الاستمرار في سياسات التدخل العسكري

العدوانية التي تهدف إلى تغيير الأنظمة الحاكمة وفرض الديمقراطية بالقوة. بهذا المعنى، يمكن القول: إن الأمريكيين يختلفون إلى حد كبير، عن البريطانيين في العصر الفيكتوري الذين كانوا يتباهون جداً بدور بلادهم الإمبراطوري. لكن أغلب الأمريكيين لا يرغبون في أن يروا أنفسهم كشعب إمبراطوري - حتى بصفة إمبراطوريين «متنورين» - ربما بسبب تاريخ بلادهم المناهض للاستعمار.

في الوقت نفسه، هناك الكثير من القيود على الولايات المتحدة كقوة ديمقراطية مطلقة، حول ما يمكن أن تقدمه للشعوب الأجنبية، أو حول ما يمكن أن تأخذه منها. فبالرغم من أن لدى الولايات المتحدة القدرة العسكرية لغزو بلدان أخرى وقلب حكوماتها، فإنه ليس بإمكانها من الناحية الفعلية وضع يدها على مصادر الثروات المحلية لهذه البلدان - كالبترول العراقي على سبيل المثال - أو ضم أراضيها إلى الولايات المتحدة. تستطيع الولايات المتحدة أن تزود تلك البلدان بصناديق اقتراع (فعلت ذلك في العراق)، ونماذج دستورية، كما تستطيع أن تقوم بمهمة تدريب القوات، وتقديم الأسلحة، ومليارات الدولارات على شكل قروض ومساعدات. لكنها لا تملك القدرة أو الرغبة في أن تحول سكان هذه البلدان إلى أمريكيين. لن يكون بإمكان الولايات المتحدة التغلب على القوى المعادية الشديدة المراس التي مزقت بسرعة الإمبراطورية الفارسية الأخميندية، والإمبراطورية المغولية العظمى، والصين التانغية، وكافة القوى المطلقة في التاريخ التي لم تستطع أن تكوّن هوية سياسية مشتركة تربط بين السلطة المركزية والشعوب التي تحكمها، إلا إذا لجأت إلى استخدام شكل من أشكال «الغِراء».

الأهم من هذا كله، تجدر الإشارة إليه هو أن الديمقراطية تعتمد في المحصلة على الشرعية والقبول. قد تكون الإمبراطورية «المتنورة» أو «الليبرالية» شيئاً مستحيلاً، ومرد ذلك إلى أنها تتطلب عنصر الإكراه، وهذا يتنافى مع المُثُل الديمقراطية. قام بول بريمر الثالث رئيس قوات الاحتلال الأمريكي في العراق في شهر حزيران، يونيو، ٢٠٠٣ بإلغاء الانتخابات المحلية من طرف واحد بالرغم من

أن العراقيين كانوا تواقين وجاهزين لإجراء الانتخابات. برر السيد بريمر قراره ذاك بأن الوقت حينها لم يكن مناسباً لإجراء مثل هذه الانتخابات. أوضح أحد كبار مساعديه هذا القرار بالقول «إن أكثر الجماعات السياسية تنظيماً في البلاد هي من معارضي الاحتلال، والمتطرفين وبقايا البعثيين ... ولها ميزات تفوق بكثير الجماعات الأخرى.» وهكذا فلم يكن من المفاجئ أن إلغاء الانتخابات في النجف، وما تلا ذلك من تأخير لموعد الانتخابات في أماكن أخرى في البلاد قد تسبب في تأجيج مشاعر الغضب ضد أمريكا في كافة أنحاء العراق. هذا الشعور العارم بالعداء لأمريكا - من دون أن نغفل التفجيرات التي لا تتوقف، وكذلك جز الرقاب - أثار موجة من العداء داخل الولايات المتحدة ضد العراقيين «الناكرين للجميل» وكذلك ضد جميع الشرق أوسطيين «الميئوس منهم» بشكل عام.

من الصعوبة بمكان تصور كيف يمكن لإمبراطورية أمريكية أن تزدهر، أو حتى أن تخدم مصالح الولايات المتحدة. في عالم اليوم، تؤدي عملية بناء قوة عسكرية مطلقة إلى كلفة هائلة - سواء من ناحية الأموال التي تنفق في سبيل ذلك، أو الكلفة البشرية، أو شرعية وجودها، أو الكراهية التي تسببها - من دون أن تكون هناك أي فوائد شبيهة بتلك التي جنتها الإمبراطوريات السابقة. إن واجهة مثل هذه الإمبراطورية الأمريكية تتمثل في حال العراق اليوم: مئات الآلاف من القوات الأمريكية غارقة في أوحال حرب طائفية على بعد آلاف الأميال من الوطن، يكرهها ويستهدفها الجميع، ومن دون أن تكون هناك أي أهداف ملموسة وواضحة تلوح في الأفق.

لا بد من الإيضاح أن المقصود هنا ليس الدعوة إلى الانعزالية أو السلبية. ربما تحتاج الحرب على الإرهاب اتخاذ إجراءات عسكرية قوية، والولايات المتحدة بإمكانها - لو اختارت أن تفعل ذلك - إرسال قواتها المسلحة في مهمات إنسانية محدودة لمنع التطهير العرقي، أو أي جرائم أخرى ضد الإنسانية. أنا أدعو في هذا المجال إلى رفض بناء إمبراطورية أمريكية - أي استعمال القوة العسكرية الأمريكية

الضاربة في الخارج لفرض تغيير لأنظمة سياسية هنا أو هناك، وإعادة تشكيل بعض الدول من خلال فرض مؤسسات على النمط الأمريكي عليها. في الوقت نفسه، يجب الاعتراف بأن الإعلان عن نية الولايات المتحدة بالاستمرار في فرض هيمنتها على العالم أجمع بأي ثمن، بما في ذلك استخدام القوة العسكرية، قد أضرّ جداً بصورتنا بين الدول والشعوب الأخرى.

بدلاً من كل ذلك، سيكون من الأفضل بكثير بالنسبة للولايات المتحدة لو عادت إلى الصيغة التي أفادت منها كثيراً على امتداد القرنين الماضيين. فالولايات المتحدة بزّت جميع منافسيها بمراحل من خلال تحولها إلى مركز استقطاب وجذب لأكثر الفئات حيوية واندفاعاً في العالم؛ أي من خلال بناء مجتمع يتمتع كافة أفراده من مختلف الأعراق والخلفيات بفرصة النمو والارتقاء، ومن خلال مكافأة أصحاب المواهب والابتكارات بغض النظر عن مصدرها؛ وأخيراً، تجنب خوض أي مواجهات عسكرية توسعية أو مدمرة للذات وراء البحار اللهم إلا في حالات جد استثنائية. ستكون الولايات المتحدة أكثر صدقاً وانسجاماً مع تاريخها ومبادئها عندما تكون نموذجاً يحتذى بالنسبة للعالم؛ أي عندما تتحول إلى - مدينة فوق التلال - بدلاً من أن تأخذ على عاتقها المهمة "السيزيفية" التي تحاول من خلالها إعادة تشكيل المجتمعات في مختلف بقاع العالم قياساً على صورتها هي.

لكن الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين لا تستطيع أن تَعُد ذاتها مجرد «مدينة فوق التلال». فنظراً إلى أنها حققت السيطرة العالمية، تجد أمريكا نفسها - كما كانت الحال بالنسبة إلى أي قوة مطلقة سبقتها - معتمدة اعتماداً كلياً على تعاون الشعوب الأجنبية التي تهيمن عليها، وعلى إسهاماتها ومودتها أو على الأقل على قبولها لهذه الهيمنة. لا بد من ملاحظة حقيقة أن أمريكا هي أكثر اعتماداً على مودة الشعوب الأجنبية من أي قوة مطلقة سبقتها في التاريخ لأن الاقتصاد العالمي اليوم أشد ترابطاً (المليارات من الناس في العالم هم من المستهلكين والمستثمرين والمصدرين والعمال الذين يديرون عجلة الاقتصاد الأمريكي)، ولأن حق الدول

الأخرى في حكم نفسها بنفسها أصبح اليوم من المسلمات (لدرجة أنه ما من قوة مطلقة تستطيع أن تفرض إرادتها على الشعوب الأخرى من خلال الحكم المباشر)، ولأن أسلحة الدمار الشامل يمكن نقلها هذه الأيام في حقائب صغيرة.

وهكذا فإن السؤال الحاسم الذي يطرح نفسه في السنين والعقود القادمة هو ما إذا كانت أمريكا قادرة على مواجهة ما أطلقتُ عليها وصف مشكلة «الغِراء». والسؤال هو: مع ملاحظة أن أمريكا لا تستطيع منح الجنسية الأمريكية للشعوب الأجنبية، هل هناك آليات أخرى تستطيع الولايات المتحدة بواسطتها، ومن دون أن تفقد سيادتها، خلق شعور بوجود هدف مشترك، أو حتى نوع من الهوية المشتركة مع مليارات البشر حول العالم الذي تسيطر عليه؛ مانحة بذلك الآخرين حصة أكبر من نجاح أمريكا وزعامتها؟

يشكل هذا التحدي أساساً لبعض أهم الموضوعات الخلافية في السياسة الأمريكية هذه الأيام. سأتناول باختصار، ثلاثة من هذه الموضوعات في السطور الآتية.

الهجرة. ربما كانت سياسة الهجرة التي تتبعها الولايات المتحدة أكثر الموضوعات التي يمكن الانطلاق منها وضوحاً. فبالرغم من إرث أمريكا كأمة من المهاجرين، فإن قلقاً عميقاً يساورها بشأن التسرب الذي تعاني منه على حدودها. هذا القلق مبعثه أمران: الأول يتعلق بالتهديد الذي يمثله الإرهاب، والثاني يتمثل بتدفق المهاجرين من أمريكا اللاتينية. يرى صاموئيل هتنغتون في كتابه المثير للجدل بعنوان "Who Are We?" أن الهجرة المستمرة باتجاه الولايات المتحدة خصوصاً من المكسيك تضع وحدة أمريكا في دائرة الخطر وتشكل تهديداً لصلب هويتها "بوصفها دولة مسيحية شديدة التدين" تضرب جذورها في أعماق القيم "الأنجلو-بروتستانتية". لقد سار العديد من المرشحين للرئاسة الأمريكية ومقدمي البرامج التلفزيونية على خطى هتنغتون. حذّر لو دوبس، المذيع الشهير في محطة CNN من

"جيش الغزاة" القادم من المكسيك، الذي يقوم بسرقة الوظائف من الأمريكيين، وإصابة الأمريكيين بعدوى مرض الجذام، والتخطيط لاسترجاع منطقة الجنوب الغربي الأمريكية [٢١].

من المسلم به أن للولايات المتحدة الحق في وضع قيود على الهجرة، وهي بحاجة إلى ذلك بالفعل؛ إذ لا يمكن لأي سياسة متعقلة أن تفتح أبواب الهجرة على مصراعيها لأعداد لا حصر لها من الأجانب، أو تعرض أمنها القومي للخطر. مع ذلك، من الخطأ الفادح إغلاق حدود الولايات المتحدة بناء على سياسة نشر الخوف الذي يجري تضخيمه بشكل كبير، وذلك لأسباب ثلاثة.

أولاً، أظهر تاريخ القوى المطلقة أن هناك رهاباً اسمه ردة الفعل الناجمة عن التوجس من الأجانب. مرة بعد أخرى، ثبت أن القوى المسيطرة في العالم فيما مضى سقطت بسبب أن القوى الفاعلة فيها تحولت إلى ممارسة التعصب من خلال تأكيدها على هوياتها «الحقيقية» و «النقية»، وتبنيها لسياسة الإقصاء تجاه الجماعات غير القابلة للاندماج. من هنا يمكن القول إن فكرة شيطنة المهاجرين، وإرجاع أسباب النجاحات التي حققتها أمريكا إلى الفضائل «الأنجلو-بروتستانتية» ليست فقط مضللة، (فلا القنبلة الذرية، ولا وادي سليكون في الأساس هما من ابتكار «الأنجلو- بروتستانتية») بل هي في منتهى الخطورة.

ثانياً، اتباع سياسة منفتحة نسبياً في موضوع الهجرة يشكل واحداً من أكثر الآليات المتوافرة نجاعة من أجل التأسيس لمشاعر الود والعلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة وغير الأمريكيين. فهي تؤكد على مبدأ تقبل أمريكا لأفراد ينتمون إلى خلفيات مختلفة. وتؤدي إلى منح ما يقرب من مليون من الأجانب سنوياً الحق في المشاركة في بناء المجتمع الأمريكي، حيث تكون الجنسية الأمريكية هي الجائزة التي تنتظرهم مكافأة لهم على إسهاماتهم في هذا المجال. كما تسمح لمليون آخر من عائلات هؤلاء الأجانب اعتبار أمريكا موئلاً يمكن أن ينتقلوا يوماً ما للعيش فيه.

حتى أفراد عائلات المهاجرين الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة والذين ما زالوا يعيشون في مواطنهم الأصلية، يمكن أن تطالهم فوائد الانفتاح في سياسة الهجرة إلى أمريكا. في سنة ٢٠٠٥، قام العمال المولودون خارج أمريكا ، بإرسال تحويلات مالية إلى بلدانهم الأصلية تقدر بحوالي ٤٠ ملياراً من الدولارات؛ وقد حول القسم الأعظم من هذه المبالغ بمناسبة عيد الأم[٢٢].

أما البرامج التي تجتذب الأجانب الشباب إلى الولايات المتحدة بصفة مؤقتة مثل سمة الدخول الذي يرمز إليها بحرف F فهي مخصصة للطلبة، ويمكنها أن تستخدم في استقدام الأقارب المباشرين لهؤلاء الطلبة. تقدم مثل هذه البرامج صورة سريعة للمجتمع الأمريكي عن كثب، وفي العديد من الحالات، يمكن أن تترك أثراً بعيد المدى يتجلى في تماهي هؤلاء الأفراد مع المؤسسات الأكاديمية التي درسوا فيها. فوق هذا وذاك، إن مثل هذه البرامج تساعد في دمج الطلبة الأجانب بالتقاليد والقيم الأمريكية التي يحملها البعض منهم إلى موطنهم الأصلي. وعلى عكس ما يظنه الكثيرون بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، يمكن لمثل هذه البرامج أن تكون ذات تأثير قوي يدفع بالطلاب الشرق أوسطيين وزملائهم من جنوب شرق آسيا بعيداً عن أحضان التطرف في حرم بعض الجامعات التي تسيطر عليها بعض الجماعات المتطرفة. إذا كانت الولايات المتحدة راغبة في استمالة الأجيال القادمة من النخب الأجنبية، فعليها ألاّ تغفل أهمية مثل هذه الفرص.

ثالثاً، وهو الأهم؛ إن الولايات المتحدة، شأنها في ذلك شأن كل القوى المسيطرة التي سبقتها في التاريخ، هي قوة مطلقة بسبب أنها بزّت جميع منافسيها في اجتذاب عصارة الرأسمال البشري في العالم. وفي حال أدارت ظهرها للهجرة، فإن ذلك سيدمر أسّ ازدهارها وسطوتها في وقت "نشهد فيه تنافساً حاداً على الصعيد العالمي لم يسبق له مثيل من أجل اجتذاب أفضل المواهب" بحسب ما صرح به نائب رئيس مجموعة غوغل، لازلو بوك. ستظهر الآثار التخريبية لسياسات مناهضة الهجرة بصورة أسرع مما يتوقعه الأمريكيون. أدلى بيل غيتس بشهادته مؤخراً أمام لجنة

تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي حول الإجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة للحد من الهجرة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، قال فيها: "إن تلك الإجراءات أدت إلى امتناع الأفضل والأذكى في العالم من القدوم إلى أمريكا في الوقت الذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى هؤلاء."

كما أدلى بوك بشهادة مماثلة أمام لجنة فرعية في مجلس النواب ذكر فيها أن القيود الشديدة المفروضة على الهجرة تضر جداً «بقدرة الشركات الأمريكية على ابتكار وخلق الجيل الجديد من المنتجات والخدمات التكنولوجية. ... نجد أنفسنا يوماً إثر آخر عاجزين عن التعاقد مع المرشحين من ذوي الكفاءة لأنه لا توجد سمات دخول من نوع H-1B التي تخول لحاملها العمل في الولايات المتحدة." وأضاف بوك قائلاً: «يمكن القول ببساطة إنه إذا كان أرباب العمل الأمريكان عاجزين عن التعاقد مع خريجي جامعاتنا، فإن منافسينا الأجانب سوف يقومون بذلك. وسوف لن يكون باستطاعة المؤسسات العلمية والهندسية والتكنولوجية في الولايات المتحدة أن تأمل في المحافظة على مستواها الحالي في الريادة العالمية إذا بقيت عاجزة عن التعاقد مع أصحاب المواهب الأجانب الحائزين على درجات علمية عالية والاحتفاظ بهم»[٢٣].

ما الذي ستبدو عليه صورة سياسة الهجرة التي ستتبعها أمريكا في القرن الحادي والعشرين؟ لو استعرنا صفحة من المراحل الأولى من تاريخ أمريكا، وكذلك صفحات من تاريخ القوى المطلقة القديمة، فإننا نخلص إلى نتيجة مفادها أن على الولايات المتحدة اليوم اتباع إستراتيجية أكثر اندفاعاً، وتحمل في طياتها محفزات أكثر من أجل انتقاء مهاجرين من ذوي المهارات العالية والتدريب والخبرة، واستقطابهم. في الوقت نفسه لا يجوز لأمريكا أن تحذو حذو ألمانيا والدول الأوروبية الأخرى التي جعلت من استقطاب العاملين في مجال التكنولوجيا المتقدمة الهدف الوحيد في سياسة الهجرة التي تتبعها. لا بد للولايات المتحدة أن تفتح باب الهجرة لكل الطبقات ومن مختلف مستويات التحصيل العلمي، من خلال فتح كوى تعطى الأولوية فيها لمن يتقدم بطلب للهجرة أولاً، أو استخدام نظام القرعة.

أثبت العديد من المهاجرين في الماضي، بمن فيهم الأكثر نجاحاً في أمريكا أمثال أندرو كارنيجي ويوجين كلاينر، أن بإمكانهم تقديم إسهامات كبيرة في عملية بناء أمريكا بالرغم من أنهم قدموا إليها بأسمال بالية، وليس لديهم ما يملكونه سوى الاندفاع والرؤية، وهو ما أوصلهم إلى شواطئ هذه البلاد في المقام الأول. كثيرون يعتقدون اليوم أن بإمكانهم معرفة أي من تلك الجماعات المهاجرة هي الأكثر جاذبية، والأكثر قدرة على الإسهام في تحقيق الازدهار في أمريكا، والأكثر ذكاء وتفانياً في العمل. ولكن علينا أن نتذكر أن بعض أكثر الأقليات نجاحاً في الولايات المتحدة اليوم كاليهود والصينيين الأمريكيين، كانوا يوصفون منذ مئة سنة خلت بأنهم بلهاء وغير قابلين للاندماج في المجتمع الأمريكي.

الشركات المتعددة الجنسية والبحث عن المصادر الخارجية. عندما تحولت الشركات الأمريكية إلى شركات «عالمية»، حيث فتحت لها مراكز رئيسة ومصانع وغرف عمليات تسويق تدار من بعد، أو مراكز للبحث والتطوير في الخارج، كان الأمريكيون يشعرون إزاء ذلك بالضيق في أغلب الأحيان. كانت توضع علامات استفهام حول وطنية هذه الشركات المتعددة الجنسية في بعض الأحيان، وكانت تتهم بأنها تمنح وظائف لأجانب على حساب الأمريكيين في معرض لهاثها نحو تحقيق مزيد من الأرباح.

ما من شك في أن الشركات الأمريكية التي تحولت إلى شركات عالمية كانت تهدف من وراء ذلك إلى تحقيق نسبة أعلى من الأرباح، ولم يكن يدور في خلد القائمين عليها حينها أي دوافع وطنية. ولكن من المفارقة اكتشاف أن ظهور هذه الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية، وحتى زيادة الاعتماد على المصادر الخارجية، كان لصالح أمريكا أكثر مما كان البعض قادراً على استيعابه.

كانت الحجة التي دفع بها مؤيدو الاعتماد على مصادر خارجية، اقتصادية محضة. كان يقال: إن استغلال القوة العاملة الأجنبية الأقل كلفة سوف تسمح

لشركاتنا بتقديم منتجات أقل سعراً للمستهلك الأمريكي، وتزيد من أرباح المساهمين الأمريكيين من عائدات هذه المنتجات. (رفض معارضو الشركات المتعددة الجنسية هذا التبرير بالقول إن الشركات المتعددة الجنسية لا تقوم بدفع تعويضات للأمريكيين الذين فقدوا مصادر أرزاقهم.) لكن العمليات المتعددة الجنسية للشركات الأمريكية يمكن لها أيضاً تقديم فوائد غير اقتصادية لأمريكا.

وجدت أكثر القوى المطلقة نجاحاً في الماضي السبل التي حصلت بموجبها على تعاون النخب المحلية وخدماتها مقابل تقاسمها مع تلك النخب حصيلة تلك النجاحات، وجعلها تشعر بالانتماء إلى مؤسساتها. شكل هذا «الغِراء» ركناً أساسياً من أركان القوة التي تمتعت بها هذه القوى، وأسهمت أيضاً في إطالة عمرها. ليست لدى أمريكا كما لاحظنا سابقاً أي فيالق عسكرية أجنبية تعمل بإمرتها، أو دوائر خدمة مدنية تابعة لها يمكن أن تستخدم فيها موظفين من السكان الأصليين. لكن لدى الولايات المتحدة شركة غوغل، فرع الهند، وشركة مايكروسوفت، فرع أوكرانيا، حيث إن كل واحدة منهما يمكن أن تمثل نظيراً موازياً لما سبق ذكره في إطار القرن الحادي والعشرين. إذا لم يكن بإمكان أمريكا تعيين الأجانب في مناصب حكومية أو عسكرية رفيعة فيها - كما فعلت روما، وإلى حد ما، بريطانيا العظمى - فإن بإمكانها تعيينهم في مناصب رفيعة ومجزية في شركاتها التي تعمل في الخارج.

الاستثمار في مجال التوظيف الخارجي لن ينتج «الغراء» الذي تحتاجه الولايات المتحدة؛ فهناك العديد من النقاشات المحتدمة حول ما إذا كان العمال الذين يتقاضون أجوراً منخفضة في مصانع تعود ملكيتها لأمريكيين في غواتيمالا يشعرون بأن ارتباطهم مع أمريكا أصبح أقوى أو أضعف نتيجة استخدامهم في مؤسسات صناعية أمريكية. أما بالنسبة إلى الأجانب الذين يتبوؤون مراكز رفيعة مقابل رواتب مجزية في شركات تعود ملكيتها للأمريكيين، وتحديداً أولئك الذين يصبحون مديرين أو مسؤولين تنفيذيين، فإن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية تستطيع من دون أدنى شك منح أولئك الأشخاص خارج حدود البلاد الإحساس بأن لهم

مصلحة مادية في الازدهار الذي تحققه أمريكا، وبأنهم شركاء في النمو المستمر والمتزايد الذي تتمتع به أمريكا، وبأنهم كذلك مرتبطون بالمؤسسات الأمريكية. ليس من قبيل المصادفة أبداً إن الهند - وهي من بين أكثر المستفيدين من الاستثمار الأمريكي في مجال التوظيف الخارجي بالرغم من وجود عوامل أخرى أسهمت في ذلك بطبيعة الحال-، هي أيضاً من بين القلائل من الدول التي بقي الشعور الشعبي تجاه أمريكا فيها إيجابياً جداً.

الأحادية والتعددية. وضعت الحرب على العراق الأمريكيين في وضع ملتبس إزاء دورهم في القضايا الدولية. فمن ناحية، لم يعد لشعار إدارة بوش «نفّذْ قرارك من دون العودة إلى أحد» الذي رفعته في المراحل الأولى لولايته أي مصداقية؛ وهذا الشعار استند على ما يبدو إلى الثقة المفرطة والمؤلمة بقدرة أمريكا على تحقيق أهدافها الجيوبوليتيكية من خلال اللجوء إلى القوة العسكرية المحضة. ومن ناحية أخرى، جعلت تلك الحرب بعض الأمريكيين يشعرون بأن أفضل خدمة يمكن أن تسدى إلى الولايات المتحدة تتمثل في تشديد الإجراءات الأمنية على حدودها، وبناء جدران عازلة، ونفض يدها من المسألة الجيوبوليتيكية برمتها.

لا تستطيع الولايات المتحدة بعد الآن - حتى لو رغبت في ذلك - أن تعود إلى الانعزالية من جديد، ولن يكون بمقدور أمريكا أن تعتمد على التجارة فقط بوصفها مصدرًا وحيدًا لهيمنتها العالمية؛ كما أن الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية مثل غوغل وجنرال إليكتريك، مهما بلغت درجة تنورها، لن تكون المؤسسات الوحيدة التي تمثل أمريكا على المسرح الدولي. تؤكد أطروحة هذا الكتاب منذ البداية، على أن على الولايات المتحدة تجنب مخاطر التدمير الذاتي المتمثلة في محاولة بناء إمبراطورية؛ ولكن أمريكا قادرة ويجب عليها في الوقت نفسه القيام بخطوات جريئة من أجل تسلم زمام زعامة العالم في خضم تلك المشكلات العالمية الحقيقية التي يمكن وضع حلول لها فقط من خلال التعاون بين مختلف الأمم والشعوب.

يُعد التراجع البيئي أحد أشهر الأمثلة على تلك المشكلات. وبغض النظر عن أي تشريعات يمكن للولايات المتحدة أن تسنها لمواجهة مشكلة التلوث، فإن قيام دول أخرى بتدمير منطقة الأوزون، سوف يؤدي إلى معاناة من قبل الجميع بمن فيهم الولايات المتحدة. بمعنى آخر، تمثل حماية البيئة نموذجاً مثالياً لمشكلة العمل الجماعي؛ وكل دولة تحتاج إلى تعاون الآخرين من أجل الحصول على نتائج مرضية في هذا الشأن. اليوم، هناك الكثير من المعضلات التي لها طابع عالمي مشابه. ففي الوقت الذي تتم حركة البضائع والأشخاص بشكل لم يسبق له مثيل، لا يمكن لأي دولة بمفردها أن تواجه أمراضاً معدية مثل أنفلونزا الطيور. يمكن للمجاعات وجرائم الإبادة الجماعية في بلدان قصية أن تفرز نتائج سلبية من خلال نزوح عشرات أو مئات الآلاف من اللاجئين الهاربين عبر الحدود. كما أن الإرهاب فرض على الساحة الدولية أبعاداً جديدة بطبيعة الحال.

يجب على الولايات المتحدة أن تبحث عن طرائق من أجل القيام بحملات منسقة تشارك فيها الدول الأخرى. وهذا لا يعني بالضرورة أن على الولايات المتحدة أن تقيد نفسها بالتحرك ضمن الإطار السياسي والقانوني الدولي المعمول به حالياً والمتمثل في الأمم المتحدة. يمكن أن تكون الأمم المتحدة مفيدة في هذا الصدد، لكن يمكن أيضاً للولايات المتحدة أن تسعى إلى عقد اتفاقيات ثنائية أو تعددية مع بلدان تتبع منهج التفكير نفسه، إنما خارج إطار الأمم المتحدة؛ بل بإمكان الولايات المتحدة التفكير في خلق مؤسسات عالمية جديدة تماماً.

يتعين على الأمريكيين ألاّ ينظروا إلى هذه التعددية الجديدة على أنها استسلام، بل يجب اعتبارها فرصة جديدة. فمن خلال الاعتراف بأن لها دوراً في خلق هذه المشكلات العالمية، والوعي بأنها ستجني الكثير من الفائدة من خلال حلها، وأخذ زمام المبادرة للقيام بدور القائد للجهود الدولية المبذولة من أجل معالجتها، تستطيع الولايات المتحدة أن تحقق مصالحها الخاصة في الوقت الذي تبني التضامن الذي تحتاجه مع الأمم الأخرى - والمتمثل في ذلك الشعور بالعمل الجماعي والهدف المشترك، والذي لا يمكن لأي قوة ديمقراطية مطلقة أن تكون في غنى عنه.

في سنة ١٩٩٧، أصبح جدي لأمي مواطناً أمريكياً، وكان حينها يبلغ الثالثة والتسعين من عمره. لم يكن بحاجة لكي يصبح مواطناً أمريكياً. فقد كان قد حصل قبل مدة طويلة على إقامة دائمة نظراً إلى أنه عاش في الولايات المتحدة مدة تزيد على أربعين سنة. مع ذلك، وبالرغم من أنه كان ضعيف البنية وأصمَّ، فقد أصر جدي على خوض امتحان الحصول على الجنسية الأمريكية. سألته في حفل العشاء الاحتفالي الذي أعقب حصوله على الجنسية الأمريكية عن السبب الذي حدا به إلى طلب الحصول عليها. أجابني بإنجليزية ركيكة: «لأن أمريكا قدمت لي الكثير.» أدهشني جوابه ذاك؛ وذلك لأن العمر الذي قضاه في الولايات المتحدة، أمضاه في عمل شاق جداً في متجر يبيع البضائع الآسيوية، ويجهد كي تبقى واجهته مشرعة في ظل المنافسة الشديدة، انتقل بعدها إلى العمل في توزيع الجرائد إلى أن بلغ سن التسعين (كان الجميع في الجوار يرون أنه الأفضل في هذا العمل لأنه لم يفوت يوماً واحداً من دون أن يقوم بجولته المعتادة لتوزيع الصحف). أضاف جدي بعدها قائلاً: «كم هي عظيمة هذه البلاد! الجميع يريد أن يصبح أمريكياً!»
يتذكر والديَّ الإحساس بالإعجاب نفسه الذي كانا يكناه للأمريكيين عندما كانا يعيشان في الفيليبين في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين - وكان ذلك واحداً من الأسباب التي جعلتهما يتوقان للهجرة إلى الولايات المتحدة - كما أتذكر عندما كنت أزور الصين وأوروبا برفقة والديّ في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين. واليوم، عندما أسافر مع عائلتي إلى بلدان أخرى، أتمنى أن تسمع ابنتاي الآراء نفسها حول أمريكا التي كانت تجعلني أفتخر بأنني أمريكية. من المحزن أنهما لا تسمعان أياً من هذه الآراء.

ما الذي يحمله القرن الحادي والعشرون في جعبته؟ فمنافسو الولايات المتحدة يواجهون مشكلاتهم العديدة الخاصة بهم؛ إلا أن هؤلاء المنافسين الذين تزداد قواهم باطراد (سواء بشكل إفرادي أو من خلال اتحادات تجمع بينهم) سوف يفرضون على الولايات المتحدة أن تتوقف عن أن تكون المسيطرة على العالم في

المستقبل القريب. لن تكون العودة إلى موقع الدولة العظمى أمراً سيئاً بالضرورة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. ففي المحصلة، يمكن القول إن تحول دولة ما، إلى قوة مطلقة يُعد خروجاً على منطق التاريخ له من السلبيات ما له من الإيجابيات.

من ناحية أخرى، يمكن القول إن الولايات المتحدة تمثل في العديد من الأوجه، نموذجاً للتسامح الإستراتيجي. إن استطاعت أمريكا إعادة اكتشاف الطريق الذي مثّلَ سر نجاحها منذ تأسيسها، وتجنب إغراءات بناء إمبراطورية، يمكن لها أن تبقى القوة المطلقة في العالم لعقود عديدة قادمة - قوة مطلقة ليس بمنطق الإكراه والقوة العسكرية، بل قوة مطلقة تجسد الفرصة والحيوية والقوة الأخلاقية.

كلمة شكر

كان والديَّ ليون وديانا شوا، مصدر الإلهام الذي نتج عنه هذا الكتاب؛ أتوجه إليهما بالشكر وكذلك لشقيقاتي ميشيل وكاترين وسينثيا، على الدعم الذي تلقيته منهم جميعاً خلال السنين المنصرمة. ما كان لهذا المؤلَّف أن يخرج إلى الوجود لولا التوجيه وكذلك، المساعدة التي تلقيتها من زوجي جيد روبنفيلد الذي قرأ كل كلمة كتبتها خلال السنين الخمس عشرة المنصرمة. أشعر بأنني المستفيدة المحظوظة من كرمه وعبقريته. أود كذلك أن أعبر عن عميق امتناني للمحرر آدم بيلو، ولزملائي جاك بالكين، ودانيال ماركوفيتس، وجيمس ويتمان، وبشكل خاص لبروس أكيرمان، الذين أسهموا في هذا العمل من خلال ملاحظاتهم النقدية الرائعة واقتراحاتهم في اللحظات الحرجة التي مر بها هذا الكتاب. لقد كانت لإسهاماتهم الأثر الأكبر في جعل هذا الكتاب عملاً أفضل بكثير؛ وأي هنات يعاني منها هذا الكتاب فهي مسؤوليتي وحدي. أما ييلينغ شين جوزفين وراسل بيتمان فقد قرأ المخطوط بعد الانتهاء من كتابته وقدما ملاحظات ثمينة، فلهما مني كل الشكر والتقدير. كما أود أن أعبر عن امتناني لوالتر أوستيرار، وإيان آيرس، و آر. كونتانت، وهنري هانزمان، وطوني كرونمان، وسوزان روز أكيرمان، ومارينا سانتيلي، وجوردان سمولر، وسليفيا سمولر للتشجيع الذي لقيت منهم جميعاً وكذلك لملاحظاتهم النقدية.

يعكس هذا الكتاب المساعدة التي لا تقدر بثمن، والتي تلقيتها من المساعدين البحثيين؛ وأود أن أخص بالشكر من بينهم جوناثان بوم، وماكس هيلفيستون، وإيليني مارتسوكو، وهاري أو كورنيل، وباتريك تومي، وجولي ويلينسكي، وجولي زو، الذين أمضى كل واحد منهم عشرات، وأحياناً مئات الساعات للعمل على هذا الكتاب. كما

أتوجه بالشكر كذلك إلى كل من أديتي بانيرجي وويتسينغ شين، ونصرت شودوري، وستيفن كلاوني، ونيها غوهيل، وسيث غرين، وجين هان، وفيجي جيارامان، وستيفن ليلي، وبريان نيتر، ومارك سيلفرمان، وإليزابيث ستودرمان، وتينغ وانغ، ومارشا يابلون، لقد كان هؤلاء جميعاً طلاباً رائعين في حلقة بحث قمت بتدريسها في ربيع سنة ٢٠٠٤. أشعر بالامتنان لهم جميعاً على الأفكار النيرة التي قدموها خلال المراحل الأولى من صياغة أفكار هذا الكتاب. كما أسهم الطلبة الآتية أسماؤهم في تقديم مساعدة لم يكن بالإمكان الاستغناء عنها في بعض فصول هذا الكتاب، وهم: باتريشا أودورا- ميراندا، وويرنا أهليرز، وزاك ألسيون، وكريس بيبينك، ومايكل بريثولز، ونيشكا شاندراسوما، وجينهوا سينغ، ودينيس كلير، وإيلبريدج كولبي، وجوزيه كولمان، وروهيت دي، وهيو إيستوود، وكينيث إيبي، ويانغ لونغ غاو، وجيمس غريميلمان، وجوش هافتيز، وإيثيل هيغونيت، وميمي هنتر، وعائشة جين، وشروتي جايارامان، وسفيلين كاريفانوف، ولارا كايايان، وأبها كانا، وآرون كلينك، ونانسي لياو، وكاثرين لين، وسارة ليبتون لوبيت، وآنا ماناسكو، وإليوت موغول، وأليكس بارسونز، وانتصار راب، وجيرمي روبنز، ونيك روبنسون، وبرايان رودكي، وسليلة صلاح الدين، وجيف ساندبيرغ، ومارتن شميدت، وتيم سنابل، وفانس سيرشاك، وشهرزاد شافاغيها، وجينغ زيا شي، وفريدو سيلفا، وبارت جيويك، وكريشانتي فيغناراجا، وكلارنس ويبستر، وكارن ويليامز، وشيني وو، وجاستين زاريمبي.

بالإضافة إلى ما تقدم، أود أن أعبر عن امتناني لهارولد كوه، عميد كلية الحقوق في جامعة يال، على دعمه وصداقته؛ وكذلك لجيني كوكلي، وتيريسا غولين للمساعدة القيمة التي تلقيتها منهما في المكتبة والتي كانت تمتد لساعات طوال خارج دوامهما الوظيفي، كما أشكر مساعدتي باتريشا سبيغيلهاتر لكفاءتها النادرة في العمل، والشكر موصول لوكيلي أعمالي الاستثنائيين غلين هارتلي، ولين شوا.

اقتطفت مدخل هذا الكتاب من مقالة لي بعنوان «الهجرة الآسيوية» التي نشرت

في كتاب قام بتحريره ديفيد هالبيرستام بعنوان:

Defining a Nation: Our America and the Sources of Its Strength (Washington D. C. national Geographic, 2003).

وأخيراً، أقدم اعتذاري ومحبتي وشكري لابنتيّ صوفيا ولويزا، اللتين هما مصدر افتخاري وسعادتي في الحياة.

المؤلفة في سطور

تعمل إيمي شوا أستاذة في كلية الحقوق بجامعة يال. ألّفت كتاباً بعنوان: World on Fire، وهي خبيرة متميزة في حقول التجارة الدولية والصراعات العرقية والعولمة. تقطن في مدينة نيو هيفين بولاية كنيتيكت، مع زوجها وابنتيها.

الهوامش

مقدمة:

1. “To Paris, U.S. Looks Like a ‘Hyperpower,’” International Herald Tribune, Feb. 5, 1999; “France Presses for a Power Independent of the U.S.,” New York Times, Nov. 7, 1999.
2. Niall Ferguson, Colossus: The Price of America’s Empire (New York: Pen-guin, 2004), pp. 301–2.
3. See, for example, Noam Chomsky, Hegemony or Survival: America’s Quest for Global Dominance (New York: Henry Holt and Company, 2003);Patrice Higonnet, Attendant Cruelties: Nation and Nationalism in American History (New York: Other Press, 2007).
4. The literature on empires is truly massive. For a tiny sample from just the last several years, see J. H. Elliott, Empires of the Atlantic World: Britain and Spain in America, 1492–1830 (New Haven: Yale University Press, 2006);Niall Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World(London: Allen Lane, 2003); John Steele Gordon, An Empire of Wealth: The Epic History of American Economic Power (New York: Harper Perennial, 2004); Valerie Hansen, The Open Empire: A History of China to 1600 (New York: W.W. Norton, 2000); Michael Hardt and Antonio Negri, Empire (Cam-bridge, Mass.: Harvard University Press, 2001); Dominic Lieven, Empire: The Russian Empire and Its Rivals(New Haven: Yale Nota Bene, 2002); Anthony Pagden, Peoples and Empires (London: Weidenfeld & Nicolson,2001); and Colin Wells, The Roman Empire (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004).
5. Thucydides, History of the Peloponnesian War, E. V. Riev, ed., Rex Warner, trans. (New York: Penguin Classics, 1954); see also Victor Davis Hanson, A War Like No Other: How the Athenians and Spartans Fought the Pelopon-nesian War (New York: Random House, 2005); Bernard Grofman, “Lessonsof Athenian Democracy: Editor’s Introduction,” PS: Political Science and Politics, vol. 26 (Sept. 1993), pp. 471–74.
6. Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 3 (1776; edited and abridged by Hans-Friedrich Mueller, New York: Modern Library, 2003), pp. 982–83; see also David P. Jordan, Gibbon and His Roman Empire(Urbana: University of Illinois Press, 1971), pp. 221–23.
7. Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (New York: Vintage Books, 1989); Jared Diamond, Collapse: How Societies Choose to Fail or Succeed(New York: Penguin, 2005).
8. Post–9/11 writings on the possibility of an American empire include Andrew.

Bacevich, American Empire: The Realities and Consequences of U.S. Diplomacy (New York: Penguin, 2004); Ferguson, Colossus: The Price of America's Empire, pp. 3, 301–2; Deepak Lal, In Praise of Empires: Global-ization and Order (New York: Palgrave Macmillan, 2004), p. 215; and Michael Walzer, "Is There an American Empire?" Dissent (Fall 2003).

9. Population and territory estimates for both the Aztec and Roman empires vary significantly. For support for the figures I cite, see Richard E. W. Adams, Prehistoric Mesoamerica(Boston: Little Brown and Company, 1977), p. 36; Michael E. Smith, The Aztecs, 2nd ed. (Malden, Mass.: Blackwell Publishing,2003), pp. 57–59; Dirk R. Van Tuerenhout, The Aztecs: New Perspectives (Santa Barbara: ABC Clio, 2005), pp. 146–48; and Keith Hopkins, "Conquerors and Slaves: The Impact of Conquering an Empire on the Political Economy of Italy," in Craige B. Champion, ed., Roman Imperialism: Readings and Sources(Malden, Mass.: Blackwell Publishing, 2004), p. 108.

10. There is a large, multidisciplinary academic literature on the history of toler-ance. For a sampling of different perspectives, see Peter Garnsey, "Religious Toleration in Classical Antiquity," in W. J. Sheils, ed., Persecution and Toleration (Great Britain: Blackwell, 1984); John Christian Laursen and Cary J.Nederman, eds., Beyond the Persecuting Society: Religious Toleration Before the Enlightenment(Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1998);W.K. Jordan, The Development of Religious Toleration in England, vol. 1(London: George Allen & Unwin Ltd., 1932); Wendy Brown, Regulating Aversion: Tolerance in the Age of Identity and Empire(Princeton: Princeton University Press, 2006); and Henry Kamen, The Rise of Toleration (London: Weidenfeld & Nicolson, 1967). For two excellent collections of essays, onwhich I relied heavily, see Ole Peter Grell and Roy Porter, eds., Toleration in Enlightenment Europe(Cambridge: Cambridge University Press, 2000) and Ruth Whelan and Carol Baxter, eds., Toleration and Religious Identity: The Edict of Nantes and Its Implications in France, Britain and Ireland(Dublin: Four Courts Press, 2003).

11. See J.P.V.D. Balsdon, Romans and Aliens(London: Gerald Duckworth &Co., 1979), pp. 2, 59–60, 214–15; A. N. Sherwin-White, Racial Prejudice in Imperial Rome(Cambridge: Cambridge University Press, 1967), pp. 57–58.

12. See generally Linda Colley, Britons: Forging the Nation, 1707–1837 (NewHaven: Yale University Press, 1992); Colin Haydon, Anti-Catholicism in Eighteenth-Century England c. 1714–80: A Political and Social Study(Man-chester: Manchester University Press, 1993).

13. Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree(New York: Anchor Books, 2000), pp. ix, xvi, 12; see also Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man(New York: Avon Books, Inc., 1992).

14. See Office of the President, "The National Security Strategy of the UnitedStates of America" (Sept. 2002), available at www.whitehouse.gov/nsc/nss.pdf.;

Ferguson, Colossus, pp. 3, 301–2; Max Boot, "The Case for AmericanEmpire," Weekly Standard, Oct. 15, 2001, pp. 28–29; Michael Ignatieff,"The Burden," New York Times Magazine, Jan. 5, 2003, p. 22; Paul Johnson,"The Answer to Terrorism? Colonialism," Wall Street Journal, Oct. 9, 2001.

15. Ignatieff, "The Burden," p. 22.
16. Thomas Friedman, "Liberal Hawks Reconsider the Iraq War: Four Reasonsto Invade Iraq," Slate.com, Jan. 12, 2004; Ignatieff, "The Burden," p. 22.
17. Samuel P. Huntington, Who Are We? The Challenges to America's National Identity (New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 19–20, 69, 338.
18. Pagden, Peoples and Empires, p. 40 (quoting Machiavelli).
19. Immanuel Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, 1600–1750, vol. 2 of The Modern World-System(San Diego: Academic Press, 1980), pp. 38–39.
20. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, p. 242 (quoting a Victorian-era postage stamp).

القسم الأول: التسامح عند البرابرة
الفصل الأول: المهيمن الأول:
الإمبراطورية الفارسية العظمى من سايروس إلى الإسكندر

Epigraphs: The quote from A. T. Olmstead is from his classic book Historyof the Persian Empire(Chicago: University of Chicago Press, 1948), p. 1. Mysource for Alexander the Great's quote is Peter Green, Alexander of Mace-don, 356-323 BC: A Historical Biography (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1991).

1. Beverly Moon, An Encyclopedia of Archetypal Symbolism (Boston: Sham-bhala, 1991), p. 32; Mehdi Khansari et al., The Persian Garden: Echoes of Paradise(Washington, D.C.: Mage Publishers, 1998) pp. 29-32.
2. Pierre Briant, From Cyrus to Alexander: A History of the Persian Empire,Peter T. Daniels, trans. (Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns, 2002), pp. 175,201-2, 297-98, 346, 404. Territorial estimates for the Achaemenid Empirevary greatly, ranging from one million to three million square miles. My es-timate is from Peter Turchin, Jonathan M. Adams, and Thomas D. Hall,"East-West Orientation of Historical Empires and Modern States," Journalof World-Systems Research, vol. 12 (Dec. 2006), pp. 216-29 (2.1 millionsquare miles).
3. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 81, 88-89, 168-69, 429-30; RichardN. Frye, The Heritage of Persia(London: Weidenfeld & Nicolson, 1962), p.126; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 56, 176-77, 238-47.
4. See Jean-Noël Biraben, "The Rising Numbers of Humankind," Population& Societies, no. 394 (French National Institute of Demographic Studies[INED) (Oct. 2003), pp. 1-4.
5. Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 16-17.

6. Frye, The Heritage of Persia, pp. 2-3, 43-47; Josef Wiesehöfer, Ancient Persia: From 550 BC to 650 AD(London: I. B. Tauris Publishers, 1996), p. xi.
7. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 18-19; Frye, The Heritage of Persia, p. 45; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. xi-xii.
8. Briant, From Cyrus to Alexander, pp.5-7; Olmstead, History of the PersianEmpire, p. 51 (quoting from the Cyrus cylinder).
9. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 5-7, 286-93, 1007-8; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 79-88.
10. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 15-16; Frye, The Heritage of Persia, pp. 78-80.
11. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 15-18, 36-37, 40-44; Frye, The Heritage of Persia, pp. 78-81; Olmstead, History of the Persian Empire, pp.34-41, 50-51, 59.
12. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 71-72, 81; Frye, The Heritage of Persia, p. 127; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 7, 57. On satrapies, and the historical debates surrounding them see Olmstead, History of the PersianEmpire, p. 59; Wiesehöfer, pp. 59-62.
13. Frye, The Heritage of Persia, p. 82; H.W.F. Saggs, The Might That Was Assyria (London: Sidgewick & Jackson, 1984), pp. 114-15.
14. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 40-44; Frye, The Heritage of Persia,p. 81; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 52-53; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 44-45.
15. Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 43-44.
16. Briant, From Cyrus to Alexander, p. 226.
17. Isa. 45:1-3; Ezra 6:2-5.
18. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 41, 46-47, 79; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 49-51.
19. Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 49-55.
20. Briant, From Cyrus to Alexander, p. 55; Olmstead, History of the PersianEmpire, pp. 87, 92, 129.
21. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 57-61; Frye, The Heritage of Persia, p. 88; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 88-95.
22. Regarding Cambyses' conquests and the creation of the Persian navy, see Bri-ant, From Cyrus to Alexander, pp. 51-54, 62. On Cambyses' death, see Briant, p. 61; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 92-93.
23. As with many of the Achaemenid kings, there is some dispute about the exact year that Darius acceded to the throne. Most scholars, however, agreethat it was between 522 and 520 BC. Briant, From Cyrus to Alexander, pp.139-43, 159-61; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 107-8;Wiesehöfer, Ancient Persia, p. 15. On the Scythians, see William Mont-gomery McGovern, The Early Empires of Central Asia: A Study of the Scythians and the Huns and the Part They Played in World History (ChapelHill: University of North Carolina Press, 1939), pp. 36, 47, 49, 56.
24. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 165-79, 369-71; J. M. Cook, The Persian

Empire (London: J. M. Dent & Sons, 1983), pp. 69-70; Frye, The Heritage of Persia, p. 116; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 63-65, 76-77.

25. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 390-94; Cook, The Persian Empire, p.70.
26. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 170-71, 177-78, 507-10; Cook, The Persian Empire, pp. 68-69; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 19, 29.
27. Briant, From Cyrus to Alexander, p. 77; Cook, The Persian Empire, pp.147-48; Frye, The Heritage of Persia, p. 117; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp.xi, 59, 99. On the debates about the religion of the Achaemenids, see Briant, pp. 93-94; Wiesehöfer, pp. 94-100.
28. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 510-11; Olmstead, History of the Persian Empire, p. 222.
29. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 168, 172; Frye, The Heritage of Persia, pp. 100-101, 126.
30. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 81, 363; Frye, The Heritage of Persia,p. 126.
31. Frye, The Heritage of Persia, pp. 108-9. On the close relationship betweenthe Medes and the Persians, see Cook, The Persian Empire, pp. 42-43.
32. Frye, The Heritage of Persia, pp. 108-9; Olmstead, History of the PersianEmpire, pp. 238, 247 (quoting Herodotus).
33. Frye, The Heritage of Persia, pp. 108-9; Olmstead, History of the PersianEmpire, pp. 239, 242.
34. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 384-87; Frye, The Heritage of Persia, pp. 111-12; Olmstead, History of the Persian Empire, pp. 243-44.
35. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 792-800; Frye, The Heritage of Persia, pp. 109-12.
36. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 77, 82, 122-23, 180-83; Frye, The Heritage of Persia, pp. 107-8. On the migratory habits of the Achaemenids, see Briant, pp. 186-89.
37. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 200-201, 289-91.
38. Ibid., pp. 13-14, 200-201, 286-94, 331.
39. Ibid., p. 171.
40. Percy Sykes, A History of Persia(London: MacMillan and Co., 1930), p.169.
41. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 543-47, 551, 567-68; Frye, The Heritage of Persia, p. 123; Wiesehöfer, Ancient Persia, pp. 42-43, 46-47, 52.
42. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 543, 549, 554, 567; Wiesehöfer, An-cient Persia, pp. 46, 54-55.
43. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 687, 769.
44. Ibid., pp. 852-53, 868-69; Guy MacLean Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness (New York: Random House, 2004), pp. 125-27. For vividaccounts of Alexander's military tactics and brilliance on the battlefield, seegenerally Green, Alexander of Macedon; J.F.C. Fuller, The Generalship of Al-exander the Great (London: Eyre & Spottiswoode, 1958), pp. 285-305. Thequote about Alexander's military prowess is from Green, p. xv.

45. Briant, From Cyrus to Alexander, pp. 868-69.
46. My description of young Alexander is taken from Green, Alexander of Mace-don, pp. 54-55. On young Alexander and Aristotle, see Green, pp. 53-54,58-61; Waldemar Heckel and J. C. Yardley, Alexander the Great: Historical Texts in Translation (Malden, Mass.: Blackwell, 2004), pp. 35-39; Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. 4-5, 8-9.
47. Green, Alexander of Macedon, pp. 59-60; Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. v, xviii, 88-89.
48. My account of Alexander's approach and attitude toward conquered Babylon and Egypt draws heavily on Green, Alexander of Macedon, pp. 269-70,303; see also Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. 89, 98,120.
49. Green, Alexander of Macedon, pp. 369-70, 446-48; Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. 171-73, 251-52. Modern scholars began to debate the extent to which Alexander sought a fusion of races after the publication of W. W. Tarn's 1948 biography, in which Tarn argued that Alexanderhad a "unity of mankind" policy. See W. W. Tarn, Alexander the Great (Cambridge: Cambridge University Press, 1948), excerpted in Ian Worthington, ed., Alexander the Great: A Reader (London: Routledge, 2003), pp.198-207. For a strong critique of this view, see A. B. Bosworth, "Alexanderand the Iranians," Journal of Hellenic Studies, vol. 100 (1980), pp. 1-21, excerpted in Worthington, pp. 208-35.
50. Green, Alexander of Macedon, pp. 453-56, 487-88; Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. 213-14, 221-26, 251, 256, 259-61.
51. Green, Alexander of Macedon, pp. 473-75; Rogers, Alexander: The Ambiguity of Greatness, pp. xvii, 87, 265, 273; Worthington, Alexander the Great, p. 198.

الفصل الثاني: التسامح في ذروة قوة إمبراطورية روما:
المجالدون والأردية الرومانية الفضفاضة و"الغراء" الإمبراطوري

Epigraphs: The quote from Claudian can be found in Clifford Ando, Imperial Ideology and Provincial Loyalty in the Roman Empire (Berkeley and LosAngeles: University of California Press, 2000), p. 65. The quote from Claudius is reproduced in A. N. Sherwin-White, Racial Prejudice in Imperial Rome (Cambridge: Cambridge University Press, 1967), p. 60.

1. "For all its material impressiveness and occasional grossness, the core of the explanation of the Roman achievement was an idea, the idea of Rome itself, the values it embodied and imposed, the notion of what was one day to becalled romanitas." J. M. Roberts, The New History of the World (Oxford:Oxford University Press, 2003), p. 227.
2. See Anthony Pagden, Peoples and Empires (London: Weidenfeld & Nicolson, 2001), pp. 42,45; and Keith Hopkins, "Conquerors and Slaves: The Impact of Conquering an Empire on the Political Economy of Italy," in CraigeB.

Champion, ed., Roman Imperialism: Readings and Sources (Malden, Mass.: Blackwell Publishing, 2004), p. 108. My opening paragraph also draws on Fergus Millar, ed., The Roman Empire and Its Neighbours(NewYork: Delacorte Press, 1967), p. 9.

3. See Pagden, Peoples and Empires, p. 42; Chris Scarre, The Penguin Historical Atlas of Rome (London: Penguin, 1995), pp. 82-83.
4. See Pagden, Peoples and Empires, pp. 35-37, 41. The quote from Theodor Mommsen can be found in Colin Wells, The Roman Empire (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2004) p. 1.
5. For a detailed discussion of Rome's provincial system and its administration, see Peter Garnsey and Richard Saller, The Roman Empire: Economy, Society, and Culture (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1987), pp. 20-40. On the native backgrounds of the emperors Trajan, Hadrian, Antoninus Pius, Marcus Aurelius, and Septimius Severus, as well as the diversity of Roman elites more generally, see Michael Grant, The History of Rome (London: Faber and Faber, 1979), pp. 236, 238-39; Peter Heather, The Fall of the Roman Empire(London: Macmillan, 2005), p. 44; Christopher S.Mackay, Ancient Rome: A Military and Political History (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), pp. 229, 231-35; Pagden, Peoples and Empires, pp. 41-42 (quoting Cicero); Wells, The Roman Empire, pp. 152 (quoting Tacitus), 170-71; Pierre Grimal, L'Empire Roman (Paris: Editions des Fallois, 1993), p. 133; Géza Alföldy, Das Imperium Romanum—ein Vorbild für das vereinte Europa? (Basel, Switzerland: Schwabe & Co. AG Verlag,1999), pp. 29-30; Basil Kremmy das and Sophocles Marcianos, The Ancient World-Hellenistic Times-Rome (Athens: Gnosis Editions, 1985), p. 200. The quote in the section heading beginning "The single native land" is from Plinyand cited in Ando, Imperial Ideology and Provincial Loyalty in the Roman Empire, p. 65.
6. See Champion, Roman Imperialism, p. 263 (quoting Claudius); Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1 (1776;reprint, London: Allen Lane 1994), p. 64; Millar, The Roman Empire and Its Neighbours, p. 149; Pagden, Peoples and Empires, p. 40 (quoting Wilson).
7. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 110-25, 178; Andrew Lintott, Imperium Romanum: Politics and Administration (London: Routledge,1993), pp. 14-15; Roberts, The New History of the World, pp. 248-49. Mydiscussion of Roman slavery draws heavily on J.P.V.D. Balsdon, Romans and Aliens (London: Gerald Duckworth & Co., 1979), pp. 77-81. On the goreof the gladiator games, see Daniel P. Mannix, The History of Torture(Gloucestershire, U.K.: Sutton Publishing, 2003), p. 30.
8. Champion, Roman Imperialism, p. 209 (citing Livy and Cicero); Grant, The History of Rome, pp. 38, 45, 49-50, 54-55; Roberts, The New History ofthe World, p. 227.

9. Grant, The History of Rome, p. 101; Roberts, The New History of the World, pp. 234-36; M. Rostovtzett, Rome, J. D. Duff, trans. (New York: Oxford University Press, 1960), pp. 41, 76.
10. On Rome's shift from indirect to direct provincial rule and its conquests of Europe, Asia Minor, and the Middle East, see Grant, The History of Rome, p. 121; Lintott, Imperium Romanum, pp. 9-11, 13-14; Edward Luttwak,The Grand Strategy of the Roman Empire: From the First Century A.D. to the Third (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1976), pp. 9-12,19-25, 49-50, 57, 60-61; Mackay, Ancient Rome, pp. 81-84; Roberts, The New History of the World, pp. 248-49; Rostovtzett, Rome, pp. 76-77. On"government without bureaucracy," see Garnsey and Saller, The Roman Empire, p.20.
11. In his magnum opus, Edward Gibbon characterizes the golden age as thereign of five emperors from AD 96-180: Marcus Cocceius Nerva (AD96-98), Trajan (AD 98-117), Hadrian (AD 117-38), Antoninus Pius (AD138-61), and Marcus Aurelius (AD 161-80). Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1, p. 31. Other historians include Marcus Aurelius's successor, Commodus (AD 180-92), as well as Vespasian(AD 70-79), Titus (AD 79-81), and Domitian (AD 81-96). See, for example, Alan K. Bowman, Peter Garnsey, and Dominic Rathbone, eds., The Cambridge Ancient History, 2nd ed., vol. 11 (Cambridge: Cambridge UniversityPress, 2000), front page.
12. On Trajan and Hadrian generally, see Anthony R. Birley, Hadrian: The Rest-less Emperor (London: Routledge, 1997); Grant, The History of Rome, pp.236-39; Millar, The Roman Empire and Its Neighbours, pp. 42-43; Wells,The Roman Empire, pp. 174, 184, 202-7, 285. Specifically on the Jewish rebellion, see Birley, pp. 2, 268-76; Mackay, Ancient Rome, pp. 229-31; Roberts, The New History of the World, p. 271.
13. My discussion of Antoninus Pius and Marcus Aurelius draws on Anthony R. Birley, Marcus Aurelius, rev. ed. (New York: Routledge, 2000), pp. 37-38,58-59; Mackay, Ancient Rome, pp. 230-35; Roberts, The New History ofthe World, p. 271; Ando Schiavone, The End of the Past: Ancient Rome andthe Modern West (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2002), pp.21-22; Wells, The Roman Empire, pp. 213-29.
14. On Rome as a free-trade zone and "global economy, " see Garnsey and Saller, The Roman Empire, p. 20; Rostovtzeff, Rome, pp. 248, 257-63; Alföldy, Das Imperium Romanum—ein Vorbild für das vereinte Europa?, p. 33. Thequote from Aristides is reproduced in Schiavone, The End of the Past, p. 7.There are a number of fascinating scholarly articles exploring the relationship between the Roman and Han Chinese empires. See, for example, H. H.Dubs, "A Roman City in Ancient China," Greece & Rome, 2nd ser., vol. 4, no. 2 (Oct. 1957), pp. 139-48, and J. Thorley, "The Silk Trade Between China and the Roman Empire at Its Height, Circa AD 90-130, " Greece &Rome, 2nd ser., vol. 18, no. 1 (Apr. 1971), pp. 71-80.

15. See Montesquieu, Considerations on the Causes of the Greatness of the Romans and Their Decline, David Lowenthal, trans. (New York: The FreePress, 1965), pp. 36-37; Rostovtzeff, Rome, p. 263; Wells, The Roman Empire, pp. 224-26.
16. My discussion of Roman stereotypes draws heavily on two sources: Balsdon, Romans and Aliens, pp. 1-2, 59-70, 214-19; and Sherwin-White, RacialPrejudice in Imperial Rome, pp. 57-58.
17. See Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol.1, p. 103.
18. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1,p. 70; see Garnsey and Saller, The Roman Empire, p. 15; Heather, The Fallof the Roman Empire, pp. 37, 44.
19. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 178, 186; Mackay, Ancient Rome, p. 258; Montesquieu, Considerations on the Causes of the Greatness of the Romans and Their Decline, p. 24; Roberts, The New History of theWorld, pp. 236-40, 250-51.
20. On the empire's linguistic diversity, see Garnsey and Saller, The Roman Em-pire, pp. 186, 189-92; Millar, The Roman Empire and Its Neighbours, p.153; Wells, The Roman Empire, pp. 134-35.
21. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 35, 110-12, 115; Roberts, The New History of the World, pp. 249-50; Mackay, Ancient Rome, p. 257; Schiavone, The End of the Past, p. 6 (citing Aristides); Wells, The RomanEmpire, pp. 6, 126-29, 142; Holy Bible, C. I. Scofield, ed. (New York: Ox-ford University Press, 1967), Acts 16:35-40, 22:22-29.
22. Balsdon, Romans and Aliens, pp. 85-86, 91, 93-95; Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 116-17, 178; Mackay, Ancient Rome, p. 257; Millar, The Roman Empire and Its Neighbours, p. 196; Roberts, The New History of the World, pp. 249-50; Wells, The Roman Empire, pp. 9, 116-17, 127-29; G. Woolf, “Becoming Roman: The Origins of Provincial Civilizationin Gaul, ” in Roman Imperialism, pp. 231-42. The quote from Aristedes isreproduced in Ando, Imperial Ideology and Provincial Loyalty in the Roman Empire, p. 58.
23. Sherwin-White, Racial Prejudice in Imperial Rome, pp. 3-5, 7, 58-60.
24. See Balsdon, Romans and Aliens, p. 82 (quoting Claudius); R. MacMullen, “Romanization in the Time of Augustus,” in Roman Imperialism, pp. 215,223-24.
25. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1,p. 56.
26. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 168, 170-73; Grant, The History of Rome, pp. 37, 43; Roberts, The New History of the World, pp.254-56.
27. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 168-73, 202; Millar, The Roman Empire and Its Neighbours, pp. 153-54.
28. Champion, Roman Imperialism, pp. 272-75; Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 169-70, 173, 202-3; Mackay, Ancient Rome, pp. 227-28,230;

Roberts, The New History of the World, pp. 263-65, 271. On Julius Caesar and the Jews, see Antony Kamm, Julius Caesar: A Life (London:Routledge, 2006), pp. 120-21, 151.

29. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 174-75; Gibbon, History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1, pp. 526, 550; Roberts, The New History of the World, pp. 270-72; Wells, The Roman Empire, p. 241.
30. On theories of the Roman Empire's decline, see generally Grant, The History of Rome, pp. 332-51; Heather, The Fall of the Roman Empire, pp. 49-142;Roberts, The New History of the World, pp. 276-83; Wells, The Roman Em-pire, pp. 219-21.
31. Pagden, Peoples and Empires, p. 46; see also Garnsey and Saller, The Roman Empire, p. 178; Grant, The History of Rome, p. 324; Mackay, Ancient Rome, p. 257; Roberts, The New History of the World, pp. 276, 289, 292.
32. Garnsey and Saller, The Roman Empire, pp. 174-75; Naphtali Lewis andMeyer Reinhold, Roman Civilization, Selected Readings, 3rd ed., vol. 2(New York: Columbia University Press, 1990), pp. 583-84; Millar, The Ro-man Empire and Its Neighbours, p. 209; Roberts, The New History of theWorld, pp. 271-73; Wells, The Roman Empire, p. 243.
33. Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire,vol. 3 (1776; edited and abridged by Hans-Friedrich Mueller, New York: Modern Library, 2003), pp. 982-83; see Grant, The History of Rome, pp.304-5, 308. Gibbon's view of the role Christianity played in Rome's declinehas been much debated. For just one helpful analysis, see David P. Jordan,Gibbon and His Roman Empire (Urbana: University of Illinois Press, 1971),chap. 7.
34. Averil Cameron, The Later Roman Empire(London: Fontana Press, 1993),pp. 52, 56-59, 69, 71-72; Edward Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 4 (annotated by Dean Milman and M.Guizot, London: John Murray, Albemarle Street, 1862), pp. 179-80;Grant, The History of Rome, pp. 308, 311-12, 348; Lewis and Reinhold, Roman Civilization, p. 584; Millar, The Roman Empire and Its Neigh bours,pp. 240-41, 246-48; Montesquieu, Considérations sur les Causes de laGrandeur des Romains et de Leur Décadence (Paris: GF Flammarion, 1968),p. 162; Roberts, The New History of the World, pp. 287, 294-97.
35. Gibbon, The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. 1,pp. 1046-51; Grant, The History of Rome, pp. 324, 343; Heather, The Fallof the Roman Empire, pp. 186, 211-12, 215; Roberts, The New History ofthe World, pp. 291-93, 294.
36. Grant, The History of Rome, pp. 324-26, 343-45, 352-56; Heather, TheFall of the Roman Empire, pp. 211-12, 215-28; Roberts, The New Historyof the World, pp. 292-94, 301-11.

الفصل الثالث: عصر الصين الذهبي:
سلالة تانغ ذات الدم المختلط

1. See generally Arthur F. Wright and Denis Twitchett, Perspectives on the T'ang (New Haven: Yale University Press, 1973), pp. 1-2, 29, 37-43.
2. Jacques Gernet, A History of Chinese Civilization, J. R. Forster, trans. (Cam-bridge: Cambridge University Press, 1989), pp. 73-100, 680-84; Charles O.Hucker, China's Imperial Past (Palo Alto: Stanford University Press, 1975),pp. 37-40; see generally Wing-Tsit Chan, ed. and trans., A Source Book in Chinese Philosophy(Princeton: Princeton University Press, 1963).
3. Hucker, China's Imperial Past, pp. 21, 43-45; Conrad Schirokauer, A Brief History of Chinese and Japanese Civilizations, 2nd ed. (New York: Harcourt Brace & Co., 1989), pp. 51, 53.
4. Yihong Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan: Sui-Tang China and ItsNeighbors (Bellingham, Wash.: Western Washington University, 1997), pp.18-24; Edwin G. Pulleyblank, "The An Lushan Rebellion and the Originsof Chronic Militarism in Late T'ang China," in Essays on Tang and Pre-Tang China (Hampshire, U.K.: Ashgate, Aldershot, 2001), pp. 33, 36-37; DenisSinor, ed., The Cambridge History of Inner Asia (Cambridge: CambridgeUniversity Press, 1990), pp. 4-5.
5. Hucker, China's Imperial Past, pp. 135-36, 141; Pan, Son of Heaven andHeavenly Qaghan, pp. 3-4, 169, 231-35.
6. Edmund Capon, Tang China: Vision and Splendour of a Golden Age(Lon-don: Macdonald & Co., 1989), pp. 52-53; Valerie Hansen, The Open Em-pire: A History of China to 1600 (New York: W. W. Norton, 2000), pp.153-57.
7. Hansen, The Open Empire, pp. 175-84; Hucker, China's Imperial Past, p.140; Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, p. 31.
8. Hucker, China's Imperial Past, p. 140.
9. Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, p. 181-82 (citation omitted); Pulleyblank, "The An Lu-shan Rebellion," p. 38.
10. Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, p. 182 (citation omitted); Pulley-blank, "The An Lu-shan Rebellion," p. 38.
11. Edward Schafer, The Golden Peaches of Samarkand: A Study of T'ang Ex-otics(Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1963), pp. 1,28-29, 43-57, 81-86, 91, 134-39, 144-62, 176-84.
12. Capon, Tang China, pp. 39, 59, 74-75; C. P. Fitzgerald, China: A Short Cul-tural History (New York: Frederick A. Praeger, 1954), pp. 287-88, 336-37;Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, pp. 37, 215.
13. Tansen Sen, Buddhism, Diplomacy, and Trade: The Realignment of Sino-Indian Relations, 600-1400 (Honolulu: Association for Asian Studies and University of Hawai'i Press, 2003), pp. 46-49.
14. Capon, Tang China, pp. 61-63; Hansen, The Open Empire, p. 205.

15. Capon, Tang China, pp. 59, 62-63; Fitzgerald, China: A Short Cultural His-tory, p. 336.
16. Capon, Tang China, pp. 26-27; Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 244-45; Schirokauer, A Brief History of Chinese and Japanese Civiliza-tions, p. 104.
17. Capon, Tang China, pp. 32-33; Fitzgerald, China: A Short Cultural History,pp. 297-98; Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 256-57; Hansen, The Open Empire, pp. 199-202; Hucker, China's Imperial Past, p. 142.
18. Hansen, The Open Empire, pp. 199-202; Sen, Buddhism, Diplomacy, andTrade, pp. 56, 87-97.
19. Capon, Tang China, pp. 27, 32-33; Gernet, A History of Chinese Civiliza-tion, p. 257; Hansen, The Open Empire, pp. 206-7; Wright and Twitchett,Perspectives on the T'ang, pp. 47-49, 64.
20. Hansen, The Open Empire, pp. 200, 202.
21. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, p. 325; Hansen, The Open Em-pire, pp. 191, 206, 208.
22. Wright and Twitchett, Perspectives on the Tang, p. 1.
23. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, pp. 330-31. On the protectionthe Tang court offered Uighur Manichaean priests, see Colin MacKerras,"Uygur-Tang Relations, 744-840," Central Asian Survey, vol. 19, no. 2(2000), pp. 223, 224, 226-27.
24. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, p. 329; G. R. Hawting, TheFirst Dynasty of Islam: The Umayyad Caliphate AD 661-750, 2nd ed. (Lon-don: Routledge, 2000), pp. 2-3; William H. McNeill, The Rise of the West:A History of the Human Community(Chicago: University of Chicago Press,1963), p. 418; Bat Ye'or, The Dhimmi: Jews and Christians Under Islam,trans. David Maisel, Paul Fenton, and David Littman (Rutherford, N.J.: Fair-leigh Dickinson University Press, 1985), pp. 48, 60, 182-83.
25. Enno Franzius, History of the Byzantine Empire: Mother of Nations(NewYork: Funk & Wagnalls, 1967), pp. 99-100; Edward Gibbon, The Declineand Fall of the Roman Empire, vol. 2 (New York: Modern Library, 1932), p.873; Constance Head, Justinian II of Byzantium(Madison: University ofWisconsin Press, 1972), pp. 63, 68, 100; Cyril Mango, Byzantium: The Em-pire of New Rome(London: Weidenfeld & Nicolson, 1980), p. 91; McNeill,The Rise of the West, p. 418.
26. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, pp. 327-30 (most brackets inoriginal).
27. J. K. Fairbank and S. Y. Teng, "On the Ch'ing Tributary System," HarvardJournal of Asiatic Studies, vol. 10, no. 2 (June 1941), pp. 135, 182, 187, 190(portions omitted).
28. J. C. Russell, The Fontana Economic History of Europe: Population in Eu-rope: 500-1500, vol. 1 (London: Fontana Books, 1969), pp. 19-21; J.C.Russell, "Late Ancient and Medieval Population," Transactions of the Amer-ican Philosophical

Society, vol. 48, part 3 (1958), p. 148 table 152; Hansen, The Open Empire, p. 191; Hugh Kennedy, The Armies of the Caliphs: Mili-tary and Society in the Early Islamic State(New York: Routledge, 2001), pp.18-20; Howard Wechsler, "T'ai-tsung (Reign 626-49) the Consolidator," in Denis Twitchett, ed., The Cambridge History of China, vol. 3, Sui and T'ang China 589-906, part 1 (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), p.207; Charles Issawi, "The Area and Population of the Arab Empire: An Es-say in Speculation," in The Islamic Middle East 700-1900, A. L. Udovitch,ed. (Princeton: Darwin Press, 1981), pp. 381, 388.

29. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, pp. 299-300; Hansen, The OpenEmpire, pp. 222-23; Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, pp. 151-56.
30. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, p. 300; Gernet, A History ofChinese Civilization, pp. 259-60, 266; Hansen, The Open Empire, p. 223;Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, pp. 152-55.
31. Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 260-61; Hansen, The Open Empire, pp. 221, 223-24, 227; Pulleyblank, "The An Lu-shan Rebellion," p.37.
32. Capon, Tang China, p. 33; Gernet, A History of Chinese Civilization, pp.259-62; Hansen, The Open Empire, pp. 227-28; Hucker, China's Imperial Past, pp. 144, 146; Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, pp. 152-56.
33. Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 267, 291-93; Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, p. 161; Pulleyblank, "The An Lu-shan Re-bellion," p. 40.
34. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, p. 338; Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 294-95; Pan, Son of Heaven and Heavenly Qaghan, p. 165.
35. Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 294-95; Hansen, The Open Empire, pp. 241-42.
36. Fitzgerald, China: A Short Cultural History, pp. 302-7; Gernet, A History of Chinese Civilization, pp. 268-73; Hansen, The Open Empire, pp. 243-44;Hucker, China's Imperial Past, pp. 146-47.

الفصل الرابع: إمبراطورية المغول العظمة
البرابرة العالميون

Epigraphs: Both quotes can be found in Jack Weatherford, Genghis Khanand the Making of the Modern World(New York: Crown Publishers, 2004),pp. 79, 160.

This chapter draws heavily on the following secondary sources: WaltherHeissig, A Lost Civilization: The Mongols Rediscovered, D.J.S., trans.Thomson (London: Thames and Hudson, 1966); Harold Lamb, GenghisKhan: The Emperor of All Men(New York: Robert M. McBride & Co.,1927); David Morgan, The Mongols(Oxford: Basil Blackwell, 1990); J. J.Saunders, The History of the Mongol Conquests(London: Routledge & Kegan Paul, 1971); Bertold Spuler, The Muslim World: A Historical Survey,F.R.C. Bagley,

trans., part 2, The Mongol Period(Leiden: E. J. Brill, 1969);and especially Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World. These modern histories in turn rely on various Chinese, Persian, andEuropean primary materials, as well as, most critically, an extraordinaryMongol work known as The Secret History of the Mongols, believed to bewritten contemporaneously with the Mongols' rise to world dominance. Nei-ther the author of The Secret Historynor its exact date of compilation is known. In addition, the original document, most likely written in an adaptedUighur script (the Mongols had no alphabet of their own), has never beenfound. The version of The Secret Historythat has come down to us is a Chi-nese character transcription, probably dating from the fourteenth century,which was discovered in Beijing in the nineteenth century. See Morgan, TheMongols, pp. 5-11; Weatherford, Genghis Khan, pp. xxvii-xxxv.In researching the Mongols, I came across a surprising number of factual discrepancies, no doubt reflecting the linguistic and interpretative difficulties involved in the study of Mongol history. (Even Genghis Khan's exact year of birth is reported differently by different authors.) In these instances, I usually relied on those sources based on the most recent scholarship, research, and archaeological evidence: The collapse of communism in the former Soviet Union opened up many exciting research opportunities for Mongol scholars and historians and cultural anthropologists from around the world.

1. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, p. xviii.
2. Lamb, Genghis Khan, p. 13; Morgan, The Mongols, pp. 58-59; Weather-ford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. xviii, xxii,xxxiii, 9-27, 134, 169, 198.
3. The authority for Genghis Khan's infamous quotation was a medieval chronicler from Asia Minor whose people had been conquered by Genghis Khan;many historians have questioned whether the quotation is authentic. The particular translation I use is from Lamb, Genghis Khan, p. 107; see also Heissig, A Lost Civilization, pp. 9-10. On the gruesome cruelty of the Mon-gols, quite possibly exaggerated by unsympathetic historians, see Lamb, p.134; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp.93-94, 113, 164.
4. Lamb, Genghis Khan, p. 18; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, p. 162.
5. Ala-ad-Din Ata-Malik Juvaini, The History of the World-Conqueror, John Andrew Boyle, trans., vol. 1 (Cambridge Mass.: Harvard University Press,1958), p. 21; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 14, 27-28.
6. Thomas J. Barfield, The Perilous Frontier: Nomadic Empires and China(Cambridge, Mass.: Basil Blackwell, 1989), pp. 187-89; Heissig, A Lost Civilization, pp. 44-45; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. xix, 13, 25, 50-53.
7. Heissig, A Lost Civilization, p. 44; Juvaini, The History of the World-

Conqueror, p. 35; Lamb, Genghis Khan, pp. 35-37; Weatherford, GenghisKhan and the Making of the Modern World, pp. 25-29. Even before Temu-jin was born, his father had, at a critical point, helped Ong Khan consolidatehis power. The two men then formed a so-called andabond, in which eachpledged to aid the other in times of distress. See Paul Kahn, The Secret His-tory of the Mongols: The Origin of Chingis Khan(San Francisco: NorthPoint Press, 1984), p. xxiv.

8. Lamb, Genghis Khan, pp. 55-56; Weatherford, Genghis Khan and the Mak-ing of the Modern World, pp. 30-35, 42-54.
9. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 28,52-53.
10. Barfield, The Perilous Frontier, pp. 191, 193; Lamb, Genghis Khan, pp.45-46; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World,pp. 40, 52, 67, 152-54.
11. Barfield, The Perilous Frontier, pp. 190-91; Lamb, Genghis Khan, pp.57-59; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World,pp. 32, 55-58.
12. Barfield, The Perilous Frontier, p. 191; Weatherford, Genghis Khan and theMaking of the Modern World, pp. 54, 58-59, 61-62, 64-65.
13. Lamb, Genghis Khan, pp. 201-4; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 67-71. In addition to conquering much of the Eastern Hemisphere, Genghis Khan is usually credited with introducing the Yassa Gengizcani, or Great Laws of Genghis Khan. It is not known whether these laws were actually codified during Genghis Khan's lifetime. No com-plete version of the Yassa from Genghis Khan's time has ever been found, al-though the Persian chronicler Juvaini gave a lengthy description of GenghisKhan's rules and regulations thirty years after Genghis Khan's death. For anerudite discussion of the origins and widespread influence of the Yassa, aswell as the scholarly debate surrounding it, see Robert D. McChesney, "The Legacy of Chinggis Khan in Law and Politics," lecture delivered to the Indo-Mongolian Society at New York University, Mar. 28, 1997.
14. Heissig, A Lost Civilization, pp. 36-39; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 70-71.
15. Lamb, Genghis Khan, pp. 77-80.
16. Barfield, The Perilous Frontier, p. 199; Heissig, A Lost Civilization, p. 46;Lamb, Genghis Khan, pp. 83-84; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 82-85.
17. Lamb, Genghis Khan, pp. 85-87, 121; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 84, 86-87.
18. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp.92-94.

19. Lamb, Genghis Khan, pp. 91-92; Weatherford, Genghis Khan and the Mak-ing of the Modern World, pp. 96-97.
20. Heissig, A Lost Civilization, pp. 9, 46-47; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 96-99.
21. Lamb, Genghis Khan, pp. 13, 91-92, 101, 104-7, 119, 190-91; Weather-ford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 97-105.
22. I quote Jack Weatherford's translation of Genghis Khan's message. Weather-ford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 105-7; see also Lamb, Genghis Khan, pp. 109-11, 113-15.
23. Lamb, Genghis Khan, pp. 119-21; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 4-5, 7-8.
24. Barfield, The Perilous Frontier, pp. 201-2; Heissig, A Lost Civilization, p. 10;Lamb, Genghis Khan, pp. 115, 135, 138-39; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 5-7, 108-9, 113-14, 117-18.
25. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 4-6,9, 110-13.
26. Kahn, The Secret History of the Mongols, p. xxvi; Lamb, Genghis Khan, pp.143-44, 175-76; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. xx-xxi, 128, 130-31.
27. Lamb, Genghis Khan, pp. 188-89; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 119-25, 130.
28. Lamb, Genghis Khan, pp. 144, 181, 231; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 133-43.
29. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp.144-50.
30. Ibid., pp. 152, 155-59.
31. Morgan, The Mongols, pp. 151, 153; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 104-10; Spuler, The Muslim World, pp. 19-20; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 166-67, 177,180-81.
32. Thomas T. Allsen, Mongol Imperialism: The Policies of the Grand QanMöngke in China, Russia, and the Islamic Lands, 1251-1259(Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1987), pp. 3, 7; Morgan, The Mongols, pp. 153-54; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp.110-11; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 178-84.
33. Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 111-13; Spuler, The Muslim World, pp. 19-20; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 183-84.
34. Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp.171-73.

35. En no Franzius, History of the Byzantine Empire: Mother of Nations(New York: Funk & Wagn alls, 1967), pp. 349, 353; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 173-74.
36. Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 68, 103-4, 114-15;Spuler, The Muslim World, pp. 17, 20; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 6, 33, 82-84, 169-70, 185, 188.
37. Morgan, The Mongols, pp. 117-20; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 116, 119-21; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 185-91.
38. Valerie Hansen, The Open Empire: A History of China to 1600(New York:W.W. Norton, 2000), p. 347; Morgan, The Mongols, p. 120; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 121-22; Weatherford, Genghis Khanand the Making of the Modern World, pp. 195, 208-9.
39. Hansen, The Open Empire, pp. 344, 352, 366; Heissig, A Lost Civilization,p. 51; Lamb, Genghis Khan, p. 193; Morgan, The Mongols, pp. 119,120-23, 127-28, 163; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp.121-27; Spuler, The Muslim World, pp. 32-33; Weatherford, Genghis Khanand the Making of the Modern World, pp. 195-97, 203-7.
40. Hansen, The Open Empire, p. 352; Morgan, The Mongols, pp. 123-24,128-30; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 124-26;Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 198-200, 203.
41. Morgan, The Mongols, pp. 128-30; Saunders, The History of the MongolConquests, pp. 124-25; Weatherford, Genghis Khan and the Making of theModern World, pp. 223-24.
42. Morgan, The Mongols, pp. 120, 131-32; Weatherford, Genghis Khan andthe Making of the Modern World, pp. 200-1, 206.
43. Morgan, The Mongols, pp. 103-6; Weatherford, Genghis Khan and theMaking of the Modern World, pp. xxiii, 220-21, 224, 228-34.
44. Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 123, 127; Weatherford,Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 195, 205-6, 209,223, 230-31, 234.
45. Morgan, The Mongols, pp. 133-34, 157-60; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 116-17, 134-36, 140-41, 146, 156-60; Weather-ford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 243-48, 250,252-53.
46. Morgan, The Mongols, pp. 132-35; Saunders, The History of the Mongol Conquests, pp. 152-54; Weatherford, Genghis Khan and the Making of the Modern World, pp. 243, 248-51.

القسم الثاني: التنوير المنبثقة من التسامح
الفصل الخامس: "تطهير" أسبانيا في العصور الوسطى:
محاكم التفتيش والطرد وثمن التعصب

Epigraph: The 1492 expulsion decree is translated by Henry Kamen and re-produced in his chapter "The Expulsion: Purpose and Consequence," in ElieKedourie, ed., Spain and the Jews: The Sephardi Experience 1492 and After(London: Thames and Hudson, 1992), pp. 80-81.

1. See J. H. Elliott, Imperial Spain, 1469-1716(New York: St. Martin's Press,1964), pp. 5-7, 9.
2. Elie Kedourie, "Introduction," in Spain and the Jews, p. 8, David Nirenberg, Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages(Princeton: Princeton University Press, 1996), pp. 19, 21-23, 133.
3. Angus MacKay, "The Jews in Spain During the Middle Ages," in Spain and the Jews, pp. 33-34, 46-50; Kamen, "The Expulsion," pp. 79-80; Niren-berg, Communities of Violence, pp. 130, 132-33, 140. On Spain's "pre-modern" brand of toleration, see Henry Kamen, "Inquisition, Toleration and Liberty in Eighteenth-Century Spain," in Ole Peter Grell and Roy Porter,eds., Toleration in Enlightenment Europe(Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp. 250-52.
4. Nirenberg, Communities of Violence, pp. 23, 25-26, 38-39.
5. Elliott, Imperial Spain, 1469-1716, pp. 9, 95; Kedourie, Spain and the Jews,pp. 8, 10, 33-35, 49, 61, 68-69; Nirenberg, Communities of Violence, pp.27-29.
6. MacKay, "The Jews in Spain During the Middle Ages," pp. 35-36, 48; Jon-athan Israel, "The Sephardim in the Netherlands," in Spain and the Jews, pp.189-90; Nirenberg, Communities of Violence, pp. 174-75.
7. Henry Kamen, Spain's Road to Empire: The Making of a World Power,1492-1763(London: Allen Lane, 2002), pp. 22, 181; Kamen, "The Expul-sion," pp. 75, 82, 85; Haim Beinart, "The Conversos and Their Fate," in Spain and the Jews, pp. 106, 108, 114, 142.
8. Elliott, Imperial Spain, 1469-1716, pp. 1, 15, 19-23; Julius Klein, The Mesta:A Study in Spanish Economic History, 1273-1836(Cambridge Mass.: Har-vard University Press, 1920), p. 38; Immanuel Wallerstein, Capitalist Agricul-ture and the Origins of the European World-Economy in the SixteenthCentury, vol. 1 of The Modern World-System(San Diego: Academic Press,1980), pp. 192-93 and 193n.136 (citations omitted); John Elliott, "The De-cline of Spain," Past & Present(Nov. 1961), pp. 52, 54-55, 69-70; RuthPike, "The Genoese in Seville and the Opening of the New World," The Jour-nal of Economic History, vol. 22, no. 3 (1962), pp. 355, 357, 359.
9. Kamen, Spain's Road to Empire, pp. 69-70, 88-89; John Lynch, "Spain

After the Expulsion," in Spain and the Jews, pp. 147-48, 151; Wallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp.183, 185, 195.

10. Kamen, "The Expulsion," p. 84; Lynch, "Spain After the Expulsion," pp.140, 144-45, 148-53; Wallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp. 194-96.
11. Kedourie, Spain and the Jews, pp. 16, 149-52; James MacDonald, A Free Nation Deep in Debt(New York: Farrar, Straus & Giroux, 2003), pp.133-35; Wallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp. 186-87, 195, 204-5. On the expulsion of the Jesuits,see Bernard Moses, Spain's Declining Power in South America, 1730-1806(Berkeley: University of California Press, 1919), pp. 104-7.
12. Max Boot, War Made New: Technology, Warfare, and the Course of History,1500 to Today(New York: Gotham Books, 2006), pp. 30-45; MacDonald, A Free Nation Deep in Debt, pp. 132-34; Waller stein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp. 192-97.
13. The nineteenth-century Spanish writer was Marcelino Menéndez Pelayo,who is quoted in Lynch, "Spain After the Expulsion," pp. 159-60.
14. Kamen, "The Expulsion," pp. 75, 84; Lynch, "Spain After the Expulsion,"p. 145.
15. Lynch, "Spain After the Expulsion," p. 140. On the general intolerance of seventeenth-century Europe, see Wiebe Bergsma, "Church, State, and People," in Karel Davids and Jan Lucassen, eds., A Miracle Mirrored: The DutchRepublic in European Perspective(Cambridge: Cambridge University Press,1995), pp. 204-13.
16. Wallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp. 197-98.

الفصل السادس: الإمبراطورية الهولندية العالمية:
الألماس والدّمقس وكافة "المذاهب الهجينة في العالم المسيحي"

Epigraphs: The Dutch author was Melchior Fokkens, quoted in SimonSchama's wonderful book The Embarrassment of Riches: An Interpretation of Dutch Culture in the Golden Age(New York: Alfred A. Knopf, 1987), p.300. The quote from Peter Mundy can be found in Richard Carnac Temple,ed., The Travels of Peter Mundy in Europe and Asia, 1608-1667, vol. 4(London: Cambridge University Press, 1925), p. 68.

1. On civet cats and the civet trade, see Jonathan I. Israel, Empires and Entre-pots: The Dutch, the Spanish Monarchy and the Jews, 1585-1713(London: Hambledon Press, 1990), pp. 357, 427, 435-36; William Jackson,

"The Story of Civet," Pharmaceutical Journal, vol. 271 (Dec. 2003), pp. 859-61;Brendan Koerner, "What Does Civet Cat Taste Like?," Slate, Jan. 6, 2004, atslate.msn.com/id/2093538/.

2. I. Schöffer, "Introduction," in J.C.H. Blom, R. G. Fuks-Mansfeld, and I.Schöffer, eds., The History of the Jews in the Netherlands, Arnold J. Pomer-ans and Erica Pomerans, trans. (Oxford: Littman Library of Jewish Civilization, 2002), pp. 9-10; Mark T. Hooker, The History of Holland(Westport, Conn.: Greenwood Press, 1999), pp. 3, 14, 87-90.
3. Schama, The Embarrassment of Riches, p. 44. On the watery, inauspiciousorigins of the Netherlands before its dramatic rise, see Jonathan I. Israel, The Dutch Republic: Its Rise, Greatness, and Fall, 1477-1806(Oxford: Clarendon Press, 1995), pp. 9-10; Hooker, The History of Holland, pp. 7-8. The "sand and mud dump" description is from Joh. Van Veen, Dredge, Drain,Reclaim(The Hague: Martinus Nijhoff, 1948), p. 11.
4. B.M.J. Speet, "The Middle Ages," in The History of the Jews in the Nether-lands, p. 18; Israel, Empires and Entrepots, p. x; J. L. van Zanden, The Riseand Decline of Holland's Economy(Manchester: Manchester UniversityPress, 1993), p. 19.
5. Speet, "The Middle Ages," pp. 21, 26-29.
6. See Thomas Colley Grattan, Holland: The History of the Netherlands(NewYork: Peter Fenelon Collier, 1899), pp. 84-94; Hooker, The History of Hol-land, pp. 77-79; Israel, The Dutch Republic, pp. 27-28, 34-35; ImmanuelWallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century, vol. 1 of The Modern World-System(San Diego: Academic Press, 1980), pp. 180-81. On the rise of Calvinism, the early Dutch Reformation, and growing conflict under Philip I, see Grattan, pp. 96-98; Israel, chaps. 5 and 6, especially pp. 101-5, 129, 141-47,193-94; Charles Wilson, The Dutch Republic and the Civilisation of the Seventeenth Century(New York: McGraw-Hill, 1968), pp. 8-9.
7. The quote is from Israel, The Dutch Republic, pp. 155-56; see also pp.140-54, 157, 160-61, 164, 167, 169, 177-80; Hooker, The History of Holland, pp. 83-87; P.J.A.N. Rietbergen and G.H.J. Seegers, A Short History of the Netherlands(Amersfoort, Netherlands: Bekking Publishers Amersfoort,1992), pp. 67-76.
8. Hooker, The History of Holland, pp. 83-87; Israel, The Dutch Republic, pp.184-86, 198-99, 202, 209, 213-14; Rietbergen and Seegers, A Short Historyof the Netherlands, pp. 67-76. The Hooft quote is from Schama, The Em-barrassment of Riches, p. 86. The text of the Oath of Abjuration can befound at Oliver J. Thatcher, ed., The Library of Original Sources, vol. 5 (Mil-waukee: University Research Extension Co., 1907), p. 190.

9. Hooker, The History of Holland, pp. 88-89; Israel, The Dutch Republic, pp.208-10, 212-13, 218-30; Rietbergen and Seegers, A Short History of the Netherlands, p. 76.
10. Israel, Empires and Entrepots, p. ix; Immanuel Wallerstein, Mercantilismand the Consolidation of the European World-Economy, 1600-1750, vol. 2of The Modern World-System(San Diego: Academic Press, 1980), p. 38.
11. Wiebe Bergsma, "Church, State, and People," in Karel Davids and Jan Lu-cassen, eds., A Miracle Mirrored: The Dutch Republic in European Perspec-tive(Cambridge: Cambridge University Press, 1995), pp. 196-97, 202-4,217, 223; Israel, The Dutch Republic, pp. 392, 637-76; Schama, The Embarrassment of Riches, pp. 61-62.
12. Schama, The Embarrassment of Riches,pp. 587-89, 594; Daniel M.Swetschinski, "From the Middle Ages to the Golden Age, 1516-1621," andYosef Kaplan, "The Jews in the Republic Until About 1750: Religious, Cultural, and Social Life," both in The History of the Jews in the Netherlands, pp. 68-71, 117, 126-27, 137-40, 142-44.
13. Schama, The Embarrassment of Riches, pp. 266-67; see also Israel, The Dutch Republic, pp. 639-40. The quotes from Balzac and Mundy can befound in Bergsma, "Church, State, and People," pp. 196, 203.
14. Israel, The Dutch Republic, pp. 308, 319-20, 328, 374-75, 621, 657-58,786, 910; Van Zanden, The Rise and Decline of Holland's Economy, pp. 23-26, 35-36, 44-48, 52-53, 62; Wallerstein, Mercantilism and the Consol-idation of the European World-Economy, pp. 45, 64, 67. On the English Pil-grims, see Russell Shorto, The Island at the Center of the World(New York:Doubleday, 2004), p. 26.
15. On the history of diamonds, see Harry Emanuel, Diamonds and PreciousStones, 2nd ed. (London: John Camden Hotten, 1867), pp. 53-55, 79-80,84; Edward Jay Epstein, The Rise and Fall of Diamonds(New York: Simon& Schuster, 1982), pp. 76-77, 103-4; Godehard Lenzen, The History of Di-amond Production and the Diamond Trade(London: Barrie and Jenkins),pp. 32-34; Gedalia Yogev, Diamonds and Coral: Anglo-Dutch Jews andEighteenth-Century Trade(Leicester: Leicester University Press, 1978), pp.154-55. On Antwerp in the sixteenth century, see Grattan, Holland, p. 94;Wallerstein, Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy, pp. 175-76.
16. Israel, Empires and Entrepots, pp. 417-18, 422, 425-28, 432-35, 444-46;Kaplan, "The Jews in the Republic Until About 1750," pp. 146-49.
17. See Israel, Empires and Entrepots, pp. 356, 417-22, 426, 433-34.
18. C. R. Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800(New York: Alfred A.Knopf, 1965), pp. xx-xxi, 2-3; Israel, The Dutch Republic, pp. 22-23, 104,116, 146-47, 193-94, 308-9, 311, 344-45, 349-50, 413; Wilson, TheDutch Republic, pp. 8-9.

19. Karel Davids, “Shifts of Technological Leadership in Early Modern Europe,”in A Miracle Mirrored, chap. 11; Israel, The Dutch Republic, pp. 16, 18,116-17, 316, 348-50; Van Zanden, The Rise and Decline of Holland’s Econ-omy, pp. 30-36; Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the Eu-ropean World-Economy, pp. 39-42, 46 (quoting Daniel Defoe); Wilson, TheDutch Republic, pp. 30-31.
20. Israel, The Dutch Republic, pp. 311-13, 316-18, 320-21, 326, 345-46, 350;Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, pp. 50-55.
21. Israel, The Dutch Republic, pp. 319-24, 344-48, 380-82; Wallerstein, Mer-cantilism and the Consolidation of the European World-Economy, pp.48-51.
22. Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800, pp. 114-15.
23. Grattan, Holland, pp. 215-16; Israel, The Dutch Republic, pp. 244-45,262-71, 322-27, 399-405, 934; Israel, Empires and Entrepots, pp. 199-204; Shorto, The Island at the Center of the World, pp. 24-33; Wallerstein,Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, pp.64-65 & 65n.169.
24. Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800, p. xxi; Israel, The DutchRepublic, pp. 326, 934-40; Israel, Empires and Entrepots, pp. 419, 424-25,430-33, 437-40, 443-44; Wallerstein, Mercantilism and the Consolidationof the European World-Economy, pp. 50-51.
25. Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800, p. 27. The list of unloadedluxury goods is from Schama, The Embarrassment of Riches, pp. 346-47.
26. n this section I draw heavily on chaps. 3 and 5 of Simon Schama’s The Em-barrassment of Riches, especially pp. 295-304. On the Dutch Republic’s rel-atively high standard of living, see pp. 322-23 of Schama’s book and Israel,The Dutch Republic, pp. 351-53, 622-24, 630-33. William Temple’s quote on Dutch parsimony can be found at Peter Spufford, “Access to Credit andCapital in the Commercial Centers of Europe,” in A Miracle Mirrored,p.316.
27. Schama, The Embarrassment of Riches, pp. 150-52, 174-75, 182-85, 189,191, 196, 198, 200.
28. Ibid., pp. 182-85, 191-92, 194-95, 197.
29. Israel, The Dutch Republic, pp. 627-30, 677; Van Zanden, The Rise and De-cline of Holland’s Economy, pp. 50-52, 62-63; Wallerstein, Mercantilismand the Consolidation of the European World-Economy, pp. 45, 64-67; Wil-son, The Dutch Republic, p. 165-67.
30. Wilson, The Dutch Republic, pp. 60-64, 118-24, 165-77. The quote fromDescartes is from Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800, p. 184.

31. Boxer, The Dutch Seaborne Empire, 1600-1800, pp. xx-xxi; Israel, TheDutch Republic, pp. 267-71, 796-97, 812-14, 825; Wallerstein, Mercantil-ism and the Consolidation of the European World-Economy, pp. 64-65 &65n.169, 70; Jonathan Scott, "What the Dutch Taught Us: The Late Emer-gence of the Modern British State," Times Literary Supplement, Mar. 16,2001, p. 6.
32. Grattan, Holland, pp. 81-85; Israel, The Dutch Republic, pp. 537, 773; Al-fred Thayer Mahan, The Influence of Sea Power Upon History, 1660-1783(New York: Sagamore Press, 1957), pp. 58-59, 81-82, 84-85; Wallerstein,Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, p. 46& 46n.60 (citation omitted); Wilson, The Dutch Republic, p. 40.
33. Davids, "Shifts of Technological Leadership in Early Modern Europe,"p.341.
34. See M.A.M. Franken, "The General Tendencies and Structural Aspects of the Foreign Policy and Diplomacy of the Dutch Republic in the Latter Half of the 17th Century," Acta Historiae Neerlandica, vol. 3 (1968), pp. 4-5;Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the European World-Economy, pp. 37-39, 64nn.166, 168, and 169.
35. Israel, The Dutch Republic, pp. 9, 802, 850-52.
36. On the Glorious Revolution and the role played by Dutch Sephardic Jews,see Israel, The Dutch Republic, pp. 819, 841, 849-53; Israel, Empires and Entrepots, pp. 444-45; Jonathan I. Israel, European Jewry in the Age of Mercantilism, 1550-1750, 2nd ed. (Oxford: Clarendon Press, 1989),pp.127-30. Regarding the transfer of human and financial capital from Hol-land to Britain after 1688, see Spufford, "Access to Credit and Capital in the Commercial Centers of Europe," pp. 328-29, and Karel Davids and Jan Lu-cassen, "Conclusion," in A Miracle Mirrored, p. 450.

الفصل السابع: التسامح والتعصب في الشرق:
الإمبراطوريات العثمانية، والمينغية والمغولية

1. C. E. Bosworth, "The Concept of Dhimmain Early Islam," in BenjaminBraude and Bernard Lewis, eds., Christians and Jews in the Ottoman Em-pire: The Functioning of a Plural Society, vol. 1 (New York: Holmes & MeierPublishers, 1982), pp. 41, 49-50; Avigdor Levy, "Introduction," in AvigdorLevy, ed., The Jews of the Ottoman Empire(Princeton: Darwin Press, 1994),pp. 15-16; Bruce Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World: The Roots of Sectarianism(Cambridge: Cambridge University Press, 2001),pp. 18-26; María Rosa Menocal, The Ornament of the World: How Mus-lims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain(Boston: Little, Brown and Co., 2002), pp. 5-31.
2. Levy, "Introduction," pp. 10-12, 24-25; Aron Rodrigue, "The Sephardim

inthe Ottoman Empire," in Elie Kedourie, ed., Spain and the Jews: TheSephardi Experience: 1492 and After(London: Thames and Hudson, 1992),p. 164; Annette B. Fromm, "Hispanic Culture in Exile: Sephardic Life in theOttoman Balkans," in Zion Zohar, ed., Sephardic and Mizrahi Jewry: Fromthe Golden Age of Spain to Modern Times(New York: New York UniversityPress, 2005), p. 152; Stanford J. Shaw, "The Jewish Millet in the OttomanEmpire," available at www.yeniturkiye.com/display.asp?c=3012.

3. Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World,pp. 17-18, 29,31-34, 38; John Freely, Inside the Seraglio:Private Lives of the Sultans in Is-tanbul(London: Viking, 1999), pp. 45-46 (Selim the Grim), 50-69 (Suley-man); see generally Metin Kunt and Christine Woodhead, eds., Süleyman theMagnificent and His Age: The Ottoman Empire in the Early Modern World(London: Longman, 1995).
4. Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World, pp. 18, 23, 39.
5. Levy, "Introduction," pp. 15-16, 32-34; Masters, Christians and Jews in theOttoman Arab World, pp. 6, 22; Bosworth, "The Concept of DhimmainEarly Islam," pp. 5-9.
6. Levy, "Introduction," pp. 15, 18; Metin Kunt, "Transformation of Zimmiinto Askeri," in Christians and Jews in the Ottoman Empire, pp. 55, 60-63.
7. Karen Barkey, Bandits and Bureaucrats: The Ottoman Route to Civilization(Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1994), p. 31; Albert Howe Lybyer,The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Mag-nificent(Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1913), p. 167; PaulM. Pitman III, ed., Turkey: A Country Study(Washington, D.C.: Federal Re-search Division of the Library of Congress, 1987); Bosworth, "The Conceptof Dhimmain Early Islam," pp. 11-12.
8. Levy, "Introduction," pp. 21-28; Masters, Christians and Jews in the Ot-toman Arab World, pp. 24, 26-27, 42-47, 50-52; Robert Mantran, "For-eign Merchants and the Minorities in Istanbul in the Sixteenth andSeventeenth Centuries," in Christians and Jews in the Ottoman Empire, pp.127, 132-34.
9. Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change andMilitary Conflict from 1500 to 2000(New York: Vintage Books, 1989), pp.5, 11-12; Donald Quataert, The Ottoman Empire, 1700-1922(Cambridge:Cambridge University Press, 2000), p. 3.
10. Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers, pp. 11-12.
11. Ibid.; Levy, "Introduction," pp. 73-74; Masters, Christians and Jews in theOttoman Arab World, pp. 7-8, 129, 141-44.
12. Levy, "Introduction," pp. 74-76, 79-86.
13. On the Ottoman decline, see for example Ekmeleddin Ihsanoglu, ed., Historyof the Ottoman State, Society, and Civilization, vol. 1 (Istanbul:

ResearchCenter for Islamic History, Art, and Culture, 2001), pp. 43-44, 53-57, 95-100, 108; Charles Swallow, The Sick Man of Europe: Ottoman Empire toTurkish Republic, 1789-1923(London: Ernest Benn, 1973), pp. 5-6, 13-14. On the Armenian massacre, see Vahakn N. Dadrian, "Genocide as a Prob-lem of National and International Law: The World War I Armenian Case andIts Contemporary Legal Ramifications," Yale Journal of International Law,vol. 14 (1989), pp. 221, 242-45, 262-64, 272.

14. Valerie Hansen, The Open Empire: A History of China to 1600(New York:W.W. Norton, 2000), pp. 378-79; Kennedy, The Rise and Fall of the GreatPowers, pp. 4-7; Gavin Menzies, 1421: The Year China Discovered America(New York: HarperCollins, 2003), pp. 45, 52, 63, 70; Philip Snow, The StarRaft: China's Encounter with Africa(New York: Weidenfeld & Nicolson,1988), pp. 21-23.
15. Edward L. Dreyer, Zheng He: China and the Oceans in the Early Ming Dy-nasty, 1405-1433(New York: Pearson Education, 2007), pp. 1-38; Hansen,The Open Empire, pp. 371-83; Snow, The Star Raft, pp. 10, 21-22; see alsoJulie Wilensky, "The Magical Kumlunand 'Devil Slaves': Chinese Percep-tions of Dark-Skinned People and Africa Before 1500," Sino-Platonic Pa-pers, vol. 122 (July 2002).
16. Hansen, The Open Empire, pp. 381-82; Snow, The Star Raft, pp. 21-22.
17. Hansen, The Open Empire, p. 379; G. F. Hudson, Europe and China(Lon-don: Edward Arnold & Co., 1931), pp. 195-96; Menzies, 1421: The YearChina Discovered America, p. 60; Snow, The Star Raft, pp. 29, 32.
18. Hansen, The Open Empire, pp. 383-87; Kennedy, The Rise and Fall of theGreat Powers, pp. 7-9.
19. See J. N. Datta, "Proportion of Muhammadans in India Through Centuries,"Modern Review, vol. 78 (Jan. 1948), pp. 31, 33. On the destruction of themosque in Ayodhya in 1992 and the claims of Hindu nationalists, seeAmartya Sen, The Argumentative Indian(London: Penguin, 2005), pp. 48,209, 287.
20. My discussion of Babur and Humayun draws heavily on Abraham Eraly, TheMughal Throne: The Saga of India's Great Emperors(London: Weidenfeld& Nicolson, 1997), pp. 15, 22-27 (Battle of Khanua), 103-13 (Humayun);see also Richard C. Foltz, Mughal India and Central Asia(Karachi, Pakistan:Oxford University Press, 1998), pp. xv, 130; John F. Richards, The MughalEmpire, The New Cambridge History of India(Cambridge: Cambridge Uni-versity Press, 1993), pp. 1-8, 12. For a discussion of the rise of Islam in In-dia and the reign of the so-called Delhi sultanate, see Francis Watson, AConcise History of India(New York: Charles Scribner, 1975), pp. 87-104.
21. Akbar's letter to Philip is reproduced in Pankaj Mishra, "The First

LiberalImperialist," New Statesman, Mar. 24, 2003, available at www.newstatesman.com/200303240028.

22. For a general account of Akbar's reign, see Eraly, The Mughal Throne, pp.114-36. On his alliances with the Rajputs, see Richards, The Mughal Em-pire, pp. 19-26; Norman Ziegler, "Some Notes on Rajput Loyalties Duringthe Mughal Period," in Muzaffar Alam and Sanjay Subrahmanyam, eds.,The Mughal State, 1526-1750(Delhi: Oxford University Press, 1998), pp.168, 174-75. On religious policy during Akbar's reign, see Harbans Mukhia,The Mughals of India(Malden, Mass.: Blackwell Publishing, 2004), pp. 23,47, 99; Sen, The Argumentative Indian, pp. 16-21; Sri Ram Sharma, The Re-ligious Policy of the Mughal Emperors(Bombay: Asia Publishing House,1972), pp. 36-52, 56-66.

23. My discussion of Jahangir and Shah Jahan is based on Eraly, The MughalThrone, pp. 238-43, 304-5, 308-30; Mukhia, The Mughals of India, p. 20;Saiyid Athar Abbas Rizvi, Muslim Revivalist Movements in Northern Indiain the Sixteenth and Seventeenth Centuries(Agra, India: Balkrishna BookCo., 1965), p. 328. On the Peacock Throne, see K.R.N. Swamy, "As Price-less as the Peacock Throne," The Tribune(India), Jan. 20, 2000, available atwww.tribuneindia.com/2000/20000130/spectrum/main7.htm.

24. On Aurangzeb's struggle for the throne and intolerant policies, see Eraly, TheMughal Throne, pp. 334-36, 370, 391-92, 401; Mukhia, The Mughals ofIndia, pp. 24-26, 34-36; Richards, The Mughal Empire, pp. 171-84; Stan-ley Wolpert, A New History of India,7th ed. (New York: Oxford UniversityPress, 2004), pp. 159-60, 168.

الفصل الثامن: الإمبراطورية البريطانية:
"المتمردون الأوغاد" والعبء الملقى على كاهل الرجل الأبيض

Epigraphs: The Voltaire quote can be found in Ole Peter Grell and RoyPorter, "Toleration in Enlightenment Europe," in Ole Peter Grell and RoyPorter, eds., Toleration in Enlightenment Europe(Cambridge: CambridgeUniversity Press, 2000), p. 4. Kipling's quote can be found in RudyardKipling, Plain Tales from the Hills, H. R. Woudhuysen, ed. (London: Pen-guin, 1990), p. 162. Gandhi's quote can be found in Gandhi, Young India1919-1922(New York: B. W. Huebsch, Inc., 1924), p. 299.

1. ThecomparisonofBritonsto"Cannibals"isfroma1648Englishpamphlet,quotedinJonathanScott,"What the Dutch Taught Us: The Late Emergenceof the Modern British State," Times Literary Supplement, Mar. 16,2001,pp.4-5. Excellent discussions of intolerance in pre-Enlightenment Britain in-clude the scholarly essays in Ruth Whelan and Carol Baxter, eds., Tolerationand Religious Identity: The Edict of Nantes

and Its Implications in France,Britain and Ireland(Dublin: Four Courts Press, 2003), especially John Miller,"Pluralism, Persecution and Toleration in France and Britain in the Seven-teenth Century," pp. 166-78.

It is often overlooked how much Britain's transformation and rise toglobal dominance after 1688 was influenced by the Dutch. On this topic, seeImmanuel Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the EuropeanWorld-Economy, 1600-1750, vol. 2 of The Modern World-System(SanDiego: Academic Press, 1980), pp. 67, 277-79, 285-86; Charles Wilson, TheDutch Republic and the Civilisation of the Seventeenth Century(New York:McGraw-Hill, 1968), pp. 240-41; Scott, "What the Dutch Taught Us," pp.4, 6.

2. Diderot lamented that France had expatriated a "prodigious multitude of ex-cellent people," thereby "enriching neighboring Kingdoms." Alan C. Kors,"The Enlightenment and Toleration," in Toleration and Religious Identity,pp. 202-3. On the Bill of Rights and Act of Toleration, see Linda Colley,Britons: Forging the Nation, 1707-1837(New Haven: Yale University Press,1992), pp. 111-12; Justin Champion, "Toleration and Citizenship in Enlight-enment England: John Toland and the Naturalization of the Jews, 1714-1753," in Toleration in Enlightenment Europe, p. 133. On the role of Jewsin Great Britain, see Todd M. Endelman, The Jews of Britain, 1656 to 2000 (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2002), pp. 15-17,19-21, 24-25, 28-29; Jonathan I. Israel, European Jewry in the Age of Mer-cantilism, 1550-1750, 2nd ed. (Oxford: Clarendon Press, 1989), pp. 5, 57,127-30.
3. Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 24-25; Wallerstein, Mercantilismand the Consolidation of the European World-Economy, pp. 245-46, 248.
4. Israel, European Jewry in the Age of Mercantilism, pp. 123, 127-30,132-34; Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the EuropeanWorld-Economy, pp. 258, 277-81, 285; Scott, "What the Dutch Taught Us,"pp. 5-6.
5. Endelman, The Jews of Britain, 1656 to 2000, pp. 47-49, 66; Wilson, TheDutch Republic, p. 240; Niall Ferguson, Empire: How Britain Made theModern World(London: Allen Lane, 2003), pp. 36-38; Peter Spufford, "Ac-cess to Credit and Capital in the Commercial Centers of Europe," in KarelDavids and Jan Lucassen, eds., A Miracle Mirrored: The Dutch Republic inEuropean Perspective(Cambridge: Cambridge University Press, 1995), pp.328-29; Peter Spufford, "From Antwerp to London: The Decline of Finan-cial Centres in Europe," Ortelius Lecture, Netherlands Institute for Ad-vanced Study, May 18, 2005, pp. 30-31. A good treatment of the Bank ofEngland is John Giuseppi, The Bank of England: A History from Its Foun-dation in 1694(Chicago: Henry Regnery Co., 1996).
6. Endelman, The Jews of Britain, 1656 to 2000, pp. 49, 66, 92-93;

Spufford,"Access to Credit and Capital in the Commercial Centers of Europe," pp.328-29; Spufford, "From Antwerp to London," pp. 30-31; Gedalia Yogev,Diamonds and Coral: Anglo-Dutch Jews and Eighteenth-Century Trade(Leicester: Leicester University Press, 1978), pp. 20-21. See also William J.Bernstein, The Birth of Plenty: How the Prosperity of the Modern WorldWas Created(New York: McGraw-Hill, 2004), pp. 146-49, 154-60.

7. Endelman, The Jews of Britain, 1656 to 2000, pp. 6, 41-44, 73, 79, 93, 153.
8. Ibid., pp. 8-9, 35-38, 79, 101-7, 127, 164, 173.
9. My discussion of the Huguenots, France's religious wars, and the EdictofNantes and its Revocation draws heavily on R. J. Knecht, The Rise andFall of Renaissance France, 1483-1610(London: Fontana Press, 1996),pp.308-11, 322-25, 351-438, 542-47, 572-77; G. A. Rothrock, TheHuguenots: A Biography of a Minority(Chicago: Nelson-Hall, 1979), pp.74-75, 94-95, 97-99, chaps. 7-11; Warren C. Scoville, The Persecution ofHuguenots and French Economic Development, 1680-1720(Berkeley andLos Angeles: University of California Press, 1960), pp. 7-21, chaps. 4 and 5;and the various essays in Raymond A. Mentzer and Andrew Spicer, eds., So-ciety and Culture in the Huguenot World, 1559-1685(Cambridge: Cam-bridge University Press, 2002), especially at pp. 1, 10, 213-18, 224-37. Seealso the following Web sites: the National Huguenot Society, huguenot.netnation.com/general/huguenot.htm; and the Huguenot Society of Great Brit-ain and Ireland, www.huguenotsociety.org.uk/history/.
10. See Carlo M. Cipolla, Clocks and Culture, 1300-1700(London: Collins,1967), pp. 65-75; Scoville, The Persecution of Huguenots, pp. 210-52; Ray-mond A. Mentzer and Andrew Spicer, "Epilogue," in Society and Cultureinthe Huguenot World, pp. 224-37. For suggestions that the economic ef-fect of the Revocation on France has been overestimated, see Rothrock, TheHuguenots, pp. 183-86; Scoville, The Persecution of Huguenots, pp.434-47.
11. See Alice C. Carter, "The Huguenot Contribution to the Early Years of theFunded Debt, 1694-1714," and Alice C. Carter, "Financial Activities oftheHuguenots in London and Amsterdam in the Mid-Eighteenth Century,"both in Proceedings of the Huguenot Society of London, 1952-1958, vol.19(Frome, U.K.: Butler and Tanner, 1959), pp. 21-41 and 313-33, especiallypp. 21-29, 37, 40-41, 313-14, 333; Wallerstein, Mercantilism and the Con-solidation of the European World-Economy, pp. 278-80; Wilson, The DutchRepublic, pp. 237-40. See also the BBC's "Immigration and Emigration: TheHuguenots,"
www.bbc.co.uk/legacies/immig_emig/england/london/article_1.shtml.
12. My discussion of the Darien venture and the 1707 Act of Union is basedlargely on Arthur Herman, How the Scots Invented the Modern World: The True

Story of How Western Europe's Poorest Nation Created Our Worldand Everything in It(New York: Three Rivers Press, 2001), pp. 32-37,39-40, 42, 48-49, 53-55; and John Prebble, The Darien Disaster(London: Secker & Warburg, 1968), pp. 11-14, 51-52, 56-60, 90-91, 113-18,184-85, 216, 268-69.

13. Giuseppi, The Bank of England, pp. 1-26; Herman, How the Scots Inventedthe Modern World, pp. 32-37, 39-40, 42, 48-49, 53-55; Prebble, The Darien Disaster, pp. 113-17, 184-85, 216, 314-15.
14. Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 13, 116-18, 130.
15. See Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 39, 119-20, 124-32, 294-95;Herman, How the Scots Invented the Modern World, pp. 38, 54, 59-61,162-65, 344-47, 357-58. On the idea of the "Scottish Empire," see DuncanA. Bruce, The Mark of the Scots(Secaucus, N.J.: Birch Lane Press, 1996), pp.59-60 and chap. 6; and Michael Fry's recent book, The Scottish Empire(Ed-inburgh: Tuckwell Press, 2001).
16. Bruce, The Mark of the Scots, pp. 102-5, 117, 192-94; Colley, Britons: Forg-ing the Nation, pp. 130-32; Herman, How the Scots Invented the ModernWorld, pp. 22-27, 62-65, 165, 291-92, 310, 320-24, 337-78.
17. My discussion of Victoria and the heyday of the British Empire relies heavilyon David Cannadine, The Pleasures of the Past(London: William CollinsSons & Co., 1989), pp. 23, 26; Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 164-66, 240-45; Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000(New York: Vintage Books, 1989), pp. 151-56.
18. Immanuel Wallerstein, The Second Era of Great Expansion of the Capitalist World-Economy, 1730-1840s, vol. 3 of The Modern World-System(San Diego: Academic Press, 1989), pp. 23, 122; Wilson, The Dutch Republic, pp.237-38. The Bank of England quote is from Giuseppi, The Bank of England,p. 1.
19. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, p. 166.
20. Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 155-64. See also, more generally, thefollowing exceptional books by David Cannadine: Aspects of Aristocracy:Grandeur and Decline in Modern Britain (New Haven: Yale University Press,1994); The Decline and Fall of the British Aristocracy(New York: VintageBooks, 1999).
21. Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 354, 358-59.
22. See generally ibid.
23. Ibid., pp. 19-23; Colin Haydon, Anti-Catholicism in Eighteenth-Century England c. 1714-80(Manchester: Manchester University Press, 1993), pp.22, 76. On John Locke and toleration, see Grell and Porter, Toleration in Enlightenment Europe, pp. 5-8.
24. See Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 19, 22-25, 35-36, 321-24. Fortwo

excellent discussions of the Gordon Riots, see Haydon, Anti-Catholicismin Eighteenth-Century England, pp. 204-44 (the quote from the eyewitnessis on p. 214); and Nicholas Rogers, "Crowd and People in the Gordon Ri-ots," in Eckhart Hellmuth, ed., The Transformation of Political Culture:England and Germany in the Late Eighteenth Century(Oxford: Oxford Uni-versity Press, 1990), pp. 39-55.

25. Colley, Britons: Forging the Nation, pp. 35-36, 322-34; Ferguson, Empire:How Britain Made the Modern World, pp. 62-64, 323-25; James Lydon,The Making of Ireland(London: Routledge, 1998), pp. 217, 290-91, 301-2,336-42, 353-55.
26. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 29-31, 42-48,50, 56, 180; T. A. Heathcote, The Military in British India(Manchester:Manchester University Press, 1995), pp. 21-36, 39-67, 70; Lawrence James,Raj: The Making and Unmaking of British India(London: Little, Brown andCompany, 1997), pp. 5-6, 9-10, 22-24, 42-43, 63, 71, 77, 79; StanleyWolpert, A New History of India, 7th ed. (New York: Oxford UniversityPress, 2004), chaps. 12-14; David Omissi, The Sepoy and the Raj: The In-dian Army, 1860-1940(London: Macmillan Press, 1994), pp. 1-7, 52, 62,94-95; Heather Streets, "The Rebellion of 1857: Origins, Consequences, andThemes," Teaching South Asia, vol. 1, no. 1 (Winter 2000). For India popu-lation figures, see Wolpert, p. 231.
27. On India's military heritage, see Heathcote, The Military in British India,chap. 1. As to British strategic tolerance and the religious and ethnic diver-sity of the Indian army under the Raj, see Ferguson, Empire: How BritainMade the Modern World, pp. 136-38, 146, 173-74, 184-89; James, Raj:The Making and Unmaking of British India, pp. 178, 223, 227; Douglas M.Peers, Between Mars and Mammon: Colonial Armies and the Garrison Statein Early Nineteenth Century India(London: I. B. Tauris, 1995), pp. 84-89,93, 255, 258.
28. C. A. Bayly, Indian Society and the Making of the British Empire, vol. 2, sec.1, The New Cambridge History of India(Cambridge: Cambridge UniversityPress, 1988), pp. 4-10, 43, 56-58, 61, 63, 68; Ferguson, Empire: How Brit-ain Made the Modern World, pp. 29-31, 42-44, 188-89.
29. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 45-47,137-38, 144-45; James, Raj: The Making and Unmaking of British India,pp. 207, 224-28. On the "fishing fleet" and the role of British women in In-dia generally, see Pat Barr, The Memsahibs: The Women of Victorian En-gland(London: Secker & Warburg, 1976); Pran Neville, "Memsahibsandthe Indian Marriage Bazaar," The Tribune(India), Jan. 19, 2003.
30. My discussion of the Indian Mutiny draws significantly on Ferguson, Em-pire: How Britain Made the Modern World, pp. 146-54; James, Raj:

TheMaking and Unmaking of British India, pp. 233-40, 251-52, 262, 286;Wolpert, A New History of India, pp. 226-37.

31. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 191-203, 209,213; Thomas R. Metcalf, Ideologies of the Raj, vol. 3, sec. 4, The New Cam-bridge History of India(Cambridge: Cambridge University Press, 1994), pp.8-9, 31, 39-40, 45, 48, 59-64, 114-22, 153-54, 199-200, 211.
32. See Omissi, The Sepoy and the Raj, pp. 87-90, 93-102.
33. John R. McClane, Indian Nationalism and the Early Congress(Princeton:Princeton University Press, 1977), p. 4. Naoroji's famous essay "The Benefitsof British Rule in India" is reprinted in Dadabhai Naoroji, Essays, Speeches,Addresses and Writings(Bombay: Caxton Printing Works, 1887), pp.131-36.
34. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 196-203;James, Raj: The Making and Unmaking of British India, pp. 349-51; MariaMisra, Business, Race, and Politics in British India c. 1850-1960(Oxford:Clarendon Press, 1999), pp. 41-42; Sumit Sarkar, Modern India, 1885-1947(New York: St. Martin's Press, 1989), p. 22; Wolpert, A New History of In-dia, pp. 242-43, 253-54.
35. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 204-15,302-4; James, Raj: The Making and Unmaking of British India, pp. 343,352, 359-63, 439-40, 456-58; Wolpert, A New History of India, pp.248-51, 255, 265-66, 270-73, 289-91.
36. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 326-28;James, Raj: The Making and Unmaking of British India, pp. 459-63,471-73; Misra, Business, Race, and Politics in British India, pp. 86, 123-24,145-47; Wolpert, A New History of India, pp. 297-302.
37. On the increasingly inclusive policies of the government of India, see Misra,Business, Race, and Politics in British India, pp. 55, 123-24, 142-47, 163,168-69, and on the contrasting intolerance of the Anglo-Indian businesscommunity, see pp. 5, 7-11, 123-29, 210-14.
38. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 112-13, 348;Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers, pp. 367-68, 423-24.
39. Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World, pp. 354-55.

القسم الثالث: مستقبل السيطرة على العالم
الفصل التاسع: القوة الأمريكية المطلقة: التسامح والرقاقة المجهرية

Epigraphs: Jefferson's quote can be found in Thomas Jefferson, Notes on theState of Virginia, William Peden, ed. (Chapel Hill: University of North Car-olina Press, 1954), p. 159. The quote about the ENIAC computer is fromPopular Mechanics, Mar. 1949, p. 258.

1. See Niall Ferguson, Colossus: The Price of America's Empire(New York:Penguin, 2004), p. 15.

2. Israel Zangwill, “The Melting Pot: Drama in Four Acts” (1908), in From theGhetto to the Melting Pot: Israel Zangwill’s Jewish Plays, Edna Nahshon, ed.(Detroit, Mich.: Wayne State University Press, 2006), p. 288.
3. On the approach to religion taken by the “planting fathers,” see Frank Lam-bert, The Founding Fathers and the Place of Religion in America(Princeton: Princeton University Press, 2003), chaps. 1-3, especially pp. 75-77, 101,111-13, 121, 129; the quotes in the text are from pp. 69, 76, 96. See alsoSydney E. Ahlstrom’s classic, A Religious History of the American People,2nd ed. (New Haven: Yale University Press, 2004), pp. 198-99, chaps. 9-11.On the Salem witch trials, see Paul Boyer and Stephen Nissenbaum, SalemPossessed(Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1974), and PeterCharles Hoffer, The Salem Witchcraft Trials: A Legal History(Lawrence:University Press of Kansas, 1997).
4. My discussion of the Great Awakening relies heavily on Lambert, TheFounding Fathers and the Place of Religion in America, pp. 128-29, 136-40,143, 145, 151, 153-58. The quote from Chancellor Hardwicke can be foundon p. 133. See also W. R. Ward, The Protestant Evangelical Awakening(Cambridge: Cambridge University Press, 1992).
5. Jefferson, Notes on the State of Virginia, p. 160.
6. Adam Smith’s quote can be found in Lambert, The Founding Fathers and thePlace of Religion in America, p. 9; John Adams’s quote is on p. 219. See alsopp. 8-10, 160-62, 178-79, 205-7, 236, 238.
7. Ibid., pp. 239-40, 257-58, 260-61, 265-66.
8. On the large number of slaves from West Africa who originally practiced Is-lam, see Michael A. Gomez, “Muslims in Early America,” The Journal ofSouthern History, vol. 60, no. 4 (Nov. 1994), pp. 671, 685-86, 694; see gen-erally Michael A. Koszegi and J. Gordon Melton, eds., Islam in North Amer-ica: A Sourcebook(New York: Garland Publishing, 1992).
9. On Franklin’s transformation, see the erudite and very readable book byDoron S. Ben-Atar, Trade Secrets: Intellectual Piracy and the Origins ofAmerican Industrial Power(New Haven: Yale University Press, 2004), pp.58-61, 229-30n.24. Two excellent recent biographies are Walter Isaacson,Benjamin Franklin: An American Life(New York: Simon & Schuster, 2003),and Edmund S. Morgan, Benjamin Franklin(New Haven: Yale UniversityPress, 2002).
10. This section draws heavily on Ben-Atar, Trade Secrets, especially pp. 10, 12,29-32, 52-53, 104-6, 115-18, 146. Jefferson is quoted on p. 37.
11. Ibid., pp. 159-66, 186, 197-98, 201-4.
12. Ibid., pp. xxi, 52-53, 152-53; Charles R. Geisst, The Last Partnerships: In-side the Great Wall Street Money Dynasties(New York: McGraw-Hill,2001), pp. 283-85; John Steele Gordon, An Empire of Wealth: The Epic His-tory of American Economic Power(New York: Harper Perennial, 2004),

pp.242-49; Cecyle S. Neidle, The New Americans(New York: Twayne Publish-ers, 1967), p. 62; Barry E. Supple, "A Business Elite: German-Jewish Fi-nanciers in Nineteenth-Century New York," Business History Review, vol.31 (Summer 1957), pp. 143-50.

13. See Sean P. Carney, "Irish Race in America," and Curtis B. Solberg, "TheScandinavians: Blueprint for Americanization," in Joseph M. Collier, ed.,American Ethnics and Minorities(Los Alamitos, Calif.: Hwong PublishingCo., 1978), pp. 143, 219. Lincoln's quote can be found in Bill Ong Hing,Defining America Through Immigration Policy(Philadelphia: Temple Uni-versity Press, 2004), p. 21.

14. See Kristofer Allerfeldt, Beyond the Huddled Masses: American Immigrationand The Treaty of Versailles(London: I. B. Tauris & Co., 2006), pp. 16-17;Roger Daniels and Otis L. Graham, Debating American Immigration, 1882-Present(Lanham, Md.: Rowman & Littlefield Publishers, 2001), p. 93; Car-ney, "Irish Race in America," and Bernard Eisenberg, "The German Ameri-cans," in American Ethnics and Minorities, pp. 183, 219; Lance E. Davis etal., American Economic Growth: An Economist's History of the UnitedStates(New York: Harper & Row, 1972), pp. 126, 173; Gordon, An Empireof Wealth, p. 243; Hing, Defining America Through Immigration Policy, pp.25, 52; Stephan Thernstrom, ed., Harvard Encyclopedia of American EthnicGroups(Cambridge, Mass.: Belknap Press, 1980), pp. 481-85; Gary M.Walton and Hugh Rockoff, History of the American Economy, 6th ed. (SanDiego: Harcourt Brace Jovanovich, 1990), pp. 373-75; Gavin Wright, "TheOrigins of American Industrial Success, 1879-1940," The American Eco-nomic Review, vol. 80, no. 4 (Sept. 1990), pp. 651, 662. On the UnitedStates' territorial expansion and military successes against Mexico andFrance, see Robert Kagan, Dangerous Nation: America's Place in the Worldfrom Its Earliest Days to the Dawn of the Twentieth Century(New York: Al-fred A. Knopf, 2006), pp. 181, 224-26, 234, 301-4.

15. Roger Daniels, Not Like Us: Immigrants and Minorities in America, 1890-1924(Chicago: Ivan R. Dee, Inc., 1997), p. ix; Daniels and Graham, Debat-ing American Immigration, pp. 12-18; Eric Foner, Free Soil, Free Labor, FreeMen(Oxford: Oxford University Press, 1995), pp. 241-60; Neidle, The NewAmericans, p. 26. The population estimates are from Ahlstrom, A ReligiousHistory of the American People, pp. 564-65; and Kristofer Allerfeldt, Race,Radicalism, Religion, and Restriction: Immigration in the Pacific Northwest,1890-1924(Westport, Conn.: Praeger, 2003), pp. 33-34.

16. There is a large literature on the subject of party bosses and urban politics.My discussion draws principally on Daniel Patrick Moynihan, "The Irish of New York," in Laurence H. Fuchs, ed., American Ethnic Politics(New York:Harper & Row, 1968), pp. 77-83; Tyler Anbinder, "'Boss' Tweed: Nativist,"Journal of the Early Republic, vol. 15, no. 1 (Spring 1995), pp.

109-16;Elmer E. Cornwall, Jr., “Bosses, Machines, and Ethnic Groups,” Annals ofthe American Academy of Political and Social Science, vol. 353 (May 1964),pp. 27-39; Humbert S. Nelli, “John Powers and the Italians: Politics in aChicago Ward: 1896-1921,” The Journal of American History, vol. 57, no.1 (June 1970), pp. 67-84. See also Adam Cohen and Elizabeth Taylor, Amer-ican Pharaoh: Mayor Richard J. Daley: His Battle for Chicago and the Na-tion(Boston: Little, Brown, and Co., 2000).

17. See Kristofer Allerfeldt, Race, Radicalism, Religion, and Restriction, pp.33-34. On America's “homegrown” religions, see Ahlstrom, A ReligiousHistory of the American People, pp. 387, 501-9, 805-24, 1020-26. For ageneral history of America's indigenous peoples, see Dee Brown, Bury MyHeart at Wounded Knee: An Indian History of the American West(NewYork: Holt, Rinehart, and Winston, 1970); Edward Lazarus, Black Hills,White Justice: The Sioux Nation Versus the United States, 1775 to thePresent(New York: HarperCollins, 1991).
18. Max Boot, The Savage Wars of Peace: Small Wars and the Rise of AmericanPower(New York: Basic Books, 2002), pp. 39, 62, 129; Kagan, DangerousNation, pp. 302-4; Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers:Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000(New York: Vin-tage Books, 1989), p. 248.
19. See Gordon, An Empire of Wealth, pp. 294, 310-11; William Pfaff, “Mani-fest Destiny: A New Direction for America,” New York Review of Books,Feb. 15, 2007, pp. 54-55.
20. Allerfeldt, Beyond the Huddled Masses, pp. 17, 21, 23, 109; Daniels andGraham, Debating American Immigration, pp. 12-18, 23-25, 27-28, 77,129.
21. Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers, pp. 178-80, 198-202,242-43, 277, 357-60.
22. See Ronald W. Clark, The Birth of the Bomb(New York: Horizon Press,1961), pp. 1-3, 8-13; Martin J. Sherwin, A World Destroyed:The AtomicBomb and the Grand Alliance(New York: Alfred A. Knopf, 1975), pp.49-50; C. P. Snow, The Physicists(Boston: Little, Brown & Co., 1981), pp.79-80.
23. On the Soviet Union's deeply contradictory “nationalities” policy, see ValeryTishkov, Ethnicity, Nationalism and Conflict In and After the Soviet Union:The Mind Aflame(London: Sage Publications, 1997), pp. 27, 29-31;Francine Hirsch, “The Soviet Union as a Work-in-Progress: Ethnographersand the Category Nationalityin the 1926, 1937, and 1939 Censuses,” SlavicReview, vol. 56, no. 2 (1997), pp. 256, 264, 276; Yuri Slezkine, “The USSRas a Communal Apartment, or How a Socialist State Promoted Ethnic Par-ticularism,” Slavic Review, vol. 53, no. 2 (1994), pp. 416-21.
24. On Soviet attacks on American racism and the U.S. response, see Mary L.Dudziak, Cold War Civil Rights: Race and the Image of American Democ-racy(Princeton: Princeton University Press, 2000), pp. 29-41.

25. bid., pp. 179-80.
26. Geoffrey Kabaservice, The Guardians: Kingman Brewster, His Circle, andthe Rise of the Liberal Establishment (New York: Henry Holt & Co., 2004),pp. 65, 156, 174, 176, 259-60, 264, 267; Jerome Karabel, The Chosen: TheHidden Story of Admission and Exclusion at Harvard, Yale, and Princeton(Boston: Houghton Mifflin Co., 2005), pp. 364-67, 379, 392; Dan A. Oren,Joining the Club: A History of Jews at Yale(New Haven: Yale UniversityPress, 1983), pp. 183-84, 272. On college graduation rates, see Nicole S.Stoops, A Half-Century of Learning: Historical Census Statistics on Educa-tional Attainment in the United States, 1940 to 2000(Washington, D.C.:U.S. Census Bureau, Population Division, Education and Social StratificationBranch, 2006), p. 9, table 12a.
27. Samuel P. Huntington, Who Are We? The Challenges to America's NationalIdentity(New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 196, 223-25.
28. Max Boot, War Made New: Technology, Warfare, and the Course of History:1500 to Today(New York: Gotham Books, 2006), pp. 318-22, 329. Thequote is from Gen. Michael Dugan, cited on p. 321.
29. My discussion of American economic dominance draws on Ferguson, Colos-sus: The Price of America's Empire, pp. 18-19; Gordon, An Empire ofWealth, pp. 416-18. George Soros's quote can be found in Joseph Kahn,"Losing Faith: Globalization Proves Disappointing," New York Times, Mar.21, 2002, p.A8.
30. My discussion of Eugene Kleiner draws on Rhonda Abrams, "RememberingEugene Kleiner," USA Today, Nov. 26, 2003; "Eugene Kleiner: Obituary,"The Economist, Dec. 6, 2003; and personal exchanges with Eugene Kleiner'ssister-in-law, Dr. Sylvia Smoller. On Andrew Grove, see Tim Jackson, Inside Intel: Andy Grove and the Rise of the World's Most Powerful Chip Company(New York: Dutton, 1997), pp. 18-35, 69-76; Walter Isaacson, "The Micro-chip is the Dynamo of a New Economy...Driven by the Passion of Intel'sAndrew Grove," Time, Dec. 29, 1997/ Jan. 5, 1998, pp. 46-51.
31. Gordon, An Empire of Wealth, p. 418; Vivek Wadhwa, Anna Lee Saxenian, Ben Rissing, and Gary Gereffi, "America's New Immigrant Entrepreneurs"(Masters of Engineering Management Program, Duke University, and School of Information, U.C. Berkeley, Jan. 4, 2007), pp. 4-5.
32. Boot, War Made New, pp. 421-26.

الفصل العاشر: صعود دول المحور وسقوطها:
ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية

1. Klaus P. Fischer, Nazi Germany: A New History (New York: Continuum, 1995), p. 459; William L. Shirer, The Rise and Fall of the Third Reich: A His-tory of Nazi Germany(New York: Simon & Schuster, 1990), pp. 741-46;Anne O'Hare McCormick, "Europe: Hitler at Compiegne Opens Third Actof War," New York Times, June 22, 1940, p. 14.
2. Fischer, Nazi Germany, pp. 419, 431-34, 452-54; Shirer, The Rise and Fallof the Third Reich, pp. 5, 625, 742.
3. Theodore Abel, Why Hitler Came into Power(Cambridge, Mass.: HarvardUniversity Press, 1938), pp. 30-32; Fischer, Nazi Germany, pp. 42-43, 62,64-65; Gordon A. Craig, Germany, 1866-1945(Oxford, U.K.: Oxford Uni-versity Press, 1980), pp. 424-27; Hans Mommsen, The Rise and Fall ofWeimar Germany(Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998),pp. 76, 87, 94, 118; Michael Stürmer, The German Empire(London: Wei-denfeld & Nicolson), pp. 102-4.
4. Craig, Germany, 1866-1945, pp. 450-55, 543, 550-51, 585, 637; Daniel Jonah Goldhagen, Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and theHolocaust(New York: Alfred A. Knopf, 1996), pp. 86-87; Mommsen, TheRise and Fall of Weimar Germany, pp. 158-60, 345-46, 354-55; RoderickStackelberg and Sally A. Winkle, eds., The Nazi Germany Source book (Lon-don: Routledge, 2002), p. 129.
5. Craig, Germany, 1866-1945, pp. 550, 633-34; Stackelberg and Winkle, TheNazi Germany Sourcebook, p. 92.
6. Craig, Germany, 1866-1945, pp. 635-36; Shirer, The Rise and Fall of theThird Reich, pp. 943-47, 973-74.
7. See Lucy S. Dawidowicz, The War Against the Jews, 1933-1945(New York:Free Press, 1975), pp. 140-43; Miklos Nyiszli, Auschwitz: A Doctor's Eye-witness Account(New York: Arcade Publishing, 1993), pp. 37, 40; MichaelThad Allen, "The Devil in the Details: The Gas Chambers of Birkenau, Oc-tober 1941," Holocaust and Genocide Studies, vol. 16 (Fall 2002), p. 208.On the vast bureaucracy devoted to the identification, classification, and ul-timately extermination of "inferior" peoples, see generally Götz Aly and KarlHeinz Roth, The Nazi Census: Identification and Control in the Third Reich(Philadelphia: Temple University Press, 2004).
8. George L. Mosse, Nazi Culture: Intellectual, Cultural and Social Life in theThird Reich(New York: Grosset & Dunlap, 1968), pp. 198-200; Fischer,Nazi Germany, pp. 541-45.
9. Dawidowicz, The War Against the Jews, 1933-1945, p. 142; Shirer, The Riseand Fall of the Third Reich, pp. 939-40; "Timeline: Ukraine," BBC News,available at news.bbc.co.uk/2/hi/europe/1107869.stm.
10. Shirer, The Rise and Fall of the Third Reich, pp. 937-39; Stackelberg andWinkle, The Nazi Germany Sourcebook,pp.xxvi,46,214-15;GerhardL.Weinberg,TheForeignPolicyofHitler'sGermany:Diplomatic

Revolution inEurope, 1933-36(Chicago: University of Chicago Press, 1970), pp. 6-7,12-13.

11. Dawidowicz, The War Against the Jews, 1933-1945, p. 142; Shirer, The Riseand Fall of the Third Reich, p. 937; Stackelberg and Winkle, The Nazi Ger-many Sourcebook, pp. 294-95; Weinberg, The Foreign Policy of Hitler'sGermany, pp. 6, 13.
12. Fischer, Nazi Germany, p. 446; Shirer, The Rise and Fall of the Third Reich,pp. 718-20, 738-46. On the Nazis' fueling resistance in France, see SarahFarmer, Martyred Village: Commemorating the 1944 Massacre at Oradour-sur-Glane(Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1999),pp. 13-35, 39-41, 60-61; Oliver Wieviorka, "France," in Bob Moore, ed.,Resistance in Western Europe(Oxford, U.K.: Berg, 2000), pp. 125-28,132-34, 145.
13. John W. Dower, War Without Mercy: Race and Power in the Pacific War(New York: Pantheon Books, 1986), pp. 7-9, 272-81; Ramon H. Myers andMark R. Peattie, eds., The Japanese Colonial Empire, 1895-1945(Princeton:Princeton University Press, 1984), pp. 124-25.
14. See Dower, War Without Mercy, pp. 203-5, 217.
15. Ibid., pp. 208-10.
16. Mark R. Peattie, Nan'Yo): The Rise and Fall of the Japanese in Micronesia,1885-1945(Honolulu: University of Hawaii Press, 1988), pp. 113-14, 116.
17. Peter Duus, The Abacus and the Sword: The Japanese Penetration of Korea,1895-1910(Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1995),pp. 397-98 (quoting Arakawa Goro).
18. Duus, The Abacus and the Sword, pp. 402-7.
19. Dower, War Without Mercy, pp. 211-17.
20. Ibid., pp. 25, 36, 278-79; Mikiso Hane, Japan(New York: Charles Scribner'sSons, 1972), p. 453.
21. Dower, War Without Mercy, pp. 277-78; Naitou Hisako, "Korean ForcedLabor in Japan's Wartime Empire," in Paul H. Kratoska, ed., Asian Labor inthe Wartime Japanese Empire(Armonk, N.Y.: M. E. Sharpe, 2005), pp. 90,95; Andrew C. Nahm, Korea: Tradition and Transformation(Elizabeth, N.J.:Hollym International Corporation, 1988), pp. 239, 250, 255-56.
22. Dower, War Without Mercy, pp. 6-7, 46; Ken'ichi Goto, Tensions of Empire,Paul Kratoska, ed. (Athens, Ohio: Ohio University Press, 2003), pp. 9, 44,78; Gregory Clancey, "The Japanese Imperium and South-East Asia," in PaulH. Kratoska, ed., Southeast Asian Minorities in the Wartime Japanese Em-pire(London: Routledge Curzon, 2002), pp. 7, 10; R. Murray Thomas, "Ed-ucational Remnants of Military Occupation," in Wolf Mendl, ed., Japan andSoutheast Asia(London: Routledge, 2001), pp. 372-78.
23. Dower, War Without Mercy, pp. 43-48, 296; Asian Labor in the WartimeJapanese Empire, pp. 129-46, 197. On the Japanese occupation

of Singa-pore, see C. M. Turnbull, A History of Singapore, 1819-1988, 2nd ed. (Sin-gapore: Oxford University Press, 1989), pp. 183-201; Shimizu Hiroshi andHirakawa Hiroshi, Japan and Singapore in the World Economy(London:Routledge, 1999), pp. 7-11, 52-53, 71, 113-30; Yoji Akashi, "Japanese Pol-icy Towards the Malayan Chinese 1941-1945," Journal of Southeast AsianStudies, vol. 1, no. 2 (Sept. 1970), pp. 66-89.

24. See, e.g., Anton Lucas, "Local Opposition and Underground Resistance tothe Japanese in Java, 1942-1945," Pacific Affairs, vol. 60, no. 3 (Autumn1987), pp. 542-43.
25. Joseph W. Ballantine, Formosa (Washington, D.C.: Brookings Institution, 1952), pp. 25, 33, 36-37; Myers and Peattie, The Japanese Colonial Empire,pp. 30-41, 279-89.
26. Gary Marvin Davison, A Short History of Taiwan: The Case for Indepen-dence(Westport, Conn.: Praeger Publishers, 2003), pp. 52, 54, 61-65, 67,70; Denny Roy, Taiwan: A Political History(Ithaca, N.Y.: Cornell UniversityPress, 2003), pp. 32-45.

الفصل الحادي عشر: المُتَحَدّون:
الصين والاتحاد الأوروبي والهند في القرن الحادي والعشرين

Epigraphs: The Shanghainese optimist is quoted in Clyde Prestowitz, ThreeBillion New Capitalists: The Great Shift of Wealth and Power to the East(New York: Basic Books, 2005), p. 225. The Leonard quote is from MarkLeonard, Why Europe Will Run the 21st Century(London: Fourth Estate,2005), pp. 3-4.

1. See, for example, "U.S. Image Up Slightly, But Still Negative," Pew GlobalAttitudes Project, released June 23, 2005, available at pewglobal.org/reports/display.php?ReportID=247; "U.S. Draws Negative Ratings in Poll," Associ-ated Press, Mar. 5, 2007, available at news.yahoo.com.
2. Michael Elliott, "The Chinese Century," Time, Jan. 22, 2007, pp. 33-42.
3. Ted C. Fishman, China, Inc.: How the Rise of the Next Superpower Chal-lenges America and the World(New York: Scribner, 2005), pp. 1-2;Prestowitz, Three Billion New Capitalists, pp. 19, 26, 61; Oded Shenkar, TheChinese Century: The Rising Chinese Economy and Its Impact on the GlobalEconomy, the Balance of Power, and Your Job(Upper Saddle River, N.J.:Wharton School Publishing, 2005), pp. 3, 20, 59, 114; Dominic Wilson andRoopa Purushothaman, "Dreaming with BRICs: The Path to 2050," GlobalEconomics Paper No. 99 (Goldman Sachs Group, Oct. 1, 2003), p. 6; LesterR. Brown, "China Replacing the United States as World's Leading Con-sumer," Earth Policy Institute Eco-Economy Update, Feb. 16, 2005, availableat www.earth-policy.org/Updates/Update45.htm.
4. Elliott, "The Chinese Century," pp. 33-34, 37-38, 42; Stephen M. Walt,"Taming American Power," Foreign Affairs, vol. 84, no. 5 (Sept./Oct. 2005),p. 25.

5. There is a large and fascinating literature on the factors contributing toChina's remarkable history of unity. For some contrasting views, see, for ex-ample, Michael Ng-Quinn, "National Identity in Premodern China: Forma-tion and Role Enactment," James Watson, "Rites or Beliefs? TheConstruction of a Unified Culture in Late Imperial China," and the otherexcellent essays in Lowell Dittmer and Samuel S. Kim, eds., China's Quest for National Identity(Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1993), pp.32-61, 80-103.
6. Lynn White and Li Cheng, "China Coast Identities: Regional, National, andGlobal," in China's Quest for National Identity, pp. 154, 163-70; EdwardFriedman, "Reconstructing China's National Identity: A Southern Alterna-tive to Mao-Era Anti-Imperialist Nationalism," Journal of Asian Studies, vol.53 (Feb. 1994), pp. 67, 68, 80-85.
7. See David Yen-ho Wu, "The Construction of Chinese and Non-Chinese Iden-tities," in Tu Wei-Ming, ed., The Living Tree: The Changing Meaning of Be-ing Chinese Today(Palo Alto: Stanford University Press, 1994), pp. 148,155-60; Dru C. Gladney, ed., Making Majorities: Constituting the Nation inJapan, Korea, China, Malaysia, Fiji, Turkey, and the United States(Palo Alto:Stanford University Press, 1998), pp. 115-18; Friedman, "ReconstructingChina's National Identity," pp. 85-87.
8. My own book on Chinese and other "market-dominant minorities" is AmyChua, World on Fire: How Exporting Free Market Democracy Breeds Eth-nic Hatred and Global Instability(New York: Doubleday, 2003). The Chi-nese in Southeast Asia are discussed in chapter 1.
9. Asia Society, "Education in China: Lessons for U.S. Educators" (Sept. 2005),p. 6, available at www.internationaled.org; Bruce Einhorn, "No Peasant LeftBehind," Business Week, Aug. 22, 2005, p. 102. Andrew Yeh, "China's Re-gional Schools Struggle to Make the Grade," Financial Times(Asia edition),Apr. 26, 2006, p. 2; "The Great Divide," The Economist, Mar. 5, 2005, p.6.
10. Shenkar, The Chinese Century, pp. 72-73.
11. Ibid., p. 75; Rebecca Pollard Pierik, "Learning in China—Free MarketStyle," Harvard Graduate School of Education News, Oct. 1, 2003.
12. See, e.g., Jun Wang, "The Return of the 'Sea Turtles': Reverse Brain Drain toChina," New America Media (Sept. 26, 2005), available at www.chinadaily.com.cn/english/doc/2005-09/27/content_481163.htm.
13. "Expats See Salaries Increase by 4%," China Daily, Dec. 8, 2005; "Western-ers in Shanghai Who Are a Little Wistful for the Old Days in China WhenInvestment and Growth Were Just Starting to Explode in the Country," Min-nesota Public Radio broadcast, Jan. 19, 2006.
14. See "Expats See Salaries Increase by 4%."
15. Yen Ching Hwang, The Overseas Chinese and the 1911 Revolution,

withSpecial Reference to Singapore and Malaya(New York and Kuala Lumpur:Oxford University Press, 1976), p. 149; Prasenjit Duara, “NationalistsAmong Transnationals: Overseas Chinese and the Idea of China, 1900-1911,” in Aihwa Ong and Donald Nonini, eds., Ungrounded Empires: TheCultural Politics of Modern Chinese Transnationalism(New York: Rout-ledge, 1997), pp. 53-54.

16. Lucian W. Pye, “Erratic State, Frustrated Society,” Foreign Affairs, vol. 69,no. 4 (Fall 1990), p.58; Lucian W. Pye, “China: Ethnic Minorities and Na-tional Security,” in Nathan Glazer and Daniel P. Moynihan, eds., Ethnicity:Theory and Experience(Cambridge: Harvard University Press, 1975), p. 500.
17. Wu, “The Construction of Chinese and Non-Chinese Identities,” pp.148-60; Frank Vogl and James Sinclair, Boom: Visions and Insights for Cre-ating Wealth in the 21st Century(Chicago: Irwin Professional Publishing,1996), p. 28.
18. Paul J. Bolt, “Looking to the Diaspora: The Overseas Chinese and China'sEconomic Development, 1978-1994,” Diaspora, vol. 5, no. 3 (1996), pp.467-80; Murray Weidenbaum, “The Chinese Family Business Enterprise,”California Management Review, vol. 38, no. 4 (Summer 1996), p. 141.
19. Bolt, “Looking to the Diaspora,” pp. 475-76; Nicholas R. Lardy, “The Roleof Foreign Trade and Investment in China's Economic Transformation,”China Quarterly, no. 144 (Dec. 1995), pp. 1,065, 1,067. On Shing-TungYau, see Sylvia Nasar and David Gruber, “Annals of Mathematics: ManifoldDestiny,” The New Yorker, Aug. 28, 2006, pp. 44-57.
20. Kathryn Kranhold, “China's Price for Market Entry: Give Us Your Technol-ogy, Too,” Wall Street Journal Online, Feb. 26, 2004.
21. Ibid.
22. Timothy Garton Ash, Free World: America, Europe, and the Surprising Fu-ture of the West(New York:Random House), p. 52; Denis Staunton, “TheLights Go Up All Over a New Europe,” Irish Times, May 1, 2004, p. 10;“EU Celebrates Historic Moment,” BBC News, May 1, 2004, available atnews.bbc.co.uk/1/hi/world/europe/3672813.stm.
23. Desmond Dinan, Europe Recast: A History of the European Union(Boulder,Colo.: Lynne Rienner Publishers, 2004), p. 1; John McCormick, Understand-ing the European Union: A Concise Introduction, 3rd ed. (New York: St.Martin's Press, 1999), pp. 35-38.
24. Michael J. Baun, An Imperfect Union: The Maastricht Treaty and the NewPolitics of European Integration(Boulder, Colo.: Westview Press, 1996), pp.11-15.
25. Mark Leonard, Why Europe Will Run the 21st Century, pp. 13-15; JulianBrookes, Interview with Mark Leonard, Oct. 18, 2005, available at
www.motherjones.com/news/qa/2005/10/mark_leonard.html.

26. T. R. Reid, The United States of Europe: The New Superpower and the Endof American Supremacy(New York: Penguin Books, 2005), pp. 20, 145-51.
27. Ash, Free World: America, Europe, and the Surprising Future of the West, p.47 (quoting and paraphrasing Jürgen Habermas and Jacques Derrida).
28. Adrian Favell and Randall Hansen, "Markets Against Politics: Migration,EU Englargement and the Idea of Europe," Journal of Ethnic and MigrationStudies, vol. 28, no. 4 (Oct. 2002), pp. 582, 591-92.
29. "Immigration to the United States: Brains and Borders," The Economist,May 6, 2006, p. 53; Brian Knowlton, "EU and U.S. Face Reality of Immigra-tion; Tides of People Spark a Trading of Ideas," International Herald Tri-bune, June 30, 2006, p. 2.
30. Carter Dougherty, "Labor Shortage Becoming Acute in Technology," NewYork Times, Mar. 10, 2007, pp. C1, C7; Fareed Zakaria, "To Become anAmerican," Washington Post, Apr. 4, 2006, p. A23.
31. Jane Kramer, "Taking the Veil: How France's Public Schools Became the Bat-tleground in a Culture War," The New Yorker, Nov. 22, 2004, p. 60; Robert S.Leiken, "Europe's Angry Muslims," Foreign Affairs, vol. 84, no. 4 (July/Aug.2005); Lorenzo Vidino, "Dutch Get Tougher on Terror," Washington Times,Mar. 15, 2006, p. A17.
32. Ash, Free World: America, Europe, and the Surprising Future of the West, p.53; Jens Rydgren, "Explaining the Emergence of Radical Right-Wing Pop-ulist Parties: The Case of Denmark," West European Politics, vol. 27, no. 3 (May 2004), pp. 474, 485; Ambrose Evans-Pritchard, "Atheist Premier At-tacks Lack of Christianity in EU Constitution," Telegraph.co.uk, June 4,2003; John Rossant, "Turkey's EU Bid: Resistance Is on the Line," BusinessWeek, Feb. 9, 2004, p. 57.
33. Lindsey Rubin, "Love's Refugees: The Effects of Stringent Danish Immigra-tion Policies on Danes and Their Non-Danish Spouses," Connecticut Journalof International Law, vol. 20 (Summer 2005), pp. 320, 324, 327-28; "Den-mark Shifts to Right in Election Centering on Immigration," New YorkTimes, Nov. 21, 2001, p. A6; "The Danish Peoples Party: History," at www.danskfolkeparti.dk/sw/frontend/show.asp?parent=3293.
34. See, for example, lan Buruma, "Letter from Amsterdam: Final Cut," TheNew Yorker, Jan. 3, 2005, p. 26; Jane Kramer, "Comment: Difference," TheNew Yorker, Nov. 21, 2005, pp. 41-42.
35. American Council on Education, "Issue Brief: Students on the Move: The Fu-ture of International Students in the United States," Oct. 2006, pp. 4-5, 9,available at www.acenet.edu/programs/international. See also the compre-hensive reports and data tables available on the Web site of the Institute of International Education,
www.opendoors.iienetwork.org.
36. Prestowitz, Three Billion New Capitalists, p. 144.
37. Paul McDougall and Aaron Ricadela, "India Calls Its Talent Home,"

Infor-mation Week, Mar. 13, 2006, p. 24; Fareed Zakaria, “India Rising,” News-week, Mar. 6, 2006, p. 32; “The Great Indian Hope Trick,” The Economist,Feb. 23, 2006, pp. 29-31.

38. Judith E. Walsh, A Brief History of India(New York: Facts on File, 2006),pp. 267-68.
39. Rachel Aspden, “The Bangalore Effect,” New Statesman, Jan. 30, 2006, p.26; Pankaj Mishra, “The Myth of the New India,” New York Times, July 6,2006, p. 21; “The Great Indian Hope Trick,” pp. 29-31.
40. Stephen Philip Cohen, India: Emerging Power(Washington, D.C.: BrookingsInstitution, 2001), p. 29; Mishra, “The Myth of the New India,” p. 21.
41. The World Bank, World Development Report 2006: Equity and Develop-ment(Washington, D.C.: The World Bank, 2005), p. 278, table A1; TheWorld Bank, India and the Knowledge Economy: Leveraging Strengths andOpportunities, report no. 31267-IN, Apr. 2005, p. 4; “The Great India HopeTrick,” pp. 29-31.
42. Pankaj Mishra, “A New Sort of Superpower,” New Statesman, Jan. 30,2006, pp. 20, 22; Ziauddin Sardar, “Haunted by the Politics of Hate,” NewStatesman, Jan. 30, 2006, p. 31.
43. Amartya Sen, The Argumentative Indian: Writings on Indian History, Cul-ture, and Identity(New York: Farrar, Straus & Giroux, 2005), pp. 18, 32,47, 274, 303-4.
44. Cohen, India: Emerging Power, p. 120; Walsh, A Brief History of India, pp.276-77, 281; Human Rights Watch, World Report 2003, available at hrw.org/wr2k3/asia6.html.
45. Karol Zemek, “India by Numbers,” New Statesman, Jan. 30, 2006, p. 22.
46. Neha Bhayana, “Bright Young Lights,” New Statesman, Jan. 30, 2006, p.36; Gurcharan Das, “The India Model,” Foreign Affairs, vol. 85, no. 4 (July/Aug. 2006), p. 9; Edward Luce, “One Land, Two Planets,” New Statesman,Jan. 30, 2006, pp. 23-25.
47. See, e.g., Yasheng Huang and Tarun Khanna, “Can India Overtake China?,”Foreign Policy, July/Aug. 2003, p. 74.
48. “Great Indian Hope Trick,” p. 290.

الفصل الثاني عشر: عصر الإمبراطورية:
عبر من التاريخ

Epigraph: The quoted passage is from “Four Quartets: Little Gidding,” in T.S. Eliot, The Complete Poems and Plays, 1909-1950(New York: Har-court, Brace & World, Inc., 1971), p. 145.

1. See Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man(New York:Avon Books, 1992); Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree(New York: Anchor Books, 2000), pp. ix, xvi, 12.

2. See Josef Joffe, Überpower: The Imperial Temptation of America(New York:W.W. Norton, 2006), pp. 38-39, 43-44.
3. Office of the President, “The National Security Strategy of the United Statesof America,” Sept. 2002, available at www.whitehouse.gov/nsc/nss.pdf.
4. See Thomas L. Friedman, “Axis of Appeasement,” New York Times, Mar.18, 2004, p. 33; Christopher Hitchens, “Against Rationalization,” The Na-tion, vol. 273, no. 10 (Oct. 8, 2001), p. 8; Bill Van Auken, “Friedman onIraq: The ‘Thinking’ Behind the New York TimesDebate,” Oct. 25, 2005,available at www.wsws.org/articles/2005/oct2005/frie-o25.shtml.
5. See Niall Ferguson, Colossus: The Price of America’s Empire(New York: Penguin, 2004), pp. 3, 301-2; Deepak Lal, In Praise of Empires: Globalization and Order(New York: Palgrave Macmillan, 2004), p. 215; Irving Kristol, “The Neoconservative Persuasion,” Weekly Standard, Aug. 25,2003, pp. 23-25; Max Boot, “The Case for American Empire,” Weekly Stan-dard, Oct. 15, 2001, p. 27.
6. See, e.g., Kenneth M. Pollack, “Spies, Lies, and Weapons: What WentWrong,” The Atlantic Monthly, Jan./Feb. 2004, pp. 78-92.
7. Jeffrey M. Jones, “Bush Approval Rating Remains Low,” Gallup News Ser-vice, Mar. 6, 2007; “Poll: Iraq Going Badly and Getting Worse,” CBS News,Dec. 11, 2006, available at www.cbsnews.com/stories/2006/12/11/opinion/polls/printable2247797.shtml.
8. Pierre Briant, From Cyrus to Alexander: A History of the Persian Empire, Pe-ter T. Daniels, trans. (Winona Lake, Ind.: Eisenbrauns, 2002), p. 193.
9. Craige B. Champion, Roman Imperialism: Readings and Sources(Malden,Mass.: Blackwell Publishing, 2004), pp. 30-33, 50-51, 164-70; MichaelGrant, The History of Rome(London: Faber and Faber, 1979), p. 237.
10. See C. R. Boxer, The Dutch Seaborne Empire: 1600-1800(New York: Al-fred A. Knopf, 1965), pp. xxv, 188, 190, 194, 198, 220.
11. Immanuel Wallerstein, Mercantilism and the Consolidation of the EuropeanWorld-Economy, 1600-1750, vol. 2 of The Modern World-System(SanDiego: Academic Press, 1980), pp. 45, 63-64.
12. Max Boot, The Savage Wars of Peace: Small Wars and the Rise of AmericanPower(New York: Basic Books, 2002), p. 55.
13. Niall Ferguson, Colossus: The Price of America’s Empire, p. 33.
14. John Steele Gordon, An Empire of Wealth: The Epic History of AmericanEconomic Power(New York: HarperPerennial, 2004), pp. xiv-xv, 341n.4 &368n.12.
15. Niall Ferguson, Empire: How Britain Made the Modern World(London:Allen Lane, 2003), pp. 164, 302, 325, 341; Lawrence James, Raj: The Mak-ing and Unmaking of British India(London: Little, Brown and Company,1997), pp. 352, 439, 456.

16. Briant, From Cyrus to Alexander, p. 868.
17. See Joffe, Überpower: The Imperial Temptation of America, pp. 77-78;Thomas Olmstead, Bay Fang, Eduardo Cue, and Masha Gessen, “A Worldof Resentment,” U.S. News & World Report, Mar. 5, 2001, p. 32.
18. Stephen M. Walt, “Taming American Power,” Foreign Affairs,vol. 84, no. 5(Sept./Oct. 2005), p. 105; Survey Results: “America’s Image Further Erodes,Europeans Want Weaker Ties,” Mar. 18, 2003, available on the Pew Foun-dation Web site.
19. “U.S. Draws Negative Ratings in Poll,” Associated Press, Mar. 5, 2007,available on Yahoo.news.
20. Olmstead, Fang, Cue, and Gessen, “A World of Resentment,” p. 32.
21. Samuel P. Huntington, Who Are We? The Challenges to America’s National Identity (New York: Simon & Schuster, 2004), pp. 20, 69, 75; Transcript of“Lou Dobbs Tonight,” aired Mar. 31, 2006, available at transcripts.cnn.com/TRANSCRIPTS/0603/31/ldt.01.html.
22. Anita Kumar and Vanessa de la Torre, “Work Here, Send Money Home,” St.Petersburg Times, May 10, 2006, p. 1A
23. Kevin Allison, “Visa Curbs Are Damaging Economy, Warns Gates,” Finan-cial Times, Mar. 8, 2007, p. 7; Testimony of Laszlo Bock, Vice President, People Operations, Google, Inc., before the House Judiciary Subcommitteeon Immigration, Citizenship, Refugees, Border Security, and International Law, June 6, 2007, available at 64.233.179.110/blog_resources/Laszlo_Bock_immigration_testimony.pdf.